قصة الكنيسة القبطية

وهى تاريخ الكنيسة
الأرثوذكسية المصرية
التى أسسها
مارمرقس البشير

(الكتاب الثانى)

بقلم
د / إيريس حبيب المصرى

قصة الكنيسة القبطية

من سنة ٤٣٥ – ٩٤٨

الكتاب الثانى

الطبعة السابعة

٢٠٠٠

المتنيحة

ايريس حبيب المصرى



قطعة من النسيج تبين مدى ابتكار الفنان القبطى
وهى تمثل مارمرقس كاروز ديارنا المصرية يقدّم الطعام
لأسد بيساره بينما أمسك بالقلم بيمينه .
وهذه القطعة محفوظة بالمتحف القبطى بمصر القديمة (بابلون)

تقـدير مـودة

١٢ شارع المساحة

الدقى القاهرة

الكاتبة الفاضلة الأستاذة ايريس حبيب المصرى

لكِ أطيب التحيات وبعد فقد تلقيت بيد الشكر كتابك الثمين «قصة الكنيسة القبطية»، وعكفت على قراءته فوجدت فيه دقة المؤرخ النزيه المحيط بدقائق موضوعه ، وأرجو أن يوفقك اللّه فى اتمام كتابة هذه القصة الفريدة بمثل هذا الأسلوب العذب السلس ، ففى ذلك خدمة وطنية جليلة ، إذ أن الكنيسة القبطية ليست إلا جزءً من تاريخنا القومى الذى نعتز به . وأن مصر لتفخر بأنها كانت دائمًا حامية الأديان فلم يعرف شعبها الأصيل معنى التعصب بل عاش جميع سكانها على مر العصور أخوة متحابين فى اللّه والوطن ، فما من دين إلا وهو يدعو إلى الخير والفضيلة ، ومصر لم تنحرف فى يوم من الأيام عن حب الخير وتقديس الفضيلة .

أهنئكِ على هذا المجهود الكبير وأشكر لكِ هديتك

ولكِ أطيب التمنيات ،

دكتور محمد محمود الصياد



الإهداء

إلى أمى

سليمه مينا منقريوس

التى عرفت أن تكون أمًا

فى صمت ووقار .



المترقبة

كانت دائماً تترقبنا فى هدوء مشوقة إلى عودتنا : فتنتظر قرب النافذة شتاءً وعلى مقربة من الباب صيفاً ، منصتة إلى وقع أقدامنا على السلالم . ومع أننا كنا نسخر منها فى رفق ونعاتبها فى شئ من الحنان ، فإن الطريق الطويل للبيت كان يكتنفه الأمان لأنها كانت تترقبنا . ولما كانت لا تستطيع نسياننا فلابد أنها مازالت تترقبنا مشوقةً إلى عودتنا ؛ منتظرة قرب نافذة من السماء متطلعة على مقربة من بابها .



المؤلفة إلى جانب أمها

عند مدخل المدرسة الأولية التابعة لجمعية السيدات القبطية لتربية الطفولة بحى غربال بالاسكندرية فى فبراير سنة ١٩٤٨

الاعتراف بالفضل لذويه

إنها لمتعة نفسية حقة أن يتقدم الانسان بالشكر وعرفان الجميل إلى من آزروه في جهاده إذ يشعر بأنهم شاركوه المشقة فخففوها عليه .

فأتقدم – لهذا – بعظيم امتناني إلى جناب أبينا المكرم القمص متى المسكين لتفضله بمراجعة مخطوطاتي وابداء ملاحظاته البنّاءة عنها رغم بعد المسافات التي تفصل بينه وبين القاهرة ورغم مشقة الطريق .

وأرفع جزيل شكري إلى حضرة المربي الكبير الأستاذ فرنسيس العتر أرشيدياكون كنيسة الرسولين بطرس وبولس لأنه تفضل فأعارني كتبه النادرة التي ما كان يمكنني الحصول عليها لولا تقديمه إياها ، وهذه خدمة لن أنساها ما حييت .

وإلى الأستاذ فرج روفائيل لأنه تفضل وأعطاني غالبية الصوّر التي تزين هذا الكتاب .

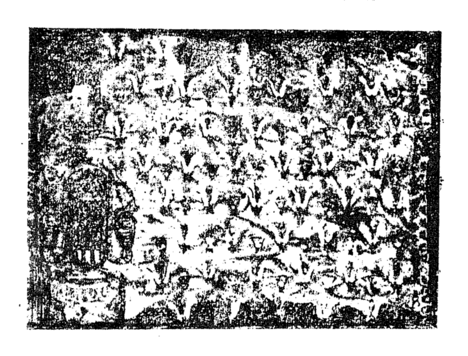
كذلك أقدم شكري إلى جميع من شجعوني واستحثوني على اصدار هذا الجزء الثاني من « قصة الكنيسة القبطية » بما أبدوه من تقدير للجزء الأول .

ولا يفوتني أن أبعث بتحيتي إلى روح الأستاذ يسى عبد المسيح في عليائها لأنه داوم على معاونتي إلى أن وهنت قواه ولبّى نداء ربه .

وأرفع الحمد لله أولاً وأخيراً لأنه هيأ لي مثل هؤلاء المساندين كما هيأ لي أسباب البحث والدراسة حتى مكنني من اصدار الكتاب .

ايريس حبيب المصري





صدرية لأمونهوتب الثانى فرعون مصر من سنة ١٤٤٨ - ١٤٢٠ق .م
ومما يلاحظ أنه فى أعلى الطرف الشمالى (فوق خرطوش الفرعون)
يوجد صليب يعلو جعراناً . وكان الجعران عند الفراعنة أحد الرموز
التى تعبر عن القيامة من الموت .

تمهيد

إن الانسان مخلوق عجيب فقد حباه الله نعمة الايمان ومع ذلك تجتاحه موجات من الشك والتردد ويستبد به تشامخ العقل فيشط إلى حد تناسى مصدر العقل . وهذا التشامخ الذى يملأ النفس حيرة دفع بالشاعر الرقيق اسماعيل صبرى إلى أن يهتف :

يارب أهلّنى لفضلك وأكفنى شطط العقول وفتنة الأفكار

ولقد دفع شطط العقول بالانسان إلى جحود فضل البارى وبالتالى جحود فضل البرية . فنجد بعض الكتّاب يسخرون مما رواه المؤرخون عن أحداث خارقة . ثم جاء الباحثون ينقبّون عن الآثار ويرفعون القناع عما خفى من حضارة الأقدمين فإذا بنا نرى بأعيننا ونلمس بأيدينا حقائق التاريخ التى كانت موضع الشك والسخرية . ومن هذه الحقائق العجيبة التى لم تكن قد لاقت غير الشك تلك الحقيقة التى تتلخص فى أن المصريين لمحوا قبس المسيحية وهم فى عهود الوثنية ثم كشف المنقبّون الستار عن هذه العهود القديمة فوجدوا بينها ما يثبت هذه الحقيقة كالصدرية الخاصة بأمونهوتب فرعون مصر من سنة ١٤٤٨ - ١٤٢٠ق.م .

ومثل هذا الكشف عن الحضارات القديمة يثبت وحدة التطلع الانسانى نحو الروحيات ، فهو (والحالة هذه) يثبت وحدة التاريخ التى تكلمنا عنها فى التمهيد للجزء الأول من هذا الكتاب .

ولو أن وحدة التاريخ وقفت عند هذا الحد لكانت قصة الانسان على هذه الأرض قصة المسالمة والهناءة ، ولكن من المؤلم أن هذه الوحدة تتضمن أيضاً ما تملّك الناس من عنف وجور دفع بالبعض منهم إلى الاستبداد بالبعض الآخر : فداس قويهم ضعيفهم ، واستهان حاكمهم بمحكومهم .

ولما كانت وحدة التاريخ حقيقة أثبتتها الأيام فإن تطلع الناس فى جيل أفاد غيرهم فى أجيال أخرى ، كما أن ظلمهم أضرّ بأجيال لم تكن قد رأت نور الوجود بعد . وأروع مثل على ما أصاب الأجيال المتعاقبة من ظلم سابق على

عهودها ما حدث فيما يسمونه بمجمع خلقيدون سنة ٤٥١م.غ (١) . الواردة تفاصيله فى الفصل الأول لهذا الكتاب . فكان الأنبا ديسقورس (البابا الاسكندرى الـ٢٥) أول من وقع عليه الظلم ثم سطا الظلم بعد ذلك على معاصريه ولاحق خلفاءه ، ولا يزال أثر هذا الظلم بادياً إلى يومنا هذا .

على أن الضمير الانسانى الجماعى قد بدأ يصحو صحوة واعية ، وحينما يستكمل صحوته تتضح أمامه الحقائق بجلائها ، وعندها تمحو العدالة ظلم القرون وتبدأ صفحة جديدة من كتاب الانسانية هى صفحة المحاولات التى ستبذل فى سبيل التآخى والتفاهم وترسيخ العدالة . وإذا عدنا مرة أخرى إلى التأمل فى وحدة التاريخ لوجدنا أن كل ما بذله القادة الروحانيون فى سبيل السمو كان بمثابة درجات صعد عليها الناس وبها سيصلون فى النهاية إلى الهدف الذى شاءه الله لهم وهو العيش فى ألفة وتقارب .



ولما كنا قد ذكرنا فى الجزء الأول لهذا الكتاب أن التاريخ يجب أن يتركزّ فى الجهاد الروحى ، وفى الأشخاص الذين سعوا إلى السمو بالناس ، وفى كفاح الشعوب ، فإن قصة الكنيسة القبطية ، تتضمن صوراً للجهاد المزدوج الذى بذله آباؤها وأولادها . وهو جهاد مزدوج لأنه ذود عن عقيدتهم وذود عن قوميتهم فى آن واحد . فهم قد أصّروا على الاحتفاظ بشخصيتهم القومية فرفضوا فى عنادٍ الاندماج فى العناصر المختلفة التى وردت على بلادهم . ونعود فنذكر ما سجلناه من قبل وهو أن المصريين فى استطاعتهم أن يستوعبوا مختلف الثقافات والفلسفات ويستمتعوا بها ولكنهم مصريون قبل كل شئ جذورهم متأصلة فى أعماق التربة المصرية ، وهم فخورون بماضيهم المجيد وتاريخهم الحافل وحبهم لمصر يفوق حبهم للعلم والفلسفة أياً كانت (٢) . ولأن حب مصر متأصل فى أعماقهم فإنهم – رغم هدوئهم – قاموا بثورات على مدى القرون ومازالوا يثورون على مختلف مظاهر الظلم.

---

(١) أو سنة ٤٤٣ م ش (ميلادية شرقية) .

(٢) قصة الكنيسة القبطية – الجزء الأول – ص٣٤ – ٣٥ .

فحقاً أنهم شبيهون بنيلهم الخالد الذى ينساب فى هدوء حتى إذا حل موعد الفيضان تدفقت مياهه الهادرة بقوة تملأ القلب رهبة .

ولعنف القومية التى تملأ على القبط قلوبهم لم يسع المنصفون من الغربيين إلا تسجيلها فى مؤلفاتهم المختلفة . فقد قال ماسبيرو ما ترجمته «لقد كان الرهبان المصريون على درجة عظيمة من البسالة لأنهم كانوا كلهم مصريين صميمين لم يختلطوا بالأجانب » (١) . بينما يقول دوشين « أنهم (أى الرهبان) لكونهم المدافعين الملتهبين عن كنيستهم الوطنية فقد اشتركوا فى المنازعات السياسية والدينية فظلوا مدى قرون عديدة خطراً كبيراً يهدد الامبراطورية » (٢) .

على أن أروع اعتراف بهذه القومية الجارفة هو ما جاء على لسان ماسبيرو أيضًا وهو : « ولكن إن كان ديسقورس قد انهزم فقد بقى المصريون الذين أصبحت لديهم المقاومة لمجمع خلقيدون والتعلق بعقيدة كيرلس وديسقورس بمثابة الرمز للمقاومة الشعبية . فقد انفكت من عقالها قوة كانت كامنة ، فكها اللاهوتيون فصارت أبعد سلطاناً من الأساقفة أنفسهم ، تلك القوة لم تعد مجرد الكهنوت المصرى بل أصبحت الجنس القبطى كله الذى تألف منه مذاك موكب ديسقورس وخلفائه (٣) .

---

(١) راجع مقالة دراسة بردية أفروديتى التى نشرها فى مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية عدد سنة ١٩٠٨ ص٢٥ حيث يقول : "... c'est que les moines étaient d'une grande vaillance, car ils étaient tous des égyptiens sans mélange d'étrangers " .

(٢) راجع كتابه « تاريخ الكنيسة المجلد الثانى ص٥١١ حيث يقول : "Les moines furent pendant plusieurs siècles un incontestable danger pour l'empire " . وقارن به ما جاء فى رسالة الدكتوراة عن النظام المالى فى مصر منذ العصر اليونانى حتى القرن العاشر (بالفرنسية) لرضا فرج باستولى ص٢٥٥ – ٢٥٧ .

(٣) راجع المقال عينه ص٢٢ حيث يقول : " Déchainée par quelques théologiens, une force cachée s'était révélée plus puissante que les évêques : ce n'était plus le Clergé égyptien mais la race Copte qui formait désormais le cortège de Dioscore et de ses successeurs " .

وقارن به أيضاً ما جاء فى رسالة الدكتوراة لرضا فرج باستولى ص٢٦٨ . وهذه الحقيقة عينها قد شهد بها نورمان بايلز إذ قال بأن المصريين كانوا دائماً شعباً ذا قومية ، راجع الترجمة العربية لكتابه : « الامبراطورية البيزنطية » بقلم حسين مؤنس ومحمود يوسف زائد ص٤٧ .

بطلٌ مقدام

لا تُعدم الهمة الكبرى جوائزها   سيّان من غَلَبَ الأيامَ أو غُلبا
وكل سعى سيجزى الله ساعيه   هيهات يذهب سعى المحسنين هبا(١)

١ - فى أفسس

(١) انتخاب ديسقورس خليفة لكيرلس عامود الدين .
(٢) ارسالة خطاب الشركة ورد ثيئودوريت أسقف قورش .
(٣) رسالتا البابا الاسكندرى إلى أسقف أنطاكية .
(٤) ظهور بدعة أوطيخا .
(٥) أسقف دوريليا يحاول رد أوطيخا إلى الحق .
(٦) فلابيانوس يتطير من فتح باب الجدل .
(٧) فلابيانوس وأوطيخا يكاتبان أسقف رومية .
(٨) فلابيانوس يعقد مجمعًا مكانيًا للنظر فى بدعة أوطيخا ويتسلم فى أثنائه طومس لاون .
(٩) تلاوة رسالتين للبابا كيرلس وأخذ الرأى فيهما .
(١٠) أوطيخا لا يحضر إلا فى الجلسة السابعة للمجمع .
(١١) الحكم على أوطيخا يستند إلى طومس لاون ويثير الشعب لتعبيراته النسطورية .
(١٢) المبتدع يستغل هذه الثورة الشعبية .
(١٣) رد لاون على أوطيخا .
(١٤) فلابيانوس يكتب إلى لاون ويتلقى ردًا منه .
(١٥) خطاب لاون إلى الامبراطور .
(١٦) بيان لاون نسطورى فى رأى بعض الأرثوذكسيين .
(١٧) عقد مؤتمر فى القسطنطينية .
(١٨) اقناع الامبراطور ثيئودوسيوس بعقد مجمع .
(١٩) أوطيخا يحاول استمالة الكنيسة بأسرها إلى جانبه .
(٢٠) دعوة الامبراطور لعقد مجمع فى أفسس .
(٢١) خطاب امبراطورى خاص للبابا الاسكندرى .

---

(١) من قصيدة « مشروع ٢٨ فبراير » لأمير الشعراء أحمد شوقى .

(٢٢) دعـوة الامبراطور للأرشيمندريت برسوما .
(٢٣) الغرض من عقد المجمع وموعد عقده .
(٢٤) خطاب لاون إلى الأميرة بولشريا.
(٢٥) تلبية لاون للدعوة إلى المجمع لعلمه بأن صاحب الحق فيها هو امبراطور الشرق .
(٢٦) يوبيناليوس ودومنوس يشاركان ديسقورس رياسة المجمع .
(٢٧) مئة وثلاثون أسقفا يحضرون المجمع الأفسسى الديسقورى .
(٢٨) تدابير الامبراطور للمحافظة على المجمع من المؤامرات .
(٢٩) رغبة الامبراطور فى دحض النسطورية .
(٣٠) تباطؤ مندوبى لاون .
(٣١) رسائل من الامبراطور ورسالة من لاون إلى المجمع أثناء انعقاده .
(٣٢) اجماع الأساقفة على دستور الايمان الذى سنه آباء نيقية والقسطنطينية وأفسس .
(٣٣) أوطيخا يقدم اعترافه كتابة ويذيله بحرم جميع المبتدعين .
(٣٤) أوطيخا يقول أن محاضر المجمع الفلابيانى مزورة .
(٣٥) المجمع يصغى لتقريرى فلابيانوس وأوطيخا .
(٣٦) انزلاق فلابيانوس فى البدعة النسطورية لتأثره بطومس لاون.
(٣٧) الآباء يقررون أرثوذكسية أوطيخا .
(٣٨) تبرئة ساحة أوطيخا .
(٣٩) الآباء الموقعون على حكم التبرئة .
(٤٠) فلابيانوس يسعى لاستئناف الحكم .
(٤١) أسقف رومية يسعى جهده لمعاونة فلابيانوس ويكاتب امبراطور الغرب وعائلته .
(٤٢) الامبراطور ثيئودوسيوس يرفض عقد مجمع آخر ويصر على احترام حكم المجمع الأفسسى الديسقورى .
(٤٣) مكاتبة لاون لأكليروس القسطنطينية وشعبها .
(٤٤) انتخاب أناطوليوس أحد شمامسة الاسكندرية أسقفا للقسطنطينية .



١- فى أفسس

١- لما انتقل الأنبا كيرلس عامود الدين إلى الأخدار السماوية سنة ٤٣٥م ش* ، اتفقت كلمة الاكليروس والشعب على انتخاب سكرتيره ديسقورس ليخلفه على الكرسى المجيد الذى لمارمرقس البشير ، وكان ديسقورس قد صحب معلمه إلى أفسس ، كما كان محبوباً لتواضعه الجم . وقد اقترنت مزاياه هذه بالغيرة المتقدة والشجاعة المتناهية وسرعة البديهة (١) . وغنى عن البيان أنه تعلم فى مدرسة الاسكندرية التى تخرج منها جميع البارزين من رجال عصره ، فتبحّر فى العلوم الروحية والفلسفية . ولما كان متصفاً بهذه الفضائل كلها فقد كان خير من يخلف كيرلس العظيم .

٢- وما أن تمت رسامة الأنبا ديسقورس حتى بعث برسالة الشركة إلى اخوته الأساقفة عملاً بالتقليد الذى استنه سلفاؤه . وقد رد عليه عدد منهم يهنئونه على ما نال من كرامة عظمى ، وكان ثيئودوريت أسقف قورش بين الأساقفة الذين كتبوا إليه . وكان عجيباً أن يكتب هذا الأسقف للبابا الاسكندرى لأنه كان من أكبر المناصبين العداء للأنبا كيرلس فى موقفه ضد البدعة النسطورية مع أنه كان متفقاً معه فى وجوب التمسك بالعقيدة الأرثوذكسية وقد جاء رد ثيئودوريت هذا بسرعة إذ قد بادر بالكتابة إلى الأنبا ديسقورس يتملقه ويمتدح فضائله وبخاصة رقته ودعته (٢) . وكان مثل هذا الخطاب غريباً لصدوره من ثيئودوريت الذى انقلب فيما بعد إلى خصم

---

* ملحوظة : التواريخ المستعملة فى هذا الكتاب هى التواريخ الميلادية الشرقية . ولما كانت هذه تنقص ثمانى سنوات عن التواريخ العربية فإن سنة ٤٣٥ المذكورة هنا توافق سنة ٤٤٣ م غ .

(١) تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة (بالانجليزية) لجون نيل جـ١ ص٢٧٨ ، ٣٠١ حيث يقول فى وصف الأنبا ديسقورس: (... a man of excellent disposition, and much beloved for his humility . These virtues were adorned with his fiery zeal for the faith, and his presence of mind .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيتى جـ٤ ص٤٨٣ حيث يقول :

Des qu'il eut appris son élévation sur le siège d'Alexandrie, il lui écrivit une lettre flatteuse, dans laquelle il le félicite patriculièrement de sa douceur .

عنيد ، فسلك بازاء ديسقورس المسلك عينه الذى سلكه بازاء كيرلس . ومن المؤلم حقاً أن يندفع ثيئودوريت هذا الاندفاع الغاشم فى عداوته للباباوين الاسكندريين لأنه كان عالماً قويم الايمان لم يوافق على البدع . غير أنه لم يكن بالرجل الذى يستطيع أن يفرّق بين المبدأ وبين الشخص الذى يدين بهذا المبدأ – فهو كان يندفع بدافع حقده الشخصى لا بدافع الغيرة على الايمان الأرثوذكسى .

٣– ولم يكد الأنبا ديسقورس يعتلى الكرسى المرقسى حتى بلغه أن دومنوس أسقف أنطاكية يسمح لثيئودوريت النسطورى بأن يعظ المؤمنين . فأحس بأن واجبه يدعوه إلى أن يحضّ هؤلاء المؤمنين ضد التعاليم الابتداعية فبعث برسالتين إلى الأسقف الأنطاكى قال له فى أولاهما : « إن المسيح هو وحيد الجنس وهو بكر وابن الله . وبه كان كل شئ . وقد تأنس لأجلنا دون أن يحصل له ظل من التغيير بأى نوع كان ... فإن كانت فى بيعة أنطاكية الكبرى حيث يجتمع الكثيرون من مختلف الشعوب تتردد كلمات التجديف كأنه ليس من رادع فمن الذى يشفى مسامع الذين يتشككون ؟ أو كيف لا تدعو إلى الحزن والكآبة إذا كان المرض ينتاب الناس فى دار الشفاء حيث يجب أن ينالوا الصحة ؟ » ثم يبدى استغرابه من سماح دومنوس لثيئودوريت بأن يخطب فى المؤمنين فيوجه الحديث إلى ذلك النسطورى معلناً حقيقة الايمان الأرثوذكسى بقوله : أخجل من صوت الآب الذى جاء من السماء قائلاً « هذا هو ابنى الحبيب » ، لا تقسم إلى ابنين الواحد ربنا يسوع المسيح الذى ولئن صار بالجسد من امرأة لكنه باتخاذه الجسد مع نفس عاقلة ظل ما كانه أى الهاً . اسمع الفيلسوف بولس وهو يسألك : « هل انقسم المسيح ؟ » ، فنجيب : كلا... إن الذى يسبحه الكاروبيم ويكرمه الساروفيم هو بنفسه لما صار مثلنا ومن أجلنا ، ركب على جحش ابن أتان . ولما لطمه الخدام على وجهه تحمّل سياسياً ليكمّل كل بر . هذه هى الأمور التى سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة ، وهذه هى تعاليم المجمع القديم والجديد (النيقى والأفسسى) . وقد اعترف بها معنا طيب الذكر سلفك الأسقف يوحنا... إن بعضاً يحاولون أن يفسدوا الألفة التى بين الكنيستين كرهاً منهم للسلام . فيضعون مؤلفات معيبة مضادة لما كتبه أبونا المغبوط الشهير الأسقف كيرلس

معلم المسكونة كلها والحكيم الذى كتب باستقامة وبصراحة أكثر من غيره . ولم يكن رجل الأقوال فحسب بل وحين أثرى بالموهبة السماوية فسّر حقاً سر تجسد الوحيد ابن الله ، سواء أكان ذلك كتابة أو رسالة أو خطبة أو فصولاً أو حروماً . وكلها صحيحة تتفق والنصوص الالهية ... فرد عليه دومنوس برسالة حمّلها القس أوسيب أثنى فيها على محبته وصراحته فى رسالته معلناً أنه طالعها بلذة عظمى .

وقد كتب له الأنبا ديسقورس ثانية يقول : أنه كان يود أن يتراسل فى أمور تسودها المحبة والسلام ، لأن ذلك برهان على وحدة الكنائس فى الايمان التى هى نفس واحدة . ولكن يسوؤه أن يقول أن الأمر ليس كذلك الآن. لذلك يكتب إليه راجيًا منه أن يلجم أفواه المعلمين الذين يشككون الكثيرين بأقوالهم متواقحين على القول بأن نسطور عزل لا لأنه حاد عن الصراط المستقيم مجدفاً على المسيح بل لأنه لم يتنازل لحضور مجمع أفسس ولئن دعاه ، لأن ضميره كان يوبخه . ثم يقرّع الذين يحاولون التقليل من أهمية المجمع الأفسسى وفصله عن النيقى بينما سلطان كليهما واحد ، وكلاهما مسكونيان : فالأول التأم بدعوة من الامبراطور قسطنطين الكبير للنظر فى بدعة أريوس ، والثانى التأم بدعوة من الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير للنظر فى بدعة نسطور (١) .

٤- وفى تلك الآونة ظهرت بدعة جديدة . وكان المبتدع هذه المرة أرشيمندريت عن القسطنطينية اسمه أوطيخا رئيس دير به ثلاثمائة راهب . وكان أوطيخا هذا صاحب مكر ودهاء ، يعرف أن يتلاعب بالألفاظ كما يتلاعب الحاوى بالبيض والحجر . على أنه - رغم هذه الصفات - اشتهر بالعلم والتقوى حتى لقد كان أهل القسطنطينية ومن بينهم رجال البلاط يذهبون لزيارته ، لتنسمهم منه عبير العفة والتقوى ، (٢) . وكان قد اتخذ

(١) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما متروبوليت بيروت ودمشق وتوابعها للسريان الأرثوذكس جـ٢ ص٩٠ - ٩٣ .

(٢) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما متروبوليت بيروت ودمشق وتوابعها للسريان الأرثوذكس جـ٢ ص٩٩ .

موقفاً حازماً ضد نسطوريوس فى مجمع أفسس (المسكونى الثالث) ، وغالى كل المغالاة فى مقاومة هذا المبتدع ، فدفعته مغالاته إلى أن يهوى فى بدعة عكسية إذ ادعى بأن السيد المسيح لم يتخذ من الحشا البتولى جسداً مماثلاً لجسدنا ولكنه مرّ به مروراً خيالياً .

٥- وكان أوسابيوس أسقف دوريليا صديقاً لأوطيخا فبذل جهده ليقنعه بأن يعدل عن بدعته ، وفى هذا السبيل غالى هو بدوره فى توكيده الطبيعة الانسانية التى اتخذها مخلصنا من السيدة العذراء فهوى فى البدعة النسطورية مما أدى إلى ضياع جهوده فى اقناع أوطيخا . وعندها قصد إلى فلابيانوس أسقف القسطنطينية وأخبره بكل ما جرى مطالباً إياه بعزل أوطيخا الذى بلغه من ماغنوس (أحد رجال البلاط) أن فلابيانوس وأوسابيوس يتآمران عليه (١) .

٦- وحين سمع فلابيانوس بابتداع أوطيخا اضطرب قلبه داخله إذ أحسّ بأن شراً مستطيراً سيحل بالكنيسة إذا انفتح باب للجدل من جديد ، وأبدى مخاوفه هذه أمام أوسابيوس معلناً أن الاغضاء عن هذه البدعة هو خير وسيلة لأنه سيضيّق دائرتها فلا تتعدى جدران الدير الذى يرأسه أوطيخا . وعند ذاك تموت بموته خصوصاً وأنه شيخ قارب الكهولة .

على أن أوسابيوس لم يشارك فلابيانوس رأيه بل ذكرّه بما للمبتدع من النفوذ على رهبانه ، كما ذكرّه بموقف هذا المبتدع عينه ضد نسطوريوس . وأصغى فلابيانوس إلى كلام شريكه فى الخدمة الرسولية وهو يمعن التفكير فيه . ثم قال له : « مادمت ترى أن الواجب يحتم علينا التحدث إلى أوطيخا بقصد ارجاعه عن بدعته فاذهب أنت إليه وكلمه شخصياً ، وخض معه النقاش بلا جهر ولا اعلان لأن أوطيخا محبوب من رهبانه » . فعاد أوسابيوس إلى أوطيخا ثانية . على أن محاولاته التى قام بها بمشورة فلابيانوس قد ذهبت هى أيضاً أدراج الرياح . لأن المبتدع استمر فى عناده والجهر ببدعته .

٧- ثم وصل إلى مسامع فلابيانوس أن أوطيخا قد كاتب لاون أسقف

---

(١) شرحه ص١٠٠ .

رومية وحاول فيما كتبه إليه أن يقنعه بصحة بدعته . وخشى فلابيانوس أن يفلح المبتدع فى استمالة لاون إليه فرأى من واجبه أن يكاتبه بدوره ليوضح له أمرين: الأول أن يبين له خطأ البدعة الأوطاخية ، والثانية أن يطالبه باقناع المبتدع كى يعدل عن بدعته كما طالب أوسابيوس بذلك من قبل . وقد رد لاون على خطاب فلابيانوس بخطاب يعرف بطومس لاون (أى عقيدة ايمانه).

وكان هذا الخطاب بالاتينية طبعاً . ومما يؤسف له جد الأسف أن الترجمة اليونانية لهذا الطومس كانت إلى النسطورية أقرب منها إلى الأرثوذكسية . فنشأ عن هذه الترجمة الخاطئة سوء تفاهم بين عدة أساقفة ، ولهذا السبب عدّ طومس لاون الحجر الأساسى لانشقاق الكنيسة (١) .

٨- ولما ذهبت سدى كل الجهود الودية التى بذلت فى سبيل رد أوطيخا إلى الايمان الأرثوذكسى ، وكانت قد أدت إلى الاعلان عن بدعته ، اضطر فلابيانوس إلى أن يعقد مجمعاً من أساقفته فى القسطنطينية .

وقد حضر فلورينتيوس هذا المجمع مندوباً عن الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير للمحافظة على النظام .

وبعث المجمع إلى أوطيخا ليحضر ولكنه رفض فى بادئ الأمر . وفى الجلسة الأولى قرأ أوسابيوس أسقف دوريليا وثيقة الاتهام معلناً فيها أن أوطيخا مبتدع ويجب عليه المثول أمام المجمع كى يؤدى حساباً عن بدعته .

٩- ثم قرئت فى الجلسة الثانية رسالتان للبابا كيرلس الاسكندرى (٢):

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٣٥ حيث يقول :

" ... La lettre de L'éon à Flavia us, mal traduite en grec, et qui prétait ainsi à des interpretations nestoriennes " . " Daprés beaucoup dautres évêques

وص٤٦ حيث يقول : " Dapiés beaucoup dautres évêques orientaux,

La lettre de Léon de Rome, était susceptible d'un sens nestorien "

بينما يقول على ص٥٨ ما نصه، "La division est venue d'une fausse interpretation de la lettre de léon à Flavianus traduite en grec d'une manière defectueuse " .

(٢)هو البابا الاسكندرى الرابع والعشرون الذى رأس مجمع أفسس (المسكونى الثالث)، وكان انعقد بدعوة من الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير للنظر فى بدعة نسطوريوس الذى فرق بين طبيعتى اللاهوت والناسوت - راجع ص٣٨٧- ٤٣١ من الجزء الأول لهذا الكتاب

احداهما عن الكلمة المتجسد ، وثانيتهما الرسالة التى تتضمن الجهر بإيمانه والتى بموجبها عاد الوئام بعد الخصام بينه وبين يوحنا الأنطاكى على أثر ارفضاض مجمع أفسس . وبعد قراءة الرسالتين طولب الأساقفة بأن يجهر كل منهم بإيمانه ، فاعترفت غالبيتهم بتعاليم كيرلس الاسكندرى وبدستور الايمان الذى وضعه الآباء فى مجمع نيقية والقسطنطينية وأيّده آباء مجمع أفسس ايجابياً بالتوقيع عليه وسلبياً باعلانهم الحرم على كل من يضيف إليه أو ينقص منه .

١٠ – ووالى فلابيانوس ومجمعه جلساتهم انتظاراً لأوطيخا لأنهم تمسكوا بالقانون الكنسى الذى يقضى بانذار المتهم ثلاث مرات . وفى سابع جلسات هذا المجمع الفلابيانى حضر أوطيخا . فقرأ المجمع على مسامعه وثيقة الاتهام الموجه إليه من أسقف دوريليا ، كما تلا عليه طومس لاون . وبعد تلاوة هاتين الوثيقتين طلب المجمع إلى أوطيخا أن يجهر بإيمانه . ولكنه– بدلاً من الرد باللسان – قدم اعترافاً مكتوباً بخط يده مليئاً بالتعبيرات اللولبية المبهمة . فغضب الأساقفة وبدا عليهم شئ من الامتعاض لهذا التهرب . وعندها تدخل بينهم فلورنتيوس المندوب الامبراطورى وأمر أوطيخا بأن يوضح ايمانه صراحة . فكانت اجابته – رغم هذا الطلب – مبهمة عائمة ؛ يستدل منها على أن المسيح هو كلمة الله وله طبيعة واحدة الهية (١).

١١ – ولما لم يستطع المجمع الفلابيانى أن يحظى من أوطيخا باجابة صريحة واضحة لم يجد بداً من اصدار الحكم عليه . ولقد استند فلابيانوس فى حيثيات حكمه على أوطيخا إلى طومس لاون معتمداً على مناصرة أوسابيوس له . أما الحكم فيقضى بحرم أوطيخا وبتجريده من كل رتبة كهنوتية لأنه مبتدع . إلا أن صيغة الحكم كانت إلى النسطورية أقرب منها إلى الأرثوذكسية فأثارت غضب الشعب القسطنطينى . وبادر أوطيخا إلى استغلال هذا الغضب الشعبى فكتب خطابين : أحدهما إلى الامبراطور ثيودوسيوس

---

(١) مجمع خلقيدون ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتينى المحفوظ فى مكتبة الفاتيكان الراهب فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كرادلة مطبوع فى رومية سنة ١٦٩٤ ص٢٨ – ٣٣ ، تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٥٤٧– ٥٤٩.

الصغير وثانيهما إلى أسقف رومية . وفى كلا الخطابين صور نفسه بصورة البرئ المعتدى عليه ورجا منهما انصافه . وكان ذا موهبة عجيبة فى الكتابة ، وهذه الموهبة كانت تمكنه من أن يهز قلوب قرّائه ومستمعيه ويحرك مشاعرهم فيدفعهم إلى العمل لمصلحته . وقد بدت مهارته فى التلاعب بالألفاظ من الاعتراف الذى ذيّل به خطابه إلى الأسقف الرومانى - إذ قد جهر فيه بعقيدة أرثوذكسية صميمة دون أن يتعرض لمسألة الطبيعتين (١) .

١٢- ولم تكن استغاثة أوطيخا بالأسقف الرومانى بالشئ الجديد - فقد اعتاد رجال الاكليروس فى القرون الخمسة الأولى أن يتشاوروا ويتكاتبوا عملاً بوصية المخلص له المجد ، فأعلن الشرق فى يقين تام بأن السيد المسيح حال فى وسط الكنيسة الجامعة لا فى شخص واحد ولا فى كنيسة منفردة . ومن ثم كان الشرق والغرب صنوين يكمل أحدهما الثانى لأن السلطان الموهوب من السيد المسيح يشمل الكنيسة الجامعة (٢) إذ قد أعطاه لجميع رسله وتلاميذه على السواء ، ومنهم انتقل السلطان المسيحى إلى الأساقفة الذين خلفوهم . وقد ساوى السيد المسيح بين رسله وتلاميذه حين منحهم هذا السلطان إلى حد أنه لم يخص أحدهم بسلطة فردية حتى ساعة أن صعد إلى السماوات وهم شاخصون إليه . وتتجلى هذه الحقيقة فى صلاته له المجد حين قال مخاطباً الآب السماوى ، كما أرسلتنى إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم ... وأنا قد أعطيتهم المجد الذى أعطيتنى ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد ، (٣) . كما تتجلى من أمره إليهم بالتبشير حيث قال قبل ارتفاعه : اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها ، (٤) . ولقد سار الآباء فى صدر المسيحية على هذا التعليم الالهى فكانوا يتبادلون المشورة كما كانوا

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٤٩ حيث يقول :

" Il (Eutychès) ajouta à sa lettre une declaration de foi parfaitement Orthodoxe, mais dans laquelle il pardait un silence prudent au sujet de la question des deux natures "

(٢) شرحه جـ٤ ص٥١٩ حيث يقول :

" ... l'autorité suprême n'appartient qu' â l'Eglise dans son integrité " .

(٣) يوحنا ١٧ : ١٨ ، ٢٢ .

(٤) مرقس ١٦ : ١٥ .

يتبادلون الشكوى . وسار أوطيخا على منهج الآباء عندما كاتب لاون الأول فى شأن الخلاف القائم بينه وبين فلابيانوس إذ لم يكتف بالشكوى إليه وحده بل كتب يستغيث بأساقفة الاسكندرية وتسالونيكا ورافينا (بايطاليا) (١) . كذلك استغاث أوطيخا بالقيصرين : ثيئودوسيوس الصغير وفالنتينيانوس الثالث (امبراطور الغرب) . وبخاصة لأنه كان يتمتع بمكانة مرموقة فى بلاط القسطنطينية . وكان الخصى خريسافيوس من أعظم مناصريه فى ذلك البلاط (٢) .

١٣- وقد بعث لاون الأول بالرسالة التالية رداً على أوطيخا : إلى الابن الحبيب أوطيخا القس من لاون الأسقف - لقد فهمنا من خطابكم أن بعض ذوى الأغراض الدنيئة قد أثاروا البدعة النسطورية من جديد وقد فرحنا لغيرتكم ولمقاومتكم اياهم . ولسنا نشك فى أن الله الذى منحنا الايمان الواحد سيعينك فى جهادك . أما من جهتنا - فبعد أن وصل إلى مسامعنا رياء المناصرين للبدعة النسطورية - نرى لزاماً علينا بنعمة الله أن نقضى على هذا الشر . والله ضابط الكل يحفظك يا ابنى (٣) .

وتتضح حقيقة هذه المراسلات مما أورده مارسويريوس يعقوب تعليقاً على ما كتبه لاون بقوله : « وتناول أوطيخا جواباً شافياً من لاون مباركاً غيرته وجهاده فى سبيل الايمان ، داعياً إياه ابناً روحياً وشريكاً فى الرأى والايمان مشجعاً إياه على اصلاح فلابيانوس القسطنطينى وأوسابيوس

---

(١) مجمع خلقيدون ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتينى المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الراهب فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كرادلة . مطبوع فى رومية سنة ١٦٩٤ ص١٤٤ .

(٢) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص١٠٤ .

(٣) مجمع خلقيدون ترجمه إلى العربية ... ص٣٤ ومن الملاحظ أن لاون الأول اكتفى بأن يقول عن نفسه «أسقف» فى كل الخطابات التى كتبها فى هذا الموضوع . وهذه التسمية وردت فى هذا الكتاب على ص٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٦٣ ، ٢١١ ومثل هذا التكرار إن دل على شئ فإنما يدل على أن كلمة « بابا » لم تكن لقباً لأسقف رومية حتى القرن الخامس على الأقل . كذلك تجدر الاشارة إلى أن لاون دعا أوطيخا « ابنى الحبيب » فى هذا الخطاب ثم انضم بعد ذلك إلى الذين حرموه وهاجم البابا ديسقورس .

أسقف دوريليوم وغيرهما من المتمسكين برأى نسطور إلى أن يلتئم المجمع المنشود (١) .

١٤- ولما علم فلابيانوس أسقف القسطنطينية أن أوطيخا يكاتب الأساقفة بشأن بدعته كاتبهم هو أيضاً ليبرر موقفه . وقد رد عليه لاون أسقف رومية مبيناً أن أوطيخا يتظلم من الحكم الصادر ضده ويطلب الانصاف، وختم رده بهذه الكلمات : « إننى أرجو من اخوتكم أن تنتدبوا شخصاً أميناً يوضح لنا السبب الذى يستلزم منا اصدار حكمنا . ولا يساعدنا على الوصول إلى تثبيت السلام فى الكنيسة إلا روح التسامح التى يجب أن تسود بيننا وايمان الامبراطور المتجمل بالدين ، وسنبذل جهدنا فى المحافظة على الايمان الأرثوذكسى فى صفائه التام وفى شد أزر المدافعين عنه . ويبدو لى أن هذا الأمر سهل المنال لأن أوطيخا وعد فى خطابه إلىّ بأن يصحح كل ما ارتكبه من خطأ فى العقيدة . وفى هذه الحالة يجدر بنا أن نتحاشى كل خصام وأن نتذرع بالمحبة وأن لا يكون لنا هدف غير الحق » .

ومع ما أبداه الأسقف الرومانى من عطف على أوطيخا ، ورغم هذا النصح الغالى ، فقد ذكر فى خطابه إلى الأسقف القسطنطينى بأن أوطيخا مجرد من الفهم والمعرفة (٢) .

وقد رأى فلابيانوس أن ينتدب ثيئودوريت أسقف قورش ليقابل لاون شخصياً ويوضح له ما جرى فى المجمع الفلابيانى . وقد بلغ من نجاح ثيئودوريت أنه تمكن من استمالة لاون إلى بدعة نسطور (٣) .

١٥- ولم يكتف لاون بالرسالة التى بعث بها إلى فلابيانوس بل سارع إلى مكاتبة الامبراطور ثيئودوسيوس ، فبعث له فى اليوم عينه برسالة ختمها بقوله له : « إن ما يثير فرحه هو أن قلب الامبراطور ليس قلباً

---

(١) فى كتابه تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية جـ٢ ص١٠٥ .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٥٥٤ حيث يقول :

" ... nous savons ce qu'a fait Eutychés, qui semblait digne de l'honneur de Sacerdoce, mais qui n'est qu' un homme denué de sagesse et de seience ... " .

(٣) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص١٠٦ .

امبراطورياً فحسب ولكنه قلب كهنوتي أيضاً » (١) .

١٦- ويبدو أن مكاتبات أوطيخا كان لها أثر بعيد في نفس لاون الذي لم يلبث أن كتب رسالة بعد ذلك بقليل اشتملت على بيان مفصل لايمانه بالكلمة المتجسد . وقد توسع في رسالته هذه في الحديث عن الطبيعتين : الطبيعة الالهية والطبيعة الانسانية اللتين اتحدتا في المسيح المتأنس . ولما كان قد أسهب في الكتابة عن كل من الطبيعتين على حدة فقد بدت رسالته لبعض الأساقفة الأرثوذكسيين أقرب إلى النسطورية منها إلى الأرثوذكسية (٢) .

١٧- وبينما كان لاون متشاغلاً بكتابة هذه الرسائل اتفقت كلمة عدد من الأساقفة على أن يجتمعوا في القسطنطينية . فعقدوا مؤتمراً حضره ثلاثون منهم برياسة أسقف قيسارية (الكبادوك) كما حضره أربعة من رهبان أوطيخا . وقد تداول المجتمعون في الحكم الذي أصدره المجمع الفلابياني ضد أوطيخا . إلا أن مداولاتهم لم تؤد إلى نتيجة حاسمة .

١٨- فلما رأى أنصار أوطيخا أنهم لم يصلوا إلى هدفهم من وراء هذا المؤتمر داوموا على بذل الجهود لدى رجال البلاط إلى أن تمكنوا بواسطتهم من اقناع الامبراطور بعقد مجمع يعيد النظر في حكم فلابيانوس على أوطيخا .

١٩- وكان أوطيخا - رغم شيخوخته - لا يكل ولا يمل . فما أن اطمأن إلى رضى الامبراطور حتى أخذ يستعد للمجمع ، فبعث برسائل إلى أكبر عدد ممكن من الأساقفة صوّر فيها نفسه بريئاً مظلوماً يطالب باحقاق العدالة . وقد بعث باحدى هذه الرسائل إلى البابا ديسقورس . وقد أراد بهذه الرسائل أن يجعل الكنيسة بأسرها في صفه قبل أن ينعقد المجمع بالفعل .

٢٠- ولما كان الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير قد وافق على عقد

---

(١) تاريخ المجامع (بالفرنسية) للكاردينال هيفيليه جـ٢ ص٥٢٨ حيث يقول :

" Il (Léon) se rejouit de ce que l'empereur n'a pas seulement un caur impérial, mais de ce qu'il a aussi un caur Sacerdotal " .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتي جـ٤ ص٥٥٦ .

مجمع فقد رأى أن يعقده فى أفسس للمرة الثانية . فأرسل خطاباً دورياً إلى مختلف الأساقفة عين لهم المكان والزمان للاجتماع . ولكنه أرسل خطابين إلى البابا ديسقورس : أولهما يطلب إليه فيه أن يرأس المجمع ويستصحب معه عشرة من أساقفته ، وثانيهما يحتم ابعاد ثيئودوريت أسقف قورش عن المجمع لأنه لم يعلن توبته بعد أن حرمه المجمع المسكونى الثالث الذى كان قد انعقد فى أفسس برياسة الأنبا كيرلس سلف البابا ديسقورس .

٢١- وقد بعث الامبراطور برسالة ثالثة إلى الأنبا ديسقورس قال له فيها : « لقد سمعنا عدداً عديداً من الأرشيمندريت ومن الشعب المؤمن فى الشرق يتناقشون بحرارة فى العقيدة ، وهم مصممون على مقاطعة الأساقفة النسطوريين . لهذا أمرنا بأن يحضر القس التقى الأرشيمندريت برسوما إلى المجمع ليمثل أرشيمندريتى الشرق ويجلس مع قداستكم وبقية الآباء الذين سيحضرون إلى المجمع (١) .

٢٢- وقد تلقى الأرشيمندريت برسوما خطاباً من الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير ينبئه فيه بالكرامة التى نالها . وكان برسوما هذا راهباً مصرياً قضى السنين الطوال فى برية شيهيت وصار أباً لجماعة كبيرة من الرهبان .

٢٣- وكان الهدف الذى يرمى إليه الامبراطور من الدعوة إلى عقد مجمع أفسس هذا هو اعادة النظر فى الحكم الصادر من المجمع الفلابيانى - أى أنه عدّه فى منزلة محكمة استئنافية تعاود النظر فى حكم فلابيانوس الذى كان يرى جلالته فيه حكماً صادراً من محكمة ابتدائية . وقد حدد مدينة أفسس مكاناً للاجتماع كما حدد اليوم الأول من أوغسطس سنة ٤٤١ (٢) موعداً لافتتاحه . على أن لاون الأول أسقف رومية امتلأ مخاوفاً ، وتزايدت مخاوفه باقتراب موعد المجمع . فبعث برسالة إلى الامبراطور يعبر له فيها عن هذه المخاوف إذ قال له : « كان من المستحسن عدم عقد مجمع ، ولكن بما أن الدعوة لعقده قد صدرت فالمرجو أن يظل الامبراطور على ولائه للايمان

---

(١) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص١٠٨- ١٠٩ .

(٢) أو سنة ٤٤٩ ميلادية غربية .

القويم » . ووالى لاون الكتابة فبعث بعدة رسائل إلى فلابيانوس يستحثه فيها على حفظ الايمان الأرثوذكسي ويرجو منه ابداء العطف على أوطيخا (١).

٢٤- وكانت الأميرة بولشريا الأخت الكبرى للامبراطور سيدة قوية الشكيمة واسعة النفوذ ، فكتب إليها لاون الأول يعتذر عن أوطيخا بقوله لها إنه سقط فى البدعة عن جهل (٢) ، وأنه إن تاب وجبت معاملته بالرحمة . ولم يكتف بهذه الرسائل بل شفعها بخطابين إلى يوليوس أسقف كوس . وقد طالب فى جميع هذه الرسائل باستعمال الرأفة مع أوطيخا إن هو أعلن توبته. بل أنه طالب فلابيانوس نفسه بالترفق به فى معاملته (٣).

٢٥- ورغم مخاوفه ، ورغم عدم موافقته على عقد المجمع ، فإن لاون الأول لبى الدعوة بأن أرسل ثلاثة مندوبين عنه وعن الكنيسة الرومانية إلى المجمع. وهؤلاء الثلاثة هم الأسقف يوليانوس والشماس هيلاريوس والكاتب دولقيط حاملاً رسالة منه إلى فلابيانوس القسطنطيني وليس إلى المجمع كما يقضي القانون الكنسي (٤) . ولقد بعث لاون الأول بمندوبيه هؤلاء لأنه كان يعلم أن الدعوة إلى عقد مجمع مسكوني من حق امبراطور الشرق جرياً على التقليد الذى بدأه الامبراطور قسطنطين الكبير حين دعا إلى عقد مجمع نيقية (المسكوني الأول) . لأن الكنائس الرسولية فى الشرق عديدة بعكس الغرب الذى لا يملك منها غير كنيسة واحدة هى كنيسة رومية. والمبدأ القانوني يقرر بأن شهادة الفرد باطلة (٥) . ومع استجابة لاون الأول لدعوة الامبراطور

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتي جـ٤ ص٥٦١ .

(٢) تاريخ المجامع (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٥٥ حيث يقول :

" Eutychés était tombé plutôt par ignorance que par mechanceté " .

(٣) شرحه جـ٢ ص٥٥٦ – ٥٥٨ حيث يقول : " S'il retractait, on ne refuserait pas de se montrer miséricordieux à son égard " .

ثم يعود فيقول : " Léon adressa encore une lettre à Flavien et il l'exborta à la douceur à vis d'Eutychés " .

(٤) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص١١٦ ، تاريخ الانشقاق لجراسيموس مسرة جـ١ ص٢٣٥ .

(٥) أو على حد التعبير اللاتيني " testis unus testis nullus " راجع « مجمع خلقيدون » ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتيني المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الراهب فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كرادلة طبع فى رومية سنة ١٦٩٤ ص٤٢ .

ثيئودوسيوس الصغير فقد استمر يبدى مخاوفه حتى بعد قيام مندوبيه إلى أفسس إذ كتب يقول أنه ليس هناك ما يقتضى عقد مجمع (١) .

٢٦- وكان الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير قد طلب إلى يوبينياليوس أسقف أورشليم ودومنوس أسقف أنطاكية (٢) أن يشاركا البابا ديسقورس مسئولية الرياسة .

٢٧- ويبدو من محاضر هذا المجمع الأفسسى الاستئنافى أن مئة وثلاثين أسقفًا حضروه ، من بينهم - عدا الثلاثة الذين ذكروا : فلابيانوس القسطنطينى ، يوليوس الأسقف المنتدب لتمثيل الكنيسة الغربية ، استفانوس أسقف أفسس ، ثلاسيوس أسقف قيسارية الكبادوك وغيرهم من الأساقفة الذين سارعوا إلى تلبية دعوة الامبراطور لاقرار السلام فى الكنيسة . وكانت كنيسة رومية قد انتدبت الكاهن ريناتوس لتمثيلها إلا أنه مات فى الطريق . وفى آخر القائمة ورد اسم الشماس هيلاريوس المندوب الشخصى لأسقف رومية . كذلك حضر هذا المجمع الأفسسى الاستئنافى عدد من الكتبة إذ قد استصحب كل أسقف كاتبه الخاص . وكان يوحنا القس الاسكندرى رئيساً للكتبة .

٢٨- وقد عين الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير مندوبين ليحضرا المجمع نيابة عنه ويحافظا على النظام : هما الكونت ألبيديوس وأولوجيوس كاتب الحرس الامبراطورى . وقبل أن يصل المندوبان الامبراطوريان إلى أفسس لتأدية المهمة التى انتدبا لأجلها وصل خطاب امبراطورى إلى بروكلس حاكم آسيا الصغرى يحمل إليه الأمر باستعمال سلطته لمعاونة مندوبيه فى المحافظة على المجمع من مؤامرات النسطوريين وبخاصة من

---

(١) تاريخ المجامع (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٥٥٨ حيث يقول :

" ... somme toute, le synode ordonné par l'empereur n'était nullement nécessaire " .

(٢) يقول مارسويريوس يعقوب توما أن الأسقف الذى شارك ديسقورس ويوبيناليوس عبء الرياسة هو ثلاسوس رئيس أساقفة قيسارية الكبادوك وليس دومنوس الذى كان متهماً بالنسطورية . راجع كتابه تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية جـ٢ ص٧٤ - ٧٩، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٩ .

ثيلودوريت أسقف قورش المحروم من المجمع الأفسسى (المسكونى الثالث).

٢٩- وقد حمل المندوبان الامبراطوريان خطاباً إلى المجمع طالب فيه ثيلودوسيوس الصغير آباءه بأن يقضوا على النسطورية قضاءً مبرماً بعد أن أصدر المجمع المسكونى الثالث حكمه بحرم نسطور وتجريده من كل رتبة كهنوتية.

٣٠- ولقد تباطأ مندوبو لاون الأول فى الحضور: فلما أرسل إليهم المجمع مندوبيه يستدعيهم أجابهم الكاتب دولقيط: «إن الرسائل التى حملنا إياها لاون رئيس أساقفة رومية تقضى بحضورنا المجمع المقدس عند بحث قضية محب الله القس ورئيس الدير أوطيخا فحسب فلا نحضره عندما يتداول آباؤه فى أمور أخرى» (١).

٣١- وفى الجلسة الأولى قرأ يوحنا القس الاسكندرى ورئيس كتبة المجمع خطاب الامبراطور ثيلودوسيوس الصغير الذى يتضمن أمره بعقد المجمع وأمله فى أن يسود السلام فى الكنيسة. وما أن انتهى من تلاوة هذا الخطاب الامبراطورى حتى أعلن الأسقف المنتدب من الغرب أنه هو وزملاؤه يحملون خطاباً من أسقف رومية استجابة لدعوة الامبراطور، وأن الرسالة تتضمن هذا المعنى. وما كاد البابا ديسقورس يسمع كلماتهم حتى قال: «فلنقرأ رسالة لاون أخينا وزميلنا فى الخدمة الرسولية». إلا أن يوحنا كبير الكتبة أعلن بأنه لا تزال لديه عدة رسائل امبراطورية لم يقرأها بعد، فأمر يوبيناليوس أسقف أورشليم وشريك الأنبا ديسقورس فى رياسة ذلك المجمع الأفسسى الاستئنافى بقراءة الرسائل الامبراطورية أولاً. وكان بين تلك الرسائل الرسالة التى تضمنت أمر الامبراطور بحضور الأرشيمندريت برسوما إلى المجمع (٢).

---

(١) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص١١٨ – ويلاحظ هنا أن المندوب الرومانى يحتفظ بالألقاب الكهنوتية لأوطيخا رغم الحكم الفلابيانى كما يصفه بأنه محب لله.

(٢) «مجمع خلقيدون»، ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتينى المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الراهب فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كرادلة – طبع فى رومية سنة ١٦٩٤ ص٤٦ تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص١٢٩.

٣٢- وبعد الانتهاء من تلاوة رسائل الامبراطور أعلن البابا ديسقورس بأن الايمان الذى قرره الآباء فى نيقية والقسطنطينية وأفسس (المجامع المسكونية الثلاثة) هو الايمان الأرثوذكسى الذى يتمسك به هو وكنيسته المصرية . ثم قال : « هل بين الآباء المجتمعين هنا من يجسر على أن يغيّر هذا الايمان أو يبتدع فيه ؟ » فأجاب الجميع : « إن من يجسر على الابتداع فى ما قرره آباء هذه المجامع المسكونية المقدسة جدير بالحرم » . فعاد البابا ديسقورس يقول : « ولكن لأجل راحة ضمير كل منا ، ولأجل تثبيت الايمان واستئصال شأفة الخصام ، يجب أن نذكرّ أنفسنا بالايمان الذى سلمه لنا آباء هذه المجامع المسكونية المقدسة » . فهتف آباء المجمع : « إن هذا الايمان يخلص المسكونة . وقد حدده لنا الآباء كاملاً » . فأعلن البابا عند ذاك حرمه لكل من يعلّم خلافاً للدستور الذى وضعته المجامع المسكونية الثلاثة . فقال آباء المجمع : « ليحيا ديسقورس حارس الايمان . ففى شخصك يحيا الآباء أيها الراعى اليقظ » . وإذ رأى البابا الاسكندرى اجماع الأساقفة على حفظ الايمان الذى أقره الآباء قال : « مادمنا متفقين على الايمان الواحد فلنستعرض معًا الحكم الذى صدر من فلابيانوس ومجمعه ضد أوطيخا » (١) . ومن هذه الكلمات يتضح الغرض الذى انعقد لأجله هذا المجمع : أى أنه كان بمثابة محكمة استئناف تستهدف فحص القرارات التى أصدرها المجمع الفلابيانى . ولهذا السبب لا يعد مجمعاً مسكونياً رغم أن الأساقفة الذين اجتمعوا فيه جاءوا من مختلف أقطار المسكونة .

٣٣- وهنا نودى على أوطيخا ليجهر بايمانه . فبدلاً من أن يجيب قدم إلى رئيس الكتبة اعترافه بالايمان مكتوباً بخط يده وموقعًا عليه بامضائه . وفى هذا الاعتراف قال: « إنى منذ صباى أسعى لأن أعيش فى صمت وعزلة، ولم أصل بعد إلى غايتى . وأنا استهدف الآن لخطر داهم لأننى رفضت كل ابتداع . وتمسكت غاية التمسك بالايمان القويم . واننى أعلن محافظتى التامة على الايمان الذى نادى به آباء المجامع المسكونية الثلاثة : نيقية

---

(١) مجمع خلقيدون ... ص٩٥ ، تاريخ الكنيسة السريانية ... جـ٢ ص١٣١ .

والقسطنطينية وأفسس ، واعتمد دومًا على ما كتبه كيرلس المطوّب الذكر معلم المسكونة » .

وما أن ذكر اسم كيرلس حتى هتف الحاضرون جميعاً بأنهم متمسكون بايمان كيرلس الاسكندرى ، وقال أوستاثيئوس أسقف بيرتيوس أن هذا البابا الاسكندرى قد أوضح الايمان بالطبيعة الواحدة لله الكلمة المتجسد ايضاحاً تامًا . وهذا الايمان الذى أوضحه كيرلس وأعلنه ديسقورس هو الايمان الأرثوذكسى القائل بأن السيد المسيح جعل من الطبيعتين - الالهية والبشرية - طبيعة واحدة ، وهو الايمان الذى عبر عنه يوحنا الحبيب بقوله : « الكلمة صار جسداً » (١) .

وعاود يوحنا رئيس الكتبة قراءة اعتراف أوطيخا حيث قال : « إننى أؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق ما يرى وما لايرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد : أعنى أنه من جوهر الآب ، إله من إله ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب فى الجوهر : أعنى أنه مساو لذات الآب ، به كان كل شئ ما فى السماء وما على الأرض ، وهو الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد وتأنس ، تألم وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث ، وصعد إلى السماوات ، ومنها يأتى ليدين الأحياء والموتى . وأؤمن بالروح القدس » .

« أما جميع الذين يقولون بأنه فى وقت ما لم يكن الابن ، أو أنه لم يكن قبل أن يولد ، أو أنه خلق من العدم ، أو أنه من جوهر آخر أو شخص آخر ، أو أنه اختلط وامتزج جميع الذين يقولون هذا محرومون من الكنيسة الجامعة الرسولية . هذا هو الايمان الذى أجهر به والذى تسلمته من آبائى ، فى هذا الايمان ولدت وفيه كرست فقبلتنى رحمة الله ، وفيه اصطبغت بالصبغة المقدسة ، ورسمت كاهناً وعشت حتى اليوم ، وسأظل متمسكاً بهذا الايمان إلى أن أفارق هذه الحياة » .

وقد ذيل أوطيخا اعترافه الأرثوذكسى الصميم هذا بحرم لجميع

---

(١) يوحنا ١ : ١٤ .

المبتدعين من سيمون الساحر إلى نسطوريوس . وبعد الحرم الذى أصدره أوطيخا قال فى اعترافه المكتوب بخط يده ما نصه : « بينما أنا عائش فى هذا الايمان ، مداوم على الصلوات ، افترى علىّ أوسابيوس أسقف دوريليا لدى فلابيانوس الأسقف المكرم ، ولدى غيره من الأساقفة الذين اعتادوا المجئ إلى المدينة الامبراطورية لمختلف الأسباب ، وادعى زوراً وبهتاناً أننى مبتدع ، فخلبوا لبى بكلمات فارغة ثم عقدوا مجمعاً آملين أن لا ألبى دعوتهم ، مبيتين النية على الايقاع بى سواء حضرت أم لم أحضر . وقد كشف لى عن سبق اصرارهم رئيس الحرس الامبراطورى (١) .

٣٤- ثم أكد أوطيخا شفوياً أن محاضر جلسات المجمع الفلابيانى مزورة وأهاب بالمجتمعين أن ينصفوه . وهنا تدخل فلابيانوس قائلاً بأن أوسابيوس أسقف دوريليا كان المشتكى الأول على أوطيخا فيجب استدعاؤه ليمثل فى حضرة المجمع ويؤدى حساباً عما حدث . فقال الكونت ألبيديوس أحد المندوبين الامبراطوريين ، أن جلالة الامبراطور - بوصفه الحامى الأمين لقوانين البلاد - قد أمر بأن الذين جلسوا كقضاة فى مجمع القسطنطينية يقفون الآن فى قفص الاتهام ، وليس لهم حق التكلم ما لم تمنحوهم هذا الحق » .

٣٥- وعندها رأى البابا ديسقورس أن خير حل لهذا الاشكال هو قراءة محاضر المجمع القسطنطينى الفلابيانى . فوافق الأساقفة بالاجماع على رأيه ما عدا مندوبى أسقف رومية اللذين اقترحا تلاوة خطاب أسقفهما . فقاطعهما أوطيخا قائلاً بأنه لا يثق فى مندوبى الغرب لأنهما صديقان لفلابيانوس وهما ضيفاه بالفعل . فلما سمع المجمع هذا الاعتراض قرر الأخذ برأى البابا الاسكندرى وقراءة المحاضر . ثم قدم كل من فلابيانوس وأوطيخا تقريراً عما حدث فى مجمع القسطنطينية الذى حضراه (٢) .

---

(١) « مجمع خلقيدون » ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتينى المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الراهب فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كرادلة ، طبع فى رومية سنة ١٦٩٤ ص٢٥، ٤٩ - ٥٠ ، ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) شرحه ص٥٢ - ٥٣ ، ١٠٣ - ١٠٤ ، تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص١٤٨ .

٣٦- وبعد الاصغاء إلى المحاضر والتقريرين المقدمين من فلابيانوس وأوطيخا وقف الأسقف القسطنطيني ليبرر نفسه في ما أصدر من حكم على المبتدع وللمرة الثانية انزلق فـى البدعة النسطورية لأن طومس لاون قد شوّش تفكيره .

٣٧- وحين انتهى من دفاعه تداول المجمع فيما سمعه من الطرفين . وبعد المداولة قال يوبينالوس أسقف أورشليم : « مادام أوطيخا يجهر بايمان نيقية ويؤمن بما أعلنه الآباء فى المجمع العظيم (المسكونى الثالث) الذى انعقد فى مدينتنا هذه ، فمن الواضح لى من كلماته أنه أرثوذكسى - لذلك أقرر وجوب اعادته إلى رتبته الكهنوتية ورياسته للدير » . فردد المجمع : « هذا حق وعدل » . ثم قال دومنوس أسقف أنطاكية : « كان قد وصلنى من القسطنطينية الحكم الصادر من فلابيانوس على أوطيخا (١) فصادقت عليه إذ اعتقدت بصحته . أما الآن وقد اتضح لى من الاعتراف المكتوب بخط يد أوطيخا الذى استمعنا إليه فى هذا المجمع - فقد تبين لى أن المحكوم عليه أرثوذكسى لأنه أعلن صراحة « تمسكه بايمان نيقّية وبتعاليم الآباء (آباء المسكونى الثالث) الذين اجتمعوا فى هذه المدينة . لهذا أعلن موافقتى على استحقاق أوطيخا لكرامة الكهنوت ولرعاية الرهبان » .

وما أن انتهى دومنوس من كلامه حتى قام استفانوس أسقف أفسس وقال : « من الواضح لى - بعد أن سمعت محاضر المجمع الفلابيانى - أن الأرشيمندريت أوطيخا أرثوذكسى متمسك بايمان الثلاثمائة والثمانية عشر الذين اجتمعوا فى مجمع نيقية . لهذا أرى أنه مستحق الكهنوت ورياسة الدير» . وأضاف تلاسيوس أسقف قيسارية الكبادوك : « بما أن أوطيخا لم يبتدع فى الايمان الذى سنّه مجمع نيقية فإننى أعدّه جديراً بكرامة الكهنوت» .

٣٨- وقد وافق الآباء بالاجماع على ما قرره هؤلاء الأساقفة الأربعة

(١) تاريخ المجامع (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٥٢٧ ، ويسرد هذا المؤرخ الكنسى (على الصفحة عينها) الكلمات التى استعان بها فلابيانوس على وصف أوطيخا وهى أنه ذئب فى ثوب حمل وهذا نصها : " Il iy a de gens qui, sous la peau de l'agneau, sont des loups ravissants. Teĺ est le cas d'Eutychés ... " .

وحكموا بتبرئة أوطيخا والحكم على فلابيانوس . وبازاء هذا الاجماع قال البابا ديسقورس : « إننى أوافق هذا المجمع المقدس وأحكم برد أوطيخا إلى كرامة الكهنوت وإلى رعاية شئون ديره كسابق عهده » .

٣٩- وكان أول الموقعين على الحكم يوبينالوس أسقف أورشليم ، فدومنوس أسقف أنطاكية ، وآخرهم الأرشيمندريت برسوما . أما البابا ديسقورس فلم يذيل هذا الحكم بتوقيعه إلا بعد أن صادق على امضاءات الأساقفة المئة والثلاثين الذين اجتمعوا معه (١).

ثم تقدم يوحنا كبير الكتبة برسالة من الرهبان الذين يرعاهم أوطيخا وسأل الأساقفة المجتمعين إن كانوا يودون سماعها فأجابوه بالايجاب . وبعد تلاوة الرسالة وجدوها أرثوذكسية صحيحة ، وبالمناقشة فيما حوته ثبت لآباء المجمع أن أولئك الرهبان يؤمنون بما جاء فى رسالة رئيسهم أوطيخا إذ قد أعلنوا فيها أنهم يؤمنون بدستور نيقية ويتمسكون بتعاليم البابا كيرلس الاسكندرى . ولما اقتنع آباء هذا المجمع الاستئنافى بصحة ايمان رهبان أوطيخا حكموا ببراءتهم جميعاً من كل بدعة ، وباركوهم كما باركوا رئيسهم ، وأذنوا لهم فى العودة إلى ديرهم. ثم أصدروا حكمهم بحرم فلابيانوس وستة من أساقفته (٢) . وأرسلوا صورة من الحكم إلى الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير الذى صادق عليه وأمر بنفى فلابيانوس وزملاءه .

٤٠- وعندما رأى فلابيانوس أن الدائرة دارت عليه قرر أن يستأنف الحكم الصادر ضده . ولما كان أساقفة هذا المجمع - المئة والثلاثون - قد وقّعوا الحكم عليه ، ولما كان ثلاثة من بينهم قد جلسوا فى مجمعه ثم رجعوا عن رأيهم (٣) ، وكانوا قد أدانوا أوطيخا ثم برّأوه ، ولما كان أسقفا أورشليم

---

(١) « مجمع خلقيدون » ترجمه إلى العربية عن الأصول اللاتينية المحفوظة بمكتبة الفاتيكان الراهب فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كرادلة - طبع فى رومية سنة ١٦٩٤ص٥٧ - ٥٨ ، «تاريخ المجامع» (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٥٦٧ .

(٢) تقرر الكنائس الشرقية أن حكم الحرم إن صدر عن غير حق ارتد على من أصدره لأنه سيف ذو حدين .

(٣) « مجمع خلقيدون » ترجمة ... ص٥٨ - ٦٠ ، تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٥٦٦ .

وأنطاكية قد انضما هما أيضاً إلى أوطيخا ، ولما كان هذا كله حقيقة أدركها فـلابيانوس فقد أدرك معها أن الاستئناف إلى الأساقفة الشرقيين سيكون عبثًا. ولكنه – مع ذلك – عزم على ارسال خطاب دورى إلى جميع أساقفة الشرق والغرب وبخاصة إلى لاون الأول أسقف رومية (وزملائه الغربيين) . وفى خطابه إلى الأسقف الرومانى أوضح له أنه استعان بطومسه فى ادانة أوطيخا (١) .

٤١ – وحين تسلم أسقف رومية خطاب فلابيانوس بعث إلى الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير برسالة باسمه وباسم مجمعه يستحلفه فيها أن يعمل على اعادة النظر فى الحكم الصادر ضد فلابيانوس من المجمع الأفسسى الاستئنافى . وقد هاجم لاون الأول هذا المجمع علناً فى رسالته واستعطف الامبراطور ليأمر بعقد مجمع آخر فى مكان ما بايطاليا (٢) .

ولكى يضيف أسقف رومية إلى طلبه قوة استشفع بامبراطور الغرب وبأمه وبزوجته . ولقد تأثر ثلاثتهم بما كتبه إلى حد أن كلاً منهم كتب خطاباً منفرداً إلى ثيئودوسيوس الصغير معززاً فيه طلب أسقف رومية بعقد مجمع على أرض ايطالية .

٤٢ – فرد الامبراطور على كل منهم رداً منفرداً أيضاً . وكانت الخطابات الثلاثة تتضمن معنى واحداً : هو أن المجمع الأفسسى الاستئنافى يتكون من مجموعة من الأساقفة الأتقياء الذين دافعوا عن الايمان الأرثوذكسى ، وأدانوا فلابيانوس بعدل لاثارته الفتنة فى الكنيسة . فقد قال فى رده ما نصه : « إن مجمع أفسس تصرف بمخافة الله المطلقة وبالايمان القويم ولم يمس بأذى قوانين الآباء كما علمت كل شئ بالتأكيد . لذلك فإنكم لحسنًا تفعلون إذا كنتم لا تتدخلون فى الأمر » . ويتضح من هذا الخطاب اصرار امبراطور

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) ... جـ٤ ص٥٦٥ والحاشية الواردة على أسفل الصفحة عينها .

(٢) « مجمع خلقيدون » ترجمه ... ص٦٢ – ٦٣ ، « تاريخ الكنيسة الأنطاكية» لمارسويريوس يعقوب توما متروبوليت بيروت ودمشق وتوابعها للسريان الأرثوذكس جـ٢ ص١٤٩ .

الشرق على وجوب احترام المجمع الأفسسى الاستئنافى وعلى تنفيذ قراراته حتى آخر نسمة من حياته (١) .

٤٣- وبينما كان الأباطرة يتراسلون بعث لاون الأول برسائله إلى اكليروس القسطنطينية وشعبها وأرشيمندريتها ، وإلى الأسقف يوليوس وإلى فلابيانوس وقد حاول فى خطابه الأول أن يستثير الشعب القسطنطينى كى لا يقبل أسقفاً عليه غير فلابيانوس إذ لم يكن قد بلغه أن هذا الأسقف قد مات فى منفاه (٢) .

٤٤- ولكى يؤكد الامبراطور ثيئودوسيوس احترامه للمجمع الأفسسى الثانى بعث بخطاب إلى اكليروس القسطنطينية وشعبها يأذن لهم فيه بانتخاب أسقف بدلاً من فلابيانوس ويرجو منهم فيه أن يختاروا أسقفاً أرثوذكسيًا ويتحاشوا جميع النسطوريين . وقد قبل القسطنطينيون مشورة الامبراطور فاختاروا أناطوليوس ليجلس على السدة الشاغرة (٣) . وقد أغضب انتخابهم هذا أسقف رومية لأن أناطوليوس كان أصلاً شماساً اسكندرياً ، كما كان سفيراً للبابا الاسكندرى فى القسطنطينية (٤) وقد رأس الأنبا ديسقورس الاحتفال برسامته ثم عاد إلى بلاده بالسلامة .



---

(١) « مجمع خلقيدون » ترجمه ... ص٦٣ - ٦٧ ، تاريخ الكنيسة السريانية ... جـ٢ ص١٥٠ حيث يعلق على خطاب الامبراطور ثيئودوسيوس بقوله : « هكذا ظل أسقف رومية مدة من الزمن يتقلب على أحر من الجمر لعدم بلوغه غايته المنشودة » وهذا مثل تاريخى واضح على أن امبراطور الشرق كان - هو وحده - صاحب الحق فى الدعوة إلى المجامع المسكونية لأن المجمع لم ينعقد رغم أن أسقف رومية وامبراطور الغرب رغبا فيه .

(٢) مجمع خلقيدون ... ص٦٧ - ٧٢ .

(٣) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) ... جـ٤ ص٥٧٢ ، تاريخ الانشقاق لجراسيموس مسرة جـ١ ص٢٢٥ .

(٤) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) ... جـ٤ ص٥٧٤ .

ب- فى خلقيدون

(٤٥) الامبراطور ثيئودوسيوس لم ينجب ولداً ويستشير آباء الصحراء فى هذا الشأن .
(٤٦) رسل الامبراطور يشهدون سطو البربر على الآباء .
(٤٧) الآباء يرسلون راهباً ورعاً لتقوية عزيمته .
(٤٨) بولشريا تنقض عهد بتولتها وتتزوج من مرقيانوس .
(٤٩) غيرتها من نفوذ البابا الاسكندرى .
(٥٠) لاون ومرقيانوس يتبادلان الخطابات .
(٥١) تراجع لاون عن رغبته فى عقد مجمع .
(٥٢) مرقيانوس يقرر عقد مجمع .
(٥٣) خطاب لاون إلى مرقيانوس يتضمن تلبية الدعوة .
(٥٤) امبراطور الشرق هو وحده صاحب الحق فى الدعوة إلى عقد مجمع مسكونى .
(٥٥) خطاب بولشريا إلى لاون .
(٥٦) رد لاون عليها .
(٥٧) المسيحيون جميعاً يتناقشون فى بدعة أوطيخا قبل انعقاد المجمع .
(٥٨) رغبة مرقيانوس فى عقد المجمع بنيقية .
(٥٩) تجمع الأساقفة فى نيقية ثم ذهابهم إلى خلقيدون .
(٦٠) افتتاح المجمع فى حضرة الامبراطور والامبراطورة .
(٦١) ترتيب الجلوس والرياسة .
(٦٢) أساقفة الغرب وشمال أفريقية الذين حضروا المجمع .
(٦٣) ادعاءات مندوبى رومية .
(٦٤) التهمة الأولى ضد البابا ديسقورس .
(٦٥) التهمة الثانية .
(٦٦) الشغب والتذبذب فى المجمع .
(٦٧) مضبطة المجمع الأفسسى تبين حقيقته .
(٦٨) صيحة المصريين بالحق .
(٦٩) التهمة الثالثة ضد البابا ديسقورس .
(٧٠) القضاة المدنيون يحاولون تبديد التوتر .
(٧١) موقف أسقف سلوقية .
(٧٢) « ديسقورس رأس الأساقفة يحفظ الايمان » .
(٧٣) اعلان البابا ديسقورس ايمانه فى المجمع .
(٧٤) حكمه الصحيح على أوطيخا .
(٧٥) معاودة أسقف سلوقية إلى التلفيق .
(٧٦) توبيخ البابا ديسقورس له .

(٧٧) أساقفة الشرق يستغفرون ثلاث مرات .
(٧٨) البابا ديسقورس يحرم لاون وطومسه .
(٧٩) الشكوك تساور بعض الأساقفة فيطلبون مهلة خمسة أيام .
(٨٠) مطالبة الغربيين بتفسير الكلمات اللاتينية المبهمة .
(٨١) سوء النية المبيتة للبابا ديسقورس .
(٨٢) المجمع يجتمع بعد ثلاثة أيام فقط .
(٨٣) الدعوة الثانية من المجمع كالأولى : مهزلة .
(٨٤) الشكوى الأولى ضد البابا الاسكندري .
(٨٥) الشكوى الثانية وما تلاها من شكاوى .
(٨٦) سبق اصرار الخلقيدونيين على الايقاع بالبابا ديسقورس .
(٨٧) الادعاءات الرومانية .
(٨٨) الحكم المجمعى على البابا ديسقورس .
(٨٩) غضب القضاة المدنيين .
(٩٠) شذوذ الحكم الخلقيدونى .
(٩١) أرثوذكسية البابا ديسقورس لا غبار عليها .
(٩٢) احتجاج رومية على القانون الثامن والعشرين واقرار المجمع الخلقيدونى له رغم ذلك .
(٩٣) انتظار الخلقيدونيين رد الامبراطور مرقيانوس .
(٩٤) مصادقة مرقيانوس على حكم المجمع وأمره بنفى البابا ديسقورس .
(٩٥) أربعة من أصدقاء البابا الاسكندري يختارون النفى معه .
(٩٦) تحمله الاهانات فى سبيل الايمان .
(٩٧) اجتذابه الناس إلى الايمان وهو فى المنفى .
(٩٨) بعض أصدقائه يزورونه فى منفاه .
(٩٩) تاجر مصرى تجنح سفينته فيزور البابا ديسقورس .
(١٠٠) بفنوتى رئيس الأديرة الباخومية يزوره .
(١٠١) البابا ديسقورس يدخل إلى فرح سيده .
(١٠٢) شهادة بعض الآباء له .
(١٠٣) ثيئوبيستوس سكرتير البابا الاسكندرى يكتب سيرته ويضطر إلى البقاء بعيداً عن مصر .

ب- فى خلقيدون

٤٥- تلك كانت الحالة حين انتقل الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير إلى الدار الباقية دون أن ينجب ولداً . وكانت أخته الكبري بولشريا قد دبّرت زواجه بمعرفتها فشعرت بخيبة الأمل حين لم ينجب أخوها من يخلفه على العرش . وكانت قد استحلفته (فى وقت ما) أن يتزوج من امرأة ثانية . ولكنه لم يعمل بمشورتها ، بل أرسل إلى برية شيهيت طالباً النصح والعزاء من آباء الصحراء المصرية . وحين تقابل رسول الامبراطور مع هؤلاء الآباء وأعلمهم بالسبب الذى جاءهم لأجله قال له يؤنس شيخهم : « قل للامبراطور أن لا يحفل بالنصيحة الجوفاء لأن اللّه لن يهبه ولداً ولو تزوج من عشر نساء » .

٤٦- وبينما هم يتحادثون فى هذا الموضوع انقضّ على الدير جماعة من البربر فهتف يؤنس : « أن البربر يبغون قتلنا ، فمن خاف فليهرب ، أما من شاء أن يحظى باكليل الشهادة فليبق » . وظل الراهب الشيخ يؤنس فى مكانه ، وبقى معه ثمانية وأربعون راهباً قتلهم البربر جميعاً . ولما عاد الرسول إلى القسطنطينية ووصف الحادثة للامبراطور أمر ببناء كنيسة على اسمهم فى عاصمته (١) .

٤٧- وأطاع الامبراطور مشورة الآباء المصريين ولم يتزوج ثانية . وكان رهبان شيهيت قد أرسلوا إلى القسطنطينية مع الرسول الامبراطورى ناسكاً شيخاً تقياً ورعاً اسمه إيليا ، كما كانوا قد بعثوا مع الرسول نفسه بخطاب يقولون فيه : « ها نحن مرسلون إليك رجلاً قديساً اسمه إيليا قريب الشبه من إيليا النبى» (٢) . وقد قضى هذا الراهب الوقور بعضاً من الوقت مع الامبراطور وهو يقوّيه ويعزّى قلبه . فلما أحسّ بأنه قد أدّى رسالته استأذن فى العودة إلى برية شيهيت ثانية .

(١) مخطوط يروى سيرة التسعة والأربعين شيخاً محفوظ بدير الأنبا بيشوى ، «الصادق الأمين» للراهبين المقاريين الايغومانس فيلوثاوس والقس ميخائيل (السنكسار القبطى) طبع فى مصر سنة ١٦٢٩ش جـ١ ص٣١٨ - ٣٢٠ .

(٢) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٢ ص٦٠٦ .

٤٨- وفى سنة ٤٤٢م (١) لما مات الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير بغير خلف اعتزلت زوجته الامبراطورة أودوكسيا العالم وذهبت إلى أورشليم حيث قضت بقية حياتها .

وكانت الأميرة بولشريا ذات مطامع واسعة : فقد أشرفت بنفسها على تربية أخيها ، واختارت له زوجته بمعرفتها ، ثم استحلفته بالزواج ثانية حين وجدت أن الزوجة التى اختارتها هى لم تنجب ولياً للعهد . وكانت مدفوعة فى هذا كله برغبتها الجامحة فى أن تحتفظ بالعرش لسلالة أبيها . بل أن هذه الرغبة كانت عنيفة فى نفسها إلى حد أنها نذرت بكارتها للرب وأقنعت أختيها باقتضاء أثرها إذ كانت هى أكبرهن سنّاً . وقد فعلت كل هذا لتسدّ الطريق على أى منافس لأخيها فى عرش أبيها . وهكذا عاشت هى وأختاها فى جناح خاص من القصر أطلق عليه اسم « جناح الملكات العذارى » (٢) . وحين وجدت بولشريا أن كل جهودها قد ذهبت هباء منثوراً لأن أخاها لم يخلف من يعتلى العرش من بعده خشيت أن ينتقل السلطان من عائلتها إلى عائلة أخرى . فنقضت نذر بتولتها ، وخلعت عنها ثوب الرهبنة وتزوجت من القائد مرقيانوس الذى رفعته إلى مرتبتها ومنحته أن يشاركها عرش أبيها . وقد أعطاها لاون الأول أسقف رومية الحل فوراً بينما رفض جميع الأساقفة أن يمنحوا البركة لزواج راهبة سابقة .

٤٩- ولما كانت بولشريا على هذه الصفات كانت لا تطيق نفوذاً غير نفوذها . وكانت - لهذا السبب عينه - تشعر بغيرة عنيفة من خليفة مارمرقس لما يتمتع به من نفوذ واسع (٣) . وهكذا كان اعتلاؤها العرش الفرصة التى طالما ترقّبها الأسقف الرومانى ، والتى لم يظفر بها فى حياة الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير . وحيث أنه لم يتردد فى منحها بركته

---

(١) أى سنة ٤٥٠م غربية وهو التاريخ الأكثر شيوعاً .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٠٢ - ٣٠٤ حيث يصف بولشريا وأختيها على ص٣٠٣ بكلمة " Vierges - Reines " .

(٣) تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة لجون نيل جـ١ ص٢١٠ حيث يقول ما نصه :

The power of the Prelate of Alexandria was in some respects greater than that of the Bishop of Rome over his own prelates, and the civil authority attached to the office was ... exeedingly great .

لزواجها ، فقد سارع إلى تهنئتها ومرقيانوس زوجها . وانتهز الفرصة فاقترح عقد مجمع فى آخر خطاب التهنئة .

٥٠– وقد تبادل لاون الأول والامبراطور مرقيانوس عدة رسائل ذات مغزى خاص . ومن عبارات هذه الرسائل نستطيع أن نستشف الدوافع الداخلية التى أملتها . فقد بعث هذا الأسقف الرومانى برسالتين متتاليتين إلى الامبراطور قال له فى أولاهما : « من لاون الأسقف إلى مرقيانوس المنتصر – أعلم أيها الملك أننى تسلمت رسالتك بفرح عظيم . وقد أمعنت النظر فيها وأدركت رموزها ... » – وبعد أن أفاض المديح لذلك العاهل قال له : « تقبّل هذه الرسالة القصيرة الآن التى يحملها إليك شمامسة أناطوليوس . وسأبعث لك برسالة أخرى إن شاء الله مع رسلى الخصوصيين أخبرك فيها بكل ما يليق الأخذ به لمصلحة الكنائس والتفاهم بين رجال الدين الموقرين » .

وقد تبعت هذه الرسالة الأولى رسالة ثانية فوراً جاء فيها : « من لاون الأسقف إلى مرقيانوس المنتصر – أعلم أيها الملك أننى سّلمت ردّى على رسالتك لرهبانك ... وقد تلقيت بفرح عظيم خطاب حنانك ، وكان لى مصدر حبور ، لأننى عرفت منه ما تنويه من اصلاح أمور الكنيسة ... أعلم أيها الملك العظيم أننى – اعتماداً على ارشاد الله – أرجو أنه بواسطة محبتك تستقيم الأمور . والآن أستحلفك وأستعطفك بسر الخلاص العجيب أن تشدد قلبك ، وبسلطانك تمنع كل مشاغب مخدوع من أن يفحص الايمان بغروره ومكره... فإنه لا يليق ولا يوافق أن نرجع إلى المناقشات العالمية وأن نبحث عن أقوال الجهلاء لئلا نضلّ عن الحق الثابت كأنه لا يزال هناك شك فيه . فليس من واجبنا أن نشكّ فى أوطيخا إن كان قد ضلّ بسبب معتقده الخاطئ أو لم يضل، وليس لنا أن نشتبه فى عدالة الحكم الصادر من ديسقورس ضد فلابيانوس المطوّب الذكر . ولكن عدداً من الأساقفة قد ندم وأعلمنا بالشّر الذى حدث طالبين الصفح عن كل ما اقترفوه . فليس لنا أن نفحص ايمانهم بل علينا أن نقبلهم ونصفح عنهم [١] .

---

(١) « مجمع خلقيدون » ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتينى المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الراهب فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كرادلة – طبع فى رومية سنة ١٦٩٤ ص٧٢ – ٧٤ .

وإن من يمعن النظر في جميع الرسائل التى كتبها لاون الأول بخصوص أوطيخا ليجدها تشير إلى وجوب الترفق به . وليس بمستغرب أن ينصح أسقف بالترفق ولكن المستغرب أن يتناسى هذا الأسقف نصحه ساعة أن تآمر مندوبوه مع بعض الأساقفة فى خلقيدون ضد الأنبا ديسقورس فزعموا أنه شارك أوطيخا بدعته استناداً إلى أنه حكم ببراءته . والأغرب من هذا كله خطابه الآنف الذكر الذى قال فيه : « ليس من واجبنا أن نشكّ فى أوطيخا إن كان قد ضلّ بسبب معتقده الخاطئ أو لم يضلّ » ... ليس لنا أن نشتبه فى عدالة الحكم الصادر من ديسقورس ضد فلابيانوس المطوب الذكر ، ... ليس لنا أن نفحص عن ايمانهم بل علينا أن نقبلهم ونصفح عنهم» ... إننا نعجب –وبحق– لصدور مثل هذه العبارات من أسقف مسئول أمام الكنيسة فنتساءل : ما الدافع الخفى الذى جعل لاون يمنح عفوه ؟ وعلى أى أساس سيعفو عن الأساقفة الخاطئين إن كان ليس من حقه أن يفحص ايمان هؤلاء الأساقفة ؟

٥١– على أن لاون تراجع عن رغبته فى عقد المجمع بعد مكاتبة أناطوليوس أسقف القسطنطينية والامبراطورة بولشريا ، فعاد يكتب إلى الامبراطور قائلاً إنه لم يعد هناك حاجة إلى عقد مجمع بعد الجهود التى بذلها كل من أناطوليوس وبولشريا (١) .

٥٢– وبعد تبادل هذه الرسائل بين لاون الأول ومرقيانوس أعلن هذا الامبراطور استعداده لعقد مجمع على أن يحدد هو مكانه وزمانه ، وقال بأنه إن لم يكن فى استطاعة الأسقف الرومانى أن يحضر بنفسه فليرسل من ينوبون عنه ليجلسوا مع بقية الأساقفة الذين سيجتمعون ليقرّوا الايمان .

فلمّا رأى لاون هذا الاستعداد لدى مرقيانوس أرسل إليه عدة رسائل

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٥٧٨ حيث يقول ما نصه : " Il (Léon) pensait que, Grâce au concours d'Anatolius et de Pulchérie, on pourrait mettre fin à la plupart des discussions ... " Quant au concile que nousmêmes nous avons demandé, il n'y a pas de necessité de réunir les evêques de toites les provinces' ... " .

طالباً إليه فيها أن يعقد مجمعًا فوراً فى مكان ما بايطاليا (١) . – إلا أن الامبراطور– مع موافقته على الاقتراح بعقد مجمع – لم يقابل هذا الطلب بالترحاب ، إذ قد شاء أن يستعمل الحق الذى خوّلته إياه التقاليد بوصفه امبراطوراً للشرق – أى الحق فى تحديد مكان المجمع وزمانه. فبعث برسائله إلى مختلف الأساقفة يعيّن لهم فيها الزمان والمكان الذى حددهما هو بنفسه لعقد المجمع (٢) .

٥٣– ولما وصل خطاب الامبراطور مرقيانوس إلى أسقف رومية بعث إليه بالرد التالى : « من لاون الأسقف إلى مرقيانوس المنتصر – لقد طلبت إليك أن تؤجل موعد المجمع المطلوب عقده للمصالحة بين الكنائس الشرقية ، لأن بعض الأساقفة لا يستطيعون السفر هذه الأيام بسبب الحروب الناشبة فى بلادهم ، وقد يستطيعون الحضور فيما بعد . وأنا أعرف أنك ستجعل المكانة الأولى للأمور الكنسية . ولست أرغب فى أن أعصاك ، ولكنى أتمنى تثبيت الايمان فى القلوب . ولقد ضلّ نسطوريوس وأوطيخا عن الحق . ولئن اختلف كل منهما فى التعبيرات التى استخدمها ، إلا أن كليهما ماكر لئيم . فيجب على الجميع أن يسخروا من تعليمهما ... ومع أنى لا أستطيع الحضور بنفسى تلبية لدعوتكم إلا أننى سأبعث بمندوبين عنى هما باسكاسينوس ولوسنتيوس ومعهما بعض الكهنة (٣) .

٥٤– وهكذا قبل الأسقف الرومانى أن يمثّله مندوبوه فى المجمع الذى دعا إليه الامبراطور مرقيانوس بخطاب منه حدد فيه بنفسه المكان والزمان لعقده : قبل لاون الدعوة مع أنه كان قد أبدى رغبته للامبراطور فى العدول عن عقد المجمع . فكان قبول هذه الدعوة دليلاً آخر على أن امبراطور الشرق

---

(١) وهنا أيضاً يناقض لاون الأول نفسه بنفسه ، فيطالب بعقد مجمع ثم يعدل عن الطلب ثم يعود إلى استعجال عقده نزولاً على رغبة الامبراطور مرقيانوس .

(٢) البابوية المنشقة (بالفرنسية) للأبيه جيتى ص٩٨ .

(٣) « مجمع خلقيدون » ترجمه إلى العربية ... ص٧٤ – ٧٦ ، ويلاحظ فى هذا الخطاب بدء انقلاب لاون الأول على أوطيخا إذ يصفه بأنه « ماكر لئيم » بعد أن كان يعطف عليه، كذلك يساويه بنسطوريوس فى ضلاله .

هو وحده صاحب الحق فى الدعوة إلى عقد المجامع المسكونية (١)

٥٥- ولم تقف الامبراطورة بولشريا فى تلك الأثناء مكتوفة اليدين ، بل زجت بنفسها فى هذا الشأن الخطير ، فكتبت خطاباً إلى لاون الأول قالت له فيه : « من بولشريا المنتصرة إلى الأب الوقور أسقف مدينة رومية العظمى - أعلم يا أبى أننا تسلمنا رسالة قداستكم بما يليق من اكرام لصدورها عن أسقف وعند تلاوتها أدركنا أن ايمانكم صاف وجدير بالكنيسة المقدسة . وإننى أؤمن بهذا الايمان عينه أنا وزوجى الملك القوى . أما الشكوك والبدع والانشقاقات فهى بعيدة عنا . ثم إننى أود أن أعلمك أن أناطوليوس الوقور - أسقف مدينتنا العظيمة - يتمسك بالايمان القويم ، ويعترف بالتعاليم الرسولية . وقد استبعد البدع التى كان البعض يعمل على ترويجها . وسيتبين لك ايمانه الحق من الخطاب الذى بعث به إليك وقد وقعّ بنفسه على الخطاب الذى كنتم قد أرسلتموه إلى فلابيانوس المطوّب الذكر وأيّد ما فيه

---

(١) « مجمع خلقيدون » ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتينى المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الراهب فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كرادلة - طبع فى رومية سنة ١٦٩٤ص٧٢، ٧٥ ، ٧٨ ، « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٥٨٠ حيث أورد نص خطاب لاون الأول الذى يعلن فيه قبول دعوة الامبراطور ويختتمه بوضع أوطيخا فى صف واحد مع نسطوريوس فيقول ما نصه :

" Nous aurions pensé que Votre Clémence se serait rendue au désir que nous lui avions manifesté, d'ajourner à un temps plus fovorable l'assemblée sacerdotale que vous aviez projettée . . Mais puisque par omour de la foi catholique vous avez voulu que l'assemblée eut lieu j'ai envoyé mon frêre et cavêque Paschasinus ... pour me remplacer au concile, afin de ne pas paratre entraver par mon abstention, votre bonne volontee ... Je lui ai adjoint mon confrère dans le sacerdoce, le prètre Bonfaciues ... et mon frêre Gulianus, avec le secours du Seigneur, et grâce à leur modération, ces personnages agiront de manière . à ne laisser dans les cours de quelques éveques aucune trace de l'impiété de Nestorius ou de celle d'Eutychès, car très - glorieux empereur, la foi Catholique ne souffre ni l'un ni l'autre de ces deux hérétiques "

راجع أيضاً كتاب تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما متروبوليت بيروت ودمشق وتوابعها للسريان الأرثوذكس جـ٢ ص١٥٠ حيث أورد المؤلف الأسباب التى جعلت الامبراطور مرقيانوس يلبى رغبة لاون الأول فى عقد مجمع مسكونى للنظر فى قرارات المجمع الأفسسى الديسقورى .

من تعاليم صحيحة . وأود أن أرجو منك أن تستحث أساقفة ايلليريا والشرق وغيرها من البلاد أن يحضروا المجمع تحقيقاً لرغبة زوجي الحنون وذلك لكي يتداولوا معًا في ايمان الكنيسة الجامعة ، ويفحصوا بحنان مسيحي وايمان نصراني قضية الأساقفة الذين انشقوا على الكنيسة من مدة غير بعيدة . كذلك أود أن أعلمك أن زوجي الحنون قد أمر باحضار جثمان فلابيانوس المطوّب الذكر من المنفى لدفنه في مدينتنا العظيمة إلى جانب أحداث سلفائه المكرمين . كذلك أمر زوجي باعادة جميع الأساقفة الذين نفوا مع فلابيانوس المطوّب الذكر إلى كَراسيهم كي يتشاور الأساقفة الذين سيحضرون إلى المجمع في أمرهم ويعيدوهم إلى كراسيهم تبعاً لجدارتهم » (١).

٥٦- وقد أجاب لاون الأول على خطاب بولشريا برسالة شكرها فيها على كل ما أدته للكنيسة من خدمات ، وعلى المعونة التي قدمتها لمندوبيه ، وعلى اعادة الأساقفة المنفيين ، وعلى نقل جثمان فلابيانوس المطوّب الذكر إلى عاصمة كرسيه (٢) .

٥٧- ولقد استاء الأساقفة الشرقيون من جهر بولشريا بايمان لاون الأول الذي عدوه نسطوريًا ، إذ بدا لهم أنها انزلقت في البدعة من غير أن تدري كما انزلق فلابيانوس من قبل - ساعة أن كتب حيثيات حكمه على أوطيخا .

ويبدو من كل هذه الخطابات أن المسيحيين في كافة البلاد قد عرفوا ماهية البدعة الأوطاخية واتخذ كل منهم موقفه بازائها قبل الذهاب إلى المجمع .

---

(١) « مجمع خلقيدون » ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتيني المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الراهب فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كرادلة - طبع في رومية سنة ١٦٩٤ص٧٤ - ٧٥ ، ويجدر القول هنا بأن الامبراطور مرقيانوس - باعادته الأساقفة المنفيين - قد اعتدى على سلطة المجامع التي تملك وحدها الحق في ادانة الأساقفة أو تبرئتهم . كذلك يلاحظ أن الامبراطورة قد أعلنت مقدماً عودة الأساقفة المتهمين إلى كراسيهم .

(٢) تاريخ المجامع (بالفرنسية) للمنسيور هيفيليه جـ٢ ص٥٩٠ .

٥٨- وحينما بعث الامبراطور مرقيانوس بالدعوة إلى عقد المجمع كان ينوى عقده فى نيقية إذ كان يحلو له أن يشبه نفسه بقسطنطين الكبير ، ولكن لما كانت قبائل الهون تتهدد حدود امبراطوريته ، ونزولاً على رغبة بولشريا (١) فقد قرر عقده فى خلقيدون لقربها من القسطنطينية (٢) .

٥٩- وما أن تسلم البابا ديسقورس دعوة الامبراطور إلى المجمع حتى ترك أهله وبلاده للمرة الثانية - ولم يكن ليدور فى خلد واحد منهم أنه لن يعود إليهم بالجسد وقد استصحب معه عدداً من الأساقفة بينهم القديس مكارى أسقف أدكو . ولما كانت الدعوة تشير إلى عقد المجمع فى نيقية فقد تجمع الأساقفة فى تلك المدينة التى أكسبها المجمع المسكونى الأول شهرة خاصة (٣) . ولكن حين وصل الأساقفة إليها بلغهم أن الامبراطور لا يمكنه مغادرة عاصمته . ورفض مندوبو لاون الأول رفضاً باتاً أن يحضروا المجمع ما لم يحضره الامبراطور بنفسه ، وبعثوا إليه يستحلفونه بأن يحضر (٤) ، ووافقتهم بولشريا على رأيهم وألحت هى (بدورها) على زوجها ليحضر المجمع بنفسه . ولما كانت تعلم أنه من المتعذر عليه أن يترك عاصمته فى الوقت الذى يتهدد قبائل الهون حدود امبراطوريته ، اقترحت عليه أن يعقد المجمع فى خلقيدون لقربها من القسطنطينية . ونتيجة لالحاح مندوبى لاون الأول ، وتحت تأثير بولشريا ، أرسل مرقيانوس إلى الأساقفة يدعوهم إلى موافاته فى خلقيدون . فلبوا الدعوة وغادروا نيقية . ولقد أبدى بعض الأساقفة مخاوفهم من أن يحدث أنصار أوطيخا شيئًا من الشغب لسهولة الوصول من القسطنطينية إلى خلقيدون . ولكن الامبراطورة طمأنتهم بأن

---

(١) مختصر تاريخ الشعوب لابن العبرى . طبعه فى مطبعة الجزويت ببيروت الآب أنطون صالحانى ص١٤٥ ، ويقول مارسويريوس يعقوب توما فى كتابه تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية جـ٢ ص١٥٤ أن السبب فى تغيير مكان المجمع هو حدوث زلزال عنيف فى نيقية

(٢) هى الآن احدى قرى نيقية فى آسيا الصغرى تعرف باسم « قاضى كوى » أو « قرية القاضى »

(٣) راجع الفصل الخاص بهذا المجمع فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٤) ترى ما الدافع الخفى الذى جعل نواب لاون الأول يقفون هذا الموقف ؟ .

أصدرت أوامرها المشددة إلى جندها بأن يمنعوا أى شخص غير حاصل على اذن كتابى من أسقفه من الدخول إلى خلقيدون (١) .

٦٠- وقد افتتح المجمع جلساته فى الثامن من أكتوبر سنة ٤٤٣م (٢) ، ولم يتفق اثنان من المؤرخين على عدد الأساقفة الذين حضروا هذا المجمع . فمنهم من نزل به إلى ثلاثمائة وستين ، ومنهم من صعد به إلى ستمائة وثلاثين (٣) ، كما أنهم لم يتفقوا على عدد الجلسات . ولكنهم اتفقوا جميعاً على أن الامبراطور مرقيانوس والامبراطورة بولشريا قد حضرا افتتاحه ، وأنهما عينا تسعة عشر قاضياً مدنياً مهمتهم حفظ النظام والاشراف على الجلسات . فكانوا بمنزلة مجلس وزراء ، وجلسوا فى وسط كنيسة القديسة أوفيميا حيث انعقد المجمع .

٦١- وقد جلس الامبراطور والامبراطورة فى صدر الكنيسة عن يمينها البابا ديسقورس ، فيوبيناليوس أسقف أورشليم ، فهيراكلاس أسقف كورنثية ، فأساقفة مصر وايلليريا وفلسطين . بينما جلس عن يسار الامبراطور وزوجته أسقف القسطنطينية ، فمندوبو أسقف رومية وأساقفة أنطاكية وقيسارية وأفسس وبنطس وآخائية وتراقيا .

ومما تجدر الاشارة إليه فى هذا المقام أنه على الرغم من اعطاء المكانة الأولى لرومية والثانية للقسطنطينية بوصفهما عاصمتى الامبراطورية الرومانية ، إلا أن البابا ديسقورس هو الذى أجلسوه عن يمين الامبراطور للمكانة الروحية العلمية التى امتازت بها الاسكندرية فجعلت منها كعبة لجميع الساعين نحو المعرفة .

وقد رأس الجلسات بالتناوب – مع القضاة المدنيين – أربعة من الأساقفة

---

(١) ، مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية ... ص٧٩ ، تاريخ الكنيسة بالفرنسية للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٥٨٢ – ٥٨٣ .

(٢) أو سنة ٤٥١ ميلادية غربية – وهو التاريخ الأكثر شيوعاً .

(٣) تاريخ الكنيسة ... جـ٤ ص٥٨٣ ، الدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة للأسقف ملاتيوس ص١٢٨ – ١٢٩ ، صلاة تحليل للابن وتذكار القديسين فى الخولاجى الكاثوليكى المطبوع برومية .

الخمسة الذين أطلق عليهم لقب « بطاركة » (١) .

٦٢- وقد حضر المجمع عدد من رجال الاكليروس الغربيين وعلى رأسهم الأسقفان باسكاسينوس ولوسنتيوس مندوبا لاون الأول . كذلك تمكن أسقفان أفريقيان من مغادرة بلادهما قبل أن يغزوها قبائل البربر فاستطاعا أن يحضرا المجمع .

٦٣- وما أن التأم المجمع حتى وقف باسكاسينوس مطالبًا رجال البلاط باخراج البابا ديسقورس من المجمع وإلا يضطر هو وزملاءه إلى الانسحاب من الجلسة . وتساءل رجال البلاط عن السبب لذلك فأجاب لوسنتيوس بأن هذا الرجل لم يحضر ليجلس مع القديسين بل ليؤدى حساباً عما فعله فى أفسس . وهنا سأل أحد الأساقفة : « وأى ذنب جنى ؟ » فرد لوسنتيوس قائلاً : « لقد تجرأ على عقد مجمع بغير ترخيص من أسقف رومية » . ومن المخجل أنه لم يقم واحد من المجتمعين ليصحح ما ادعاه هذا الأسقف الرومانى فيبرز الدعوة التى وصلته من امبراطور الشرق (٢) . ومن المخجل أيضًا أن الامبراطور مرقيانوس سمع هذا الادعاء دون أن يعترض عليه مع أنه أصر على أن يحدد بنفسه المكان والزمان للمجمع . وكل ما فى الأمر أن اكتفى أحد الأساقفة بقوله لمندوب لاون الأول : « إن كنت قد جئت مشتكياً فكيف تجلس قاضياً ؟ » .

---

(١) « البابوية المنشقة » (بالفرنسية) للآبيه جيتى ص١٠٠ ، وهؤلاء الخمسة هم أساقفة أورشليم وأنطاكية والاسكندرية والقسطنطينية ورومية . ويقول الأرشيمندريت جيتى فى « تاريخ الكنيسة » جـ٤ ص٦٠٢ ما نصه : " Le titra du patriarche commencait à entrer dans les usages au milieu du cinquiéme Siécle " .

(٢) دائرة معارف العلوم الدينية الفرنسية جـ٣ ص٢٩٣ حيث جاء ما نصه :

" ... Les empereurs d'orient eurent seuls, sans conteste, le droit de convoquer les conciles généraux" كذلك يعود الأرشيمندريت جيتى فيؤكد هذه الحقيقة عند التحدث عن المجمع المعدود سادس المجامع المسكونية لدى الكنائس التى اشتركت فيه فيقول فى كتابه « تاريخ الكنيسة » جـ٥ ص٤٨٠ (فى الهامش) ما نصه : " Dàprés la lettre de l'impereur (d'Orient) on voit que c'était lui qui convoquait le concile . Ce fait incontestable a éte reconnu par le pape Agathon dans sa réponse, et par les principaux auteurs qui ont écrit sur l'histoire à cette epoque " .

ولكى يحتفظ البابا ديسقورس بالسلام ويتفادى شغباً لا داعى له قام من مكانه عن يمين الامبراطور وجلس فى وسط الكنيسة إلى جانب القضاة المدنيين (١) .

٦٤– ويدأ المندوبان الرومانيان يتهمان البابا ديسقورس فقالا أنه نقض القوانين الكنسية فتساءل البابا الاسكندرى : « من منا الذى نقض القوانين : أنا الذى استجاب دعوة الامبراطور ثيئودوسيوس المطوّب الذكر بحضور المجمع الأفسسى الاستئنافى ، وبعدم السماح لثيئودوريت النسطورى أن يحضر هذا المجمع لأنه لم يتب بعد حكم الحرم الذى أوقعه عليه المجمع المسكونى الثالث ، أم أنتم الذين سمحوا لهذا الأسقف النسطورى بأن يجلس بينهم وهو لا يزال محروماً ومقطوعاً من جسم الكنيسة ؟ » (٢) .

٦٥– وتجاهل جميع الأساقفة هذا السؤال للحرج فلم يجبه واحد منهم ، وصمت القضاة المدنيون أمام هذا التجاهل . وتقدم أوسابيوس أسقف دوريليا الذى كان المشتكى الأول على أوطيخا ليلعب الدور عينه بازاء البابا ديسقورس فادعى بأنه هو وزملاءه قد حوكموا ظلمًا وعدوانًا ، وأن البابا الاسكندرى تصرف تصرفًا دكتاتورياً دون أن يفرض وجوداً لغيره من الأساقفة المجتمعين معه . وهو – فوق ذلك – أوطاخى . ومما يؤسف له جد الأسف أن هذه التهمة الباطلة ظلت لاصقة بالبابا ديسقورس وبكنيسته القبطية حتى اليوم رغم اعتراف أوسابيوس وزملائه أساقفة الشرق بأنهم لفقوا هذه التهمة فى الجلسة ذاتها وطلبوا الغفران ثلاث مرات .

٦٦– وفى الوقت عينه الذى قبل فيه مجمع خلقيدون هذه التهمة الباطلة ضد البابا ديسقورس من غير تداول ولا تمحيص قبل عضوية ثيئودوريت

---

(١) « مجمع خلقيدون » ترجمه ... ص٨٢ – ٨٣، ويوصف البابا ديسقورس على ص٨٣ بكلمة « التقى » ، تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص١٥٨ – ١٦٠ ، تاريخ الكنيسة ، (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٥٨٤ .

(٢) «مجمع خلقيدون» ترجمه .. ص١٠٣ ، تاريخ الكنيسة السريانية ... جـ٢ص١٦٠– ١٦٥، ويقول هذا الأسقف الجليل (مؤلف الكتاب) على ص١٦٣ من كتابه ما نصه: «والحقيقة الراهنة هى أن مجمع خلقيدون التأم لتنفيذ مآرب شخصية بحتة ليس إلا» .

النسطورى أسقف قورش . وما أن وقع نظر أساقفة مصر عليه حتى رفعوا أصواتهم عاليًا مطالبين باخراج هذا النسطورى من المجمع . فرفع أساقفة الشرق أصواتهم أيضاً ضد المصريين . وساد الشغب المجمع . ومن المؤلم حقاً أن القضاة المدنيين المكلفين بحماية النظام فى هذا المجمع قد اضطروا إذ ذاك إلى أن يذكروا الأساقفة بأن مسلكهم هذا يتنافى مع كرامة الكهنوت . ومن المؤلم حقاً أن يذكّر رجال الدولة رجال الدين بالوقار الذى تقتضيه مكانتهم الدينية . صحيح أن لجميع المؤمنين الحق فى أن يشتركوا فى مناقشة الأمور الكنسية لأنهم أعضاء فى الكنيسة المقدسة التى تتألف من رعاة ورعية . وهذا الحق الذى للمدنيين قد منحهم إياه الرسل أنفسهم حين اجتمعوا مع المؤمنين لاختيار رسول يخلف يهوذا الاسخريوطى بعد انتحاره (١) ، كما منحوهم إياه عند اختيار استفانوس وزملائه الشمامسة (٢) . وهكذا منح رسل الرب المدنيين الحق فى أن يشتركوا فى الانتخاب لأسمى الدرجات الكهنوتية وهى درجة الرسل وخلفائهم الأساقفة، وأدنى هذه الدرجات وهى الشماسية. ومع هذا فالرعاة قد ائتمنوا على الايمان (٣) . وبما أنهم الحراس على التعاليم المقدسة فالواجب عليهم أن يسلكوا مسلكًا بعيداً عن الشكوك والشبهات . وعليهم أن يفصلوا بين الرأى الفردى الخاص وبين التعليم التقليدى العام . ولقد كان من تذبذب الأساقفة فى خلقيدون أن ظلت جرثومة النسطورية فى الكنيسة حتى اليوم (٤) .

٦٧– وما كانت السكينة تستتبّ فى المجمع حتى طالب البابا ديسقورس بقراءة مضابط جلسات المجمع الأفسسى الاستئنافى وحين قرئ الجزء الأول منها التفت هذا البابا إلى آباء المجمع وقال لهم : « ترون من هذه المضابط أن الامبراطور ثيئودوسيوس المطوّب الذكر هو الذى دعا إلى عقد المجمع . وترون منها أيضاً أن هذا الامبراطور الطيّب الذكر قد أمر بعدم قبول

(١) أعمال ١ : ١٥ – ٢٦ .

(٢) أعمال ٦ : ١ – ٦ .

(٣) ١ تيموثيئوس ٤ : ٢٠ .

(٤) لا تزال للآن كنيسة نسطورية فى كل من العراق وايران .

ثيئودوريت أسقف قورش ضمن الأعضاء لنسطوريته ، كما أكد قبول عضوية الأرشيمندريت برسوما . وترون من المضابط عينها أن الامبراطور وكّل إلىّ الرياسة مع يوبيناليوس . أسقف أورشليم ودوملوس أسقف أنطاكية . وقد حكمنا - نحن الثلاثة - معًا ، وقضينا بتبرئة ساحة أوطيخا (١)، فلماذا تطلبون إلىّ وحدى تأدية الحساب ؟ وحين حكمنا - ثلاثتنا - لم ننفرد بالحكم ، بل تشاورنا مع زملائنا الذين جلسوا معنا فى المجمع - وعددهم مئة وثلاثون أسقفًا . وكان لكل منهم مطلق الحرية فى التعبير عن رأيه (٢) . وبعد أن قرأنا الاعتراف الأرثوذكسى الذى قدّمه إلينا أوطيخا بخط يده ، أجمع الأساقفة على تبرئته ، ووقعوا بامضاءتهم على هذه التبرئة » .

٦٨- وهنا صرخ الأساقفة الشرقيون قائلين : « إننا لم نوقع على هذا الحكم إلا تحت الضغط ، لقد حكمنا على فلابيانوس مكرهين فوقّعنا على ورقة بيضاء تحت تهديد رجال الامبراطور لنا » . وقد أكّد أسقف أفسس هذا الكلام ، فأثار بذلك خواطر أساقفة مصر ودفعهم إلى أن يقولوا : « إن جندى المسيح لا يرهب قوة السلطان ، ولا يتراجع غير الجبان ، أوقدوا النار لنريكم كيف يموت الشهداء » . ثم قال البابا ديسقورس فى اتزان : « كان الأليق بكم أن ترفضوا التوقيع على ما لا تعرفون لأن قراركم يتعلق بجلال الايمان»(٣).

٦٩- وساد الصمت بضع دقائق أراد بعدها أحد الأساقفة أن يبدد الاضطراب النفسى الذى ملأ نفوس زملائه فقام واشتكى الأنبا ديسقورس بأنه تآمر مع الأرشيمندريت برسوما وعدد من الرهبان المصريين على قتل فلابيانوس . فلم يسع الأساقفة المصريون بازاء هذا الاتهام الباطل إلا أن يطالبوا رئيس الكتبة بقراءة رسالة الامبراطورة بولشريا إلى أسقف رومية(٤)

(١) « مجمع خلقيدون » ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتينى المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الراهب فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كرادلة - طبع فى رومية سنة ١٦٩٤ص٨٤ - ٩٠ .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٥٦٥ .

(٣) « مجمع خلقيدون » للمنسنيور يوسف الدبس المارونى فصل ١٧ فقرة ٨٩ ، تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص١٦٩ .

(٤) « مجمع خلقيدون » ترجمه إلى العربية ... ص٧٤ - ٧٥ .

ورد هذا الأسقف عليها . وقد جاء فى كل من الرسالتين أن فلابيانوس قد لقى ربه وهو فى المنفى ، وأن الامبراطور مرقيانوس قد أمر بنقل جثمانه إلى القسطنطينية . فأمر القضاة المدنيون بتلبية طلب المصريين . وحين قرأ رئيس الكتبة هاتين الرسالتين اللتين أعلنتا براءة الأنبا ديسقورس ورهبانه من هذه التهمة براءة الذئب من دم ابن يعقوب سرى شعور بالاضطراب إلى نفوس بعض الأساقفة ، وامتلأ المشتكى خجلاً إذ ثبت للمجمع أنه لم يصدق القول . وقد سرى خجله إلى بقية الأساقفة الذين شاطروه التلفيق وساد المجمع جو من الحرج والتوتر .

٧٠- وقد رأى القضاة المدنيّون أن يبددوا هذا التوتر فطالبوا رئيس الكتبة بالاستمرار فى قراءة مضابط جلسات المجمع الأفسسى الاستئنافى فعاود القراءة إلى أن وصل إلى ذكر طومس لاون الذى كان مندوبوه قد قدّموه إلى ذلك المجمع ، وعندها قاطعه مندوبا أسقف رومية بأن سألا البابا الاسكندرى لماذا لم يأذن بقراءة رسالة أسقفهم فى مجمعه ، فأجاب : « لقد أمرت بقراءة الرسالة مرتين لا مرة واحدة (١) قالا : « إذن لماذا لم تقرأ ؟ » أجاب: « سلوا أسقف أورشليم وأنطاكية ». وحين سئل الأسقفان أجابا : « لما أمر ديسقورس بقراءة رسالة لاون الأول قال رئيس الكتبة بأنه لا تزال عنده رسائل امبراطورية أخرى يجب قراءتها لم يذكّره أحدنا برسالة أخينا لاون».

٧١- ويبدو أن هذا الرد قد أقنع الآباء المجتمعين لأنهم لم يعودوا يسألون عن هذا الموضوع . واسترسل رئيس الكتبة فى قراءة مضابط جلسات المجمع الأفسسى الاستئنافى . ولما قرأ الاعتراف الذى قدّمه أوطيخا إلى الأساقفة صاح باسيليوس أسقف سلوقية بأن امضاءه مزّورة . فلم يكد البابا ديسقورس يسمعه حتى هتف قائلا : « لست أدرى لماذا ينكر باسيليوس امضاءه وهو يعلم أنه إنما أمضى وثيقة أرثوذكسية صميمة » . وما أن سمع الأساقفة هذه الكلمات حتى هتفوا جميعاً : « لا نجرؤ على أن نزيد على الايمان القويم حرفًا واحداً ، لقد سلمه لنا الآباء وافياً وما علينا غير الاستمساك به » .

---

(١) شرحه ص٩٣ .

٧٢- وكانت هـذه الصيحة صيحـة الأرثوذكسيـة الصميمـة - إذ أن الأسـاقفة هـم حفظة الايمان الـذى تسلّموه عـن السلف ليسلّموه إلى الخلف دون أن تشويه شائبة (١) . ولم تكن هذه الصيحة غير صدى لتوكيدات الأنبا ديسقورس الذى أعلن بأنه ثابت على تعاليم سلفيه العظيمين أثناسيوس الرسولى (٢) وكيرلس عـامود الدين ، لا يحيد عنها قيد أنملة . وقد استجاب الأساقفة لتوكيداته بهذه الطريقة وأردفوها بقولهم : « ديسقورس رأس الأساقفة يحفظ الايمان » (٣) .

٧٣- وبعد أن فاه الأساقفة بهذه الكلمات وجـدوا أنفسهم أمـام ضرورة ملحّة هى أن يعلن كل منهم ايمانه فى صراحة وتوكيد. ورأوا أن يبدأوا بالأنبا ديسقورس فسألوه أن يعلن ايمانه ، فأجاب على الفور - مردداً ما جهر به كيرلس سلفه العظيم فـى المجمع المسكونى الثالث حيث قال : « إن ألهب الحّداد قطعة من الحديد بنار متقدة ثم ضرب الحديد بالمطرقة ، فالضرب يقع على الحديد وحده ولا يمس النار مع أن النار متحدة بالحديد » . واتحاد النار بالحديد صورة لاتحاد لاهوت سيدنا بناسوته : لأن النار تظل محتفظة بطبيعتها النارية لا تتغير إلى الحديد ولا تمتزج معه ولا تختلط به مع أنها لا تفارقه . هكذا سيدنا لم يفارق لاهوته لحظة واحدة ولا طرفة عين (٤) ومـع أن

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٥٩١ .

(٢) مما يجدر إثباته هنا شهادة دوشن بمصرية الأنبا أثناسيوس رداً على الزاعمين بأنه يونانى فقد قال دوشن فى كتابه تاريخ الكنيسة المجلد الثانى ١ ص١٦٨ ما نصه :

" Athanase, patriarche d' Alexandrie et la plus grande figure qui domine toute l'histoire religieuse de Christianisme égyptien, donnait à son église un caractère national s'opposant farouchement à l'hellénisme et aux empereurs " .

وترجمته ما يلى : « إن أثناسيوس بطريرك الاسكندرية وأكبر شخصية سيطرت على كل التاريخ الدينى للمسيحية المصرية قد أعطى كنيسته شخصية وطنية مقاومة بعنف النزعة الهيللينية والأباطرة ، وهذه شهادة فرنسى بمصرية أثناسيوس وبقومية كنيسته .

(٣) « مجمع خلقيدون » ترجمه إلى العربية ... ص٩٧ ، والجملة التى هتفوا بها والمكتوبة بين قوسين قد وردت حرفياً فى الكتاب المشار إليه .

(٤) مما تجدر الاشارة إليه هنا أن القبط يؤكدون هذا الايمان فى آخر كل قداس قبل -

لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين إلا أنه اتحّد معه بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير . وهذه الحقيقة يعبّر عنها آباء كنيسة الاسكندرية بقولهم : « الطبيعة الواحدة لله الكلمة المتجسد »(١) وقد بنوا هذه الحقيقة على قول يوحنا الانجيلي : « الكلمة صار جسداً » .

٧٤- وتلا هذا الاعتراف معاودة رئيس الكتبة لقراءة مضابط المجمع الأفسسي الاستئنافي الخاصة بتداول آباء المجمع الفلابيانى مع أوطيخا حين حاول المبتدع أن يروغ منهم ويجيب اجابات مبهمة . وعند ذاك هتف أصدقاء فلابيوس قائلين : « لقد أساء المصرى الفهم ، وتصرف ديسقورس تصرف الفرعون العاتى » . وحين سمع الآباء هذا الهتاف أرادوا أن يعرفوا من ديسقورس موقفه بالضبط من أوطيخا ، فسألوه : « لو أن أوطيخا ردّد بلسانه كلمات مخالفة للاعتراف الذى قدّمه إليك كتابة ، فما حكمك عليه ؟ » أجاب ديسقورس على الفور : « إن كان أوطيخا قد أنكر الايمان الذى سجله على نفسه كتابة ، وقدّمه إلينا ، فزاغ بذلك عن ايمان الكنيسة الحق ، فلست أحكم بمعاقبته فحسب وإنما أقول أنه مستوجب الحرق أيضاً . لأننى أؤكد تمسكى بالايمان الأرثوذكسى الذى للكنيسة الواحدة الوحيدة الجامعة الرسولية . فلا أوطيخا (ولا غيره) بقادر أن يزحزحنى عن الايمان الذى تسلمته من آبائى (٢) .

٧٥- ولقد انقضّ هذا الاعتراف الديسقورى على رؤوس خصوم البابا

- التناول مباشرة إذ يقول الكاهن : « آمين . آمين . آمين . أومن . أومن . أومن . واعترف إلى النفس الأخير أن هذا هو الجسد المحى الذى لابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح ، أخذه من سيدتنا وملكتنا كلنا والدة الإله القديسة الطاهرة مريم وجعله واحداً مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير . وأعترف الاعتراف الحسن أمام بيلاطس البنطى . وأسلمه عنا على خشبة الصليب المقدسة بارادته وحده عنا كلنا . بالحقيقة أومن أن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين . يعطى عنا خلاصاً وغفراناً للخطايا وحياة أبدية لمن يتناول منه . أومن . أومن . أومن . أن هذا هو بالحقيقة . آمين » .

(١) « مجمع خلقيدون » ترجمه إلى العربية ... ص١١٧ ، الايمان والطقوس التى للكنيسة القبطية (بالانجليزية) ليسى عبد المسيح ص١٧ .

(٢) « مجمع خلقيدون » ترجمه إلى العربية ... ص٩٩ .

الاسكندرى انقضاض الصاعقة ، فلم ينبسوا ببنت شفة إذ وجدوا أنفسهم عاجزين عن الكلام فطالبوا رئيس الكتبة بمعاودة القراءة لمضابط المجمع الأفسسى الاستئنافى . فقرأه حتى وصل إلى قول باسيليوس أسقف سلوقية : « إننى أحرم كل من يقسم المسيح الواحد الذى اتحد لاهوته بناسوته إلى اثنين أو أقنومين ، ولا يعبد المسيح الواحد الذى جمع بين الطبيعتين وجعل منهما الطبيعة الواحدة لله الكلمة المتجسد » . وما كاد رئيس الكتبة ينتهى من قراءة هذه الكلمات حتى قاطعه باسيليوس نفسه بأن أنكر أنه تفوّه بهذه الكلمات . وهنا هتف الأساقفة المصريون قائلين : « لا يقسمنّ أحد غير المنقسم » ، ووافقهم الأساقفة الشرقيون فأردف المصريون هتافهم بقولهم : « كما ولد المسيح هكذا تألم » . وعلى أثر هذه الهتافات سأل بعض الأساقفة : « لماذا ينكر باسيليوس أقواله هذه وهى أرثوذكسية صميمة ؟ » . ثم سألوه لماذا وقّع الحرم على فلابيانوس وزملائه مادام يشاركهم عقيدتهم . فأجاب : « لقد جاء حكمى تبعاً لحكم مئة وعشرين أو مئة وثلاثين أسقفاً ، فكنت مضطراً إلى مجاراتهم » .

٧٦- وما أن سمع الأنبا ديسقورس هذه الكلمات حتى قال لذلك الأسقف: « بكلامك تتبرر وبكلامك تدان ... » (١) لقد خفت أن تجهر بايمانك مجاملة للناس فتجاوزت حدود الصلاح واستهنت بالعقيدة . «ألا تعلم أن لا رياء فى الايمان ؟ » .

٧٧- ولقد كان لهذا التوبيخ فى نفوس أساقفة الشرق من الأثر البليغ ما حركهم إلى أن يقولوا : « أخطأنا ونطلب الغفران » فطلب إليهم الآباء عند ذلك أن يقرروا الحقيقة فى ما قالوا من أنهم أمضوا ورقة بيضاء ، فقالوا ثانية : «أخطأنا ونطلب الغفران» . فعاد الآباء يطالبونهم باعلان الحقيقة عن اتهامهم ديسقورس بأنه قتل فلابيانوس ، وللمرة الثالثة قالوا : « أخطأنا ونطلب الغفران » .

٧٨- وهنا قدّم المجمع طومس لاون للأنبا ديسقورس ليعلن رأيه فيه . وكان هذا الطومس ضمن الرسالة التى كان قد بعث بها لاون الأول إلى

(١) متى ١٢ : ٣٧ .

المجمع الأفسسى الاستثنافى والتى لم تُقرأ يومذاك لتقديم الرسائل الامبراطورية عليها . ولم يكد البابا الاسكندرى يقرأ الطومس فى ترجمته اليونانية حتى ألفاه إلى النسطورية أقرب منه إلى الأرثوذكسية . فلم يتردد فى توقيع الحرم على الطومس وعلى صاحبه .

٧٩- ولم يقم من بين الأساقفة من يتعرض لمسلك البابا ديسقورس فى هذا الشأن الخطير إذ وجدوا أنه أدحض كل ادعاءاتهم باعلانه ايمانه الأرثوذكسى الصميم (١) . يضاف إلى ذلك أن بعض الأساقفة قد ساورهم الشك فى التعليم الذى تضمّنه طومس لاون ، وبدت شكوكهم واضحة على وجوههم . ولاحظ القضاة المدنيون ذلك فتساءلوا : « هل فى هذا الطومس ما يقتضى الارتياب فى ايمان صاحبه ؟ » فتظاهر الأساقفة بعدم الارتياب فيه ولكنهم طالبوا بمهلة مدى خمسة أيام للتداول معاً وأجيبوا إلى طلبهم (٢) .

٨٠- وفى غضون هذه المهلة تداول الأساقفة معًا ، ولكن لم يوجّه أحدهم إلى نواب رومية أى طلب خاص بالايمان ، وإنما طالبوهم بتفسير بعض الكلمات اللاتينية التى تعذر عليهم فهمها فى ترجمتها اليونانية لغموضها(٣) .

٨١- ومن المؤلم أن نيّة بعض الأساقفة كانت مبنيّة على تنفيذ غرضهم

---

(١) « مجمع خلقيدون » ترجمه إلى العربية ... ص٩٩ - ١٠١ ، تاريخ الكنيسة السريانية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص١٧٠ - ١٧١ ويختتم هذا الحبر الجليل كتابته عن الافتراءات التى وجهها بعض الأساقفة إلى الأنبا ديسقورس بقوله على ص١٧١ : « فلما حصحص الحق وزهق الباطل لم يجدوا وسيلة يتذرعون بها سوى طلب الغفران... وقد لفظ بمثل هذه الافتراءات معظم الكتبة البيزنطيين ... غير أن ما نقلناه هنا بأمانة عن تاريخ هذين المجمعين (الأفسسى الثانى والخلقيدونى) الذى نشرته رومية بالعربية سنة ١٦٩٤ أماط اللثام عن وجه الحقيقة الوضاءة . فافتضحت افتراءات اليساريين وظهر المجمع الخلقيدونى بمظهرهو أشبه باجتماع اللصوص وقطاع الطرق» .

(٢) « مجمع خلقيدون » ترجمه إلى العربية ... ص١٧٠ .

(٣) البابوية المنشقة (بالفرنسية) للآبيه جيتى ص١٠١ حيث يقول ما نصه :

" ... les légats de Rome ne furent appelés par Anatolius que pour expliquer certains mots latins qui paraissaient obscure à ceux qui hésitaient, " .

الخاص : وهو الايقاع بالبابا الاسكندرى . فعوّلوا على ابعاد القضاة المدنيين من حضور جلساتهم لينفذوا أغراضهم .

٨٢- وعاد الأساقفة إلى عقد مجمعهم الخلقيدونى بعد ثلاثة أيام فقط لا خمسة وأرسلوا ثلاثة منهم لدعوة البابا ديسقورس ، وكان هذا البابا فى حكم المعتقل لأن أصحاب السلطة كانوا قد أصدروا أوامرهم السرية إلى بعض الجنود ليحيطوا بالبيت الذى يقيم فيه ويمنعوه من الخروج (١) . فلما جاءه مندوبو المجمع ذكرّهم بأنه لم تمضِ غير أيام ثلاثة من الخمسة التى كانوا قد اتفقوا عليها ، ثم سألهم إن كانوا قد أبلغوا القضاة المدنيين بهذا الاجتماع أم لا. فتجاهل مندوبو المجمع الملحوظة الأولى ، أما سؤاله عن القضاة المدنيين فقد أجابه مندوبو المجمع بأن المدنيين لا شأن لهم بالأمور الكنسية ! وكانت اجابتهم هذه فى غاية من الغرابة لأنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة أن المدنيين حضروا كل المجامع منذ أن دعا الامبراطور قسطنطين الكبير إلى عقد مجمع نيقية ، كما أن المدنيين جلسوا معهم فى نفس هذا المجمع الذى أرجأ جلساته وبخوهم عندما تخطوا حدودهم الأسقفية وخاضوا فى مناقشات سفسطائية . كذلك حضر بعض الأباطرة المجامع بأنفسهم ، كما افتتح الامبراطور مرقيانوس والامبراطورة بولشريا مجمعهم - والأباطرة ليس من رجال الدين طبعاً ! ومع ما فى أجوبة مندوبى المجمع من مواربة فإن البابا ديسقورس رأى أن لا فائدة من الاسترسال فى الكلام معهم ، واكتفى بأن قال : « هل خاطبتم الجنود المكلفين بحراستى فى هذا الشأن ليسمحوا لى بالخروج دون أن يعترضوا سبيلى ؟ » أجابوه : « ليس هذا من شأننا لأن المجمع لم يكلفنا إلا بتوجيه الدعوة » . ولم يكن هذا الرد غير دليل آخر على النية السيئة المبيّتة لهذا البابا البرئ الذى عاد يسائلهم عما إذا كانوا قد أبلغوا حراسه ليتركوا له حرية الخروج . وللمرة الثانية أمسكوا عن الاجابة على هذا السؤال .

---

(١) « مجمع خلقيدون » ... ترجمه إلى العربية ص١٧٢ ، تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص١٧٤ حيث يقول ما نصه : « فأقام مرقيان حراساً عليه (ديسقورس) لئلا يبرح المكان » .

وبعد هذه الدعوة الصورية خرج مندوبو المجمع ليبلّغوا زملاءهم بأن البابا الاسكندرى قد رفض تلبية الدعوة (١) .

٨٣- وأرسل المجمع ثلاثة أساقفة آخرين لدعوة الأنبا ديسقورس للمرة الثانية - وقد كرر هؤلاء تمثيلية الذين سبقوهم - فعادوا يحملون للمجمع الرفض المزعوم للبابا الاسكندرى .

٨٤- وعند ذاك استدعى المجمع بعض الرجال الذين جئ بهم ليشتكوا على الأنبا ديسقورس وقد تركزّت شكواهم فى أمور مادية محضة ، فلم يشيروا إلى الايمان من بعيد أو من قريب . وقد ادّعى هؤلاء الشهود بأن الأنبا ديسقورس قد احتجز فى الاسكندرية المراكب المحملة بالقمح لأهالى ليبيا . وهذه الشكوى فى الحقيقة ترجع إلى عهد بعيد : فقد وجّهت هى بعينها إلى البابا أثناسيوس الرسولى بما يزيد على قرن من الزمان حيث قيل أنه منع الغلال المصرية عن سكان القسطنطينية . وكان يلجأ إليها خصوم الباباوات الاسكندريين كلما أعيتهم الحيل .

٨٥- أما الشكوى الثانية فلم تكن إلا مجرد مهاترة حيث ادّعوا أن خليفة مارمرقس قد قتل الأسقف فلابيانوس . ولم يكترث آباء خلقيدون بهذه الشكوى ، بل لم يكلفوا أنفسهم مؤونة الاصغاء إليها فقد ثبت بطلانها علنًا كما وضح من خطاب الامبراطورة بولشريا ورد الأسقف لاون عليها - إذ بدا ما فى هذه التهمة من افتراء دلّ عليه هذان الخطابان . ثم ازداد الأساقفة يقيناً ببراءة البابا الجليل لما سمعوه من ترديد الأساقفة الشرقيين لكلمات : « أخطأنا ونطلب الغفران » .

---

(١) ما أشبه الليلة بالبارحة ! فموقف مجمع خلقيدون من الأنبا ديسقورس أشبه بموقف الانجليز والفرنسيين حين انضموا إلى اسرائيل وقاموا بهجومهم الغادر على بلادنا الحبيبة فى أكتوبر - نوفمبر سنة ١٩٥٦ . ففى الحالتين ألبس الغربيون الباطل ثوب الحق لعلهم ينالون من كرامة مصر وشعبها الأبى، وفى الحالتين باءوا بالفشل ولو أنهم فى الحالة الأولى نجحوا فى استصدار الحكم بنفى البابا المرقسى . وقد صدق عليهم قول أحمد شوقى أمير الشعراء فى قصيدة بعنوان « اعتداء » حيث قال:

وكم من أتاك بمجموعة   من الباطل الحق عنوانها

ثم تقدم مشتكون آخرون . على أن المجمع رأى أن كل شكاواهم تافهة لا تحتمل الفحص ، ومن السهل نقضها .

٨٦- وفى اليوم التالى بعث المجمع برسله إلى البابا ديسقورس . وكان هذا هو الانذار الثالث ، ولم يكن سوى تكرار للدعوتين السابقتين . فكان هذا المسلك دليلاً قاطعاً على أن آباء خلقيدون لم يتمسكوا إلا بالشكليات ونسوا روح التعاليم المسيحية التى ائتمنوا عليها . فقد كان الأنبا ديسقورس على أتم استعداد لأن يذهب إلى المجمع ، ويجيب الآباء ، ويدافع عن كرامته وكرامة كنيسته المصرية التى يحبها ، ولكنه منع من مغادرة المنزل الذى كان معتقلاً فيه تنفيذاً للأوامر المشددة من الامبراطورة لكى يقال عنه أنه عصى المجمع (١) . ومادام لم يسمع لصوت الكنيسة (ممثلة فى الأساقفة) وجبت معاملته كالوثنى والعشار (٢) .

٨٧- وعند ذاك عقد المجمع جلسته فى غياب القضاة المدنيين (ممثلى الدولة) وغياب أساقفة مصر والأساقفة الموالين لهم (٣) . فعاد مندوبو رومية إلى المهاترة مرة ثانية وقالوا أن الأنبا ديسقورس قد رفض السماح بقراءة طومس أسقفهم لاون الأول فى المجمع الأفسسى الاستئنافى ، وبدلاً من أن يتوب تجرأ فأصدر الحرم على الأسقف الرومانى . وقد تقدم عدد من الناس بشكاوى ضد البابا الاسكندرى . وكانت آخر شكوى ضده هى أنه رفض أن يلبّى الدعوة المثلثة للمجمع ، فحكم بذلك على نفسه بنفسه !« لهذه الأسباب يعلن لاون الأول - أسقفنا الكلى القداسة - بلساننا وبلسان المجمع المقدس الملتئم هنا ، وبالاتفاق مع القديس بطرس صخرة الكنيسة الجامعة وأساس الايمان الأرثوذكسى أن ديسقورس مجرد من رياسة الكهنوت ومن كرامة كهنوتية » .

---

(١) « مجمع خلقيدون » ترجمه ... ص١٧٢ - ١٧٥ .

(٢) متى ١٨ : ١٧ .

(٣) تاريخ الكنيسة السريانية ... جـ٢ ص١٧٥ - ١٧٦ .

ولما لم يكن بين أساقفة هذا المجمع فى تلك الجلسة المشئومة أسقف مصرى ولا أسقف موال للمصريين ، فإنه لم يقم من بين الحاضرين من يعترض على ذلك القرار الجائر ولا على تلك الادعاءات الباطلة .

٨٨- ولقد أردف المجمع هذه الاتهامات الرومانية بالحكم التالى : « من المجمع المسكونى المقدس العظيم الملتئم بنعمة الله وتلبية لدعوة الملوك خائفى الله (١) فى خلقيدون ، فى كنيسة القديسة أوفيميا الشهيدة المنتصرة ، إلى ديسقورس : ليكن معلوماً لديك أنه بما أنك عصيت أوامر الكنيسة ورفضت تلبية الدعوة التى وجهها إليك هذا المجمع المقدس بعد دعوته إياك ثلاث مرات، هذا إلى جانب الذنوب العديدة التى اقترفتها (٢) ، فإنك منذ اليوم الثالث عشر من أكتوبر مخلوع عن كرسيك بأمر المجمع المقدس الذى حكم بأنك غير جدير بتأدية المهام الكهنوتية » (٣) . ولقد غالى المتجنّون على الأنبا ديسقورس فى خصومتهم له إلى حد أنهم انتدبوا أناطوليوس أسقف القسطنطينية ضمن مندوبيهم ليبلّغوا البابا الاسكندرى ذلك الحكم الجائر ولكنه أبى تورعاً(٤) لأنه كان فى أول الأمر ضمن شمامسة البابا المفترى عليه ، ولأن الأنبا ديسقورس هو الذى رسمه على الكرسى القسطنطينى بدلاً من فلابيانوس .

٨٩- وعندما علم القضاة المدنيّون المعينون من الامبراطور مرقيانوس بما جرى تملكهم الغضب ، وقصدوا إلى المجمع حيث احتجوا على هذا الظلم، معلنين أن مثل هذه الجلسة التى انعقدت فى غيابهم غير قانونية . وبذلوا

---

(١) يتضح من صورة الحكم عينها أن الأساقفة اجتمعوا تلبية « لدعوة الملوك الخائفى الله» مقرين بذلك أن أسقف رومية لم يكن صاحب الدعوة إلى هذا المجمع وبالتالى إلى غيره من المجامع (عدا مجمعه الخاص) .

(٢) لم يذكر المجمع ما هى الذنوب التى اقترفها والتى أوجبت الحكم عليه ! .

(٣) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) ... جـ٤ ص٥٩٤ ، « مجمع خلقيدون » ترجمه ... ص١٨٧ - ١٩٠ .

(٤) تاريخ الكنيسة السريانية ... جـ٢ ص١٧٧ .

جهود الجبابرة فى سبيل البابا الاسكندرى من دون جدوى . ولما لم يجـدوا غير آذان صمّاء أعلنوا سخطهم قائلين : « أما أنتم فتعطون جوابًا لله عن ديسقـورس الذى عـزلتموه بغياب الرئيس التقى (القيصر) وبغيابنا نحـن أيضاً » (١) .

٩٠- وهذا الحكم أغرب حكـم فـى التاريخ الكنسى - فهو إن دلّ على شئ فإنما يـدل على واحـدة مـن اثنتين ، فإما أن يكـون آباء خلقيدون قـد جهلوا الماضى أو تجاهلوه . فقد بنوا حكمهم على أن البابا ديسقورس قـد حـرم لاون الأول أسقف رومية فى حين أنه ليس بأول أسقف رومانى يصدر الحرم عليه . لأنه قبل ذلك بما ينيف على قرن من الزمان أصدر هيلاريوس أسقف بواتييه حـرمـه على ليبـاريوس أسقف رومية لترديه فى البـدعة الأريـوسية (٢) . ولـم يكـن هيلاريوس أسقفاً على كـرسى رسـولى ، كما أنه كـان خاضعاً لكـرسى روميـة بالذات ومـع هـذا لم يخلع هيلاريوس بل لـم يوّبخ ! أما الأنبا ديسقورس فكان أسقف كرسى رسولى كما أنه كان صاحب السلطة العليا فى كنيسته إذ لـم يكن خاضعاً لأسقف آخر . فلما أصدر حـرمه على لاون لنسطـوريتـه تخطّى آبـاء خلقيدون القوانين الكنسية وخلعوا الاسكندرى . ولكى يبرروا مسلكهم هذا استعانوا بالامبراطورة فأصدرت أوامرها السرية بمنع البابا ديسقورس من الخروج ليتسنى لهم أن يجدوا شكاية عليه . ولولا ذلك لكان لاحتجاج القضاة المدنيين المنتدبين من الامبراطور أثر فى تغيير الحكم .

وكمـا أن لاون لم يكن بالأسقف الرومانى الأول الذى صدر ضده حكم الحـرم كذلك لم يكن بالأخير . وهكذا شذّ الحكم الخلقيدونى عما سبقه من أحكام كما شذّ عما تلاه . فقد حدث بعد ذلك بنحو قرنين فى المجمع الذى

---

(١) شرحه جـ٢ ص١٧٦ ، ١٨١ .

(٢) أنظر الفصل الخاص بالأنبا أثناسيوس الرسولى فى الجزء الأول لهذا الكتاب ، وراجع أيضاً : « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص٢٠٢ - ٢٠٣ ، ٢٠٨ - ٢١٠ ، « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للآبيه باربييه ص٣٤٠ - ٣٤٥ .

تعدّه بعض الكنائس المجمع المسكونى السادس الذى انعقد فى القسطنطينية سنة ٦٨٠م.غ. بدعوة من الامبراطور قسطنطين بوجونا – حدث أن صدر حكم منه بالحرم على هونوريوس أسقف رومية إذ ذاك . وقد حضر هذا المجمع مندوبون عن الكنائس الخمس التى عدّها الخلقيدونى بطريركيات . وغنى عن القول أن الذى ذهب إلى هذا المجمع باسم الكرسى المرقسى كان الأسقف الدخيل المفروض عليه من امبراطور القسطنطينية (١) . وبعد ذلك بقرنين آخرين أصدر فوتيوس أسقف القسطنطينية حرمه على نيقولاوس الأول أسقف رومية لابتداعه فى الثالوث الأقدس حيث قال بانبثاق الروح من الآب والابن معاً (٢) على الرغم من أن مجمع القسطنطينية (المسكونى الثانى) حصر انبثاق الروح القدس من الآب فحسب استناداً إلى قول رب المجد نفسه : روح الحق الذى من الآب ينبثق (٣) . ثم جاء المجمع الأفسسى (المسكونى الثالث) فحرم كل من يزيد على دستور الايمان أو ينقص منه حرفًا . وحين أصدر فوتيوس الحرم على نيقولاوس الأول لم يتعرض له أحد ولم يخلعه مجمع بل ظل محتفظاً بأسقفيته وبكرسيه .

فالتاريخ ينبئنا بأربع مرات صدر فيها الحرم على أسقف رومانى لابتداعه فى الايمان : وكان فى المرة الأولى صادراً من أسقف خاضع للكرسى الرومانى ، وفى المرتين الثانية والرابعة من حبرين مستقلين ممثلين لكرسيين رسوليين هما ديسقورس الاسكندرى خليفة مرقس الرسول وفوتيوس القسطنطينى خليفة أندراوس الرسول . ومن هؤلاء الثلاثة لم يصب بسوء غير البابا الاسكندرى . أما فى المرة الثالثة فقد صدر الحرم من مجمع .

ويلخص مارسويريوس يعقوب توما الأسباب التى تجعل الحكم الصادر

---

(١) دائرة معارف العلوم الدينية (بالفرنسية) جـ٣ ص٢٩٢ ، تاريخ الكنيسة ... جـ٥ ص٤٩٥ ، ٤٩٧ – وتجدر الاشارة هنا إلى أن الكنيسة الرومانية تعترف بمسكونية هذا المجمع .

(٢) دائرة معارف العلوم ... جـ٨ ص٦٢٧ ، تاريخ الكنيسة ... جـ٦ ص٢٥٤ – ٢٧٤ .

(٣) يوحنا ١٥ : ٢٦ .

ضد الأنبا ديسقورس غير قانوني بقوله: ١- لأنه كان حكماً غيابياً لم يستمع القاضي به إلى دفاع البابا الاسكندرى عن نفسه كما تقتضى بذلك القوانين الكنسية ، ٢- لأن الجلسة التى نودى فيها بعزله لم تكن قانونية إذ انعقدت قبل موعدها ، ٣- لأن الذين أصدروا الحكم كانوا من المنادين ببدعة نسطور ولم يكن بينهم القضاة المدنيون ولا أساقفة مصر ولا المتفقون معهم فى الرأى، ٤- لأن الأساس الذى بنى عليه الحكم واه - وهو أن ديسقورس دعى ثلاث مرات ولم يحضر - وقد بيّنا أنه كان محاطاً بالحراس الذين أصروا على منعه من الخروج ، ٥- لأن هذا البابا كان متمسكاً بالايمان الأرثوذكسى الذى أصدر بصدده مجمع أفسس (المسكونى الثالث) فى قانونه السابع حرماً على كل من يدخل عليه زيادة أو نقصاناً ، ٦- لأن القاضين به لم يعزوا إلى مارديسقورس بدعةً ما كما يتجلى من قول نواب لاون عند افتتاح المجمع ومن الحكم الذى أصدروه فيما بعد ، وقد أيدّ الامبراطور يوستينيانوس هذا الأمر فى مرسومه الذى أقرّه سنة ٥٥٣ إذ قد ورد فيه ما نصه : « إن ديسقورس لم يخطئ بشئ فى أمر الايمان » ، ٧- لأن القاضين به لم يطعنوا فى أرثوذكسية مجمع أفسس الثانى (الاستئنافى) الذى بسببه شجب مار ديسقورس وإلا لعزلوا أناطوليوس القسطنطينى ومكسيموس الأنطاكى لأن رسامتهما منه [١] .

ولئن قيل بأن مارسويريوس أرثوذكسى العقيدة وأن كنيسة أنطاكية ظلت على أطيب العلاقات مع كنيسة الاسكندرية على مدى الأجيال ، فما القول عن المؤرخ البروتستانتى الألمانى أدولف هارناك ؟ فقد قال هذا المؤرخ الذى له مكانته بين المؤرخين الكنسيين ما ترجمته : « إن لاون تآمر مع الامبراطور وأسقف العاصمة وأسقطوا ديسقورس . ولكنه فى لحظة سقوطه كان مصير معارضيه الذين كانوا متحدين حتى تلك الساعة (وهم الامبراطور

---

(١) راجع كتابه تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية جـ٢ ص١٧٧ - ١٧٨ ، ومما يجدر ذكره هنا أن المصريين لقبوا أنصار خلقيدون بلقب « ملكيين » لأنهم سايروا الامبراطورة بولشريا وزوجها فى التجنى على البابا ديسقورس ، ورداً على هذه التسمية أطلق الخلقيدونيون على المصريين وأنصارهم لقب « يعاقبة » ، وذلك لأن الأنبا ديسقورس كان اسمه يعقوب قبل اعتلائه السدة المرقسية .

والبابا الرومانى) – كان مصيرهم التباعد » (١) . ثم عاد المؤرخ نفسه فقال فى كتاب آخر له ما ترجمته : « لقد تخلصت الدولة فى آخر هذه الفترة من أقوى خصومها وهو أسقف الاسكندرية ولو أن الثمن كان باهظاً للغاية » (٢) .

٩١– وبعد أن أصدر المجمع الخلقيدونى هذا الحكم الجائر استمر يعقد جلساته . وفى الجلسة المعدودة الخامسة دارت المناقشات حول الايمان ، ولم يسع الأساقفة المجتمعون إلا التحدث عن واضعى هذا الايمان – أى لم يسعهم إلا أن يذكروا الآباء المصريين . وعندها أعلن أناطوليوس أسقف القسطنطينية أن أرثوذكسية ديسقورس لا غبار عليها ، وأنه لم يخلع لابتداعه وإنما خلع لاصداره الحرم على لاون الأول أسقف رومية ولرفضه دعوة المجمع المثلثة . وتبدو هذه الحقيقة واضحة من الاتهامات الموجهة إلى البابا ديسقورس من مندوبى رومية كما تبدو من الحكم المجمعى حيث لم ترد فيه كلمة «بدعة» اطلاقاً . ثم أن الحكم لم يتعدّ الخلع ، لأن آباء خلقيدون – رغم تجنيهم على البابا الاسكندرى – لم يجسروا على حرمه إذ لم يستطيعوا أن يجدوا مستنداً يستندون إليه لحرمه بعد صراحته التامة فى المجمع . ولقد أيدّ المنسنيور هيفيليه شهادة أناطوليوس بأرثوذكسية ديسقورس إذ قال : « إن الحكم الصادر من المجمع ضد ديسقورس لم يتضمن كلمة « بدعة » ، كما أن الحكم

---

(١) راجع كتابه « ملخصات لتاريخ العقيدة » فى ترجمته الانجليزية المطبوعة بالولايات المتحدة سنة ١٨٩٣ حيث يقول ما نصه : " Leo I ... made common cause with the emperor and the bishop of the Capital and overthrew Dioscorus . But at the moment of his fall, the opposition between the hitherto united powers (emperor and pope) was destined to come out " .

(٢) راجع كتابه « تاريخ العقيدة » المترجم إلى الانجليزية – الطبعة الثالثة – والمطبوع فى لندن سنة ١٨٩٧ جـ٣ ص١٥٤ حيث جاء ما نصه : " ... the State was delivered at the close of this period from its most powerful opponent, the Bishop of Alexandria, though at much too high a cost " .

وبديهى أن الدولة إذ ذاك كانت الدولة البيزنطية . وقد أدرك المسئولون عن هذه الدولة الاستعمارية أن أقوى خصومهم هم باباوات الاسكندرية الذين لم يكونوا مجرد رؤساء دينيين بل دفعتهم وطنيتهم إلى اذكاء الروح القومية فى أبنائهم فكانوا بهذا العمل خصوماً عنيدين للمستعمر . ولهذه الوطنية ظلت الامبراطورية البيزنطية تستبد بهم إلى أن انهارت فى منتصف القرن السابع .

الصادر من مندوبى لاون خلا منها أيضاً » (١) . وبعد مرور ما يزيد على عشرة قرون منذ أن فاه أناطوليوس بهذه الشهادة جاء أسقف يونانى آخر يؤيدها . وهذا الأسقف هو جاورجيوس مطران نيموكوبيون الذى كتب مقالاً باللغة اليونانية الحديثة وطبعه فى تسالونيكى سنة ١٥٥٣م تحت عنوان: « اتحاد الكنيسة القبطية بالكنيسة الأرثوذكسية: بحث تاريخى عقائدى وقانونى » قال على ص٥٩ منه ما ترجمته : « لم يدنِ ديسقورس لايمانه ولكنه دين لأنه رفض الاشتراك مع البطريرك لاون ولأنه دعى مرات ثلاثاً فلم يلبِّ الدعوة » . ثم أيدّ هذه الشهادات فى عصرنا الحالى مار أغناطيوس يعقوب الثالث بطريرك أنطاكية إذ قال : « نستنتج من هذا كله الأمور التالية –أولاً– اطلاع مار ديسقورس الواسع على قوانين الكنيسة ... ثانياً – تمسكه بالايمان القويم (الأرثوذكسى) ... ثالثاً – شهادة أوسطاثاوس أسقف بيروت بصحة قوله بابرازه رسائل كيرلس ... رابعاً – تبرؤه من أوطاخى بقوله : إذا كان أوطاخى يذهب بخلاف مذهب البيعة فإنه يستحق النار أيضاً لا مجرد العقاب ... خامساً – قوله إن فلابيانوس عزل لقوله بطبيعتين من بعد الاتحاد» (٢) .

وهذه الشهادات – وغيرها – تبيّن مدى الجور الذى وقع على البابا الاسكندرى وكنيسته المصرية . وإن من يمعن النظر فى محاضر جلسات خلقيدون ليزداد دهشة إذ يجد أن آباء هذا المجمع المشئوم لم يتعرضوا لقرارات المجمع الأفسسى الاستئنافى على الاطلاق : فلم ينقضوها ، ولم يتداولوا فيها ، ولم يشيروا إليها من قريب أو من بعيد فكان فى مسلكهم هذا

---

(١) فى كتابه « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) جـ٣ ص٥٩ حيث قال ما نصه :

" L'archevêque de Constantinople (Anatoluis) dit que Dioscore n'a pas été déposé à cause de sa foi orthodoxe, mais, parcequ'il avait excommunié le pape (Léon) , et n'avait pas obéi au synode " .

ويعقب هيفيليه على هامش الصفحة عينها بقوله: "Dans le decret synodale contre Dioscore, il n'est pas fait expressémentt mention de son hérésie, et la sentence que les légats du pape (Léon) ont portée contre lui n'en dit rien non plus " .

(٢) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لهذا البطريرك الجليل عندما كان مطراناً باسم مارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص١٧٤ – ١٧٥ .

الدليل القاطع على أنهم لم يجتمعوا للتداول فى العقيدة ، ولا فى معاودة النظر فى أمر أوطيخا وإنما اجتمعوا للتعدّى على البابا الاسكندرى . فما أن نجحوا فى استصدار الأمر الامبراطورى بنفيه حتى تجاهلوا موضوع أوطيخا تماماً .

٩٢- ومما يزيد حقيقة الموقف جلاءاً أن المجتمعين فى خلقيدون - بعد الانتهاء من الحكم على البابا ديسقورس - تشاغلوا بوضع القوانين الخاصة بالأمور الادارية . وحين كانوا على وشك أن يؤكدوا مكانة القسطنطينية ويضعوها فى مرتبة رومية أثار مندوبو لاون ضجة معلنين أنهم لن يقبلوا بحال ما هذه المساواة . وقد بدت من كل مناقشتهم الرغبة فى تفخيم أسقفهم ووضعه بألقاب غير مألوفة من قبل مثل لقب ، رئيس أساقفة الكنيسة الجامعة ، (١) . وقد استماتوا فى مناقشاتهم لأن لاون أوصاهم مقدمًا أن يدافعوا عن سلطته بأرواحهم (٢) ، مع العلم بأنه كان قال لأناطوليوس فى احدى رسائله إليه بأن كرامة أية كنيسة ترجع إلى أن أحد الرسل القديسين أسسها (٣) . ولما رأى نواب لاون أن كل مناقشاتهم ضاعت هباء منثوراً انسحبوا من الجلسة على الفور . على أن انسحابهم لم يكن له من أثر لأن الآباء نفذوا رغبتهم بأن سّنوا القانون الثامن والعشرين الذى لم يكن سوى مؤيد للقانون الثالث من قوانين المجمع المسكونى الثانى . وقد استند الآباء

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٦٠٤ حيث يقول :

" On voit par tous le discours tenus par Paschasinus au concile de Chalcédoine que les délégués romains s'attachaient surtout à relever les prérogatives de l'evêque de Rome et qu'ils lui attribuaient des titres pompeux et tout à fait nouvaux, comme celui d'archevêque de l'Eglise Universelle " .

(٢) دائرة معارف العلوم الدينية جـ٨ ص١٥٠ حيث جاء ما نصه :

" Il (Léon) avait recommandé à ses légats de sauvegarder et de defendre son autorité en leur personne " .

(٣) شرحه فى الجزء الثامن وعلى الصفحة عينها وردت هذه الفقرة من خطاب لاون وهى: ... " c'est l'origine apostolique d'une Eglise, sa fondation par un apôtre qui la rend digne d'un rang supérieur " . وفى هذه الكلمات اعترف بمساواة جميع الكنائس التى أسسها الرسل .

في هذا القرار إلى التقدم المدنى لهاتين العاصمتين . وكان انسحاب نواب لاون الأول فاتحة الانشقاق بين كنيستى العاصمتين الشرقية والغربية . ويؤخذ من وضع هذا القانون (الثامن والعشرين) أن غالبية من حضروا المجمع الخلقيدونى رضوا بأن يصغوا فى صمت تام إلى المهاترات الرومانية حين كانت موجهة ضد البابا ديسقورس ، ولكنهم قطعوا هذا الصمت عندما بدأ الرومانيون ينتقصون من أهمية القسطنطينية (١) - مما يوضح أنهم اجتمعوا (فى الحقيقة) ليتنازعوا الأولية . فتآمروا على اضعاف البابا الاسكندرى أولاً ثم تغاضوا عن احتجاج نواب رومية على قانونهم الثامن والعشرين واحتجاج لاون الأول نفسه (٢) لدى الامبراطورة بولشريا وزوجها مرقيانوس ، لأن هذا القانون دخل فى حيز التنفيذ فى الحال وصادقت عليه جميع الكنائس ومن بينها رومية (٣) .

٩٣- وظل آباء المجمع يوالون عقد اجتماعاتهم انتظاراً لرد الامبراطور لأنهم كانوا قد بعثوا بصورة الحكم إلى كل من مرقيانوس وبولشريا حاكمى الشرق ، وإلى فالنتينيانوس الثالث امبراطور الغرب . وقد طلب الآباء إلى الأباطرة أن يصادقوا على حكمهم إذ لم يكن فى وسعهم تنفيذه فعلاً ما لم تؤيده السلطة الزمنية التى تملك السلطة التنفيذية وبخاصة لأن البابا الاسكندرى كان واسع النفوذ وله سلطة بعيدة المدى (٤).

٩٤- وبعد أيام وصل خطاب الامبراطور مرقيانوس يحمل المصادقة

---

(١) الخلاصة الوفية فى أرثوذكسية الكنيسة القبطية - مقال للأستاذ فرنسيس العتر أرشيدياكون كنيسة الرسولين بطرس وبولس بالقاهرة - نشره فى مجلة الصخرة العدد الذى يجمع بين شهرى أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٤٩ من السنة الثالثة عشرة ص١٩ - ٢٤ .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) جـ٤ ص٦٠٧ حيث يقول ما نصه : "Le canon (28 de Chalcédoine) donna lieu à une polémique dans laquelle St. Léon montra plus de passion que de franchise. Le canon du concile était une réponse foudroyante aux nouvelles prétensions dont les délégués romains s'étaient fait les échos au concile ... " .

(٣) ، البابوية المنشقة ، للأبيه جيتى (بالفرنسية) ص١٠٣ ، تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٥٩٤ .

(٤) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٥٩٤ .

على حكم المجمع كما يحمل الأمر بنفى البابا ديسقورس إلى جزيرة غنغرا (عند شاطئ آسيا الصغرى) ، ويأذن لبقية الأساقفة بالعودة إلى بلادهم . وهكذا انفضّ مجمع خلقيدون المشئوم الذى ترجع إليه سبّة شق الكنيسة المقدسة .

٩٥- وقد صحب البابا الاسكندرى فى منفاه اثنان من أساقفته ، كما صحبه بطرس رئيس الشمامسة وثيئوبيستوس سكرتيره وكاتب سيرته . وكانت مصاحبتهم لقداسته بمحض اختيارهم . وكان القديس مكارى أسقف أدكو يشتهى أن يشارك اباه مرارة النفى أيضاً ، ولكن هذا البابا المصرى المقدام الذى كانت تربطه بالأنبا مكارى أواصر المحبة الصادقة لم يسمح له بذلك بل قال : « عد أنت إلى بلادنا الحبيبة لأن اكليل الشهادة ينتظرك فى المدينة عينها التى ارتوت بدماء مرقس الرسول » . وقابل الأنبا مكارى هذه النبوءة مغتبطاً ، وذهب إلى الشاطئ لعله يجد سفينة تقلّه إلى الاسكندرية . وقد صحبه إلى الشاطئ الرجال الخمسة الذين كانوا سيقاسون مرارة النفى - أى الأنبا ديسقورس وصحبه الأربعة . ذهبوا جميعاً إلى شاطئ البحر ليبعثوا مع زميلهم الذى ينتظره اكليل الشهادة بأمانيهم ، وليتجهوا معه بأبصارهم وقلوبهم إلى وطنهم العزيز الذى لن يروه بالجسد ثانية ووجد الأسقف القديس سفينة تجارية أوصلته إلى الاسكندرية . وفى الوقت المعيّن نال اكليل الشهادة الذى تنبأ له عنه البابا الجليل ديسقورس .

٩٦- أما الأنبا ديسقورس فقد ذهب هو وزملاءه إلى جزيرة غنغرا . وكان معظم أهالى تلك الجزيرة لا يزالون وثنيين ، بينما كان من فيها من المسيحيين نسطورياً حتى لقد اعتاد أسقفهم أن يهزأ بخليفة مارمرقس زاعماً أنه بذلك يزيده حزناً على حزن .

٩٧- على أن البابا الاسكندرى تحمّل كل هذا فى سكون ، وقابل سخرية النسطوريين بصبر ووقار ، كما دأب على تعليم الوثنيين . وقد شفى المرضى ، وواسى الحزانى ، وسعى إلى اغاثة كل من استنجد به ، عملاً بقول الرب : « اشفوا المرضى . طهروا البرص ... » (١) .

---

(١) متى ١٠ : ٨ .

٩٨- ولم يكن نفى الأنبا ديسقورس ليحول دون وصول بعض أحبائه إليه ومن بين الذين ظلوا على عهد الوفاء مقيمين الكاهن بطرس الأيبيرى [١] الذى بعث إليه برسالة ضمّنها وصفاً لكل ما حدث فى مجمع خلقيدون بعد سفر البابا الاسكندرى . وقد رد عليه خليفة مارمرقس يقول : « ... أما نحن فإننا نعترف بأن لاهوته لم يفارق ناسوته طرفة عين . ونعترف بأنه - عند نزوله من السماء حيث كان جالساً عن يمين الآب - دخل إلى بطن العذراء موّحداً بين لاهوته وناسوته وحدةً لا افتراق فيها . وكما أنه لا بداية للاهوته كذلك لا نهاية للاهوته متحداً بناسوته . وحين علق على الصليب لأجلنا لم يفترق لاهوته عن ناسوته وقد صعد إلى السماوات بالجسد عينه الذى اتخذه من مريم أم الله ، وهو جالس عن يمين الآب . هذا هو ايماننا » [٢] .

٩٩- وذات يوم جاءه تاجر مصرى جنحت مركبه عند شواطئ غنغرا ، فانتهز الفرصة للسؤال عن باباه . وبكى حينما وقعت عيناه عليه . غير أن الأنبا ديسقورس خفّف من حزنه قائلاً : « يابنى - مادمنا نحفظ الايمان الذى سلّمه لنا آباؤنا فنحن فى خير رغم الضيقات والسلاسل » . ثم قدم له التاجر مبلغًا من المال قائلاً : « إقبل يا أبى هذا المبلغ من ابنك لأنك فى بلاد غـريبة » . أجابه : « لست فى بلاد غريبة يابنى - لأن الله الذى خلق الكائنات والذى منحنا الشجاعة للدفاع عن الايمان هو يمنحنا نعمة تمكننا من أن نشعر أننا لسنا فى بلاد غريبة ، لأن للرب الأرض وملؤها » [٣] . وامتلأ قلب التاجر عزاءً لسماعه هذه الكلمات ، ولكنه ظل يلح على البابا ديسقورس ليقبل المال إلى أن أخذه منه فى النهاية . وقد وزع هذا المال على الفقراء والمعوزين الذين كانوا يأتون إليه [٤] .

---

(١) أيبيريا هى الاسم الذى أطلق قديماً على الجزء الشرقى من أسبانيا ، وهو الجزء الواقع على نهر أيبيروس - ويعرف الآن باسم أبيرو .

(٢) سيرة الأنبا ديسقورس بقلم تلميذه ثيئوبيستوس ترجمها إلى الفرنسية عن الأصل القبطى المستشرق ناو ونشرها فى « المجلة الأسيوية » العدد العاشر المجلد الأول ٧ (مارس - ابريل سنة ١٩٠٣) . ص٢٧٩ .

(٣) مزمور ٢٤ : ١ .

(٤) سيرة الأنبا ديسقورس ... ص٢٨٨ - ٢٨٩ .

١٠٠- وثمة زائر آخر جاءه خصيصاً وهو بفنوتى رئيس الأديرة الباخومية . وحين التقى رجلا الله وقع كل منهما على عنق الآخر وقبّله . ثم قضيا عدة أيام معاً تعزّى كل منهما بصحبة الآخر إذ كانا يتحدثان عن عظائم الله . وفى أثناء الحديث قال بفنوتى لباباه : « أليست العليقة التى رآها موسى مشتعلة بالنيران فى البرية دون أن تحترق هى أيضاً من الرموز التى يمكن الاستعانة بها لتصوير وحدة اللاهوت بالناسوت ؟ » فأجابه الأنبا ديسقورس بالايجاب .

وبعد أن سَعِد بفنوتى بصحبة باباه الجليل بضعة أيام تنسم خلالها الخليفة المرقسى نسيم مصر الحبيبة ، استأذن هذا الناسك فى العودة ليحمل إلى رهبانه تحية الراعى الثابت رغم المنفى وعذابه . وما أن وصل إلى أديرته حتى أعلم نساكه بما رآه وما سمعه فسبحوا الله تعالى الذى يعطى قديسيه نعمة تمكنهم من احتمال كل أنواع المشقات (١) .

١٠١- وبعد أن قضى البابا ديسقورس سنوات خمساً فى جزيرة غنغرا تمكن خلالها من أن يكتسب الوثنيين من أهلها إلى السيد المسيح والمبتدعين منهم إلى الايمان الأرثوذكسى انتقل إلى فرح سيده محققاً فى حياته قول السيد له المجد : « كن أميناً إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة » (٢) .

١٠٢- ولما كان الآب السماوى لا ينسى تعب المحبة ، ولا يدع أحباءه بين أيدى ظالميهم دون انصافهم - إذ هو يمهل ولا يهمل - فقد أقام للأنبا ديسقورس شهود عدلٍ فى مختلف العصور . فقال عنه القديس ساويرس الأنطاكى (٣) : « أنه شهيد المسيح ، الذى وحده لم يجثُ للبعل فى المجمع الباطل » ، بينما وصفه مار زكريا الفصيح أسقف موللى (السريانى) بأن :

(١) سيرة الأنبا ديسقورس بقلم تلميذه ثيئوبيستوس ترجمها إلى الفرنسية عن الأصل القبطى المستشرق ناو ونشرها فى « المجلة الآسيوية » العدد العاشر المجلد الأول ٣ (مارس - ابريل سنة ١٩٠٣) ص٢٩٧ - ٣٠٠ .

(٢) سفر الرؤيا ٢ : ١٠ .

(٣) هو أحد الأحبار الأرثوذكسيين الذين اضطهدهم الامبراطور يوستينيان فى القرن السادس فلجأ إلى وادينا الزخيب حيث وجد الأمان .

، ايمانه كان مثل ايمان أثناسيوس وكيرلس وسائر الملافنة [١] . وإذ روّض نفسه هذا الرجل الرسولى – منذ نعومة أظفاره على الايمان القويم (الأرثوذكسى) أبى السجود للصنم ذى الوجهين الذى صاغه لاون والمجمع الخلقيدونى ، . أما الأنبا بطرس الثالث (البابا الاسكندرى السابع والعشرون) فقد سمّاه ، شهيد المسيح الصادق ، . . ، فى حين دعاه تلميذه ثيئوبيستوس «شهيد الحق» [٢] .

١٠٣– وكان ثيئوبيستوس شماساً وسكرتيراً للبابا ديسقورس ، أحبه وأعجب به فتبعه أينما ذهب . وحين أصدر مجمع خلقيدون حكمه الجائر بنفى هذا البابا المصرى الجرئ ذهب معه إلى المنفى . وفى المنفى شغل ثيئوبيستوس نفسه بكتابة سيرة معلمه الكبير الذى لازمه إلى أن استراح من ظلم هذا العالم وانتقل إلى عالم العدل والبر .

ولم يستطع ثيئوبيستوس (بعد انتقال باباه) أن يعود إلى بلاده المحبوبة ، لأن الامبراطور مرقيانوس كان قد أقسم بأنه إن تجرأ سكرتير الأنبا ديسقورس على الرجوع إلى وادى النيل فهو لابد مقتول . فغادر ثيئوبيستوس جزيرة غنغرا ، وقصد إلى المدن الخمس لقربها من مصر ولوجود مصريين فيها . وهناك استكمل سيرة باباه الجليل وبعث بها إلى وطنه العزيز على يد صديقٍ صدوق كى يجد المصريون فى هذه السيرة الرائعة من القوة ما يمكنهم من مواصلة الجهاد ليكونوا خليقين بهذا البابا المصرى العظيم الذى رضى بالاهانة والنفى ذوداً عن الايمان الأرثوذكسى الذى تسلمه من سلفائه الأماجد [٣] .



---

(١) أى المعلمين .

(٢) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص٢٠٢– ٢٠٣ .

(٣) مخطوط عربى يتضمن سيرة الأنبا ديسقورس محفوظ بمكتبة البطريركية القبطية بالقاهرة رقم ١٧١ لاهوت ، تاريخ بطاركة الاسكندرية وكشف باسمائهم للشماس كامل صالح نخلة ص١٠ – ١١ .

رجع الصدى : أ ـ الأنبا ثيموثيئوس الثانى

(١٠٤) النتائج البعيدة المدى توجب التريث فى الحكم .
(١٠٥) تسرب الغطرسة إلى المسئولين فى الكنيسة .
(١٠٦) وصول نبأ الحكم على البابا ديسقورس إلى الاسكندرية مقرونًا بالتهديد .
(١٠٧) ثورة المصريين وتجدد اضطهادهم .
(١٠٨) مجمع الكرازة المرقسية يجدد الحرم على مجمع خلقيدون .
(١٠٩) والى الاسكندرية يحاول الايقاع بالأساقفة المصريين ويفتك بالأنبا مكارى أسقف أدكو .
(١١٠) استيلاء الخلقيدونيين على عدد من الكنائس .
(١١١) الدخيل بروتيريوس يسلب الكنائس .
(١١٢) لاون الأول يكاتب الدخيل بروتيريوس .
(١١٣) ولاء المصريين لباباهم المنفى ومكاتبته إياهم .
(١١٤) نياحة الأنبا ديسقورس وانتخاب خليفة له .
(١١٥) مميزات تيموثيئوس .
(١١٦) تزايد غضب الوالى على المصريين .
(١١٧) البابا الاسكندرى يقوم بزيارة راعوية والنتائج التى ترتبت عليها .
(١١٨) معاقبة المصريين بنفى باباهم الشرعى وفرض دخيل ثان عليهم .
(١١٩) استقبال أهالى فلسطين ولبنان وآسيا الصغرى للأنبا تيموثيئوس .
(١٢٠) موت مرقيانوس واعتلاء باسيليوس عرش القسطنطينية .
(١٢١) خطاب دورى من الامبراطور إلى جميع الأساقفة .
(١٢٢) الأنبا تيموثيئوس هو الذى كتب الخطاب الدورى فأوضح أورثوذكسية كنيسته .
(١٢٣) الخطاب الدورى أساس لصلح بين الكنائس الشرقية دام عدة سنوات .
(١٢٤) نقل رفات الأنبا ديسقورس إلى الاسكندرية .
(١٢٥) عودة البابا الاسكندري إلى مقر كرسيه وفرار الدخيل أمامه .
(١٢٦) استتاب السلام ونياحة الأنبا تيموثيئوس .

١٠٤- لو أن الانسان أوتى المقدرة على معرفة الغيب فأدرك نتائج أعماله: سيئة كانت أم حسنة ، لكان يزن الأمور قبل أن يصدر حكماً فيها . ولكن - على الرغم من هذا القصور فالواجب يقضي على الانسان أن يتريث قبل البت فى أمر أياً كان ، لعله بهذا التريث يستطيع أن يتجنب ما قد ينتج عن عمله من شرٍ مستطير .

ومن سوء الطالع أن الآباء الذين اجتمعوا فى خلقيدون لم يفكروا مطلقاً فيما كانوا مزمعين أن يصدروا من حكم ولا فيما قد ينتج عنه من أضرار جسام. إذ قد اندفعوا فى تصرفهم بغرض رئيسى هو الحط من هيبة البابا الاسكندرى . فإن المجمع - على حد قولهم - كان قد التأم ليثبت الايمان ، ولكن آباء المجمع ، حتى بعد اقرار الايمان ، وبعد أن وافقهم الأنبا ديسقورس على وجوب توقيع أشد العقاب بأوطيخا إن صح ما اتهموه به من ابتداع ، وبعد أن أكد آباء المجمع للمندوبين الامبراطوريين أن الايمان الأرثوذكسى لا تشوبه شائبة : بعد هذا كله عادوا فعقدوا عدة جلسات لم يتناولوا خلالها الكلام عن الايمان إلا فى جلسة واحدة هى تلك التى جهر فيها أناطوليوس أسقف القسطنطينية بأرثوذكسية البابا ديسقورس حيث قال : « إن أرثوذكسية هذا الحبر التقى لا غبار عليها » .

١٠٥- وفى أثناء جلساتهم - عدا تلك الجلسة الوحيدة - لم تدر مناقشاتهم إلا حول الشئون الادارية وحول من يكون الأعظم فيهم . وهكذا دبت روح الغطرسة فى الكنيسة ، فتولد عنها الشقاق ونما الزوان جنباً إلى جنب مع الزرع الجيد (١) . وتناسى الأساقفة شرط العظمة الذى وضعه الفادى الحبيب (٢) . وتتضح هذه الحقيقة من أنهم حالما تخلصوا من البابا ديسقورس ثارت ثائرتهم واحتدم الجدل بينهم على امتيازات كرسى رومية وكرسى القسطنطينية . وأخذ كل فريق منهما يناصر أسقفه ، يؤيد ذلك الرسالة التى كان قد بعث بها أسقف رومية إلى بولشريا . فإن هذا الأسقف ، بعد أن تحدث عن المجمع الخلقيدونى بكل ازدراء وتحقير ، وبعد أن أنكر

---

(١) متى ١٣ : ٢٤ - ٣٠ .

(٢) مرقس ١ :٤٣ - ٤٥ ، لوقا ٢٢ :٢٥ - ٢٧ .

القانون الثامن والعشرين من قوانين المجمع - بعد هذا كله هاجم أناطوليوس أسقف القسطنطينية بلهجة من الضجر لا تليق بأسقف . وهكذا كشف عما كان يضمره من حسد : ذلك الحسد الذى كان قد ستره بستار الغيرة على الدين . ولم يكتف لاون بخطاب واحد بل أنه بعث بعدة خطابات إلى الامبراطور مرقيانوس والامبراطورة بولشريا تحدث فيها عن مجمع خلقيدون بحدة لا تدع مجالاً للشك فى أن الغيرة على الدين لم تكن بالدافع الوحيد الذى أملى عليه كتابة هذه الخطابات . ولم تقف حدته عند مهاجمة المجمع ، بل دفعته إلى مهاجمة أناطوليوس أسقف القسطنطينية وشريكه فى الخدمة الرسولية. فقد قال فى خطابه إلى الامبراطور مرقيانوس ما ترجمته: « لقد أحسن أخى أناطوليوس صنعاً بالتخلى عن أخطاء الذين رسموه » (١). ولكن الواجب كان يحتم عليه أن يرعى زمامكم لما أسديتموه نحوه بدلاً من الاندفاع فى سبيل مطامعه الخاصة . ولقد غضضنا الطرف عن هفوات رسامته لكى نرضيكم (٢) .

واستمر لاون الأول يهاجم أناطوليوس إذ ادعى فى الخطاب الذى بعث به إلى الامبراطورة بولشريا بأن القانون الثامن والعشرين من القوانين التى استنها مجمع خلقيدون - والذى سوّى بكرسى رومية كرسى القسطنطينية - كان بناءً على طلب أناطوليوس وتحقيقاً لمطامعه الشخصية ، متناسيًا أنه إنما جاء توكيداً للقانون الثالث من قوانين مجمع القسطنطينية (المسكونى الثانى) . ولقد تمادى لاون فى ادعائه إلى حد أنه أنكر وجوده

---

(١) يجدر القول هنا بأن الأنبا ديسقورس هو الذى وضع اليد على أناطوليوس على أثر الحكم الذى أصدره المجمع الأفسسى الاستئنافى ضد فلابيانوس . راجع الفصل السابق لهذا مباشرة .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص١١ حيث قال ما نصه :

" Mon frère Anatolius a bien fait d'abandonner les erreurs de ceux qui l'avaient ordonné (Dioscore) ... mais il aurait du conserver ce qu'il devait à votre bonté, sans se laisser aller à l'ambitiom . Pour vous être agréable, nous avons fermé les yeux sur les défauts de son ordination " . وهنا يصح التساؤل إن كان من اللائق أن يتغاضى أسقف مسئول عن التشريعات الكنسية - يتغاضى عما يمس هذه التشريعات ارضاء للسلطان ؟ .

ضمن قوانين مجمع القسطنطينية ، متناسياً (للمرة الثانية) أن الذين اجتمعوا في ذلك المجمع أساقفة رسوليون نظيره تماماً ، وأن المسألة الادارية البحتة مرجعها إلى الكنيسة صاحبة الشأن . فالايمان لأنه عقيدة الكنيسة الجامعة يجب أن تتداول فيه جميع الكنائس معاً وتقره بحكم الأغلبية ، أما النظام فأمر فردى محض مستمد من البيئة والتقاليد ، لذلك لا حاجة لأن تتداول الكنيسة فيه ، بل يجب أن يترك أمره لكل كنيسة على حدة لتختار ما يلائمها منه . ولما كان القانون القسطنطيني الثالث قانون ادارى بحت كان أمره موكولاً إلى كنيسة القسطنطينية لأنها صاحبة الشأن فيه . ولقد احترم الشرق مبدأ الحرية الفردية فلم يتدخل قط في ادارة الكنيسة الرومانية . فكان الواجب على الكنيسة الرومانية (وهي الكنيسة الرسولية الوحيدة في الغرب) أن تحترم هي أيضاً مبدأ الحرية الفردية ولا تتدخل في الأمور الادارية للشرق. ولقد أثار القانون الثامن والعشرون جدلاً كانت الكنيسة في غنى عنه . وأبدى فيه لاون الأول ثورة الغضب بدلاً من الاخلاص . والواقع أن القانون الثامن والعشرين كان الرد الصاعق للادعاءات الرومانية التي كانت قد بدأت في الظهور في مجمع خلقيدون . فلم يكن بغريب أن يصر الأساقفة الشرقيون على تنفيذه (١) .

١٠٦– وبينما كان أصحاب السلطان يتكاتبون، وصل رسول امبراطورى إلى الاسكندرية ينبئ الشعب بالحكم الذى صدر على البابا ديسقورس

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتي جـ٤ ص٢٦٠٧ جـ٥ ص١١ – ٢١ . وقد أورد هذا الكاتب تفاصيل الرسائل التي بعث بها لاون الأول في جـ٥ الفصل الأول وقال في ص١٩ منه ما نصه :

" Léon ne voulait pas comprendre que ceux qui les avaient promulgué étaient assis sur des sièges apostoliques aussi bien que lui, et qu'une affaire qui ne concernait que l'Orient n'avait pas besoin d'être notifiée à l'Occident les évêques Orientaux n'empêchaient pas les évêques Occidentaux de reconnaitre au Siège de Rome certains privilèges, pourquoi l'Occident aurait- il empêché l'Orient d'en accorder à l'évêque de leur ville impériale de Constantinople ? Le consentement de l'Eglise est requis pour qu'une définition de foi devienne oecuménique, mais quant aux decrets disciplinaires, chaque Eglise peut faire ceux qu'elle croit utiles.

وبتعيين قس اسمه بروتيريوس بدلاً منه . ومن المؤلم أن بروتيريوس هذا كان اسكندرياً . وكان مجمع خلقيدون قد اختار هذا القس ووافق الامبراطور على تعيينه . وكان الرسول الامبراطوري يحمل – إلى جانب هذه الرسالة – رسالة امبراطورية ثانية يتهدد فيها كاتبها كل من يجرؤ على العصيان – أيا كان – بأشد العقوبات . وكان يصحب بروتيريوس شرذمة من الجند مكلفة بمعاقبة مخالفي الأوامر الامبراطورية (١) .

١٠٧– على أن هذا التعسف أدى إلى عكس ما كان يرجوه الامبراطور مرقيانوس منه . فإن المصريين بدلاً من أن يتراجعوا أمام تهديد هذا الحاكم الغاشم ، وأمام تجليس دخيل ، قد قابلوا الوعيد والتهديد بأن أضرموا نار الثورة في الاسكندرية . وعلى أثر ذلك اندلعت نار الاضطهاد وتجدد الاستشهاد في وادي النيل (٢) .

١٠٨– ولقد كان الأساقفة على رأس الشعب المصري في رفضهم لهذا الوضع الشاذ ، فرفضوا بكل اباء أن يخضعوا لأسقف دخيل ، كما رفضوا الاعتراف بأسقف وباباهم لايزال على قيد هذه الحياة ، معلنين ولاءهم للبابا ديسقورس راعيهم الشرعي الذي انتخبه الشعب بمحض ارادته . وقد أراد الأساقفة المصريون أن يؤكدوا ولاءهم للخليفة المرقسي ، وأن يعلنوا استقلالهم الكنسي ، فعقدوا مجمعاً أيدوا فيه الأنبا ديسقورس تأييداً تاماً اجماعياً . وحرموا لاون الأول وطومسه والمجمع الخلقيدوني .

١٠٩– على أن والي الاسكندرية – وهو عميل القسطنطينية – رأى أن ينفذ أوامر سيده فأمر جنده بأن يقابلوا كل أسقف على حدة ، ويطلبوا إليه

---

(١) ، مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتيني المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الراهب فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كرادلة . طبع في رومية سنة ١٦٩٤ ص٢١٢ – ٢١٣ .

(٢) كانت فلسطين هي أيضاً مسرحاً للاضطهاد حيث هاج سكانها حين أراد يوبيناليوس أسقفهم أن يقرأ عليهم قرارات مجمع خلقيدون وطومس لاون – راجع كتاب ، تاريخ الكنيسة ، (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتي جـ٥ ص٣٠ ، السنكسار الأثيوبي ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٤ ص١٢٣٨ – ١٢٤٠ حيث يقدر الذين راحوا ضحية هذا الاضطهاد بثلاثين ألفاً .

أن يوقع على قرارات مجمع خلقيدون . وكان الدافع لهذا التصرف الشاذ أن الوالى توهم أنه قد يظفر بالأساقفة إن هو قابل كلاً منهم على حدة . لأن الانسان فى وحدته غالبًا ما يسلك مسلكًا يختلف عن مسلكه وهو ضمن جماعة . إلا أن هذا الوالى قد أخطأ الظن لأن أساقفة الكرازة المرقسية كانوا راسخى الايمان الأرثوذكسى ، كما كانوا متأكدين من أرثوذكسية باباهم الشرعى ، فأكسبهم هذا الايمان وهذا التوكيد جرأة نادرة مكنتهم من مواجهة الحكام فى غير تردد . فكان موقف كل أسقف على حدة موقفه بالضبط وهو مع اخوته الأساقفة الآخرين ، إذ لم يستمد أحدهم الشجاعة من زملائه وإنما استمدها من الله مصدر كل قوة وشجاعة . وكان أول أسقف قصد إليه الجند هو الأنبا مكارى أسقف أدكو الذى كان قد صحب الأنبا ديسقورس إلى خلقيدون ، والذى كان بوده أن يشارك باباه الجليل مرارة النفى عن مصر الحبيبة . وبالطبع رفض الأنبا مكارى أن يذعن لمطالب الوالى فلم يوقع على الوثيقة التى جاءه بها الجند . وحين واجهوا رفضه ، طعنه أحدهم طعنة قاتلة ، فلم يلبث أن استودع روحه الطاهرة بين يدى الآب السماوى . وهكذا نال اكليل الشهادة الذى كان قد تنبأ له به البابا ديسقورس وهو فى طريقه إلى المنفى . وبعد أن قتل جند الوالى البيزنطى الأسقف مكارى تركوه وقصدوا إلى بقية الأساقفة الذين رفضوا جميعاً التوقيع ، فنالهم النفى والتشريد . وكان من أثر قتل الأسقف القديس مكارى وتشريد الأساقفة شركائه فى الخدمة الرسولية أن ثار الشعب الاسكندرى وأصر على الحيلولة دون اعتلاء بروتيريوس الكرسى المرقسى وسدوا فى وجهه كل طريق يوصله إلى الكنيسة المرقسية . وقد تم لهم ما أرادوا إذ عجز الدخيل عن الوصول إلى الكنيسة التى هى مركز الرياسة الروحية .

١١٠ – وكانت النتيجة الحتمية لهذا التصرف أن أذيق المصريون صنوف العذاب ولاقوا أشد العقاب ، لأن الوالى ، بالاتفاق مع الأسقف الدخيل ، أمر باغلاق جميع الكنائس ماعدا النذر اليسير منها الذى اغتصبه الامبراطور وسلمه إلى أنصار مجمع خلقيدون من الرومان – اليونان . وكانت بين الكنائس المغتصبة الكنيسة التى تضم جسد القديس مرقس التى كانت قائمة على شاطئ البحر أما الكنيسة التى كانت تضم رأس هذا القديس فقد ظلت فى أيدى

المصريين الذين حافظوا عليها بكل حرص (١) .

١١١- ثم جد بروتيريوس فى سلب الكنائس التى مكنه الجند من الاستيلاء عليها عنوة بحكم امبراطور القسطنطينية ، إذ أحس فى أعماق نفسه بأنها لابد عائدة إلى أصحابها يوماً ما . فرأى أن ينتهز الفرصة ويسلب كل ما فيها ، حتى إذا ما عادت إلى أصحابها وجدوها قاعًا صفصفًا . فكان بروتيريوس كاللص الذى يتسور الجدران لا راعى الحظيرة الذى يشفق على الرعية (٢) .

١١٢- ودنا عيد القيامة المجيد لسنة ٤٤٧ م ش (٣) ، فأرسل لاون الأول أسقف رومية إلى بروتيريوس خطاباً يطلب إليه فيه أن يحدد موعد الاحتفاء بالقيامة المجيدة على جارى عادة باباوات الاسكندرية طبقاً لقرارات مجمع نيقية العظيم . ولم يكن طلب الأسقف الرومانى غير تملق للأسقف المعين من الامبراطور (٤) . فازدادت خواطر المصريين هياجاً واستمروا على اصرارهم فى وجوب القضاء على هذا الدخيل الذى أمعن فى اضطهادهم والتنكيل بهم (٥) ثم وجد مناصراً له فى شخص أسقف رومية .

١١٣- وأنه لمن دواعى فخرنا - معشر المصريين - أن الاضطهاد الذى

---

(١) من طريف الحوادث اننى استصحبت ذات يوم عدداً من الأجانب إلى الكنائس الأثرية والمتحف القبطى فى مصر القديمة وحينما كنت أريهم أيقونة مارمرقس بكنيسة السيدة العذراء المعروفة بالمعلقة سألتنى أحداهن : « أليست كتدرائية مدينة البندقية مثوى لجسم هذا القديس ؟ » قلت : « إن البندقيين لديهم الجسد ، أما نحن فلدينا الرأس » . فعادت تسأل : « أتقصدين المعنى الأدبى للرأس ؟ » أجبتها : « إن رأسه عندنا أدبيًا وماديًا : أدبيًا لأن كنيستنا تسمى باسمه وهى للآن محتفظة بتعاليمه ، ومادياً لأن الرأس محفوظ فى الكنيسة المرقسية بالاسكندرية » .

(٢) يوحنا ١٠ : ١ - ٤ .

(٣) أو سنة ٤٥٥ ميلادية غربية .

(٤) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٢٧ .

(٥) يروى المؤرخون الكنسيون أن الجند اللذين وضعهم الامبراطور تحت أمرة بروتيريوس قد قتلوا أربعة وعشرين ألفاً من المصريين - راجع « تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية » لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص١٩٧ .

تآمر الدخيل والوالي على صبه على رؤوس أجدادنا لم يزدهم إلا ولاء للبابا ديسقورس باباهم الشرعي المنفي . إذ كانوا مقتنعين تمام الاقتناع بأنه ضحية الحسد والافتراء . وقد ضاعف هذا الولاء قوة احتمالهم فرضوا بالعذاب وأصروا على عدم الاذعان لحكم الامبراطورية الغربية عن مصر . وسمع البابا ديسقورس في منفاه بولاء شعبه له وبما يتحمله من عذاب وتنكيل جزاء اخلاصه له وللعقيدة الأرثوذكسية فقطر الدم من قلبه اشفاقاً على رعيته . وكان يكاتبهم كلما سنحت له الفرصة إذ كان بعض التجار – في ذهابهم وايابهم – يرسون عند جزيرة غنغرا ليقفوا على أخباره في المنفى . فيحملون رسائله إلى شعبه . وأحياناً كان يحملها بعض الرهبان الذين كانوا يقصدون إلى الجزيرة التي اضطر راعيهم الأول إلى العيش فيها ليطمئنوا على صحته . فكان الشعب يترقب هذه الرسائل ويتقبلها بلهفة وفرح .

١١٤– وفي سنة ٤٥٠م ش وصلت الأنباء بأن البابا ديسقورس قد استراح من ظلم الناس وذهب ليجد العدالة عند عارف الخفايا . فعم الحزن جميع القلوب ، وتوجع المصريون ، وامتلأوا لوعة لأنهم اتجهوا بأبصارهم جميعاً نحو تلك الجزيرة النائية التي لفظ باباهم فيها آخر أنفاسه . وحين شردت خواطرهم صوب هذه الجزيرة ، وتخيلوا البطل الشهيد على فراش الموت بعيداً عن الأهل والوطن ازدادوا حسرة عليه . وضاعفت هذه الحسرة من عزمهم على مقاومة القوة الغاشمة التي تفرض عليهم غريباً عنهم . وكان والي الاسكندرية غائباً عن المدينة حين نعى الناعي البابا ديسقورس . فرأى الجميع أن خير سبيل ينتهجونه انتصاراً لباباهم الراحل هو أن ينتخبوا خليفة له من بين تلاميذه . وبالفعل اجتمع الشعب مع اكليروسه على الفور وقر رأيهم على انتخاب تيموثيئوس أحد سكرتيريه ليخلفه على السدة المرقسية ، فكان البابا الاسكندري السادس والعشرين . وهكذا ظلت سلسلة الخلافة الرسولية في كنيسة الاسكندرية متصلة الحلقات دون أن يتطرق إليها انقطاع رغم كل العناصر التي تألبت عليها (١) .

١١٥– وكان تيموثيئوس هذا قد تتلمذ للأنبا كيرلس عامود الدين ثم

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتي جـ٥ ص١٩٧ .

لخليفته الأنبا ديسقورس . وقد ترهب فى دير القلمون (١) حيث كان شديد الحرص على النسك والعبادة ، متبحراً فى العلوم الروحية وسيَر الآباء . فكان للصوم المتواصل والصلوات التى يرفعها ليل نهار أثر واضح عليه – فقد كان نحيل الجسم ولكن عينيه البراقتين وذهنه الصاحى كانا شاهدى حق على ما بلغه من سمو روحى . لذلك استقدمه الأنبا كيرلس من الدير ، ورسمه قساً على كنيسة الاسكندرية (المرقسية) فدأب على خدمة الشعب وتعليمه تحت رياسة هذا البابا العظيم ، ثم داوم على الخدمة والتعليم بعد انتقال الأنبا كيرلس إلى مساكن النور وتسلم الأنبا ديسقورس مقاليد الرياسة . لهذا أحبه الشعب ورأى أن ينتخبه ليجلس على السدة المرقسية رغم استعطافه إياه ليتركه كاهناً بسيطاً (٢) .

١١٦– وعاد الوالى إلى الاسكندرية ، وعلم بما كان من انتخاب الأنبا تيموثيئوس الثانى ، فاستشاط غضباً إذ أدرك أن المصريين مصرون على الاحتفاظ بحقهم فى انتخاب من يعتلى كرسى الكرازة المرقسية . ولما كان يريد أن يجد لنفسه عذراً يبرر به ما سيصبه عليهم من عذاب ادعى أنه كان من الواجب عليهم أن ينتظروا عودته قبل أن يزاولوا عملية الانتخاب . ولم يستح من أن يتمادى فى استبداده بالمصريين فأنكر عليهم حقهم فى الاحتفاظ باستقلالهم الكنسى ، معلناً أنه من الواجب عليهم أن يخضعوا لحكم الامبراطور فى أمور الكنيسة كما يخضعون له فى أمور السياسة . وبما أنهم لم ينتظروه حق عليهم العقاب . وتنفيذاً لخطته أخذ يناصر بروتيريوس ويتجاهل البابا الشرعى ممعناً فى اضطهاد المصريين إذ عدهم ثائرين على السلطة الامبراطورية . وبإزاء هذا التشدد فى الحكم وهذا البطش البيزنطى عقد الأنبا تيموثيئوس الثانى مجمعاً من أساقفته عاد فأكد فيه حرم كل من يقبل قرارات المجمع الخلقيدونى المشئوم . ولقد أجمع

---

(١) يتضح لنا من سيرة هذا البابا الجليل أن الدير المعروف باسم ، الأنبا صموئيل القلمونى ، كان ديراً قديماً سابقاً لعهد الأنبا صموئيل ، وأنه كان عامراً بالرهبان فى هذا القرن الخامس . غير أن الزمن كان قد عدا عليه ، فعمره الأنبا صموئيل فى القرن السابع ، ولهذا أصبح معروفاً باسمه .

(٢) تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص٢١٠ .

الاكليروس والأراخنة كبيرهم وصغيرهم – على مؤازرة البابا الجليل ولم يشذ من بينهم غير أربعة أساقفة (١) .

١١٧– وقد رأى الأنبا تيموثيئوس الثانى أن واجبه الراعوى يحتم عليه تفقد رعيته فى هذا الوقت العصيب ، فغادر الاسكندرية وأخذ يتنقل بين مختلف البلاد المصرية . وحيثما نزل كان يثبت قلوب أبنائه على الايمان الأرثوذكسى ويقوى عزيمتهم ، ويوضح لهم أن من يستعين بالله يجد فيه الملاذ فلا يخشى السلطة الزمنية مهما طغت واستبدت .

وبينما كان الأنبا تيموثيئوس الثانى يقوم برحلته الراعوية وصل إلى الاسكندرية الكونت ديونيسيوس أمير الجيش : وصل يحمل الأوامر المشددة لاخضاع المصريين لبروتيريوس بكل ما أوتى من قوة . وقد نفذ هذا الكونت أوامر امبراطوره إلى حد اقترف معه من الفظائع ما لطخ جبين ذلك القرن الخامس وذكرّ المصريين بما قاساه آباؤهم على أيدى الأباطرة الوثنيين . إلا أن هذا التعسف لم يمنع البابا تيموثيئوس الثانى من أن يكمل زيارته الراعوية التى ملأت القلوب عزاء وألهبتها غيرة وزادتها تمسكاً بحقها الوطنى . فلما عاد خليفة مارمرقس من رحلته وجد أن ديونيسيوس قد أغلق فى وجهه جميع أبواب مدينة الاسكندرية العظمىٰ ليمنعه من دخول عاصمته . فاضطرم غضب المصريين ، ولم يعودوا يطيقون تدخل الرومان فى شئونهم الدينية تدخلاً ظالماً غشوماً ، وقر قرارهم على أن يضعوا حداً لكل هذه المهازل . واشتبك المؤمنون والجيش فى معركة دامية سقط فيها الكثيرون . ولقد حار الكونت ديونيسيوس فى أمره بازاء صلابة الشعب المصرى . وراعه أن يراهم وقد تجمعوا كتلة متراصة وقصدوا إلى الدار التى يسكنها بروتيريوس . وكانت جموعهم ثائرة هادرة إلى حد أنه رأى من مصلحته عدم التعرض لهم . ولما رآهم الدخيل مقبلين عليه أصابه الذعر ، فهرب إلى مقصورة المعمودية فى كنيسته واختفى بها . غير أن الجماهير

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٣٠ حيث يقول :

" Apart ces évêques, au nombre dequatre, l'episcopat égyptien tout entier se prononca contre l'intrus . Timothée anathématisa le concile de Chalcédoine et ceux qui le recevaint " .

كانت أشبه بمن لعبت الخمر برأسه ، فتبعته هناك وقتلته بحد السيف . ثم حمل البعض منهم جثته وساروا بها فى الشوارع وهم يصيحون كالمجانين : « هذه جثة الدخيل بروتيريوس » . ثم تملكتهم نوبة جارفة من الجنون عند ذاك فدفعتهم إلى تقطيع الجسد ارباً ارباً وحرقه وذر رماده فى الهواء (١) .

١١٨- وامتلأ الوالى حنقًا وغضبًا بازاء ما أبداه المصريون من عدم الاكتراث التام لكل تهديداته واضطهاداته ، وازداد غيظًا حين واجه هذه الثورة العلنية ، فاندفع بقوة هذا الغيظ إلى استعمال وسائل أشد قسوة لعله يستطيع أن يضع حداً لهذا العصيان . فطلب من الامبراطور أن يأمر بنفى الأنبا تيموثيئوس الثانى آملاً بذلك أن يحد من اندفاع المصريين وتمردهم . وقد لبى الامبراطور مرقيانوس هذا الطلب - إذ استساغ نفى البابوات الاسكندريين - ولم يكتف بنفى البابا الاسكندرى وحده بل نفاه هو وأخاه إلى نفس جزيرة غنغرا التى لفظ فيها الأنبا ديسقورس آخر أنفاسه .

على أن هذا الطغيان لم يكن كافيًا لاخماد ثورة الغضب التى طغت على نفس الوالى ، فسعى إلى اقامة بابا بدلاً من الأنبا تيموثيئوس الثانى ، ونجح فى تعيين رجل اسمه سولوفاتشيولى . ولكن المصريين أصروا على عدم الاذعان لهذا الدخيل الثانى وقاطعوه مقاطعة تامة إذ عدوه ألعوبة فى أيدى الحكام . واستمروا فى مقاطعتهم له مدى سبع سنين كاملة دون أن تلين لهم قناة ، وصمدوا فى أنفة أمام هذا الاعتداء الصارخ . ومن عجيب ما يروى أن الأنبا تيموثيئوس الثانى نجح فى اكتساب محبة أهالى غنغرا حتى لقد وصفوه بأنه « العجائبى المحسن » (٢) .

ولم ينس البابا الاسكندرى - وهو فى المنفى - أن واجبه الأول هو الدفاع عن الايمان الأرثوذكسى ، فبعث برسالة إلى أهالى مصر وفلسطين يحذرهم من بدعة أوطيخا ، وشفعها برسالة ثانية إلى بعض المصريين المقيمين فى

---

(١) أسهب سانت ألفونسو دى ليجورى فى وصف هذه الحادثة فى كتابه « تاريخ الهرطقات » المطبوع بالعربية فى دير سيدة طاميش فى مقاطعة كسروان سنة ١٨٦٤ ص٢٦٧ .

(٢) كتاب تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص٢١٨ .

القسطنطينية للغرض عينه . وأعقب هاتين الرسالتين برسالة ثالثة دعمها بشهادة الكتاب المقدس وبتعاليم أثناسيوس الرسولى وكيرلس عامود الدين وباسيليوس الكبير وغريغوريوس الناطق بالالهيات وذهبى الفم وغيرهم من معلمى الكنيسة الجامعة ولم يكتف الأنبا تيموثيئوس الثانى بهذه الرسائل الثلاث فبعث برسالة رابعة إلى الرهبان والراهبات والمؤمنين فى كنيسة الاسكندرية وضح لهم فيها الايمان الأرثوذكسى مستنداً إلى احدى رسائل الأنبا ديسقورس (١) .

١١٩– ومن نعمة الله تعالى على صفيه الأنبا تيموثيئوس الثانى أن أحبه الناس على حد قول المثل الشائع : « من حبه ربه حبب فيه خلقه » . وقد بدت هذه المحبة الدافقة فى زحف الجماهير لرؤيته وهو ذاهب إلى المنفى إذ قد ساقه الوالى قسراً عن طريق البر لا عن طريق البحر (٢) ، فمر بفلسطين ولبنان وآسيا الصغرى . وقد قابله سكان تلك البلاد بالتهليل والتبجيل كأنما هم خارجون ليحيوا بطلاً منتصراً . وحين وصل الأنبا تيموثيئوس إلى بيروت خف أسقفها أوستاثيئوس لاستقباله ، وتجمهر الناس حولهما طالبين إلى البابا الاسكندرى أن يباركهم فوقف فى وسطهم ، وصلى لأجلهم ، وباركهم . وقد قضى الأنبا تيموثيئوس الثانى ليلة فى بيروت لازمه فى أثنائها أولسون شقيق الأسقف أوستاثيئوس . ولما كان هذا الشقيق أستاذاً للشرع فقد تحادث مع البابا المرقسى فى العقيدة الأرثوذكسية . وفى ختام هذا الحديث قال البابا الجليل لمضيفه : « سأجاهد وأسعى لأجل الايمان لأعيش فى صفاء تام مع الله رغم ما قد يصبه الناس علىّ من أذى » (٣) .

١٢٠– وفى سنة ٤٦٦م ش (٤) توفى الامبراطور مرقيانوس ، وبموته زال الملك عن آل ثيئودوسيوس : هذا الملك الذى حاولت بولشريا أن تحتفظ به

---

(١) شرحه جـ٢ ص٣١٠ .

(٢) يبدو أن الوالى كان يهدف إلى جعل البابا الاسكندرى عبرة لغيره فأخطأ المرمى إذ قد حياه المؤمنون تحية الأبطال الظافرين لادراكهم بأنه انتصر فى المحافظة على العقيدة الأرثوذكسية .

(٣) كتاب تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص٢١٩.

(٤) أو سنة ٤٧٤م .

بكل الوسائل، فاقترفت فى هذا السبيل شتى الآثام. فقد حرّضت أخاها على الزواج من امرأة ثانية لينجب ولداً (ولو أنه لم يصغ لنصحها) ، ثم نقضت عهد بتولتها حين لم تجد لأخيها وريثاً ، وفى آخر الأمر تآمرت مع لاون الأول وغيره من الأساقفة الموالين لها على ايجاد وسيلة لنفى البابا الاسكندرى وابعاده عن شعبه ، وشجعت زوجها على الاستبداد بالشعب المصرى ورغم كل هذه الآثام المتلاحقة انتهى الأمر بانتقال العرش إلى يدى شخص ليس من سلالة ثيئودوسيوس . فقد آل إلى باسيليوس الذى تسلم مقاليد الامبراطورية الشرقية والذى لم يكن له أية صلة من القرابة لآل ثيئودوسيوس . ومن حسن الحظ أن الامبراطور الجديد عيّن لبلاطه طبيباً اسكندرياً (١). فانتهز المصريون الفرصة وطلبوا إليه أن يعمل على اعادة باباهم المنفى إليهم . وقد نجح مسعى هذا الطبيب إذ قد لبى الامبراطور الطلب وجاء الفرج للأنبا تيموثيئوس الثانى .

وامتلأت نفس البابا الاسكندرى فرحاً . لأنه سيرى وطنه الحبيب ثانية وبخاصة لأن الهواجس كانت قد ساورته فى أنه سيقضى فى جزيرة غنغرا كل حياته كما قضاها الأنبا ديسقورس . ومع شوق الأنبا تيموثيئوس لرؤية شعبه وبلده فقد رأى أن واجب اللياقة يحتم عليه الذهاب إلى القسطنطينية أولاً ليقدم الشكر بنفسه إلى الامبراطور الذى أصدر الأمر بالافراج عنه . وكان أسقف هذه المدينة قد أعد كنيسة القديسة ايرينى لنزول البابا الاسكندرى فيها ، كما عين عدداً من رجال الاكليروس لاستقباله ووكل إليهم أمر خدمته . ولما وصل الأنبا تيموثيئوس الثانى إلى القسطنطينية استقبله الرهبان والملاحون الاسكندريون المقيمون بتلك العاصمة إذ ذاك والذين كانوا قد وفدوا خصيصاً لرجاء الامبراطور فى شأن اعادة باباهم من منفاه . وكانت مراحم الله شاملة إذ قد أنزل الامبراطور باسيلسكوس هذا البابا الاسكندرى الجليل فى قصره ورحب به كل الترحيب . وتوافدت جموع الشعب على القصر الامبراطورى : البعض منهم لينال بركة الأنبا تيموثيئوس الثانى

---

(١) « التربية فى مصر » مقال بالانجليزية للدكتور جورجى صبحى نشره فى مجلة الآثار القبطية العدد التاسع (سنة ١٩٤٣) ص١١٣ .

والبعض الآخر لينال الشفاء بصلواته . وفى تلك الأثناء رجا هذا البابا الاسكندرى الجليل من الامبراطور باسيلسكوس أن يعمل على توطيد السلام فى الكنيسة ويعيد الأساقفة المنفيين إلى كراسيهم لكى يحس الأرثوذكسيون بالاستقرار النفسى .

١٢١ – ولقد اقتنع الامبراطور بوجهة نظر البابا الاسكندرى فدعا إلى عقد مجمع حضره خمسمائة أسقف ، وبعد التداول معاً وافقوا على اقتراح الأنبا تيموثيئوس الثانى بارسال خطاب دورى (١) إلى جميع الأساقفة هذا نصه : « لما كنا نرغب فى تثبيت القوانين التى وضعها سلفاؤنا رغبة منهم فى وحدة الكنيسة ولما كنا نبغى المحافظة على قوانين مجامع نيقية والقسطنطينية وأفسس (المسكونية الثلاثة) ، فإننا نطلب إلى جميع الأساقفة أن يحرموا ويرموا فى النار طومس لاون وكل ما جرى فى مجمع خلقيدون من تجديد ايمان وتفسير ومناقشة ، لأن هذه جميعها ليست سوى ابتداع فى الدين . وإننا – فوق هذا – نحكم بادانة كل من لا يعترف بأن الابن قد تأنس حقًا ، وكل من يشايع أوطيخا فى بدعته القائلة بأن جسد المسيح هو جسد خيالى نزل من السماء ، كما نحكم بادانة من يقولون مع أبوليناريوس (أسقف اللاذقية) بأن تجسد المسيح لم يكن غير تجسد ظاهرى . ويجب على جميع الأساقفة أن يوقعوا على هذه الرسالة كما يوقعوا حرماً علانية على كل ما جرى فى خلقيدون . وكل من تشيّع فى مستقبل الأيام لهذا المجمع فإنه سيلقى أشد العقاب بوصفه مكدراً صفو الكنيسة وعدواً لله وللامبراطور: فإن كان من الأساقفة يعزل وإن كان من الرهبان أو العلمانيين ينفى وتصادر أمواله .

١٢٢ – وتجدر الاشارة هنا إلى أن الامبراطور باسيلسكوس يقتصر على مقاومة البدعة الأوطاخية ، بل سهر كذلك على مطاردة المتشيعين لها . على أنه متى عرفنا أن كاتب هذه الرسالة الامبراطورية هو الأنبا تيموثيئوس الثانى زال العجب ووجدنا أنها ليست سوى دليل ضمن الأدلة العديدة على

---

(١) مما تجدر الاشارة إليه فى هذا الصدد أن الأنبا تيموثيئوس يوصف فى مقدمة هذا الخطاب الدورى « بالبهى ومحب الله » .

أنه هو وكنيسته يبرآن من البدعة الأوطاخية براءة الذئب من دم ابن يعقوب . ومن أبرز الذين ساندوا البابا الاسكندرى فى تلك الفترة وجاهدوا إلى جانبه الراهب بولس ، الفيلسوف الفصيح ، (١) .

وثمة دليل آخر على أرثوذكسية الكنيسة القبطية وباباواتها المجاهدين هو أنه حين كان البابا تيموثيئوس الثانى فى القسطنطينية مشتغلاً بالعمل على تثبيت السلام فى الكنيسة ، قصد إليه جماعة من الأوطاخيين آملين أن يوافقهم على بدعتهم ولكنه قال لهم فى صراحة تامة : « إن جسد الابن مساوٍ لجسدنا وأما لاهوته فمساوٍ للآب »(٢) . فعادوا من حضرته يجرون ذيل الفشل وأدركوا أنه متمسك بايمان أسلافه - باباوات الاسكندرية - الذين دعموا الايمان بالفعل والقول .

١٢٣- وكانت هذه الرسالة التى كتبها الأنبا تيموثيئوس الثانى وبعث بها الامبراطور باسيلسكوس إلى الأساقفة على هيئة خطاب دورى أساساً لصلح دام عدة سنوات بين كنائس أورشليم والقسطنطينية وأنطاكية والاسكندرية .

١٢٤- ولم ينس الأنبا تيموثيئوس الثانى - فى موجة الفرح التى غمرته لما رآه من اخلاص الشعب ومن رضى الامبراطور - أن يستأذن فى نقل رفات الأنبا ديسقورس البطل المعترف إلى مصر . فسمح له باسيلسكوس بذلك . وما أن وصلت رفات هذا البابا الاسكندرى - الشهيد بغير سفك دم - إلى عاصمة كرسيه حتى سارع المؤمنون إلى الاحتفاء به . وقد رأس الأنبا تيموثيئوس الثانى الاحتفال بالصلوات التى أقيمت فى الكنيسة المرقسية

---

(١) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما جـ٢ ص٢٣١ .

(٢) أورد الأرشيمندريت جيتى فى كتابه ، تاريخ الكنيسة ، (بالفرنسية) جـ٢ ص٣٦ - ٣٧ تفاصيل هذه الوقائع واختتمها بقوله : Timothée qui avait redigé cette lettre circulaire n'était pas Eutychien . Lorsqu'il était à Constantinople ceux qui étaient ouvertement monophysites, allérent le trouver, s'imaginant qu'il leur donnerait raison, mais il leur dit : " La chair du Verbe incarné est consubstantielle à la nôtre, et dans sa divinité, le Verbe est consubtantielle au Pére " . Il se retirérent mécontents " .

تكريماً لذكرى سلفه العظيم . وكان احتفالاً مهيباً خليقًا بمن ظل أميناً على العقيدة حتى الموت . وبعد الانتهاء من هذا الاحتفال الرائع وضع الجثمان الطاهر مع أحداث الأساقفة الاسكندريين (١) .

١٢٥- ولقد مر الأنبا تيموثيئوس الثانى فى طريق عودته إلى وطنه الحبيب بمدينة أفسس حيث عقد مجمعًا حضره خمسمائة أسقف . وبعد أن تشاوروا معاً أجمعوا على حرم مجمع خلقيدون وطومس لاون ومن يعترفون بها (٢) .

ومن المفرح أنه حالما وصل الأنبا تيموثيئوس الثانى إلى الاسكندرية غادرها سولوفاتشيولى الدخيل من تلقاء نفسه لجأ إلى ديره إذ أحس باندفاع الشعب العارم وبخاصة لأنه رأى الشعب يخرج فى جماهيره الغفيرة لاستقبال راعيه المنفى المنتصر . ولقد ترك الاسكندريون الدخيل ينسحب فى أمان دون أن يتعرض له أحدهم لأنهم رأوه مسالماً ، وعدّوا خروجه المباشر من المدينة اعترافاً منه بشرعية الأنبا تيموثيئوس الثانى .

١٢٦- أما البابا الاسكندرى فقد دأب على اصلاح الكنائس التى عبثت بها أيدى الملكيين (أنصار مجمع خلقيدون) ، كما انشغل فى تزيين الكنيسة الكبرى التى كانت قد أقيمت فى منطقة مريوط باسم مارمينا العجائبى . ولم يكتف هذا البابا اليقظ بالبناء المادى لأنه كان يعلم تمام العلم أنه راعR للنفوس لا للجدران . فانشغل بالبناء الروحى بأن انصرف إلى تعليم شعبه وتعزية القلوب الخائرة . كذلك وجه عناية خاصة إلى الغرباء والمساكين والمسجونين والأرامل . وحين رآه الشعب منصرفًا بكليته إلى هذه الأعمال الناتجة عن المحبة الخالصة سارعت جموعه إلى تقديم هداياهم من ذهب وفضة ومال ليعاونوه على اتمام أعماله الراعوية العظيمة (٣) . وقد توج الأنبا تيموثيئوس الثانى جهوده بجمع الشمل إذ قد نجح فى اكتساب عدد غير قليل ممن زاغوا

---

(١) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمار سويريوس يعقوب توما جـ٢ ص٢٢٩ – ٢٣٠.

(٢) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمار سويريوس يعقوب توما جـ٢ ص٢٣٢.

(٣) شرحه ... جـ٢ ص٢١١ .

عن الايمان القويم ، كما نجح فى توطيد دعائم السلام بينه وبين اخوته الأساقفة بعد خصام طال أمده وتخللته الاحقاد والاضطهادات . كذلك اتبع سياسة الرفق بالخلقيدونيين التائبين بأن قبلهم فى شركته بمجرد اعلانهم الحرم على مجمع خلقيدون واعترافهم بالايمان الأرثوذكسى . وبهذه الخطة الرشيدة اكتسب عدداً كبيراً منهم . ومع أن بعض المتعنتين لم يرقهم هذا المسلك إلا أن الفرح عم المؤمنين الثابتين على التعاليم المسيحية الحقة .

وفى سنة ٤٧٢م ش ، وبعد جهاد دام اثنتين وعشرين سنة وأحد عشر شهراً انضم إلى الأخدار السمائية بعد أن خدم ملك السلام كصانع من صانعى السلام فاستحق بذلك أن يحصى مع أبناء الله (١).



(١) متى ٥ : ٩ .

ب- الأنبا بطرس الثالث

(١٢٧) انتخاب بطرس أحد تلاميذ الأنبا ديسقورس للسدة المرقسية .
(١٢٨) عقده مجمعاً جديد الحرم على لاون وطومسه .
(١٢٩) زينون يغتصب عرش القسطنطينية ويضطر الأنبا بطرس إلى مغادرة الاسكندرية .
(١٣٠) وفد مصرى يقابل الامبراطور ويطالبه باحترام حقوق مواطنيه .
(١٣١) على الباغى تدور الدوائر .
(١٣٢) اتصال الأسقف القسطنطينى بالأنبا بطرس .
(١٣٣) الحبران الاسكندرى والقسطنطينى يتبادلان أربعة عشر خطاباً .
(١٣٤) مضمون الخطاب البابوى الثانى والرد عليه .
(١٣٥) عطف الأنبا بطرس واستجابة أكاكيوس له .
(١٣٦) طلب أكاكيوس إلى الأنبا بطرس أن يتشبه بموسى النبى .
(١٣٧) المشاطرة فى الصوم والصلاة .
(١٣٨) عقد مجمع فى القسطنطينية يصدر « الهينوتيكون » ويحضره مندوبو البابا الاسكندرى .
(١٣٩) تشابه الهينوتيكون والخطاب الدورى الذى كتبه تيموثيئوس الثانى .
(١٤٠) موقف الأسقف أكاكيوس من خلقيدون .
(١٤١) تبادل الرسائل بين الأنبا بطرس وأسقفى القسطنطينية وأورشليم .
(١٤٢) مندوبا أسقف رومية يحملان رسالتين إلى الامبراطور زينون ورسالة إلى الأسقف أكاكيوس .
(١٤٣) القبض على هذين المندوبين.
(١٤٤) أسقف رومية يصدر الحرم على مندوبيه وعلى البابا الاسكندرى والأسقف القسطنطينى .
(١٤٥) كنيستا الاسكندرية وأنطاكية لا تأبهان لهذا الحكم .
(١٤٦) انتقال البابا الاسكندرى إلى بيعة الأبكار .

١٢٧ - وكان فى الاسكندرية إذ ذاك كاهن اسمه بطرس ، صديق للبابا المنتقل إلى مساكن النور وتلميذ للبابا ديسقورس العظيم . وكان بطرس هذا قد

تشبّع بالتعاليم الأرثوذكسية وناصر معلمه فى جهاده الشاق المرير ضد القوة المتألبة عليه . فكانت تلمذته للأنبا ديسقورس ومناصرته له خير تزكية حفزّت الشعب على انتخابه ليكون البابا الاسكندرى السابع والعشرين ، فتمت رسامته سنة ١٨٨ش (سنة ٤٧٢م .ش) باسم بطرس الثالث المعروف باسم بطرس منغوس .

١٢٨- وقد بدت غيرة الأنبا بطرس الثالث على الايمان الأرثوذكسى الذى أصبح حارساً عليه منذ اللحظات الأولى لتسلمه مقاليد الرياسة . فإنه ما كاد يعتلى السدة المرقسية حتى سارع إلى عقد مجمع من أساقفته وقد قرر جميع الأساقفة الملتئمين فى ذلك المجمع تجديد الحرم على لاون وطومسه .

١٢٩- وحدث فى تلك الأثناء حادث لم يكن فى الحسبان هو أن زينون اغتصب عرش القسطنطينية من الامبراطور باسيلسكوس . وعند ذاك اتجهت أنظار المصريين إلى العاصمة الشرقية فى شئ من التساؤل لأن زينون كان مشايعًا للخلقيدونيين فعدّ تجديد الحرم على لاون وطومسه تحدّياً لسلطته الامبراطورية وأصدر أمره بنفى الأنبا بطرس الثالث . على أن هذا البابا الاسكندرى لم يذعن للحكم بل اختفى فى ضاحية من ضواحى عاصمته وهو واثق من ولاء شعبه له . وقد حرص هذا الشعب الأمين على أن لا يبوح بمكمن راعيه الأول الذى ظل مختفياً سنوات خمساً لأن غضب الامبراطور زينون على المصريين بلغ حداً فرض معه دخيلاً اسمه جاورجيوس على السدة المرقسية . غير أن اضطرار الأنبا بطرس الثالث إلى الاقامة بعيداً عن مقر رياسته لم يؤخره عن تأدية واجباته الراعوية إذ قد دأب على تعليم شعبه بما كان يبعث به إليهم من رسائل فى كل المناسبات (١) ، بينما استبد بهذا الشعب الوفى دخيل أجنبى . وقد سار الشعب على التقليد الأبوى بأن قاطع الدخيل مقاطعة تامة .

١٣٠- وبازاء الاعتداءات المتكررة من أباطرة القسطنطينية رأى

---

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص٢٠٤ - ٢٠٥ حيث عبر عن هذه الحقيقة بقوله ما نصه :

" he used to teach them to be strong dy his letters " .

المصريون أن يبذلوا جهوداً جريئة فى المطالبة بحقهم المسلوب . فرأوا أن خير وسيلة هى أن يقابلوا الامبراطور نفسه ويتفاوضوا معه . فانتدبوا لهذا الغرض وفداً منهم للسفر إلى القسطنطينية . وقد سافر هذا الوفد بالفعل وتمكن من مقابلة الامبراطور وطالبه باحترام حق المصريين فى انتخاب باباهم وفى استقلال كنيستهم عن الحكام المدنيين . وكان على رأس هذا الوفد رجل اسمه يوحنا طلايا . وأصغى الامبراطور إلى مطالب المصريين ، ولكنه أبدى تردده فى قبولها لأنه استنتج أن يوحنا هذا لم يرأس الوفد ويتجشم عناء السفر إلا لكى يجلس بدوره على السدة المرقسية . وبعد مناقشة قصيرة أدرك يوحنا السبب فى تردد الامبراطور ، وعند ذاك أقسم له أمام الجميع أنه لن يقبل الباباوية الاسكندرية حتى إذا أعلن المصريون رغبتهم فى انتخابه . وبازاء هذا القسم وافق زينون المصريين على ما طلبوا وأكد لهم أنه سيحترم شعورهم القومى الفياض فى الاحتفاظ باستقلال كنيستهم وفى عدم التعرض لمن يختارون من الرعاة . فعاد المصريون إلى وطنهم وقد اطمأنوا إلى توكيدات الامبراطور .

١٣١ – وفى سنة ٤٧٤م . ش. توفى جاورجيوس الدخيل . فنسى يوحنا طلايا القسم الذى قطعه على نفسه علناً أمام الامبراطور ومن معه ، وسعى لدى أصحاب السلطة المدنية فى الاسكندرية فحظى بمناصرتهم إياه ونادى بنفسه خليفة لمارمرقس . وزعم أن الدنيا دانت له ، وبدأ بمباشرة مهامه الراعوية بأن أرسل رسالة الشركة إلى أسقفى رومية والقسطنطينية . وبعث برسالته إلى أسقف رومية عن طريق البريد العادى ، أما رسالته إلى أسقف القسطنطينية فقد بعث بها إلى شخص له دالة خاصة فى البلاط اسمه ايللوس ، ورجا منه أن يوصلها بنفسه كما رجا منه أن يشفع فيه لدى الامبراطور زينون . وقد شاءت العناية الالهية أن يكون ايللوس متغيباً عن القسطنطينية حين وصلها مندوب يوحنا طلايا . فاحتفظ هذا المندوب بالرسالة بدلاً من أن يتقدم بها بنفسه إلى الأسقف القسطنطينى فوراً . وهكذا وصلت رسالة الشركة إلى أسقف رومية قبل أن تصل إلى أسقف القسطنطينية . وكان يجلس على كرسى العاصمة الشرقية الأسقف أكاكيوس ، فظن أن هذا التأخير ازدراءاً له من يوحنا طلايا وتميّز

غضباً على هذا الرجل الذى أخطأ فى حقه ونصح الامبراطور زينون بأن يعيد إلى المصريين باباهم الشرعى – وهو الأنبا بطرس الثالث .

أما أسقف رومية فلم يكد يطلّع على رسالة يوحنا طلايا حتى بعث إلى أكاكيوس الأسقف وزينون الامبراطور برسالتين يبدى فيهما سروره لاعتلاء يوحنا طلايا السدة المرقسية . وحين وصلت رسالة الأسقف الرومانى إلى القسطنطينية كان الامبراطور قد تفاهم مع أسقف عاصمته على وجوب ارجاع الأنبا بطرس الثالث إلى مقر رياسته . فكتب رداً على خطاب أسقف رومية قال له فيه : « إن هذا الانسان لا يليق لهذه الكرامة السامية لأنه حنث بيمينه » (١) وقد نفّذ الامبراطور ما اتفق عليه مع أكاكيوس الأسقف القسطنطينى إذ قد أصدر أمره باعادة البابا الاسكندرى الشرعى من منفاه وابعاد يوحنا طلايا عن الاسكندرية .

١٣٢– ثم اتصل الأسقف أكاكيوس بسفراء البابا بطرس الثالث فى القسطنطينية وأعلمهم باستعداده لأن يعاود الشركة القدسية مع كنيسة الاسكندرية فبعث السفراء إلى باباهم بتقرير مفصّل عن كل ما حدث .

١٣٣– وأحس الأنبا بطرس الثالث بالفرح يغمر قلبه حين اطلع على تقرير سفرائه ، وتوقع أن يتم الصلح بين كنيسته وكنيسة القسطنطينية . إلا أن فرحه كان ممتزجًا بالحذر لأنه كان يقدر أهمية الوديعة التى ائتمنه عليها رب المجد . لذلك تبادل مع أكاكيوس أربع عشرة رسالة (٢) قبل أن يتفق معه نهائيًا . كتب منها الأنبا بطرس ثمانية أعجب ما فيها انسيابها المنطقى .

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٤٤ – ٤٥ ، تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص٣١٨ .

(٢) لقد ظلت نسخة من هذه الرسائل محفوظة بدير الأنبا مكارى الكبير ببرية شيهيت مدى قرون ، ولكنها ضاعت الآن بسبب الغزوات المتتالية التى قام بها قبائل البربر على هذا الدير العظيم . وفى سنة ١٩٦٤ قام قسم اللغة القبطية بالمعهد العالى للدراسات القبطية بنشر مجموعة من هذه الرسائل باللهجة القبطية البحيرية جمعها وراجعها الأستاذ شاكر باسيليوس ويأمل القسم أن ينشر الترجمة العربية لهذه الرسائل فى وقت قريب .

فقد كتب هذا البابا الجليل رسالتين متتاليتين طلب فى أولاهما توكيداً من الأسقف أكاكيوس لكل ما جاء فى تقرير سفرائه - على أن يكون هذا التوكيد بخط يده .

١٣٤- أما الخطاب الثانى فقد تضمن توبيخاً لأكاكيوس على انحيازه للخلقيدونيين . ونصحاً له بالتوبة وقد ردّ عليه أكاكيوس فوراً معترفاً بخطيئته وختم خطابه بقوله : « أشرق علينا بنورك يا سراج الأرثوذكسية ، وأنر السبيل لنا نحن الذين ضلوا عن الايمان القويم . كن لنا مثل استفانوس أول الشهداء (١) واهتف نحو مضطهديك قائلاً لا تحسب لهم يارب هذه الخطية» . فردّ عليه الأنبا بطرس الثالث ضارعاً إلى جميع القديسين أن يشفعوا فيه ، وجميع القوات السمائية أن يستمطروا عليه الرحمات . فما كاد أكاكيوس يطّلع على هذه الرسالة حتى امتلأ قلبه فرحاً وتهليلاً . ويعث باجابته على الفور إلى البابا الاسكندرى قال له فيها : « أنى موقن الآن أنك بالحقيقة تلميذ للسيد المسيح : فأنت تنصحنا بأن نعمل الخير وتحثنا على أن نصلى بلا انقطاع . وقد عوّلنا على العمل بنصحيتك فإن قبلتنا فى شركتك فإنك تعمل على توطيد السلام ، وإن لم تقبلنا فى شركتك رفعت شكواى منك إلى منبر المسيح ربنا واستودعت الأمر يدى محب البشر ويدى قداستك » .

١٣٥- وتأمل الأنبا بطرس الثالث هذه الرسالة ملياً وطغت على قلبه موجة من الرفق والحنان نحو كاتبها . فبادر بالرد عليه قائلاً « لماذا تزيدنى حزناً على حزن ؟ لقد تمنطقت بسيف الامبراطور ، ولما خلت نفسك فى مأمن من كل شر وقعت علىّ الحرم (٢) . أما الآن ؛ فإذ تيقنّت من الحقيقة ، فقد رأيت أن تجعلنى مسئولاً عنك أمام منبر المسيح له المجد . فأعلم أننى لا أستطيع أن أهمل أمرك ولا أن أصمّ أذنى عن قبول توبتك ، ولو أنك قد جعلت نفسك غريباً عن كرامة الكهنوت بما فعلته فى مجمع خلقيدون . ولا يحزنك ما أقوله لك لأنه الحق بعينه . وأنا لا يسعنى إلا أن أتمسك بما وهبنى المسيح

---

(١) أعمال ٧ : ٦٠ .

(٢) اشارة إلى أن أكاكيوس كان ضمن الذين تآمروا على الأنبا ديسقورس فى خلقيدون .

من حرية لا يستطيع أحد أن ينتزعها منى ولو قضى على حياتى لأنها حرية مجد أولا الله ، (١) .

١٣٦- وقد رد أكاكيوس على هذه الرسالة برسالة تطفح حرارة قال له فيها : كن أيها الأخ كموسى النبى واهتف معه إلى الله أن أغفر لقومى اثمهم وإلا فامحنى من كتابك ، (٢) . لأن هرون الكاهن الأعظم كان قد سقط فى الخطيئة مع الشعب وعبد العجل المسبوك من حلى النساء ، وبصلوات موسى من أجل أخيه هرون أبرم الصلح بينه وبين العلى وظل محتفظًا برياسة الكهنوت حتى آخر حياته (٣) . «فأمسك بأيدينا كما فعل موسى ، وضع أرجلنا على الصخرة التى لا تتزعزع والتى ليست سوى السيد المسيح كما قال بولس الرسول ، (٤) .

١٣٧- وكان الرد الثالث للأنبا بطرس يفيض محبة وحناناً ، فقد قال فيه: « صل وصم بكل اجتهاد ، وأنا أصوم وأصلى معك ومن أجلك . فنرفع كلانا توبتنا إلى الله (٥) باسم الكنيسة الجامعة » . فرد عليه أكاكيوس بقوله : «الآن يتهلل قلبى لأنك قبلت أن تشاطرنى ما أحمل من أعباء ثقيلة . وأننى أشكر الله تعالى الذى هيأ لى فرصة التوبة بصلاتك ومنحنى القوة بأصوامك معى وعنى . وأنا فرح لأننى سأحظى بالدخول معك إلى الحضرة الالهية . فأرجو منك الآن أن ترسل إلينا بعض آباء الصحراء وبعض العلمانيين الموثوق بأرثوذكسيتهم لكى يرافقونا فى زيارة ، نزمع أن نقوم بها للامبراطور لنتحدث إليه بشأن ابرام الصلح بين جميع الكنائس . فنسعد بتثبيت السلام فى بيعة ملك السلام » .

١٣٨- ولقد استجاب الأنبا بطرس الثالث إلى طلب الأسقف أكاكيوس

(١) رومية ٨ : ٢١ .
(٢) خروج ٣٢ : ٣٣ .
(٣) راجع تفاصيل هذه الحوادث فى خروج ٣٢ .
(٤) ١ كورنثوس ١٠ : ٤ .
(٥) مما تجدر الاشارة إليه هنا أن الأنبا بطرس الثالث قد وضع نفسه موضع الخاطئ مع أنه لم يشاطر أكاكيوس (وغيره من الأساقفة) خطية التوقيع على قرارات مجمع خلقيدون المشئوم .

وسارع إلى انتخاب عدد من آباء الصحراء والأراخنة الأتقياء المشهود لهم بالايمان الراسخ . وأرسلهم ليحضروا المجمع الذى انعقد فى القسطنطينية . وقد أصدر هذا المجمع المنشور الموصوف بمنشور زينون الذى أعلنت فيه العقيدة الأرثوذكسية وعرف باسم « هينوتيكون » ، وهذا نصه : « بما أن الايمان الذى لا عيب فيه – هو وحده – ينجينا ، لذلك تقدم إلينا محبو الله ورؤساء الأديرة ورهبان آخرون ملتمسين بدموع العمل على اقرار السلام والألفة بين الكنائس المقدسة فتنضم إلى بعضها البعض الأجزاء التى باعد بينها عدو الخير منذ زمن طويل فكانت النتيجة الموجعة لهذا التباعد أن قضى بعض المؤمنين من غير أن ينالوا سر الصبغة المقدسة (المعمودية) ، بينما اضطر غيرهم إلى أن يعيشوا السنوات الطوال من غير أن يسعدوا بالنعمة الممنوحة فى سر التناول . ولم يقتصر الأذى على حرمان المؤمنين من الأسرار المقدسة بل تعداه إلى نيلهم الشهادة : فسقط المئات منهم وارتوت الأرض بدمائهم بينما صعدت أرواحهم تستنجد بأبى المراحم . يضاف إلى هذا كله ما وقع من انقسام واضطهاد فى مختلف البلاد . لهذا كله نعلن أننا لن نقبل دستوراً غير الذى وضعه الثلاثمائة والثمانية عشر بمجمع نيقية العظيم والذى صادق عليه مجمع القسطنطينية فالمجمع الأفسسى برياسة الأنبا كيرلس الكبير وقد حكموا جميعاً بادانة نسطور وأوطيخا . لذلك نقبل الاثنى عشر حرماً التى أصدرها محب الله كيرلس بابا كنيسة الاسكندرية الجامعة ، فنعترف بأن السيد المسيح هو ابن الله حقاً وهو المتأنس بالحقيقة وهو الذى نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء والدة الإله فهو واحد لا اثنان . ونحن نعلن أن ابن الله الذى صنع العجائب هو الذى تألم بالجسد بارادته وحده عنا كلنا . ونرفض رفضاً باتاً جميع الذين يفصلون طبيعتيه أو يمزجونهما كنسطور كما نرفض الذين يقولون مع أوطيخا أنه تجسد تجسداً خيالياً – ذلك أن التجسد الحقيقى المنزه عن الخطية الذى من والدة الإله لم يزد على الابن شيئاً : فقد ظل الثالوث ثالوثاً بعد تجسد الإله الكلمة . وأننا نكتب لكم هذا لا لنعلن ايماناً جديداً ولكن لنبين أننا نحرم كل من يرى غير هذا الايمان الذى سلمه لنا الآباء سواء أكان ذلك فى خلقيدون أو فى غيره من المجامع. ونعلن حرمنا خاصة على نسطور وأوطيخا المبتدعين.

« فليتحد الجميع إذن فى الكنيسة أمنا الروحية كأبناء متحابين لتغمرنا ببركاتها فتفرح الملائكة كما يفرح أبونا الذى فى الملكوت » (١) .

١٣٩- وهذه الرسالة الدورية الثانية كتبها أكاكيوس أسقف القسطنطينية ، وهى تتضمن نفس التعاليم التى تضمنتها الرسالة التى كتبها البابا تيموثيئوس الثانى خليفة البابا ديسقورس بأمر الامبراطور باسيلسكوس . إلا أن الأنبا تيموثيئوس الذى كتب الرسالة الأولى اختلف مع الأسقف أكاكيوس فى اصدار الحرم العلنى على خلقيدون فى حين أن أكاكيوس جعل حكمه عاماً . غير أن كليهما اتفقا على حرم أوطيخا .

١٤٠- ولم يكن أكاكيوس نسطورياً ولا أوطاخياً ، ولكنه غض الطرف عن ذكر خلقيدون لأن قراراته لم تفز بالصبغة الاجماعية الكنسية . وقد عد الكثيرون من الأساقفة طومس لاون أقرب إلى البدعة النسطورية (التى تفصل السيد المسيح إلى اثنين) منه إلى العقيدة الأرثوذكسية (التى تؤمن بالمسيح الواحد الذى اتحد لاهوته بناسوته بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير) . مما جعلهم يقاومونه بكل ما أوتوا من قوة ، وقد كان هؤلاء الأساقفة يرون رأى أكاكيوس فقالوا بأن مجمع خلقيدون لا يعد مسكونياً إلا إذا ظفر بمصادقة جميع الكنائس كما هو الحال مع المجامع الثلاثة التى انعقدت فى نيقية والقسطنطينية وأفسس (٢) .

١٤١- ولما وصل رسل الأسقف أكاكيوس والامبراطور زينون يحملون « الهينوتيكون » قابلوا الأنبا بطرس الثالث وقدموه له ، ثم قصد الجميع إلى الكنيسة المرقسية حيث وقف البابا الاسكندرى يخطب فيهم وفى الجماهير التى زخرت بهم الكنيسة ليفسر لهم ما جاء فى هذا « الهينوتيكون » . ثم أوصى المؤمنين أن يصلوا لكى يحفظ الله الامبراطور الذى تم فى عهده الوئام بين الكنائس .

ولما انتهى الأنبا بطرس الثالث من تفسير دقائق الايمان للشعب ومن

(١) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمار سويريوس يعقوب توما جـ٢ ص٢٤١ - ٢٤٢ .
(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٤٤ - ٤٦ .

رفع صلاة الشكر لله بعث برسالتين : احداهما إلى أسقف القسطنطينية وثانيتهما إلى أسقف أورشليم أعلمهما فيهما بكل ما جرى وباغتباطه لعودة الألفة والتفاهم بين الكنائس وقد رد عليه الأسقفان معلنين فرحهما أيضاً بهذا الود الذى تجدد . وقد خاطبه مار أكاكيوس بقوله : « إلى محب الله شريكنا وأخينا بطرس ... » ، بينما وجه إليه الأسقف الأورشليمى الخطاب بقوله : « إلى محب المسيح ورئيس الكهنة سيدى وأخى وشريكى بطرس ... » (١) .

١٤٢- وفى تلك الأثناء أرسل فيليكس أسقف رومية خطاباً إلى الامبراطور زينون رجا منه فيه أن يتوسط لدى البربر المغيرين على كنيسة أفريقيا ليحول دون اغتصابهم إياها . وقد حمل هذا الخطاب مندوبان كما حملا رسالتين أخريين : واحدة إلى الامبراطور أيضاً ، والثانية إلى الأسقف القسطنطينى يطلب إليهما أن يعطفا على يوحنا طلايا . ومن المستغرب أن فيليكس حذر مندوبيه من الاتصال بأكاكيوس على الرغم من أنه حملهما رسالة إليه .

١٤٣- وقبل وصول المندوبين الرومانيين إلى القسطنطينية علم الامبراطور من عيونه وأرصاده بالغرض من انتدابهما. فأمر بالقبض عليهما والزج بهما فى السجن ، كما أمر بانتزاع جميع الأوراق التى يحملانها. وبينما هما فى السجن بعث إليهما الامبراطور برسول خاص أقنعهما بالاتصال بالأسقف أكاكيوس . وعندها صدر الأمر بالافراج عنهما فاستأنفا رحلتهما إلى القسطنطينية وحين وصلاها اتصلا على الفور بأسقفها كما اتصلا بسفراء الأنبا بطرس الثالث . وكانت مقابلتهما للأسقف القسطنطينى ولسفراء البابا الاسكندرى فى وضح النهار وعلى مرأى من أهالى القسطنطينية .

١٤٤- وثارت ثائرة الأسقف فيليكس ، وزينت له العنجهية الرومانية أن يوقع الحرم على مندوبيه وعلى كل من أكاكيوس أسقف القسطنطينية وبطرس الثالث بابا الاسكندرية . ولم يكتف باصدار الحرم ضد هذين

---

(١) تاريخ الكنيسة السريانية ... جـ٢ ص٢٤٢ - ٢٤٤ .

الحبرين بل انتدب مندوباً ثالثًا ليحمل حرمه هذا إليهما (فى القسطنطينية) . على أن هذا المندوب الثالث وقع بدوره تحت تأثير رجال البلاط الامبراطورى وانضم إلى مار أكاكيوس والأنبا بطرس الثالث .

١٤٥- على أن الحرم لم يكن له من أثر اطلاقًا لأن كنيستى الاسكندرية والقسطنطينية ظلتا تعدان البابا بطرس الثالث والأسقف أكاكيوس الحبرين الشرعيين لهما ، كما عدتا فيليكس الأسقف الرومانى متدخلاً فيما ليس يعنيه . كذلك ظلت الكنيستان على صلة المودة التى جاهد كل من الأنبا بطرس ومار أكاكيوس فى سبيل تدعيمها (١) .

١٤٦- ومن نعم الله تعالى على الشعب المصرى أن أتاح له فرصة هذا السلام بعد كل ما قاسى من ضيق وعذاب ، فاطمأن قلبه وتمكن من أن يسعد برعاية باباه الشرعى له رعاية مباشرة واسعة المدى . لأن الأنبا بطرس الثالث قضى أيام باباويته فى تثبيت شعبه ، وتعزية القلوب الكسيرة التى أصابها الحزن من بطش الحكام، وتشديد العزائم لمواجهة ما قد يصادفها من آلام فى المستقبل فانقضت بقية أيامه فى العمل المتواصل فى هدوء واستقرار، مسبحاً الآب السماوى الذى هدأ العاصفة وأحل محلها السلام . وظل يدير دفة الكنيسة مدى ثمانى سنين وثلاثة أشهر انتقل بعدها إلى أورشليم .

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٤٨ - ٥١ ، على أنه مما يؤسف له أنه لما تولى يوستينوس الحكم انصاع لهورميسداس أسقف رومية وتناسى الهينوتيكون راجع مقال وستكوت فى قاموس السيَر والآداب والمذاهب والعقائد المسيحية جمعه سميث وويس ونشره جون مورى فى لندن سنة ١٨٧٧ جـ١ ص١٤ حيث جاء ما نصه : " The policy of Acacius broke down When he was no longerable to animate it . In the course of a few years, all for which he had laboured was undone . The (Henoticon) failed to restore unity to the East, in 519 the emperor Justin submitted to Pope Hormisdes (of Rome) , the condemnation of Acacius was recognised by the Constantinopolitan Church " .

وترجمته ما يأتى : « أن سياسة أكاكيوس تداعت حين لم يستطع اضفاء الحياة عليها ففى مدى سنوات قليلة تفكك كل ما كان قد جاهد لأجله ، وفشل الهينوتيكون فى اعادة الوحدة إلى الشرق . وفى سنة ٥١٩ انصاع الامبراطور يوستينوس لهورميسداس أسقف رومية وصادقت الكنيسة القسطنطينية على ادانة أكاكيوس » .

وقت السلام : ١ - الأنبا أثناسيوس الثانى

١٤٧ – واستمر السلام ناشراً ألويته إذ أقر الامبراطور حق المصريين فى استقلالهم الكنسى حسب وعده إياهم . فلما تنيح الأنبا بطرس الثالث لم تعترض السلطات الزمنية أمر الانتخاب ولم تفرض دخيلاً على السدة المرقسية ، بل تركت للمصريين الفرصة ليزاولوا حقهم الشرعى ، وبالتالى لم تتدخل حين اجتمعوا ليتداولوا معاً وينتخبوا من يرونه صالحًا لرعايتهم .

وبذلك تمكن الشعب من أن يجتمع للتشاور مع اكليروسه فيمن يجلس على السدة المرقسية الشاغرة . ومن مراحم الله على كنيسته أن اتفقت كلمة الجميع على انتخاب أثناسيوس كاهن الكنيسة المرقسية والمشرف على كنائس الاسكندرية ، لأنه كان من المجاهدين الروحيين المبرزين حتى لقد كانت قدسيّة حياته مضرباً للأمثال فكان هيكلاً مكرساً للروح القدس حقاً (١) . وتمت رسامته فأصبح الخليفة الثامن والعشرين للقديس مرقس الرسول سنة ٤٨١م .ش .

١٤٨– ولقد رأى الأنبا أثناسيوس الثانى أن يستهلّ أعماله البابوية بكتابة رسائل الشركة إلى الأساقفة الذين وقعوا قد على الرسالة الدورية التى كتبها الأنبا تيموثيئوس فى عهد الامبراطور باسيلسكوس والتى تدعمّت بالهينوتيكون الذى نشره الامبراطور زينون على الأساقفة . وحين وصلت رسالة الأنبا أثناسيوس الثانى إلى هؤلاء الأساقفة ردّوا عليه جميعاً مقدمين إليه تعزيتهم فى فقد الأنبا بطرس الثالث وتهنئتهم له بالجلوس على كرسى مارمرقس الرسول الشهيد والبشير وموّطدين صداقتهم فى وحدة الايمان .

١٤٩– وكان للامبراطور زينون ابنتان : اختفت احداهما فجأة ولم يستطع أحد أن يعثر عليها برغم البحث المتواصل الذى قام به رجاله . وحقيقة الأمر أنها كانت قد تخفّت فى زى الرجال وركبت مركباً إلى الاسكندرية . ومن هناك قصدت إلى برية شيهيت حيث قادتها العناية الإلهية إلى ناسك شيخ وقور اسمه الأنبا بيموا اعترفت له بحقيقة أمرها . فحفظ سرها وأرشدها إلى مغارة وسط الصحراء عاشت فيها اثنتى عشرة سنة لا يعرف أحد عنها غير الناسك بيموا الذى كان يفتقدها من حين إلى حين . ثم اعتادت بعد ذلك أن تحضر الصلوات مع الرهبان . ولما لم تنبت لها لحية ولا شارب توهموا أنها خصى وكانوا يدعونها « هيلاريون الخصى » . أما البنت الثانية

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص٧٦ حيث يقول ما نصه : ... "
for the holiness of his life was proverbial, he contended splendidly in the way of God, and the Holy Spirit dwelt in him " .

للامبراطور فقد انتابها مرض حار في علاجه الأطباء . وكان صيت الآباء المصريين قد طبّق الآفاق ، فرأى زينون أن خير سبيل لشفائها هو أن يرسلها إلى هؤلاء الآباء . وما أن انتهى إلى هذا الرأى حتى هيأ لابنته مركباً ملكياً معداً بكل ما تحتاج إليه الأميرة ، وأرسل معها عدداً من الحرس والخدم وقد حمّلها خطاباً إلى الآباء قال لهم فيه : « لقد رزقني الله تعالى ابنتين : ضاعت احداهما مني فلست أدرى ما أصابها ولا ما مصيرها . بينما أصيبت الثانية بمرض عضال . فأرجوا أن تتكرموا بالصلاة عليها ليسمع الله لكم ويشفيها بشفاعتكم » . فلما وصلت الأميرة إلى شيهيت أخذ النساك يصلّون لأجلها بحرارة عدة أيام . غير أن صلواتهم لم تأت بالفائدة المرجوّة . وعند ذاك نادوا على الراهب هيلاريون وسلموا له الأميرة ليضرع من أجلها. وبالطبع عرف « هيلاريون » شقيقته على الفور بينما هي لم تعرفه . فأخذها إلى مغارته وركع إلى جانب السرير الذى أرقدها عليه وأخذ يصلى بحرارة ودموع ثم قبلها في حنان . فلم تلبث الأميرة أن قامت معافاة منشرحة الصدر . فاستصحبها « هيلاريون » إلى النساك قائلاً : « إن الأميرة قد برئت بصلواتكم » . فلما عادت إلى القسطنطينية في صحة وعافية فرح بها أبواها فرحاً عظيماً واستفسروا منها عما حدث فسردت لهم كل ما جرى من أمر الراهب هيلاريون . وعندها أرسل الامبراطور زينون في طلب هذا الراهب . فلما مثل بين يديه استحلفه هو والامبراطورة على الانجيل أن يدعاه يعود إلى شيهيت في أمان إن هو اعترف لهما بسره فلما أمنّه الامبراطور وزوجته كشف لهما عن شخصيته . ففرح كلاهما إذ عرفا أن ابنتهما قد بلغت هذه الدرجة من القداسة بعد أن ظنّاها ماتت . فأقاما الزينات حتى بدت القسطنطينية في زينة الأفراح عدة أيام ، عادت بعدها الأميرة ايلاريا (الراهب هيلاريون) إلى شيهيت حيث قضت بقية حياتها .

ولقد أراد الامبراطور زينون أن يعبر عن اعترافه بفضل الآباء الذين كرّسوا حياتهم لله ، فأصدر أمره بترميم جميع كنائس الأديرة الموجودة في تلك البرية حتى منطقة مريوط (المتاخمة للاسكندرية) . كذلك أمر بأن يصرف لآباء البرارى المصرية سنوياً كل ما يحتاجون إليه من قمح وزيت .

وقد ظلت هذه الأوامر نافذة المفعول طيلة حياة الامبراطور زينون (١) .

١٥٠- وقد توفى هذا الامبراطور سنة ٤٨٣م. ش (٢) وخلفه أنستاسيوس(٣) على عرش القسطنطينية ولم تمضِ مدة وجيزة على اعتلائه العرش حتى جاءه مندوبان غربيان يحملان إليه رسالة من أسقف رومية . وقد تضمنت هذه الرسالة تهنئة للامبراطور بالعرش كما تضمنت رجاء الأسقف الرومانى من الامبراطور أن يصدر منشوراً ينقض به منشور زينون (الذى هو الهنوتيكون) بحجة أن المنشور المطلوب سيعيد كنيسة الاسكندرية إلى الشركة مع الكنيسة الغربية .

ولما وصل هذان المندوبان إلى القسطنطينية رأى الامبراطور أن خير وسيلة للوصول إلى الحل الصحيح هو أن يجمع بينهما وبين سفراء الأنبا أثناسيوس الثانى فى العاصمة الشرقية . وكان البابا الاسكندرى قد استشف الغرض الذى يهدف إليه الأسقف الرومانى من رسالته إلى الامبراطور فزود سفراءه فى القسطنطينية بمذكرة تفصيلية تضمنت وجهة نظر الكنيسة المصرية فى العقيدة . وقد أوضح البابا الاسكندرى فى هذه المذكرة أن الباعث على انشقاق الكنيسة هو طومس لاون الذى جعل من المسيح الواحد مسيحين منفصلين . وقد رأى البابا أثناسيوس الثانى أن يبين فى المذكرة عينها ايمان كنيسته وموقفها بازاء كل من نسطور وأوطيخا فأعلن فيها حرمه لكليهما .

١٥١- ومع أن الأنبا أثناسيوس الثانى كان صريحاً كل الصراحة فى التقرير الذى بعث به إلى سفرائه إلا أنه لم يصل إلى نتيجة لأن الغربيين كانوا لا يريدون إلا أن يقحموا المصريين على الاعتراف بمجمع خلقيدون

---

(١) شرحه جـ٢ ص٥٢٧ - ٥٣٠ ، الصادق الأمين جـ١ ص٣٠٧ - ٣٠٩ .

(٢) أو سنة ٤٩١ ميلادية غربية .

(٣) يرى بعض المؤرخين أن الامبراطور أنستاسيوس لم يقبل العرش إلا بعد نياحة الأنبا أثناسيوس الثانى . على أن جدول الباباوات الملحق بدليل المتحف القبطى لمرقس سميكه جـ٢ ص١٦١ - ١٦٨ يسجل أن هذا الامبراطور بدأ حكمه فى باباوية الأنبا أثناسيوس الثانى . ولما كان هذا الجدول هو المرجع الذى اعتمدنا عليه فى تسلسل التواريخ فى هذا الكتاب فقد ذكرنا نبأ اعتلاء أنستاسيوس العرش فى هذا العهد .

الذى لعنوه مراراً وتكراراً – إذ قد جدد حرمه كل باباوات الاسكندرية الذين تعاقبوا من بعد الأنبا ديسقورس على السدة المرقسية (١) . على أن المصريين ظلوا على اصرارهم ، غير معترفين بهذا المجمع المشئوم الذى لم تجن منه الكنيسة غير أوخم العواقب ، ومازالت كنيستنا الوفية تعد هذا المجمع مجمعاً لصياً حتى اليوم .

ومن نعمة الله أن الامبراطور أنستاسيوس كان محباً للسلام ، خائفاً الله، فلم يرد أن يوسع الخرق بالخوض فى مجادلات لا نهاية لها ولن تؤدى إلا إلى اتساع شقة الخلاف بين الكنائس ولكونه محباً للسلام لم يناصر الخلقيدونيين كما أنه لم يناصر خصوم الخلقيدونى . ولم يكن هذان الحزبان وحيدين بازاء خلقيدون ، بل كان هناك فريق ثالث فى حيرة من أمره لا يدرى أيوافق على قرارات هذا المجمع أم يرفضها . وهذا الفريق الثالث حظى بنفس المعاملة التى عامل بها الامبراطور الفريقين الآخرين وهى سياسة الحياد : فترك الحرية لكل فريق ليعيش وفق عقيدته التى يدين لها بالولاء (٢) . وفوق هذا فقد رفض الامبراطور طلب الأسقف الرومانى ولم يصدر منشوراً ينقض به منشور زينون إذ لم يجد لمثل هذا المنشور من مبرر .

١٥٢– ولم يمن أنستاسيوس بهذه الفضائل فحسب بل أنه أفرد للمصريين فى قلبه مكاناً خاصاً . ذلك أنه كان إبان حكم زينون قد اضطر إلى الفرار لأن هذا الامبراطور كان يريد قتله – ولجأ أنستاسيوس إلى مصر عندما فرّ هارباً من وجه الامبراطور الحانق عليه . فكانت مصرنا الحبيبة أشبه بالأم الرؤوم له – شأنها معه شأنها مع جميع الذين لجأوا إليها فى مختلف العصور طالبين فى رحابها الأمن والاستقرار . ووجد أنستاسيوس من المصريين كل اكرام ورعاية حتى لقد قامت بينه وبين العدد الكبير منهم روابط الألفة والصداقة فأحبهم وأحبوه . وفى ذات يوم استصحبه أحد المصريين لزيارة ناسك متوحد ، فتنبأ له هذا الناسك بأنه سيجلس يوماً ما

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٥٨ .

(٢) شرحه جـ٥ ص٥٣ .

على عرش القسطنطينية . فلما تحققت هذه النبّوة وتسلم أنستاسيوس مقاليد الامبراطورية الشرقية ، ذكر ذاك الذى تنبأ له بالكرامة التى سينالها فأمر ببناء كنيسة عظيمة فوق الصومعة التى كان يسكنها . وقد جعل الامبراطور جميع أوانى هذه الكنيسة من الذهب الخالص اعترافًا منه بالجميل . كذلك بعث بالهدايا النفيسة إلى جميع المصريين الذين أكرموه فى شدته (١) .

ولما كان الامبراطور أنستاسيوس على هذه الخصال فقد استمتع المصريون فى عهده بالسلام ، وعاشوا مطمئنين مستقرين فى ظل باباهم الساهر على راحتهم وعلى تدعيم ايمانهم الأرثوذكسى بتعليمه وارشاده .

على أن باباوية الأنبا أثناسيوس الثانى لم تدم غير سبع سنين إذ قد انتقل إلى عالم النور فى سنة ٤٨٨م. ش .



ب- الأنبا يؤنس الأول

١٥٣- وكان يعيش فى دير الأنبا مكارى الكبير راهب اسمه يؤنس ، قضى السنين الطوال فى الجهاد الروحى فعطر الوادى بسيرته . لذلك اتجهت إليه الأبصار عند التداول فيمن يخلف البابا الراحل . ومن ثم قصد وفد من الأساقفة والأراخنة إلى برية شيهيت لمقابلته والاعراب له عن رغبتهم فى انتخابه . فامتنع فى أول الأمر لزهده فى هذه الحياة الدنيا . ولكن لما وجد اصرار الذين جاءوا إليه قال فى نفسه : « من يدرينى إن كان الحاح هؤلاء الرجال وحياً من الروح القدس ؟ فيجب علىّ أن أحذر لئلا أكون معانداً لله . كما يجب أن أقبل هـذه المسئولية العظمى بكل اتضاع وبغير تردد » . وما أن ساورته هذه الخواطر حتى أعلنها لمن جاءوا إليه مؤكداً لهم أنها كرامة لا يستحقها ولكنه يقبلها إذ يشعر أنها ضرورة موضوعة عليه من الله جل اسمه ويعاهدهم بأنه سيجاهد فى سبيلهم بكل ما أوتى من قوة . وفرح

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمس ص٣٦١ - ٣٦٢ .

مندوبو الشعب حين سمعوا هذه الكلمات ، واستصحبوا الناسك يؤنس معهم إلى الاسكندرية حيث تمت رسامته فى حفل رائع باسم يؤنس الأول البابا الاسكندرى التاسع والعشرين .

١٥٤– وظل الأنبا يؤنس الأول على وفائه للعهد الذى قطعه على نفسه أمام الأساقفة والأراخنة الذين جاءوه فى شيهيت إذ أن أول ما قام به بعد أن تسلم مقاليد الرياسة كان توجيه الشعب إلى وجوب التمسك بالايمان القويم. وكان السلام مستتبا لأن الامبراطور أنستاسيوس كان هو أيضاً وفياً لأصدقائه المصريين .

١٥٥– وإن حياة الأنبا يؤنس الأول لدليل من الأدلة الساطعة على أن الأديرة المصرية كانت إذ ذاك تشعّ الضياء بنشرها نور القداسة والعلم بين الجميع . وكان نورها وهاجًا إلى حد أن الغربيين الذين كانوا يرغبون فى الوقوف على كمال الحياة النسكية كانوا يأتون إلى بلادنا المحبوبة ويزورون صحاريها التى تقدست بأنفاس النساك من أبنائها البررة ليتعلموا منهم القوانين الأصيلة للرهبنة . بل أن كنيسة غاليا (فرنسا) مدينة بمدرستيها الرهبانيتين المعروفتين باسم ليرين وسان فيكتور إلى الشرق وبخاصة إلى مصر ، إذ كان لكاسيانوس اليد الطولى فى تأسيسهما بعد أن عاد إلى بلاده من الرحلة التى دامت سنين عدة فى صحارى مصر مع رهبانها . ولقد تخرّج من ليرين وسان فيكتور العدد الوفير من قادة الفكر والروح فى الغرب . وقد جاهد هؤلاء القادة لنشر الحياة النسكية فى مختلف البلاد ، فكان – كلما رسم أحدهم أسقفًا على ايبارشيةٍ ما ينشئ بها ديراً ملحقًا بكنيسته ويسيّره وفقًا للنظام الذى اتّبعه فى ليرين وسان فيكتور (١) . فاتسعت بذلك دائرة الأثر الروحى ، ونمت حبة الخردل إلى شجرة عظيمة تتآوى فى أغصانها الطيور (٢) . وكان هؤلاء الرهبان الغربيون يقرأون ضمن الكتب الموضوعة عليهم سيرة الأنبا أنطونى أبى الرهبان التى كتبها تلميذه العظيم الأنبا أثناسيوس الرسولى . وإن من يطالع تاريخ هذه الرهبنات ليدرك مدى الأثر

---

(١) أنظر الفصل الخاص بكاسيانوس فى الجزء الأول لهذا الكتاب .

(٢) متى ١٣ : ٣٢ – ٣٣ .

الذى أحدثته مصر فى كنائس الغرب وبخاصة فى كنيسة غاليا . فحقّ القول بأن النور الذى سطع من هذه الكنيسة فجعلها المركز الرئيسى لكل الجهود الفكرية فى الغرب حتى القرن السادس إنما كان انعكاساً لذلك النور الذى سرى من وادينا الحبيب سريان أشعة الشمس على الكون (١) .



غرفة الطعام فى دير الأنبا مكارى الكبير

١٥٦- وبين الرهبان الذين تخرجوا من المدرسة الديرية فى سان ليرين القديس باتريك الذى حمل الشعلة إلى ايرلندا حيث قامت الأديرة طبقاً للنظام المصرى . ويجدر بنا - نحن أبناء مصر - أن نذكر عبارة وردت فى قداس أوينجوس مؤداها أن سبعة من الرهبان المصريين مدفونون فى ديزرت أوليدا بمقاطعة دوينجال (بايرلندا) ، كما أن هناك أدلة على أن الرهبنة المصرية كانت متبعة فى جلاستبورى (بانجلترا) . ولم ينس الرهبان فى العصور الأولى أن الرهبنة نشأت فى مصر فكانوا على صلة مستديمة بهذه البلاد (التى هى بلادنا الحبيبة) إذ عدّوها أرضاً مقدسة ثانيةً . ولهذا السبب نجد الكثير من الشبه بين الزخرفة فى المخطوطات والحفر على الحجارة فى

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيلى جـ٥ ص٦١ و ٨٠ - ٨١

ايرلندا وبينها فى مصر (١) . بل أن هناك شبهاً كبيراً بين القداس الايرلندى والقداس القبطى (٢) . وكل هذه الحقائق تبين لنا أن الشعلة المقدسة التى حملها الآباء المصريون لم تنتقل منهم إلى أبنائهم فحسب ولكنها انتقلت منهم إلى أبناء الأمم البعيدة أيضاً .

١٥٧ – ولقد ازدهرت كنيسة الاسكندرية فى عهد الأنبا يؤنس الأول وعاد نورها إلى بهائه الأول لأن النفوس اطمأنت وهدأت القلوب ، ولم يعد هناك ما يزعج الخواطر إذ كان الامبراطور أنستاسيوس مسالماً . فانصرف الأنبا يؤنس الأول – خلال هذه السنين المملوءة أمناً – إلى أعماله الراعوية وقلبه يفيض غبطة وانشراحاً . ولم يكدر صفو باباويته غير الوباء الذى انتشر فى الاسكندرية وقضى على الكثيرين من أبنائه . ولقد دأب هذا البابا اليقظ على تفقد شعبه أثناء تفشى الوباء ليواسى المتألمين ويعزى الحزانى .

وفى سنة ٤٩٧م . ش. انضم إلى آبائه بعد أن رعى شعبه بحكمةٍ وعدل مدة تناهز ثمانى سنين .



---

(١) من الطريف أنه حين كنت فى فيلادلفيا (بولاية بنسيلفانيا بالولايات المتحدة) خلال السنة الدراسية سنة ١٩٥٢ – سنة ١٩٥٣ ، ذهبت ذات يوم مع صديقة إلى الكنيسة البريسبتيريا الأولى (First Presbyterian Church) . وما أن وصلتها حتى وجدت فوق مدخلها صليباً محاطاً بنقوش على الطريقة القبطية تماماً فسألت صديقتى : « من أين جئتم بهذه النقوش ؟ » أجابت: « لست أدرى . وكل ما أدريه هو أن هذه الكنيسة بنيت منذ سبعين سنة ، وأن المهندس الذى أشرف على بنائها وزخرفتها ايرلندى » . قلت لها : « حسناً لا ريب فى أن المهندس الايرلندى هو السبب فى أن هذه النقوش قبطية » .

(٢) « النحت والرسم فى الفن القبطى » (بالانجليزية) مقال لكوستيجان نشره فى مجلة محبى الفنون القبطية (الآثار حالياً) المجلد الثالث (سنة ١٩٣٧) ص٥٦ – ٥٧ ، « القبط فى ركب الحضارة العالمية » مقال للدكتور مراد كامل نشره فى مجلة مارمينا العدد الخامس (سنة ١٩٥٤) ص١٥ .

جـ- الأنبا يؤنس الثانى

١٥٨- فلما ترمّلت الكنيسة اجتمع الاكليروس والشعب للتشاور معًا كالمعتاد . فوقع اختيارهم على يؤنس الراهب المتوحد الذى نشأ منذ نعومة أظفاره على الفضائل المسيحية وتشبعت روحه بتعاليمها إلى حد دفعه إلى أن يهجر العالم ليعيش فى صومعة نائية لعله يبلغ الكمال المسيحى فيظفر برضى الله . على أن عزلته فى المغارة النائية لم تكن كافية لأن تجعله فى معزل عن العالم ، فقد ذاع صيته حتى بلغ المدن الآهلة بالسكان . وقد اجتذبت شهرته العدد الوفير من الناس الذين سارعوا إليه لينالوا بركته وليجدوا عنده العزاء الروحى . فلما انتقل الأنبا يؤنس الأول إلى عالم النور قصد إليه مندوبو الشعب ليعرضوا عليه كرامة الرياسة العليا فى الكرازة المرقسية . وكان يؤنس كسلفه شغوفًا بالعزلة زاهداً فى المظاهر العالمية . إلا أن اجماع الاكليروس والشعب أرغمه على قبول هذه الكرامة العظمى ، وبذلك أصبح البابا الاسكندرى الثلاثين سنة ٢١٣ش (سنة ٤٩٧م . ش.) باسم يؤنس الثانى .

وكان أول ما قام به البابا الجديد بعد رسامته هو كتابة رسالة الشركة إلى اخوته الأساقفة الشرقيين الذين اصطلح معهم سلفاؤه بعد القطيعة التى نجمت عن خلقيدون . وكان أسقف القسطنطينية وأنطاكية ضمن هؤلاء الأساقفة الذين كتب لهم وجاءه ردهما .

١٥٩- وفى تلك الفترة أظهر الله عجائبه فأقام لنفسه كهنوتًا ملكيًا وأمة مقدسة (١) . وكان الكهنوت الملكى يشمل ساويرس أسقف أنطاكية ويعقوب أسقف سروج (٢) (ما بين النهرين) ، والعدد العديد من كواكب البرارى

---

(١) ١ بطرس ٢ : ٩ .

(٢) ويوصف بأنه ، قيثارة الروح القدس ، راجع ما أورده عنه مارسويريوس يعقوب توما فى كتابه ، تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية ، جـ٢ ص٢٥٥ – ٢٥٧ ، ٢٧٥ – ٢٧٨ و٢٩٧ – ٣٠١ ولا يفوتنا أن نذكر أن لهذا الأسقف ميامر رائعة تقال يوم الجمعة العظيمة ، وقد درجت كنيستنا على قراءتها فى هذا اليوم المجيد .

المصرية وعلى رأسهم جميعًا البابا يؤنس الثانى الذى اشتهر إلى جانب تقواه بتضلعه فى العلم والفلسفة .

١٦٠ – وقد رد ساويرس الأنطاكى على رسالة الشركة التى بعث بها الأنبا يـؤنس الثانى ، أعلن لـه فيها ايمان كنيسة أنطاكية ، وأكد له فى هـذه الرسالة تمسكه بتعاليم الآباء العظام : أثناسيوس وكيرلس وديسقـورس .

وعندما تسلم البابا يؤنس الثانى الرد على رسالة الشركة من أخيـه ساويرس أسقف أنطاكية قبلها بفرح ، ومجّد الله الذى جمع شمل الرعية فى حظيرة الكنيسة الواحدة . وبعث برسالة ثانية إلى الأسقف الأنطاكى تفيض بنعمة الايمان . وقد بيّن فيها هو أيضًا وحدة الايمان التى تربط بين الكنيستين : ويتلخص هذا الايمان فى وحدة الجوهر الإلهى المعلن لنا فى ثلاثة أقانيم ، وتجسد الابن الكلمة الذى اتحد لاهوته بناسوته بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير (١) .

١٦١ – ولقد كانت هذه المراسلات أكبر عامل على توثيق روابط المحبة بين هـذين الحبرين وكنيستيهما ، ولم يمضِ غير وقت قليل على تكاتبهما حتى شاركهما يعقوب السروجى الرسائل فشاطرهما المحبة الأخوية بـدوره .

١٦٢ – ومن مميزات الأنبا يؤنس الثانى سهره على رعيته فلم يتوان عن كتابة الرسائل التى توضح الايمان وعلى الأخص الرسائل الفصحية التى كان يعيّن فيها موعد عيد القيامة المجيدة لبقية الأساقفة عملاً بقرار مجمع نيقية وجرياً على تقاليد أسلافه الأماجد .

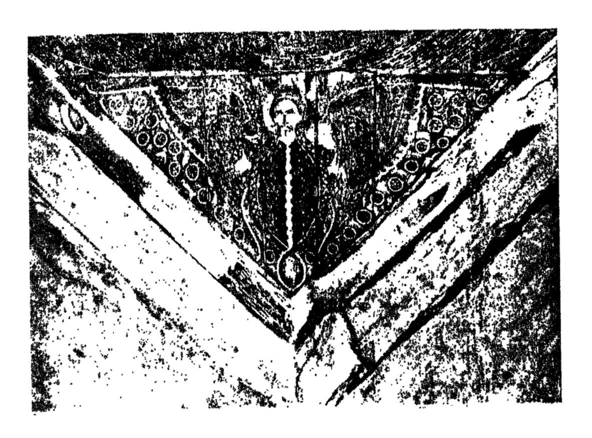
على أن الكتابة والتعليم والارشاد لم تكن بالعمل الوحيد الذى انصرف إليه هذا البابا الجليل لأنه وجّه عنايته الخاصة إلى اعادة بناء الكنائس التى كان أنصار خلقيدون قد هدموها أو أصابوها بتصدع وإلى تزويدها بالأوانى والملابس الكهنوتية التى كان قد اختلسها الأساقفة الدخلاء . فازداد تعلق

---

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٣ ص٩٣٧ .

الشعب براعيه الأول حين رأى منه كل هذه العناية ببناء النفوس وبناء بيوت العبادة .

١٦٣– وبعد أن قضى الأنبا يؤنس الثانى إحدى عشرة سنة فى قيادة الكنيسة قيادة رشيدة مضيئة بالنعمة الالهية دخل إلى فرح سيده بسلام .



صورة ملونة تمثل أحد الحيوانات غير المتجسدة المحيطة بالعرش السماوى ، استلهمها الفنان من وصف يوحنا اللاهوتى فى سفر الرؤيا – وهى فى دير الأنبا مكارى الكبير

د- الأنبا ديسقورس الثانى

١٦٤- وكان سكرتير البابا المتنيح اسمه ديسقورس ، وقد اشتهر بالاستقامة والولاء التام للايمان الأرثوذكسى حتى عدّه الشعب رجلاً كاملاً ومحامياً مناضلاً وأحبه ووثق به ومما زاد القلوب تعلقاً به الاسم الذى كان يحمله : لأن كلمة « ديسقورس » كانت تستثير كوامن الشجن لدى المصريين وترسم فى مخيلاتهم صورة للبطولة النادرة التى اتصف بها البابا الاسكندرى الخامس والعشرون ، وهو ديسقورس الأول الشهيد بغير سفك دم الذى رفض فى عزة وإباء أن يتنكر لايمانه ارضاء للامبراطور الغاشم عملاً بالمبدأ الرسولى « ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس » (١) .

١٦٥- وكان الامبراطور أنستاسيوس يحب ديسقورس هذا لأنه كان يعرفه شخصياً ، وأعلن عن تقديره له فى أكثر من مناسبة . وحين خلت السدة المرقسية أبدى رغبته فى أن يراه جالساً عليها . ولما كان المصريون قد ذاقوا الأهوال من أباطرة القسطنطينية ، فقد وافقوا مترددين فى انتخاب ديسقورس حين سمعوا برغبة الامبراطور إذ خامرهم الشك فى أن هذا الامبراطور قد يكون قد تناسى العهد بدوره كما فعل كثيرون من سلفائه ، فسوّلت له النفس فى أن يتدخل لفرض من يريده أسقفاً على الاسكندرية . ويرجع سبب ترددهم إلى أنهم كانوا منذ عهد المجمع الخلقيدونى المشئوم يأبون كل تدخل أجنبى فى شئونهم الدينية . ويرجع الفضل فى ذلك إلى الأنبا شنودة وأقرانه من أساطين الكنيسة القبطية فى العصور الرسولية - لأنهم أيقظوا الوعى القومى وحركوا المشاعر الوطنية . فإن الاكليروس المصرى - ومعه الاكليروس الشرقى - ظلوا جميعاً على مدى الأجيال المحور الذى يدور حوله الشعور القومى القاضى بتحريم انحناء العنق للنير الأجنبى - ففضّلوا الاضطهاد والموت على التفريط فى استقلالهم الكنسى - (٢) جميع

(١) أعمال ٥ : ٢٩ .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٦٠١ حيث يقول :
" Le clergé oriental a eu la gloire de rester toujours le centre et le soutien du sentiment national " .

هذه الخواطر جاشت بها نفوس المصريين يوم أن كانوا يتشاورون فى انتخاب ديسقورس ، ولم يترددوا فى أن يعلنوه بما يخشونه من رضا الامبراطور عنه .

١٦٦- وإن موقف المصريين من الكاهن ديسقورس وموقفه منهم يؤلف صفحة من الصفحات المجيدة فى تاريخنا المليئ بالأمجاد . ذلك أن المصريين صارحوه بمخاوفهم وأعلنوا له أنهم يعرفون تمام المعرفة أن الامبراطور أنستاسيوس صديق لهم ولكن قد يفسح سكوتهم عن تدخله فى أمورهم : قد يفسح المجال أمام غيره من الأباطرة الذين يكونون خصوماً لهم فى الرأى للتدخل فى شئونهم الكنسية ومن الأدلة على العظمة الروحية التى اتصف بها ديسقورس أنه شاطرهم كل هذه المشاعر وأعلن لهم بأنه يرفض تدخل الامبراطور فى انتخاب من يخلف القديس مرقس وأنه يدع هذا الأمر بين أيديهم – فلهم أن ينتخبوه أو أن ينتخبوا سواه لأن الانتخاب من حقهم وحدهم . وكان ديسقورس صادقًا كل الصدق فى ما قاله لمواطنيه فظل ساكنًا منصرفًا إلى عمله الكهنوتى لا يقابل أحداً من الحكام ولا يحاول التأثير فى أى ناخب . وبعد أن انقضت عدة شهور على هذا الحال تأكد المصريون من خلالها حسن نية ديسقورس واخلاصه لوطنه وأعجبوا بموقفه فانتخبوه خليفة للأنبا يؤنس الثانى فأصبح ديسقورس الثانى البابا الاسكندرى الحادى والثلاثين سنة ٢٢٤ش . (سنة ٥٠٨ م) .

١٦٧- وما أن اعتلى الكرسى المرقسى حتى جدد الشركة مع ساويرس أسقف أنطاكية وغيره من الأساقفة الأرثوذكسيين . فتلقى منهم الرسائل المؤيدة للايمان القويم والناطقة باخلاصهم له وبفرحهم لأنه نال هذه الكرامة السامية فرد عليهم برسالة ملؤها المحبة والاخلاص .

١٦٨- وحدث أن أثار بعض المصريين فتنة فى الاسكندرية أغضبت الامبراطور أنستاسيوس فخافوا سوء العاقبة ورجوا من باباهم أن يشفع فيهم لكى يدفع عنهم أذى الامبراطور فأعلن لهم عن اغتباطه بخدمتهم وقصد إلى الامبراطور لساعته . وقد نجح فى مهمته إذ قد أعلن الامبراطور صفحه عن المشاغبين .

١٦٩- ومما يؤسف له أن أيام البابا ديسقورس الثانى كانت قصيرة : فلم تتجاوز باباويته السنتين انضم بعدها إلى أسلافه تاركاً شعبه يبكيه ويتألم من أن راعياً روحياً مثله انتقل إلى عالم النور بهذه السرعة (١) .

١٧٠- ومن مراحم الله تعالى أن دام السلام مدى باباوية خمسة من خلفاء مارمرقس : أى من عهد الأنبا بطرس الثالث البابا الـ٢٧ . ومن أبرز ما يتميز به السلام اطمئنان القلوب لشعورها بالاستقرار الذى هو ضرورة لازمة لكل انتاج علمي وفني . ولما كانت مصر ملتقى الشعوب فقد تلاقت فيها الفنون اليونانية والفارسية والهندية (٢) وغيرها من فنون الأمم المجتمعة فى بلادنا . على أن المصريين الذين استطاعوا أن يستوعبوا الفلسفات الغربية ويتمثلوها ثم يظلوا على طابعهم المصرى الأصيل قد استطاعوا أيضاً أن يستوعبوا الفنون الأجنبية المتلاقية على أرضهم وأن يمزجوها ويؤلفوا منها وحدة جديدة من ابتكارهم الخاص . لأن الفنان المصرى حين أراد أن يعبر عن خياله وعن المؤثرات التى انعكست عن نفسه فاستجاب لها ؛ عبّر عنها جميعاً بما ابتكره من فن ولم يعبّر عنها بفنٍ نقله عن غيره . لأن الناقل ليس فناناً إذ هو لا يعكس انفعالاته ووجداناته انعكاساً تلقائياً . أما الفنان فيبتكر لأنه يهدف إلى التعبير عما يخالج نفسه من خواطر وهواجس . ولقد استعمل المصريون شتى الوسائل للتعبير عن مشاعرهم ووجداناتهم كالرسم والنحت والنقش على النحاس والجلد . وكثيراً ما كان يحلو للفنان أن يستعين بأكثر من وسيلة واحدة للتعبير عن وجدان واحد كأن ينحت صورة ويلونها . ولا تزال بقايا الفن الذى أنتجه هذا القرن الخامس تشهد للعالم برقة مشاعر الفنانين المصريين ودقة تعبيراتهم وبديع انتاجهم .

والفن القبطى يستهدف التعبير عن الأفكار الروحية . وقد يكون هذا

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٢) من الطريف أنه أقيم سنة ١٩٥٦ معرض للفن الهندى تحت اشراف صوبيريو تاغور (حفيد الشاعر الهندى المعروف) . وكان من بين المعروضات حزام من القطيفة السوداء مزين بزخارف ذهبية احداها « الفتح » أو مفتاح الحياة عند قدماء المصريين. وعند الاستفهام عن الأصل فى استعمال هذا الرمز قيل بأن العلاقات بين مصر والهند ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

الميل إلى الروحيات هو الذى اجتذب براك وأقرانه من الفنانين الباريسيين فتأثروا بالفن القبطى إلى حدٍ بعيد (١) . وهذه النزعة الروحية المميزة للقبط قد تكون السبب فى أن فنانيهم لم يوقعوا بامضاءاتهم على أى انتاج فنى مما ابتكروه بل كانوا يكتفون بأن يكتبوا « عوّض يارب من له تعب فى ملكوت السموات » ، وكانوا يعدون هذه الجملة توقيعًا كافياً – ولو أنه توقيع حيّر المؤرخين والمشتغلين بالآثار الذين تعبوا فى البحث والتنقيب لعلهم يظفرون بأسماء الفنانين الأعلام الذين أنتجوا روائع فنية نادرة المثال من دون جدوى.

وكما استطاع الفنانون فى فترة السلام أن يتركوا للأجيال المتعاقبة كنوزاً لا تقوّم بمال قارون ، كذلك ترك لنا الكتّاب القبط عصارة تفكيرهم . ومن أبرز كتّاب القرن الخامس الرحّالة قزمان الذى كان تاجراً من الاسكندرية سافر على مركب انساب فوق مياه البحر العربى حوالى سنة ٥١٢م . ش . فلما عاد إلى وطنه مصر أراد أن يرفّه عن قومه ويوسع معلوماتهم فكتب يصف لهم كل ما رآه بقوله : فى جزيرة تابروبانا (سيلان) توجد كنيسة وكهنة وشعب مؤمن ولست أدرى إن كان الايمان قد امتد إلى أبعد من ذلك أم لا لأننى لم أتجول خارج حدود هذه الجزيرة . وهناك كنيسة أيضاً فى المنطقة المسماة «مآل» (مالابار) حيث ينمو الفلفل ، وفى المكان المدعو كاليان (قرب بومباى) . وينتخب أسقف من بلاد فارس لها ولجزيرة ديسقورس (سوكوترا) فى المحيط الهندى أيضاً ... وكهنة

---

(١) « الوثنية والمسيحية فى مصر » مقال لمارفين تشونسى روس نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية المجلد السابع (سنة ١٩٤١) ص٤٨ – ٤٩ . ولقد قال ضمن مقاله هذا ما نصه : " Coptic sculpture has been described as painting in stone, the designs are simple ... the back ground cut away to give deep strongly constrasting shadows. the colouristic art of the Copts whose influence was to penetrate all of Europe " . ومعناه : «يوصف النحت القبطى بأنه رسم فى الحجر، فالرسومات بسيطة والقاع منحوت نحتاً عميقًا ليعطى ظلالاً قاتمة عنيفة التباين ... والفن القبطى ذو الألوان الزاهية قد تخلل أثره كل أوروبا » . ثم يقول على صفحة ٥٠ ما نصه :

" Coptic art is didactic, attempting to convey a spiritual meaning rather than duplicate outward forms.. " ومعناه : «أن الفن القبطى استقرائى يستهدف أن يبرز معنى روحياً بدلاً من أن يعطى صورة مكررة للأشكال الخارجية »

وجمهور من المسيحيين ... وتضم الجزيرة (سيلان) كنيسة للمسيحيين الذين استقروا فيها ، يرعاهم كاهن وشماس من بلاد فارس أيضاً ... ولكن الأهالى وملكهم لا يزالون وثنيين ... (١) وبهذا الوصف وغيره مما أورده قزمان ألهب خيال مواطنيه .

كذلك أتاح السلام الفرصة أمام رجال العلم للبحث واجراء التجارب . وكان علماء المدرسة الاسكندرية قد ذاع صيتهم لطول باعهم فى العلوم الروحية فجاءهم الساعون نحو المعرفة من جهات العالم الأربع . ومن مخلفات هذا العصر نسخة من أقدم النسخ لسفر التكوين تحتوى على ثمانٍ وثمانين صورة خاصة بهذا السفر العظيم . وهذه النسخة ذات القيمة العظمى محفوظة الآن فى متحف الدولة بفيينا . على أن العلوم فى المدرسة الاسكندرية لم تقتصر على العلوم الروحية لأن هذه المدرسة قد اشتهرت بالفلك والطب والموسيقى وعلم الحياة (بيولوجيا) . ومن المحزن أن معظم مخلفات هذا العصر والعصور السابقة عليه قد ضاعت ، ولم تصلنا منها غير شذرات متفرقة . ومن الآثار الشيّقة الباقية من هذا القرن كتاب فى علم النبات يبدو أن مؤلفه قد كتبه بناءً على طلب احدى الأميرات الرومانيات (٢) ومما يجدر ذكره أن فن الزخرفة المأخوذة عن الأزهار واستعمالها لتزيين الكتب (المخطوطة) يرجع إلى هذا العصر ، إذ أن النسّاخ (فى هذه الحقبة) وجدوا فى النباتات رسوماً وأشكالاً لا تتناسق مع الخطوط التى يكتبونها فاستعملوها ليجعلوا من مخطوطاتهم قطعاً فنية تستمتع بها النفس كما يستمتع بها العقل فتتضاعف بذلك المتعة الروحية لدى القراء (٣) .

---

(١) « ابتداء من أورشليم » (بالانجليزية) لجون فوستر ، طبع فى لندن سنة ١٩٥٩ ص٢٣ ويلاحظ أن المخطوط الأصلى به أجزاء ممزقة تشير إليها النقط الموضوعة بين الجمل ولو أن الكتاب الأصلى يتألف من اثنى عشر مجلداً. راجع أيضاً « لماذا الكنيسة؟ » للمؤلف نفسه طبع فى لندن سنة ١٩٥٤ ص١٠١ .

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص٣٦٠ - ٣٦١ .

(٣) « النحت والرسم فى الفن القبطى » مقال بالانجليزية لكوستيجان نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية (محبى الفنون القبطية سابقاً) المجلد الثالث (سنة ١٩٣٧) ص٥٧ .

ووقت للحرب : ١- أنبا تيموثيئوس الثالث

(١٧١) انتخاب تيموثيئوس كاهن الكنيسة المرقسية .
(١٧٢) كتابته رسالة الشركة .
(١٧٣) موت الامبراطور أنستاسيوس واعتلاء يوستينيان العرش .
(١٧٤) مناصرة يوستينيان الخلقيدونيين ونفيه البابا الاسكندرى .
(١٧٥) التجاء ساويرس الأنطاكى إلى مصر .
(١٧٦) التنافس على الألقاب .
(١٧٧) الجدل حول أوريجانوس وزهو الامبراطور بنفسه .
(١٧٨) عودة الأنبا تيموثيئوس من المنفى وجهاده مع الشعب ورسامته أسقفا على جزيرة فيلا .
(١٧٩) البابا تيموثيئوس يعلن الحرم على الأوطاخيين .
(١٨٠) انتقاله إلى بيعة الأبكار .

١٧١- ومرة أخرى وجد الأساقفة وأراخنة الشعب أنفسهم مضطرين إلى التداول فى من يختارونه ليكون راعيهم الأول، وبدأوا يصلون ويتشاورون واستجابة لصلواتهم ألهمهم الروح القدس أن يختاروا تيموثيئوس كاهن كنيسة مارمرقس . وكان هذا الكاهن عالمًا فهيمًا مشهوداً له من الجميع بالقداسة وصفاء السيرة ، وفوق هذا كله فقد كان شديد التمسك بالايمان الأرثوذكسى الذى راح ضحيته الأنبا ديسقورس البطل المقدام . فلما وازن الناخبون جميع هذه المزايا أجمعوا على أن القس تيموثيئوس هو خير من يجلس على السدة المرقسية . فتمت رسامته باسم تيموثيئوس الثالث البابا الاسكندرى الثانى والثلاثين سنة ٢٢٧ش (سنة ٥١١م . ش.) ولقد تمكن المصريون من الاجتماع والتشاور لأن الامبراطور أنستاسيوس كان لا يزال على تسامحه وسعة صدره كما كان لايزال وفياً لأصدقائه من بنى مصر فترك لهم حرية الاختيار ولم يحاول أن يفرض عليهم من لا يرضونه .

١٧٢- وسار الأنبا تيموثيئوس الثالث على منوال سلفائه بأن أرسل رسالة الشركة إلى اخوته أساقفة الشرق . وقد ضمنها رسالة خاصة بعث بها إلى الحبر الجليل ساويرس أسقف أنطاكية . فردوا عليه جميعاً معلنين اغتباطهم بدوام السلام والألفة بينهم .

١٧٣ - على أن دوام الحال من المحال - فقد انتقل الامبراطور أنستاسيوس إلى الدار الباقية . وخلفه على عرش القسطنطينية الامبراطور يوستنيان الأول فى السنة عينها التى أقيم فيها تيموثيئوس الثالث خليفة لديسقورس الثانى .

١٧٤ - وكان الامبراطور الجديد ميالاً إلى مناصرة الخلقيدونيين ، وقد دعم ميله هذا يوحنا أسقف الكبادوك الذى لازمه ملازمة الظل . وفى يوم من أيام الآحاد ذهب الامبراطور والأسقف للصلاة معاً . وكان ظهورهما جنباً إلى جنب فى الكنيسة مدعاة إلى حدوث الشغب لأن بعض المصلين المتشيعين للامبراطور هتفوا بسقوط ساويرس الأنطاكى مطالبين بمحاكمته كنسياً فى حين أن غيرهم هتف بوجوب التمسك بالايمان الأرثوذكسى الذى يتمسك به هذا الحبر الأنطاكى الجرئ . ولما كان الفريق الامبراطورى أكثر عدداً فقد تغلب على الفريق الثانى فازداد الامبراطور صلفاً وقرر أن يأمر بعقد مجمع . ولما دعى البابا تيموثيئوس الثالث لحضور هذا المجمع لم يلب الدعوة إذ كان يعلم موقف الامبراطور والمشيعين له وأنهم لا يستهدفون إلا الايقاع بالأرثوذكسيين.

فثارت ثائرة الامبراطور وأمر بالقبض على البابا الاسكندرى ونفيه . وحين وصل الجند إلى الكنيسة المرقسية تنفيذاً لأوامر الامبراطور ثار الشعب وتجمهر حول الكنيسة ليمنع الجند من الوصول إلى باباه المبجل . واشتبك الفريقان فى معركة عنيفة رغم أن القوى كانت غير متكافئة لأن الجند مسلحون والشعب أعزل . وقد اندفع الجند فى الفتك بهذا الشعب الوفى وقتلوا عدداً غير قليل من المؤمنين . ولما قضوا على المقاومة الشعبية اقتحموا الدار البابوية وقبضوا على البابا عنوة وساقوه إلى المنفى .

ولم يكتف الامبراطور بذلك بل فرض على الكرسى الاسكندرى دخيلاً يدعى أبوليناريوس .

١٧٥ - أما ساويرس بطريرك أنطاكية فقد لبى دعوة الامبراطور وذهب إلى القسطنطينية . فحكم المجمع بتجريده وحرمه إلا أن الله تعالى كان قد قيّض للأرثوذكسيين صديقاً أميناً فى شخص الامبراطورة ثيئودورا . فشفعت لدى زوجها فى هذا الحبر الأنطاكى المتمسك بالايمان الأرثوذكسى . وكان أنصار الامبراطور قد هيجوه ضد الأنبا ساويرس إلى حد أنه كان يريد قطع لسانه ، إلا أن شفاعة الامبراطورة كانت لها أكبر الأثر فى نفس زوجها فأخلى

سبيل البطريرك ساويرس ولكنه منعه من العودة إلى مقر كرسيه . فغادر بلاده مكرهاً وجاء إلى بلادنا الرحيبة هرباً من حاشية الامبراطور وطغيانها ، فوجد في مصر المأوى الأمين كما فعل سيده له المجد حين جاء وهو وليد إلى هذا الوادى العتيق .

١٧٦- وأن هذا المجمع الذى لم يتجاوز أعضاؤه الأربعين أسقفًا والذى جرد ساويرس من رتبته الأسقفية هو الذى خلع على أسقف القسطنطينية لقب « بطريرك مسكونى » ، تملقاً منه للامبراطور يوستينيان مما حدا بغريغوريوس أسقف رومية إلى أن يطعن فى يوحنا الصوّام الأسقف القسطنطينى لتجرؤه على قبول لقب خاص بالسيد المسيح . إلا أن هذا الطعن لم يكن مجرداً من الهوى لأن هذا الأسقف الرومانى نفسه وافق على أن يستأثر بلقب « بابا » دون بقية الأساقفة (١) . وهكذا احتدم النزاع على الألقاب بين كنيستى الامبراطوريتين الشرقية والغربية .

١٧٧- على أن هذا النزاع لم يكن قاصراً على المنافسة وحدها ولكنه شمل مواضيع شتى أهمها شخصية أوريجانوس . فلقد قامت المجادلات حول هذا المعلم الكبير فى فترات متقطعة . وكان الرهبان المصريين مجمعين على أن أوريجانوس هو المعلم الممتاز فى الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية حتى لقد استشهد به أثناسيوس الرسولى نفسه . والواقع أنه كان لأوريجانوس تلاميذ ومريدون فى مختلف البلاد وعلى مر القرون . وبين أتباعه فى أوائل القرن السادس واضع كتاب « ديونيسيوس الأريوباغى » .

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص١٨٩ حيث يقول ما نصه: ... "
on donnait au Patriarche de Constantinople le titre de (patriarche oecuménique)
C'ést la première fois, croyonsnous, qu'on lui donnait officiellement ce titre .
IL date ainsi de la même époque que le titre de (pape) attribué exclusivement à l'évêque de Rome ".
وترجمته كما يلى : لقد خلعوا على بطريرك القسطنطينية لقب « بطريرك مسكونى » ، وهذه هى المرة الأولى – على ما نظن – يخلع عليه هذا اللقب رسمياً . ويرجع تاريخ هذا التلقيب إلى العصر عينه الذى أطلق فيه لقب « بابا » على أسقف رومية وحده .

ومع أن رهبان مصر كانوا مجمعين على الاعجاب بأوريجانوس إلا أن اخوتهم الرهبان الفلسطينيين كانوا منقسمين فى تقديرهم له . فالبعض منهم كان يباهى بالتتلمذ له بينما عمد البعض الآخر إلى تشويه تعاليمه لينسب إليه الابتداع . بل أن البعض منهم لم يستطع أن يفهم تشبيهاته واستعاراته ففسرها تفسيراً حرفياً أضاع معناها الروحى الحقيقى . فى حين أن أوريجانوس نفسه حذّر – فى أكثر من مناسبة – من التفسير الحرفى. وليس ذلك فحسب بل أن البعض حرّف أقواله تحريفاً جعلها مليئة بالخطأ.

وكان الامبراطور يوستينيان الأول ذا نزعة فلسفية دفعته إلى التدخل فى الأمور الكنسية . وقد زاده تملق رجال البلاط غروراً فتعدى حدود سلطانه وأقام نفسه حكماً فى النزاع الذى احتدم حول أوريجانوس . وليس ذلك فحسب ، بل أنه زعم أنه الفيصل فى الأمور الروحية ! ولما كان قد نفى زعماء الأرثوذكسيين – أمثال الأنبا تيموثيئوس الثالث وساويرس الأنطاكى – لم يجد من يذكره بالتزام حدوده . ولقد انتهز خصوم أوريجانوس الفرصة فكانوا يجتمعون عند الامبراطور ويتناقشون معه . واستطاعوا – بالتلاعب بالألفاظ واستعمال التعبيرات المبهمة العائمة – أن يضموه إلى صفوفهم وأن يجعلوه يوقع الحرم على أوريجانوس كأنه صاحب سلطة مجمعية ! ولقد ثار أحباء أوريجانوس لهذا الاعتداء الصارخ على حق الكنيسة وأعلنوا سخطهم جهاراً . ولم يحاول واحد من الحكام أن يهدئ من ثائرة المصريين بل تركوهم فى حنقهم وألمهم . أما المناصرون لأوريجانوس من أهالى فلسطين فقد رفضوا الاصغاء إلى أسقفهم حين أراد أن يقرأ عليهم صورة الحرم الصادر من يوستينيان الأول ضد أوريجانوس ، ولم تهدأ ثائرتهم إلا بعد أن يضيف إلى الحرم العبارة الآتية : « إن كل حرم لا يرضى الله باطل ، باسم الآب والابن والروح القدس » (١) ولقد وافق الأسقف الفلسطينى على تذييل الحرم بهذه الكلمات لأنها لم تثر غضب الامبراطور (إذ لم يفطن إلى مغزاها) ، بينما هدأ الفلسطينيون لأنهم كانوا متيقنين فى أعماق قلوبهم أن

---

(١) مما تجب الاشارة إليه أن آباء الكنيسة الشرقية يعدون الحرم سيفاً ذا حدين ، وهم لذلك يشددون فى وجوب التحفظ من اصداره . لأن عقوبة الحرم – إن صدرت ظلماً – ارتدت على من أصدرها .

هذا الحرم الامبراطورى ضد معلمهم الكبير لا يرضى الله مطلقاً . ولما كان أسقفهم مسالماً فقد استغلوا محبته للسلام وأخذوا ينشرون بين الشعب تعاليم أوريجانوس بحرية تامة (١) .

وبهذه المناسبة يحسن بنا أن نحدد موقف الكنيسة القبطية بالذات من أوريجانوس ، ويتلخص فيما يلى :

١- كان الأنبا ديمتريوس الكرام (البابا الاسكندرى الـ١٢) قد وثق به كل الثقة حتى أنه عينه مديراً للمدرسة اللاهوتية كما انتدبه لدحض البدع فى بلاد العرب والموصل وآخائية . ولكنه غضب عليه حين قبل الكهنوت من أسقفين غريبين عن الكرازة المرقسية فأصدر الحرم ضده وبخاصة لأنه كان قد أخصى نفسه .

٢- رفع الأنبا ديونيسيوس - البابا الرابع عشر - الحرم عنه وطلب إليه أن يعود إلى الاسكندرية ليتسلم رياسة مدرستها من جديد ولم يغضب عليه حين اعتذر عن العودة .

٣- عندما احتدم الجدال بين الأنبا ثيئوفيلس الكبير (البابا الاسكندرى الـ٢٣) وبين يوحنا ذهبى الفم (أسقف القسطنطينية) ، شمل غضب البابا الاسكندرى كل أصدقاء الأسقف القسطنطينى - العائشين منهم فى الجسد والذين انتقلوا إلى الدار الباقية - وكان أوريجانوس ضمن الأخيرين . على أن الأنبا ثيئوفيلس حين أدرك خطأه بازاء ذهبى الفم صالح كل من خاصمهم وأعلن من جديد رضاه عن أوريجانوس وتعاليمه .

٤- درج كيرلس الأول عامود الدين (البابا الاسكندرى الـ٢٤) على نشر ملخصات لحياة البارزين من رجال الكنيسة وتعاليمهم لنشرها على تلاميذ المدارس وكان أوريجانوس ضمن من كتب عنهم هذا البابا الاسكندرى العظيم

٥- استمر الرهبان المصريون يتناقلون تعاليم أوريجانوس . ومن أسطع الأدلة على هذه الحقيقة المخطوطات التى عثر عليها صدفة فى مغارة

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٢٥٣ - ٢٥٦ .

بالقرب من طره (جلوبى القاهرة) منذ خمس عشرة عاماً . والمحفوظة الآن بالمتحف القبطى بمصر العتيقة .

٦- لم تتخذ الكنيسة القبطية أى موقف عدائى ضد أوريجانوس منذ أن أباح البابا ثيئوفيلس الكبير لأبنائه قراءة التعاليم الأوريجانية إلا حين بدأت تتأثر بالدعايات الغربية وتتناقلها فى العصور الأخيرة . ومن العجيب أن الغربيين قد اتهموا آباء الكنيسة القبطية بضيق الفكر وبالحسد بازاء أوريجانوس مع أن الذى شوّه تعاليمه وأثار الحقد حوله هم الغربيون أنفسهم (١) ابتداء من ايرونيموس (جيروم) الذى تعده الكنيسة الكاثوليكية قديساً .

على أنه يجب القول بأنه ليس من المتيسر الآن الحكم بصورة قاطعة على أوريجانوس : فلا يمكن تبرئته تبرئة تامة كما أنه ليس من العدل تخطئته ذلك لأن بيننا وبينه ما يقرب من ستة عشر قرناً . فليس من السهل أن نعيش فى الوسط الذى عاش فيه وننفعل بانفعالاته ونفكر بعقليته . كما أن الشئ الكثير من كتابات أوريجانوس قد ضاع ، وقد يكون العبث تطرّق إلى ما وصل إلينا منها فلم يبلغنا على حقيقته . لأنه إن كان أوريجانوس نفسه قد اشتكى فى أثناء حياته بأن هناك من يشوهون كتاباته فكم بالحرى تزداد هذه الشكوى بعد الأعاصير التى هبت عليه فى القرون التالية . على أنه ليس من اللياقة فى شئ أن ننسى كل جهاد أوريجانوس وخدماته حتى وإن كان قد أخطأ. فداود النبى والملك الذى لايزال العالم كله يتغنى بمزاميره قد سقط فى أكثر من خطية . حسناته زادت على سيئاته.فلم يلبث المجتمع أن نسى سيئات داود ليذكر حسناته . وليس من شك فى أن رجلاً كالأنبا ديمتريوس الكرام

---

(١) راجع كتاب « ملخص لفكر أوريجانوس » (بالفرنسية) لأوجين دى فاى ص٦٧ حيث يقول ما نصه : " ... Celui que le Christianisme occidentale a littéralement proscrit de son sein a été l'un des plus grands Chrétiens de son temps . Ce Origéne a souffert de cette injuste ostracisme, l'étroitesse qui en a été la cause, n'a - t - elle pas infligé une perte encore plus grave à l'Eglise elle même ?

وترجمته كما يلى : أن ذاك الذى نبذته المسيحية الغربية كان من أعاظم المسيحيين فى عصره . ولئن كان أوريجانوس قد تألم بسبب هذا الظلم الصارخ فما لا شك فيه أن ضيق العقل الذى كان السبب فى نبذه قد أصاب الكنيسة بجراح دامية .

كان حكيماً وقوراً لا يصدر الحرم جزافًا . لذلك لا يسعنا إلا القول بأن الفصل فى موضوع أوريجانوس لم يحن أوانه وإنما قد حان الأوان لأن نعرف أنه تفانى فى خدمة سيده وأدى الخدمات العظيمة للكنيسة رغم ما قد يكون سقط فيه من أخطاء .

١٧٨- وبينما كانت رحى المعارك الكلامية حول المبادئ دائرة نال المصريون نصيب الأسد من الاضطرابات . فمع أن باباهم كان قد عاد من المنفى إلا أنه هو وساويرس الأنطاكى كانا مطاردين من بلد إلى بلد ومن دير إلى دير . ورغم هذه المطاردة فقد تجلت نعمة الله إذ هيأت الفرصة للأنبا تيموثيئوس لأن يرسم أسقفاً على جزيرة فيلا التى كانت حتى ذاك تابعة لأسقفية أسوان . وكان اسم هذا الأسقف الجديد ثيئودورس . وقد قضى ما ينيف على الخمسين سنة فى أسقفيته فتمكن من تحويل الأهالى جميعًا إلى المسيحية : فقد كان الجزء الشمالى منها مسيحياً بينما كان الجنوبى وثنياً ولكن الوثنيين اعتنقوا المسيحية لجهوده وقدوته . ولقد امتد عمل ثيئودورس إلى حد أنه ساهم فى تجديد السور المنيع الذى كان دقلديانوس قد بناه لتحصين الجزيرة . كذلك حول الجزء الأمامى من معبد ايزيس إلى كنيسة كرسها باسم استفانوس أول الشهداء ، وبنى كنيسة فى المنطقة الوسطى من فيلا . وليس ذلك فحسب بل أنه هو الذى وضع صليباً فى يد ابراهيم (أحد كهنته) وأمره بأن يرفعه فوق معبد فى النوبة . وبعد ذلك ذهب بنفسه ليتفقد النوبيين ويعرف مدى اقتبالهم للمسيحية وقضى بينهم ست سنوات عاد بعدها إلى ايبارشيته حيث تنيح بسلام (١) .

واستمر الأنبا تيموثيئوس فى تنقلاته هو وساويرس الأنطاكى ، وكانا حيثما حلا ينفخان الثقة فى القلوب ويزيدانها حماسة للتمسك بالايمان الأرثوذكسى وأخيراً تمكنا من الالتجاء إلى دير بعيد عن عيون الجنود البيزنطيين . فاستقر بهما المقام فى سلام وأخذ فى كتابة الرسائل لشعبيهما لتعزية القلوب وتقوية العزائم .

---

(١) مقال لهنرى مونييه « المسيحية فى فيلا » (بالفرنسية) نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية - العدد الرابع (سنة ١٩٣٨) ص٤٤ - ٤٥ .

١٧٩– وكأنما لم تكن كل هذه الاضطرابات والمجادلات وما لازمها من اضطهادات كافية لأن يطفح الكيل بالألم فى كأس المصريين بل زاد عليها ما بلغ الأنبا تيموثيئوس الثالث من أن نفراً من أهالى القسطنطينية قد وفدوا على مصر لينشروا بدعتهم الأوطاخية فازداد حزناً على حزن ورأى من واجبه أن يحذر شعبه من الاستماع إلى هؤلاء المبتدعين فبادر إلى توقيع الحرم على هؤلاء الأوطاخيين وطالب الشعب الأرثوذكسى بالابتعاد عنهم وصم الآذان عن أقاويلهم (١) .

١٨٠– وقد داوم الأنبا تيموثيئوس الثالث على تعليم شعبه بما كان يبعث به إليهم من رسائل رغم ما كان يعانيه من ضيق لاضطراره إلى البقاء بعيداً عنهم . وكان عزاؤه الاشتغال بادارة دفة الكنيسة المصرية وسط كل هذه العواصف والأنواء ليوصلها إلى ميناء السلام . وظل فى جهاده الروحى المتواصل إلى أن انتقل إلى المكان الذى يرفرف عليه السلام الدائم . وقد قضى على السدة المرقسية ما يقرب من سبع عشرة سنة إذ كان انتقاله إلى بيعة الأبكار سنة ٥٢٨م . ش .



(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٢ ص٦٢٧ – ٦٢٨ .

ب- الأنبا ثيئودوسيوس

١٨١ – ويتوالى الأيام وصل الأنبا تيموثيئوس إلى نهاية شوطه فى هذه الحياة ، وردد المؤمنون « كما كان هكذا يكون ، من جيل إلى جيل وإلى دهر الداهرين آمين » . معبرين بذلك على أنه كما ولد آدم وعاش على الأرض ثم مات ، هكذا سار جميع أبنائه فى طريقه . فلما سار الخليفة المرقسى الثانى والثلاثون فى هذا الطريق عينه ، وانتقل من هذا العالم واجه الاكليروس والشعب مشكلة انتخاب من يخلفه . ولقد ألهمهم الروح القدس إلى أن ينتخبوا الناسك

التقى ثيئودوسيوس الذى تمت رسامته فى الكنيسة المرقسية فصار بذلك البابا الاسكندرى الثالث والثلاثين سنة ٥٢٨م . ش .

١٨٢- ولم تنقض غير أسابيع قصيرة على رسامة الأنبا ثيئودوسيوس حتى بدأت متاعبه . وقد ظلت هذه المتاعب تلاحقه حتى آخر باباويته . وكان السبب فى هذه المشكلة الأولى هو أن حزباً من الاسكندريين تجمع حول شماس كبير السن اسمه قيانوس وتملقوه حتى أفهموه بأنه هو وحده الجدير بأن يكون البابا الاسكندرى . فوقع فى فخاخهم ورضى أن يرسموه أسقفًا على الاسكندرية .

١٨٣- إلا أن رياسته لم تدم غير ثلاثة شهور لأن الاسكندريين بعثوا برسالة إلى الامبراطورة ثيئودورا رجوا منها فيها أن تناصر البابا ثيئودوسيوس . فأرسلت مندوبيها إلى الاسكندرية لاجراء التحقيق ومعرفة من الذى رسم أولاً من هذين الأسقفين المصريين لاعتماده رسميًا قبل الدولة. وحالما وصل المندوبون إلى الاسكندرية رفعت إليهم عريضة موقعاً عليها من مئة وعشرين من رجالات الكنيسة المصرية بين دينيين ومدنيين يقررون فيها أن انتخاب ثيئودوسيوس قد سبق انتخاب قيانوس . ولم يكتف المندوبون بهذين التقريرين ولكنهم عقدوا اجتماعًا فى كنيسة مارمرقس حضره المسئولون من رجال الكنيسة والدولة ، كما حضره عدد عديد من الاسكندريين . وقد وضعوا الكتاب المقدس فى الوسط ليذكروا أنفسهم بوجود السيد المسيح بينهم ، كما وضعوا المرسوم الذى يحمل ختم الامبراطور وصورته : وبعد أن استقر الجلوس بالمجتمعين حضر البابا ثيئودوسيوس ومعه الأساقفة الذين رسموه . ففرق مندوبو الامبراطورة بين هؤلاء الأساقفة واستجوبوا كلاً منهم على حدة . فاتفقت كلمتهم على أن انتخابه كان مطابقاً لقوانين الكنيسة إذ قد اختاره الشعب ووضع الأساقفة اليد عليه طبقاً لما قرره الآباء .

١٨٤- وهنا تقدم قيانوس وأقر ما شهد به الأساقفة طالبًا الصفح والغفران وشفع فيه بعض الحاضرين لدى البابا ثيئودوسيوس ليقبل توبته بشرط أن يكتب قيانوس بخط يده أنه سلك مسلكاً مخالفاً للقوانين الكنسية. فوافق قيانوس وكتب ما طلب منه . فلم يصفح عنه البابا ثيئودوسيوس فحسب ولكنه رده إلى

رتبة الأرشى دياكونية التى كان قد جرد منها . وشمل الفرح الجميع لاتفاق كلمتهم واستبشروا خيراً إذ ظنوا أن هذا الاتفاق سيؤدى إلى استتباب السلام فى الكنيسة بتصالح أولادها .

١٨٥- على أن السلام لم يتحقق فى مصر ولا فى غيرها من البلاد الشرقية . ذلك لأن الخلاف على قانونية مجمع خلقيدون كان مازال قائماً . فكان الجميع يتناقشون فى هذا الموضوع بكل ما تحتمل المناقشة من معنى . فبعض خصوم هذا المجمع قد عمدوا إلى تشويهه بكل ما أوتوا من قوة لتسهل عليهم مهاجمته ، فى حين أن البعض الآخر هاجمه بحسن نية وصفاء سريرة لاعتقاده بأن التعليم الذى نادى به ثيئودوروس أسقف المصيصة والذى أقره المجمع تعليم خاطئ فعلاً . ومقابل هؤلاء وأولئك وقف مناصرو المجمع الخلقيدونى يبذلون الجهد فى تبرير قراراته وكان مناصرو هذا المجمع ومهاجموه يرفعون تقاريرهم إلى الامبراطور يوستينيان إذ كان يأمل كل فريق أن يستميله إلى جانبه . وكان بطبعه ميالاً إلى الخوض فى المجادلات الدينية والفلسفية .

١٨٦- وقد أدت كل هذه المجادلات إلى تقوية هذا الميل الطبيعى فى الامبراطور . فبعد أن راجع تقارير المتخاصمين توهم أنه عرف دقائق الموضوع وأن فى امكانه أن يقدم الحل الذى يرضى الجميع . ذلك لأن بعض أنصاره قد أوهموه أن الخلاف فى شأن مجمع خلقيدون ينحصر فى نقط ثلاث هى : رسالة ثيئودورس أسقف المصيصة ، رسالة ايباس ، رسائل ثيئودوريت أسقف قورش ضد الحروم الإثنى عشر التى للأنبا كيرلس . فأصدر الامبراطور مرسوماً وقع فيه الحرم على تلك المراسلات التى عرفت فيما بعد باسم الفصول الثلاثة .

على أن هذا المرسوم لم يزد النار إلا اشتعالاً ، لأن بعض الأساقفة رفضوا التوقيع عليه رفضاً باتاً إذ وجدوه مخالفاً لعقيدتهم ، بينما وقع عليه البعض الآخر على الفور (١) .

---

(١) البابوية المنشقة (بالفرنسية) للآبيه جيتى ص١٩٤ - ١٩٥ ، تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٢٥٧ - ٢٥٩ .

كذلك زعم يوستينيان بأنه مسئول عن تثبيت دعائم السلام والوحدة لا فى الامبراطورية فحسب بل فى الكنيسة أيضاً - على أن الوحدة التى كان يبتغيها كان معناه النسق الواحد . صحيح أن النسق الواحد يؤدى إلى السلام ولكنه سلام الموت . فكان الهدف الأول من تعسفه فى الدفاع عن الايمان هو التأكد من أن أبناء الكنيسة لا ينضجون ولهم عقول مفكرة (١) .

١٨٧- ولم يقصر الامبراطور اهتمامه على الخوض فى الموضوعات الدينية والفلسفية بل وجه اهتمامه إلى الفن أيضاً . وكان للنقش المصرى والفن السورى أبعد الأثر فى الفن البيزنطى فحولا اتجاهه تحويلاً جديداً . ولقد استغل الامبراطور هذا الاتجاه الجديد فى الفن بأن أمر مهندسيه ببناء الكتدرائية الفخمة المعروفة باسم «أجيا صوفيا» فى مدينة القسطنطينية (٢) .

١٨٨- وفى تلك الأثناء بعث الأنبا ثيئودوسيوس برسالة إلى الامبراطور يوستينيان والامبراطورة ثيئودورا يقدم لهما فيها عميق امتنانه لما قاما به من خدمة لكنيسة الاسكندرية . ومن المدهش أن رسالة البابا الاسكندرى استثارت فى الامبراطور رغبته فى القتال ! فقد تبادر إلى ذهنه بأنه ترك المصريين فى سلام فإن ما بينهم وبين باباهم من محبة وألفة سيزيدهم قوة فيمكنهم من مقاومة أوامره لذلك رأى أن يباغتهم بمطالبتهم بالتوقيع على قرارات مجمع خلقيدون . وقد رأى أيضاً أن يبدأ بسياسة اللين مكتفياً بالمفاجأة فكتب إلى الأنبا ثيئودوسيوس ينبئه بأنه إن قبل الاعتراف بمجمع خلقيدون فسيجعله والى الاسكندرية وبابا القارة الأفريقية - وكل هذه السلطة بالاضافة إلى باباويته للكرسى المرقسى ، فيتسع نفوذه الروحى كما يصبح له نفوذ مدنى أيضاً . وهنا نسى الامبراطور أن يكتفى باللين أولاً فأضاف إلى هذه الوعود

---

(١) « جوستينيان وعصره » بالانجليزية لبيرسى نيفيل يور ص١٢٧ حيث قال :

" ... for Justinian' unity meant uniformity . Universal uniformity brings peace, but it is the peace of death . The first task of Justinian's benevolent faith - defending despotism was to make sure that the children of the Church never grew up to have minds of their own " .

(٢) النحت والرسم فى الفن القبطى (بالانجليزية) - مقال لكوستيجان نشره فى مجلة محبى الفنون القبطية (الآثار القبطية حالياً) العدد الثالث سنة ١٩٣٧ ص٥٧ .

الخلابة تهديداً إلى البابا الاسكندرى مؤداه أنه إن تجرأ على الرفض فلن يكون نصيبه إلا النفى والتشريد طول أيام حياته فيعيش والحالة هذه بعيداً عن وطنه وعن أهله وشعبه .

١٨٩- على أن تهديد الامبراطور لم يكن ليخيف البابا الاسكندرى خليفة ألكسندروس وأثناسيوس وكيرلس وديسقورس ، وسليل الشهداء الأبطال . فلم يكد ينتهى من قراءة الخطاب الامبراطورى حتى قال على مسمع من مندوبى الامبراطور وكبار رجال الدولة الذين جاءوا معهم : « يحدثنا الكتاب المقدس بأن الشيطان حين جرب رب المجد حاول اغراءه باعطائه السلطان على ممالك العالم . وقد أجابه سيدنا له المجد بقوله : للرب الهك تسجد وإياه وحده تعبد (١). وبما أننى خادم لرب المجد فإننى لا أستطيع أن أحيد عن تعاليمه إذ ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس . وهذا الذى يطلبه منى الامبراطور لا يؤدى إلى هلاكى لأنه يجعلنى غريباً عن السيد المسيح ملكى الحقيق . ثم رفع يمناه نحو السماء وقال : إننى أحرم طومس لاون ومجمع خلقيدون وكل من ناصره أو يناصره حالياً ومستقبلاً وما انتهى من الجهر بهذه الكلمات حتى التفت إلى والى الاسكندرية ومن معه من ذوى النفوذ وقال : إن للامبراطور سلطاناً على هذا الجسد الفانى . أما روحى فهى ملك للسيد المسيح ملكى الوحيد . فافعلوا بى ما شئتم : احبسونى أو أنفونى أو نفذوا أى أمر آخر يحكم به الامبراطور فأنا على أتم استعداد لأن أتحمل كل هذا وأكثر منه ، ولكنى لست مستعداً لأن أجعل نفسى غريباً عن سيدى والهى » .

١٩٠- ولما انتهى الأنبا ثيئودوسيوس من هذا الحديث قام من مكانه يريد الخروج . ولكن الوالى وأعوانه منعوه من مغادرة الدار البابوية أولاً ثم قبضوا عليه وأخذوه معهم إلى دار الولاية واحتجزوه يوماً كاملاً بليلته وفى الغد أطلقوا سراحه تاركين له حرية التنقل .

١٩١- ويبدو أن الشجاعة التى أبداها البابا الاسكندرى أثارت اعجاب سيماكوس والى الاسكندرية فانضم إلى مناصريه . ومن ثم أخذ يتفاهم معه على خير سبيل ينتهجه ، وانتهى به الأمر إلى اقناع الأنبا ثيئودوسيوس

---

(١) لوقا ٤ : ٤ - ٨ .

بمغادرة العاصمة . ولكي يسهل له طريقه أعد له مركبًا زوده بكل معدات السفر ، أقله إلى الصعيد حيث أخذ يعلم الشعب والرهبان ويحثهم على الثبات إلى المنتهى .

١٩٢– أما مندوبو الامبراطور فقد عادوا إلى القسطنطينية حيث قصوا على مولاهم كل ما قاله الأنبا ثيئودوسيوس ، وكيف أنه غادر الاسكندرية وهو مصمم على الرفض وحين سمع الامبراطور ورجال بلاطه أقوال المندوبين أحسوا بدهشة عجيبة إذ لم يكونوا يتصورون أن هناك انسانًا يرفض عروضاً سخية كعروض الامبراطور ، وأنه بهذا الرفض يعرّض نفسه لأن يكون طريداً شريداً بدلاً من أن يعيش في الجاه والترف .

١٩٣– وبازاء هذا الرفض أخذ الامبراطور يناقش نفسه بنفسه : أيترك المصريين يعيشون فى سلام أم لا ؟ ولكن إن تركهم وشأنهم ألا يعدّون تصرفه هذا تراجعاً منه أمام اصرار باباهم على التمسك بمبادئه ؟ ثم ألا يزداد نفوذ هذا البابا الجليل على القلوب ؟ ومتى التفّت القلوب حوله أكثر فأكثر ألا يزيدهم هذا الالتفاف قوة واستمساكًا بعقيدتهم ويسهل عليهم مقاومة الأوامر الامبراطورية فى المستقبل ؟ وحين جالت هذه الهواجس فى خاطر الامبراطور توهم أنه قد يستطيع أن يحول الأنبا ثيئودوسيوس عن موقفه إن هو عاود الكرة . فاختار مندوباً جديداً ، لبقاً حلو اللسان ، وحمّله الدعوى إلى البابا الاسكندرى للمجئ إلى القسطنطينية ظناً منه أن المقابلة الشخصية قد تؤدى إلى اقناع هذا البابا الجليل بالخضوع للحكم الامبراطورى .

وما أن وصل المندوب الامبراطورى إلى الاسكندرية حتى قابل باباها وأبلغه دعوة الامبراطور يوستينيان – وحينذاك غاص الأنبا ثيئودوسيوس فى التفكير إذ قامت فى مخيلته صورة لكل الامكانيات – وأول هذه الصور أن ينفذ الامبراطور تهديده فينفيه ويحول دون رؤيته شعبه الوفى ووطنه الحبيب . وتلاحقت الصور ولكن شبح النفى لم يزعج هذا البابا الجرئ كما لم يرهبه ما قد يصيبه من سجن وتعذيب إذ قد اقترنت كل هذه الصور بما لاقاه الأنبا بطرس الأول خاتمة الشهداء والأنبا أثناسيوس الرسولى وغيرهما من أسلافه باباوات الاسكندرية البواسل الذين تقبلوا صنوف العذاب فى رضى دون أن

يتزحزحوا قيد أنملة عن ايمانهم الأرثوذكسي . وحين مرت كل هذه الصور في خاطر الأنبا ثيئودوسيوس ابتسم في هدوء وعاد من شروده الفكري ، ثم التفت إلى المندوب الامبراطوري وقال : « إنني استودع نفسي في يدي ملكي يسوع المسيح ، وبهذه الثقة سأذهب معكم لمقابلة الامبراطور غير خائف ولا هيّاب » . وحين انتهى البابا الاسكندري إلى هذا القرار اختار عدداً من رجال كنيسته الدينيين والمدنيين الموثوق بهم ليرافقوه إلى القسطنطينية .

١٩٤- ولقد شاء الامبراطور يوستينيان أن يسهل السفر لضيفه الكبير فأرسل له مركباً خاصاً إلى الاسكندرية استقله الأنبا ثيئودوسيوس والرجال الذين انتخبهم لمرافقته . ولما وصلوا إلى القسطنطينية استقبلهم الامبراطور والامبراطورة وجميع رجال البلاط استقبالاً رسمياً . ولقد تعجبوا جميعًا لما بدا على البابا الجليل من رصانة ووقار ، وما امتاز به من فضل . ثم أنزلوه هو ورجال حاشيته في الدار التي أعدت لضيافتهم .

وقد تقابل الامبراطور يوستينيان مع الأنبا ثيئودوسيوس ست مرات أبدى الامبراطور خلالها كل كرم ولطف . على أنه - في ختام هذه المقابلات الست - عرض نفس العروض التي كان قد بعث بها إلى البابا الاسكندري مع مندوبيه . فلم يسمع من فم رجل الله غير قوله : « لا حياة ولا موت ، ولا سلطان ، ولا عرى ولا جوع ، ولا سيف ولا نار - ولا جميع هذه القوى مجتمعة بقادرة على أن تفصلني عن المسيح ملكي وإلهي . ولن أتنازل عن نقطة واحدة ولا حرف واحد مما تسلمته من آبائي معلمي الكنيسة الملهمين الذين ائتمنت على تعاليمهم لأوصلها إلى رعية المسيح ابتداء من اليوم الذي بشر مصر فيه مرقس الانجيلي بكلمة الله وانتهاء إلى اليوم الذي رسمني فيه أبي تيموثيئوس شماساً على كنيسة الاسكندرية حتى انتخبني الاكليروس والشعب لاعتلاء الكرسي المرقسي » .

١٩٥- ولما لم يستطع الامبراطور يوستينيان أن يزحزح البابا ثيئودوسيوس قيد أنملة عن عقيدته حكم بنفيه عن بلاده وذلك بأن سجنه في القسطنطينية . ثم توهم أن في مقدوره أن يسترضي المصريين باقامة دخيلاً اسمه بولس التنيسي أسقفًا عليهم بدلاً من باباهم الشرعي الذي

انتخبوه برضاهم . وقد تمت رسامة هذا الدخيل فى القسطنطينية ثم أرسله الامبراطور إلى الاسكندرية فى حراسة كتيبة من الجيش .

١٩٦- على أن هذا الحكم التعسفى - بدلاً من أن يزحزح المصريين عن موقفهم - زادهم استمساكاً به . ولم يكفهم أن يقاطعوا الدخيل فى صمت بل ثاروا فى حدة ، ودوت هتافاتهم فى الشوارع والطرقات وهم يقولون «ليسقط الخائن ! ليسقط يهوذا الدخيل !» ، ولكن هذا السخط العلنى لم يحرك للدخيل ساكناً ، فظل فى الاسكندرية سنة كاملة لم يلق فى خلالها إلا المقاطعة التامة. لأن المصريين أعرضوا عنه وامتنعوا من الصلاة فى الكنائس التى تحت حيازته . ولم يجد من يناصره غير الوالى وجنده من حزب الامبراطور . وفى آخر هذه السنة ضاق بولس التنيسى ذرعاً بهذا الشعب المصرى ذى العصبية العنيفة والقومية العزيزة فأرسل خطاباً إلى الامبراطور يستنجد به ويقول له أن المصريين يفرون منه كما لو كان أجرباً . وقد ختم هذا الدخيل خطابه بأن أهاب بالامبراطور أن ينقذه مما هو فيه من مأزق ويجد له وسيلة يخضع بها المصريين العنيدين لسلطانه .

١٩٧- فلما قرأ الامبراطور يوستينيان خطاب صنيعته بولس التنيسى ثارت ثائرته وتضاعف غضبه على المصريين ، وتساءل كيف يجرؤون على الاستمرار فى عصيانه . ودفعه غضبه إلى أن يغلق جميع الكنائس التى لم يتمكن الدخيل من الاستيلاء عليها عقاباً للمصريين على تمردهم العلنى . وعند ذاك امتلأت القلوب حسرة إذ قد وجد المصريون أنهم لن يستطيعوا الاستمتاع بشعائرهم الدينية التى يحبونها ما لم يذهبوا إلى كنيسة تحت سيطرة بولس التنيسى ، ولكنهم رغم حسرتهم ورغم ميلهم الطبيعى إلى الروحيات وتعلقهم بشعائرهم الدينية لم يخضعوا ولم يلينوا وأصروا على عدم الصلاة مع الدخيل مع أنهم - بتصرفهم هذا - حرموا من التناول من الأسرار الكنسية وعن صبغ أطفالهم بالصبغة المقدسة طيلة تلك السنة المشئومة .

١٩٨- وكان الشعاع الوحيد الذى أنار ظلمتهم الحالكة هو شعورهم بالرضى الداخلى الناتج عن الوفاء والاخلاص . وقد زادت هذا الشعاع سطوعاً

الخطابات التى كانت ترد عليهم بلا انقطاع من باباهم السجين فى القسطنطينية. لأن هذا الراعى الصالح كان يرقب آلام شعبه فيبتهل إلى الله تعالى أن يزيده ثباتاً، ويقرن ابتهالاته برسائله المعزية للنفوس المشددة للعزائم.

١٩٩- وبقدر ما كانت الشدائد تتفاقم وتنصب على رؤوس المصريين، كانوا يزدادون تمسكًا بعقيدتهم التى تسلموها مختومة بدم الشهداء. ولما أدلهمت الحوادث عقد قسوس الاسكندرية وأراخنة الشعب اجتماعًا لم يرأسه أسقف، لأن جميع الأساقفة الأرثوذكسيين كانوا هم أيضًا منفيين بأمر الامبراطور يوستينيان. وفى هذا الاجتماع قرر الكهنة مع الشعب أن يبنوا كنيسة باسم «الأنجيليون» يقيمون فيها شعائرهم الدينية بمعزل عن الأسقف الدخيل، ويجدون فيها الملجأ الأمين وقت الضيق. ولقد نفذوا قرارهم بالفعل فبنوا كنيسة فى مكان معروف باسم مكان الأعمدة غربى المدينة. وكأنما نفخ فيهم نجاحهم فى بناء هذه الكنيسة غيرة فوق غيرة فبنوا كنيسة ثانية شرقى المدرسة الخاصة بالتمثيل. وقد أطلقوا على الكنيسة الثانية اسم الشهيدين قزمان ودميان. وحين تعالت قباب الكنيستين شامخة نحو السماء بلغ الامبراطور خبر بنائهما فرأى أن يعاقبهم أشد العقاب. ومن ثم أصدر أمره بوجوب الاستيلاء على جميع كنائس المصريين وتسليمها لمناصرى المجمع الخلقيدونى الذين لهم وحدهم حق اقامة الشعائر الدينية.

٢٠٠- ولما وقف البابا ثيئودوسيوس على كل ما جرى حزن حزنًا شديداً فضاعف صلواته وأصوامه خشية أن يقع الاسكندريون فريسة للسلطان فينسوا الايمان الذى استشهد آباؤهم فى سبيله. وكانت الصلاة التى لا يفتأ يرددها هى قوله: «يا سيدى يسوع المسيح - لقد اشتريت هذا الشعب بدمك الزكى الكريم، وأنت وعدت بأن تكون معنا إلى الانقضاء، فحل فى وسط شعبك ولتكن ارادتك فعالة فى كنيستك. آمين». وظل مداومًا على الصلاة لكى يشدد الله القلوب ويملأها جرأة لتثبت إلى النهاية، كما ظل مداوماً على كتابة الرسائل لهذا الشعب الذى ائتمنه الله تعالى رعايته. فتحققت فى البابا

ثيئودوسيوس صفات الرعاية الصالحة إذ لم ينس أنه مسئول عن هذه الرعية . فلما وجد أن صاحب السلطة الزمنية وقف حائلاً بينه وبين رعيته سلم هذه الرعية لراعى الرعاة الذى لا يتطاول إليه سلطان سائلاً إياه أن يحفظها كحدقة العين حسب وعده الصادق . وفى الوقت عينه شددت رسائله عزائمهم . وبازاء هذه الرعاية الساهرة من خلف قضبان السجن أحس المصريون بالطمأنينة النفسية فازدادوا جرأة وثباتاً (١).

٢٠١- ولقد دامت باباوية الأنبا ثيئودوسيوس اثنتين وثلاثين سنة ، قضى ثمانى وعشرين منها فى النفى . ومع طول هذه المدة ، ومع حنينه إلى شعبه وإلى وطنه الحبيب ، فإنه ظل وافياً لعقيدته الأرثوذكسية التى تسلمها من أسلافه الأماجد . فكان ثباته هذا صورة رائعة لبسالة المصريين الذين عاشوا بالعقيدة وتحملوا الآلام والضيقات فى سبيلها واستشهدوا ذوداً عنها. وبهذا الثبات المصرى العجيب كان قدوة لشعبه الذى سار خلفه واعتز برياسته وظل يدين له بالولاء . فثابر على مقاطعة الأسقف الدخيل المفروض عليه من القسطنطينية . ورضى أن يظل محروماً من شعائره الدينية التى يحبها دون أن يتنازل عن عقيدته وهكذا قدم الأنبا ثيئودوسيوس وشعبه المثل الحى الرائع للوفاء وللجرأة

---

(١) فى مساء الثلاثاء ٢٠ يناير سنة ١٩٥٩ (١٢ طوبة سنة ١٦٧٥ش) شرف معهد الدراسات القبطية (بالأنبا رويس بالقاهرة) حضرة الحبر الجليل قداسة مارأغناطيوس يعقوب الثالث بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس بصحبة الأسقفان الكريمان مارجرجس مطران حلب ومارملاتيوس مطران حمص وحماة . وقد ألقى غبطة البطريرك خطاباً ضافياً عن صلات المودة التى ربطت بين كنيستى أنطاكية والاسكندرية . ومما ذكره فى هذا الخطاب الجامع أنه حين كان الأنبا ثيئودوسيوس الاسكندرى سجيناً فى القسطنطينية مع عدد غير قليل من الأساقفة الأرثوذكس ، هال الراهب الغيور يعقوب البرادعى أن يجد الأسقفيات شاغرة لعدم وجود من يرسم الأساقفة إذا ما خلا كرسى بنياحة صاحبه لأن البطاركة الأرثوذكسيين كانوا جميعًا مسجونين بحكم الامبراطور . فاستعان هذا الراهب الغيور بالامبراطورة ثيئودورا التى كانت موالية للايمان الأرثوذكسى لتقنع زوجها الامبراطور يوستينيان بأن يأذن للبابا ثيئودوسيوس برسامة بعض الرهبان أساقفة . فنجحت شفاعة الامبراطورة ، وقام هذا البابا الأمين برسامة عدد من الأحبار بينهم بولس الثانى بطريرك أنطاكية الذى كان مصرى الأصل ، ومنهم يعقوب البرادعى نفسه الذى رسم مطراناً على حلب .

فى سبيل الحق . ولقد بلغت محبة المصريين لباباهم واعتزازهم به مبلغاً جعل خصومهم يصفونهم بالثيئودوسيين .

٢٠٢- ولقد انتقل البابا ثيئودوسيوس إلى محفل القديسين المنتصرين سنة ٥٥٩م ش . دون أن يمتع ناظريه برؤية مصر الحبيبة ، ولكن السلام الداخلى الناتج عن رضى الضمير كان خير ثواب له عن هذا العناء .

« ونحن معشر الأرثوذكسيين المصريين الذين أطلق عليهم اسم «ثيئودوسيين» نضرع إلى الثالوث الأقدس أن يلهمنا من الروحيات ما يجعلنا أهلاً للتمسك بعقيدةٍ ذاق فيها هذا البابا العظيم من مرارة النفى ما لم يذقه كثيرون من أساقفة الكنيسة ، كما يجعلنا أهلاً للاعتراف بالايمان الذى اعترف به أمام السلاطين والملوك فى وقت سادته الاضطرابات والقلاقل -فلا نحيد قيد أنملة عن ذلك الطريق القويم الذى رسمه لنا ، لننال ما ناله من نصيب فى ملكوت السماوات بالنعمة والرحمة والمحبة التى لمخلصنا الصالح يسوع المسيح فادينا الحبيب - له المجد مع أبيه الصالح والروح القدس المحى فى كنيسته من الآن وإلى أبد الدهور - آمين » (١) .



٢٠٣- ولقد وجد الأنبا ثيئودوسيوس فى أساقفته مساندة قوية إذ كانوا يدركون معه أنهم رعاة مؤتمنون على شعب الله فلم يكن البابا الاسكندرى وحيداً فى جهاده بل كان أشبه بقمة الهرم الشامخة الثابتة فى مكانها لأنها ترتكن على البناء الضخم المتراص تحتها . فكان الشعب المصرى وأساقفته هذا الهرم الراسخ لقمته التى هى البابا المرقسى . ومن أقوى دعامات هذا الهرم الروحى الأنبا قزما أسقف أنتينوبوليس (٢) الذى ذاق مرارة النفى مع باباه بأمر الامبراطور يوستينيان . ذلك أن غضب هذا الامبراطور كان شبيهاً بالعاصفة

---

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين (طبعة ايفيتس) جـ٢ ص٤٦٨ - ٤٦٩ .

(٢) مدينة بناها الامبراطور هادريان ، تقع على بعد ثلاثمائة وخمسون كيلومتراً جنوبى القاهرة (فى منطقة ملوى الآن) .

الهوجاء التى تكتسح فى طريقها كل من لا ينحنى أمامها . على أن الأنبا قزما لم يذق مرارة النفى غير سنوات ثلاث أصدر الامبراطور بعدها العفو عنه -ولو أن هذا العفو لم يشمل الأنبا ثيئودوسيوس إذ توهم يوستينيان أن الاستمرار فى حبسه قد يضعف من مقاومته فى النهاية . فاحتفظ به وأفرج عن عدد من أساقفته . وسارع الأنبا قزما إلى مصر وطنه الحبيب . ولما وصله ظل فى الاسكندرية شهراً كاملاً إذ تجمهر حوله أهلوها يستفسرون عن باباهم وعن السبب فى عدم عودته إليهم . فشدد هذا الأسقف قلوبهم بأن وصف لهم بالتفصيل ما جرى فى المقابلات بين الأنبا ثيئودوسيوس وبين الامبراطور يوستينيان ، كما وصف لهم بسالة البابا الاسكندرى فى تحمل السجن والبعد عن مصره الحبيبة وشعبه الوفى . وقد تعزت القلوب بهذا الوصف ولو أن الجميع تمنّوا على الله أن يأتى اليوم الذى يرون فيه وجه باباهم الجليل فى عاصمته بينهم . وبعد أن قضى الأنبا قزما شهراً فى عاصمة السدة المرقسية عاد إلى أنتينوبوليس عاصمة كرسيه الخاص ، فوصلها فى الموعد المحدد للاحتفاء بعيد الشهيد كلوديوس (١) وتزاحم الناس على الكنيسة فى العيد فى تلك السنة للاستشفاع بالشهيد والاستفسار عن الأنبا ثيئودوسيوس . فكان فرحهم يومذاك مزدوجاً : الفرح بذكرى كلوديوس الذى منحه الله تعالى نعمة أهّلته لأن ينال اكليل الشهادة والفرح بلقاء أسقفه بعد غيبة طويلة ، وتنسم عبير البابا المنفى خلال كلمات المحبة الدافقة من فم الأنبا قزما . بركة الجميع تحل علينا وتشددنا لنكون جديرين بهم إلى النفس الأخير - آمين (٢) .



(١) واحد من آلاف الشهداء الذين سقطوا فى الاضطهاد العاشر ضحية لطغيان الامبراطور ديوقلديانوس .

(٢) راجع كتاب تاريخ القديس الأنبا يوحنس القصير للقمص ميصائيل بحرص ١٠١ .

٢٠٤- قزما التاجر الرحالة الاسكندرى

٢٠٤- على أنه رغم الأهوال التى لاقاها المصريون ظهر من بينهم رجال تركوا لنا آثاراً لها قيمتها . ومن هؤلاء الرجال قزما التاجر الاسكندرى الذى عاش فى منتصف القرن السادس . وقد جاب هذا التاجر - فى أيام شبابه - البحر الأحمر والمحيط الهادى ، ثم زار بلاد الحبشة ، كما يبدو أنه وصل إلى الخليج الفارسى والهند الغربية وسيلان . وبعد هذه الرحلات الطويلة ترهب حوالى سنة ٥٤٨م فى صحراء سيناء حيث كتب مؤلفاً بعنوان « الطبوغرافية المسيحية » . وكان هدفه الأول لهذا الكتاب هو أن يبين خطأ النظرية الوثنية القائلة بأن الأرض مستديرة وقد بيّن أن الأرض مستطيلة تغطيها زرقة الجلد وتقع السماء من فوقهما . أما الجزء الآهل بالسكان فيتوسط المستطيل الأرضى وتحيط به البحار . وتقوم الجنّة التى عاش فيها آدم فى آخر هذه البحار . وتدور الشمس حول جبل له قمة رفيعة : فتدور حول قمته صيفاً وحول سفحه شتاء . وهذا ما يبرر طول النهار وقصره فى مختلف الفصول .

وتحوى « الطبوغرافية المسيحية » بعض المعلومات العجيبة : أخصها وصف عرش من الرخام شاهده فى نواحى « زولا » بالحبشة . ويحمل هذا العرش كتابة منقوشة عليه تروى أعمال البطولة والانتصارات الباهرة التى أحرزها بطليموس ايفيرجيتيس وملك من ملوك أكسوم . كذلك تحوى خرائط يرجح أنها أقدم خرائط مسيحية لاتزال باقية للآن . ويستخلص من بعض اشارات وردت فى « الطبوغرافية المسيحية » أن قزما كتب مؤلفاً جغرافياً أكبر حجماً منها ، ولكن لم يعثر أحد عليه للآن ، تحدث فيه عن حركات النجوم وضمنه تعليقات عن المزامير ونشيد الأنشاد (١) .



(١) دائرة المعارف البريطانية - الطبعة الرابعة عشرة جـ٦ ص٤٨٤ .

جـ- الأنبا بطرس الرابع

(٢٠٥) الاضطراب فى الاسكندرية .
(٢٠٦) الامبراطور يفرض دخيلاً ثانياً.
(٢٠٧) الخسارة الفادحة التى ألحقها يوستينيان بالتراث الروحى .
(٢٠٨) يوستين الثانى يتبع خطة البطش بالمصريين .
(٢٠٩) خطة أبوليناريوس الدخيل .
(٢١٠) والى الاسكندرية الجديد يهادن المصريين .
(٢١١) انتخاب الأنبا بطرس الرابع وتضاعف بطش الحكام .
(٢١٢) الولاء الاجماعى للبابا الشرعى من القبط والأحباش والنوبيين .
(٢١٣) التشابه بين الحبرين الاسكندرى والأنطاكى .
(٢١٤) الأنبا بطرس يقوم بزيارة راعوية .
(٢١٥) البابا الاسكندرى يعين الراهب دميانوس سكرتيراً له .
(٢١٦) انتقال الأنبا بطرس الرابع إلى عالم النور .

٢٠٥– وكانت الاسكندرية فى ذلك العهد تعج عجيج البحر الهائج كما عمّت القلاقل والاضطرابات وادى النيل بشاطئيه – فقد غادر البلاد السلام منذ اليوم الذى اضطر فيه البابا ثيئودوسيوس إلى أن يغادرها .

٢٠٦– ولقد سبق القول بأن الامبراطور يوستنيان كان قد فرض دخيلاً على الكرسى الاسكندرى اسمه بولس التنيسى بعد نفيه ثيئودوسيوس البابا الشرعى الذى ارتضاه الشعب المصرى . ولقد عدّ المصريون هذا الدخيل معتدياً على حقوقهم الروحية باستناده إلى مناصرة الامبراطور البيزنطى فقاوموه مقاومة عنيفة . ومن المؤلم أن الامبراطور لم يتعظ بالمقاومة الشعبية المصرية ، ولم يهدف إلا إلى العمل على اخضاع هذا الشعب الحريص على تراثه الروحى فأمعن فى اعتدائه على حقوق المصريين ، إذ لم تعاجل المدية بولس التنيسى حتى أمر الامبراطور برسامة أبوليناريوس فى القسطنطينية أيضاً ليجلسه على السدة المرقسية . وقد ذكر المؤرخون أن هذا الدخيل وصل إلى الاسكندرية متخفياً فى زى القواد الحربيين ، ثم أصدر أمره بأن يجتمع الناس

فى الكنيسة . فلما تجمعوا خلع ملابس الجندية وظهر أمامهم بملابس البطريرك ثم بدأ يقرأ عليهم المرسوم الامبراطورى بتنصيبه وحين وصل إلى قراءة المرسوم الخلقيدونى بدا السخط على الوجوه كما علت الاحتجاجات . وعندها أمر جنوده باعمال السيوف فى رقابهم فاستشهد عدد كبير منهم حتى لقد أطلق الناس على ذلك اليوم اسم « المذبحة » (١) – وكان هذا اليوم فاتحة لسلسلة من التقتيل والتعسف . ورغم ذلك فقد أصرّ المصريون على مقاطعة أبوليناريوس الدخيل كما قاطعوا سلفه من قبل .

٢٠٧– ولم يكد أبوليناريوس يصل إلى الاسكندرية حتى كان الامبراطور يوستينيان قد فارق الحياة . ويؤكد بعض المؤرخين حسن نيّته ، إلا أن الجميع متفقون على أن تدخله فى الأمور اللاهوتية قد جرّ على الكنيسة بلايا جمة ، ومن بينهم الواثقون من حسن نيته . ذلك لأن الأخطاء التى تتسبب عن الجهل لا تصلحها حسن النية ومما لا ريب فيه أيضًا أن الامبراطور لو كان خالص النية فى محاولته الوقوف على الحقيقة لما صمّ أذنيه عن كل مشورة ماعدا مشورة أخصائه المقربين إليه ولما أمعن فى الاستبداد بالمتمسكين بالايمان الأرثوذكسى . ولا يمكن لانسان أن يقدر مدى الخسائر التى نتجت عن الحكم الذى أصدره هذا الامبراطور ضد أوريجانوس إذ هى أفدح من أى تقدير لأنها لا تعوض . ذلك لأن بعض المتهورين المتزلفين للامبراطور قد أحرقوا عدداً عديداً من مؤلفات هذا العلامة المصرى الكبير كما أحرقوا عدداً كبيراً أيضاً من مؤلفات ديديموس الأعمى البصير لا لشئ . إلا لأنه كان تلميذاً مخلصاً معجباً الاعجاب كله بأوريجانوس . ولما كانت هذه المؤلفات مخطوطة كانت النسخ الموجودة منها ضئيلة العدد ، وكان فقدها ضياعًا إلى المنتهى . ومن هنا يتضح إلى حدٍ ما – مدى هذه الخسائر التى ألحقها الامبراطور يوستينيان بالتراث الروحى حتى لو اعتذر عنه أصحابه بحسن نية (٢) .

---

(١) كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا للدكتور زاهى رياض طبع فى القاهرة سنة ١٩٦٢ ص٥٦ .

(٢) راجع كتاب « ملخص لفكر أوريجانوس » (بالفرنسية) لأوجين دى فاى ص١٦٠ حيث يقول ما نصه : "Que dire de Justinien ? sans doute il fut grand captitaine, politique

٢٠٨- وقد خلف يوستينيان على العرش الامبراطور يوستين الثانى فسار على خطة سلفه بأن ساند أبوليناريوس الأسقف الدخيل . وقد نهج منهجهما جميع أباطرة القسطنطينية من بعدهما . وهكذا بذر الامبراطوران يوستيديان ويوستين الثانى بذور الشقاق بين كنيستى الاسكندرية والقسطنطينية ، كما زرعا القلق والاضطراب فى جزء هام من الامبراطورية الشرقية نتيجة لمسلكهما هذا. لأنه بينما أخذ يتعاقب عملاء الأباطرة المستعمرين على الكرسى الاسكندرى، ظل المصريون على ولائهم لباباواتهم الشرعيين الذين كانوا ينتخبونه من مواطنيهم وبمحض ارادتهم . وقد أصروا على الاحتفاظ باستقلالهم الكنسى بأن أخلصوا الولاء لباباواتهم ، ورفضوا رفضاً باتاً الاذعان لأى أسقف دخيل ، كما استمروا على حرمهم لمجمع خلقيدون وقراراته . وكان اصرارهم هذا صورة لقوميتهم العنيفة وتصميمهم على مقاومة الاستعمار الفكرى رغم بطش الحكام المدنيين بهم.

٢٠٩- وكان البابا ثيئودوسيوس - وسط كل هذه الرزايا - قد انتقل إلى الأخدار السماوية ، بعد أن قضى ثمانٍ وعشرين سنة يرسف فى القيود فى أحد سجون القسطنطينية . ومثل هذه المدة كانت تكفى لأن تدفع بالبعض إلى

= consommé, incomparable administrateur, promoteur du plus fameux des codes, mais quel despote ! Et c'est ce prince, qui avait la pretention d'être un théologien, qui s'arrogeait le droit de faire son procès à l'homme qui avait voué sa vie à la propagation du christianisme et qui avait confessé sa foi au milieu des tortures ... "

وترجمته كما يلى : « وماذا نقول فى يوستينيان ؟ ليس من شك فى أنه كان قائداً عظيماً وسياسياً محنكاً ومدبراً لا يبارى وصاحب مجموعة من أشهر المجموعات القانونية - ولكن ياله من طاغية ! وهذا الأمير الذى ادعى أنه لاهوتى هو الذى اغتصب الحق فى أن يقيم من نفسه خصماً لذلك الرجل (أوريجانوس) الذى كرس حياته لنشر المسيحية والذى اعترف بايمانه وهو يذوق صنوف التعذيب » .

والواقع أن غرور الامبراطور يوستينيان وتعسفه كان السبب فى ضياع العدد العديد مما كتبه أوريجانوس فلم تصلنا مؤلفاته إلا مترجمة . والترجمة لا تعطى صورة صحيحة للكاتب الأصلى إلا إذا قورنت بالأصل. وفى الترجمات لكتب أوريجانوس الكثير من الأخطاء، ولا يمكن لأحد أن يجزم إن كانت هذه الأخطاء ترجع إليه أو إلى الترجمة خصوصاً وأن خصومه سعوا جهدهم إلى تشويه سمعته وبالتالى إلى تشويه كتاباته ليتخذوها حجة ضده .

التسليم برأى الامبراطور رغبة فى الانطلاق من هذا السجن . ولكن البابا ثيئودوسيوس الذى كانت تجرى فى عروقه دماء الشهداء ، والذى رضع حب كنيسته المصرية مع اللبن ، لم يكن بالرجل الذى يفرّط فى ايمانه ، وبخاصة لأنه كان يعرف تمام المعرفة أن السجن ليس هو بالحجرة الضيقة التى حالت دون تجوله فى أرجاء وادى النيل ، ولكنه سجن الاستعباد الفكرى الذى يضطر صاحبه إلى أن يعيش ذليلاً لا يستطيع أن يرفع رأسه فى وجه انسان حتى وان استطاع التنقل فى بلاد الله تعالى بما فيها من سعة .

ولقد توهم أبوليناريس الدخيل أن نياحة هذا البابا الجليل ستضعف من مقاومة المصريين له وتجعلهم يرضخون لسلطانه . فدفعه هذا الوهم إلى انتهاج خطة غريبة ظنها كفيلة له بالنجاح . فلجأ أولاً إلى حاكم الاسكندرية واستصدر منه أمراً بنفى جميع الأساقفة الأرثوذكسيين ليخلو له الجو . ثم أقام حفلة عشاء كبرى دعا إليها قسوس المصريين وأراخنتهم عملاً بالمثل القائل : « أطعم الفم تستحى العين » . غير أن رجال القبط – الدينيين منهم والمدنيين – كانت تسيطر عليهم جميعاً عاطفة جامحة هى حبهم لبلادهم وكنيستهم ، فظلوا على ولائهم ، لم يزحزحهم عنه انتقال باباهم ولا نفى أساقفتهم ولا الوليمة الفاخرة التى تلذذوا بها .

٢١٠– وفى هذه الآونة العصيبة تدارك السيد المسيح كنيسة رسوله الحبيب بمراحمه ، وذلك أن الامبراطور استبدل والى الاسكندرية الموالى لأبوليناريوس بوالٍ جديد اسمه أريستوماخوس ، خطب ود المصريين ، وكان لهم فى شدتهم خير عزاء . فأوعز إلى المسئولين منهم بأن يقصدوا إلى أحد الأديرة المتاخمة للاسكندرية بدعوى اقامة الصلاة ، وهناك يقومون برسم من ينتخبونه للسدة المرقسية .

٢١١– ولقد فرح المصريون فرحًا عظيمًا بهذا الاقتراح إذ كان سيوفر عليهم ضريبة الدم التى كانوا سيدفعونها حتمًا لو أنهم انتخبوا راعيهم الأول رغم ارادة الحاكم المدنى . وتشاوروا معاً فى هذا الأمر الخطير ، وبحثوا عن ثلاثة أساقفة لم يضطرهم الولاة إلى مغادرة البلاد ، فعاشوا بعيدين عن

عواصمهم ولو أنهم داخل وطنهم المصرى . واتفق الكهنة والأراخنة مع هؤلاء الأساقفة الثلاثة على أن يسبقوهم إلى دير الزجاج -وهو أحد الأديرة العديدة التى كانت تزخر بهم منطقة الاسكندرية إذ ذاك . وبعد ذلك أخذت جموعهم تتوافد على الدير أفراداً وجماعات فى هدوء تام كى لا يشعر الأسقف الدخيل بتحركاتهم . ولما اكتمل جمعهم اتفقت كلمتهم على انتخاب راهب اسمه بطرس من دير الزجاج الذى اجتمعوا فيه . فوضع الأساقفة اليد عليه باسم بطرس الرابع ، ومن ثم أصبح الخليفة الرابع والثلاثين للقديس مرقس سنة ٥٥٩م (سنة ٢٧٥ش) . وامتلأ الكل غبطة لهذه الرسامة لأن نعمة الآب السماوى كانت تسطع على وجه الأنبا بطرس الرابع وتنعكس عليهم .

وانتشر نبأ رسامة الأنبا بطرس فى طول البلاد وعرضها ، فأدرك أبوليناريوس أن المصريين مصممون على ممارسة حقهم الشرعى فى انتخاب من يريدونه ليجلس على السدة المرقسية . فجن جنونه واستثار الحكام المستعمرين ومشايعيهم من العملاء ليحولوا دون دخول البابا الاسكندرى عاصمة رياسته . وقد شدد الامبراطور الخناق على المصريين إذ ذاك بأن استبد بالأساقفة المصريين وبأن اضطر الأنبا بطرس الرابع أن يعيش شريداً يتنقل من دير إلى دير ، ولا يستطيع أن يدخل الاسكندرية . ولم يكتف يوستين الثانى بهذا التعسف بل زاد الطين بلة بالاستيلاء على القمح الذى تعب المصريون فى زرعه وحصده ليقتاتوا به هم وأولادهم ، لتصديره إلى رومية التى كانت محاصرة بجحافل اللومبارديين (١) إذ ذاك . ويبدو أن كل هذه الوسائل الاستبدادية لم تشف غليل أبوليناريوس فكتب رسالة إلى الامبراطور يشتكى فيها من جرأة المصريِين . على أن المنية عاجلت هذا الأسقف الدخيل فمات قبل أن تصل رسالته إلى الامبراطور . وبموته خفّت حدة التوتر وبدأ المصريون يتنفسون الصعداء إذ قد داعبهم الأمل فى أن تستقر الأمور . ولكن خاب فألهم لأن الامبراطور أمر بنقل الوالى المهادن لهم وتعيين والٍ قاس

(١) من القبائل الشمالية التى اجتاحت أوروبا ونجحت فى النهاية فى قهر الامبراطورية الرومانية الغربية .

محله وقف للبابا المرقسى بالمرصاد فلم يمكنه من دخول عاصمته . على أن اضطراره إلى البقاء بعيداً عن مقر رياسته لم يؤلمه إذ كان قلبه مفعماً غبطة وهدوءاً لأنه كان فى صفاء مع الله ، وكان فى امكانه أن يتنقل بين الأديرة ويستمتع بصحبة رهبانها الذين كانوا درعاً قوياً له ، فلم يساندوه فحسب بل أوجدوا له أيضاً الفرصة للخلوة والتأمل . فاستطاع أن يكتب الكثير من الرسائل التى كان يبعث بها إلى شعبه وإلى اخوته الأساقفة الشرقيين الذين كانت روابط المحبة متوثقة بينه وبينهم رغم ما كان ينفثه أباطرة القسطنطينية من سموم الشقاق .

٢١٢- وكانت ضواحى الاسكندرية فى ذلك العهد تزخر بالأديرة التى بلغ عددها الستمائة وكان رهبان هذه الأديرة مع جميع الرهبان المصريين والشعب المصرى وشعبى الحبشة والنوبة موالين فى اجماع تام للبابا بطرس الرابع يتلقون رسائله بكل فرح ، ويسيرون وفق ارشاداته رغم الأوامر المشددة التى كان يصدرها عملاء القسطنطينية ضد المصريين (١) .

٢١٣- وكان السدة الأنطاكية شاغرة منذ أن تنيح مارساويرس (منفياً فى بلادنا) . ولما رأى الأنطاكيون أن المصريين تجمعوا وانتخبوا لرعايتهم البابا الذى يريدونه ، شجعهم هذا على أن يتجمعوا بدورهم لكى يختاروا راعيهم الأول . وقد ألهمتهم النعمة الإلهية اختيار راهب ناسك مملوء حكمة اسمه ثيئوفانيوس . وما أن سمع الأنبا بطرس الرابع برسامة هذا الحبر الجليل حتى سارع إلى كتابة رسالة الشركة وبعث بها إليه فتلقاها مارثيئوفانيوس بسرور وانشراح إذ كان الحبران متمسكين بالعقيدة الأرثوذكسية مضطهدين من أجلها. فكما أن الأنبا بطرس الرابع اضطر إلى التنقل من دير إلى دير دون أن ينجح فى دخول عاصمته ، كذلك اضطر مارثيئوفانيوس إلى العيش فى دير خارج مدينة أنطاكية . فكانت الرسائل المتبادلة بين الأسقفين المطاردين من الامبراطور يوستين الثانى مصدر تعزية لهما ولشعبيهما (٢) .

---

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٤ ص١٠٣٣ – ١٠٣٤ .

(٢) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٤ ص١٠٣٥.

٢١٤- ولما مات أبوليناريوس الدخيل استطاع الأنبا بطرس الرابع أن يخرج من عزلته : ومن ثم قام برحلة راعوية زار خلالها المدن والقرى المتناثرة فى أرجاء وادينا الرحيب . فتعزت قلوب المؤمنين برؤيته حراً طليقاً إذ أيقن الجميع أن من يلقى رجاءه على الآب السماوى لا يخيب رغم الظواهر الخادعة ورغم الزمن .

ومن المراحم الإلهية أن كانت من بين ثمار هذه الزيارة الراعوية رسامة أسقف على السدة الشاغرة لجزيرة فيلا الذى اشترك هو أيضاً فى تقوية السور الكبير المقام لحماية الجزيرة تعاوناً منه مع والى المنطقة (١) .

٢١٥- ولم يكن الأنبا بطرس من المتبحرين فى العلوم الدينية والمدنية فحسب بل كان أيضاً ممن يعرفون للعلماء أقدرهم . وهذا التقدير للعلم دفعه إلى أن يبحث - أثناء تجواله بين شعبه - على راهب متبحر فى العلوم ليتخذه سكرتيراً خاصاً وتعاون معه الشعب . فأشار عليه بعضهم بأن يتخذ لهذا المنصب شماساً مترهباً بدير جبل طابور (٢) يدعى دميانوس . وكان دميانوس هذا من أرباب الأقلام كما كان مصوراً ماهراً (٣) . فذهب الأنبا بطرس الرابع إلى هذا الدير وطلب إلى رئيسه أن يسمح للناسك دميانوس بأن يعيش معه فى الاسكندرية ويكون سكرتيره ، فيحمل معه أعباء الخدمة الكنسية : الروحية منها والمادية . ومع أن دميانوس كان شغوفاً بحياة العزلة يؤثر البقاء فى الدير على العيش فى أى مكان سواه ، إلا أنه لم يستطع أن يرفض طلب البابا الاسكندرى الجليل إذ أدرك أن الضرورة موضوعة عليه لأن يخدمه بكل ولاء وتفانٍ ، وبخاصة لأن الأنبا بطرس الرابع كان يتمتع بمكانة خاصة فى القلوب لَما قاساه من صنوف الاضطهاد من الأباطرة والدخلاء . فذهب معه إلى المدينة

---

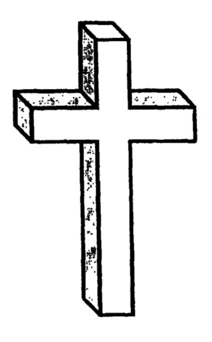
(١) مقال لهنرى مونييه ، المسيحية فى فيلا ، (بالفرنسية) نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية العدد الرابع (سنة ١٩٣٨) ص٤٧ .

(٢) كان هذا الدير يقع غربى الاسكندرية ولا أثر له الآن .

(٣) دليل المتحف القبطى لمرقس سميكه جـ٢ ص١٦٥ .

العظمى حيث انشغل فى تعليم الشعب وتثبيته على الايمان الذى تسلمه من آبائه .

٢١٦- ومما يثير الأسى أن هذا البابا المتفانى فى محبة شعبه ، والذى امتاز بالتقوى والعلم معًا لم يعش طويلاً ، فلم تدم باباويته غير سنتين اثنتين ضم بعدهما إلى بيعة الأبكار . فامتلأت القلوب حزنًا على فقده ، ولم يخفف من حدة هذا الحزن غير شعورهم بأنه سيرفل فى النور الأعظم .



فترة من الـراحة

(٢١٧) مميزات الراهب دميانوس .
(٢١٨) تجديد عمارة الأديرة .
(٢١٩) انتخاب الأنبا دميانوس للسدة المرقسية .
(٢٢٠) اهتمامه باكتساب مشايعى ميلتيوس الليكوبولى .
(٢٢١) بطرس الأنطاكى يخرج على الايمان الأرثوذكسى .
(٢٢٢) محاولة الأنبا دميانوس اقناعه بالعودة إلى الحق .
(٢٢٣) الجـهـاد الروحـى للبـابـا الاسكندرى وأساقفته .
(٢٢٤) انتـقـال الأنبـا دمـيانـوس إلى بيعة الأبكار .

٢١٧- كان دميانوس - سكرتير البابا الراحل - متضلعاً فى العلوم الدينية والمدنية تبعاً للتقاليد التى سارت عليها كنيسة مصر (١) منذ أن أنشأ لها مرقس الرسول مدرسة الاسكندرية . وكان قد انتظم فى سلك الرهبنة منذ صباه ، فعاش فى دير الأنبا يؤنس القصير فى برية شيهيت حيث جاهد جهاد الأبطال لبلوغ الكمال المسيحى فرسم شماساً . وكان أبوه الروحى فى هذا الدير من الرهبان المعروفين بالتقوى والصلاح . فتشبعت نفس دميانوس بتعاليم أبيه الروحى ومن ثم اندفع إلى الكد ليل نهار لاكتساب المعرفة حتى أصبح مقتدراً بالقول والفعل متشحاً بالنعمة الإلهية .

٢١٨- ثـم ترك ديـر يؤنس القصير كما ترك برية شيهيت وقصد إلى ديـر معروف باسم « بيهانوثون » فى « جبل طابور » . ومن مراحم الله أن أديـرة شيهيت كانت - فى ذلك العصر - نامية مزدهرة كنبات الحق إذ كان سلام السماء مستقراً على الأرض وقتذاك . ولم يشعر الرهبان الساكنون فيها بأى احتياج لأن المؤمنين كانوا يتبارون فى تقديم عطاياهم للأديـرة . فكانت فترة هدوء تشاغل فيها الرهبان بترميم أديرتهم وتجديد

---

(١) دراسة المسيحية فى مصر فى القرن السابع (بالفرنسية) لآميلينو ص٢٨ حيث يقول ما نصه
" Ce patriarche (Damianos, 35) , était un homme fort versé dans les sciences : ecclésiastiques à la manière des Coptes . "

عمارتها (١) . بعد أن كانت قبائل البربر قد خربت منها الشئ الكثير (٢) .

وكان دميانوس قد عاش فى شيهيت أولاً ثم فى دير جبل طابور ، إلا أن الأنبا بطرس الرابع قد اختاره ليكون سكرتيراً له ويشاطره أعباء الرعاية فترك حياة العزلة ليعيش فى الاسكندرية مع باباه .

٢١٩- فلما خلت السدة المرقسية بنياحة الأنبا بطرس الرابع أجمع الاكليروس والشعب على انتخاب دميانوس خليفة له . ولكن العقبات التى كان يقيمها القابضون على الحكم إذ ذاك حالت دون رسامته فلم يتمكن الأساقفة من وضع اليد عليه إلا بعد مضى سنتين كاملتين على انتقال سلفه العظيم ولم يعتل الأنبا دميانوس الكرسى المرقسى إلا سنة ٥٦٣م. ش (سنة ٢٧٩ش) وبذلك لم يتسلم مقاليد الرياسة فعلاً إلا بعد انقضاء أربع سنين على نياحة الأنبا بطرس الرابع .

٢٢٠- وبعد رسامته بقليل من الزمن اتصل به أن بعضاً من المشايعين للأسقف ميلتيوس الليكوبولى (٣) وقد تسللوا إلى أديرة شيهيت . فحزن البابا دميانوس لذلك حزناً شديداً لأن أتباع ميلتيوس هذا لم يكتفوا بالانشقاق عن الكنيسة ، بل أضافوا إلى انشقاقهم بدعة تناول الدم الكريم غير مرة فى ساعات متقطعة من الليل . فأمر بطردهم من الأديرة حتى لا ينفثوا سمومهم بين السذج من الرهبان .

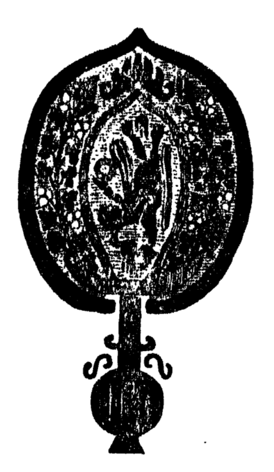
ولكن طرده إياهم كان عملاً سلبياً فرأى أن يقرنه بعمل ايجابى . لذلك كتب رسالة عنوانها « اللوغس » (أى الكلمة الإلهى) تتضمن التعاليم اللاهوتية فى الحكمة الالهية ، وأردف هذه الرسالة بأخرى أطلق عليها اسم

---

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية (طبعة ايفيتس) للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين ص٤٧٣ .

(٢) كانت هذه القبائل قد خربت الأديرة القائمة فى الصحراء الغربية ثلاث مرات حتى ذلك الوقت. راجع كتاب « أديرة وادى النطرون » (بالانجليزية) لافلين وايت جـ٢ ص١٦٢ جـ٢ ص٧ ، ٣١ ، ٢٢٨ .

(٣) كان أسقف أسيوط فى عهد الأنبا بطرس خاتمة الشهداء – راجع ص١١٧ – ١٢٧ من الجزء الأول لهذا الكتاب .



قطعة من النسيج تصور انطلاق الروح نحو السماء

« الميستاجوجيا » (أى الأسرار الإلهية) أوضح فيها التعاليم الأرثوذكسية الصميمة الخاصة بأسرار الكنيسة السبعة . وهاتان الرسالتان لم تكونا غير جزء ضئيل مما كتبه هذا البابا الجليل لأنه كتب رسائل فصحية عديدة ، ورسائل تعليمية توضح العقيدة ، وميامر تفسر التعاليم الكنسية المجيدة . وكان البابا الجليل يرمى من وراء جميع مؤلفاته إلى توضيح العقائد المسيحية وترسيخها فى أذهان أبناء رعيته (١) .

وعلى أثر انتشار رسالتى « اللوغس » و « الميستاجوجيا » بين المؤمنين قصد أتباع ميلتيوس الليكوبولى إلى البابا الاسكندرى وبفضل ما أسبغه الله

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٤ ص١٠١١ – ١٠١٣ .

عليه من نعمة نجح في أن يقنعهم بما هم فيه من ضلال ويردهم إلى الايمان الأرثوذكسي . وكانت مناقشاته لهم في رقة وعذوبة وسعة صدر . وهكذا اكتسبهم إلى الحظيرة المقدسة التي كانوا قد أخرجوا أنفسهم منها .

٢٢١- وبعد أن مضت ثماني سنوات على اعتلاء البابا دميانوس السدة المرقسية ، انتقل ثيئوفانيوس أسقف أنطاكية إلى جوار ربه . فخلفه قس اسمه بطرس . وما أن اعتلى هذا الأسقف السدة الأنطاكية حتى بعث برسالة الشركة إلى البابا الاسكندري . ففرح الأنبا دميانوس حين وصلته هذه الرسالة ، وجمع أساقفته وقرأها عليهم . ولكن لم يكد ينتهي من قراءتها حتى تبدل فرحه إلى حزن لما تضمنته تلك الرسالة من ابتداع في عقيدة الثالوث الأقدس .

٢٢٢- وحين وقف البابا الاسكندري على ما في رسالة البطريرك الأنطاكي من ابتداع ، لم يقف عند حد الحزن ، بل بادر بكتابة رسالة حاول فيها - بما حباه الله من نعمة ووداعة - أن يستميل إليه ذلك البطريرك الأنطاكي خشية أن تنفصم عروة الصداقة والمودة بين الكنيستين الاسكندرية والأنطاكية . وكان بطرس الأنطاكي يرى وجوب التفرقة بين الأقانيم الثلاثة، فوضح البابا دميانوس تعاليم الآباء الخاصة بهذه العقيدة الخطيرة التي تتلخص في وجوب الاعتراف بالله الموحد الجوهر المثلث الأقانيم . ولقد أثبتت رسالة البابا الاسكندري بصورة قاطعة ما كان للمصريين من غيرة علمية كما دلت على أن القبط دأبوا على اختيار العلماء من رهبانهم ليجلسوا على السدة التي زانها أثناسيوس وكيرلس (١) .

على أن هذه الرسالة مع ما امتازت به من حكمة وسداد لم يكن لها أي أثر في نفس بطرس الأنطاكي الذي رفض الدواء المقدم له من البابا الاسكندري الرصين وأصر على التشبث ببدعته التي تفرق بين الثالوث غير المفترق .

---

(١) دراسة للمسيحية في مصر في القرن السابع (بالفرنسية) لآميلينوس ص٢٨ حيث يقول ما نصه : " ... Cette discussion ne servit qu' à montrer le zéle que l'on conservait encore dans l'Egypte, pour les sciences sacrées, et que sur le trône des Athanase et des Cyrille, on mettait encore de préférence les plus savants des moines "

وهكذا حل الجفاء محل الود بين المصريين والأنطاكيين طيلة العشرين عاماً التى قضاها هذا البطريرك المبتدع على الكرسى الأنطاكى .

٢٢٣ – ولقد دأب البابا دميانوس على كتابة الرسائل والميامر التى تهدف إلى اقرار الايمان الأرثوذكسى فى القلوب ووضح جميع رسائله بالآيات الكتابية المقدسة . وكانت رسائله تمتاز بسلاسة المنطق وبالغيرة المتقدة فاجتذبت عدداً وفيراً من المبتدعين إلى العقيدة الأرثوذكسية . ومن مراحم الله على كنيسته القبطية الوفية أن الأنبا دميانوس وجد فى أساقفته خير معوان له على ادحاض البدع وانارة السبيل أمام المتلهفين على معرفة الحق والعيش بمقتضاه .

ومن أبرز الأساقفة الذين امتازوا بالروحانية والعلم بيستثيئوس أسقف قفط ، ويؤنس أسقف البرلس وتلاميذه يوحنا وقسطنطين وكلستيوس . ومما يؤسف له أن غالبية هؤلاء الأساقفة لا يعرف التاريخ لهم تراجم للآن رغم أن مؤلفاتهم موجودة يعرفها الباحثون .

٢٢٤ – ولقد داوم الأنبا دميانوس على تعليم شعبه وتثبيته على الايمان الأرثوذكسى كما داوم على الأصوام والصلوات مدى حياته . وهذا الجهاد المقترن بالتقشف لم يكن ليؤثر فيه لولا ما صادفه من ضيق وتعب . فمرض بضعة أيام انتقل بعدها إلى المساكن النورانية . وكانت مدة رياسته للكنيسة ستاً وثلاثين سنة (١) .



(١) تاريخ الكنيسة لمنسى القمص ص٣٥٥ – ٣٥٦ .

صلة الكنيسة ببلاد النوبة

مقدمة – كانت النوبة على صلة وثيقة بمصر منذ العصور الفرعونية حتى لقد عثر الباحثون فيها على معابد فرعونية . ولقد تأثر النوبيون بإخوتهم المصريين إلى حد أنهم كانوا يكتبون لغتهم بالرموز الهيروغليفية ويتعبدون للآلهة المصرية وبخاصة لايزيس التى ظلت عبادتها مزدهرة إلى القرن السادس للميلاد .

ولقد هاجر إلى النوبة عدد كبير من القبط فيما بين القرن الثانى والقرن السادس للميلاد لشعورهم بأنهم أهل وجيرة وأن النيل يربط بينهم جميعاً فيجعل من مصر والنوبة بلداً واحداً . وكان لهذه الهجرة أثر مباشر إذ سرت آية المسيح فى النوبة .

ويظن البعض أن الملكة كنداكا التى ورد اسمها فى الاصحاح الثامن من سفر الأعمال كانت نوبية . ويرجع ذلك إلى أن النوبة كانت مقسمة إذ ذاك إلى ثلاث ممالك أقصاها جنوباً هى مملكة ماقرة وعاصمتها مرو . وورد فى تاريخها أن احدى ملكاتها كان اسمها كنداس . وهذا التشابه اللفظى حدا بهم إلى الظن بأنها هى الملكة التى نال خصيها المعمودية على يدى فيلبس (أحد السبعين تلميذاً) . ولكن كل هذه المؤثرات المختلفة لم تجعل للمسيحية كنيسة معترف بها ولا أسقف يتولاها أو كهنة يؤدون لها الخدمات والشعائر .

٢٢٥– وفى وسط الزعازع والأهواء التى عصفت أثناء القرن السادس

ومضت نعمة الله كالبرق الذى يشق الظلام إذ قد أوجد تعالى للكنيسة رجالاً ونساء يدركون مسئولياتهم ويؤدون واجباتهم . ومن بين الذين ملأ خوف الله قلوبهم الراهب يوليانوس الذى فضل أن يشغل نفسه فى توصيل رسالة المسيح إلى الذين لم يسمعوها بدلاً من أن يخوض فى الجدل السياسى والمناقشات العقيمة . وجال ببصره فوجد أن بلاد النوبة فى مسيس الحاجة إلى من يثبت أهلها على الايمان القويم .

وكان يوستينيان إذ ذاك ممسكاً بزمام الحكم . وقد دفعه استبداده إلى الزج بالأنبا ثيئودوسيوس البابا الاسكندرى فى أحد سجون القسطنطينية . ولكن الامبراطورة ثيئودورا كانت أرثوذكسية العقيدة وكثيراً ما تشفعت فى المتمسكين بهذه العقيدة لدى زوجها . ورغم تعسفه فإن يوستينيان كان يقبل شفاعتها (١) . ومن ثم استطاع البابا السجين بمعاونتها أن يبعث برسالة إلى أسقفى أسوان وفيلا يوصيهما فيها بالنوبيين .

٢٢٦- وفى الوقت عينه لم يرق للامبراطور أن يحمل آباء الكنيسة المصرية بشرى الخلاص إلى جيرانهم فى النوبة . فرأى - رغم قبوله شفاعة ثيئودورا - أن يرسل وفداً من عنده ليبشر النوبيين مناوءة منه لكنيسة الاسكندرية . وكان الراهب يوليانوس رائد الوفد القبطى موجوداً إذ ذاك فى النوبة واستطاع بنعمة الله أن ينشر الايمان .

وفى سنة ٥٤٢م غ وصل وفد الامبراطور إلى المملكة المتاخمة للحدود المصرية والتى كانت عاصمتها وقتذاك مدينة فرس . ولكن سيلكو ملكها رفض هذا الوفد الامبراطورى إذ كان قد اطمأن إلى وفد الكنيسة القبطية وارتاح إلى معاملته وتعاليمه . وكان لهذا التصرف الملكى أثر بعيد لأن الراهب يوليانوس قضى فى تلك المملكة ثمانى عشرة سنة نجح خلالها فى تأسيس

---

(١) قارن هذا بقول السيد المسيح : «فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحرى أبوكم الذى فى السماوات يهب خيرات للذين يسألونه» (متى ٧ : ١١) . أما الشفاعة فهى معمول بها منذ العهد القديم -راجع تكوين ١٨ :١٧- ٣٣، أرميا ٧ : ١٦ و١٤ : ١١ و١٥ : ١- وهذه أمثلة فقط وهناك آيات غيرها كثيرة فى العهدين القديم والجديد .

كنيسة منظمة لها رعاتها وخدامها العاملين فيها . ثم سلم الشعلة المقدسة إلى راهب آخر اسمه لونجينوس كرس حياته تكريساً تاماً لخدمة الشعب النوبى .

٢٢٧- وقد نهج الملك أربيثوم ابن الملك سيلكو منهج أبيه من طاعة للوفد الكنسى القبطى . وتحت تأثير لونجينوس أمر جلالته بتحويل المعابد إلى كنائس.

ثم سمع ملك علوه (المملكة الوسطى) بجهاد لونجينوس الروحى المستمر فبعث إليه برسالة سنة ٥٧٥ يدعوه أن يأتى إلى بلاده . فلبى الدعوة فوراً وذهب إلى منطقة سوبا . فلم يلبث أن اكتسب الملك إلى الايمان فامتدت المسيحية بجهوده حتى بلغت ضفاف النيل الأزرق . ولشدة فرح الأنبا ثيئودورس أسقف فيلا بأعماله تحدث عنها إلى الأنبا دميانوس الذى كان يجلس إذ ذاك على السدة المرقسية وفرح البابا بدوره فرحًا جعله يرسم لونجينوس أسقفاً على النوبة سنة ٥٨٠ .

٢٢٨- واستكمالاً لرسالتهم ترجم القبط الكتاب المقدس إلى اللغة النوبية مع أن النوبيين كانوا يجيدون قراءة اللغة المصرية . وأصبحت النوبة أسقفية تابعة للكرسى المرقسى ومع ذلك فقد سار القبط معهم على خطة احترام قوميتهم كما احترموا من قبل القوميات المختلفة فى كل المناسبات التى ربطت بينهم وبين الشعوب الأخرى (١) .

٢٢٩- والكنائس النوبية صغيرة الحجم ولا يستثنى من ذلك إلا الكنائس التى كانت أصلاً معابد فرعونية ولايزال هناك عدد من الكنائس تزينها الأعمدة التى تعلوها الزخارف شأنها فى ذلك شأن المعابد السابقة على العهد المسيحى (٢) .

---

(١) راجع ص٣٩ من الجزء الأول لهذا الكتاب .

(٢) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة جـ١٦ ص٥٨٤ - ٥٨٦ ، دليل المتحف القبطى لمرقس سميكه جـ٢ ص١٤٠ - ١٤١ ، كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا للدكتور زاهر رياض : الكتاب الثالث ص١٤٧ - ١٩١ .

٢٣٠- ومما يجدر ذكره هنا أن العلماء الذين اشتغلوا منذ سنة ١٩٦٠ فى انقاذ الآثار الفرعونية فى النوبة قبل أن تجرفها مياه النيل عند اكتمال بناء السد العالى قد عثروا على عدد من الكنائس مزدانة بايقونات ملونة ومذهبة. وقد وجد هؤلاء الباحثون فى كنيسة فرس (١) سجلاً يحتوى على اسماء خمسة وعشرين أسقفاً من أساقفة باشوراس (٢) تحت الناحية الجنوبية الشرقية داخل الكنيسة هناك . كذلك عثروا فى كنيسة قصر ابريم على جثمان أسقف لتلك الجهة يحمل تقليد رسامته بالقبطية وصورة منه بالعربية . ومن بين الكنوز التى عثروا عليها عدداً من المخطوطات مازال تحت البحث والدراسة . ويقول الأستاذ بلوملى (٣) بأنه يرجح وجوب اعادة كتابة تاريخ النوبة الكنسى بعدما تتكشف حقائق هذه المخطوطات .



(١) أو Faras .

(٢) أو Pachoras - راجع مجلة المتحف الأهلى بوارسو جـ٤ العدد الثانى سنة ١٩٦٣ ص٣٣ .

(٣) Prof. Plumly وهو أستاذ التاريخ بجامعة كامبردج (انجلترا) وأحد الذين اشتغلوا بانقاذ آثار النوبة .

القرن السادس فى الميزان

(٢٣١) هو قرن مليئ بالأعاصير والعواصف.
(٢٣٢) ميزتاه: المقاومة المستمرة والآباء الأعلام.
(٢٣٣) التمرد على الامبراطور موريس.
(٢٣٤) التجاء هذا الامبراطور إلى المكر والخديعة.
(٢٣٥) اتساع الخرق بين المصريين ومستعمريهم.

٢٣١- كان القرن السادس على وشك الانتهاء. وقد كان هذا القرن بالنسبة للمصريين ولكنيستهم قرن الاعاصير والعواصف. فقد كانوا يحرصون الحرص كله على ما سلمه إياه آباؤهم من تراث مجيد. ولقد طالما وقفوا فى وجه الأباطرة وقفة الأبطال دفاعاً عن ايمانهم الأرثوذكسى الصميم: ومن البلايا التى أصابتهم نفى باباوات الاسكندرية الأصليين المنتخبين من الشعب وتجليس الدخلاء من صنائع أباطرة القسطنطينية على السدة المرقسية. ورغم ما حل بالمصريين من كوارث، فقد ظلوا متمسكين باستقلال كنيستهم، رافضين أن يعطوا ولاءهم لغير باباواتهم الشرعيين.

٢٣٢- ويتصف هذا القرن بميزتين عظيمتين: أولاهما المقاومة الشعبية المستمرة التى كانت تتحول فى غالب الأحيان إلى ثورة علنية ضد أباطرة القسطنطينية، وثانيتهما فحول الآباء الذين أنجبهم هذا القرن والذين كانوا للباباوات الاسكندريين خير عضد فى دفاعهم عن كنيسة آبائهم وأجدادهم (١).

٢٣٣- وقد قُدِّر للأنبا دميانوس أن يُعَمِّر حتى أنه عاصر فى سنى باباويته أربعة أباطرة هم يوستين الثانى وطيباريوس وموريس وفوكاس (قوفا).

(١) قارن بين هذا الجهاد فى سبيل القومية وبين الجهاد الذى داوم عليه المصريون فى مقاومتهم للبطالسة دفاعاً عن مصريتهم فى الفصل الخاص بالمدرسة الاسكندرية الوارد فى الجزء الأول لهذا الكتاب.

ولقد كان التوتر بين المصريين وبين الدخلاء المستعمرين خفيفاً فى عهد الامبراطورين يوستين الثانى وطيباريوس . ولكن لم يكد الامبراطور موريس يعتلى عرش القسطنطينية حتى اشتدت وطأة التوتر مما دفع بالمصريين إلى أن يتمردوا على القيصر ويضرموا عليه نار الحرب بقيادة ثلاثة اخوة هم ميناً وأبيسخيرون ويعقوب . وقد لاحقوا القوات الرومانية فى قتالهم حتى جزيرة قبرص .

٢٣٤- ولما رأى الامبراطور موريس أن المصريين انتصروا على جيشه رغم سطوته وجبروته قرر أن يلجأ إلى الخديعة والمكر . فبعث إلى أولوجيوس الأسقف الدخيل برسالة طلب إليه فيها أن يفاوض زعماء مصر فى الصلح . وفى أثناء هذه المفاوضات أقام ذلك الامبراطور على القوات الرومانية المرابطة فى مصر قائداً جديداً شديد البطش عديم الاحساس . تمكن من تعزيز الجيش خلسة واستطاع بذلك أن يخمد نار الثورة ثم غدر بالمصريين شر غدر فقطع رؤوس زعمائهم الثلاثة ونفى ابن ميناً (الأخ الأكبر) خارج البلاد كما شرّد جميع الزعماء إذ خشى أن يعاودوا الكرّة فى التمرد على الامبراطور .

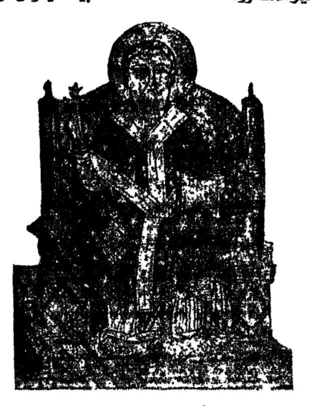
٢٣٥- وكانت نتيجة هذا الغدر ازدياد الاضطراب فى كثير من جهات القطر المصرى . وقد أدى ذلك إلى إثارة غضب المستعمرين على المصريين والمغالاة فى التنكيل بهم . فصدر مرسوم امبراطورى يقضى بفصل جميع المصريين من المصالح الحكومية ، وبذلك اتسع الخرق بين المصريين وبين حكامهم الأجانب . ولكن أبناء الشهداء ظلوا متمسكين باستقلالهم الفكرى الروحى الذى دفعوا فى سبيله أفدح الأثمان (١) .



(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص٣٦٥ - ٣٦٦ .

الأسقف بيسنثيئوس

(٢٣٦) شخصية هذا الأسقف .
(٢٣٧) اجراء الآيات على يديه .
(٢٣٨) رؤيته غير المنظور .
(٢٣٩) انتقاله إلى بيعة الأبكار .
(٢٤٠) وثيقة تشهد بما تجمل به بيسنثيئوس من عطف .



الأنبا بيسنثيئوس
أسقف قفط

٢٣٦- ولقد وقف أساقفة الكرازة المرقسية فى الطليعة مع أبنائهم خلال جميع هذه الثورات . كما وقف الأنبا فيلياس (١) وغيره إلى جانب الأنبا بطرس خاتمة الشهداء (٢) ، هكذا حمّل الأنبا بيسنثيلوس أسقف قفط والأنبا يؤنس

---

(١) هو أحد الشهداء الذين راحوا ضحية الامبراطور ديوقلديانوس - راجع ص١٣٤ - ١٣٨ من الجزء الأول لهذا الكتاب .

(٢) هو البابا الاسكندرى الـ١٧ وآخر من سقطوا فى اضطهاد ديوقلديانوس .

أسقف البرلس وغيرهما عبء القيادة مع البابا دميانوس .

ولد بيسنتيوس من أسرة مسيحية محافظة على التعاليم الروحية المجيدة ، فدفعه تطلعه نحو الكمال الروحى إلى أن يهجر بيت أبيه ويذهب إلى وادى النطرون حيث قضى بضع سنين فى دير يرعاه دانيال قمص شيهيت. وفى الفترة التى قضاها فى الدير حفظ عن ظهر قلب سفر المزامير وأسفار الأنبياء الإثنى عشر الصغار وانجيل القديس يوحنا البشير (١) . ثم ترك الدير وانفرد فى صومعة آملاً فى أن يقضى عمره فى وحدة مع الله . غير أن ما اشتهر به من علم وصلاح قد حول إليه أنظار أهل قفط إثر نياحة أسقفهم فانتخبوه لرعايتهم . وفى أثناء رسامته سمع فى الكنيسة صوت يقول «مستحق بيسنتيوس الرجل الصالح أن يرعى رعية الله الحى» فلما سمع الحاضرون ذلك الصوت السماوى مجدوا الله فى علاه .

٢٣٧– وما أن نال بيسنتيوس كرامة الأسقفية حتى وقف كل جهوده على خدمة شعبه . فكان يدفق فى مصالح ذلك الشعب كل ما اتصلت إليه يداه من مال وقد منحه الله من القوى الروحية ما يبرئ السقيم بمجرد وضع يده عليه . فكان المرضى يسارعون إليه من كل بلد . ولتعلّق الناس به وفرحهم بما نال من نعمة لقّبوه بنور ايبارشيته وحامى بلاده (٢) .

٢٣٨– ولما كان دائم الاتصال بالعالم الروحى فقد وهبه الله تعالى أن يرى – وهو يرفع الذبيحة المقدسة – أجواق الملائكة محيطة بالمذبح . فدأب على أن يصل بشعبه إلى الكمال المسيحى . وكان لعذوبة تعبيره وتسلسل تفكيره المنطقى فى النفوس أثر عظيم .

٢٣٩– ولما دنت ساعة انتقاله إلى بيعة الأبكار أحس بها مقدماً ، فجمع أبناءه وحدثهم بعظائم الله وأوصاهم بأن يظلوا أمناء على الوديعة الأرثوذكسية التى ائتمنهم عليها حتى النهاية . ثم استودع روحه يدى الكاهن الأبدى .

---

(١) دراسة المسيحية فى مصر فى القرن السابع (بالفرنسية) لآميلينو ص١٩ .

(٢) شرحه ص٢١ حيث يقول : " Pisentios était regardé comme la lumière du pauvre nome et la protection de tout le pays " .

وقد بلغ فى القداسة مكانة سامية فسمح الله بأن تجرى الآيات والعجائب باسمه بعد مماته . فقد احتفظ تلميذه بقطعة من ثوبه الكهنوتى الأبيض ، وكان يضعها على من يأتونه من المرضى فيبرأون (١) .

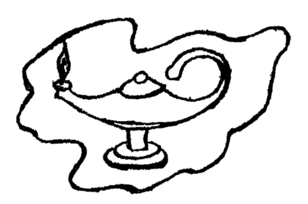
٢٤٠- ومن الكنوز التى حصل عليها المتحف القبطى ببابلون (مصر القديمة) سنة ١٩٤٣ قطعة من الحجر الجيرى وجدت بين المستندات المعروفة باسم مجموعة « جيمى » (٢) ، وهى تحوى خطابًا من أرملة مسكينة إلى «بيسنثيوس رئيس الكهنة الحق» . وكانت هذه الأرملة فى ضيق عظيم. ذلك لأن الفرس كانوا فى عراك مستمر مع البيزنطيين ، وكانت رحى المعارك لا تهدأ إلا لتدور بين هاتين الامبراطوريتين . فكانت النتيجة الطبيعية أن يفوز الفرس تارة ويفوز البيزنطيون طوراً . ولم يهدأ المصريون فى كلا الحالتين إذ كان الفرس يمعنون فى الاستبداد بهم كما يمعن البيزنطيون فى التعسف معهم سواء بسواء . وقد عاشت الأرملة صاحبة الخطاب المشار إليه فى وقت انتصر فيه الفرس على البيزنطيين ، فدخلت جيوشهم الظافرة مصر واستبد حكامهم الغاشمون بشعبها . وقد ضاعف الفرس الضرائب على المصريين ، ولم يهمهم غير ابتزاز الأموال سواء كانت فى أيدى القادرين أو أيدى العاجزين . فإن لم يستطع مصرى أن يسدد ما فرضوه عليه صادروا ما لديه من عقار وأخذوا ما فرضوه عليه مضاعفاً . فكانت هذه الأرملة بين من صودرت أموالهم فلم يبق لديها غير رأسين من الغنم اضطرت إلى أن ترهنهما لتدفع ما فرض عليها من ضريبة . وبعد هذا كله اكتشف الحكام الطغاة أنها لاتزال تملك البيت الصغير الذى تقطنه فأرادوا أن يستولوا عليه أيضًا . وحين ضاقت الأرملة ذرعًا بهذا الجور لم تجد أمامها من تستنجد به غير الأسقف

---

(١) مخطوط عربى رقم ٤٧٠ تاريخ ص١٣٠ - ١٣٧ محفوظ بالمتحف القبطى ويتضمن سيرة الأنبا بيسنثيوس أسقف قفط ، السنكسار العربى طبعة رينيه باسيه ص٦٤٩ - ٦٥١ ، السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٤ ص١١١١ - ١١١٢ .

(٢) فى البقعة القائم عليها المعبد الفرعونى المعروف باسم « مدينة هابو » على الضفة الغربية من النيل مقابل مدينة الأقصر .

بيسنثيلوس (١) الذى رجت منه أن يشفع فيها لدى الولاة الغاشمين. ومما يؤسف له أن الباحثين لم يعثروا بعد على الوثائق التى تبين لنا النتيجة التى أسفر عنه هذا الخطاب . غير أنه مما لا شك فيه أن مثل هذه المكاتبة دليل ساطع على متانة الصلة بين الأسقف وشعبه فى القرن السابع . وأن الناحية الانسانية البادية فى الخطاب لاتزال تفعل فعلها فى القلوب حتى الآن (٢) .



(١) يرى المستشرقون أن الأسقف بيسنثيوس المذكور فى الخطاب هو صاحب هذه السيرة رغم أن الخطاب لا يحدد شخصيته بالذات .

(٢) نشر المستشرق الانجليزى دريشر نص الخطاب الذى رفعته الأرملة فى أصله القبطى مع ترجمته الانجليزية فى مجلة جمعية الآثار القبطية العدد العاشر (سنة ١٩٤٤) ص٩١ – ٩٦ .
وختم دراسته هذه بقوله : " ... the letter bears edifying witness to the relations between bishop and people in the VII century Egypt, and its human interest has lost nothing with the passing of time " .

وترجمته ما يلى : « والخطاب شهادة قيمة للصلة بين الأسقف والشعب فى القرن السابع فى مصر ، وسمته الانسانية لم ينقصها مر الأيام » ، راجع أيضًا سيرة هذا الأسقف فى نسخة خطية بالمتحف القبطى رقم ٤٧٠ تاريخ من ورقة ٣٠ (ظ) – ١٣٧ (جـ) .

الأنبا يؤنس أسقف البرلس

(٢٤١) يؤنس سليل أسرة كهنوتية عريقة.
(٢٤٢) رهبنته فى شيهيت ثم انفراده فى صومعة.
(٢٤٣) انتخابه أسقفا على البرلس .
(٢٤٤) النور يشع من وجهه .
(٢٤٥) كتابته السنكسار .
(٢٤٦) نياحته .

٢٤١- وبين معاصرى بيسنثيئوس الأنبا يؤنس أسقف البرلس الذى عرف معنى الرعاية الحقة وساند باباه دميانوس فى تعليم الشعب . وكان من أسرة كهنوتية عريقة كما كان وحيد أبويه . فلما توفيا بنى بمالهما بيعة ومضيفة للغرباء والمساكين وكان يتولى خدمتهم بنفسه .

٢٤٢- وحدث ذات يوم أن جاء إلى المضيفة راهب كان قد حضر إلى المدينة ليبيع السلال التى جدلها الرهبان ، وأخذ يتحدث عن روعة الرهبنة وجلالها . فكان لكلامه فى نفس يؤنس أثر دفعه إلى أن يوزع أمواله على المساكين ويذهب إلى البرية إلى الدير الذى يرأسه دانيال قمص شيهيت كما فعل بيسنثيئوس . كذلك نهج يؤنس منهج أسقف قفط فى أنه توحد بعد أن قضى بضع سنين فى الدير ولقد انتصر على كل تجربة شيطانية بقوة اللّه الحّالة فيه .

٢٤٣- ثم حدث أن ألهم الروح القدس كهنة البرلس وشعبها أن ينتخبوا هذا القديس الفاضل أسقفًا لهم . فما أن اعتلى كرسى الأسقفية حتى جاهد الجهاد الحسن فى اقتلاع الزوان من بين الحنطة . فقد حدث فى أيامه أن ادّعى راهب من أهل الصعيد أن الملاك ميخائيل يوعز إليه بكل التعاليم التى ينادى بها والتى كانت غريبة عن الكنيسة - فضلل بعض السذج بهذا الادعاء . فلم يجد الأسقف يؤنس بداً من أن يضع حداً لهذا التضليل فنشر رسالة ضمنها التعليم الأرثوذكسى ، ثم جرد هذا الراهب المبتدع من اسكيم الرهبنة .

٢٤٤- ومما يؤثر عن هذا الأسقف أنه كان - فى كل مرة يرفع الذبيحة

الإلهية – يؤخذ بها إلى حد أن نوراً سماوياً كان يشع من وجهه ويراه الشعب حين ينتهى من القداس فيبهر أنظاره .

٢٤٥– وقد كتب هذا الأسقف العالم كثيراً من سير الشهداء والآباء والمعترفين ، وأمر بقراءتها فى الكنائس لتعليم الشعب ، وبهذه الوسيلة وضع للكنيسة التقليد المعمول به للآن والذى يقضى بقراءة السنكسار كلما أقيمت شعائر القداس الإلهى .

٢٤٦– وبعد أن قضى السنين الطوال فى الجهاد والتعليم أراد الله تعالى أن يريحه من مشاق هذا العالم فرأى فى رؤى الليل الأنبا أنطونى والأنبا مكارى ينبئانه بقرب انضمامه إلى بيعة الأبكار . فجمع شعبه وحثه على المحبة المتبادلة عملاً بالتعاليم الإلهية التى كتب عنها البشيرون ، والتمسك بالإيمان الأرثوذكسى حتى النفس الأخير – ثم رقد بسلام (١) .



(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٢ ص٣٩٠ – ٣٩١ .

دانيال قمص شيهيت

(٢٤٧) الرهبان يخدمون ويعلمون.
(٢٤٨) رياسة القمص دانيال تشمل الرجال والنساء.
(٢٤٩) الشريفة أنستاسيا ضمن من تتلمذوا له.
(٢٥٠) دانيال وقاطع الأحجار.
(٢٥١) وصية القمص دانيال ونياحته.

٢٤٧- لم يكن الأنبا بيسنتيوس أسقف قفط ، والأنبا يؤنس أسقف البرلس ومن إليهما من الأساقفة الأجلاء سوى كواكب من الطبقة الأولى تسطع في سماء صافية مزدانة بآلاف الكواكب المختلفة الأحجام . وكانت الأديرة في القرن السادس تزخر بالرهبان الممتلئين نعمة حتى لقد ملأ شذاهم الأرجاء كالبخور الزكى وهكذا تتابعت سنو الفيض واحدة تلو الأخرى (١) . وكان النظام في الأديرة الباخومية متبعاً بدقة إلى حد أن جموع الرهبان كانوا مقسمين إلى فرق - لكل فرقة منهم عملها الخاص . فالبعض منهم كان يعتنى بالمرضى والمصابين بأرواح شريرة ، والبعض ينظم الخدمات بين الفقراء والمعوزين ، والبعض يشرف على المستشفيات - بل لقد كان عدد منهم مسئولاً عن أقسام خاصة من هذه المستشفيات تبعاً لاختصاصه ، وجميعاً كانوا منشغلين بكرم الضيافة والعناية بالغرباء . وهذه الأعمال تبين إلى أى حد عاش الرهبان مسيحيتهم (٢) . ولم تقف خدمات الرهبان عند هذا الحد بل تجاوزتها إلى

---

(١) دراسة المسيحية فى مصر فى القرن السابع (بالفرنسية) لآميلينو ص٢٠ حيث يقول : (... à la fin du VIème siécle, la ferveur de ces moines était tellement grande que tout le pays était embaumé du parfum de leurs vertus, et que les années d'abondance suctédaient sans interruption aux années d'abondance) .

(٢) التاريخ اللوزياكى ترجمه إلى الفرنسية لوكو ص٤٢ حيث يقول : (... Les travaux des Pakhômiens étaient strictement réglés et au VIéme siécle encore, les moines fourniront des équipes de travailleurs . Le soin des malades, l'apostolat, les devoirs de fraternité et d'une hospitalité affable et prévenante, le traitement d'innombrables démaniagues l'assistance des indigents, l'entretien des hopitaux si répandus, et déja si spécialisés, nous prouvent comment le monachisme pratiquait la charité) .

التعليم ، لأن الأديرة كانت قد أصبحت محاريب العلوم الدينية والمدنية ، فكان لها أبعد الأثر في تاريخ المجتمع القبطي وكنيسته وفي تاريخ الديار المصرية أيضاً (١) . ويرجع الفضل في هذا الأثر البارز إلى أن الرهبان لم يستأثروا بما أحرزوا من علوم بل دأبوا على نشرها بين أفراد الشعب . ولغيرتهم على اخوتهم – أبناء الكنيسة المصرية – قسموا مدارسهم إلى نوعين : النوع الأول هو المدارس التي افتتحوها داخل الأديرة ووقفوا التعليم فيها على الرهبان، والنوع الثاني هو المدارس التي افتتحوها في القرى المجاورة للدير حيث كان رئيس الدير ينتدب من يراه صالحًا من الرهبان لتلقين الأطفال القراءة والكتابة والحساب ومبادئ الدين (٢) .

٢٤٨– وكان يقوم بالتعليم في داخل الأديرة الشيوخ من الرهبان الذين اشتهروا بالعلم والتقوى لأن برامج الدراسة كانت واسعة تهدف إلى اعداد الرهبان لحسن تأدية رسالتهم . وبين هؤلاء الشيوخ الحكماء دانيال قمص شيهيت الذي خدم بلاده أعظم خدمة بأن قدم للكنيسة أساقفة أعلام ، وليس ذلك فحسب بل أن رعايته شملت المتبتلات أيضاً فرعاهن أحسن رعاية .

٢٤٩– وبين العذارى اللواتي تنسكن تحت رعاية دانيال الشريفة أنستاسيا . فقد جاءته ذات يوم متخفية في زي الرجال وأعلمته بحقيقة أمرها، كما أنبأته بأنها فرت من وجه امبراطور القسطنطينية الذي أراد التزوج منها . وحين

---

(١) التربية في مصر في العصر المسيحي وبين القبط (بالانجليزية) مقال للدكتور جورجي صبحي نشره في مجلة الآثار القبطية العدد التاسع سنة ١٩٤٣ ص١١٣ ، وأن من يدرس الوصية الموجهة إلى الراهب (أو الراهبة) يستنتج منها انشغاله بخدمات مختلفة . فمثلاً ورد في المخطوط العربي سنة ٤٠٥ طقس المحفوظ بمكتبة المتحف القبطي في الجزء المتعلق بقسمة الراهبات ما يلي : « لا تختصي عن اخواتك الراهبات بشئ دونهن ، وافتقدي المرضى، زوري المحبوسين عزي المتضايقين ادرسي الكتب الإلهية وداومي على قراءتها لتضئ نفسك بنعمة الروح القدس ، وكوني مثالاً صالحًا للذين ينظرونك » . وقد وردت هذه الوصية بعينها في المخطوط القبطي سنة ٧١ المقيد في الكشف تحت رقم ١١٢ والمحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس . ويتضح منها استنهاض همة المختارة للرهبنة لأن تخدم الناس – كلاً حسب حاجته .

(٢) شرحه ص١١٤ – ١١٥ .

عرف منها قصتها أرشدها إلى مغارة قريبة من ديره عاشت فيها . وكان أحد تلاميذ القمص دانيال يحمل إليها الخبز والماء مرة أسبوعياً ويتركهما عند باب مغارتها ويمضى لحال سبيله . وكانت – كلما ساورتها الهواجس والهموم وصفت جميع ما خالجها من مشاعر بكتابته على حجر وتركت هذا الحجر عند باب المغارة . فإذا ما جاء تلميذ دانيال بالخبز والماء ووجد هذا الحجر حمله إلى معلمه . فكان دانيال يكتب لها بدوره ويبعث بالرد مع تلميذه فتهدأ هواجس أنستاسيا . ولما كانت تكتب باليونانية ، ولما كان دانيال قد اختار رسوله إليها ممن يجهلون هذه اللغة فقد كانت اعترافاتها سراً مكتوماً . وقد ظلت على هذه الحال ثمانى وعشرين سنة ولم يسمع أحد بها إلا بعد نياحتها(١) .

٢٥٠– ولقد حدث ذات يوم أن ذهب القمص دانيال إلى المدينة ليبيع السلال التى صنعها بيديه فالتقى برجل يدعى أولوجيوس كان مضيفاً للغرباء معيناً للفقراء . وكان هذا الرجل يعمل طيلة يومه بما يساوى أوقية من الذهب . فكان لا ينفق مما يربحه فى يوم إلا ما يكفى لسد رمقه ويوزع الباقى على المحتاجين ثم يلقى بالفضلات إلى الكلاب . فلما رأى القمص دانيال ما يبذله أولوجيوس من احسان صلى إلى الله بحرارة ليجود عليه بما يعينه على مضاعفة احسانه . ولم تمض على هذه الصلوات الحارة غير أيام معدودات حتى عثر أولوجيوس على كنز ثمين فلعب المال برأسه ودفعه إلى أن يهجر مدينته ويرحل إلى القسطنطينية . وهناك استعان (بالمال الذى معه) ليبلغ منصب الوزارة . وحين تحقق طموحه نسى الفقراء والمعوزين .

وفى تلك الآونة رأى القمص دانيال أولوجيوس فى حلم – رآه وهو يتقلب على فراش النعيم مغفلاً أعمال البر التى كان يعملها أيام أن كان فقيراً ثم رأى السيد المسيح جالساً على عرش القضاء يطالبه هو – دانيال – بنفس أولوجيوس التى حجّرها الغلى . فلما استيقظ القمص دانيال من نومه وذكر ما رآه فى الحلم ارتاع وأخذ يبتهل إلى الله بلجاجة أن يعيد أولوجيوس إلى ما كان عليه

---

(١) الصادق الأمين للقمص فيلوثاوس والقمص ميخائيل الراهبين بدير الأنبا مكارى الكبير جـ١ ص٣١٨ – ٣١٩ .

وأن يغفر له ما سبق أن طلبه لأجله بصفاء سريرة . ولم ينقض على ذلك زمن طويل حتى مات الامبراطور وخلفه على عرش القسطنطينية امبراطور جديد عزل أولوجيوس عن منصبه الوزارى . وخشى أولوجيوس بطش الامبراطور به فعاد إلى مدينته تاركًا خلفه كل مظاهر العظمة ، وعاود عمله السابق الوضيع - وهو قطع الأحجار - كما عاود احسانه إلى ذوى الحاجة . وسمع دانيال بعودة أولوجيوس فتهلل قلبه ، ثم ذهب إليه وروى له كل ما رآه فى منامه بشأنه وحمد الله الذى أعاده إلى ما كان عليه . فانضم أولوجيوس إليه فى حمد الله وتسبيحه ، وقضى ما بقى من حياته فى عمل البر والاحسان (١) .

٢٥١- ولقد عاش دانيال قمص شيهيت أربعين سنة ونصف فى الصحارى مداوماً على الصوم والصلاة ، مهتمًا بتعليم الرهبان والراهبات الخاضعين لرياسته وعندما دنت ساعة انتقاله من هذا العالم أعلمه بها ملاك الرب ، فجمع حوله الرهبان والراهبات وأوصاهم بأن يظلوا محافظين على المحبة التى هى رباط الكمال ، متمسكين بايمانهم الأرثوذكسى الذى ارتضى جدودهم أن يبذلوا فى سبيله أرواحهم ثم استودع روحه يدى الآب السماوى وانتقل إلى بيعة الأبكار بسلام (٢) .



(١) عن نشرة « أولوجيوس قاطع الأحجار » احدى مطبوعات دير العذراء الشهير بالسريان بوادى النطرون - طبعت بمطبعة الدير فى يونيو سنة ١٩٥٦ .

(٢) الصادق الأمين للقمص فيلوثيئوس والقمص ميخائيل الراهبين بدير الأنبا مكارى الكبير ببرية شيهيت جـ٢ ص١٢٤ - ١٢٥ .

نوروظلال : ١- الأنبا أنستاسيوس

(٢٥٢) انتخاب أنستاسيوس قمص كنيسة الانجيليين الأربعة .
(٢٥٣) بطش الامبراطور فوقا .
(٢٥٤) غضب أولوجيوس الدخيل ومضاعفته الاضطهاد .
(٢٥٥) نياحة البطريرك الأنطاكى وعودة المياه إلى مجاريها .
(٢٥٦) حضور مار أثناسيوس الأنطاكى إلى مصر .
(٢٥٧) انتصار الفرس وفتكهم بالمغلوبين .
(٢٥٨) عناية البابا الاسكندرى باللاجئين .
(٢٥٩) كتابته اثنتى عشرة رسالة .

٢٥٢- وسرت موجة من الحزن بين المصريين جميعاً على أثر سماعهم نبأ انتقال الأنبا دميانوس إلى صفوف الكنيسة المنتصرة ، ولم يخفف من حدتها إلا اتجاه القلوب إلى الله طالبين منه تعالى أن يجبر يتمهم باقامة البابا الرؤوف الصالح لهم . فاستجاب العلى تضرعاتهم ووجه أبصارهم إلى القمص أنستاسيوس كاهن كنيسة « الانجيليين الأربعة » (١) . فقد تعلم هذا الكاهن فى المدرسة الاسكندرية واشتغل قاضياً فى القصر الملكى لأنه كان ابناً لشريف من أشراف المدينة . على أنه استقال من منصب القضاء رغم ما تمتع به من جاه عن طريقه لكى يخدم الكاهن - أى أنه ترك خدمة الملك الأرضى ليخدم الملك السماوى . فازداد المؤمنون تقديراً له وأجلوه كل الاجلال . ولم يلبث تقديرهم له أن تحول إلى محبة صادقة لما رأوه فيه من اخلاص وتفانٍ ومن حكمة واستقامة . وكانت هذه المزايا خير تزكية له للكرامة الأسقفية العليا . ومن ثم اقتاده الشعب إلى الكنيسة المرقسية حيث وضع الأساقفة اليد عليه فأصبح الخليفة السادس والثلاثين للقديس مرقس الرسول سنة ٥٩٨م (سنة ٣١٤ش) .

٢٥٣- وكان يجلس على عرش القسطنطينية إذ ذاك الامبراطور فوقا . وكان هذا الامبراطور أشد بطشًا وتعسفًا من غيره من الأباطرة . فقد بعث

(١) هى احدى الكنائس التى لم يبق لها أثر اطلاقاً .

بأوامره المشددة إلى ولاته فى مصر بمضاعفة الاضطهاد على المصريين وأن يختصوا البابوات والأساقفة بالنصيب الأوفر من هذه الاضطهادات مما اضطر البعض منهم إلى مغادرة عواصمهم والالتجاء إلى الصحراء حيث يستطيعون الصوم والصلاة من غير قلق ولا اضطراب . على أن الأنبا أنستاسيوس – لكونه من عائلة شريفة – لم يضطر إلى مغادرة عاصمته إذ كان الولاة رغم تعسفهم يحسبون حسابه . لذلك كان هذا البابا الاسكندرى يقابل ما يبلغه من تهديد ووعيد بعدم المبالاة ، كما كان ينتقل من مدينة ومن قرية إلى أخرى ليتفقد رعيته غير آبه لأوامر الحكام . فأدت جرأته إلى ازدياد احترام الحكام له مما جعلهم لا يتعرضون له مطلقاً أثناء طوافه بمختلف الجهات . وكان – كلما غادر الاسكندرية ليتفقد أهالى جهة ما – يعود ثانية إلى عاصمته من غير تردد . ومن دواعى فخرنا أنه رغم البطش المتواصل قد دعت الضرورة البابا أنستاسيوس إلى رسامة عدد كبير من الكهنة فى جهات متفرقة ، وبخاصة لأنه كان قد استرد بعض الكنائس التى كان الخلقيدونيون قد سلبوها . كذلك بنى عدة كنائس جديدة . وكان – كلما شاد كنيسة جديدة – شاد إلى جوارها مقراً للأساقفة والكهنة (١) .

٢٥٤– وراقب أولوجيوس الدخيل تنقلات الأنبا أنستاسيوس باهتمام بالغ وضاق ذرعاً بجرأة هذا البابا ونجاحه والتفاف الشعب حوله . فلم يجد تنفيساً لما ملأه من غيظ إلا برفع الشكوى إلى الامبراطور فوقا . فكتب إليه يقول إن الأنبا أنستاسيوس قد عقد مجمعاً من أساقفة الكرازة المرقسية أعلنوا فيه جميعاً حرمهم لمجمع خلقيدون المشئوم ولكل من ناصره ويناصره . وسرى الغضب من أولوجيوس الدخيل إلى الامبراطور الذى عينه فبعث هذا الامبراطور برسالة عاجلة إلى والى الاسكندرية يأمره فيها بالاستيلاء على كنيسة قزمان ودميان وأمهما واخواتهما (٢) ، كما يأمره بمضاعفة الفتك بالمصريين. وحين ذهب إلى والى الاسكندرية مع أولوجيوس الدخيل فى كتيبة من الجند ليستولوا على

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٢ ص٣٩٥ .

(٢) هذه العائلة المؤلفة من الأم وأولادها الخمسة استشهدت فى اضطهاد ديوقلديانوس، ولها كنيسة حتى الآن باسم « الخمسة وأمهم » فى منيل شيحة جنوبى القاهرة .

الكنيسة المذكورة قام الشعب الاسكندرى بثورة هادرة استشهد فيها عدد عديد من المؤمنين الأوفياء . وازداد التوتر بين الحكام وبين الشعب الذى صمم على أن يحول بين الجند وبين الأنبا أنستاسيوس . فكان الجند يحاولون شق طريقهم وسط الجمهور المتكتل بالضرب يميناً وشمالاً . على أن الشعب - رغم وفرة من سقط منه - حال دون وصول الجند إلى باباه . ولم يقتصر البطش بالمصريين على الاستيلاء على كنيسة قزمان ودميان بل توالى يوماً بعد يوم. فرأى الأنبا أنستاسيوس بازاء هذا الاستبداد أن يغادر الاسكندرية حقناً لدماء أولاده الذين يسقطون دفاعاً عنه . ومن ثم قصد إلى برية شيهيت حيث نهج منهج أرميا النبى فى بكائه على قتلى بنت شعبه (١) . صارفاً أيامه فى الصوم ولياليه فى الصلاة ليتدارك الآب السماوى شعبه بمراحمه الجزيلة . ولقد صدر الحكم الإلهى على فوقا سريعاً إذ قد قام عليه موريس وقتله واستولى على عرشه.

٢٥٥- وفى تلك الشدة الرهيبة مات بطرس البطريرك الأنطاكى المبتدع وخلفه على سدته راهب يدعى أثناسيوس . فسارع الأنبا أنستاسيوس إلى كتابة رسالة الشركة إلى البطريرك الجديد دون أن ينتظر الرسالة التى يفرض القانون على الأسقف الجديد أن يرسلها إليه . فلما تسلم مار أثناسيوس رسالة البابا الاسكندرى فرح فرحاً عظيماً إذ كان قلبه شبيهاً بالأرض الصالحة التى متى سقطت فيها البذرة الصالحة أتت بخير الثمار . وفى الحال جمع أساقفته وتلا عليهم رسالة البابا الاسكندرى فاغتبطوا بها . ثم قال لهم مار أثناسيوس : « أنتم تعلمون أننا جميعاً نرغب فى السلام ونرحب به . وهذه الرسالة التى جاءتنا من البابا العظيم خليفة القديس مرقس الرسول هى عربون مودته وشركته معنا. ونحن لا يسعنا إلا أن نرحب بها ونمد أيدينا إلى صاحبها الجليل مبتهجين ، إذ أننا نعرف أن أرثوذكسية الكنيسة القبطية لا غبار عليها . وقد كانت الشركة المقدسة تربط كرسينا الأنطاكى بالكرسى الاسكندرى ، ولم يقطع هذه الشركة غير بطرس المبتدع لزيغه » . وقد قوبلت هذه الكلمات باستحسان اجماعى .

(١) مراثى أرميا ٢ : ١١ .

وقرر الأساقفة أن يردوا على رسالة البابا الاسكندرى وأن ينتدبوا بعضاً منهم للذهاب إلى مصر لتسليمها إليه شخصياً . وقد رأى مار أثناسيوس أن يرأس هذا الوفد بنفسه مستصحباً خمسة من أساقفته .

٢٥٦– ولما قرب مار أثناسيوس وأساقفته من الاسكندرية سمع الأنبا أنستاسيوس بقدومهم – وكان لايزال مقيماً فى الأديرة . فخرج من الدير فى رهط من رهبانه فالتقى بضيوفه الأجلاء شمالى الاسكندرية واحتفى بهم إذ ردد رهبانه قول داود النبى: « الرحمة والعدل التقيا . البر والسلام تقابلا » (١) . ثم سار بهم إلى دير على مقربة من شاطئ البحر خارج مدينة الاسكندرية . وقد قضى الأنطاكيون فى ضيافة البابا الاسكندرى شهراً كاملاً تناوبوا خلاله المناقشة فى الموضوعات الروحية التى تهم الكنيستين . وقد خرجوا من هذه المناقشات على اتفاق وانسجام . ثم رجع الأنطاكيون إلى بلادهم منشرحين مغتبطين بما لاقوا من اكرام المصريين واخلاصهم .

٢٥٧– ولم يكد الأنبا أنستاسيوس يودع ضيوفه – وقد امتلأ قلبه نشوة لعودة الألفة بين الكرسيين الرسوليين – حتى أخذت السحب القاتمة تتكاثف فوق مصر إذ قد أخذ الفرس يزحفون على البلاد المصرية لما أحرزوا من انتصار على القوات البيزنطية المرابطة على حدود الامبراطورية . ودخل الفرس أورشليم ونزعوا الصليب القائم فوق قبة كنيسة القيامة المجيدة وحملوه إلى بلادهم فاضطر مئات من سكان فلسطين إلى الهرب والالتجاء إلى مصر تفادياً لما قد يقع عليهم من بطش الفرس الذين يحملون الخراب والدمار حيثما حلوا .

٢٥٨– ووجد اللاجئون فى مصر الأمان والسلام اللذين يطلبانهم ، لأن مصرنا العزيزة كانت – على مدى الأجيال – أماً رؤوماً لجميع المطاردين والمضطهدين وسارع الأنبا أنستاسيوس إلى الترحيب بهم ، وجاهد هو وأساقفته على توفير أسباب الراحة لهم وتأمينهم على عيشهم . غير أن

---

(١) مزمور ٨٥ : ١٠ (٨٤ فى الأجبية القبطية) .

اغاثتهم لهؤلاء المساكين كانت محدودة إذ كان عدد كبير من الكنائس فى قبضة الخلقيدونيين الذين لم يكتفوا بالاستيلاء عليها بل صادروا أموالها أيضاً . وفى هذه الضيقة التى أحس بها البابا الاسكندرى لأنه عاجز عن تقديم كل المساعدات التى يرغب فى أدائها ، تجلت رحمة الله بصورة رائعة لشعبه المصرى المعذب وباباه المحب الكريم ، فحننت قلب الأسقف الدخيل – وكان اسمه يوحنا الرحيم – وحركته لأن يتقدم إلى الأنبا أنستاسيوس ويعرض عليه معاونته فيما يؤديه من خدمات للاجئين . وهكذا جمع حب الخير بين الحبرين: الأصيل والدخيل ، فتعاونا معاً على تخفيف ويلات المعوزين (١) .

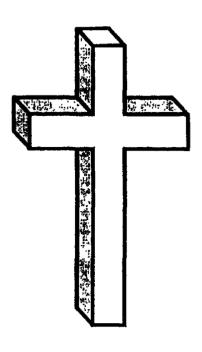
٢٥٩ – ولما كانت النعمة الإلهية تساند الأنبا أنستاسيوس فقد منحته اليقظة الكافية لتأدية مهامه الراعوية مع انشغاله بأعمال الإغاثة فكتب فى العقيدة الأرثوذكسية اثنتى عشر رسالة استحث فيها شعبه على اليقظة والتمسك بالايمان الغالى . ولإطمئنان القلوب إلى رعايته استطاع الموهوبون أن ينتجوا قطعاً فنية جميلة (٢) .

---

(١) نشرت مجلة « النور » التى تصدرها حركة الشبيبة الأرثوذكسية المعترف بها من المجمع الأنطاكى المقدس فى العدد العاشر للسنة السابعة (سنة ١٩٥١) مقالاً للأستاذ اسبيرو جبور عن يوحنا الرحيم (ص٢١٥ – ٢١٦) ، استهلها بقوله : « ليست المسيحية ديانة كتاب ، أو ديانة أقوال ، أو وصايا ، وإنما هى ديانة العمل والحق . ليست ديانة ذلك الشاب القائل « هذه كلها حفظتها منذ صباى » (متى ١٩ : ٢٠) ، بل ديانة ذلك السامرى الشفيق (لوقا ١٠ : ٣٣ – ٣٧) الذى أكب على تضميد جراحات الانسانية الشقية المعذبة الساقطة ، يصب عليها زيت رحمته وخمر تعزيته ... والقديس يوحنا الرحيم هو احدى الشخصيات المسيحية البارزة التى نفذت إلى صميم الحقيقة المسيحية فأدرك كنه شخصية الرب يسوع ... » وبعد أن سرد الكاتب سيرة هذا القديس قال عنه أنه « طفق يسكب نفسه فى خدمة المساكين ، مبدداً أمواله الموروثة الطائلة حتى هنئ بتنازله إلى صفهم فقيراً معدماً لا يملك شروى فقير » . وختم الكاتب هذا المقال الشيق بقوله : « وقد لقبته الكنيسة بحق بالرحيم ، وتعيد له فى ١٢ تشرين الثانى » .

(٢) من مخلفات هذا العصر قطعة من العظم منحوت عليها ملك جالس ، تحت قوس بين عامودين ، ويعلو القوس فرع من أوراق الشجر . وهذه القطعة محفوظة الآن فى متحف والترز للفن ببالتيمور بالولايات المتحدة تحت رقم ٧١ و ٧٢ ، وقد كتب عنها مورفين تشونسى روس مقالاً نشره فى مجلة الآثار القبطية العدد السادس (سنة ١٩٤٠) قال فى آخره ما نصه : (Like much of the Coptic art which has survived , The bone relief in the =

وقد مضى هذا البابا الساهر اثنتى عشرة سنة على السدة المرقسية ثم انتقل إلى بيعة الأبكار فى هدوء واطمئنان (١) .



= Walters although ugly almost to the extent of being grotesque has yet an'irresistible impressiveness, a characteristic typical of Coptic sculpture for several centuries ...) .

وترجمته ما يلى : « إن قطعة العظم المحفورة المحفوظة فى متحف والترز – كغيرها من غالبية القطع الفنية القبطية الباقية – وإن تكن قبيحة إلى حد السخرية لها أثر لا يقاوم ، وهذه صفة مميزة للنحت القبطى استمرت مدى قرون » .

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية – مخطوط نقله القمص شنوده ... جـ١ ص٨٦ – ٨٨ .

ب - الأنبا أندرونيكوس

(٢٦٠) الشرق عامر بالقديسين رغم الحكام الفاشمين .

(٢٦١) تشبث المصريين بحقهم فى انتخاب باباهم .

(٢٦٢) غزو الفرس لمصر وغدرهم بأهلها .

(٢٦٣) ملك الفرس يفرض النسطورية مع كونه من عباد الشمس .

(٢٦٤) انتقال البابا الاسكندرى إلى بيعة الأبكار .

٢٦٠– بينما كانت الملوك تتصارع ، والعروش تتأرجح ، والناس فى حيرة واضطراب لا يدرون ما سيصيبهم نتيجة لهذا التكالب على الحكم ، كان الشرق لايزال عامراً بالقديسين الذين وضعوا ثقتهم التامة فى الله وأدركوا أن الخلوة به تعالى هى السلام الشامل رغم الأحداث العالمية وتقلباتها . وهؤلاء القديسون ملأوا الأديرة المنتشرة فى بلاد مصر وسوريا وآسيا الصغرى . وكان رهبانها يقضون حياة روحية نسكية مدارها التأمل فى الإلهيات وتجنب المناقشات غير المجدية . فكان شأنهم وسط هذه الزعازع شأن المنارة التى تقشع الظلمات بنورها الساطع (١) .

ويبدو أن هذه المنارات الروحية امتدت على طول الوادى الرحيب إذ أن هناك مخلفات تبين لنا أنه كان هناك دير فى جزيرة فيلا يرأسه بوسيبه (٢) الذى كان أسقفاً للجزيرة فى الوقت عينه . ومن المؤلم أن الجزء الأخير من النص القبطى (الصعيدى) قد ضاع مما يجعلنا نجهل متى بدأت الحياة الرهبانية فى فيلا وكم من الأجيال دامت . على أنه من الواضح أن الحياة المسيحية ازدهرت فيها وأن أساقفتها جاهدوا الجهاد الحسن .

٢٦١– ومن المؤلم أن بلادنا كانت مطمع الغزاة كما كان هؤلاء الغزاة

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٤١٨ .

(٢) مقال لهنرى مونييه : « المسيحية فى فيلا » نشره فى مجلة الآثار القبطية العدد الرابع (سنة ١٩٣٨) ص٤٧ .

يستبدون بشعبنا الثابت الصبور . وكان الضغط الأجنبى على أشده فى ذلك العهد حتى أنه كاد يخلق المصريين خنقًا . ولكنهم رغم هذا أصروا على التشبث باستقلالهم الدينى – فاجتمعوا كهنة وشعبًا لانتخاب خليفة لباباهم الراحل العظيم .

وكان فى الاسكندرية إذ ذاك شماس يدعى أندرونيكوس يخدم فى بيعة «بى أنجيليون» (١) . وكان من أسرة ذات نفوذ سياسى كبير إذ كان ابن عمه المقدم فى الديوان الامبراطورى بالاسكندرية . وكان هذا الشماس – رغم نفوذه المستمد من السلطة السياسية – محبًا للغريب وللقريب ، متواضعاً ، متضلعاً من العلوم الدينية والمدنية . فوجد الاسكندريون فيه جميع الفضائل التى تؤهله لأن يرقى إلى السدة المرقسية . وهكذا تم انتخابه فأصبح الخليفة السابع والثلاثين للقديس مرقس سنة ٣٢٧ش (سنة ٦١١م) . ولما كانت أسرة أندرونيكوس ذات نفوذ واسع فقد تمكنت بهذا النفوذ من أن تمنع الولاة من التعرض بالأذى للأساقفة عند قيامهم برسامة المختار من الشعب . وبالفعل تمت رسامته فى الكنيسة المرقسية بالاسكندرية تبعاً للتقليد الأصيل بدلاً من أن تتم فى أحد الأديرة كما حصل مع سلفائه بعد مجمع خلقيدون . كذلك استطاع الأنبا أندرونيكوس أن يقيم فى الاسكندرية بدلاً من اللجوء إلى الأديرة . وكان لفرط تواضعه يقيم فى صومعة خاصة بناها لنفسه ملحقة بالكنيسة التى كان لها شماساً بدلاً من الإقامة فى الدار البابوية.

٢٦٢– وكأن الآلام التى عاناها المصريون على أيدى البيزنطيين لم تجعل الكيل طافحًا فحلت بهم كارثة أخرى هى انتصار الفرس على واديهم الرحيب. فلم يقض الأنبا أندرونيكوس فى باباويته غير فترة قصيرة حتى كانت الجيوش الفارسية تعيث فى البلاد فساداً وتنشر الرعب والفزع فى كل مكان. وكانت نزعة الفرس إلى التخريب عنيفة إلى حد أنهم كانوا يخربون لمجرد التخريب . وأول هذه الأعمال التخريبية كان انقضاضهم على الأديرة المتاخمة للاسكندرية وتدميرها عن آخرها . وحالما انتهوا من هدم الأديرة

---

(١) أى الإنجيل .

وتشتيت سكانها النساك الآمنين حولوا أنظارهم نحو أهالى الاسكندرية . فأعلن كسرى ملك الفرس الأمان ثم نادى جنده فى أنحاء المدينة بأن الملك يرغب فى الاجتماع بالرجال الذين تتراوح أعمارهم ما بين ثمانى عشرة سنة وخمسين سنة مدعيًا بأنه يريد أن يتفاهم معهم على ما فيه خيرهم . وعين لمقابلتهم ساحة فى خارج المدينة . فلبى ثمانون ألفًا من الرجال دعوته واجتمعوا فى الساحة . ولم يكادوا يستقرون فى أماكنهم حتى أحاط بهم الجيش وأبادهم عن بكرة أبيهم .

على أن هذا الغدر المروع لم يشبع شهوة الفرس للتخريب ، فقد كان ملكهم كسرى على رأس جنده يدوس الزرع والضرع بسنابك الخيل فيفتك بها فتكًا ذريعًا . وهكذا سعى الفرس إلى قتل الناس وهدم المبانى وابادة البهائم والزروع فلم ينج من فتكهم حى ولا جماد !

٢٦٣– ولم يكتف هذا الملك الغادر بسفك الدماء البريئة بل أراد أن يتدخل فى الشئون الكنسية رغم كونه من عباد الشمس . وذلك أنه أعلن المسيحيين فى جميع الأقطار التى غزاها – مصرية كانت أو سورية – بأنهم لم يحظوا بحياة آمنة ما لم يعتنقوا النسطورية (١) . فأبى المصريون الإذعان لهذا الحكم التعسفى وآثروا أن يلاقوا حتفهم فى سبيل المحافظة على ايمانهم الأرثوذكسى من أن يترددوا فى هاوية البدعة الوخيمة التى لعنها مجمع أفسس (المسكونى الثالث) برياسة باباهم كيرلس العظيم . وقد ظل الفرس يضطهدون المصريين اضطهادًا وحشيًا مدى سنين ست قهرهم بعدها الامبراطور هرقل فأخرجهم من الديار المصرية صاغرين وطاردهم حتى حدود بلادهم . ثم أعاد الصليب الذى اغتصبوه إلى مكانه فوق قبة كنيسة القيامة .

٢٦٤– وخلال هذا الاستبداد الوحشى وهذا الإمعان فى التخريب من جانب الفرس المستعمرين كان الأنبا أندرونيكوس ينتقل بين شعبه المعذب يواسى الحزين ويضمد جراح المكلوم . وكان فى الوقت عينه يذكّر هذا الشعب

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص٤١٩ .

المتوجع بالتعاليم الروحية التى ترفع القلب الإنسانى نحو العرش الإلهى وتؤهل المظلوم لأن يرى شعاعاً من النور خلف الظلمة الحالكة . وقضى هذا البابا الجليل سنوات ستاً (أو ما يزيد بقليل) مداوماً على عمل الرحمة والافتقاد ، مشتركاً مع أبنائه فى آلامهم وآمالهم . ثم سمع الصوت الإلهى يناديه: « نعماً أيها العبد الصالح والأمين... أدخل إلى فرح سيدك » (١) . فاستجاب لهذا النداء الموجه إليه من الفادى الحبيب وانتقل من هذا العالم المليئ بالظلمة والظلم إلى عالم النعمة والنور (٢) .



(١) متى ٢٥ : ١٤ – ٣٠ .

(٢) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين جـ٢ ص٤٨٩ .

سبحان الذى يغير ولا يتغير

(٢٦٥) الكنيسة جمعت بين الثبات على الايمان والبحث العلمى .
(٢٦٦) تضاعف استبسال المصريين بازاء تضاعف البطش بهم .
(٢٦٧) هرقل يمعن فى الاستبداد بالمصريين رغم هزيمته أمام الفرس .
(٢٦٨) نسك الأنبا بنيامين والرؤيا التى رآها .
(٢٦٩) أثر مقابلة الأنبا أندرونيكوس للناسك ثيئوناس .
(٢٧٠) انتخاب الأنبا بنيامين وطرد الفرس فى باباويته .
(٢٧١) هرقل يقيم قورش أسقفا للاسكندرية وواليًا لمصر فى وقت واحد .
(٢٧٢) انذار الملاك للأنبا بنيامين .
(٢٧٣) الأنبا بنيامين يلجأ إلى برية شيهيت ثم إلى دير فى منطقة طيبة .
(٢٧٤) الأسقف الدخيل ينتقم من مينا أخى الأنبا بنيامين .
(٢٧٥) جهاد الراهب صفرونيوس ثم رسامته أسقفًا لأورشليم .
(٢٧٦) فتك قورش بالمصريين لا يقف عند حد .
(٢٧٧) غزو العرب وخمول هرقل بازائه .
(٢٧٨) زحفهم على مصر وخيانة المقوقس .
(٢٧٩) من هو المقوقس ؟
(٢٨٠) موقف القبط بازاء الزحف العربى .
(٢٨١) مشاعر السوريين والأسبان نحو العرب .
(٢٨٢) عمرو يظفر بحصن بابلون ويوالى زحفه نحو الاسكندرية.
(٢٨٣) التنافس والتحاسد والتمييز العنصرى تنخر فى عظام الامبراطورية البيزنطية .
(٢٨٤) تولى عمرو بن العاص الادارة .
(٢٨٥) تفاهم عمرو مع القبط .
(٢٨٦) تقابل البابا الاسكندرى مع عمرو بن العاص .
(٢٨٧) غزو عمرو لبرقة وطرابلس .
(٢٨٨) معاودة غزو الاسكندرية وحرق المدينة بأسرها .
(٢٨٩) حريق مكتبة الاسكندرية .
(٢٩٠) عمرو يتعمد تخريب مدينة الاسكندرية تخريبًا شاملاً .
(٢٩١) استمرار التفاهم بين عمرو والقبط .
(٢٩٢) تجديد أديرة شيهيت وكنائسها.
(٢٩٣) غزو النوبة

(٢٩٤) تكريس الكنائس بعد تجديدها .

(٢٩٥) رؤيا الأنبا بنيامين أثناء تكريسه كنيسة الأنبا مقارى الكبير .

(٢٩٦) البابا الاسكندري يتهلل ويقص رؤياه على الرهبان .

(٢٩٧) ملاك الرب يشير على الأنبا بنيامين بتسجيل قوانين الكنيسة .

(٢٩٨) جدل عنيف بين الأساقفة خارج مصر .

(٢٩٩) البابا الاسكندرى يسجل القوانين فعلاً ثم يمرض وينتقل إلى الدار الباقية .

(٣٠٠) الخليفة يعزل عمرو بن العاص ويقيم مكانه واليًا قاسيًا .

(٣٠١) محاولة البيزنطيين استرداد مصر .

٢٦٥- كانت مصر فى القرنين التاليين لمجمع خلقيدون فريسة للاضطرابات والقلاقل نتيجة للصراع الذى لا هوادة فيه : صراع بين أباطرة القسطنطينية المستعمرين المستبدين وبين الشعب المصرى الثائر عليهم وعلى استبدادهم . وأنه لمن دواعى فخرنا واعتزازنا أن الكنيسة رغم التوتر المتزايد ظلت ثابتة على عقيدتها فى جلال ووقار ، متمسكة بايمانها الذى سلمه إياها الرسل وخلفائهم . ومما يزيد هذا الثبات مجداً أن الكنيسة شجعت البحث العلمى والتفكير الحر إذ وجدت فيهما الوسيلة التى يستطيع بواسطتها بعض الناس أن يلمحوا قبثاً من حقيقة الأسرار المسيحية . ولقد كان آباء الاسكندرية يفرحون حين يجدون شخصاً يسعى إلى سبر غور التعاليم الإلهية المستعلنة فى الكتاب المقدس . وبهذا الموقف الحكيم بازاء الساعين نحو المعرفة أقامت الكنيسة صرح الايمان شامخًا على أساس متين (١) بل لقد درس آباء الكنيسة الفلسفة

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٦ المقدمة ص٣ حيث يقول ما نصه :
" ... un grand fait brillera avec éclat pour la gloire de l'Eglise d'Orient . Ce fait est la majestueuse immobilité dans la profession de la doctrine primitive ".
بينما يقول على ص٤ : " Il ne faudra pas croire que tout en étant immobile dans la profession de la doctrine révélée, l'Eglise d'Orient ait condamné l'intelligence chrétienne à l'immobilité . Elle a toujours encouragé l'intelligence dans ses efforts pour exposer le dogme avec exactitude, en tierer les conséquences =

الوثنية بدلاً من أن يستخفوا بها أو بالمقبلين على تعلمها لأنهم كانوا يعدونها درجات توصل إلى المسيحية (١) . ولم يكن جمعهم بين التعاليم المسيحية والفلسفة غير المسيحية بالنقيض الوحيد ، بل لقد جمع آباؤنا بين شتى المتناقضات إذ قد عرفوا أن يجمعوا بين قيمة الفرد إلى جانب أهمية الجماعة ، وبين تقديرهم للعزة الانسانية مع ادراكهم لضعفها ، فهم قد رأوا فى المسيح الرقة والعذوبة المتناهيتين مقترنتين بالقوة والحزم ، كما رأوا فى الخالق المبدع الآب السماوى الرحيم الذى يرعى الانسان كحدقة عينه بينما هو تعالى ضابط الكل والسر المرهوب. وليس بغريب أن يدركوا أن الله تعالى قد جمع كل هذه المتناقضات لأنهم جمعوا المتناقضات فى أشخاصهم إذ قد امتلأت نفوسهم سكينة مع أنهم عرفوا الفقر والجوع والتشرد والعذاب (٢) .

= légitimes, en sonder jes profondeurs autant qu'il est possible à la raison humaine, mais elle a toujours montré les limites au delâ desquelles on ne devait pas s'aventurer sans peine d'impieter sur le domaine divin " .

ويورد الخلاصة لهذه الأقوال على ص٥ حيث يقول : " L'eglise Orthodoxe a toujours formé le tronc immuable de l'arbre divin " .

وترجمتها كما يلى : « وهناك حقيقة عظمى سطعت بلمعان لمجد الكنيسة الشرقية ، هذه الحقيقة هى جلال الثبات على العقيدة الأصلية ، ... » ولا يتبادر إلى الذهن أن الكنيسة الشرقية – لكونها ثابتة على العقيدة الموحى بها – قد حكمت بالجمود على الفكر المسيحى . فهى قد دأبت على تشجيع الفكر فى جهاده لتوضيح العقيدة بدقة وللوصول إلى النتائج المشروعة ، وسبر الأغوار إلى أعمق ما يستطيعه الفكر الانسانى ولكنها بينت أيضاً الحدود التى لا يمكن تخطيها حذراً من الاعتداء على التخم الالهية ، ... » ولقد كونت الكنيسة الأرثوذكسية – على مدى الأيام – الجذع المتأصل للشجرة الالهية » .

(١) « النار المقدسة » بالانجليزية لروبرت باين – المقدمة ص٢٠ حيث يقول ما نصه :

" ... they did not ban profane learning as offensive and abominable ... Plats was a precursor of Christ " . وترجمته كما يلى : « أنهم لم ينفوا العلوم الدنيوية بحجة أنها مؤذية ومحتقرة ... فأفلاطون كان مشيراً إلى المسيح » .

(٢) شرحه – المقدمة ١٤ – ١٦ ، ١٩ حيث يقول ما نصه على ص١٥ :

" What is most astonshing in the Eastern church is this gentle visionary, quality allied with a conception of God as the mysterium tremendum " . In themselves they combined gentleness and strength, in God they saw gentleness and strength magnified to infinite dimensions " . =

٢٦٦– ولقد دفع المصريون أفدح الأثمان فى سبيل الاحتفاظ بعقيدتهم الأرثوذكسية صافية نقية . وكانوا – كلما أمعن الأباطرة استبداداً – ازدادوا ثباتاً واستبسالاً. ولقد ظل الأباطرة على بطشهم حتى عندما كانوا يضطرون إلى محاربة جموع القبائل المتبربرة التى نجحت فى النهاية فى الظفر بهم ، وحتى عندما كانوا يقاتلون الفرس الذين لم يهادنوهم مطلقاً . ومن أبرز الأمثلة على استبداد الأباطرة البيزنطيين بالمصريين فرضهم دخلاء على السدة المرقسية ، يعيّنونهم فى القسطنطينية ويرسلونهم إلى الاسكندرية يصحبهم الجند مزودين بالأوامر المشددة بأن كل من لا يخضع لسلطانهم سيلقى أقسى العذاب وأمرّه .

٢٦٧– وفى سنة ٦١٧م ش ، حين انتقل الأنبا أندرونيكوس إلى مساكن النور كان الامبراطور هرقل لايزال متربعًا على عرش الامبراطورية الشرقية. وقد أحرز الفرس فى أيامه عدة انتصارات إلى حد أنهم اغتصبوا مصر من قبضته ، وظلوا مسيطرين عليها ست سنوات ، أخيراً نجح فى اجلائهم عنها . ولم يكد يستقر به المقام ثانية حتى عاود سياسة البطش والفتك : ففرض عليهم دخيلاً ، وطرد باباهم الشرعى من جهة إلى أخرى ، واضطهد جميع الذين لم يقبلوا الاذعان لصنيعته . ولأن الأنبا أندرونيكوس كان سليل عائلة شريفة ذات نفوذ واسع استطاع أن يبقى فى الاسكندرية. ولكنه – مع ما لعائلته من نفوذ – لم يستطع أن يخفف من حدة الاستبداد البيزنطى ، كما لم يتمكن من أن يجنب أساقفته مرارة النفى . ولم يكن له يومذاك من عزاء إلا فى صحبة سكرتيره المتفانى – بنيامين. وقد تبادل البابا الشيخ وسكرتيره الشاب المحبة

– كذلك يقول على ص٢٠ من المقدمة أيضاً ما نصه :

" though they lived in the blinding sun, they knew that all outlines softly recede, and there is a point beyond which all definitions fail . It follows that they were perfectly capable of believing in two mutually contradictory statements " . وترجمته كما يلى : « مع أنهم كانوا يعيشون فى الشمس البهيرة فقد عرفوا أن كل الخطوط تتناهى إلى نعومة وأن هناك نقطة تفشل عندها كل التعاريف . لهذا كانت لديهم المقدرة التامة على الايمان بالمتناقضات .

والاعجاب . وبهذه العاطفة الجيّاشة المتبادلة بينهما استطاع كل منهما أن يعزى الآخر ويشدده .

٢٦٨- وكان بنيامين سليل عائلة غنية من مريوط . ولما بلغ سن الرشد باع كل ماله وترك أهله وعشيرته والتحق بدير من الأديرة الواقعة فى منطقة الاسكندرية حيث قضى بضع سنين تحت رعاية ناسك شيخ اسمه ثيئوناس. ولقد كرّس نفسه خلال هذه السنين لدراسة الأسفار الالهية وبلوغ الكمال المسيحى . فرأى ذات مساء رؤيا تتلخص فى أن ملاك الرب ظهر له قائلاً : «تهلل يا بنيامين لأنك سترعى رعية السيد المسيح » . فلما أصبح الصباح قصّ رؤياه على أبيه الروحى الذى قال له : « أحذر الكبرياء يا بنى . فمن أين تدرى إن كان الذى تراءى لك هو ملاك الرب أم أنه ملاك من ملائكة الظلمة أراد أن يخدعك ليوقعك فى حبائله ؟ » وقد دفع هذا التحذير بنيامين إلى مضاعفة جهوده لبلوغ ذلك الكمال الروحى الذى تطلع نحوه بقلبه .

٢٦٩- وحدث بعد ذلك بقليل أن الناسك الشيخ ثيئوناس اضطر إلى الذهاب إلى الاسكندرية . فأخذ معه بنيامين ليتوكأ عليه فى الطريق . ولما انتهيا من تأدية المهمة التى جاءا إلى المدينة بسببها ذهبا لينالا بركة البابا أندرونيكوس قبل العودة إلى ديرهما . وفى أثناء الزيارة أخذ ثيئوناس البابا على حدة وأطلعه على الرؤيا التى رآها بنيامين ومضاعفته جهوده على أثرها. فلما سمع خليفة مارمرقس هذا الحديث قال لثيئوناس : « والآن يا صديقى عد إلى الدير وحدك فى رعاية الله ، وأترك هذا الشاب معى لأنى أرى يد الله عليه » . وأطاع الناسك الشيخ أمر باباه وترك له تلميذه بنيامين . فوضع البابا اليد عليه ورسمه كاهناً ثم عينه سكرتيراً خاصاً له ، ولقد اشتهر بنيامين - أيام سكرتيريته - باستقامته وغيرته وتفانيه فى العمل . وكان قلب البابا يتهلل كلما رأى سكرتيره يعمل فى صبر وسكون . فلما أحس بأن ساعته قد دنت أشار على شعبه باختيار بنيامين خليفة له . وفرح الشعب بهذه الاشارة . فلما تنيح الأنبا أندرونيكوس اختاروه بالاجماع . وقد تمت رسامته سنة ٣٣٣ش (سنة ٦١٣م) ، فأصبح البابا الاسكندرى الثامن والثلاثين .

٢٧٠ – وكان الأنبا بنيامين ضمن العاملين فى صمت وصبر . ولما كان مدركاً عظم المسئولية الملقاة على عاتقه فقد دأب على تعليم شعبه منذ اليوم الأول لإختياره وبينما كان منشغلاً فى عمله تمكن الامبراطور هرقل من اجلاء الفرس عن مصر .

٢٧١ – ولم تكن الصدمة التى أصابت هـذا الامبراطور باعتداء الفرس على امبـراطوريته كافية لأن تردعه عن استبداده ونزعته إلى التـجبر بالمصريين فلم يكد يستعيد سلطانه حتى أصدر أمره بنقل قورش أسقف فاسيس (بآسيا الصغرى) من مكانه إلى كرسى الاسكندرية . وقد منحه السلطتين الدينيـة والمدنية فى آن واحد إذ جعله أسقفاً للاسكندرية وواليا على مصر .

٢٧٢ – وبينما كان قورش فى طريقه إلى الاسكندرية ظهر ملاك الرب للأنبا بنيامين وقال له : « أنصحك بأن تترك عاصمتك وتلتجئ إلى الصحراء. ومن المستحسن أن تنصح أساقفتك بأن يحتموا فى الصحراء هم أيضاً . لأن الذى سيبقى منهم فى عاصمة كرسيه سيلقى الويلات على أيدى الجنود الموفدة من هرقل » .

٢٧٣ – ولم يكن الأنبا بنيامين مخالفاً للرؤيا السماوية . وفى الأحد التالى لهذه الرؤيا ، حين انتهى من تأدية شعائر القداس الالهى أعطى شعبه التعليمات الصريحة عما يجب عليهم عمله بازاء الاستبداد البيزنطى الذى سيحل بهم . ثم بعث برسالة دورية إلى جميع أساقفة الكرازة المرقسية أطلعهم فيها على الرؤيا التى رآها والحديث الذى سمعه خلالها . وبعد أن رتب أمور الكنيسة وأرشد الكهنة والشعب إلى الخطة الواجب اتباعها استصحب اثنين من تلاميذه – وخرج ثلاثتهم من الاسكندرية عند المغيب . ولما كانوا مسافرين سيراً على الأقدام فقد قضوا عدة أيام حتى وصلوا إلى مريوط . فمكثوا فيها أياماً غير قليلة ثم خرجوا منها قاصدين إلى برية شيهيت على الأقدام أيضاً ! ولما كان سفر الأنبا بنيامين بعد الحكم الفارسى مباشرة فقد رأى آثار التخريب والتدمير فى كل مكان . لأن هؤلاء الغزاة خربوا كل ما يمكنهم تخريبه حتى لقد امتدت يدهم المدمرة إلى الأديرة فى صحاريها . ولما وصل البابا الاسكندرى وزميلاه

إلى برية شيهيت وجدوها تحمل آثار التدمير أيضاً . فامتلأ قلب الأنبا بنيامين حزناً على هذه الأماكن المقدسة وبخاصة لأنه لم يكن فى ظرف يستطيع معه ترميمها . وقد مكث هو وزميلاه بضعة أيام فى شيهيت يتبادلون النقاش مع سكانها النساك الأوفياء الأحرار . ثم غادروا هذه المنطقة التى تقدست بأنفاس أصفياء الله وقصدوا إلى الصعيد الأعلى فعاشوا فى دير من الأديرة الصغيرة المتناثرة حول منطقة طيبة (الأقصر) .

٢٧٤- وأول عمل قام به قورش الأسقف الدخيل حالما وصل إلى الاسكندرية كان البحث عن الأنبا بنيامين . فلما لم يجده قبض على مينا أخيه. ثم أمر هذا الدخيل المستبد جنده بأن يحرقوا جنبى مينا لعل الألم يجعله يعترف بمخبأ أخيه . ولكن مينا تحمل اللهب فى صمت تام دون أن يلفظ بكلمة واحدة . فاستثار صمته غضب قورش أكثر فأكثر وأمر بأن يضعوه على الفور داخل زكيبة مملوءة رملاً ويلقوا به فى البحر . وهكذا كان مينا أول شهيد نكّل به قورش (١) .

٢٧٥- وكان أحد المقاومين البارزين لقورش راهب اسمه صفرونيوس أخذ يحاجه لعله يقنعه بالايمان الأرثوذكسى . ولكن قورش ظل على ضلاله فترك صفرونيوس الاسكندرية وذهب إلى القسطنطينية حيث قابل أسقفها وامبراطورها . ولكنه فشل فى اقناعهما بفساد مسلكهما مع المصريين . فغادر القسطنطينية وقصد إلى أورشليم . وحدث أن وصل المدينة المقدسة وكرسيها شاغر ، فظن الناس أن وصوله إلى مدينتهم فى مثل هذا الوقت اشارة من السماء لانتخابه أسقفاً عليهم .

٢٧٦- ولم يكن مسلك الامبراطور هرقل فى فرض دخيل على مصر غير دليل صارخ على استبداده بهم وامعانه فى استعمارهم - وبخاصة لتزويده هذا الدخيل بالسلطتين الدينية والمدنية . لأن قورش كان رجلاً لا ضمير له ، ولا ذرّة من الانسانية فيه . فلم يكن ليتراجع عن البطش بأى شخص إذ لم

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين طبعة ايفيتس جـ٢ ص٤٩١ .

يحترم سناً ولا جنساً ولا مركزاً . ولم يهمه إلا أن يرغم المصريين على الخضوع لسلطانه والاعتراف بمجمع خلقيدون وأنوفهم صاغرة . وكانت العقيدة الخلقيدونية قد صيغت فى قالب جديد وكتبت فى منشور امبراطورى يعرف باسم « ايكثيسيس » . وحين أصدر الامبراطور هذا المنشور وبعث به إلى الأساقفة فى مختلف البلاد كان مغروراً إلى حد الزعم بأن فى استطاعته أن يفرضه على الكنيسة الجامعة . ولما رفض بعض أعضاء هذه الكنيسة الجامعة قبول منشوره ، صب عليهم جام غضبه . ونال المصريون النصيب الأوفر من هذا الغضب الامبراطورى ، لأن قورش صمم على تنفيذ رغبة مولاه هرقل مهما كلفه ذلك (١) . ففتك بالمصريين من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى أخرى بل لقد بعث بجنوده إلى الصحارى . فلم يوجد لمكان حرمة ولا لشخص كرامة لأن جند قورش داسوا المقدسات وانتهكوا الحرمات . ولو أن الامبراطور هرقل أبدى أدنى اشارة ضد هذه القسوة لكانت كافية لردع هذا الوحش البادى فى شكل انسان . ولكنه – بدلاً من ذلك – أبدى استحسانه لهذا الفتك الشنيع . ورغم هذا كله أصر المصريون على الاحتفاظ بعقيدتهم الأرثوذكسية والتمسك باستقلالهم الدينى . فلم يرهبوا الموت ولا العذاب – إذ كانوا قد ألفوهما – ورضوا بأن يدفعوا الثمن فى أنفة واعتزاز . ولم يقابلوا هذا الاستبداد فى صمت وذلة ولكنهم تمردوا أكثر من مرة وأعلنوا للمستعمرين الغاشمين سخطهم عليهم واستخفافهم بوسائلهم الجهنمية (٢) . فبدت مصرنا العزيزة – التى بنى مجدها

---

(١) دائرة معارف العلوم الدينية (بالفرنسية) جـ٩ ص٣٣١ – ٣٣٣ .

(٢) « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) الجزء الثانى – المبحث الأول لهنرى مونييه ص٦٨ ، ٩٢ حيث يقول ما نصه : " L' Egyptien savait qu' il était le peuple dont le clergé eut le plus à souffrir dans sa foi par sa suite de l'ingérence byzantine . Il avait sous les yeux les continuelles persécutions des empereurs contre les patriarches qui souvent préférèrent l'éxil aux brilliantes prerogatives de leur charge, les excommunications des conciles contre les doctrines de ses théologiens, les interventions brutales réitérées de Constantinople qui cherchait à installer sur le trône de Saint Marc des candidats à son choix, ce qui amenait des rixes et des massacres " . وترجمته كما يلى : « كان المصريون يعرفون أنهم الشعب الذى نال كهنته أكبر نصيب من الألم ذوداً عن الايمان بسبب تبعيته (السياسية) للقسطنطينية –

الفراعنة وآباء الاسكندرية – فى القرن السابع فى صورة قاتمة موجعة : ففى ناحية منها وقف الطغاة المستبدون من عملاء القسطنطينية ، وفى الناحية الأخرى وقف المصريون صامدين رافعى الرؤوس . فكانت النتيجة الحتمية لهذه الصورة القاتمة الموجعة انتشار الفوضى والاضطراب .

٢٧٧– وفى وسط كل هذا القلق والتوتر ، وهذا الاستبداد الذى تقابله الثورات ، ظهر خطر جديد هو زحف الدولة العربية . فلقد نفخ محمد نبى الاسلام فى أهله عزيمة جديدة دفعتهم إلى أن يوحدوا صفوفهم ثم يتجهوا إلى غزو البلاد المجاورة لهم . وفى انطلاقتهم الأولى غزوا دولة الفرس فسحقوها . وملأهم النصر على هذه الدولة العريقة نشوة اندفعوا بتأثيرها إلى الزحف على سوريا بعد اجتياحهم فلسطين . ومن العجيب أن انتصاراتهم الباهرة المتلاحقة لم تحرك للامبراطور هرقل ساكناً . ويبدو أن شيئاً من الخور قد استولى عليه ، فلم يبق لديه غير عكارة من الهمة كان قد صرفها فى المناقشات الدينية العظيمة (١) ، وهكذا تحالف التوتر السياسى والقلق الدينى والتحاسد بين الولاة وحنق الشعوب المحكومة ، على تمهيد الطريق أمام الجيش العربى الزاحف – لقد كانت ساعة مواتية له حقاً (٢) .

= وتدخلها فقد كان هذا الشعب المصرى يرى أمامه كل يوم بطش الأباطرة بالبطاركة الذين كانوا كثيراً ما يفضلون النفى على امتيازات كرامتهم العظمى، والحرم على قبول العقيدة المفروضة . وكانت الأحكام الغاشمة الصادرة من القسطنطينية تتكرر بلا انقطاع مستهدفة تجليس العملاء على عرش القديس مرقس فلا تؤدى إلا إلى الصدام والمذابح » .

(١) دائرة معارف العلوم الدينية (بالفرنسية) جـ٦ ص١٨٤ .

(٢) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى المبحث الثانى لجاستون فييت ص١١٥ حيث يقول ما نصه : (... Les arabes n'eurent pas en face d'eux des populations attachées à leurs maitres, ni des chefs militaires capable d'user aves discernement des ressources immenses que possédaient les contrées envahies, sans quoi' ecrit de Gobineau, " les Amr et les Khalid se seraient fait rudement et promptement reconduire dans leurs deserts " .

وترجمته كما يلى : « لم يواجه العرب شعوباً متعلقة بحكامها ، ولا قادة حربيين فى استطاعتهم أن يستغلوا موارد البلاد الخاضعة لهم بحكمة ، ولولا ذلك ، على حد تعبير دى جوبينو لاضطر القواد أمثال عمرو وخالد أن يعودوا القهقرى لفورهم إلى صحاريهم » .

٢٧٨- وامتلأ العرب نشوة بانتصاراتهم المتلاحقة فى بلاد فارس وفلسطين وسوريا ، وبرغبتهم فى بسط نفوذهم ونشر دينهم الجديد بين الشعوب فواصلوا الزحف على مصر (١) وكان عمرو بن العاص قائد الجيش الزاحف على بلادنا فحاصر الفرما على البحر الأحمر . ودام القتال شهراً واحداً سلمت المدينة بعدها وكانت الفرما هى الباب الذى دخل منه جميع الغزاة الآتين من الشرق لأن الذى يستولى عليها يستطيع التوغل منها إلى داخل البلاد . واتجه عمرو بجيشه جنوباً . فكانت أول مدينة قاومتهم فى طريقهم هى بلبيس حيث اضطروا إلى مقاتلة حاميتها شهراً ثانياً . فلما سقطت بلبيس انفتح أمامهم الطريق إلى حصن بابلون (بمصر عتيقة) . وكان هذا الحصن قد بناه الامبراطور الرومانى تراجان فى مستهل القرن الثانى للميلاد فحاصره عمرو بجيشه . وظل الحصار سبعة شهور (٢) . وخلال هذه الشهور السبعة توالت الامدادات على العرب ، بينما ظل البيزنطيون يغطون فى سبات عميق . وحينما كانت رحى الحرب دائرة بدأ العرب بمفاوضة شخص يدعى المقوقس لايزال لغزاً غامضاً . ولم يتفاوض معه العرب فحسب بل أنه وقع على المعاهدة التى سلّم بمقتضاها مصر إلى حكمهم . ولقد دمغته مفاوضاته وتسليمه السريع بالخيانة العظمى .

٢٧٩- ومع أن الغموض لايزال يكتنف شخصية المقوقس ، إلا أن هذا الغموض لم يصنه من أن يوصف بالخيانة. وفى هذا الصدد يقول دى هينو: « إن عدم وصول امدادات من القسطنطينية ، والعداء المستحكم بين القبط والبيزنطيين والخيانة التى اتصف بها شخص له مركز عالٍ يشار إليه باسم «المقوقس» ، كل هذه العوامل مجتمعة توضح لنا ذلك الانحدار السريع الذى كان نذير الموت للامبراطورية البيزنطية فى مصر » . ويضيف دى هينو فى الهامش قوله : « ولكن - من كان هذا المقوقس الخائن على وجه التحقيق ؟ أكان الأسقف الملكى قورش ؟ أو شخصية أخرى ؟ وهل لا يجوز أن

(١) اختلف المؤرخون على تاريخ الفتح العربى فقال بعضهم أنه حدث فى السنة الثامنة عشرة للهجرة أى سنة ٦٣٨م بينما أوصله البعض الآخر إلى سنة ٦٤٢م ، وقد أخذنا هنا بالرأى السائد فجعلناه سنة ٦٤١م .

(٢) أو ستة شهور فى رأى بعض المؤرخين .

يكون شخصية خيالية لا وجود لها على الاطلاق ؟ (١) ويرجح بعض المؤرخين بأنه كان قورش الأسقف – الوالى ، لأنه كان صاحب السلطة المطلقة فى مصر فى ذلك الوقت . فيقول جاستون فييت المستشرق الفرنسى : « يطلق المؤرخون العرب اسم « المقوقس » على الرجل الذى نظم الدفاع عن مصر ضد الفتح العربى ثم وقع معاهدة التسليم معهم . وهذه التسمية غامضة . ومن المتواتر أنه قورش البطريرك الملكى الذى كان الامبراطور هرقل قد عهد إليه بالادارة المدنية أيضاً (٢) . أما دائرة المعارف البريطانية فتقول ما ترجمته : «إن السهولة التى انتزعت بها مصر من قبضة البيزنطيين ترجع إلى خيانة واليها قورش الذى كان بطريرك الاسكندرية أيضاً . كما ترجع إلى عدم كفاءة القادة الرومانيين » (٣) .

٢٨٠– ومهما يكن من حقيقة قورش ، فالواقع أن شخصاً ما سلم حصن بابلون إلى العرب وانسحب بجنده منه قاصدين إلى الاسكندرية . وبينما كانت هذه العمليات الحربية دائرة وقف القبط موقفاً سلبيًا ، يتفرجون على

---

(١) « فى كتابه بمصر : من مينا إلى فؤاد الأول » (بالفرنسية) ص١٩٧ حيث يقول :

" L'absence de secours de la part de Constantinople, les haines qui divisaient entre eux les habitants Coptes et Grecs, la trahison probable d'un personnage trés considérable, désigné vaguement par les historiens sous le nom de Moqaouqis, expliqueraient assez bien cette chute qui fut le coup de grâce donné à la domination byzantine dans la moyenne et la Basse Egypte ".

وأضاف على الهامش " De plus , quel est au juste ce Moqaouqis tratre ? le patriarche melkite Cyrus ? ... ou peut être un personnage imaginaire ? ".

(٢) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) جـ٢ المبحث الثانى لجاستون فييت ص١٠٠ حيث يقول :

" Les textes Arabes donnent au fonctionnaire qui organisa la defense de l'Egypte, puis signa le traitè de Capitulation, le surnom encore inéxpliquè de Mokawkis ... On convient généralement qu'il s'agit du patriarche Melkite Cyrus, à qui Heraclius avait confié l'administration civile du pays ".

(٣) فى طبعتها الرابعة عشرة جـ٨ ص٨٧ حيث جاء ما نصه : " The ease with which this valuable province was wrenched from the Roman empire appears to have been due to the treachery of the governor of Egypt, Cyrus, patriarch of Alexandria the incompetence of the Roman generals ".

الحوادث دون أن يشتركوا فيها . فلم يكونوا يشعرون بأى تضامن مع الحكام البيزنطيين الذين لاقوا الويل على أيديهم . فقد كان هؤلاء البيزنطيون دخلاء على مصر، لا شاغل لهم إلا استنزاف دماء المصريين . فكانوا يتكلمون بلغة غير لغتهم ، ويدينون بالولاء لعقيدة غير عقيدتهم . ويؤيدون امبراطوراً غريباً عنهم . وحين وقف القبط يتفرجون على المعارك الدائرة رحاها زينت لهم الشماتة أن الحرب ضد الامبراطورية البيزنطية لا ضد بلادهم المصرية ، وبخاصة لأن أباطرة القسطنطينية كانوا قد دأبوا -منذ مجمع خلقيدون المشئوم- على حرمان القبط من شرف الدفاع عن بلادهم بسبب الثورات المتتالية التى كان يخوضها القبط ضدهم ، فأراد أصحاب السلطان البيزنطى أن يقضوا على هذه الثورات قضاء مبرماً فكانت احدى وسائلهم منع القبط من الانخراط فى سلك الجيش – على أن القبط – فى تخليهم عن مناصرة مستعمريهم – لم يتخلوا مطلقاً عن اعتزازهم بقوميتهم (١) . ولقد اندفعوا فى مسلكهم هذا بدافعين : التوتر المتزايد بلا هوادة بينهم وبين أباطرة القسطنطينية، وبارقة الأمل فى أن يكون الحكم الجديد أخف وطأة عليهم من الحكم القديم .

٢٨١– ولم يكن القبط بالشعب الوحيد الذى جاش فى صدره هذان العاملان ، بل شاركهم فيهما الأسبان . فلقد قال جيتى : « لقد استقبل غالبية الأسبان العرب استقبال المحررين » (٢) . كذلك أحس السوريون بهذه الأحاسيس عينها إذ قد وصف سير وليم موير هذه الحقيقة بقوله : « ... لم يذق السوريون آلام الاضطهاد الدينى على أيدى البيزنطيين فحسب ، بل ذاقوا الأهوال بسبب تزايد الضرائب . ولهذه الأسباب واجهوا الزحف العربى على بلادهم دون أن

(١) فى الجزء الثانى المبحث الثانى من كتاب « مختصر تاريخ مصر » لجاستون فييت ص١١٥ حيث يقول : " en Egypte particulièrement, c'est Byzance qui était attaquée, et, en abandonnant leurs mattre, les Coptes n'ont d'aucune facon abdiqué leur dignité nationale " .

(٢) فى كتابه تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) جـ٥ ص٥٣٠ حيث يقول : " un grand nombre d'Espagnols acceptèrent les Musulmans comme des libérateurs " .

يحركوا ساكناً، آملين فى أن يكون نصيبهم أكثر احتمالاً تحت حكم العرب المعروف باللين والتسامح من نصيبهم تحت التعسف البيزنطى (١) .

وهكذا يشهد المؤرخون بأن الشعوب تنفست الصعداء حين أحست بأن ظل القسطنطينية آخذ فى التقلص أمام الزحف العربى ، كما أحست ببارقة الأمل تشق ظلمتهم حين رأوا الامبراطورية البيزنطية تتداعى أمام عيونهم (٢) .

٢٨٢- وبعد أن تم النصر لعمرو بن العاص على حصن بابلون ترك عدداً من رجاله فى الفسطاط (٣) وزحف بالباقين على الاسكندرية . وفى أثناء هذا الزحف التقى جيشه بعددٍ من الكتائب البيزنطية المرابطة فى مختلف المدن المصرية . ولكن الأمراء الذين كانوا ولاة مدنيين وقادة حربيين فى آن واحد لم يوحّدوا صفوفهم ولم ينسّقوا عملياتهم الحربية معاً ، بل وقفوا يتفرجون على هذا الجيش الزاحف ينتصر على كل منهم بمفرده ويغلبهم واحداً فواحد دون أن يفكر أحد فى نجدة أخيه أو فى الاتحاد مع الأمراء الذين لم يواجهوا جيش عمرو بعد. بل ظلوا جميعاً فى أماكنهم ينتظر كل منهم دوره فى عدم مبالاة بدلاً من تنظيم هجوم موحد منسق ويبدو أن هذا الخمول العجيب الذى كان قد استحوذ على امبراطورهم هرقل قد سرى إليهم فأفقدهم المقدرة على العمل . كذلك ظل التحاسد بينهم على أشده حتى لقد أظلم بصيرتهم، فلم يفقهوا إلى

---

(١) فى كتابه ، الخلافة - ازدهارها . فسقوطها ، (بالانجليزية) ص٦٥ - ٦٦ حيث يقول ما نصه : " the people of Syria who, apart from the religious persecutions to which they had been subjected, suffered from increased taxation, and in consequence remained passive spectators of the invasion of their country, hoping more indeed from an occupation by the Arabs who abstained from pillage, and whose rule was mild and tolerant than from the continuance of tbe status quo " .

(٢) دائرة معارف العلوم الدينية (بالفرنسية) جـ٩ ص٥٠١ حيث جاء ما يلى :

" A l'époque ou parut Mahomet, l'empire byzantin, et celui de Perses s'éffondraient d'eux - mêmes . Le Syriens chrétians, opprimés par les Grecs, n'aspiraient qu'à s'en affranchir " .

(٣) أى الخيمة - وهو الاسم الذى أطلقه عمرو بن العاص على منطقة حصن بابلون حيث نصب خيامه (أى مصر عتيقة) .

أن اتحادهم ومؤازرتهم بعضهم بعضاً سيمكنهم من القضاء على عدوهم المشترك. وهكذا استطاع عمرو بن العاص أن يقهر هؤلاء الأمراء المتحاسدين المفككين . فلم يلبث الجيش الزاحف أن ألقى الحصار حول أسوار الاسكندرية . وهنا أيضاً يظهر الخلاف بين المؤرخين إذ يقول بعضهم أن حصار هذه العاصمة المجيدة دام شهور ثلاثة ، بينما يؤكد غيرهم أنه استمر أربعة عشر شهراً (١) .

٢٨٣- ومرة أخرى تألب التنافس والتحاسد والتمييز العنصرى على اضعاف البيزنطيين مما أدى إلى تسليمهم العاصمة الثانية لامبراطوريتهم (٢). ولولا هذه القوة المعنوية التى نخرت كالسوس فى عظام الامبراطورية التى شاد أباطرة رومية وبيزنطة مجدها لضاعت جهود عمرو بن العاص عبثاً ، وبخاصة لأن الاسكندرية لها شاطئ طويل ممتد على مسافة أميال ، تروح المراكب وتغدو أمامه بلا انقطاع ، وكانت فى الوقت عينه محصنة تحصيناً قوياً إذ كانت تحيط بها أسوار عالية منيعة . فلم يكن لمدينة كالاسكندرية أن تخشى الجوع الذى يفرضه الحصار لأن الامدادات التى يمكن أن تصلها عن طريق البحر سهلة ميسورة . ولكن على الرغم من كل هذه المزايا العجيبة فإن الاسكندرية سلمت بعد أشهر (طالت أو قصرت) . ويرجع تسليمها إلى التحزبات التى مزّقت كلمة أصحاب الحكم فيها ، وإلى أن القواد كانوا فاسدين مرتشين . فأدى هذا كله إلى انتقال مصر من حكم البيزنطيين إلى حكم العرب فى خريف سنة ٦٤٢م . وقد وقع عمرو بن العاص القائد العربى وقورش عميل القسطنطينية على المعاهدة التى تم بها هذا الانتقال : وكلاهما غريب عن هذا البلد العتيق الذى تحكما فى مصيره .

---

(١) مختصر تاريخ مصر جـ٢ المبحث الثانى لجاستون فييت ص١١١ حيث يقول :
" Les traditions musulmanes ne s'accordent pas sur la date, ni sur la durée du siège d'Alexandrie par les Arabes, la resistence byzantine dura de trois à quatorze mois " .

بينما يقول ستانلى لاين پوول فى كتابه ، تاريخ مصر فى القرون الوسطى ، ص١٣ ما نصه :
" The chronology of the Arab conquest of Egypt is almost hopelessly bewildering " .

(٢) إذ جاءت بعد القسطنطينية مباشرة .

٢٨٤- وما أن استقر الأمن حتى اتخذ عمرو بن العاص مقره فى ضاحية الفسطاط - وهى الضاحية التى ضرب فيها خيامه عندما حاصر حصن بابلون. وقد جعل عمرو بن العاص من هذه الضاحية عاصمة له لسببين : أولهما أنه انتصر فيها على أقوى حامية للامبراطورية البيزنطية مرابطة فى مصر ، وثانيهما أن المواصلات بين الاسكندرية وبلاد العرب لم تكن ميسورة وهو كان يبغى مركزاً سهل الاتصال ببلاده .

٢٨٥- ولقد أراد عمرو - حالما استتب له الأمر - أن يتفاهم مع القبط ، فدارت بينه وبينهم مفاوضات عرف أثناءها أن الأنبا بنيامين البابا الشرعى المنتخب من الشعب لايزال عائشاً فى دير فى أعالى الصعيد ، لأنه كان قد اضطر هو وأساقفته إلى أن يغادروا عواصمهم تجنباً لبطش قورش الدخيل بهم . وكان زعيم القبط المتحدث بلسانهم إذ ذاك رجلاً مؤمناً مخلصاً اسمه سانوثيوس (١) . فرجا عمرو منه أن يبعث برسله إلى البابا الشريد ليطلب إليه أن يعود إلى مقر رياسته آمناً مطمئناً . ولقد فرح القبط بهذا التصريح ، وسارع رسل سانوثيوس إلى الصعيد ليبلغوا باباهم بما جرى .

وفى تلك الأثناء تعهد عمرو للقبط بأن يدع لهم حرية العبادة كما يدع لهم حرية التصرف فى شئونهم القضائية والادارية . ولم يكتف عمرو بذلك ، بل أقام بعضاً منهم مديرين لمختلف الجهات ولم يطالبهم بغير الجزية إذ ألغى الضرائب الفادحة التى كان أباطرة القسطنطينية قد فرضوها على المصريين بغير رحمة . على أن عمرو - مع تسامحه هذا - قد أعفى القبط من الجندية فحرمهم بذلك شرف الدفاع عن وطنهم عند الحاجة (٢) .

٢٨٦- وما أن وصل الأنبا بنيامين إلى بابلون حتى خف سانوثيوس ليستقبله وينال بركته ويبلغه بكل ما جرى بينه وبين عمرو . ثم اتفق معه على الموعد الموافق لمقابلة القائد العربى . فلما التقى الرجلان الكريمان تحادثا ملياً

---

(١) لو كان المقوقس قبطياً فلماذا كان تفاهم عمرو بن العاص مع سانوثيوس بعد أن استتب له الأمر ولماذا اختفى المقوقس بعد توقيعه المعاهدة ؟ .

(٢) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) جـ٢ المبحث الثانى لجاستون فييت ص١٢٩ .

فى جميع الشئون الخاصة بمصر ورفاهيتها ثم ألقى الأنبا بنيامين كلمة ضافية على المجتمعين وعلى أثر هذه الزيارة أعلن عمرو تقديره للبابا الاسكندرى على رؤوس الأشهاد إذ قال : « إنه لم يحادث فى حياته رجلاً من رجال الله أطهر ذيلاً وأنقى صحيفة وأجل منظراً منه » (١) ثم التفت إلى ضيفه الجليل وقال : « تفضل بالعودة إلى مقر كرسيك ، وأرع أولادك ، وقم بشئونهم كما يتراءى لك – وإن منحنى الله تعالى النصر على برقة وطرابلس بصلواتك ، فإنى أهبك كل ما تطلب » . فرفع البابا الجليل أكفَّ الضراعة داعيًا لعمرو بالنصر ثم التفت إلى الحاضرين ونصحهم بأن يلازموا الهدوء ، وأن ينصرف كل منهم إلى عمله لتستعيد مصر ما أضاعته بسبب الحرب ونتيجة لطغيان البيزنطيين (٢) .

٢٨٧– وسار عمرو على رأس جيشه ، فغزا برقة وانتقل منها إلى طرابلس. ثم فرض على المدينة الثانية جزية من العبيد توردهم له سنوياً . فلما تم له النصر على تلك البلاد عاد إلى مصر واستقر فى الفسطاط التى كان قد اتخذها عاصمة له . وكانت توجد قناة – تعرف باسم الخليج – كانت تجرى من القاهرة إلى بلبيس ومنها إلى القلزم (٣) . وقد أصلحها عمرو ورفع كل ما فيها من عوائق فى السنة الثانية لغزوه مصر . وظلت هذه القناة صالحة للملاحة ثمانين سنة بعد ذلك. وكان عمرو حكيماً متزناً فى معاملته المصريين، فأولى الزراعة اهتماماً كبيراً وأمر العمال المصريين بتنظيف الترع والمصارف.

٢٨٨– إلا أن الخليفة عمر بن الخطاب ضاق ذرعاً بعمرو لأنه كان ينتظر منه أن يبعث إليه بمبالغ من المال أوفر بكثير مما وصله . وأبدى عمر غضبه

---

(١) تاريخ مصر الاسلامية لالياس الأيوبى ص١٦ .

(٢) تاريخ بطاركة الاسكندرية لساويرس أسقف الأشمونين (مطبعة ايفيتس) جـ٢ ص٤٩٦ حيث يقول : « وكان الأب بنيامين حسن المنظر جداً جيد الكلام بسكون ووقار » ومن٤٩٧ حيث يقول : « وانصرف البابا بنيامين من عند عمرو بن العاص مكرماً مبجلاً . وكل ما قاله الأب الطوبانى للامير عمرو وجده صحيحاً لم يسقط منه حرف واحد » ، السنكسار العربى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٢ ص٤٧٢ .

(٣) أو البحر الأحمر .

على عمرو فى السنة الرابعة للفتح العربى بأن عيّن عبد الله بن سعيد والياً على الصعيد وحصر سلطة عمرو فى الدلتا . ولكن عمرو لم يرض بهذا الوضع واستقال من ولاية مصر . على أنه قبل أن يغادر البلاد كان البيزنطيون قد أرسلوا أسطولاً مؤلفاً من ثلاثمائة مركب إلى الاسكندرية واحتلوها من جديد ، فامتلأوا أملاً فى استرداد مصر كلها لحكمهم ثانية . فرجا المصريون الخليفة أن يبقى عمرواً ليواجه هذا الغزو الجديد لخبرته ودرايته . فقبل رجاءهم . وكانت المعركة الثانية حول الاسكندرية حامية الوطيس سقط فيها العدد الوفير من الجانبين . وقد سقط جواد عمرو من تحته إذ قد أصابه سهم فى رقبته . أما قائد البيزنطيين – واسمه مانويل – فقد سقط هو فى المعركة . على أن النصر كان حليف عمرو بن العاص للمرة الثانية فى مصر. وكان قد أقسم بأنه إن تم له النصر فسيهدم أسوار الاسكندرية . فنفذ بالفعل ما كان قد أقسم به ، وأمر جنده بأن يدكوا الأسوار حتى تتساوى والأرض (١) . ثم أصدر أمره باضرام النار فى المدينة كلها . وهكذا أصبحت الاسكندرية عاصمة العلم والثقافة وكعبة الفكر والمفكرين أطلالاً مبعثرة . فكان نصيبها فى ذلك الدمار نصيب أورشليم بعد أن دكها الامبراطور تيطس . وفى صدد هذه المأساة قال دى هينو أن أحد الرحالة – واسمه بيير مارتير دانجيرا – الذى مر بالاسكندرية سنة ١٥٠٢ كتب عنها يقول : « يا للأسى ! هذه الاسكندرية الشهيرة العظيمة ، الغنية بسكانها ، البالغة أقصى درجات الجمال ، التى كانت فى غابر الزمان عاصمة البطالسة ، رأيناها – ويا لهول ما رأينا ! – رأيناها مهدمة مدمرة يتطرق الهجران إلى معظم أرجائها » (٢) .

---

(١) جاء فى كتاب « مصر الاسلامية » لالياس الأيوبى ص٩٩ ما نصه : « فحلف عمرو بن العاص لئن أظفره الله عليهم ليهدمن ذلك السور حتى يكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان » . راجع أيضاً « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول ص٢١ .

(٢) فى كتابه « مصر : من مينا إلى فؤاد الأول » (بالفرنسية) على هامش ص١٩٩ حيث قال :
" Un vorageur de passage à Alexandria en 1502, Pierre martyr d'Anghera écrit : Odouleur ! cette Alexandrie célébre, immense, si riche d'habitants, si belle, jadis capitale opulente le Ptolémées, nous l'avons vue, Ospectacle ! abattu ruinée en grande partie déserte " .

٢٨٩- وهنا يحسن بنا أن نقف قليلاً عند حادث كان له أكبر الأثر فى التاريخ - ألا وهو حادث حرق مكتبة الاسكندرية . لأن هذا الحادث قد أثار الكثير من المتناقضات فى مختلف العصور حتى لقد خصّه عدد جزيل من المؤرخين بالافاضة فيه . على أن الكلام هنا سيقتصر على سرد أقوال اثنين من جموع المؤرخين هما جاستون فييت المستشرق الفرنسى المعروف وأمين مكتبة دار الآثار العربية بالقاهرة سابقاً ، والمتنيح الأنبا كيرلس مقار بطريرك القبط الكاثوليك والرئيس المنتدب للمجمع العلمى المصرى سابقًا . فقد قال فييت : « إن عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩هـ (سنة ١٢٣٠م) والمشهود له بتوخى الحقيقة والكتابة الجدية ، كتب يصف عامود السوارى ، فقال عنه أنه الأثر الوحيد الباقى من ذلك البناء الفخم الذى علّم فيه أرسطاطليس وتلاميذه من بعده » . ثم أضاف هذا الطبيب البغدادى الشهير إلى ذلك الوصف قوله : « وهناك كانت تقوم المكتبة التى أحرقها عمرو بن العاص بأمر عمر » . وهذا النص الصريح الذى اتخذه الغرب تكأة للنقاش قد أثار الدوائر الاسلامية العصرية عاصفة من النفور . ويرجع هذا النفور إلى المغالاة فى التفسير إذ رأى فيه القوم مساساً بالحضارة العربية عامة لذلك وجب علينا أن نرد المسألة إلى حدها الحق . فنحن لا نجهل أن المسلمين قد قاسوا بلايا الحرب فى هذا المضمار ، ونختصر على ذكر مكتبة طرابلس التى أحرقها قبائل الفرنجة ، ومكتبة بغداد التى أحرقها المغول . ولكن الفتح العربى - على وجه التحقيق - قد أضر بالانسانية من الناحية العلمية كما أضر بها الفتح المغولى وغيره من الفتوحات . وعرب القرن السابع - فيما نظن - كانوا قليلى العناية بالأدب المكتوب بلغات يجهلونها . وعلى ذلك يكون اتهام جنود عمرو باحراق المكتبة لا مساس له بالحضارة العربية اطلاقاً . وعلى كل حال فإن شهادة ابن خلدون - ولو جاءت متأخرة - لا يمكن اغفالها . وقد أثبتت هذه الشهادة أن العرب قد ألقوا فى الماء والنار جميع كتب الفرس التى يؤيد الواقع زوالها من الوجود بحيث لم يبق لها أثر . وعلى ذلك يكون حرق مكتبة الاسكندرية حادثًا محتملاً وقوعه من جنود العرب كما يكون متفقًا مع

المنطق بحيث يتسنى لنا أن نؤيده دون أن نمس الحقيقة الراهنة (١) .

هذا – ولا يقيدنا ذلك بالاعتراف بحقيقة الحادث . فإننا نضطر فى غالب الأحيان – عند كتابة تاريخ المسلمين – إلى أن نرجع إلى مصادر حديثة لانعدام المصادر القديمة . أما فيما يتعلق بالفتح العربى فإن لدينا مصادر قديمة عديدة كمؤلفات ابن الحكم والبلاذرى والطبرى والمسعودى والكندى ، ولم يشر أحدهم من قريب أو من بعيد إلى حرق المكتبة . فمن الخفة أن نصدق ما رواه عبد اللطيف الذى جاء بعد هذا التاريخ – تاريخ حرق المكتبة – بستة قرون (٢) .

وهذا الموقف الذى يقفه جاستون فييت يتعارض مع موقف غبطة الأنبا كيرلس مقار . فإن هذا الحبر العلامة يستشهد بسوزومين وثيئودوريت وروفينوس (٣) ليبرهن على أن المكتبة كانت لاتزال موجودة فى القرنين الرابع والخامس . ويضيف إلى شهادتهم ما شهد به أفتونيوس إذ قال : «وهذه المكتبة مكتبة السيرابيوم – المفتوحة للجمهور طول النهار هى –للمدينة كلها– دعوة مستمرة للاستقاء من مناهل الحكمة » . ويردف الأنبا كيرلس شهادات الأقدمين بقوله : « أن مكتبة السيرابيوم التى كانت فى القرن الرابع المكتبة العظمى للاسكندرية ، لم تحرق بأمر يوبيانوس سنة ٣٦٤م ، ولا خربت بأمر ثيئوفيلس الكبير سنة ٣٩١م ، بل ظلت قائمة مع المكتبات الأخرى فى القرن الخامس وحتى آخر القرن السادس » (٤) .

---

(١) « مقدمة ابن خلدون » طبع على نفقة ورثة المرحوم الشيخ محمد عبد الخالق المهدى – القاهرة سنة ١٩٣٠ .

(٢) فى مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) جـ٢ المبحث الثانى ص١١١ – ١١٢ وقد أوردنا النص الفرنسى فى آخر هذا الفصل .

(٣) ثلاثتهم من المؤرخين القدامى .

(٤) « دراسة جديدة لسيرابيوم الاسكندرية » (بالفرنسية) للمنسيور كيرلس مقار ص٣٠ حيث أورد شهادة أنتونيوس وهذا نصها : " Cette Bibliothéque (du Serapeum) ouverte au public à toutes les heures, est pour toute la cité, une invitation constante à la sagesse " . " La Bibliothéque du Serapeum qui était au IVème siècle la =

وثمة شاهد آخر استند إليه الأنبا كيرلس مقار فى هذا الشأن الخطير هو بول أوروز الأسبانى - وكان شاباً سنة ٤١٤م . وقد جاء إلى الاسكندرية إذ ذاك، وزار مكتبة السيرابيوم وغيرها من مكتبات المدينة وشهد بما رآه . واستكمل الحبر العلامة بحثه فى هذا الموضوع بالرجوع إلى أمونيوس الفيلسوف الاسكندرى الذى كتب فى السنوات الأخيرة للقرن السادس ، ولم يكتف بذكر المكتبة العظمى التى بالاسكندرية بل ذكر أيضاً أنها كانت تحوى إذ ذاك أربعين نسخة من كتاب « التحاليل الفلسفية » ونسختين من « المصنفات » وكلاهما للفيلسوف المعروف أرسطاطليس . وكان أمونيوس هذا معلماً ليوحنا الغراماطيقى الملقب بفيليبون الذى يروى عنه كتّاب العرب أنه بذل أقصى جهده فى اقناع عمرو بن العاص بترك المكتبة وقد ضاعت جهوده عبثاً لأن عمرواً كان قد تلقى أوامر مشددة من الخليفة عمر بن الخطاب تحتم حرق المكتبة .

وبعد أقوال هؤلاء المؤرخين الأقدمين أورد الأنبا كيرلس مقار شهادة الدكتور عبد اللطيف البغدادى الذى تخرج من المدرسة النظامية فى بغداد ، والذى جاء إلى مصر حيث قضى سنوات عدة فى التدريس بالأزهر ، ثم ذهب إلى دمشق مع صلاح الدين الأيوبى . ولما عادِ إلى بغداد مسقط رأسه كتب مذكرات عن رحلته . وبعد أن وصف - فى مذكراته هذه - عامود السوارى والخرائب المحيطة به أضاف : « وله دار العلوم وفيها خزانة الكتب التى حرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضى الله عنه » (١) .

=Grande Bibliothéque d'Alexandrie n'a pas été brulée par l'ordre de jovien en 364, ni detruite par le patriarche Théophile en 391 , mais elle a existé avec les autres bibliothéques de la ville au Vème siécle et jusqu' à la fin du VIème siécle".

(١) « مذكرات عن رحلتى فى مصر » للدكتور عبد اللطيف البغدادى الفصل الرابع الفقرة الأولى وللاطلاع على مختلف الآراء حول هذا الموضوع راجع « دراسة جديدة لسيرابيوم الاسكندرية » (بالفرنسية) للمنسنيور كيرلس مقار ص٣٣ - ٣٦ ، تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٩٣ - ٩٤ والهوامش الصافية على هاتين الصفحتين ٢ جـ٥ ص٤٧١ - ٤٧٢ والهامش على الصفحة الأخيرة منهما. راجع أيضاً كتاب الفريد بطلر : الكنائس القبطية القديمة فى مصر جـ٢ ص٢٤٠ .

وتجدر الاشارة هنا إلى لهجة التوكيد التى يبديها عبد اللطيف – فهو لم يقل « من الشائع » أو « يقال » ، بل سرد الواقعة بصيغة لا تدع مجالاً للشك أمام القارئ مما يدل صراحة على أنه إنما كان يسرد حقيقة متداولة بين الجميع .

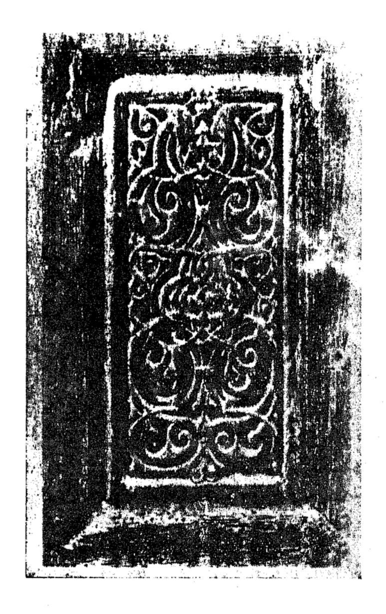
ولقد كان خطاب الخليفة عمر بن الخطاب قاطعاً لا هوادة فيه . وقد أورد ابن خلدون هذا الخطاب فى مقدمته مبيناً أن الخليفة بعث به إلى سعد بن أبى وقاص فاتح بلاد الفرس وخاصاً بمكتبتهم قال له فيه : « إن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن يكن ضلالاً فقد كفانا الله » . ولما كان الخطاب الذى بعث به عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص هو بعينه الخطاب الذى بعث به إلى سعد بن أبى وقاص كان خطاباً دورياً حكم به هذا الخليفة على مكتبتى بلاد فارس والاسكندرية فى آن واحد .

وبين هذين الكاتبين – وهما جاستون فييت والأنبا كيرلس مقار – وقف الياس الأيوبى الذى توسع فى الكتابة ليبين أن المكتبة كانت – عند دخول العرب فقد فقدت كل قيمتها الروحية الفكرية إذ لم يكن بها يومذاك غير كتب النحو والصرف والموضوعات الجدلية التى كان قد مجّها القبط إلى حد أنهم كانوا متشوقين إلى حرق المكتبة بأنفسهم ! ثم لخص حديثه هذا فى النهاية بقوله : « فلم يخسر العالم ، إذن خسارة يبكيها فى مسألة احراق كتب تلك المكتبة ، لا – بل خرج من هاتيك الحادثة فائزاً فوزاً حقيقياً .... » (١) .

٢٩٠– وبعد الوقوف عند حادثة حرق مكتبة الاسكندرية نعاود مسايرة ركب التاريخ وانسياب حوادثه فنقول أن عمرواً تعمد أن يخرب الاسكندرية تخريباً شاملاً عند الانتصار عليها للمرة الثانية كى لا تتعرض لغزو البيزنطيين مرة أخرى . لأنهم – حين يجدونها أطلالاً مبعثرة – يجدون أن غزوها مخاطرة لا جدوى منها . ولئن كان رجال عمرو لم يضرموا النار فى المكتبة كما يعتقد البعض ، فالحريق الذى أضرموه فى الاسكندرية عامة – عند الغزو

---

(١) فى كتابه « تاريخ مصر الاسلامية » ص١٧٤ – ١٧٩ .



جزء من باب الهيكل بدير الأنبا بيشوى (بوادى النطرون) ويوجد مثله فى دير السيدة العذراء (البراموس) على باب هيكل الكنيسة القديمة التى تحمل اسمها المبارك

الثانى – قد التهم المكتبة ضمن ما التهم من مبان فخمة وآثار فكرية وفنية فى هذه المدينة التى ظلت قروناً عدة العاصمة الأولى للثقافة الروحية والأدبية فى العالم كله .

٢٩١– على أن المعارك التى دارت حول الاسكندرية للمرة الثانية والتى انتهت بدك هذه المدينة العظمى لم تغير فى شعور عمرو نحو القبط ، إذ أدرك أن البيزنطيين هم الذين خرقوا حرمة السلام الذى تعاهدوا به معه ، ولا دخل لأبناء مصر فى هذا التعدى . ولأنه ظل على عهده معهم فقد اتبع فى ادارة شئون مصر الطريقة عينها التى كانت متبعة من قرون قديمة من حيث الادارة والتقسيم إلى مديريات .

وقد رأى – تفادياً لما يحتمل أن يقع من ثورات – أن يعفى القبط من الخدمة العسكرية ، واكتفى بفرض الجزية كما سبق القول . فكان ما جمعه منهم من المال فى السنة الأولى لولايته مليون دينار (١) ، وفى السنة الثانية أربعة ملايين من الدنانير ، وفى السنة الثالثة ثمانية ملايين من الدنانير (٢) . كذلك عمل على تنمية الزراعة ليتسنى له ارسال القمح إلى البلاد العربية أسوة بالبيزنطيين الذين كانوا يرسلون القمح إلى القسطنطينية . وعلى الرغم من هذه الادارة الحازمة التى أبداها عمرو فإن الخليفة عمر بن الخطاب لم يرض عنه إذ كان يطمع فى مقدار من المال أوفر من الذى كان يصله من مصر . فعين عبد الله بن سعيد والياً على الصعيد أولاً على أن الأمر لم يستتب نهائياً لهذا الوالى الجديد إلا بعد مقتل عمر بن الخطاب وتولى عثمان بن عفان الخلافة . فجاء عبد الله بن سعيد إلى مصر مع عدد من الرجال . وكان من عبدة المال فجمع لنفسه ثروة ضخمة . وكان أول من بنى ديواناً يكون مقراً لتحصيل الجزية التى ضاعفها مما أدى إلى انتشار مجاعة فى البلاد قضت على حياة عدد كبير من أهلها . على أن الله – فى شامل رحمته بالمصريين – قد تداركهم بأن بارك فى محصول البلاد ، فزالت بذلك وطأة المجاعة وتم قول

(١) كان الدينار يساوى خمسين قرشاً إذ ذاك .

(٢) وجاء فى بعض المخطوطات أن المبلغ وصل إلى اثنى عشر مليون دينار .

المزمور : « لأن أعين الكل تترجاك . لأنك تعطيهم طعامهم فى حين حسن » (١) .

٢٩٢- على أن عمرو بن العاص - قبل أن يغادر مصر - أكد احترامه للقبط بأن منح الأنبا بنيامين الحق فى اعادة بناء الأديرة والكنائس التى كان قد دمرها الفرس . وفرح البابا الاسكندرى بهذه المنحة إذ قد عدها منحة سماوية. وأخذ يتفقد الأبنية المقدسة ليعرف ما تهدم منها وما تبقى . وكانت نتيجة زياراته لهذه الأبنية أنه قرر البدء بتجديد أديرة برية شيهيت وكنائسها . واختار أن يبدأ بدير الأنبا بيشوى إذ قد وجد أن البربر كانوا قد خربوه تماماً. ثم امتد البناء إلى بقية أديرة تلك المنطقة التى تقدست - بأنفاس أصفياء الله منذ القرن الثانى للميلاد وحين رأى الرهبان غيرة باباهم على تعيمر أماكن العبادة ازدادوا همة ونشاطاً ، وأتموا بناء الأديرة والكنائس الخاصة بها فى فترة قصيرة . وكانت النعمة التى حلت على بطل الأرثوذكسية الأنبا أثناسيوس الرسولى قد حلت على خليفته الأنبا بنيامين ، فجعلت الشعب يحبه ويلتف حوله ويدين له بالولاء الخالص ، فعم الكنيسة سلام شامل .

٢٩٣- وفى تلك الآونة أراد عبد الله بن سعيد أن يثبت أنه لا ينقص عن عمرو بن العاص فى شئ فجرد حملة على بلاد النوبة كان النصر فيها حليفه فعرض على ملكها جزية سنوية مشفوعة بثلاثمائة وستين عبداً وأمة. على أن النوبيين لم يكونوا مواظبين على تقديم هذه الجزية أو هؤلاء العبيد والإماء ، وكانوا يناوشون العرب على الحدود بلا انقطاع (٢) .

٢٩٤- ولما أتم الرهبان تجديد دير الأنبا بيشوى وكنيسته واستقروا فيه آمنين فرحين ، تركهم البابا الحكيم يستريحون قليلاً ثم استحثهم على معاودة العمل لتجديد دير الأنبا مكارى الكبير . فابتهجوا بهذا الطلب إلى حد أنهم ما

---

(١) مزمور ١٠٦ : ٢٧ - ٢٨ ، ١٤٥ : ١٥ - ١٦ .

(٢) دليل المتحف القبطى لمرقس سميكة جـ٢ ص١٤١ ، كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا للدكتور زاهر رياض ص١٦٥ .

كادوا ينتهون من عملهم حتى بنوا داخل الدير كنيسة جديدة . ثم انتدبوا بعضاً منهم ليذهب إلى الأنبا بنيامين ويطلب إليه أن يتفضل بالحضور إلى شيهيت لتكريس الكنيسة الجديدة . وقد وصل هؤلاء النساك المنتدبون من اخوتهم لمقابلة البابا الاسكندرى ليلة عيد الميلاد فى الساعة التى كان هذا البابا الجليل يتهيأ للنزول إلى الكنيسة ليحتفى بهذه المناسبة البهيجة. وقد فرح بلقياهم لما بدا عليهم من وقار ورصانة . ثم دعاهم إلى الاشتراك معه فى اقامة شعائر الصلاة . وبعد أن اغتبطوا جميعاً بتأدية الشعائر المقدسة معًا ورفعوا آى التسبيح لله تعالى على ميلاد كلمته المتجسد ، أعلم النساك باباهم الجليل بأنهم أتمموا بناء الكنيسة الجديدة فى دير الأنبا مكارى ثم قالوا له : « تفضل يا أبانا المبجل بالمجئ معنا للاحتفاء بتكريس هذه الكنيسة » . فأجابهم على الفور : « حقًا أنها لنعمة عظمى أن يمنحنى إلهى هذه الفرصة السعيدة المجيدة، ويتيح لنا جميعًا أن نجدد أماكن العبادة ومساكن القديسين بعد كل ما حاق بنا من آلام مريرة » . ثم التفت إلى أغاثون سكرتيره الخاص وقال له : « أعدد ما يلزمنا للسفر كى نحظى ببركة أبينا القديس مكارى الكبير » .

ولما دنا الموكب البابوى من البرية سبق بعض من الرهبان الركب ليبشروا اخوتهم فى الدير بقدوم خليفة القديس مرقس فخف الجميع لاستقباله وسار الشبان من الرهبان فى مقدمة الموكب يحملون سعف النخل يتبعهم الشيوخ حاملين المجامر وكان الجميع يترنمون معاً بالمزامير والصلوات الكنسية . فامتزجت صلواتهم وترانيمهم بالبخور المتصاعد من مجامرهم ، وترددت هذه الألحان فى فضاء الصحراء المترامية كما انتشرت رائحة البخور فعطرت الأرجاء .

٢٩٥- ولقد بدأ الأنبا بنيامين زيارته بتكريس الأديرة المختلفة فى برية شيهيت ثم انتهى إلى دير الأنبا مكارى الكبير أبى رهبان تلك البرية . وبينما هو يقيم الذبيحة الإلهية إذ به يرى فى ركن من الهيكل شيخاً وقوراً تشع منه الأنوار السماوية . فلم يستطع أن يتبين شخصيته لبهاء منظره . على أنه لم

يلبث أن رأى سيرافيماً (١) وسمعه يقول له : « هذا هو الأنبا مكارى أبو الآباء جاء ليشترك معك فى تكريس بيعة أقمتها باسمه لأبنائه الرهبان الذين يحبهم ويحنو عليهم ، فامتلأ قلب الأنبا بنيامين بالفرح الممتزج بالرهبة ، وأخذ يتأمل الأنبا مكارى فى اكبارٍ واجلال . وبينما هو شارد فى تأمل هذه الرؤيا العجيبة سمع السيرافيم يقول : « لو أن أولاده ساروا فى طريقه ودأبوا على السعى نحو الكمال المسيحى الذى دأب هو على بلوغه ، فسيسعدون معه فى مساكن النور. أما إن حادوا عن طريقه فيكونوا غرباء عنه فى دار النعيم » . وهنا اعترض الأنبا مكارى الحديث قائلاً : « يا مولاى لا تختم حديثك بهذه الكلمات : ولا تحكم على أولادى بقسوة . لأنه إن بقى فى العنقود عنبة واحدة فستحل عليها بركة الله . وإنى لواثق تماماً أنه إن وجد الآب السماوى راهباً واحداً يتمم الناموس ، بأن يحب الأخوة ، ويرفع عينيه نحو السماء مرة واحدة يومياً فسيرحم البقية من أجله ، ويقيهم العذاب الأبدى » . وحين سمع الأنبا بنيامين هذه الكلمات تهلل بالروح إذ أدرك عمق المحبة التى يكنّها الأنبا مكارى لأبنائه الرهبان وهتف قائلاً : « مبارك أنت حقاً أيها العظيم مكارى ، ومباركون هم أولادك السالكون فى طريقك ، لأنهم استحقوا أن يكونوا أولاداً لشفيع مقتدر مثلك . إنك مطوّب حقاً يا مكارى إذ أنت أشبه بالسفينة التى تحمل الكثيرين إلى ميناء السلام والخلاص . فطوبى للبطن الذى حملك والثديين اللتين رضعتهما (٢) لأنك جميل بالنعمة التى فاضت عليك وأعلت قدرك بين الناس » .

٢٩٦– ولما انتهى البابا الاسكندرى من تطويب الأنبا مكارى بدأ فى تكريس المذبح ، وإذ به يرى السيد المسيح له المجد يدهن المذبح بالميرون المقدس ويدهن بعده جدران الهيكل والكنيسة . وعند ذاك امتلأت روحه نشوةً

---

(١) واحد من أعلى طغمة من الطغمات السمائية لأنه هو وزملاؤه يحيطون بالجالس على العرش يقدمون إليه التسبيح دائماً بغير فتور ، ولكل منهم ستة أجنحة : باثنين يغطى وجهه من بهاء عظمة الله وباثنين يغطى رجليه ويطير باثنين – راجع صلاة الصلح وصلاة « أنت هو القيام حولك » من قداس غريغوريوس .

(٢) لوقا ١١ : ٢٧ .

سماوية وأخذ يردد قول المزمور : « ما أحلى مساكنك يارب القوات . تشتاق وتذوب نفسى إلى ديار الرب . قلبى وجسمى قد ابتهجا بالإله الحى ... مذابحك يا إله القوات ملكى وإلهى » (١) . ولقد انعكست النشوة الروحية التى غمرت الأنبا بنيامين على وجهه طيلة القداس الإلهى . فرأى الرهبان النور يشعّ من وجهه فامتلأوا بدورهم بالفرح الروحى . ولما انتهى القداس جلس البابا مع الرهبان يتبادلون الحديث عن عظائم الله . وفى أثناء الحديث قال لهم : « صدقونى يا أولادى إننى اختطفت إلى السماء مثل بولس الرسول ، ومثله أيضاً سمعت كلمات لا يسوغ لانسان أن يقولها (٢) . كذلك رأيت مجد الله يملأ الهيكل ، ورأيت الجند السمائيين يسبحون الآب والابن والروح القدس . ومع هذه الرؤيا العجيبة رأيت القديس مكارى الكبير أبا البطاركة واقفاً فى وسطنا مشاركًا إيانا الصلوات التى يمكن بواسطتها الدخول إلى عرش النعمة . وفى اللحظات التى رفعت فيها السر الأقدس إمتلأت نفسى بفرح لا يوصف إذ رأيت البخور يتصاعد من أفواه الاخوة – الذى هو صلوات القديسين (٣) المرتفعة نحو السماء حينئذ لم أتمالك نفسى لفيض الفرح الذى غمرنى . فهتفت بذلك النشيد الذى هتف به الفتية الثلاثة وهم وسط النار المتقدة وقلت: « مبارك أنت أيها الرب إله آبائنا ومسبح وممجد إلى الأبد » (٤) ، مبارك حقاً هو الله إله القديسين الذين يستظل العالم بصلواتهم ويهتدى بهم فى طريق التقوى . « ان هذا المكان ليس سوى ملتقى الملائكة ومسكن جميع الملتجئين إلى الله » . ولقد سبحت إلهى بقلب خالص معترف بمجده ، وسبحت ربى يسوع المسيح الذى أهّلنى لأن أرى كل هذه العجائب التى لا توصف » .

وكأن كل هذه الإستعلانات الإلهية لم تكن كافية إذ قد تمت أعجوبة فى شفاء ابن حاكم مدينة نيقيوس . فقد كان يشكو من مرض عضال ، وكان نائماً

(١) مزمور ٨٤ (٨٣ فى الأجبية) .
(٢) ٢ كورنثوس ١٢ : ٤ .
(٣) رؤيا ٥ : ٩ .
(٤) دانيال ٣ : ٤٢ .

فى الكنيسة بعد تكريسها وإذا به يصرخ صراخًا عالياً أزعج الجميع فهرعوا إليه. وعندها تحول فزعهم إلى فرح إذ وجدوه قد شفى : وروى لهم أنه رأى فى حلم رجلاً طويلاً ذا لحية بيضاء تتدلى فوق صدره قد جاء إليه ووضع عليه يده فأبرأه فى الحال . فتيقّن الجميع من أن الأنبا مكارى هو الذى ظهر له وشفاه (١) .

٢٩٧- وهكذا قضى الأنبا بنيامين يومه مع الرهبان وهم يتحدثون جميعاً بما يجريه الله تعالى من عجائب لا تنتهى . فلما غربت الشمس ، وانفرد كل راهب فى صومعته ، رأى البابا فى رؤى الليل ملاك الرب وسمعه يقول له : «قم أيها الراعى ، وسجّل قوانين الكنيسة ، ونظّم أمور هذا المكان المقدس الذى أنت مقيم فيه الليلة ليكون تسجيلك وتنظيمك منارةً تهدى جميع الذين سيلّبون نداء الله الهامس فى قلوبهم ويأتون ليقيموا هنا فى هذه البرية ، فأجابه البابا الاسكندرى : « إنه ليسعدنى أن أطيع أوامرك أيها الملاك النورانى » . قال له الملاك : « إذن فليكن معلومًا لديك أن يوم انتقالك من هذا العالم سيكون موافقاً للتاريخ الذى كرّست فيه بيعة القديس مكارى » . فرد عليه هذا البابا الوقور بقوله : « ليجعلنى إلهى مستحقاً لكل ما قلت ، ومبارك هو ربى يسوع المسيح محب نفسى لأن مراحمه تفيض علىّ وتغمرنى » . وعندها اختفى ملاك الرب من أمام عينيه . فلما أصبح الصباح طلب الأنبا بنيامين إلى أغاثون سكرتيره أن يسجل كل ما رآه وسمعه ليذكره هذا التسجيل بأعبائه الجسام وليستحثه على سرعة التنفيذ قبل أن يتم الله وعده وينقله من هذا العالم .

٢٩٨- وعاد الأنبا بنيامين إلى عاصمة كرسيه وانهمك فى تنفيذ ما أمره به الملاك وفى تثبيت المؤمنين وتعمير الكنائس التى خرّبها الاستعمار . وبينما هو منشغل بهذه الواجبات الراعوية العظيمة كان المسيحيون فى البلاد الأخرى منشغلين فى جدال عنيف حول موضوع له أهميته وهو : «هل للسيد المسيح مشيئة واحدة أم مشيئتان » . ولما اشتد النقاش بين الأساقفة حول هذا الموضوع

(١) أديرة وادى النطرون - « الرسالة السادسة من رسائل مارمينا » - للدكتور منير شكرى ، الاسكندرية سنة ١٩٦٢ ص١٨٧ .

رأى الامبراطور أن يدعو إلى عقد مجمع فى القسطنطينية . على أن الكنيسة المصرية لم يكن لها مندوبون فى هذا المجمع، ولم يسمع لها صوت فيه ، لأن الذى حضره هو قورش صنيعة الامبراطور . ولم يكن لقورش هذا أى حق فى أن ينوب عن كنيسة مصر أو يتكلم بلسانها لأنه كان دخيلاً معتدياً فرضه الاستعمار على هذه الكنيسة المصرية الصميمة التى رفضت الاعتراف به وقاطعته مقاطعة تامة . وفوق هذا فقد كان قورش (وقت انعقاد المجمع) خارج مصر إذ كان قد تركها نهائيًا على أثر توقيع المعاهدة بينه وبين عمرو بن العاص الذى هيأ الفرصة للأنبا بنيامين ليتسلم مقاليد رياسته ويعيش فى عاصمته . فلم يكن قورش معتدياً فحسب وإنما كان قد اضطر أيضاً إلى مغادرة مصر التى كان قد اعتدى عليها . وهكذا حققت الأحداث السياسية آمال القبط فى طرد هذا الدخيل . ومن المدهش أنه على الرغم من هذه الحقيقة فقد كان لقورش الوقاحة الكافية لأن يحضر المجمع الذى كان قد انعقد بأمر هرقل باسم الكنيسة المصرية . والأغرب من هذا أنه وجد من بين المؤرخين من قال أن بطريرك الاسكندرية حضر هذا المجمع (١) .

٢٩٩- وخلال هذه المناقشات توالت الأيام مما جعل نهاية الأنبا بنيامين تقترب ، وكان يعلم بقربها لأن ملاك الرب كان قد أنبأه بها . فشغل نفسه فى السهر على رعيته ودأب على تعليمها ليطمئن ضميره وسجّل القوانين الكنسية والنظم الرهبانية تنفيذاً لأوامر ملاك الرب حالما عاد من تكريس كنائس الأديرة بشيهيت . وما أن انتهى من تحقيق هذه الوصية حتى أصيب بمرض فى رجليه أقعده سنتين كاملتين احتمل فيها الألم والوجع بصبر وهدوء . وقد خدمه تلميذه أغاثون خلال هاتين السنتين خدمة الابن البار بأبيه المحبوب . ولقد أبدى القديسون عطفهم على هذا البابا الصبور فشفعوا فيه لدى الآب السماوى ضارعين إليه أن ينقله من دار الشقاء إلى دار الهناء . فتقبّل منهم تعالى هذه الشفاعة وأرسل إليه الأنبا أثناسيوس الرسولى وبصحبته قديسين آخرين . فظهر له ثلاثتهم فى حلم وبشروه بقرب انتقاله إلى بيعة الأبكار . وما أن انبثق فجر

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٤٣٣ .

تلك الليلة حتى فاضت روح الأنبا بنيامين إلى باريها . وكان انتقاله فى اليوم الثامن من شهر طوبى المبارك (١٧ يناير)- وهو ذات اليوم الذى كان قد كرس فيه كنيسة الأنبا مكارى الكبير فى شيهيت . فتحققت بذلك النبوة التى كان قد تنبأ له بها ملاك الرب .

ولقد كان جلوس الأنبا بنيامين على السدة المرقسية صورة من الصور المتلاحقة التى لا تحصى عن عناية الله تعالى بكنيسته المصرية . ذلك لأن هذا البابا الجليل كان بين الصفوة المختارة فاستطاع أن يحلّق بروحه فى الأجواء العليا ويلمح قبساً من النور السماوى ثم يعكس هذا النور على غيره من الناس إذ كان قد تلقاه من مصدره مباشرة (١) .

وكانت مدة رياسة الأنبا بنيامين على الكنيسة المصرية تسعاً وثلاثين سنة، قضى ثلاثة عشر سنة منها طريداً شريداً ثم منحه الله تعالى أن يعود إلى مقر كرسيه وأن يستعيد للكنيسة مكانتها فى القلوب الجاحدة .

٣٠٠- على أن السلام الذى كان عمرو بن العاص قد بسط رايته فوق مصر بسبب سياسة التفاهم التى سار عليها تقلص ظله . فقد استبدل الخليفة عمر بن الخطاب هذا القائد الحكيم بعبد الله بن سعيد على ولاية مصر . ويروى ابن الدقماق أن زكريا ملك النوبة أهداه منبراً ، وقد بعث بهذه الهدية مع نجار من دندره اسمه بقطر ليكون فى خدمته . وقد وضع عبد الله بن سعيد هذا المنبر فى جامع عمرو حيث ظل إلى أن استبدله قرة بن شريك بعد ذلك مما يزيد عن أربعين سنة (٢) .

ولقد ضاعف عبد الله بن سعيد الجزية على المصريين مستهدفاً فى ذلك أمرين : أولهما استرضاء الخليفة وثانيهما الأمل فى أن تدوم له الولاية . وقد تحقق هدفاه إذ قد ظل محتفظاً بها إلى ما بعد مقتل عمر بن الخطاب والمناداة

---

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية لساويرس أسقف الأشمونين (طبعة ايفيتس) جـ٢ ص٥٠٣ .

(٢) أثر القبط على العمارة الاسلامية الأولى (بالانجليزية) لكرنرويل - مقال نشره فى مجلة الآثار القبطية المجلد الخامس (سنة ١٩٣٩) ص٣٠ .

بعثمان بن عفان خليفة من بعده ولما رأى عبد الله بن سعيد أن مضاعفة الجزية تستجلب له رضى الخليفة استمر يضاعفها سنة بعد الأخرى حتى لقد بلغت سنة ٦٥٤م أربعة عشر مليوناً من الدنانير ولقد عقب عثمان بن عفان على هذه الزيادة بقوله لعمرو حين قابله فى المدينة : « إن الناقة الآن تدر لبناً أكثر من قبل » . أجابه عمرو : « نعم ولكن هذا يؤذى صغارها » . ولقد صدق القائد العربى إذ قد تضجّر الشعب من فداحة الأموال المفروضة عليه وأبدى سخطه بالثورة على عبد الله بن سعيد بأن رفض السماح له بدخول مصر عند عودته من رحلة له فى فلسطين . كذلك وصل مندوبو الشعب الغاضب إلى المدينة طالبين إلى عثمان بن عفان أن يولّى عليهم رجلاً يرتضونه .

٣٠١- وفى تلك الآونة رأى امبراطور القسطنطينية -وكان حفيداً لهرقل- أن يحارب العرب فى مصر لعله يظفر بهم وقد دفعه إلى هذه الحرب ما أحس به هو وقومه من جوع . ذلك لأن أهالى القسطنطينية كانوا يشبعون من غلال مصر فلم يعودوا يحصلون على هذه الغلال بعد أن فقدوا سيطرتهم عليها وقد دارت معركة بحرية عنيفة بين القوات البيزنطية والقوات العربية . إلا أن هذه المعركة - رغم عنفها - لم تدم غير ساعات تم النصر بعدها للعرب . وتعرف هذه المعركة باسم « معركة الصوارى » لكثرة المراكب الشراعية التى استعملها الفريقان يومذاك . وقد قاد عبد الله بن سعيد الجيش العربى بنفسه . ولعنف هذه المعركة لم يحاول البيزنطيون أن يشتبكوا مع العرب فى حرب مدى قرون بل كانوا يكتفون بمناورات ومناوشات لا تغنى فتيلاً (١) .

---

(١) تاريخ مصر الاسلامية لألياس الأيوبى ص١٠٢ - ١٠٣ ، مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول ص٢٣ .

النص الفرنسى لما ورد على ص٧٥ من قول فييت عن حرق مكتبة الاسكندرية :

" Nous devons nous arrêter à un incident d'une importante gravité, sur lequel nous formulerons des conclusions avec une parfaite sérénité, Un écrivain Arabe, particulièrement serieux, Abd al-Latif, mort en 629 (1231), parlant de la colonne Pompéé écrit que c'est le dernier vestige d'un edifce on enseignérent Aristete, et après lui, ses disciples. L'eminent médecin de Bagdad ajoute : "C'était là qu'était placée la bibliothèque que brûla " Amr ibn al-As " . =



باب هيكل الأنبا بنيامين (البابا الـ ٣٨)
بدير الأنبا مكارى الكبير ببرية شيهيت

= sur l'injonction de Umar. Ce texte précis, utilisé en occident pour des besoins de polémique, a donné lieu à des commentaires qui ont provoqué des explosions d'indignation dans les cercles musulmans contemporains. Ici, ce sont des exagerations nouvelles, qui prétendent mettre en cause toute la civilization Arabe, Il faut restreindre le problème à ses vraies limites, car nous n'ignorons pas que les musulmans ont eu, sur ce chapitre, à souffrir des malheurs de la guerre, nous bornons à citer l'incendie de la bilbliothèque de Tripoli par les =

= Francs et de celle de Bagdad par les Mongols. Mais, précisement la conquête Arabe fut momentanément, du point de vue intellectuel, aussi nuisible à l'humanité que la ruée mongole, et les Arabes du VII[ème] siècle, croyons-nous s'interessaient fort peu à la littérature tout court, et, à plus forte raison, à une littrerature rédigée dans des langues étrangères. Ce n'est donc pas médire de la civilization musulmane que de considérer les soldats de " Amr " comme capables d'avoir incendié une bibliothèque : d'ailleurs au témoignage, tardif aussi, mais peu négligeable, d'Ibn Khaldun, les Arabes auraient jeté à l'eau et au feu tous les livres des Perses, qui, en fait, ont bel et bien disparu . L'incendie de la bibliothèque d'Alexandrie est donc un fait possible, qui cadre avec l'état d'esprit que nous pouvons prêter sans choquer la vrai semblance, aux guerriers arabes . Ceci dit, nous sommes à l'aise pour nier l,authenticité de l'incident . l'our rediger l'histoire des pays musulmans, nous sommes souvent reduits, faute de mieux, à utiliser des textes de basse époque . Mais, précisément pour cette narration de la conqête d'Egypte, nous possédons de ouvrages relativement anciens, ceux d'Ibn ' Abd al Hakam . de Baladhuri, de Tabari, de Masudi, de Kindi . Or, aucun d'eux n'a fait la plus petite allusion à cette incendie, et il serait léger de croire son historicité sur le temoignage de ' Abd al Latif, postérieur de six cents ans " .

على أنه مما يجدر ذكره أن كل هؤلاء الكتاب الذين يستند إليهم فييت عاشوا بعد الفتح العربى بقرنين أو ما يزيد فهم أيضاً لم يعاصروه . فاعتراض فييت على عبد اللطيف البغدادى ينطبق عليهم حتى وإن كانوا سابقين عليه . كذلك يجدر القول بأن كل المتأخرين من الكتاب قد وجدوا الكثير من التضارب والتشويش فيما ورد عن هذه الحقبة – راجع ما قاله كل من فييت وستانلى لاين پول كما أوردناه فى الهامش من ص٢١١ . كذلك قال رضا فرج باسلوى فى رسالته للدكتوراه ما نصه : L'Egypte a été conquise par les Arabes en 641 . Cette période est encore assez confuse et entourée des legendes . Les ecrivains arabes qui l'ont racontée sont de date assez postorieure aux évènements

وترجمته : لقد استولى العرب على مصر سنة ٦٤١ . وهذه الحقبة ما زالت إلى حد ما مشوشة ومحاطة بالكثير من الأساطير والكتاب العرب الذين سردوها يرجعون إلى عصر متأخر عن حوادثه راجع رسالته عن النظام المالى فى مصر منذ العصر اليونانى حتى القرن العاشر بعد الميلاد طبعت فى باريس فى ٢٨ يونيو سنة ١٩٦٢ ص٢٦٢ .

معترف جرئ : الأنبا صموئيل القلمونى

(٣٠٢) الوثائق القبطية الصميمة تستعرض صوراً للفكر الانسانى.

(٣٠٣) المنطقة التى نشأ فيها صموئيل .

(٣٠٤) والدا صموئيل وكيفية معيشتهما .

(٣٠٥) صموئيل يشب على حب الكنيسة .

(٣٠٦) رغبة أبويه فى تزويجه واصراره على التبتل .

(٣٠٧) نياحة والدى صموئيل وذهابه إلى الصحراء .

(٣٠٨) وصوله إلى شيهيت وتتلمذه للناسك أغاثون .

(٣٠٩) فرح الناسك أغاثون به وبقاؤه معه ثلاث سنين .

(٣١٠) الله تعالى يمنح صموئيل شفاء الأمراض .

(٣١١) حالة مصر العامة فى ذلك العهد .

(٣١٢) حكم قورش الأسقف البيزنطى الدخيل .

(٣١٣) قائد الجيش البيزنطى يقتحم الصحراء وينكل بالرهبان .

(٣١٤) صموئيل فى جبل القلمون .

(٣١٥) صموئيل يجمع بين الحياة الديرية وحياة الوحدة .

(٣١٦) بطش المقوقس بالأنبا صموئيل ورهبانه .

(٣١٧) الأنبا صموئيل فى الأسر .

(٣١٨) الله تعالى يمنح زركاندس ولداً بصلوات الأنبا صموئيل .

(٣١٩) زركاندس يعتنق المسيحية ويعيد الأنبا صموئيل إلى وطنه .

(٣٢٠) دير الأنبا صموئيل بجبل القلمون .

٣٠٢- إنه لمن دواعى الرضا والارتياح أن يجد الباحث عن الحقائق التاريخية أن التقدير والاعجاب اللذين يكنهما لأمجاد الماضى قد أخذا يسريان إلى نفوس الآخرين فيجتذبان قلوباً كانت جاحدة لهذه الأمجاد . وهذا هو الحال فيما يتعلق بالتاريخ القبطى - أو بالحرى فيما يتعلق بتلك الناحية من التاريخ التى تكاد أن تكون فى معزل عن التاريخ الذى يتلقنه الطلبة فى المدارس. لأن التاريخ الذى يدرسه الجميع بصفة عامة هو تاريخ الفتوحات والغزوات وسيَر

الملوك والحكام . أما الوثائق القبطية الصميمة فتستعرض أمام الباحث صوراً للفكر الانسانى – إن لم يكن استعراضاً للفكر فى جملته فهى صور للفكر فى جزئياته – لأنها تصف الفكر الذى ساد مصر حقبة من الزمن . ومتى استجلى الباحث حقيقة هذه الحقبة الخاصة استطاع عن طريق هذا الاستجلاء أن يستوضح غوامض العصور التى تبدو كالأساطير الخرافية فى مختلف البلاد ولكنها فى مصر حقيقة لا مراء فيها . وكلما أجهد الباحث نفسه فى استجلاء غوامض هذه العصور القديمة ازداد ادراكاً أنه خير له أن يتتبع تطور الفكر والتطلع الانسانى من أن يعرف تاريخ هذه المعركة أو تلك ، ومدة حكم هذا الملك أو ذاك . والوثائق القبطية خير وسيلة يصل الباحث بواسطتها إلى تتبع انطلاقة الفكر الانسانى ومعرفة تطوره . بل أن أقل الوثائق شأناً ، وتلك التى تتعلق بأقل الرهبان أهمية لها قيمة عظمى فى الكشف عن خبايا الفكر الانسانى . فكم بالحرى يفيد الباحث حين يقف على سيرة قديس ممتاز كالأنبا صموئيل القلمونى (١) .

٣٠٣– ولقد ولد صموئيل فى مدينة تقوم على أنقاضها اليوم مدينة فوه . ويبدو من وصفها أنها كانت على جانب كبير من الثراء . وكانت تقع فى المنطقة التى تضم بين جوانبها مدينة بوتو التى اشتهرت بمواكبها الدينية الرائعة فى العصر الفرعونى إذ كان يقوم بها معبد للآلهة « وادجيت » ، وكانت تواجه المعبد بحيرة قامت فى وسطها جزيرة يحج إليها الزوار سنوياً من مختلف جهات القطر المصرى ليستشيروا كهّانها ويستمتعوا بجمال الجزيرة الصناعية العائمة وسط البحيرة . وقد ظلت عبادة « وادجيت » حتى آخر العصور الوثنية .

وكانت هذه المنطقة رغم ما تنطوى عليه عاصمتها من جاه ومن زعامة دينية أقرب إلى الهمجية منها إلى المدنية . ذلك أن معظم أراضيها كان

---

(١) مجلة تاريخ الأديان : صموئيل القلمونى . نقله إلى الفرنسية عن القبطية أميلينو ص٢ حيث يقول : " Pour tracer l'histoire de la pensée humaine, les œuvres de la littérature Copte sont de la plus grande utilite, même les œuvres les moins hautes et les moins compréhensives, même les ' vies' des moines peu célèbre".

مغموراً بالمياه على مدار السنة . فكان أغلب سكانها من صيادى السمك ورعاة البقر . ولأنهم كانوا يقضون معظم حياتهم فى العزلة بين الماء والسماء فقد كانوا يرضون بشظف العيش فى سبيل الاحتفاظ بحريتهم ، كما كانوا سريعى التمرد على كل سلطة لكونهم عرفوا معنى الحرية الفردية واستمتعوا بها . وكان كل رجل فى الدلتا يستطيع أن يحمل السلاح يأوى إلى هذه المنطقة لذلك عدت معقلاً للثائرين والمتمردين على الاضطهاد والمعتزين بحريتهم . ولقد أوى إليها فى وقت ما الأنبا مكارى الكبير أبو رهبان برية شيهيت هرباً من وجه لوسيوس الأريوسى . وعندما غزا العرب مصر كان سكان هذه المنطقة فى طليعة المقاومين للغزاة . فقد قاموا بثورات انتهى معظمها إلى مآسٍ مروعة .

٣٠٤- وكان والد صموئيل كاهن المدينة التى هى عاصمة تلك المنطقة الهادرة الساخطة . وكان يملك بعضاً من الأرض . فكان هو وزوجته يقنعان بالكفاف من العيش ويصرفان كل ما تبقى لهما من المال على الفقراء والمعوزين . كذلك جعلا من بيتهما مأوى للغرباء والمرضى ، وانصرفا إلى خدمة المكفوفين والشيوخ واليتامى . فملأ صيتهما الأرجاء .

وقد عاش هذان الزوجان وهما يؤديان هذه الأعمال سنين عديدة فى رضى وحبور لا ينغّص عليهما عيشتهما غير لهفتهما إلى خلف تقرّ به أعينهما. فداوما على الصوم والصلاة ضارعين إلى الآب السماوى أن يسعدهما بطفلٍ يزيد حياتهما سعادة . واستجاب الآب الرحيم هذه التضرعات الحارة ورزقهما ولداً أسمياه صموئيل .

٣٠٥- ولم يذكر كاتب سيرة صموئيل شيئاً عن طفولته . على أنه لا شك فى أنه نشأ بين أطفال مدينته يشاركهم الدرس واللعب . وقد شب على حب الكنيسة والتمسك بفرائضها من صوم وصلاة ومن تذكارات القديسين والاحتفاء بالأعياد والمواسم . ولما كان نقل الكتب (بالخط اليدوى) هو الوسيلة الوحيدة لنشرها وتهيئة الفرصة لمطالعتها فى العصور السابقة على ابتكار المطبعة عنى القبط بفن الكتابة عناية خاصة . واهتم والد صموئيل بتعليمه فن الكتابة غاية

الاهتمام فأجاده كما أجاد حفظ الصلوات الكنسية والأسفار الالهية . وفي الثانية عشرة من عمره رسم شماساً .

٣٠٦- وكان أول ما شغل بال والدى صموئيل هو أن يزوجاه ليفرحا بأولاده - شأنهما في ذلك شأن جميع المصريين على مر العصور . ولكنهما ما كادا يفاتحانه في هذا الموضوع حتى لاقيا منه إعراضاً تاماً إذ أكد لهما أنه يرغب في حياة التنسك والزهد . وحين وقفا على رغبته هذه حاولا اقناعه بالعدول عنها . بحجة أنه وحيدهما ويشتهيان رؤية أولاده ، غير أنه أصرّ على رأيه . وحين تبيّنا أن قلبه متعلق بالرهبنة نزلا على رغبته ومنحاه بركتهما . وبازاء هذه الرغبة الملحة من جانب صموئيل رأى أبوه أن خير ما يعمله هو أن ينفق ما يملك من مال في بناء كنيسة فخمة . وقد استغرق بناء هذه الكنيسة وزخرفتها سنتين كاملتين . وكان صموئيل قد نال أثناءهما رتبة رياسة الشماسية (الأرشيدياكونية) فسلمه أبوه مقاليد الكنيسة وهو مغتبط. وكأن العناية الالهية قد هيأت لهما هذه الفرصة السعيدة فمنحتهما الوقت الكافي لاتمام بناء الكنيسة ثم أعطتهما بعد ذلك مهلة قصيرة نقلتهما بعدها إلى عالم الأرواح .

٣٠٧- ولما وجد صموئيل نفسه وحيداً رأى أن خير عزاء له هو أن يقضى الأيام الأولى من تيتمه في الصلاة والصوم ضارعاً إلى الله أن يرشده إلى أقوم طريق يسلكه . ثم وزع أمواله على الفقراء والمحتاجين ، وسلّم الكنيسة إلى الذى خلف أباه في خدمتها ، وغادر المدينة قاصداً إلى الصحراء . وما أن انتهى من الحدود للمنطقة العامرة حتى ظهر له ملاك الرب في زى راهب ينوى العودة إلى برية شيهيت . فلازم الملاك صموئيل كما لازم ملاك الرب طوبيا الصغير من قبل [١] . وأخذ يوصف له روعة الحياة النسكية وما تنطوى عليه من عظمة روحية فسرّ صموئيل لأن كلام الملاك لم يكن إلا صدىً لنداء قلبه . على أنه قرر أن يترهب بدير القديس مكارى الكبير . وكانت قد انقضت قرون ثلاثة منذ أن عاش هذا القديس العظيم في برية شيهيت . على أنه رغم ما أصاب أديرته من تخريب وتدمير فقد ظلت هذه الأديرة طوال هذه المدة

---

(١) راجع سفر طوبيا .

تستهوى خيال الشباب المتطلع نحو الكمال المسيحى . لأنها ظلت منارة ساطعة بمن كان يعيش فيها من نسّاك روحيين فاجتذب نورهم الشباب الذى كان صموئيل ضمنه .

٣٠٨- وسار صموئيل بصحبة رفيقه الملاك المتخفى فى زى راهب حتى اقتربا من برية شيهيت . وعندها قال له الملاك : « إن فى هذا الجبل شيخاً قديساً اسمه أغاثون يحيا على الأرض حياة سكان السماء . فإن شئت أن تتقدم فى حياة البر والصلاح يحسن بك أن تتلمذ له » فرجا منه صموئيل أن يرافقه حتى يقدمه إلى هذا الشيخ الجليل ويوصيه به خيراً . فقال له الملاك : « إن والديك كانا بارين ، وما كانا عليه من برّ يدعونى إلى أن ألبى طلبك وأوصلك إلى الشيخ القديس . فإذا ما تتلمذت له فإنى أنصحك بطاعته لتستطيع أن تسمو بنفسك وتنال رضى الله تعالى . فتشجع الآن وتعالى معى » .

ثم أمسك الملاك بيد صموئيل ودخل به إلى صومعة القديس أغاثون وقال له : « أقبل هذا الشاب واسمح له أن يتتلمذ لك . وألبسه اسكيم الرهبنة . وعلمه قوانين النسك ليكون لك عكازة فى شيخوختك » . ثم توارى عنهما الملاك . فسبّحا الله فى ملائكته وقديسيه .

٣٠٩- وحين دخل صموئيل صومعة الناسك الشيخ أغاثون أحس فى قلبه الفتّى بشئ من الرهبة . ولكن ما أن وقع نظره على هذا الراهب القديس حتى تبددت مخاوفه إذ أدرك من النظرة الأولى ما تنطوى عليه نفس الشيخ من العطف والحنان . وازداد قلب صموئيل اطمئناناً عندما سمعه يقول له : «مرحباً بك يا ابنى صموئيل خادم الله العلى . إننى فرح بك لأننى أعتقد أن الله قد بعث بك إلىّ لتكون عكازتى فى شيخوختى » . ثم صلى الشيخ الناسك على الاسكيم الرهبانى المقدس وألبسه إياه قائلاً : « ليثبّت خطواتك إله آبائنا القديسين أنطونى ومكارى، ولتكن لهما تلميذاً من الآن حتى انقضاء الأيام ».
ومن تلك اللحظة اندمج صموئيل فى حياة النسك والتبتل وقضى السنين الأولى من حياته النسكية فى خدمة معلمه الشيخ أغاثون ، فبث فيه الشيخ روح الوداعة ودرّبه على السكوت والتأمل فى الالهيات كما دربه على حفظ الآيات

المقدسة لكى يترنم بها ليل نهار . وقد علمه إلى جانب التعاليم الروحية الأعمال اليدوية كصنع السلال وغير ذلك عملاً بما وضعه كواكب البرية . وقد قضى صموئيل فى هذا التتلمذ للحياة النسكية سنين ثلاثاً أصيب بعدها الشيخ أغاثون بمرضٍ أقعده عن العمل . فقام صموئيل نحوه بخدمة هى خدمة الابن المطيع لأبيه المحبوب . وظل فى هذه الخدمة شهوراً ثلاثاً انتقل بعدها أغاثون إلى بيعة الأبكار . وكما حلّت روح ايليا على تلميذه اليشع (١) هكذا حلت روح أغاثون على تلميذه صموئيل .

٣١٠- ولما وجد صموئيل نفسه وحيداً ضاعف صلواته وتأملاته . وقد منحه الله تعالى موهبة شفاء الأمراض فذاع صيته فى أنحاء القطر المصرى . ومن ثم قصد إلى صومعته رهط كبير من شباب مصر الذين كانوا يرغبون فى حياة النسك والتقوى ليتتلمذوا له – فقبلهم بفرح روحى . كذلك قصد إليه مئات من المرضى لينالوا الشفاء بصلواته . وقد اتخذه الملاحون لهم شفيعًا يستنجدون به فى الملمات فيسعدون بالهدوء بعد العاصفة . ولقد بلغ صيت صموئيل حداً جعل أسقف القيس (بمديرية المنيا) يقصد إليه لينال البرء مما كان يعانيه من ألم وسقم .

٣١١- ولقد كانت مصر ما بين أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع – أى فى العصر الذى عاش فيه الأنبا صموئيل على هذه الأرض – كانت مصر تئن وتتوجع إذ كانت ترزح تحت الحكم البيزنطى . وبدأ هذا الأنين مع المجمع الخلقيدونى المشئوم الذى كان من نتائجه أن هرب السلام من وادى النيل . وقد ظل الأنبا ديسقورس للمصريين المنارة الثابتة فوق الصخور رغم الأمواج المتلاطمة المتكسرة على هذه الصخور . ومن المستغرب أن آباء خلقيدون زعموا أنهم بخلع ديسقورس ونفيه إلى جزيرة غنغرا سيسقطونه فى أعين أبنائه ويقضون بذلك على كل مقاومة فى مصر . ولكنهم أخطأوا كل الخطأ فى هذا الزعم لأن النتيجة جاءت على عكس ما كانوا يزعمونه تماماً .

(١) ٢ ملوك : ١٥ .

وأخذ الصراع يتزايد ويشتد عنفاً سنةً بعد سنة . لأن أباطرة القسطنطينية لم يكفهم الحكم السياسى ولا التسلط على غلال مصر بل طمعوا فى أن يتغلغلوا داخل أفكار المصريين ويتحكموا فى ضمائرهم ويرسموا لهم العقيدة التى يجب أن يدينوا بها . وأثخن المصريون بالجراح ولكنهم ظلوا رافعى الرأسى ثابتى الايمان . فقد تعلموا من آبائهم أن يجمعوا بين المتناقضات – فمثلاً كان شيوخ النساك فى البرية يؤكدون لتلاميذهم من الشباب أن التواضع فضيلة مسيحية يجب عليهم التجمل بها إن شاءوا أن ينتصروا فى عراكهم الروحى . ولكنهم علموهم – إلى جانب هذه فضيلة «الفرز» ، والفرز هذا معناه أن تعرف مع من تتواضع ومع من تتشامخ (١) .

٣١٢– ولقد قضى صموئيل هو ورهبانه من رجال الله فترة من الزمن فى أمنٍ وهدوء . فلما فرض الامبراطور هرقل قورش أسقفاً وخوّله الولاية على مصر أيضاً . بدأ هذا الطاغية بمطاردة الأنبا بنيامين الذى كان قد لجأ إلى دير فى الصعيد الأعلى . ولما عجز عن الظفر بالبابا الاسكندرى رأى أن يصبَّ جام غضبه وانتقامه على الشعب المصرى بأسره ، فبعد أن نكّل بسكان المدن تواقح على سكان الصحارى وقطع على الآباء الساكنين فيها خلواتهم وتأملاتهم، وأمعن فى التنكيل بهم لعله يظفر بسر اختفاء الأنبا بنيامين أن يدفع بأحدهم إلى جحد الايمان الأرثوذكسى . ولكن بطشه تكسر على صخرة الصمود المصرى .

---

(١) رأينا بأعيننا التطبيق العملى لهذا المبدأ حين سعدنا بزيارة القدس الشريف سنة ١٩٤٥ إذ شاهدنا نيافة المطران يشترك مع رهبانه فى كنس كنيسة الأنبا أنطونيوس ومسحها ثم شاهدناه وهو يجلس فى عزة على كرسيه ليتلقى تهانى رؤساء الطوائف والحكام المدنيين للبلاد . كما شاهدنا الأطفال وأصاغر الناس يتجمعون حول الأنبا كيرلس السادس (البابا الاسكندرى الـ١١٦) وهو يباركهم ويسلم عليهم بكل بساطة بينما هو لا يقابل رجال الدولة ورؤساء الطوائف إلا بالمواعيد المحددة وهو جالس على كرسيه . ويتكلم روبرت لاين (فى كتاب النار المقدسة) عن مقدرة الآباء الشرقيين فى الجمع بين شتى المتناقضات فيقول عن الأنبا باسيليوس الكبير (كاتب القداس) على ص١٢١ ما نصه : " There was geniality under the thundering brow " . وترجمته ، كانت هناك عذوبة خلف الجبين المكفهر ، .

٣١٣- وانتهت اقامة الأنبا صموئيل فى برية شيهيت فجأة ، ومن غير أن يشاء هو أن يتركها . وذلك أن قورش كان قد أمر قائد الجيش أن يفرض «الاكتيسيس» (١) على جميع أساقفة مصر ونساكها . وتنفيذاً لهذا الأمر اقتحم الأديرة ومن بينها الدير الذى يقيم فيه صموئيل ورهبانه . فجمعهم وقرأ عليهم الرسالة التى يحملها وتتضمن « الاكتيسيس » . ثم سألهم : «أتؤمنون بالعقيدة التى تضمنتها الرسالة ؟ » فقوبل سؤاله بالصمت التام . فقال القائد غاضباً : « ألا تعلمون أن فى استطاعتى أن أريق دماءكم ؟ » فتقدم إليه صموئيل - بوصفه الأب الروحى للجماعة - وقال له : « إننا نأبى التسليم بهذه العقيدة الابتداعية ونحرم مجمع خلقيدون وقراراته . ولا ندين بالولاء لغير بابانا العظيم الأنبا بنيامين » فجن جنون القائد وقال : « أقسم بعظمة الرومان أننى سأقطع رؤوسكم جميعاً إن لم تبادروا بالتوقيع على هذه الرسالة » . قال له صموئيل : « أرنى رسالتك هذه » . فسلمها له القائد ظناً منه أنه سيوقع عليها خوفاً من التهديد . على أنه ما كادت يد صموئيل تقبض على الرسالة حتى مزقها إرباً إرباً وأتبع تمزيقه الرسالة بتوكيده الحرم على مجمع خلقيدون وكل من يدينون به . وحين رأى القائد ما فعله صموئيل وسمع ما قاله ثارت ثورته فهجم عليه وانهال لطماً وصفعاً . ثم نادى على جنده ليشبعوه جلداً فنفّذوا فى الحال ما أمرهم به . ولما سقط على الأرض مغشياً عليه رفعوه إلى جزع شجرة ليجهزوا عليه . غير أن أحد الجنود طاش سهمه وأصاب عين القديس اليمنى فسملها . وعند ذلك أمرهم القائد بالكف عن التنكيل به توهماً منه أنه فارق الحياة . ويبدو أن المجهود الذى بذلوه فى ضرب صموئيل كان قد أنهكهم ، أو أنهم اكتفوا بالتنكيل بالرئيس فتركوا بقية الرهبان دون أن يتعرضوا لهم .

---

(١) أو منشور الامبراطور هرقل المؤيد لخلقيدون - ومما يجدر الاشارة إليه هنا هو أن قورش حين اغتصب لنفسه الحق فى أن ينوب عن كنيسة مارمرقس فى المجمع المعدود سادس المجامع المسكونية لدى الكنائس التى تعترف به ، والذى انعقد سنة ٦٨٠م - قد نال جزاء اعتدائه إذ قد أصدر هذا المجمع الحكم بحرمه مع هونوريوس أسقف رومية - راجع « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٤٩٥ .

ولما انصرف الجند أسرع الرهبان إلى حمله ، ونقلوه إلى مغارة قريبة إذ ظنوا هم أيضاً أنه أسلم الروح . ولكنهم – فى الفترة التى كانوا يصلّون فيها عليه تنبّه وعاوده رشده . ففرحوا بذلك فرحاً عظيماً وظلوا يعنون بخدمته حتى تم له الشفاء .

٣١٤– ولما استعاد الأنبا صموئيل قوّته تماماً انتخب أربعة من بين رهبانه وتركوا شيهيت متجهين جنوباً نحو منطقة الفيوم حتى بلغوا جبل القلمون (١) حيث عاشوا بضع سنين فى أمان وفى غبطة روحية . وكانت اقامتهم فى دير يغلب الظن أنه كان قد بنى قبل وصولهم إلى تلك المنطقة بسنين عديدة (٢). وكان إلى جانبه عين ماء غزيرة يكثر فيها السمك البلطى . فاستطاع الرهبان أن يستعينوا بهذا الماء فى زراعة بضعة أفدنة حول ديرهم واغتنوا بذلك عن النزول إلى الحقول فى أيام الحصاد كما كانوا يفعلون أيام أن كانوا فى برية شيهيت . كذلك استطاعوا أن يقتاتوا من السمك الذى كان يملأ تلك العين .

٣١٥– وعلى الرغم من المسافة الشاسعة التى تفصل بين الدير وبين البلاد الآهلة بالسكان ، فإن أهالى المنطقة حالما علموا باقامة الأنبا صموئيل فيه هرعوا إليه . وكان الأنبا صموئيل ورهبانه الذين كثر عددهم يرحبون بهم فى دعة وسكون . على أنه حين كان يتكاثر عددهم إلى حد تعطيل الصلوات والتأملات كان الأنبا صموئيل يخرج من الدير من غير أن يراه أحد ويأوى إلى مغارة قريبة بضعة أيام يعكف خلالها على الصلاة والضراعة والاستشفاع بالسيدة والدة الاله وبالقديسين . حتى إذا ما فاض النور الالهى على قلبه عاد إلى الدير مزوداً بالقوة الروحية التى تمكنه من رعاية رهبانه ومن خدمة قاصديه فى همة ووداعة .

---

(١) هذا الجبل يبعد عن الاسكندرية بما يقرب من أربعمائة وخمسين كيلو متر إلى الجنوب الشرقى .

(٢) يذكر مارسويريوس يعقوب توما فى كتابه تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية أن الأنبا تيموثيئوس الثانى البابا الاسكندرى الـ١٦ كان مترهباً بهذا الدير .

٢١٦- وحدث أن الشخص الذى كان يُطلق عليه اسم المقوقس (١) كان ماراً بالفيوم فبلغه صيت الأنبا صموئيل ورهبانه وقرر أن يذهب إلى ديرهم لينغّص عليهم حياتهم الهانئة . وكان أحد المقربين إلى الأنبا صموئيل قد عرف بالنية المبيّتة له ولاخوته فسارع إلى اطلاعه عليها . فقرر هذا القديس أن يهرب من الشر هو ورهبانه ، فخرجوا من الدير تاركين البواب - وكان شيخاً متقدماً فى السن - ولجأوا إلى المغاور المحيطة بالدير . ولما وصل المقوقس وأعوانه لم يجدوا غير هذا البواب الشيخ فسألوه عن مكان الرهبان فتجاهلهم ولم يجيب بكلمة واحدة . وعندها انهالوا عليه ضرباً ولكماً . فأفقده الألم كل حكمة وأرشدهم إلى المغاور التى اعتصم بها الرهبان . ولم يكفه ذلك بل أضاف إليه قوله أن الأنبا صموئيل يتهم المقوقس بالابتداع فى الدين . فعاد المدعو بالمقوقس إلى الفيوم متظاهراً بأن ما سمعه لم يهمه اطلاقاً . ولما علم الرهبان بأنه رحل عن الدير هو وجنده عادوا إلى ديرهم مع رئيسهم زعماً منهم أنهم أصبحوا فى مأمن من شره . غير أنه لم يمض يومان على هذه الحادثة حتى وصل جند المقوقس إلى الدير فجأة يحملون الأمر بالقبض على الأنبا صموئيل . وما أن وقعت عيونهم عليه حتى كبلوه بالحديد واقتادوه إلى الفيوم . فلما مثل بين يدى قورش (المقوقس) سأله من الذى أقامه رئيساً على الدير . فأجابه قائلاً : « إننا إنما نخضع لله ونطيع أوامر بابانا القديس الأنبا بنيامين » . فلطمه ذلك الطاغية على فمه وأمر جنده أن يجلدوه حتى يفارق الحياة . وفى أثناء ذلك تدخل بعض الأشراف ونجحوا فى أن يخلصوا القديس من يد ذلك الغادر . وعندها تقدم بعض تلاميذ الأنبا صموئيل وحملوه إلى وادى الريان بالقرب من عين ماء يحيط بها النخيل . وهناك سهروا على العناية به حتى استعاد قواه من جديد .

---

(١) ترجم آميلينو سيرة الأنبا صموئيل من القبطية إلى الفرنسية ونشرها فى مجلة تاريخ الأديان . وقد قال على ص٢٣ منها ما نصه : " Il faut, je crois, voir dans Mouqôqis l'un de ces personnages qui apparaissent aux époques de troubles, qui ont une grande habilité pour l'intrigue, souple devant le plus fort ou plus puissant, arrogants, envers le faible".

قارن بين هذا الرأى وبين ما جاء على الهامش فى صفحتى ٢٠٦ - ٢٠٩ .

٣١٧- على أنه ما كاد الأنبا صموئيل يستقر فى مكانه الجديد حتى أغار البربر على تلك المنطقة . فأعملوا فيها السلب والنهب . ثم أخذوا الأنبا صموئيل أسيراً إلى بلادهم . وفى هذا الأسر التقى بالايغومانس يؤنس رئيس أديرة القديس مكارى الكبير . لأن القبائل المغيرة كانت قد سطت على برية شيهيت أيضاً . وكان الرجال الذين سبوا الأنبا صموئيل خاضعين لزعيم اسمه زركاندس فاتخذه له عبداً . وكان هذا الزعيم من عبدة الشمس فحاول جهده أن يقنع القديس الأسير بالتحول عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الشمس . ولما وجد أن وعوده لا تكفى لتحويله لجأ إلى التعذيب والتنكيل بكل الوسائل التى استطاع أن يبتكرها . على أن الآلام التى قاساها الأنبا صموئيل على يد زركاندس لم تكن لتزعزعه لأنه كان من بين المختارين الذين لا يخشون العذاب ولا يرهبون الموت ولا يعنيهم إلا رضى الله .

ولما كان الآب السماوى قد منح صموئيل موهبة الشفاء - قبل أن يقع فى الأسر - فإن هذه المنحة كانت نعمة عليه فى أسره . وذلك أن رجلاً كسيحاً كان المرض قد أقعده اثنتى عشرة سنة حتى يئس من الشفاء استرعى عطف القديس الذى امتلأ قلبه شفقة بالناس . فتضرع إلى الآب السماوى أن يتحنن على هذا الكسيح ويشفيه من دائه . فاستجيبت دعواته . وكان فرح الكسيح الذى شفى لا يوصف فأخذ يذيع خبر شفائه فى كل مكان ولكل مريض . فكان من الطبيعى أن تتقاطر الجموع عليه حاملين إليه مرضاهم طالبين إليه أن يصلى من أجلهم . ولقد أبدى الله عطفه على صفيه الذى تحمل صنوف العذاب فى سبيل الايمان بأن قبل ضراعته من أجلهم جميعاً . ولقد تأثر رؤساء القبائل فى تلك الناحية بهذا العطف العظيم الذى أبداه الأنبا صموئيل على مرضاهم ورأوا أن خير جزاء له هو إعادته إلى بلاده مكرماً معززاً . غير أن زركاندس عارض فى ذلك مدعياً أنه لا يستغنى عن خدماته .

٣١٨- وكانت زوجة هذا الزعيم عاقراً كما أنها كانت مريضة . فكان من الطبيعى أن تتلهف على الصحة وعلى انجاب الأطفال فطلبت إلى زوجها أن يسمح للراهب الأسير أن يأتى إلى بيتهم ويصلى لأجلها . ولكنه رفض فى

بادئ الأمر . على أنها ظلت ترجو منه وتلح عليه حتى قبل طلبها . فاستحضر صموئيل أمامه وأبلغه رغبة زوجته فى حضرتها . وفى الحال ركع الناسك القديس على ركبتيه وأخذ يصلى فى حرارة وجهاد روحى عنيف . فقبل الله دعاءه وأنعم على زوجة زركاندس بالصحة ، وفى الوقت المناسب أنجبت ولداً .

٣١٩- ولقد امتلأ قلب زركاندس فرحاً لهذه المنحة المزدوجة واعتذر إلى صموئيل عما فرط منه من قسوة كما رجا منه أن يعلمه المسيحية . وكان هذا الطلب أشهى ما يأمله الناسك القديس فعلّمه وعمّده باسم الآب والابن والروح القدس . ثم عرض زركاندس على أسيره الذى أعتقه أن يضمه إلى ورثته اعترافاً منه بفضله . غير أن الأنبا صموئيل شكر له فضله وقال له: « إن أعظم أمنية لى هى أن أعود إلى بلادى العزيزة » . قال له زركاندس: « ألا تشاء أن تبقى معنا فتمكننا من أن نكفّر عن كل ما ألحقناه بك من أذى ؟ » . أجابه صموئيل قائلاً : « ما مضى فات . وإنى أؤكد لك بنيّة خالصة أننى نسيت ما ألحقتموه بى . وأشكر ربى والهى يسوع المسيح الذى أهّلنى لخدمتكم ومنحنى نعمة صبغتكم بالصبغة المقدسة (المعمودية) . فأرجو من مكارمكم أن تأذنوا لى بالعودة إلى وطنى المحبوب . ولكى أثبت لكم أن قلبى لا يحمل لكم غير المحبة سأبقى معكم خمسة أسابيع أخرى أرجو أن تأذنوا لى بعدها بالعودة إلى بلادى » . فقبل زركاندس رجاء صموئيل وأكرمه اكرامًا زائداً مدة الأسابيع الخمسة وكانت هذه الفترة مليئة بالمشاعر المتضاربة – وهى مزيج من الفرح والأسى للأخوين الروحيين صموئيل ويؤنس إذ قد توثقت عرى المحبة بينهما ، وكان كلاهما متلهفين إلى العودة لوطنهما الحبيب . فقال يؤنس : « عد بالسلامة إلى بلادنا يا أخى وأضرع إلى الآب السماوى أن يهيئ لى أسباب العودة أيضاً » . أجابه صموئيل : « أنا أعرف أنك ستذوق الكثير من العذاب . ولكن أحفظ الوديعة المقدسة إلى المنتهى والآب تعالى سيشفق عليك ويعيدك سالماً إلى مصرنا الحبيبة » . فلما انتهت الأسابيع الخمسة قبّل كل منهما الآخر قائلاً : « إن لم يمنحنا الله تعالى أن نرى بعضنا بعضاً على هذه الأرض ثانية فلنا الثقة فى أن نتلاقى أمام عرش النعمة » .

ولم يكن زركاندس ممن يقبلون أنصاف الحلول لذلك بالغ فى التنكيل بالأنبا صموئيل ، فلما رضى عنه بالغ فى اكرامه . وزيادة فى الاكرام قدم له عدداً من الجمال محمّلة بالهدايا ثم أمر الرجال الذين كانوا قد استحضروه من وادى الريان بأن يعودوا به إلى ذلك الوادى حتى لا يضلّ الطريق . ثم ودعه بفرح روحى .

ولما وطئت قدما الأنبا صموئيل أرض مصر انحنى عليها يقبلها رافعاً الشكر لله ثم استراح قليلاً عند الحدود وقصد بعد ذلك إلى ديره بجبل القلمون. وكانت عودته مفاجئة سعيدة جداً لرهبانه الذين سارعوا إلى الترحيب به . فعاش بينهم فترة قصيرة من الزمن قضاها فى تعليمهم وإرشادهم متخذاً من اختباراته فى الأسر أمثلة على عناية الله بأولاده . ولقد شاءت العناية الالهية أن يستريح هذا المعترف المجاهد من أتعابه فى هذه الفترة من حياته تمهيداً لنقله إلى موضع الراحة الأبدية .

وقد دام حزن الرهبان عليه سبعة أيام عادت بعدها الحياة إلى الدير كما كانت وانصرف كل راهب إلى عمله المعتاد لأن الأنبا صموئيل كان قد انتقل إلى الفردوس : « ذلك الملكوت العجيب الذى حلم به المصريون على مر العصور ووصفوا ما فيه من هناءة وبركة كأنهم قد رأوه رؤيا العين . إنهم شعب سعيد حقًا إذ قد استطاع أن يجد فى سعادة الدار الآخرة العزاء لكل أحزانه وآلامه فى هذه الدار الفانية » (١) .

٣٢٠- ولا يزال دير الأنبا صموئيل بجبل القلمون (٢) قائمًا للآن ،

---

(١) للوقوف على تفاصيل ترجمة الأنبا صموئيل راجع « سيرة القديس صموئيل القلمونى » ترجمها أميلينو عن القبطية إلى الفرنسية ونشرها فى مجلة تاريخ الأديان .

(٢) كلمة قلمون يونانية الأصل ومعناها الغاب ومنها اشتقت الكلمة العربية « قلم » . وقد أطلق هذا الاسم على منطقة دير الأنبا صموئيل لكثرة نبات الغاب فيها إذ ذاك . ويقول أبو صالح الأرمنى إنه كان لهذا الدير أطيان كثيرة وملاحات تنتج نحو ثلاثة آلاف أردب من الملح سنوياً - راجع « دليل المتحف القبطى » لمرقس سميكه جـ١ ص١٧ .

ولقد نشر الراهب جان سيمون مقالاً بالفرنسية عن « الدير القبطى الصموئيلى القلمونى » فى مجلة « أوريونتاليا كريستانا بيريوديكا لسنة ١٩٣٥ ص٤٦ - ٥٢ » قال فيه: إن الدير ازدهر =

عامراً بنعمة الله . على أن الدير الحالى ليس سوى جزء بسيط من الدير الأصلى إذ بلغت مساحته فيما مضى من الزمان اثنى عشر فداناً بينما هو الآن لا يتجاوز الفدان . وتقع عين الماء على مقربة من أسواره ولكنها لم تعد غزيرة كما لم يعد بها سمك اطلاقاً . إلا أن لهذه العين خاصية عجيبة هى أن مياهها تتزايد كلما تقدم مخلوق ليشرب أو ليستقى منها – سواء كان هذا المخلوق انساناً أم حيواناً . وقد أصبحت المنطقة المحيطة بالدير قاحلة جرداء إلى أبعد الحدود ، وفى المنطقة نبات اسمه « الغردق » فى شكل شجيرة قصيرة كثيفة . وله ثمرة شبيهة بالعنب الصغير لونها بنفسجى ويعصر الرهبان هذه الثمرة ويشربون عصيرها . كذلك يجففون بذارها ويحمصونها على النار ثم يطحنونها كالبن ويغلونها فى الماء ويشربونها باردة أو ساخنة تبعاً لمزاجهم أو لحالة الجو . ومن مزايا هذا المشروب أنه يقلل الحاجة إلى الشرب .

ومن نعمة الله التى لا تحصى علىّ أننى زرت هذا الدير فى أوائل شهر يوليو سنة ١٩٥٨ (سنة ١٦٧٤ش) فكانت الزيارة أشبه بومضة من ومضات النور الآتى من عالم آخر ملأت النفس هدوءً واستقراراً . وكان بالدير وقتذاك ثمانية عشر راهباً – تسعة منهم من الشباب الجامعى الذى لبى نداء الله إلى الحياة المثلى فترك الوظيفة والمستقبل وآثر الخلوة للصوم والصلاة والتأمل . ويعيش هؤلاء الشباب الجامعيون فى انسجام خالص مع اخوتهم الآخرين . ومن هؤلاء الرهبان ناسك بلغ المئة من عمره . ويسود الجميع سلام روحى

– لعبير مؤسسه ، وكان فى بادئ الأمر باسم السيدة العذراء . وقد ظل صيته يملأ الآفاق إلى القرن الثالث عشر حتى أن ياقوت ذكره فى قاموسه الجغرافى كما تكلم عنه النابلسى فى « كتاب تاريخ الفيوم » . وفى القرن الخامس عشر ظهر مخطوط يتضمن العجائب التى أجرتها السيدة العذراء فى قلمون ، ومع أن هذا المخطوط لم يطبع للآن إلا أن ترجمته إلى الجعزية (الحبشية) طبعت . وفى هذا القرن أيضاً ذكره المقريزى فى خططه . ولا يمكن تحديد القرن الذى تداعى فيه هذا الدير الذى كانت له مكانة خاصة مدى قرون طويلة إذ لا نسمع عنه بعد ذلك إلا فى القرن السابع عشر من الراهب المؤرخ فانسليب . ثم يعود الدير للظهور فى القرن التاسع عشر . فما الذى جرى ؟ لا نعرف للآن على وجه التحقيق ولكن فى سنة ١٨٩٩ ذهب بعض رهبان البرموس فعمروه من جديد . فمن لا يشعر بالأسى عندما يقارن بين حالة الدير الراهنة وبين ما كان عليه فى عصور ازدهاره ؟» .

عجيب لأن الذى دعاهم إليه ملأهم من نعمته فمكنهم من أن يعيشوا هذه العيشة الملائكية على الأرض .

ومما يجدر ذكره أن عدداً من المستشرقين الأجانب قد كتبوا عن الأنبا صموئيل وعن ديره بجبل القلمون : فبعضهم ترجم المخطوطات التى عثر عليها بينما علق البعض الآخر على هذه المخطوطات . وقد نشر الراهب جان سيمون عدة مقالات عنه إحداها ترجمة لمخطوط قبطى به أجزاء ناقصة وهو باللهجة الصعيدية كتبها أحد رؤساء دير الأنبا صموئيل اسمه اسحق . وقد اختار اسحق القلمونى هذا ذكرى نياحة الأنبا صموئيل ليرثيه . وجعل من مرثيته مديحاً شأنه فى ذلك شأن الآباء القدامى . وقد نشر المستشرق الألمانى كارل وسلى هذا المخطوط من غير أن يترجمه سنة ١٩١٧ ، ثم ترجمه جان سيمون إلى الفرنسية سنة ١٩٣٤ . وهذا المخطوط محفوظ بالمكتبة الأهلية بفيينا ضمن مجموعة من خمس مخطوطات أخرى كلها عن حياة الأنبا صموئيل بقلم اسحق القلمونى (١) .

وأهم مخطوط يتضمن سيرة الأنبا صموئيل هو السيرة التى كتبها اسحق القلمونى باللهجة القبطية الصعيدية ، وهذا المخطوط محفوظ الآن بمتحف بييربونت مورجان بنيويورك . ولم يتعرض أحد من المستشرقين لترجمته بعد. على أن فان كوفنبرج قد لخصه بالفرنسية ونشره فى كتابه: « دراسة لرهبان مصر منذ مجمع خلقيدون (سنة ٤٥١) إلى الفتح العربى (سنة ٦٤١) » (٢) .

ومما يجدر ذكره أنه كان هناك دير ثانٍ يحمل اسم الأنبا صموئيل القلمونى وكان معروفاً فى وقت ما باسم « دير السند » وقد شيد بالقرب من نقادة ولكنه اندثر الآن (٣) .

---

(١) راجع « أوراق متناثرة عن ميمر قبطى لتكريم الأنبا صموئيل القلمونى » (بالفرنسية) للآب جان سيمون نشره فى مجلة « ميسيلانيس بيليسيس » جـ٢ ص١٦١ – ١٧٨ ، طبع فى رومية سنة ١٩٣٤ .

(٢) متحف بييربونت مورجان بنيويورك : مخطوط ٥٧٨ رقم ٩ صعيدى ، وقد أشار إليه الآب سيمون فى مقاله المذكور فى الهامش الذى جاء على ص١٦٣ .

(٣) « أديرة أبيفانيوس » (بالانجليزية) بقلم هـ. أ. وينلوك ، و. أ. كرام – جـ١ ص١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، طبع فى نيويورك سنة ١٩٢٦ .

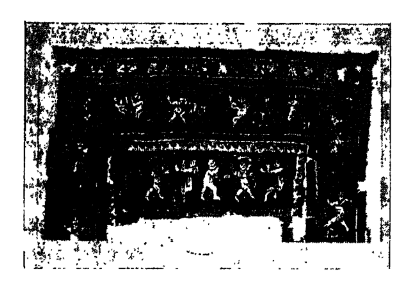
الايغومانس يؤنس رئيس أديرة الأنبا مكارى الكبير

(٣٢١) الشذرات التى بين أيدينا عنه :

٣٢١- إن يؤنس الذى استحق أن ينال رتبة « ايغومانس » ويشرف على أديرة الأنبا مكارى الكبير يمكن اعتباره من الجنود المجهولين فى صفوف الكنيسة القبطية المجاهدة . ذلك أننا لا نعرف عن نشأته شيئًا كما لا نعرف متى ذهب إلى برية شيهيت . على أننا نعرف أنه وقع فى الأسر ثلاث مرات. وفى كل مرة كان يتراءف الله عليه ويعيده إلى وطنه . وأغلب الظن أن التقاءه بالأنبا صموئيل القلمونى كان فى مدة الأسر الأخيرة . وقد وقع فى الأسر للمرة الثالثة سنة ٦٣١م إذ كان مشغولاً بمهمة اخفاء كنوز الكنيسة حتى لا يسطو عليها الخلقيدنيون من عملاء امبراطور القسطنطينية فحمل هذه الكنوز وترك برية شيهيت قاصداً البحيرة الداخلية حيث فاجأه البربر وأسروه . وقد عاش فى الأسر عدة سنوات عاد بعدها إلى بريته المحبوبة . وليس من شك فى أنه ساهم - بعد ذلك - مساهمة فعالة فى تعمير الأديرة كما أنه استطاع أن ينقل أجساد التسعة والأربعين شهيداً . وكان يؤنس ذا بصيرة تتكشف أمامها الأسرار . وقد استعان بما كان يراه من أمور خفية لتعليم الرهبان العائشين تحت رعايته . ومن الأدلة على هذه الحقيقة أن كاهناً سيئ السمعة قصد إلى الكنيسة ذات يوم . فرأى يؤنس الشياطين تحوم حوله بل أن البعض منهم دخل فمه . وعندما دخل الكاهن الكنيسة رأى يؤنس ملاكًا نورانياً ممسكاً بسيف يطرد هذه الشياطين . فلما انتهى الكاهن من الصلاة وخلع ملابس التقديس وخرج خارج الكنيسة عادت الشياطين إلى الاحاطة به . فاتخذ يؤنس من هذا الذى رآه وسيلة ليقنع تلاميذه بأن عليهم التفريق بين الكاهن بوصفه خادم المذبح وبين الكاهن كانسان موضحًا لهم أن فاعلية الشعائر المقدسة لا تنقص بسبب خطية الكاهن ولا تزيد بسبب بره ، بل هى هى فى جميع الحالات لأن البركة الناتجة عنها هى منحة إلهية لا صلة لها اطلاقًا بصلاح الناس أو شرورهم .

ويقول البعض أن يؤنس عاش سبعين سنة بينما يرى غيرهم أنه عاش تسعين وحينما أحس بأن ساعته قد اقتربت جمع الاخوة وأوصاهم بالجهاد للوصول إلى الكمال المسيحى .

وتقوم شهرة يؤنس الحقيقية على صيت تلاميذه الذين أنشأهم بنفسه ودأب على تعليمهم وتثقيفهم . ويمكن القول بأن تلاميذه ينقسمون إلى فريقين : الفريق الأول يتألف من أولئك الذين تتمثل فيهم الصفات المميزة لآباء شيهيت منذ قيام الأديرة فى تلك البرية المقدسة ، والآباء الذين اتصفوا بالمظاهر الجديدة التى طرأت على الحياة النسكية (١) .



قطعة نسيج من الصوف فيها الكثير من المرح– أغلب الظن أنها ترجع إلى القرن السادس (أو أوائل السابع)

---

(١) رسالة مارمينا السادسة : أديرة وادى النطرون للدكتور منير شكرى طبعت فى الاسكندرية سنة ١٩٦٢ ص١٨٩ – ١٩١ .

الصلة بين مصر والأراضى المقدسة

(٣٢٢) متانة الصلة بين القبط وبلاد المقدس .
(٣٢٣) أسقف دمياط يبدأ المواسم بصلوات برامونى [1] الميلاد المجيد .
(٣٢٤) الصلاة والمواكب الخاصة بعيد الميلاد المجيد .
(٣٢٥) الواجبات الملقاة على الأسقف ما بين عيدى الميلاد والغطاس الأمجدين .
(٣٢٦) صلوات الغطاس المجيد تقام فى القدس وعلى ضفاف الأردن فى آن واحد .
(٣٢٧) الأسقف يتفقد المؤمنين ما بين عيد الغطاس والصوم الكبير .
(٣٢٨) شعائر أسبوع الآلام .
(٣٢٩) ترتيب صلوات أسبوع الآلام .
(٣٣٠) صلاة سبت الفرح التى يبدو بواسطتها نور المسيح .
(٣٣١) الصلوات الخاصة بعيد القيامة المجيدة .
(٣٣٢) صلوات عيد العنصرة .
(٣٣٣) زيارة القدس الشريف بمناسبة عيد العذراء .
(٣٣٤) حالة الأراضى المقدسة قبل الفتح العربى .
(٣٣٥) العهدة العمرية ورعاية الذمام.

٣٢٢- وخلال الانقلابات العنيفة التى زعزعت أركان السلام فى مصر وانتهت بتقويض أسس الامبراطورية البيزنطية ظل المصريون أوفياء لايمانهم كما ظلوا متمسكين بالصلة التى تربط بينهم وبين أورشليم مدينة الملك العظيم وغيرها من بلاد الأراضى المقدسة . وكان المئات منهم (أو بالحرى الآلاف) يحجون سنوياً إلى هذه البلاد التى تقدست بحياة السيد المسيح فيها وهو فى الجسد . وكانوا يستهدفون التبرك بزيارتها فى مواسم خاصة كأسبوع الآلام

---

(١) برامونى هى كلمة يونانية (Paramony) ومعناها الحرفى خارج المسكن ويعبر عنها باللهجة الدارجة بكلمة ، استعداد ، ذلك لأن الانسان وهو خارج منزله يكون فى حالة يقظة وتهيؤ ، والمقصود من هذا التعبير كنسياً هو الصوم الطى إن أمكن وإن لم يمكن فالصوم مع الامتناع من أكل السمك حتى يكون الانسان أكثر استعداداً لفرح الميلاد أو الغطاس المجيدين ولا يوجد مثيل لهما فى عيد القيامة لأن الصوم السابق كله صوم تقشفى بقدر المستطاع .

أو تذكار بناء كنيسة القيامة ، وكصوم السيدة العذراء أو غيره من الأيام المتصلة بذكريات لها فى القلب حنين خاص .

وكان الامبراطور قسطنطين الكبير قد بنى كنيسة القيامة التى تضم القبر المقدس . وبعد أن أتم بناءها أعطى لكل شعب من الشعوب الخاضعة لسلطانه مكاناً خاصاً به : وبالطبع أعطى المكان الأول للروم (أى اليونانيين) لأنهم بنو جنسه . ثم أعطى المكان الثانى للقبط للمكانة الممتازة التى كان يستمتع بها الأنبا أثناسيوس الرسولى (البابا الاسكندرى الـ ٢٠ المعاصر له) . وقد اكتسب القبط ممتلكات أخرى فى الأراضى المقدسة على مر الأيام فشيدوا الكنائس فى مختلف المدن التى اتصلت بحياة الفادى الحبيب : فى الناصرة وأريحا ويافا وغيرها وكان المؤمنون الأثرياء يقفون على هذه الكنائس الأراضى والعقار ليضمنوا صيانتها ويهيئوا أسباب العيش لمن ستناط بهم شئونها . وكان أسقف أنطاكية هو المشرف الأعلى لهذه الكنائس القبطية وما يتبعها من ممتلكات نظراً لما بين الكنيستين الاسكندرية والأنطاكية من وحدة الايمان . على أن البابا الاسكندرى كان ينتدب الكهنة والرهبان الذين يثق فيهم ويرسلهم إلى تلك البلاد لرعاية المؤمنين فيها ولتثبيت الايمان الأرثوذكسى فى قلوبهم . وكان هؤلاء الكهنة والرهبان يعيشون فى فلسطين إلى أن يطلب إليهم البابا الاسكندرى (أو أحد الآباء المطارنة المنتدبين منه) أن يعودوا إلى مصر . وعند ذاك كان يعيّن خلفاءهم ويرسلهم مقدماً كى تستمر الخدمة والصلوات بلا انقطاع . وكان الكهنة والرهبان المنتدبون مسئولين عن الخدمات الخاصة بالأيام العادية . أما الصلوات الخاصة بأعياد الميلاد والغطاس والقيامة والصعود فكانت منوطة بأحد أساقفة الكرازة المرقسية . وقد ظل أسقف دمياط يتمتع بشرف هذه الخدمة الجليلة عدة قرون ، فكان يذهب إلى الأراضى المقدسة قبيل عيد الميلاد المجيد ليقيم الشعائر الخاصة به فى بيت لحم ثم يظل فى الأراضى المقدسة إلى أن ينتهى من تأدية صلوات عيد العنصرة .

٣٢٣- ففى منتصف اليوم الذى يسبق برامونى الميلاد يذهب رئيس الأديرة القبطية إلى بيت لحم يصحبه الرهبان. وحالما يصلون إلى هذه القرية

الوادعة يدخلون كنيسة المهد المقدس ويقبّلون المذبح الذى سيقيمون عليه القداس الالهى - وهذا المذبح فى رعاية الأرمن الآن . ثم ينزلون جميعاً إلى مغارة المهد ، ويتوسط المغارة الآن نجم من الفضة يرمز إلى النجم الذى أضاء الطريق أمام المجوس وأوصلهم إلى حيث ولد الفادى الحبيب . والنجم الموضوع الآن قد ثبته الآباء فى المكان الذى وقع عليه نور النجم الهادى ساعة أن وصل المجوس إلى المغارة التى ولد فيها فادينا . فيقبّل كل منهم هذا النجم ، ويصلى فى صمت تام ثم يصعد الجميع إلى دير الأرمن (الذى يعلو مغارة المهد) للاستراحة . وقد أفردوا فيه غرفة للأسقف وثانية لرئيس الأديرة القبطية وحينما ينتهون من هذه الخدمة القدسية يستريحون ساعة من الزمن يتناولون فيها قليلاً من الطعام . ثم يرتدون ملابس التقديس مرة أخرى ويخرجون جميعاً إلى ميدان كنيسة المهد لينتظروا الأسقف . ويصل ركبه حوالى الظهر ، وتسير سيارته فى بطء وهوادة فوق الشوارع الصاعدة المبلطة بالحجارة المربعة العريضة إلى أن تقف أمام باب كنيسة المهد . وحالما ينزل من السيارة يتخذ الرهبان والمؤمنون أماكنهم أمام الأسقف وخلفه ليؤلفوا له موكباً يتقدمهم حملة البيارق والمباخر والشموع الموقدة . ويسير الكل فى هذا الموكب الرائع وهم يترنمون بالألحان الكنسية البديعة فيدخلون الكنيسة ويتجهون منها إلى مغارة المهد المقدس . وفى المغارة يقبّل الأسقف والكهنة كل بدوره مكان المهد الذى رقد فيه الفادى الحبيب وهو وليد . ثم يصعدون جميعاً فى موكبهم إلى الكنيسة وهم يرددون ترانيم الميلاد ، وهناك يقيمون صلاة الشكر ويقبلون المذبح . ثم يصعدون مرة أخرى إلى دير الأرمن للاستراحة مدة تقرب من الساعة .

وفى الساعة الواحدة بعد الظهر ينزلون مرة أخرى إلى كنيسة المهد لرفع بخور عشية (١) وفى منتصف هذه الصلاة ينزل نيافة الأسقف إلى مغارة المهد لاقامة صلاة تمجيد للفادى الحبيب . وإذا ما انتهى من هذا التمجيد عاد هو

(١) رتب الآباء صلوات تتهيأ بواسطتها النفس للقداس الالهى وهذه الصلوات تعرف باسم « بخور عشية » و « بخور باكر » . وبخور عشية ترفع فى المساء بينما ترفع بخور باكر فى الصباح المبكر . والبخور رمز إلى الصلوات تبعاً لما قاله يوحنا الرسول فى سفر الرؤيا ٥ : ٨ .

ومن معه من رجال الاكليروس إلى كنيسة المهد واشتركوا فى اتمام صلاة بخور عشية التى ينتهون منها فى الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم العظيم . ويصعدون بعد ذلك إلى دير الأرمن مرة ثالثة للاستراحة بنفس الموكب الرائع الذى كانوا قد ألفوه عند استقبال الأسقف .

٣٢٤- وفى الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم المبارك يأخذ الأسقف مركزه فى الموكب ويلتف الرهبان والشعب حوله : كل فى مكانه ثم ينزلون فى خطوات متزنة إلى كنيسة المهد وقد امتزجت رائحة البخور والأنوار المتلألئة من آلاف الشموع والقناديل بالألحان الكنسية الخاصة بالميلاد المجيد . ثم يدخلون كنيسة المهد المزدانة بالقناديل ذات الزجاج الملون . وهذه القناديل مرتبة فى أنصاف دوائر ومدلاة من السقف . فيسطع نورها خلال الألوان ، وتغطيه سحابة من البخور المتصاعد نحو العلا فيشعر المؤمنون كأنهم فى عالم من الخيال - عالم كله بهاء وغبطة .

وفى هذا الجو الروحى الساحر الذى هو مزيج من الأنوار والألوان والرائحة الزكية ترتفع أصوات المؤمنين بالصلاة : فتعلوا أحياناً وتنخفض أخرى حتى لكأنها هدير البحر - تتلاحق أمواجه فى غير اتزان وتتفاوت علواً وانخفاضاً . ويقضى المؤمنون بضع ساعات فى هذه النشوة الروحية الخلابة وقد داخلهم الفكر بأنهم خلال هذه الساعات ليسوا على الأرض بل أنهم اختطفوا إلى السموات ولمحوا قبساً من بهاء المجد الأسنى . ويستمرون فى صلواتهم حتى الواحدة بعد منتصف الليل حين ينتهى القداس الالهى . فيتجمع المؤمنون فى موكبهم للمرة الأخيرة ويسيرون كما لو كانوا فى حلم بديع ، صاعدين فى تؤدة وأفكارهم شاردة محلقة فى الأجواء العليا حيث رفعتهم الصلوات حتى يبلغوا دير الأرمن . وعندها يدركون بأنهم مازالوا فى الجسد إذ يجلسون إلى مائدة ليتناولوا الطعام الذى أعده لهم الرهبان . وبعدما يشتركون معًا فى الخبز الأرضى كما اشتركوا فى الخبز السماوى يأوون إلى فراشهم ليستعيدوا فى أحلامهم تلك الساعات المليئة بالغبطة التى ارتفعت فيها أرواحهم إلى عرش النعمة ليسبحوا وليد بيت لحم ويهتفوا مع الملائكة مهللين قائلين : المجد لله فى العلا وعلى الأرض السلام وفى الناس المسرة .

٣٢٥- وفى صبيحة يوم الميلاد المجيد يتبادل الأسقف وشعبه التهانى كما يتلقونها من الأصدقاء والأقارب . ولكى يحققوا روح هذا العيد العجيب يوزعون الهبات والعطايا على اخوتهم المساكين . وبعد أن ينتهوا من معايدتهم يعود كل منهم إلى البلد الذى جاء منه وهو راضى النفس مغتبط الفؤاد . ولا يبقى غير الأسقف ورهبانه - إذ يعودون إلى أورشليم ليتلقوا التهانى من مواطنيهم على اختلاف أديانهم ومذاهبهم . وفى هذه المدينة المليئة بالذكريات الروحية لجميع المؤمنين . يؤدى الأسقف بعض الواجبات الملقاة عليه قبل العودة إلى مصر الحبيبة . وبعد أن يتلقى تهانى عيد الميلاد فى أورشليم يغادرها إلى أريحا حيث شيدت كنيسة على اسم كوكب البرية الأنبا أنطونى أبى الرهبان وسط حديقة واسعة يقوم فى زاوية منها منزل فسيح[١] . ويبقى الأسقف ومن معه فى مدينة أريحا حتى برامون الغطاس . وفى ذلك اليوم يستيقظون مبكرين جداً ليبدأوا بالصلاة فى السادسة صباحاً . ويرفع الأسقف بخور باكر، وتنتهى الصلاة فى التاسعة . وهذه الصلوات تقام فى كنيسة الأنبا أنطونى بأريحا .

٣٢٦- أما بعد ظهر ذلك اليوم - يوم برامون الغطاس - فإن الأسقف يذهب إلى نهر الأردن يتبعه الرهبان وجميع المؤمنين الموجودين فى تلك الجهة ، ويرفع بخور عشية من الرابعة حتى السادسة مساء . وفى السابعة تماماً تبدأ صلوات القداس الالهى فى أورشليم وعلى ضفاف نهر الأردن فى آن واحد . ويرأس الأسقف الصلوات التى تقام عند النهر فيبدأ بصلاة اللقان - أى الصلاة الخاصة بتقديس الماء . وخلال هذه الشعائر تمتزج تسابيح البشر بالتسابيح التى ترفعها الطبيعة إلى باريها : فتغريد الطيور وخرير المياه يتخلل النور المنبعث من مئات الشموع كما يتخلل البخور الزكى المتصاعد من المجامر . ويمتزج هذا كله بأصوات المصلين فيؤلف وحدة رائعة للطبيعة المتباينة التى تشترك كلها فى تمجيد الخالق المبدع .

وهنا أيضاً يتذوق البشر على هذه الأرض مجد السموات ، ويظلون فى تضرعاتهم وابتهالاتهم حتى منتصف الليل وقد رفعتهم هذه الصلوات إلى العلا

---

(١) يقول التقليد الكنسى إن هذا البيت مقام مكان بيت زكا العشار .

وهيأت لهم الاقتراب من الآب الحلون . وحين ينتصف الليل تنتهى الشعائر المقدسة فيصرف الأسقف المؤمنين بالبركة . وعندها يعود كل منهم إلى مخدعه ليستعيد فى ساعات نومه الغبطة التى ملأت عليه روحه فى يقظته.

٣٢٧- ويقضى الأسقف عيد الغطاس فى أريحا ثم يعود إلى أورشليم . وخلال الأسابيع التالية يقوم برحلة راعوية فيترسم خطوات الفادى الحبيب إذ ينتقل من بلد إلى آخر ليفتقد الشعب ويقف على حاجاته وتطلعاته . ويستمر فى رحلته هذه إلى أن يقترب عيد القيامة المجيدة . وعندها يعود إلى أورشليم من جديد لكى يترأس حفلات أسبوع الآلام المقدسة . وكل مطلع يعرف أن كنيستنا القبطية قد خصصت لهذا الأسبوع صلوات وقراءات متصلة بالآلام المحيية التى قاساها الفادى الحبيب منذ أن ألقى اليهود القبض عليه إلى أن علقوه على خشبة الصليب المقدسة وأخذوا يهزأون به .

٣٢٨- وإن الشعائر التى وضعها آباء الكنيسة القبطية لهذا الأسبوع الذى له قدسية خاصة فى القلوب تتضمن كل ما جاء فى العهدين القديم والجديد الخاص بتجسد الله الكلمة ، فاختاروا من العهد القديم الآيات التى تشير إلى سقوط الانسان الأول وما يتطلبه العدل الالهى من قصاص ثم دفاع الرحمة الالهية الشاملة التى حتمت على الابن الأزلى أن يترك مجده ويعيش كانسان ليفتدى بنى الانسان . وتلى هذه القراءات المختارة الآيات التى تصف تجسد ابن العلى بالفعل فتقرأ فى الأناجيل الأربعة . وتتخلل هذه القراءات المأخوذة من أسفار العهدين القديم والجديد صلوات وضعها الآباء خاصة بساعات الآلام وما حدث فى كل منها . ولهذه الصلوات نغمات خاصة هى مزيج من الخشوع والضراعة والنصر (١) .

---

(١) حدث سنة ١٩٥٠ أن جاء إلى مصر موسيقى فرنسى كان يقوم وقتذاك بجولة فى الشرق الأوسط لدراسة الموسيقى الدينية لدى شعوب هذه المنطقة وحدث أن كان فى بلدنا فى أسبوع الآلام .وذهب معنا لحضور صلوات يوم الجمعة العظيمة (أى ذكرى الجمعة التى صلب فيها السيد المسيح) . ودخل الكنيسة وقت الظهر ، وظل واقفاً يصغى باهتمام عجيب . ولما انتهت الصلوات وبدأ المصلون يخرجون ظل واقفاً فى مكانه يتساءل : « هل انتهت الصلوات حقاً ؟ » ، وأكدنا له أنها انتهت فخرج على مضض . وبعد أيام جاء لزيارتنا فى بيتنا فسألناه والدى عما جعله يعجب بصلوات الجمعة الحزينة إلى هذا الحد ، فأجاب : « إن أعجب ما فيها هو أنه -

٣٢٩- ولما كان أسبوع البسخة له قدسية خاصة فقد اعتبره الآباء قائماً بذاته ولذلك دعوا يوم الجمعة السابق عليه « جمعة ختام الصوم » . والصلوات التى تقام صباح ذلك اليوم تتضمن صلاة القنديل أى صلاة سر المسحة المقدسة - وهو السر الخامس من الأسرار الكنسية السبعة (١) . وعقب هذه الصلاة يدهن الكاهن جميع الحاضرين فى الكنيسة بالزيت ثم يقيم شعائر القداس الالهى بعد ذلك . وتقام هذه الصلوات فى كنيسة الأنبا أنطونيوس المبنية فى ركن من ساحة « البطريركية » (٢) القبطية بالقدس .

أما السبت التالى لجمعة ختام الصوم فمعروف باسم « سبت لعازر » تذكاراً لاقامته من الموت بكلمة من السيد المسيح . وفى السابعة من صباح هذا السبت يتجمع الأسقف والكهنة والشعب فى ساحة البطريركية القبطية ليؤلفوا موكباً يتجه إلى الجسمانية حيث يقام القداس الالهى الذى ينتهى حوالى العاشرة . ثم فى الثانية من بعد ظهر هذا السبت أيضاً تقام صلوات عشية أحد الشعانين فى كنيسة القيامة .

وتبدأ الشعائر الخاصة بأحد السعانين فى السادسة صباحاً بكنيسة القيامة وتنتهى بدورة احتفالية كبرى . وأحد الشعانين هو الأحد الذى دخل فيه سيدنا له المجد إلى أورشليم على ظهر أتان فتلقته الجموع هاتفة: « أوصنا لابن داود.

- وسط ألحان الحزن ترن نغمة الانتصار . ولقد طغت هذه الأنغام على نفسى فلم أطق البقاء بين جدران غرفتى فى اللوكاندة إذ أحسست أن صداها داخلى يتطلب الفضاء الواسع ليتجاوب معها. فخرجت أتنقل على غير هدى ثم قررت الذهاب إلى مصر القديمة لأنها منطقة الكنائس الأثرية ، وإذ وجدت كنيسة أبى سرجة مفتوحة ومضاءة وعلمت بالصلوات التى تقام ليلتئذٍ (ليلة سبت الفرح) دخلتها وسعدت بشعائر هذه الليلة العجيبة أيضاً .

كذلك كتبت لى صديقة انجليزية تشكرنى لأنها حضرت معى صلوات البسخة وتقول :

(Never can I forget the tunes of " Thok tay tee gom " . They hammered so terrifically at my soul) .

(١) جـ١ من هذا الكتاب ص٤٦٥ - ٤٦٨ .

(٢) مع أن الكنيسة القبطية ليس لها بطريرك فى القدس إلا أن مقر المطران هناك معروف « بالبطريركية » .

أوصنا فى الأعالى ، . وفرش البعض من هذه الجموع ثيابه على الأرض بينما لوّح البعض الآخر بسعف النخل (١) . على أن هذه الجموع الهاتفة المهللة المرحبة تحولت إلى ما يشبه الوحوش الضارية قبل انقضاء الأسبوع فصرخت حانقة صاخبة فى وجه بيلاطس البنطى مطالبة بصلب المسيح (٢) . والألحان الكنسية – لأنها خاصة بذكرى الآلام المروعة التى انتهت بالقيامة المجيدة – قد عبرت عن كل المشاعر الانسانية من حزن ولوعة ويأس إلى فرح وتهليل وانتصار . ولم يفرق الآباء حين وضعوا الألحان لصلواتهم بين نغمة الأسى ونغمة النصر ، بل مزجوا النغمتين للتعبير عن قوة القيامة الكامنة داخل أوجاع الموت الذى جازه المخلص لذلك ظهرت بوادر الانتصار بين أنغام الشجن ثم طغت عليها فى النهاية فى صلوات القيامة المجيدة التى لا تخلو – هى أيضاً – من رنين الألم كصدى لآلام الصليب .

وحالما تنتهى الصلوات الخاصة بأحد الشعانين تبدأ صلوات البسخة (٣) . وتقام هذه الصلوات صباحاً ومساءً من كل يوم ابتداء من مساء أحد الشعانين حتى خميس العهد فى كنيسة الأنبا أنطونى . أما يوم الجمعة العظيمة الذى هو يوم الصلب عينه فالصلوات تبدأ من بكرة هذا اليوم وتستمر طوال النهار حتى الرابعة بعد الظهر (٤) . وبعد استراحة تقرب من الساعة تبدأ دورات الصليب . وهذه الدورات هى مواكب تتألف من الأسقف والكهنة والشمامسة والشعب (رجالاً ونساء) : فيحمل البعض منهم المجامر بينما يحمل غيرهم الشموع الموقدة والبيارق والصلبان ويسيرون فى كنيسة القيامة من نقطة أثرية مقدسة

---

(١) متى ٢١ : ١ – ١١ ، مرقس ١١ : ١ – ١٠ ، لوقا ١٩ : ٢٩ – ٣٨ ، يوحنا ١٢ : ١٢ – ١٦ .

(٢) متى ٢٧ : ١٥ – ٢٦ ، مرقس ١٥ : ٦ – ١٥ ، لوقا ٢٣ : ١– ٢٥ ، يوحنا ١٨ : ٢٨ – ٤٠ .

(٣) ، بسخة ، كلمة يونانية مأخوذة من كلمة ، فصح ، العبرية لأن المسيحيين يعتبرون المسيح فصحهم إذ قدم نفسه كفارة عنهم .

(٤) تنتهى صلوات هذا اليوم المبارك فى الرابعة بعد الظهر استعداداً لصلوات الدورات التى تبدأ من الساعة الخامسة وتستمر حتى الثامنة . وبعد استراحة زهاء ساعة تبدأ صلوات ليلة سبت الفرح . أما فى القطر المصرى فصلوات الجمعة الكبيرة تنتهى حوالى السادسة مساء لعدم اقامة صلوات الدورات .

إلى أخرى ، فيقفون عند كل نقطة ليقرأوا القطع المناسبة من أسفار العهدين القديم والجديد ملحقة بالصلوات التى وضعها الآباء ، وتتلى جميعها بالألحان الخاصة العجيبة التى لا تقال إلا فى هذه المناسبة الفريدة فهى والحالة هذه لا تتلى إلا مرة واحدة فى السنة . وهذه الألحان والصلوات تتيح للانسان الفرصة لأن يحلق بروحه فتمكنه من أن يلمح قبسًا خاطفًا من بهاء النور السماوى وتنتعش روحه انتعاشاً عجيباً لا مثيل له ولا يمكن التعبير عنه . وتنتهى هذه الدورات فى الثامنة مساء يستريح المؤمنون بعدها ساعة ثم يقصدون إلى الكنيسة مرة أخرى لتأدية شعائر ليلة السبت التى تستمر طوال الليل ثم تختتم بالقداس الالهى الذى ينتهى فى السابعة من صباح سبت الفرح (١) وتسمى صلاة « أبو غلمسيس » (٢) – وهى خاصة بتقديس الزيت الذى يستعمل فى سر المسحة المقدسة .

٣٣٠– وفى ظهر السبت تتدفق جموع المؤمنين على كنيسة القيامة ليحضروا الصلاة التى يظهر لهم بعدها نور السيد المسيح ، ويمسك كل منهم بمجموعة من ثلاث وثلاثين شمعة مربوطة معًا تسمى « بالفند » . والقبر المقدس يتوسط هذه الكنيسة الفسيحة التى تضيق على سعتها بالجماهير . وإلى شرقى القبر حجرة لا تزيد على مترين مربعين على كل من جانبيها الشمالى والجنوبى نافذة مستطيلة يقف بجوارها مندوبون عن بيت لحم وغيرها من المدن ذات الذكريات الخاصة ، بينما يقف داخل الغرفة مندوب الكنيسة القبطية مع غيره من مندوبى الكنائس صاحبة الحق كالأرمن والسريان ويدخل بطريرك الروم الأرثوذكسى داخل القبر المقدس ويصلى بينما يردد آلاف المصلين الذين تزخر بهم الكنيسة كلمة : « كيرياليسون – يارب ارحم » إلى أن يبرق النور من القبر المقدس (٣) فيتلقاه مندوبو الكنائس بشموعهم ويوقدونها من

---

(١) سبت الفرح أو سبت النور هو اليوم السابق على أحد القيامة المجيدة .

(٢) هذا هو التعبير العربى الدارج لكلمة " Apokalipcic " اليونانية الأصل القبطية بالاستعمال .

(٣) من المعروف أنه حين كان ابراهيم باشا واليًا على مصر وشى إليه الواشون بأن النصارى يدعون أن نور المسيح يظهر لهم يوم سبت الفرح . فإستصحب الأنبا بطرس الجاولى– البابا –



القبر المقدس يتوسط كنيسة القيامة

= الاسكندرى الـ١٠٩ – وقصد إلى القدس . وهناك أمر بإخراج جميع المؤمنين من الكنيسة وبإغلاق بابها فى وجوههم ، كما أمر بأن يدخل البابا الاسكندرى إلى القبر المقدس مع بطريرك الروم ساعة الصلاة بينما وقف هو وجنده فى ساحة الكنيسة . وفجأة سطع نور وهاج ملأ أرجاء الكنيسة وخرج خارجها بعد أن شق العامود القائم عن يسار الداخل إلى الكنيسة . ففرح الشعب الذى كان متجمهراً خارج الباب وهتف : « إن المسيح قد خرج إلينا حين وجد أن الحاكم قد أبعدنا عنه بالقوة » . ولايزال أثر النار واضحاً على العامود حتى الآن على خلاف العامود المقابل له الذى لم يشقه النور .

النور المنبثق ، فى حين يوقد مندوبو المدن شموعهم من النافذتين ويحملون هذه الشموع المضاءة ويجرون بها لوضعها فى الكنائس المعروفة مثل كنيسة المهد فى بيت لحم . وفى لمح البصر يكون الفند الذى فى يد كل واحد من آلاف المجتمعين فى الكنيسة منيراً فتتلألأ أنوار هذه الشموع وتشيع البهجة والرهبة معاً فى القلوب حتى ليخيل للناظر إليها أنه فى عالم من النور . وبعد أن يردد المؤمنون صلوات التسبيح والشكر ينصرفون وقد طغت عليهم نشوة من الحبور .

والمقصورة المصنوعة من الحديد المفرغ هى الهيكل الخاص بالأقباط وهو ملاصق لقبر المسيح له المجد . وناحية الهيكل الملاصقة له هى الناحية الشرقية، فالمذبح الذى ترفع عليه الصعيدة المقدسة هو أقرب جزء لذلك المكان الذى قيل عنه « ويكون قبره ممجداً إلى الأبد » . (أشعياء ١١ : طبعة الكنائس التقليدية) .

٣٣١- أما الصلوات الخاصة بعيد القيامة المجيدة فتبدأ فى الثامنة مساء وتنتهى فى الرابعة صباحاً (١) . يستريح المؤمنون بعدها زهاء ساعة يتناولون خلالها شيئاً من طعام الجسد ثم يعودون ليسيروا فى مواكب النصر مقدمين التسبيح والتمجيد للفادى الذى قهر الموت وأزال شوكته . وحين ينتهون من دورات المديح هذه يكون صبح القيامة قد انبثق نوره . فينصرفون مغتبطين مهللين نتيجة لتلك الساعات التى اقتربوا فيها من مصدر النور والنعمة .

٣٣٢- ولا تنتهى رسالة نيافة الأسقف عند هذا الحد ، بل يستمر فى المدينة المقدسة إلى أن تنتهى الخمسون يوماً التالية للقيامة المجيدة . فيستهلها فى السادسة صباحاً من اثنين شم النسيم باقامة قداس فى كنيسة الملكة هيلانة

(١) إن الشائع فى الكنائس القبطية فى مصر هو أن تبدأ شعائر القيامة المجيدة فى الساعة السابعة من مساء السبت وتستمر حتى الواحدة بعد منتصف الليل . ولكن المواعيد المتبعة فى القدس أكثر مطابقة للحقيقة لأن الفادى الحبيب قام من القبر فى سحر الأحد - أى أنه قام عند مطلع الفجر . والفجر لا ينبثق إلا حوالى الرابعة .

ثم يختتمها بالاحتفال بعيد العنصرة (١) . وتقام شعائر هذا العيد المبارك فى علية صهيون التى حل فيها الروح القدس على تلاميذ الرب الأطهار ورسله المكرمين (٢) . هذا الروح الذى يحل على كل مؤمن على مدى الأجيال فى سر الميرون الذى يدهنه به الكاهن بعد أن ينال سر الصبغة المقدسة مباشرة (٣) .

وأنه لمن المحزن المؤلم أن علية صهيون هذه قد وقعت فى أيدى اسرائيل منذ الحرب الغاشمة التى استطاع الصهيونيون بواسطتها أن يغتصبوا بعض أجزاء من الأراضى المقدسة ويشردوا أهلها . لم يعد فى وسع القبط أن يصلوا فيها فاضطروا لهذا السبب إلى اقامة شعائر العنصرة فى مختلف الكنائس .

وبعد الانتهاء من كل هذه الصلوات والمهام يعود أسقف دمياط إلى

---

(١) عيد العنصرة هو اليوم الخمسين بعد القيامة المجيدة ويسمى ، البنديكوستى ، عن الكلمة اليونانية التى تعنى الخمسين . وفى هذا اليوم المقدس حل الروح القدس على التلاميذ حسب وعد المخلص ، فقدسوا هذا اليوم واحتفلوا به ، فسار الآباء الرسوليون على منوالهم وجعلوا من ، البنديكوستى ، عيداً تحتفل به الكنيسة على مدى الأجيال . ففى صباح هذا العيد يقام القداس الالهى ، أما بعد الظهر فتقام صلاة السجدة . وقد أطلق الآباء هذا الاسم على هذه الصلاة لأن الآباء الرسوليين (عملاً بتعليم الرسل) قد جعلوا الصلوات أثناء الخمسين يوماً التالية للقيامة المجيدة بغير سجود . وبعد اكتمال الخمسين يوماً مارسوا السجود ، وبدأوا بمعاودة الركوع فى الصلوات أثناء الصلاة التى تقام فى مساء عيد الخمسين وبذلك أصبحت معروفة باسم ، صلاة السجدة ، وهى تنقسم إلى ثلاثة أجزاء تتضمن كلها السجود لأن الرسل خشعوا ساجدين حينما تقبلوا الروح القدس . ويرجع تقسيمها هذا إلى أن اليهود قديماً كانوا يحتفلون بعيد الأسابيع تذكاراً لقبول موسى الشريعة ، وكانوا يحتفلون بثلاثة تذكارات هى : يوم الخمسين ، تقديم حزمة الترديد ، سنة اليوبيل أو العتق – لاويين ٢٣ : ١٥ – ١٦ ، ٢٥ : ١٠ – ١٧ ، تثنية ١٦ : ٩ ، أعمال ٢ : ١ – ٣٤ و ٣٠ – ٣٦ و ١٨ : ٢٠ – ٢١ و ٢٠ : ١٦ ، ١ كورنثوس ١٦ : ٧ – ٨ ، كتاب صلاة السجدة (تبعاً للطقس القبطى) ، مجلة المحبة العدد السادس من السنة التاسعة والعشرين – (يونيو سنة ١٩٦٣) ص١٨١ – ١٨٢ ، شعائر السجدة والعنصرة (بالانجليزية) مقال لبورمستر نشره فى مجلة موزيون العدد ٤٧ ، مطبوع فى لوفين ببلجيكا سنة ١٩٣٤ (ويتضمن النص القبطى وترجمته) ص٢٠٥ – ٢٥٧ .

(٢) راجع ما جاء عن مرقس الرسول فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٣) هذا هو التعبير القبطى للمعمودية لأنها لا تتم إلا بالتغطيس الكلى داخل جرن المعمودية .

مقر كرسيه حيث يباشر مسئولياته الراعوية فى ايبارشيته (١) .

٣٣٣- وثمة موسم آخر له قدسيته ، يحلو للقبط فيه أن يتبركوا بزيارة الأماكن المقدسة ، هو موسم صوم السيدة العذراء الذى ينتهى بحمل الملائكة لجسدها إلى السماء . ويقع هذا الصوم ما بين اليوم الأول واليوم السادس عشر من شهر مسرى المبارك (أو ما بين السابع والثانى والعشرين من شهر أوغسطس) . وتعرف هذه الزيارة بالزيارة المريمية . وخلال أسبوعى الصوم يقام القداس الالهى من الساعة الثامنة حتى الساعة التاسعة والنصف صباحاً فى كنيسة الجسمانية (٢) . لأن هذه الكنيسة تحوى القبر الذى ضم الجثمان الطاهر الذى لوالدة الاله مدى ثلاثة أيام حملته بعدها الملائكة وطارت به إلى السماء (٣) . أما يوم العيد - وهو يوم ١٦ مسرى - فتستمر فيه الصلوات حتى الساعة الحادية عشرة صباحاً . وخلال هذه الصلوات تقرأ الفصول التى تبين للمؤمنين كيف كرست هذه العذراء المختارة حياتها كلها لله ، وكيف أطاعت وآمنت لساعتها بما قاله لها الملاك . وبهذا الايمان الثابت الخالص أثبتت أهليتها لأن تكون أماً للكلمة المتجسد ومن ثم أصبحت القدوة المثلى لجميع المؤمنين على مدى الأجيال .

---

(١) مما يؤسف له أنه لم يعد لدمياط أسقف . على أن القدس الشريف وما يستتبعه من الأراضى المقدسة والبلاد المجاورة لها أصبح يؤلف أسقفية مستقلة لها مطرانها الخاص منذ باباوية الأنبا كيرلس الثالث (البابا الاسكندرى الـ ٧٥) فى القرن الثالث عشر .

(٢) تقع هذه الكنيسة فى بستان جسثمانى الذى سهر فيه السيد المسيح ليلة أن قبض عليه الجند بأمر رؤساء الكهنة . وهى مبنية فى جزء منخفض انخفاضاً كبيراً إذ ينزل المؤمن تسعين درجاً لكى يصل إليها .

(٣) يقول لنا التاريخ الكنسى أنه حينما مرضت السيدة العذراء أرسل يوحنا الحبيب يدعو الرسل جميعاً أن يأتوا إلى أورشليم ليكونوا حولها . فتسارعوا جميعاً إلى هناك . ولما كان توما فى الهند إذ ذاك فقد استغرق سفره إلى المدينة المقدسة أياماً كثيرة . وقبل وصوله تنيحت والدة الاله بسلام . وقد أنعم الله عليه برؤية الملائكة تحمل جسدها إلى السماء . فلما وصل إلى أورشليم أبلغه الرسل بأمر نياحتها وبدفنها فى الجسمانية . قال لهم : « أنتم تعرفون أننى لا أؤمن من غير أن أرى فتعالوا افتحوا لى قبرها وأرونى جسدها » . فأخذوه إلى القبر حسب طلبه ولما فتحوه لما يجدوا جسد أم النور . وعندها أخبرهم برؤياه وبأنه قال لهم هذا الكلام ليروا هم أيضاً أن الجسد ليس موجوداً حيث وضعوه .

والكنيسة القبطية لا تكتفى بتكريم أم النور خلال هذين الأسبوعين فحسب بل أنها تكرس اليوم الحادى والعشرين من كل شهر قبطى لهذا الهدف النبيل فتهيئ الفرصة أمام المؤمنين لكى يتأملوا حياة هذه الشخصية الفريدة حقاً والتى اصطفاها رب المجد ليتجسد منها . وفى هذا اليوم من كل شهر قبطى يقام القداس الالهى فى الجسمانية أيضاً (١) .

وفوق هذا كله فقد كرس آباء الكنيسة المصرية شهر كيهك لتمجيد سر التجسد الالهى ولتكريم والدة الاله – ذلك لأنهم رسموا موعد الميلاد المجيد فى آخر هذا الشهر . ففى أمسيات السبوت منه تقام صلوات تعرف باسم « السبعة وأربعة » لأنها تتضمن سبع ثيئوتوكيات وأربع هوسات (٢) . وتنتهى هذه الصلوات بالطرح : أى بتفسير الصلوات التى قيلت والتعليق عليها وبدئها بقطعة تقال باللحن ويتجاوب فيها الشعب مع الكاهن .

٣٣٤– ومع أن القبط كانوا مداومين على زيارة الأراضى المقدسة فى المواسم المختلفة ، إلا أنه لم يكن لهم أسقف عليها إذ سبق القول بأن البابا الاسكندرى ظل ينتدب أسقف دمياط لرعاية القبط ومصالحهم هناك مدى قرون عدة . وكانت الرياسة العليا خلال تلك القرون للأسقف اليونانى الذى أطلق عليه لقب « بطريرك » منذ مجمع خلقيدون المشئوم – أما شئون القبط بالذات فكانت موكولة أثناء الأيام العادية لبطريرك أنطاكية الذى كان له أسقف

---

(١) يحتفى القبط فى مصر أيضاً بهذه الذكرى فتقام القداسات فى جميع الكنائس التى تحمل اسم السيدة العذراء .

(٢) الثيئوتوكية هى تمجيد للثيئوتوكس (أى تمجيد لوالدة الاله) والهوس كلمة قبطية معناها تسبحة والتسبيحات الأربعة هى : ١– تسبحة موسى النبى خروج ١٥ ، ٢ – مزمور ١٣٥ . ٣– تسبحة الفتية الثلاثة (دانيال ٣) ، ٤– مزامير ١٤٨ و١٤٩ و١٥٠ – وفى شهر كيهك يترنمون بالتسبحة الأولى تتلوها ثيئوتوكية يومى الاثنين والثلاثاء ، فالتسبحة الثانية تتلوها ثيئوتوكية يومى الأربعاء والخميس ، فالتسبحة الثالثة تتلوها ثيئوتوكية يومى الجمعة والسبت ، فالتسبحة الرابعة تتلوها ثيئوتوكية يوم الأحد . وهذه التسبحات كلها مع الثيئوتوكيات وردت فى كتاب الابصلمودية السنوية طبعة اقلاديوس لبيب بأمر قداسة الأنبا كيرلس الخامس سنة ١٦٢٤ش (سنة ١٩٠٨م) بمطبعة عين شمس بمصر . والهوسات تقع ما بين ص٣٠ – ٩٢ .

فى أورشليم وكان بطريرك أورشليم إبان الفتح العربى هو صفرونيوس الذى كان راهبًا من الاسكندرية ثم واجه قورش فى شجاعة . ولما لم يجد منه أذنًا صاغية كما لم يجد من امبراطور القسطنطينية ولا من أسقفها غير التآمر مع عميلهما قورش ضد الأرثوذكسيين قصد إلى أورشليم ولم يلبث أن اختير بطريركًا لهذه العاصمة وما يتبعها من الأراضى المقدسة (١) .

ثم بدأ الزحف العربى، فراقبه صفرونيوس باهتمام بالغ(٢) . وحين اقتربت القوات العربية من حدود ايبارشيته ورأى سلطان القسطنطينية يتقلص بسرعة أمامها رأى أنه من الخير أن يتفاوض مع المسئولين فى أمر الصلح لكى يحافظ بذلك على سلامة أبنائه . على أنه اشترط مجئ عمر بن الخطاب شخصيًا إلى أورشليم ليوقع معه معاهدة الصلح . فوافق هذا الخليفة على مطلب صفرونيوس رغم معارضة مستشاريه وقواده، وذهب إلى أورشليم مدينة الملك العظيم : هذه المدينة التى يقدسها المسيحيون والمسلمون واليهود سواءً بسواء حتى لقد أسموها « القدس الشريف » . فكان لزيارته هذه أبلغ الأثر وبخاصة لأنه كان أول خليفة غادر البلاد العربية . فاستقبله صفرونيوس بالاكرام والترحاب ، وصحبه إلى جميع المزارات المقدسة . وتبادل الزعيمان الثقة والمودة .

٣٣٥- وفى أثناء هذه الزيارة قدم عمر بن الخطاب رسالة إلى صفرونيوس تعرف فى التاريخ باسم « العهدة العمرية » لأن الخليفة تعهد فيها للمسيحيين باحترام حقوقهم وترك الحرية لهم لممارسة شعائرهم الدينية ومباشرة أعمالهم الدنيوية (٣) . ولما كانت هذه العهدة لجميع المسيحيين القاطنين فى الأراضى المقدسة فقد استطاع القبط أن يداوموا على تأدية شعائرهم ورعاية مقدساتهم والقيام بالحج فى مواعيده . ومن ثم استمرت الصلة بينهم وبين الأراضى المقدسة قائمة ، بل أنها توثقت على مر الزمن .

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٤٢٣ .

(٢) « الخلافة : ازدهارها تداعيها فسقوطها » (بالانجليزية) لوليم موير ص٧١ .

(٣) شرحه ص١٣٥ - ١٣٦ حيث أورد تفاصيل العهدة ، « تاريخ القدس » لعارف باشا العارف طبع بدار المعارف بمصر سنة ١٩٥١ ص٤٦ - ٤٧ .

الصلة بأثيوبيا

(٢٣٦) الأثيوبيون يشاركون المصريين ايمانهم وعداءهم للامبراطورية البيزنطية .
(٢٣٧) عناية الأنبا بنيامين بأبنائه الأثيوبيين ومعاونة القديس تكلا هيمانوت له .
(٢٣٨) نشأة القديس تكلا هيمانوت .
(٢٣٩) تكلا يتحول من صائد وحوش إلى صائد للناس .
(٢٤٠) تكلا يوزع أمواله ويتجول فى البلاد معلماً .
(٢٤١) اجتذابه والى مقاطعة داموت وجمع غفير للسيد المسيح .
(٢٤٢) ترهبه على يدى شيخ ناسك فى كنيسة القديس استفانوس .
(٢٤٣) قضاؤه اثنى عشر عاماً فوق قمة دامو ثم زيارته الأديرة والأماكن المقدسة .
(٢٤٤) تعليمه عدداً وفيراً من الرهبان والراهبات سبع سنوات ثم نياحته .

٢٣٦- من الصلات التى عدّتها الكنيسة المصرية صلات مقدسة تلك الصلة التى تربط بينها وبين أثيوبيا فمنذ أن وضع أثناسيوس الرسولى اليد على فرومنتيوس سنة ٣١٨ م ش (١) راسماً اياه أسقفاً على هذه البلاد الشقيقة جرى التقليد على أن يرسم خليفة مارمرقس الراهب الذى يراه جديراً بالكرامة الأسقفية راعياً أعلى للأثيوبيين . ولم تكن هذه الرسامة سوى العلامة الخارجية لتلك الصلة العميقة غير المرئية التى هى الايمان الواحد . وكان هذا الايمان الواحد متيناً قوياً إلى حد أنه كان يجعل الأثيوبيين يجمعون على الوقوف إلى جانب المصريين فى صراعهم ضد أباطرة القسطنطينية . بل لقد أدرك الأباطرة أنفسهم متانة هذه الصلة فزعم الامبراطور قسطنطيوس أن أثناسيوس الرسولى لابد أن يكون مختبئاً عند فرومنتيوس حين عجز مندوبوه عن العثور على بطل الأرثوذكسية الصنديد . ولم يكن الراهب المختار لأسقفية أثيوبيا ليرسم فى الاسكندرية فحسب ، بل كان قبطياً صميماً . كذلك لم يكتف

(١) هذه السنة موافقة لسنة ٣٢٦م غ . راجع الفصل الخاص بالأنبا أثناسيوس الرسولى فى الجزء الأول لهذا الكتاب .

البابوات بإيفاد الأساقفة من قبلهم إلى تلك البلاد ، بل كثيراً ما كانوا يوفدون الكهنة والرهبان للخدمة هناك . وكان عدد كبير من الأثيوبيين يأتون إلى مصر للترهب في أديرتها ومشاركة الآباء القبط عيشة النسك في الصحارى المصرية . وكما شارك الأثيوبيون المصريين الايمان الأرثوذكسي ، وكما شاركوهم العداء للامبراطورية البيزنطية ، كذلك شاركوهم تفاؤلهم عند دخول العرب إلى مصر . وكان حنقهم على عملاء القسطنطينية بازاء نفى البابا بنيامين وأساقفة الكرازة المرقسية لا يقل عن حنق الأقباط . فتلقوا نبأ عودته إلى مقر كرسيه بالتهليل ورفع آي الشكر لله تعالى .

٣٣٧- وحدث بعد عودة الأنبا بنيامين من المنفى بقليل أن انتقل أسقف أثيوبيا إلى بيعة الأبكار (١) . وكان البابا الاسكندري إذ ذاك منشغلاً بتكريس بيعة الأنبا مكارى الكبير في ديره . وما كاد ينتهى من عمله هذا حتى بادر إلى رسامة كيرلس تلميذه أسقفًا لأكسوم . وحمل كيرلس إلى وطنه الثاني (أثيوبيا) رسالة معلمه الأنبا بنيامين بكل اخلاص ، فعلّم الشعب الذى ائتمنه الله عليه بهمة وغيرة متقدة . ومن رضى الله تعالى عنه أن هيأ له من يساعده بأن أقام له القديس تكلا هيمانوت . ويرى بعض المؤرخين أن تكلا هذا كان مصرى المولد (٢) بينما يرى غيرهم أنه ولد في احدى القرى القريبة من أورشليم ، والتي كانت من نصيب صادوق وأبياثار كاهنى العلى (٣) أما السنكسار الأثيوبي فيؤكد أنه ولد في أثيوبيا وترعرع فيها ولو أنه يقرّ بأنه سليل عائلة كهنوتية (٤) . ومع اختلاف المؤرخين على مسقط رأس تكلا فإنهم مجمعون على قداسته .

---

(١) تعبير قبطى للكناية عن الفردوس الذى ينتقل إليه المتبتلون .

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص طبع في القاهرة ١٩٢٤ ص٣٨٠ ، رحلة الأنبا يؤنس التاسع عشر إلى أثيوبيا ليوسف جرجس طبع في القاهرة سنة ١٩٣٠ ص٧١ - ٧٢ .

(٣) الصادق الأمين لقدس القمصين فيلوثيؤس وميخائيل المترهبين بدير القديس مكارى الكبير طبع في القاهرة سنة ١٦٢٩ للشهداء (١٩١٣م) جـ٢ ص٣١٠ .

(٤) السنكسار الأثيوبي ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج طبع في جامعة كامبردج سنة ١٩٢٨ جـ٤ ص١٢٤١ .

٣٣٨- وكان والد تكلا من عائلة من الكهنة الذين أضاءوا أثيوبيا بإيمانهم، كما كانت أمه بارّه تخاف الله . وكان والداه على جانب عظيم من الثروة ، ولكن ثروتهما لم تحقق لهما السعادة إذ لم يكن لهما ولد وبعد سنين من الصلوات الحارة والأصوام النسكية رزقهم الله تكلا الذى لم يبلغ درجة عظمى من القداسة بعد اكتمال نموه فحسب ، وإنما بدت علامات القداسة عليه وهو بعد فى سن مبكرة . وقد حرص أبوه على تعليمه المزامير وغيرها من آيات الأسفار الالهية وهو فى السابعة من عمره . فلما أتقن حفظها صحبه أبوه إلى الأسقف الذى رسمه شماساً بعد أن امتحنه واطمأن إلى تفوقه . ولم يكتفِ الأسقف بوضع اليد عليه ولكنه تنبأ له أيضاً بأنه سيكون اناءً مختاراً .

٣٣٩- ولما بلغ تكلا أشده كان يقضى أوقاته فى التنقل بين الغابات لاصطياد الوحوش الكاسرة . وكانت المخاطر تستهويه ، وملاقاة الأهوال تستثيره ، فكان يستمتع بالعودة ظافراً بعد اجتيازه الأخطار . وذات يوم بينما كان فى أعماق احدى الغابات إذ به يرى السيد المسيح له المجد محمولاً على أجنحة الملائكة ، وخلال هذه الرؤيا العجيبة سمع المخلص يقول له : « إنك من الآن لا تعود تصطاد الوحوش بل ستترك هذا النوع من الصيد لغيره ، لأنك ستصطاد أنفس الناس إلى معرفة الحق . فقد اصطفيتك منذ أن كنت فى بطن أمك ، ولهذا منحتك موهبة الشفاء » . ثم توارت الرؤيا وتلاشى الصوت . وشرد تكلا بفكره ثم عاد لفوره إلى قصره ليفكر فى ما رأى وما سمع .

٣٤٠- وبعد أيام قلائل انتقل والد تكلا إلى دار البقاء . فعاد بفكره إلى الرؤيا التى سعد بها ورأى أن خير ما يعمله هو أن يوزع أمواله على الفقراء ويجعل من بيته مأوى للمساكين والغرباء . فنفذ عزمه هذا ولم يحمل معه غير عصا للطريق . ثم انصرف وهو يردد قول السيد المسيح : « ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » (١) . ولما كان قد ترك العالم كله ليتبع الفادى الحبيب فقد أخذ يتجول فى البلاد يعلِّم ويبشِّر . وكان لتبشيره من الأثر ما جعل الأسقف يرسمه قسيساً وزادته هذه الرسامة نعمة وملأته غيرة ، فاندفع فى

---

(١) متى ١٦ : ٢٦ .

التعليم والتبشير بحرارة جعلته ينجح فى اكتساب سبعة آلاف نفس للمسيح .

٣٤١- وكان والى المقاطعة المسماة « داموت » لايزال وثنياً . فلما سمع بما أحرزه تكلا من نجاح احتدم غيظه وأرسل جنده وراءه ليلقوا القبض عليه . فلم يلبث الجند أن أمسكوا بِهِ وساقوه فى قسوة إلى الوالى الذى أمر بتعذيبه . فلم يتحمل تكلا كل ما صب عليه من عذاب فحسب بل أنه شفى جميع المرضى الذين استنجدوا به أثناء تعذيبه . فدهش الجميع من صبره ومقدرته على تحمل الآلام . وازدادت دهشتهم حين رأوه يعطف عليهم ويشفى أسقامهم رغم ما يقاسيه على يدى واليهم من تنكيل . فكان عطفه عليهم واحتماله العذاب فى الوقت عينه سبباً فى اجتذابهم إلى المسيحية . ولم يكن هذا الأثر قاصراً على الشعب بل شمل الوالى أيضاً - فأعلنوا جميعاً رغبتهم فى أن يتبعوا المسيح حتى بلغ عدد الذين اصطبغوا بالصبغة المقدسة فى ذلك اليوم اثنى عشر ألفًا وتسعًا وتسعين نفساً . وتهلل قلب تكلا فرحًا لاصطياده هذا الجمع الغفير إلى الحق . ولكنه لم يكتفِ باعلانهم قبول المسيح لكونهم رأوا عمله الصالح ومجدوا آباه الذى فى السموات ، بل دأب على تعليمهم ليكون ايمانهم مبنياً على المعرفة الحقة .

٣٤٢- وقضى تكلا سنين عديدة فى هذا الجهاد رأى بعدها رؤيا تشير عليه بالذهاب إلى كنيسة القديس استفانوس أول الشهداء . وكان الغرض من ذهابه إلى تلك الكنيسة هو التتلمذ لناسك شيخ والاستزادة من المعرفة المسيحية على يديه . فأطاع تكلا هذه الرؤيا السماوية الثانية كما أطاع الأولى وعاش سنوات عشراً فى هذه الكنيسة . وقد أكرمه الله تعالى بأن أجرى على يديه الآيات والعجائب .

٣٤٣- ولما انقضت هذه السنوات العشر تجلّت لتكلا رؤيا سماوية ثالثة أشار عليه الصوت الالهى فيها بأن يترك الكنيسة التى يقطنها ويتسلق جبلاً عالياً اسمه جبل « دامو » فى مقاطعة تيجرى ليعيش مع ناسك آخر . وأطاع تكلا الرؤيا السماوية من غير تردد على جارى عادته ، وعاش اثنتى عشرة سنة

على قمة جبل دامو . ثم ظهر له ملاك الرب بعد ذلك ونصحه بأن يفتقد الأديرة والبيوت المبعثرة فى برارى تيجرى فنزل لفوره من الجبل وأخذ يتجول فى طول البلاد وعرضها . وحالما انتهى من هذه الرسالة الموضوعة عليه قصد إلى القدس الشريف ومنه إلى بقية المدن التى عاش فيها المخلص له المجد .

٣٤٤- ولما انتهى من زيارة الأماكن المقدسة كلها عاد إلى بلده . ثم نحت لنفسه مغارة فى احدى الصخور الطبيعية وقضى فيها أيامه ولياليه دون أن يغادرها مرة واحدة . وكانت الجماهير تهرع إلى حيث يقيم وعاش بعضهم معه مترسمين خطواته. وكان بين الذين تتلمذوا له عدد غير قليل من النسوة. فعلّم الجميع - رجالاً ونساء - ووضح لهم طريق الحق والحياة . وقضى سبع سنين على هذا المنوال . وبعد انقضاء هذه السنوات السبع رأى تكلا رؤيا من المجد الأسنى إذ قد بدا له السيد المسيح ومعه السيدة العذراء يحيط بهما نور يخطف الأبصار . وفى هذه الرؤيا قال له السيد المسيح : « يا مختارى تكلا - لقد انتهى زمن جهادك وتتوجت بالنصر وقد قبلتك قرباناً زكياً لى . فتعال إلىّ لتنال الأكليل الذى لا يضمحل » .

وهكذا انتقل القديس تكلا هيمانوت إلى فردوس النعيم بعد أن قضى تسعاً وتسعين سنة وثمانية أشهر على هذه الأرض تاجر خلالها بالوزنات التى تسلمها من رب المجد وربح ربحاً وفيراً (١) .



(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج طبع فى جامعة كامبردج سنة ١٩٢٨ جـ٤ ص١٢٤١ - ١٢٤٦ .

المحبة واسعة الحيلة

(٣٤٥) حيلة القس أغاثون لتأدية أعماله الراعوية.
(٣٤٦) خدماته الجزيلة وانتخابه للسدة المرقسية.
(٣٤٧) الأنبا أغاثون يفتدى الأسرى.
(٣٤٨) ويجدد بناء الكنيسة المرقسية بالاسكندرية.
(٣٤٩) ثيئودورس الخلقيدونى يستبد بالأنبا أغاثون وشعبه الوفى.
(٣٥٠) عناية الله تعالى بشعبه.
(٣٥١) ملاك الرب ينصح الأنبا أغاثون بطلب الراهب يؤنس السمنودى.
(٣٥٢) اقامة الراهب يؤنس مشرفا على كنائس الاسكندرية.
(٣٥٣) نزاهة الوالى مسلمة.
(٣٥٤) حرص البابا أغاثون على القوانين الكنسية.
(٣٥٥) سبعة أساقفة يتفاهمون مع والى سخا.
(٣٥٦) نياحة الأنبا أغاثون.
(٣٥٧) جهلنا بتراجم الأساقفة الذين أدوا واجبهم.

٣٤٥– لما انتقل الأنبا بنيامين إلى الأخدار السماوية كان بين الرجال الذين انتقاهم لادارة شئون الكنيسة كاهن اسمه أغاثون ممتلئًا نعمة وحكمة. وكان من أهالى مريوط حيث ارتفعت قباب كنيسة مارمينا العجايبى. فنشأ فى بيئة مشبعة بالروح الدينية استثارت فيه الميل إلى التأمل فى الالهيات وفى دراسة الكتب المقدسة وسير الآباء. ولما نال سر الكهنوت ازداد فيض النعمة داخله فازداد ادراكاً لعظم المسئولية الملقاة على عاتقه إذ كان – منذ البداية – يعرف أن الانسان حارس لأخيه. وقد أرهف فيه هذا الادراك شعوره بحاجات شعبه فأحبه حبًا جمًا. ودفعته محبته إلى أن يرقب فى اهتمام بالغ تألب الحكام واستبدادهم وأن يفكر ملياً فى أحسن الوسائل التى يستطيع بواسطتها أن يخدم الشعب المصرى دون أن يعوقه هؤلاء الحكام الغاشمون. وقد أدى به التفكير إلى ضرورة الجهاد فى صورة لا يدركها أولو الأمر. ومن ثم تخفى فى زى تجار وحمل مستلزمات هذه المهنة جهراً وأخفى فى طياتها ما يحتاجه

الكاهن لخدمة الشعب . وقد جازت حيلته هذه لأن الحكام لم يفطنوا إلى أن هذا النجار هو الايغومانس أغاثون . فتم له النجاح فى القيام بأعبائه الراعوية بلا مانع ولا عائق ، وسعد الشعب بالحصول على الأسرار الالهية آمناً مطمئناً .

٣٤٦- ولما عاد الأنبا بنيامين إلى مقر كرسيه على أثر انتصار العرب أطلعه الشعب على تفانى أغاثون وحيلته . فتهلل البابا الاسكندرى حين وجد من بين أبنائه من طغت عليه النعمة الالهية وملأته حباً فى الخدمة إلى هذا الحد . ومن ثم اتخذه سكرتيراً خاصاً . وكرس أغاثون نفسه لعمله الجديد بنفس التفانى والاخلاص الذى عهده فيه الشعب من قبل . ورأى أن من أعظم الواجبات الملقاة عليه تدوين سيرة الأنبا بنيامين . وفى هذه السيرة لم يكتف أغاثون بسرد حياة باباه القديس بل وصف معها كل ما جرى من حوادث جسام ولما كانت هذه الفترة من تاريخنا العجيب مليئة بالتقلبات فإن كتاب أغاثون عن خليفة مارمرقس له أهمية عظمى لأنه يطلعنا على فصل حاسم من حياة الشعب المصرى العريق . وبذلك أدى هذا السكرتير البابوى خدمة عظيمة لوطنه ولمواطنيه الذين عاصروه والذين جاءوا من بعده .

وكانت السنوات التى قضاها القس أغاثون فى خدمة الأنبا بنيامين فترة تدريب واعداد إذ قد تهيأت له الفرصة للاتصال بالشعب أكثر فأكثر ، وبالتالى لمعرفة حاجات هذا الشعب ومطالبه . ومما زاد هذا التدريب قيمة أنه حين اضطر البابا الاسكندرى إلى ملازمة الفراش خلال السنتين الأخيرتين من باباويته ائتمن سكرتيره أغاثون على تصريف الأمور فى الكنيسة . وكان لتفانى السكرتير البابوى فى الخدمة وصبره ودعته أن الشعب قال عنه : « لقد أحسن أبواه تسميته إذ جاء اسمه على مسمى بالفعل . فإن كلمة « أغاثون » معناها الصلاح ، وهذا الكاهن صالح كل الصلاح » . فلم يكن بمستغرب - والحالة هذه - أن يلتف الشعب حوله يحبه ويقدره فينتخبه راعياً أعلى بعد انتقال الأنبا بنيامين إلى الأخدار السماوية سنة ٦٥٦م . فأصبح البابا الاسكندرى التاسع والثلاثين .

٣٤٧- وحين تسلم الأنبا أغاثون مقاليد الرياسة فى الكنيسة وجد مصر

تزخر بعدد من الأسرى الروم والصقالبة والايطاليين . ورأى أن هؤلاء الأسرى قد يسببون متاعب للمصريين إن هم تمردوا أو حاولوا الاخلال بالأمن . وفى الوقت عينه خشى أن ينكروا مسيحيتهم لينالوا العتق من أسرهم . فرأى أن يضرب عصفورين بحجر واحد فيريح مصر من مضايقتهم ويحفظ عليهم مسيحيتهم بأن دفع الفدية عن أكبر عدد منهم - إذ كان يعوزه المال اللازم لافتدائهم جميعاً . وكان - إذا ما افتدى أسيراً منهم - يعطيه حرية الاختيار بين البقاء تحت رعايته أو السفر إلى وطنه . فمن شاء منهم العودة رحّله على نفقته الخاصة ، ومن شاء أن يبقى ثبته على الايمان بمساعدته على ايجاد عمل يرتزق منه .

٣٤٨- وكان عمر بن العاص قد عاد إلى مصر ليتولى الأمر فيها فى خلافة معاوية بن أبى سفيان . وقد أتبع فى هذه الفترة نفس السياسة التى كان قد اتبعها فى فترة ولايته الأولى ، فمنح القبط حرية العبادة وترك الأمر بين يدى باباهم أغاثون كما كان قد تركه بين يدى البابا بنيامين من قبل . وقد وجد البابا الاسكندرى أن سياسة التسامح هذه فرصة مواتية له لاعادة بناء كنيسة القديس مرقس التى كانت قد هدمت وقت تدمير مدينة الاسكندرية عند فتحها للمرة الثانية . وبينما كان الفعلة منهمكين فى بناء الكنيسة أمر الأنبا أغاثون ببناء بيت فسيح مقابلها ليجد فيه الغرباء والنزلاء مكاناً يقضون فيه أيام غربتهم كلما اضطروا إلى الذهاب للاسكندرية (١) .

٣٤٩- وفى أثناء هذه الأعمال الانشائية حدث أن تواطأ ثيئودورس أحد أنصار مجمع خلقيدون المشئوم مع يزيد بن معاوية والى دمشق على أن يوليه رياسة كنيسة الاسكندرية فوافقه يزيد على ذلك بعد أن أخذ منه رشوة مغرية . فجاء ثيئودورس - على أثر ذلك - إلى الاسكندرية وأخذ يستبد بالأنبا أغاثون وبالشعب الأرثوذكسى الأمين . ولم يكتف بفرض جزية عامة عليهم بل زاد على ذلك بأن فرض على الأنبا أغاثون ستة دنانير سنوياً على كل تلميذ من

---

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٨ .

تلاميذه الأخصاء ، كما استولى على المال الذى كان يدفعه البابا الاسكندرى للملاحين وبحارة الأسطول المصرى . ولم يشبع كل هذا المال جشع ثيئودورس الخلقيدونى إذ كان يستولى على كل ما يرد من مال للأنبا أغاثون [١] . ثم أعلن فى قحة غريبة بأن كل من يعثر على هذا البابا الجليل له الحرية فى رجمه بالحجارة حتى الموت !

٣٥٠- على أنه رغم هذه الآلام المريرة لم ينس الآب السماوى شعبه المصرى الأمين إذ كانت أديرة برية شيهيت عامرة بالنساك الأتقياء المكرسين للصوم والصلاة والتأمل فى الالهيات . وكان هؤلاء القديسون يتضرعون إلى الله بلا انقطاع ليعيد السلام إلى الكنيسة . وكان كثير من المؤمنين يذهبون للتبرك بهؤلاء النساك المستنيرين بنعمة الله وكان بعض هؤلاء الزوار يقضى أياماً طويلة فى الصحراء لمعاونة الرهبان على بناء الصوامع الجديدة التى اقتضت بناءها ضرورة مفرحة هى تزايد عدد النساك . وكان بين المؤمنين الذين ذهبوا إلى الصحراء لمعاونة الرهبان فى عملهم رجل مؤمن اسمه يؤنس السمنودى . وحدث أنه بينما كان يؤنس منهمكاً فى مساعدة الرهبان على البناء أصيب بمرض أقعده عن العمل . ثم اشتدت وطأة المرض عليه حتى ظن معظم الآباء أنه لن يبرأ منه . على أن يؤنس ظل مواظباً على التوسل إلى رب الكنيسة ليتداركه بمراحمه . وفى احدى الليالى غفا يؤنس قليلاً فرأى القديس مرقس يشفع فيه أمام عرش النعمة . وفى اليوم التالى استيقظ من النوم فوجد نفسه معافى . فامتلأ قلبه عزاء وغبطة وقرر أن يكرس حياته كلها لله . ثم خرج من برية شيهيت قاصداً أحد الأديرة الواقعة بالقرب من الفيوم . وقد صحبه يومذاك راهبان عاشا معه وتتلمذا له .

٣٥١- وفى احدى الليالى بينما كان الأنبا أغاثون مضطراً إلى الاختباء من بطش ثيئودورس الخلقيدونى ، رأى أحد القديسين فى حلم يقول له : « أرسل فى طلب الكاهن يؤنس السمنودى لأنه سيكون عوناً لك وسنداً كما

---

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٥٨ .

سيكون خليفتك على السدة المرقسية » . وما أن استيقظ البابا الاسكندرى حتى بعث برسله إلى الأنبا مينا أسقف الفيوم طالباً إليه أن يرسل له الراهب المشار إليه . وكان الأسقف يحب هذا الراهب ويود استبقاءه إلى جانبه ، ولكنه امتثل لأمر البابا وبادر بارسال الراهب يؤنس إليه .

٣٥٢- وحين وقعت عينا الأنبا أغاثون على يؤنس السمنودى فرح به فرحاً عظيماً ، وازداد فرحه حين تحدث إليه إذ وجده واسع الاطلاع متجملاً بكل الفضائل المسيحية . فأقامه مديراً لكنيسة القديس مرقس كما منحه السلطة للاشراف على كل كنائس الاسكندرية . ولقد تجلت حكمة يؤنس وحسن إدارته فازدادت ثقة البابا به .

٣٥٣- وحدث أن شغرت عدة ايبارشيات فى تلك الأيام ، فاقترح بعض المؤمنين على الأنبا أغاثون أن يرسم يؤنس أسقفاً على احداها . ولكنه رفض جميع طلباتهم محتفظاً به للباباوية تحقيقاً للحلم الذى رآه والذى عرف منه أنه سيكون البابا من بعده . وذلك لأنه كان حريصاً على القوانين الكنسية وكان يعرف تمام المعرفة أن هذه القوانين نصت على أنه لا يجوز للأسقف أن يكون بابا لأن البابوية لم تخرج عن كونها أسقفية ولو أنها أسقفية العاصمة . فالبابا بمثابة الأخ الأكبر (١) . لهذه الأسباب احتفظ الأنبا أغاثون بالراهب يؤنس واتخذه سكرتيراً خاصاً . وهذا الحرص على القوانين الكنسية جعل البابا الاسكندرى يدقق كل التدقيق عند اختيار الأشخاص المطلوب رسامتهم لكل درجات الكهنوت . ولما رأى الشعب فيه هذا الحرص وهذه العناية الفائقة فى التمسك بالتقاليد الرسولية زاد فى تقديره ومنحه ولاءه الخالص .

٣٥٤- وكان والى مصر يومذاك اسمه مَسلَمة الذى كان رجلاً عادلاً نزيهاً يعامل جميع المصريين معاملة واحدة فلا يفرق بين مسلم ومسيحى إلى حد

---

(١) راجع ما دار من نقاش حول هذا الموضوع فى الفصل الخاص بالمجمع المسكونى الثانى فى الجزء الأول لهذا الكتاب .

أنه سمح للقبط بأن يبنوا كنيسة خلف الكوبرى عند الفسطاط رغم معارضة رجال ولايته (١) .

ثم بلغ مسامع مسلمة أن بعضاً من أهالى سخا قد أشعلوا النيران فى عدد من رجال الديوان هناك ، فانتدب سبعة من أساقفة الكرازة المرقسية ورجا منهم أن يذهبوا ليعالجوا الأمور فى تلك المدينة بحكمتهم . فذهبوا لفورهم ونجحوا فى اقرار الأمن . وقد منحتهم النعمة الالهية القدرة على شفاء من كانوا قد أصيبوا فى الاعتداء كما منحتهم الحكمة فى توقيع العقاب المناسب على المعتدين .

٣٥٥- وكان فى سخا قبطى اسمه اسحق من أصحاب الجاه والنفوذ وله دالة على والى مدينته . فما كاد الأساقفة السبعة ينتهون من المأمورية التى انتدبوا لأجلها حتى أخذوا يتفاوضون مع اسحق فيما يجب عليهم اتخاذه من تدابير بازاء ثيئودورس الخلقيدونى . وأشار عليهم اسحق بمقابلة الوالى فذهبوا جميعاً إليه وأوضحوا له كل وسائل الاستبداد التى لجأ إليها الخلقيدونى الدخيل ضد باباهم الشرعى .

٣٥٦- ومن المؤلم أنه بينما كان الأساقفة والأرخن اسحق يتشاورون معاً فى أمر ثيئودورس الخلقيدونى أصيب الأنبا أغاثون بمرض لم يمهله غير أيام قصيرة انتقل بعدها إلى بيعة الأبكار . « وكان قد بلغ الشيخوخة وجاز الآلام والبلايا خلال باباويته » . فتنيح بسلام حافظاً الايمان الأرثوذكسى ، وهو الآن متوج ينتظر البر مع جميع القديسين فى كورة الأحياء إلى الأبد (٢) .

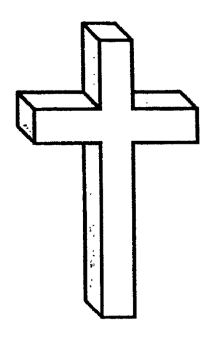
٣٥٧- ومما يؤسف له أنه لم يعثر للآن على سير الأساقفة الأجلاء الذين حملوا المسئولية مع الأنبا أغاثون . فالأنبا مينا أسقف الفيوم قد ورد اسمه فى

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول (الطبعة الخامسة) طبع فى لندن سنة ١٩٣٦ ص٢٦ .

(٢) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين ترجمه إلى الانجليزية ايفيتس جـ٣ ص٣ - ١٠ .

جملة عابرة ضمن ترجمة باباه ، وهذا كل ما نعرفه عنه . أما الأساقفة السبعة الذين انتخبهم والى مصر لتثبيت دعائم العدالة فى سخا فإننا نجهل حتى أسماءهم . على أنه يكفيهم فخراً أنهم أدوا واجبهم نحو وطنهم ونحو كنيستهم فاستحقوا أن ينالوا جزاءهم من أبيهم الذى يرى فى الخفاء ويجازى علانية (١) .

وثمة أسقف آخر أغلب الظن أنه معاصر لهم – أو قد يتقارب معهم إذ أنه عاش فى القرن السابع . وكل ما نعرفه عنه أنه كان أسقفاً على قفط وترك موعظة قالها فى مرضه الأخير (٢) .



(١) متى ٦ : ٤ .

(٢) عن مقال « مخطوطات عربية لكتبة قبط » (بالفرنسية) لبول سبات نشرها فى مجلة الآثار القبطية العدد الخامس (القاهرة سنة ١٩٣٩) ص١٦٥ .

يؤنس النيقيوسى

٣٥٨- من بين الغربيين الذين اجتذبهم تاريخ مصر بما فيه من أمجاد المستشرق الأمريكى هنرى بريستد : ولقد كتب هذا البحاثة المدقق فى مقدمة كتابه « فجر الضمير » (١) يقول ما ترجمته : « إن تاريخ البشرية يتلخص فيما بين البلطة والقنبلة » . وهذه الكلمة تعبر عن حقيقة مؤلمة هى أن النزوع إلى التخريب طغى فى كثير من الأحيان على بدائع الانتاج الفكرى والفنى . ولا يوجد شعب عرف مدى ما فى هذه الحقيقة من مرارة قدر شعبنا لكثرة المعتدين الذين تألبوا عليه . وأنه لمما يثير الأسى أن الكثير من تراجم آباء كنيستنا المصرية قد سطت عليه يد الدهر - أو بالحرى يد المستعمر الغاشم - فلم يبق منها غير النزر اليسير . وليست تراجم الآباء هى وحدها التى أضاعها الجهل والطغيان بل أن تعاليمهم أيضاً قد نالها الشئ الكثير من التبديد .

---

(١) يتتبع بريستد فى كتابه هذا تاريخ التطور الفكرى الروحى فى مصر ابتداء من العصر السابق على بناء الأهرام حتى دخول المسيحية . وخليق بكل مصرى يفخر بقوميته أن يطالع هذا الكتاب ليرى إلى أى مدى أدرك أجداده معنى المثل العليا التى لايزال الناس يسعون نحوها حتى الآن .

وبين التراجم المفقودة التى يتوق الباحثون إلى العثور عليها ترجمة يؤنس النيقيوسى الذى عاش فى أواخر القرن السابع . ذلك أن هذا الأسقف الجليل قد وضع تاريخاً شاملاً يبدأ بتكوين الخليقة وينتهى بالقرن الذى عاش فيه . فكان حظ هذا التاريخ حظ كاتبه إذ لم تبق نسخته الأصلية ولم يعثر عليها للآن .

٣٥٩- أما الشذرات الباقية عن يؤنس النيقيوسى فتعطينا لمحات خاطفة عنه وتستثير شوقنا إلى المزيد كالعطشان الذى لا يجد غير السراب أمامه فلا يرتاح باطفاء غليله .

وتتلخص هذه الشذرات فى أن مدينة نيقيوس مسقط رأس ذلك المؤرخ الكبير كانت - فى عصره - عاصمة للمديرية الرابعة من مديريات القطر المصرى . وظلت تشغل مكاناً سامياً بين المدن المصرية حتى بعد انتقال يؤنس إلى عالم الأرواح . أما اليوم فهى قرية صغيرة مغمورة من قرى الدلتا تعرف باسم « زاوية رزين » بالمنوفية . ولقد قام المستشرق الفرنسى دارسى سنة ١٩١٢ بحفريات حول هذه القرية فلم يعثر بها إلا على تمثال واحد لرمسيس الثانى وعلى بعض الأحجار المبعثرة والجدران المتداعية التى كانت فى يوم ما تؤلف بيوتاً للعبادة المسيحية . أما ما تبقى لها من شهرة فهى مرتبطة باسم يؤنس وغيره من الأساقفة الذين اعتلوا سدتها حين كانت مدينة عظمى ومقراً لأسقفية (١) .

٣٦٠- والمعروف عن هذا المؤرخ الكنسى أنه ترهب فى دير الأنبا مكارى الكبير فى برية شيهيت ، حيث اشتهر بعلمه الواسع وتقواه الفائقة ومقدرته على الادارة والتنظيم .

٣٦١- ولقد رأى الأنبا أغاثون أن يستعين بمواهب يؤنس فاستدعاه من الدير وعينه ضمن سكرتيريه فأخلص فى خدمته إلى حد أنه حين انتقل هذا البابا الجليل إلى بيعة الأبكار استبقاه يؤنس الثالث الذى خلف الأنبا أغاثون

---

(١) « حول مدينة نيقيو » مقال للأستاذ لبيب حبشى نشره فى رسالة مارمينا العدد الرابع (سنة ١٩٥٠) ص١٨٣ - ١٨٤ .

على السدة المرقسية . ثم استمر يؤنس النيقيوسى فى خدمة الأنبا ايساك (اسحق) الذى جلس على كرسى مارمرقس بعد ذلك ولازمه ملازمة الظل حتى أنه كان يلازمه أيضاً كلما ذهب لمقابلة أمير البلاد – إذ كان هذا البابا العّلامة يثق فيه كل الثقة .

٣٦٢– وقد أنعم اللّه تعالى على يؤنس بعمر مديد فخدم الأنبا سيمون خليفة الأنبا ايساك فيكون قد خدم أربعة باباوات بالتتالى . ومع أن يؤنس كان قد بلغ سن الشيخوخة حين اعتلى الأنبا سيمون كرسى مارمرقس ، إلا أن هذا البابا رأى أن يكافئه على خدماته الكثيرة ، فرسمه أسقفاً على مدينة نيقيوس ، وأضاف إلى هذه الرسامة كرامة أخرى هى اقامته رئيسًا على أديرة الأنبا مكارى الكبير . ولهذا السبب أطلق عليه معاصروه لقب « مدير الأديرة » .

ولا يعرف تاريخ انتقال هذا الآب الفاضل إلى الأخدار السماوية على وجه التحقيق ، ولكن من المتواتر أن انتقاله من هذه الدار الفانية إلى الباقية لم يتجاوز آخر القرن السابع .

٣٦٣– أما كتاب التاريخ الذى ألّفه الأنبا يؤنس النيقيوسى فقد وضعه باللغة القبطية ويبدو أن هذا الأسقف قد أسهب فى وصف التفاصيل التاريخية فى العصور التى تناولها بالبحث .

٣٦٤– على أنه مما يؤسف له جد الأسف أن النسخة القبطية قد ضاعت ولم يبق بين أيدينا الآن غير الترجمة الحبشية المحفوظة فى الكنيسة الأثيوبية.

وقد قام شماس أثيوبى بترجمة هذا التاريخ العام من القبطية ، وختمه بقوله : « لقد عنيت أنا الحقير بين الناس والشماس غبريال الابن الروحى ليؤنس القصير بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الحبشية القديمة بمنتهى الدقة . وقد أدينا هذه الترجمة نزولاً على ارادة الملكة مريم سنا وأثناسيوس قائد الجيش الأثيوبى» .

٣٦٥– ومن هذه الترجمة الحبشية يتضح لنا أن ذلك التاريخ النيقيوسى

العام مقسم إلى مئة واثنين وعشرين قسماً . ومع أن يؤنس قد قصد إلى أن يجعل تاريخه عاماً إلا أنه انتهز كل فرصة سانحة للتحدث عن مصر ومجد مصر .

وقد أفرد فى كتابه هذا أقساماً عدة للتنويه بفضل المصريين . وهذا بعضها : الفصل الأول – أول شعب صاغ الذهب وبحث عن المناجم . الفصل الثانى – أول من صنع أدوات الحرب . الفصل الثالث – من أسس مدينة أون (هيلوبوليس) . الفصل الرابع – تأسيس مدينة أبى صير (١) . الفصل الخامس – تأسيس مدينتى سمنود والبرابى . الفصل السادس – بدء الزراعة فى مصر . الفصل السابع – الاحتفاء بذكرى سيزوستريس وهو أول ملك فرض الضرائب وحفر القنوات ... الفصل التاسع – بناء الأهرامات الثلاثة فى ممفيس ... الفصل الثانى عشر – خاص بالملك بروسوبيس الذى أبدل اسم بلدة أبشادى باسم نيقيو وحوّل مجرى النهر من الشرق إلى الغرب عند هذه البلدة ... الفصل السادس عشر – بعض منشآت مدينة الاسكندرية . الفصل السابع عشر – بناء حصن بابلون (مصر القديمة) . الفصل الثامن عشر – حكم ديوقلديانوس المصرى . الفصل التاسع عشر – الاحتفاء بذكرى القديس ثيئوفيلس بابا الاسكندرية ، وهو من ممفيس . الفصل العشرون – الثورة فى مصر على الامبراطور فوقا ... .

٣٦٦– ولقد تتبع يؤنس فى تاريخه تسلسل الحوادث حتى وصل إلى فتح العرب لمصر . فأفرد له الفصل المئة والحادى عشر . وأنه لمن المدهش أن الوصف الخاص بالفتح العربى موجز على العكس من بقية الفصول التى كتبت بالتفصيل ، مما يجعلنا نظن أن مرجع هذا الايجاز هو الترجمة الحبشية لا الأصل القبطى . على أنه رغم هذا الايجاز فإن المؤرخين العصريين المدققين

---

(١) بين الشهداء الذين خدموا مصر بعلومهم الطبية قديس درج الكتاب على تسميته ، أباكير ، ولكن اسمه بالقبطية هو أبا صير ، فاللفظ العربى أبو صير أقرب إلى الكلمة القبطية من ، أبو كير (أو أبو قير) راجع حياة هذا الطبيب الشهيد فى كتاب ، قديسو مصر ، (بالفرنسية) للآب بول شيلو دورليان جـ١ ص٢٥٧ – ٢٦٨ .

يستندون إليه لثقتهم فى يؤنس الذى بدا من كتاباته أنه كان يتوخى الحقيقة باستمرار .

٣٦٧- ويفرد يؤنس النيقيوسى الفصل الأخير من كتابه لتلخيص الموضوعات العديدة التى عالجها فى المئة واثنين وعشرين قسماً منه . وبعد أن قدّم هذا التلخيص ليسهّل على قرّائه أدراك ما وضعه لهم رفع آى الشكر لله تعالى الذى أعانه فمكنه من أن يكمّل كتابه فى التاريخ العام (١) .

وأن يؤنس النيقيوسى لم يخدم أبناء جيله فحسب بل قدم هذه الخدمة الوافية للأجيال المتلاحقة ، فهو ضمن الآلاف الذين يصح وصفهم بكلمة « الجندى المجهول » لأنه مازال مجهولاً حتى من الباحثين المدققين الذين طالعوا تاريخه العام واستناروا بما فيه من معلومات .

ومن بين الباحثين فى سيرته المستشرق زوتنبرج الذى ترجم كتابه من الأثيوبية إلى الفرنسية . ويقول لنا هذا المستشرق بأن يؤنس نفى إلى احدى الجزر فى النيل حيث قضى الجزء الأخير من شيخوخته ، وأنه أصيب بفقد بصره فى تلك الفترة . وكان فى الجزيرة بعض المؤمنين الذين نجوا من الاضطهاد فاعتنوا به إلى أن تنيح بسلام (٢) .



(١) « صور من تاريخ القبط » - رسالة مارمينا الرابعة المطبوعة فى الاسكندرية سنة ١٩٥٠ الفصل الخاص بيوحنا النيقيوسى للدكتور مراد كامل ص١٦٩ - ١٧٩ .

(٢) يوميات يؤنس النيقيوسى - النص الأثيوبى مع الترجمه الفرنسية ترجمه زوتنبرج طبع فى باريس سنة ١٨٨٣ ص٤١٨ - ٤١٩ .



زخارف من النسيج تمثل أولاد الكشافة

الأنبا يؤنس الثالث

٣٦٨– فى سنة ٦٧٣م شغرت السدة المرقسية مرة أخرى بانتقال الأنبا أغاثون إلى الأخدار السمائية . فوجد ثيئودورس الخلقيدونى الفرصة سانحة ليزداد طغياناً . ومن ثم سارع إلى وضع أختامه على جميع ممتلكات الكنيسة المصرية واغتصاب كل ما أمكنه الوصول إليه من أموالها . ولما وصل خبر اعتداءاته الآثمة إلى مسامع الأساقفة السبعة الذين كان قد انتدبهم مسلمة الوالى لاقرار الأمور فى سخا – وكانوا لا يزالون فى تلك المدينة – تشاوروا مع اسحق الأرخن القبطى واتفقت كلمتهم على التفاوض مع والى سخا فى هذا الموضوع . وبالفعل اجتمعوا به وأعلموه بكل ما فعله هذا الخلقيدونى الدخيل . فاقتنع بعدالة قضيتهم ، ووافقهم على أن يتكلم هو بلسانهم مع مسلمة . فأصدر

هذا الأخير أمره برفع يد ثيئودورس عن أموال الكنيسة المرقسية وممتلكاتها وبتجريده من كل سلطة مدنية . ولم تمض بعد ذلك غير مدة قصيرة حتى حلّ به القصاص الالهى إذ قد مرض ولم يلبث أن انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء .

٣٦٩- وكان تجريد ثيئودورس فرصة للمصريين للاجتماع والتشاور معاً فى أمر من يختارونه لرعايتهم . واتفقت كلمتهم على أن خير من يخلف الأنبا أغاثون هو سكرتيره يؤنس الذى أحبوه لخدمته اياهم . فتحقق الحلم الذى كان قد رآه البابا الراحل إذ قد أصبح سكرتيره الخليفة الأربعين لمارمرقس باسم يؤنس الثالث .

٣٧٠- ومن حسن الحظ أن ابن ثيئودورس الخلقيدونى الذى خلف والده على ولاية الاسكندرية كان هادئ الطبع مسالماً قانعاً . فحاول جهده أن يكفّر عن سيئات أبيه بأن وضع نفسه فى خدمة الأنبا يؤنس الثالث ، وكان مطيعاً له . فأكرمه هذا البابا العطوف وعامله معاملة الأب الشفوق لابنه المحبوب . إلا أن ابن ثيئودورس - رغم طاعته وخضوعه - لم يفضّ الأختام التى كان قد وضعها أبوه على الكنائس عنوةً واقتداراً .

٣٧١- وفى تلك الآونة اعتلى أوغسطس بن طيباريوس قيصر عرش القسطنطينية . فعاودته الأحلام فى استعادة نفوذه على الشرق . ومن ثم شنّ الحرب على العرب فى الجزائر المتناثرة فى البحر الأبيض المتوسط وكان النصر حليفه فى هذه المرة إذ قد نجح فى الاستيلاء على صقلية كما استولى على غيرها من الجزر . وملأه النصر زهواً فتوهم أنه يستطيع استعادة مصر لسلطانه . وفعلاً أنزل جنوده على سواحل البرلس حيث تمكنوا من قتل الوردان متولى الخراج . ولكنهم هزموا رغم ذلك واضطروا إلى الانسحاب . على أن النصر الذى أحرزوه على الجزر قد أدّى إلى أن يعقد الامبراطور أوغسطس معاهدة صلح مع العرب فى مصر مؤداها تيسير التجارة بين البلدين (١) .

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين جـ٣ ص١١ ، مصر الاسلامية لالياس الأيوبى ص١٠٢ - ١٠٣ .

٣٧٢- وحدث فى الوقت عينه أن آلت الخلافة إلى مروان . وكان ذا مطامع واسعة : إحداها السيطرة على جميع البلاد سيطرة فعلية . فعيّن عبد الملك ابنه الأكبر والياً على سوريا وعبد العزيز ابنه الثانى واليًا على مصر . وكان عبد العزيز يميل - بوجه عام - إلى الاعتدال . فعيّن كاتبين قبطيين فى ديوانه ، وكانا معروفين باخلاصهما التام للأنبا يونس الثالث . فرأى هذا البابا الجليل أن ينتهز الفرصة التى هيأتها له العناية الالهية بأن كتب لهما من الاسكندرية يستنهض همتهما فى أمر الكنائس التى لاتزال تعلوها الأختام . فجاءه الرد مباشرة وبه الأمر بفضّ الأختام عن جميع الكنائس وتسليمها كاملة إلى خليفة مارمرقس ، واطلاق الحرية للشعب المصرى الوفى لآداء شعائره الدينية فيها . ففرح القبط بهذا الأمر فرحاً عظيماً واكتظت بهم الكنائس .

٣٧٣- وقد امتاز الأنبا يونس الثالث بدرجة عظمى من القداسة حتى أن النعمة الالهية سطعت كالهالة على جبينه كما سطعت قديمًا على وجه موسى (١) . ولفرط قداسته وعلو مكانته العلمية كان أمراء القسطنطينية يكاتبونه ويبعثون إليه بالهدايا .

٣٧٤- على أنه من المؤلم أن وقع حادث أدّى إلى سوء العلاقات بين البابا الاسكندرى وبين عبد العزيز فى السنة الأولى من ولاية هذا الأمير . ويتلخص هذا الحادث فى أن عبد العزيز كان قد ذهب إلى الاسكندرية ليجمع الجزية المفروضة على هذه المدينة دون أن تسبقه رسله إليها . فلم يكن الأنبا يونس على علم بمجيئه وبالتالى لم يخرج لملاقاته . ووجد الخلقيدونيون فى هذا التغيّب فرصة سانحة للايقاع بخليفة مارمرقس فادّعوا لدى هذا الوالى بأن البابا الاسكندرى تعمّد أن لا يخرج مع المستقبلين لأنه يزعم أنه سليل الفراعنة والحاكم الشرعى للبلاد كما ادّعوا بأنه على جانب عظيم من الثراء . فجازت فريتهم على عبد العزيز وأرسل فى طلب الأنبا يونس . وحالما دخل عليه آخذه على امتناعه من الخروج لاستقباله . أجابه الأنبا يونس فى هدوء وسكينة قائلاً : « أوكدّ لك بأننى لم أسمع بقدومك إلى هذه العاصمة إلا عندما جاءنى

---

(١) خروج ٣٤ : ٢٩ ، ٢ كورنثوس ٣ : ٧ و ١٣ .

رسولك يستدعيني إليك » . غير أن عبد العزيز لم يصدق هذه الاجابة ، وأمر عامله المدعو سمد باعتقاله وعدم الافراج عنه حتى يأخذ منه مئة ألف دينار . وتصادف أن كان يوم اعتقال البابا الثلاثاء من أسبوع الآلام (١) . فكان ألم هذا الاعتقال مضاعفًا . وقد حاول سمد أن يحصل على المبلغ المفروض بشتى وسائل التهديد والوعيد . فلما وجد أن كل محاولاته قد ضاعت سدى أخذ يساومه حتى نزل بالمبلغ المطلوب إلى عشرة آلاف دينار . وحينما ذهب القبط لصلاة البسخة المقدسة ولم يجدوا باباهم سألوا عنه وعرفوا حقيقة الأمر فسارعوا إلى عبد العزيز وأعلنوا أمامه استعدادهم لجمع المبلغ المفروض وتقديمه إليه على أن يصدر الأمر بالافراج عن باباهم المعتقل فوراً . وعندها أمر عبد العزيز باحضار الأنبا يؤنس الثالث إلى دار الولاية . وما أن قابله وتأمل وجهه حتى أخذ بالنور الساطع من وجهه (٢) . فأمر باحضار وسادة ناعمة وأجلسه عليها إلى جانبه ثم قال له : « ألا تعرف أيها البابا أن السلطان لا يعاند ؟ » أجابه الأنبا يؤنس الثالث قائلاً : « إنني أعلم أن السلطان يجب أن يطاع ، ولكني أعلم أيضاً أن طاعة الله تعالى أوجب من طاعة السلطان » قال عبد العزيز : « هذا حق . ولكن ألا تعلم أن الله يحب الحق ؟ » أجابه البابا الاسكندري : « لا يحب الله الحق فحسب بل هو الحق بعينه ، ولا يجد إليه الباطل سبيلاً » . فأعجب الوالي بهذه الاجابة وقال : « أرى أنك صادق فيما تقول . لذلك أكتفي بأي مبلغ يقدر شعبك على أدائه . ومنذ هذه اللحظة أطلق لك الحرية وأدع لك التصرف في شئون كنيستك بما ترى فيه خير شعبك » .

٣٧٥- وقد جرى هذا الحديث بين البابا الاسكندري والوالي في صباح

---

(١) هو الأسبوع الذي يحتفي فيه المسيحيون بذكرى آلام السيد المسيح التي جازها ليفتدي الناس .

(٢) يصف المخطوط هذا البابا بقوله أن عبد العزيز « رفع نظره إليه فرآه كأنه شبه ملاك » - راجع تاريخ البطاركة نقله القمص شنودة الصوامعي البرموسي عن النسخة المحفوظة بدير البرموس بوادي النطرون جـ١ ص١٠٥ .

خميس العهد الجديد (١) . وحالما غادر الأنبا يؤنس الثالث دار الولاية تجمع الشعب حوله في موكب عظيم ، والكل ينشد بصوت واحد ترنيمة : يا ملك السلام ، ويهتف بعد الانتهاء منها : مبارك الآتي باسم الرب (٢) . حتى وصل الموكب إلى كنيسة مارمرقس ، فدخل البابا يتبعه الشعب واشتركوا جميعاً في صلاة اللقان (٣) ثم القداس الالهي ، والكل منصت في بهجة . وكانت النشوة الروحية تتضاعف بتتابع الصلوات وبالاستقرار الروحي الذي شمل الجميع لما رأوه من تبدل فجائي . وقد احتفى الأنبا يؤنس الثالث بكل الصلوات الرائعة التي رتبها أسلافه الأجلاء مبتدئاً بخميس العهد فالجمعة العظيمة فليلة سبت الفرح ثم ليلة عيد القيامة المجيدة .

٣٧٦- وقد أتم الله نعمته على الشعب المصري الوفي بما أبداه عبد العزيز الوالي من تبجيل لذلك البابا الوقور ، إذ قد بعث هذا الوالي المنصف برسالة دورية إلى جميع جهات القطر يأمر فيها كل الولاة والحكام ورجال الأمن والادارة أن لا يخاطبوا الأنبا يؤنس الثالث إلا بكل احترام واجلال ، وأن يلاقوه أينما حل بما يليق بمقامه السامي من ترحيب وحفاوة .

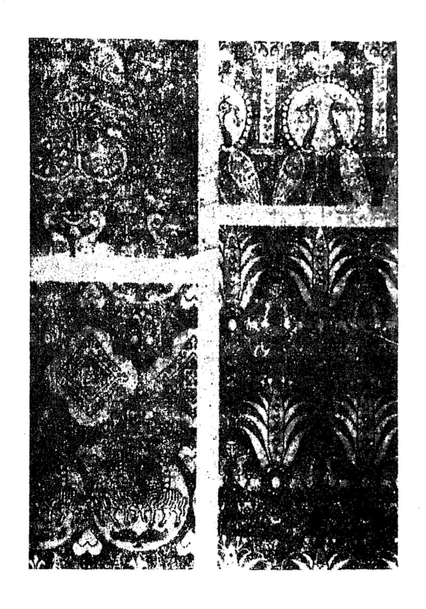
٣٧٧- وامتلأت نفس البابا العظيم هدوء وغبطة بازاء الاكرام الذي أبداه الوالي عبد العزيز نحوه . فانصرف إلى تجديد كنيسة مارمرقس وزخرفتها . فامتلأ القبط حماسة لهذا المشروع وتباروا في العطاء فجاءت تحفة فنية رائعة .

---

(١) هو الخميس الذي أكل فيه السيد المسيح خروف الفصح مع تلاميذه قبيل تسليمه إلى اليهود ليصلبوه . وقد أطلق آباء الكنيسة هذه التسمية عليه للعهد الذي عاهده المخلص معهم ومع المؤمنين به على مدى الأجيال حين قال لهم : « خذوا كلوا ... » وانتهى بكلمة « هذا هو دمي الذي للعهد الجديد ...» متى ٢٦ : ٢٦- ٢٩ ، مرقس ١٤ : ٢٢- ٢٤ ، لوقا ٢٢ : ١٩ - ٢٠.

(٢) متى ٢١ : ٩ ، مرقس ١١ : ٩ ، لوقا ١٩ : ٣٨ ، يوحنا ١٢ : ١٣ .

(٣) هي شعائر تقال لتقديس الماء ، وتتضمن صلوات وضعها الآباء ثم قراءات من الأسفار المقدسة تختتم بفصول الأناجيل الخاصة بأكل الفصح قبل الصلب مباشرة (يوحنا ١٣ : ٤ - ١٧) . فإذا ما وصل القارئ إلى الآية القائلة بأن السيد المسيح اتزر بمتزرة ، قام الكاهن الخديم وفعل بالمثل ، وظل متزراً إلى نهاية الصلوات . وبعد ذلك يجلس عند الطشت الذي به الماء ويغسل أرجل الكهنة والشمامسة ومن تقدم إليه من الشعب ، اقتداء بما فعله المخلص ساعة أن قام عن العشاء وغسل أرجل تلاميذه بنفسه ثم أوصاهم بأن يقتدوا به .



زخارف على منسوجات حريرية (حوالى القرن السابع)

ولما أكمل البابا المرقسى جهاده فى سبيل الروحيات رأى أن يستكمله بالجهاد فى سبيل الحاجات المادية فبنى عدداً من المنازل وقفها على الكنيسة ثم ابتاع طاحونة للقمح ومعصرة للزيت .

وفى وسط هذا الهدوء النفسى وهذا الجهاد المثمر حلت الآفات بالزراعة فعم القحط البلاد . واستمر هذا القحط سنوات ثلاثاً فبدأ شبح المجاعة فى كل ركن . وحين أخذ هذا الشبح المزعج يزداد طغياناً واجهه الأنبا يؤنس الثالث بحزم وقوة . فقد أمر بأن تدار طاحونة القمح ليل نهار ، كما أمر بطحن كل ما فى مخازن البطريركية من غلال . وكان يوزع الدقيق على المحتاجين من قبط ومسلمين مرتين فى كل أسبوع . كذلك أمر بتقديم كل الكميات الممكنة من الزيت لهؤلاء المحتاجين لأن قلبه الحنون اتسع للجميع . فخفف بذلك العمل من حدة المجاعة التى عمت البلاد وقتذاك .

٣٧٨- وخلال هذه الجهود اليومية الشاقة كان البابا الاسكندرى يداوم على الضراعة إلى الله تعالى طالباً إليه أن يرشده إلى الراهب الممتلئ نعمة والمهيأ بهذه النعمة الالهية لأن يخلفه على السدة المرقسية . فأوحى إليه الروح القدس بأن يرسل فى طلب ناسك اسمه ايسآك ، متعمق فى الأسفار الالهية وممتلئ حكمة وصلاحاً . وكان ايسآك هذا قد قضى سنين عديدة فى دير الأنبا مكارى الكبير ، كما كان الابن الروحى للأسقف زكريا الملتحف بالروح القدس (١) والذى جمع بين فضيلتى الاعتزاز بالكرامة الأسقفية والتواضع الجم . ولما وصل الراهب ايسآك إلى الدار البابوية تلقاه الأنبا يؤنس الثالث بالترحاب . وبعد أن اختبره عينه سكرتيراً خاصاً له ، وأقامه مدبراً لشئون الكنيسة .

٣٧٩- ولقد ظلت صلات المودة قائمة بين الأنبا يؤنس الثالث وعبد العزيز حتى أنه عندما أشار الأطباء على هذا الوالى بأن يقيم فى حلوان للاستشفاء آثر الاقامة فى دير أبى السيفين بطموه - وهو يقع على الضفة الأخرى من النيل مقابل حلوان ، ومنح الرهبان عشرين ألف دينار فى تلك الزيارة .

---

(١) هذا هو التعبير الحرفى لكلمة اليونانية (Pnevmato foros) - القبطية أو لابس الروح .

وقد شاءت العناية الالهية أن ينال عبد العزيز البرء من دائه بسرعة لم يكن ليتوقعها . فازداد اعزازه للرهبان واجلاله لباباهم .

ومما يجب ذكره هنا أن العملة الأولى لمصر فى العهد الاسلامى قد سكها عبد العزيز وهو مقيم فى هذا الدير .

٣٨٠- ولما وجد أن صحته قد اعتدلت فى هذه المنطقة استقر رأيه على أن يجعل حلوان عاصمة له . فأمر مهندسيه بتخطيطها كما أمرهم ببناء عدد من المساجد ودار من الزجاج ومقياس للنيل وبحيرة وخزان للمياه . ووجد - بعد هذا - أن عاصمته ينقصها كنيسة ، فمنح الأنبا يؤنس الثالث الحق فى بنائها كما يحسن فى عينيه وقد زين عبد العزيز عاصمته بالحدائق الغناء والأشجار الباسقة ، واستقر فيها لأن طبيبه نصحه بالاستحمام فى مياهها الكبريتية (١) .

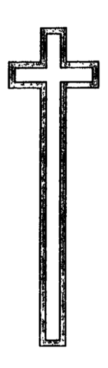
٣٨١- وفى تلك الآونة أصيب الأنبا يؤنس الثالث بمرض النِقرِس . ومع أن الأطباء قد سارعوا إليه للعناية به إلا أن المرض استفحل أمره .

وحدث أن نزل عبد العزيز من حلوان إلى مصر بصحبة البابا الاسكندرى. ولم يكد الوالى يصل إلى داره حتى بلغه أن الألم اشتد بالأنبا يؤنس الثالث ، فبعث إليه برسله للاستفسار عنه . فلما علم أنه يريد السفر إلى الاسكندرية أمر رجاله بأن يعدوا له سفينة ويجهزونها بكل ما يلزم ليسافر عليها البابا المريض فاستقلها الأنبا يؤنس ورجاله قاصداً إلى عاصمة كرسيه حيث كان سبقه عدد من الأساقفة فما كادت السفينة ترسو حتى سارعوا إلى استقباله. وحالما وقعت عيونهم عليه امتلأت نفوسهم حزناً إذ أدركوا أن ساعته قد دنت.

٣٨٢- ورغم ما كان الأنبا يؤنس الثالث يعانى من ألم ، فإنه أعرب للأساقفة عن رغبته فى الذهاب إلى كنيسة مارمرقس . فصحبوه إليها وتبعتهم

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول ، طبع فى لندن سنة ١٩٣٦ ص٢٦ والهامش على الصفحة عينها .

جماهير الشعب . وفى الكنيسة استطاع البابا الاسكندرى بقوة الروح أن يقف للصلاة . فصلى صلاة الشكر من أولها إلى آخرها . ولكنه ما كاد ينتهى منها حتى أصيب باغماءة . فحمله الأساقفة إلى غرفته حيث أفاق مدى لحظات قصيرة نصح فى أثنائها المحيطين به أن يحافظوا على المحبة التى هى رباط الكمال وأن ينتخبوا ايسآك سكرتيره خليفة له . ثم استودع روحه يدى الآب السماوى ، وانضم إلى صفوف الكنيسة المنتصرة . وأقيمت على جثمانه الطاهر صلوات الجناز الخاصة بباباوات الاسكندرية . ودفن فى مقبرة كان قد أعدها هو لنفسه فى كنيسة مارمرقس وقد دامت باباويته شهراً وثمانى سنين (١) .



(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين طبعة ايفيتس جـ٣ ص١٠ – ٢١.



نحت يبين استمرار المؤثرات الفرعونية حتى القرن الميلادى السابع
الصقر (هورس) يعلوه الصليب داخل دائرة

كاتب مبدع

٣٨٣- إذا رمى الانسان بحصوة فى الماء أحدثت دائرة صغيرة لا تلبث أن تعقبها دوائر عديدة ، كل واحدة أكثر اتساعاً من سابقتها . وهذا الذى يحدث فى الماء إنما هو صورة للنتائج التى تترتب على أى عمل : سواء أكان يتعلق بالأمور المادية أو بالأمور الروحية . وتبدو هذه الحقيقة فى أوضح صورة لكل من يتتبع ما جرى فى خلقيدون وما أدّى إليه هذا المجمع المشئوم من نتائج .

فكانت الحصوة التى رمى بها المجمع هى نفى الأنبا ديسقورس ، فنتج عن هذا النفى الغاشم غضب المصريين الذى أدّى إلى تعنت أباطرة القسطنطينية . وأخذ هذا التعنت يزداد حدة على مر الأيام فلم ينتج عنه إلا زيادة تمسك المصريين بإيمانهم وولائهم الخالص لباباواتهم ، ونالوا فى هذا السبيل صنوف العسف والتنكيل . وظلت الفرقة تتسع بين أبناء الكنيسة المصرية وبين البيزنطيين إلى حد أن بعض الباباوات الاسكندريين كانوا يضطرون أن يعيشوا فى الصحارى تجنبًا لأذى الحكام ، بينما لاقى من بقى منهم فى عاصمته شتى صنوف العذاب .

ولقد أفقدت هذه الحياة المريرة المصريين ذلك الاستقرار النفسى الذى لابد منه لكل ابتكار . لهذا نجد أن الانتاج الفكرى والفنى قد أصابه الركود المزعج فى فترات الاضطهاد ولهذا السبب عينه كانت لمخلفات القرنين السادس والسابع قيمة مثلى لأنها نادرة من جهة ومن الجهة الأخرى لأن الكتّاب والفنانين القبط الذين استطاعوا أن يؤلفوا وينتجوا رغم ما يحيط بهم من ضيق وارهاب قد صوروا فى مؤلفاتهم العادات التى كانت سائدة إذ ذاك ، كما أوضحوا مشاعرهم وهواجسهم بدقة عجيبة . ومن المؤلفات النادرة الباقية عن هذه الحقبة المخطوط الذى يتضمن ترجمة البابا الجليل ايسآك كما سجلها الأنبا مينا أسقف ابشاتى (١) . فلقد انتهز هذا الأسقف الفرصة التى تحى فيها الكنيسة ذكرى ذلك البابا الجليل فكتب مرثية ضمّنها تاريخ الأنبا ايسآك وكان من عادة القبط إذ ذاك أن يتخذوا من تذكار نياحة القديسين الفرصة للكتابة عنهم وسرد سيرهم سرداً مفصلاً .

٣٨٤– ويروى لنا الأنبا مينا فى مرثيته أن الأنبا ايسآك ولد بضاحية الرمل بالاسكندرية وكان والده من ذوى الجاه واليسار . ففى يوم صبغة (معمودية) الطفل ايسآك ، وفى اللحظة التى كان الأسقف قائماً بتغطيسه رأى صليبًا من النور فوق رأسه . فلما أتم سر الصبغة المقدسة وسلم الطفل لأبويه قال

---

(١) أطلق هذا الاسم على بلدة نيقيوس فيكون الأنبا مينا هذا هو الخليفة المباشر ليوحنا النيقيوسى المؤرخ الكنسى المعروف .

لهما : « ابـذلا فى تربية هذا الطفل كل عناية مستطاعة لأنه اناءٌ مختاراً لرب المجد » .

ولما بلغ ايسآك التاسعة من عمره أرسله أبواه إلى المدرسة ، إذ كان من الشائع أن يظل الأولاد فى البيت حتى هذه السن . ولما كان ايسآك مولعًا بالعلوم والفنون فقد استوعب كل ما لقنّه اياه معلموه من معرفة بسرعة متناهية إلا أن أهم ما استرعى انتباه ايسآك كان فن الكتابة (النسخ) ، فلم يتفوق فى كتابة الحروف والألفاظ فحسب ، وإنما تضلع فى فن الكتابة أيضًا . فكان كاتباً وفنانًا فى آن واحد حتى لقد نال اعجاب معلميه وأقرانه ، فقد كان لفن الكتابة مكانة ممتازة لدى المصريين إذ كانوا يعدونه الوسيلة العظمى لنشر المعرفة . وكان تقديرهم هذا فى محله لأن الطباعة لم تكن معروفة إذ ذاك . ولم تكن فى ذلك العهد من وسيلة يستطيع الناس أن يحصلوا بواسطتها على الكتب إلا عن طريق نقلها كتابة باليد . فكان الكاتب والناقل ذوى رسالة مثلى هى رسالة توصيل العلوم إلى اخواتهم من الناس الذين يبغون المعرفة . لذلك استقر رأى أبوى ايسآك على تسليمه إلى قريب لهما يدعى مينيسون كان يشتغل كاتباً فى دار الولاية للعمل معه . ولما كانت مصر أيام صبا ايسآك لا تزال خاضعة للحكم البيزنطى فقد كان الوالى الذى يعمل مينيسون تحت أمرته يدعى جاورجيوس .

٣٨٥- وحدث ذات يوم أن أراد جاورجيوس الوالى أن يكتب رسالة خاصة مستعجلة ، فأرسل فى طلب مينيسون ليكتبها له . على أن مينيسون كان غائباً فى ذلك اليوم فاستثار غيابه غضب الوالى الذى أخذ يتوعد ويتهدد . وتألم ايسآك لهذا الغضب وأراد أن يخفف من حدته ، فقال للوالى : « لا تغضب إلى هذا الحد يا سيدى . ويكفى أن تصدر أمرك فأكتب لك الرسالة التى تريدها » . وانفرجت أسارير جاورجيوس وسأل الشاب الماثل أمامه : « أتستطيع حقًا أن تكتب لى الرسالة التى أريدها ؟ » أجابه : « نعم . فى وسعى ذلك يا سيدى » . وإذ ذاك أفهمه جاورجيوس مضمون الرسالة فكتبها له بسرعة واتقان ملأتاه دهشة . فقال له : « حقاً إنك متفوق فى فن الكتابة ، وأنا لم أعلم بهذا التفوق إلا

الآن . لذلك سأعينك رئيساً لجميع كتبة دار الولاية » . ولما كان ايسآك خدوماً متواضعاً هادئ النفس فقد أحبه جميع المشتغلين معه . وبما أنه صار رئيساً للكتبة فقد اضطر أن يعيش فى دار الولاية .

٣٨٦- ولقد فرح أبو ايسآك بهذه الترقية غير المنتظرة فرحاً عظيماً . وبما أنه كان وحيدهما فقد رغبا رغبة شديدة فى أن يزوجاه ليسعدا بتربية أولاده . على أنهما حين كانا يفاتحانه فى هذا الموضوع كان يجدان منه صدوداً . ثم أعلمهما بأنه يريد أن يعيش راهبًا . وظل ايسآك فى اطمئنان إذ كان مضطراً إلى أن يعيش ليل نهار فى دار الولاية . واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن توفى جاورجيوس الوالى . فترك ايسآك دار الولاية وذهب إلى بيت أبيه حيث قضى أياماً معدودات لجأ بعدها إلى برية شيهيت من غير أن يعلم أحداً .

وامتلأ أبواه خوفًا وفزعًا لاختفائه المفاجئ . ولكن لما كانا قد عرفا منه رغبته فى الترهب أدركا أنه لابد أن يكون قد دخل أحد الأديرة فأخذا يبحثان عنه . على أن بحثهما كان من غير جدوى .

٣٨٧- وكان ايسآك قد قصد إلى دير الأنبا مكارى الكبير الذى كان يرأسه إذ ذاك شيخ وقور اسمه زكريا نال فيما بعد كرامة الأسقفية لكرسى سايس [1] . وحالما وقعت عينا الآب زكريا على هذا الشاب الوسيم أحبه . وحين عرف منه شخصيته وكيف أنه هرب دون أن يستأذن والديه لرغبتهما فى تزويجه شاركه مخاوفه فى أنهما لابد ساعيان لارجاعه إلى المدينة . واتفق معه على أن يساعده على تحقيق اشتياقه إلى الحياة النسكية . ولكيما يبلغا هذا الهدف رأى زكريا أن يرسل ايسآك إلى جبل « باماهو » فى الصعيد الأعلى كى لا يعثر عليه أبواه . واختار له راهبًا شيخًا اسمه ابرآم ممتلئًا نعمة وحكمة روحية ليصحبه إلى ذلك الجبل القصى . فذهبا معاً وبقيا هناك ستة شهور .

(١) هذه المدينة تقع على فرع رشيد (من النيل) جنوبى الاسكندرية بما يقرب من مئة وثلاثين كيلو متراً . وكانت عاصمة مصر فى عهد الأسرة السادسة والعشرين التى حكمت ما بين القرنين السابع والسادس ق. م. وكان هذا العهد أحد عهود النهضة .

٣٨٨- ثم خطر ببال ايسآك أن اختفاءه لابد أن يكون قد سبب لوالديه الكثير من الحزن والقلق ، فأقنع معلمه الشيخ الناسك أن يعود معه . وسافر كلاهما حتى وصلا إلى قرية قريبة من الرمل يعيش فيها ناسك على صلة بوالدى ايسآك ، وقصدا إلى ذلك الناسك الذى رحب بهما دون أن يعرف شخصيتهما . وفى أثناء الحديث الذى جرى بين ثلاثتهم قال الناسك : « أن والدى ايسآك رئيس كتبة دار الولاية فى حزن واضطراب نفسى منذ اليوم الذى اختفى فيه ابنهما » . وعندها أعلماه بحقيقة أمرهما . ثم رجا منه ايسآك أن يرسل فى طلب شماس قريب له اسمه فيلوثيئوس يقطن على مقربة منهم . وما أن أبصر فيلوثيئوس ايسآك حتى عانق كل منهما الآخر فى محبة وشوق . ثم تبادلا الحديث عما جرى لكل منهما خلال الشهور الستة التى انقضت منذ اليوم الذى لجأ فيه ايسآك إلى برية شيهيت . وبعد ذلك رجا ايسآك من فيلوثيئوس أن يذهب إلى والديه ويطلعهما على حقيقة نسكه ويأخذ منهما وعداً بأن يتركاه ليعيش حسب الدعوة التى دعى إليها . فإن وعدا بذلك جاء بهما إليه . فنفذ فيلوثيئوس طلب ايسآك . وكانت الأيام عملت عملها فى تهدئة نفسى أبى ايسآك وأمه فقبلا مشورة فيلوثيئوس الذى صحبهما لساعته إلى حيث يقيم ابنهما مع الشيخين الوقورين . وحين رأياه فرحا به فرحاً عظيمًا ، وامتلأت نفساهما هدوء وغبطة فقضيا معه بضعة أيام ثم ودعاه برضى وسكينة .

٣٨٩- وكان ايسآك كغيره من الشبان الذين اضطرمت قلوبهم بنار المحبة الالهية يقصدون إلى الأديرة لا للتقشف والتأمل فحسب ، بل لكى يرتشفوا فيها ما يروى ظماءهم إلى العلوم الدينية والمدنية أيضاً . إذ أنه من الواضح لكل من يطالع سيرة الأنبا ايسآك أن الكنيسة المصرية وجهت اهتمامها الخاص إلى العلوم المختلفة سواءً أكانت روحية أو دنيوية ، وأن العلوم التى كانت تقدمها الكنيسة لجميع طلاب العلم إذ ذاك كانت كافية لأن تؤهلهم لأسمى المناصب الكنسية والحكومية . بل أن الكنيسة كانت وقتذاك مهيمنة على المدارس ومناهج التعليم . وكانت المدارس عديدة منتشرة فى جميع بلاد القطر المصرى، وقد وجه المسئولون عن التعليم عناية كبرى إلى اللغات فلم يكتفوا

بتعليم اللغة القبطية بل كانوا يعلمونهم إلى جانبها الهيروغليفية والسريانية واليونانية . كذلك اهتموا الاهتمام كله بفن الكتابة الذى كان له منذ أقدم العصـــور تقديراً خاصاً فى نظر المصريين ، إذ أن الكاتب كان فناناً فى تقديرهم : فهو لم يكن مجرد ناقل لما كتبه الأولون ، وإنما كان يزين ما يكتبه بالرسوم والصور ، وكان أحياناً يؤلف الشئ الجديد . والشواهد كلها تشير إلى أن هذا الفن الذى جمع بين الكتابة والزخرفة كان من الفنون التى نمت وترعرعت داخل الأديرة ، وأن غالبية الكتاب (إن لم يكونوا كلهم) كانوا من الرهبان . وهكذا شجعت الكنيسة أصحاب المواهب المختلفة بأن قدمت لهم الفرص لاستغلالها : فهرع إلى المدارس الكنسية وإلى الأديرة كل من أحس فى داخله برغبة فى الاستزادة من العلوم والفنون (١) . ومن هؤلاء الشباب كان الأطباء والمعلمون والمشرعون وغيرهم من قادة الفكر فى مصر .

٣٩٠- ولقد كانت العلوم المختلفة تدرس فى الأديرة لغرض هام هو صقل الرهبان وتهيئتهم للخدمة . فلم يكن اعتزالهم العالم غاية فى حد ذاته ولكنه كان وسيلة مثلى يتقرب بها الراهب إلى الله فيسمو بنفسه عن طريق تدريبها واخضاعها للارادة الالهية لكى يستطيع - خلال هذا التقرب - أن يدرك حدة الصراع الروحى الذى يقوم داخل بعض النفوس ، فيعاون هذه النفوس على

---

(١) تاريخ البطريرك القبطى ايسآك ترجمه من القبطية إلى الفرنسية للمستشرق أميلينو طبع فى باريس سنة ١٨٩٠ ص١٤ - ١٥ حيث يقول على ص١٥ ما نصه :

" Un fait qui ressort avec evidence de la ' Vie d'Isaac ' c'est l'amour que l'Eglise Copte avait conservé pour l'in struction ... l'instruction et la scienee qu'elle donnait, petite ou grande étaient regardées comme la plus belle ornement d'une existence égyptienne, civile ou monacale, et comme le plus sur moyen d'arriver aux honneurs ... on cultivait avec amour ce bel art d'écrire et que l'on tracait d'un calame aussi sur qu' élégant ces pages qui font encore notre admiration ... " . وترجمته كما يلى : « هناك حقيقة تبدو بوضوح من (حياة ايسآك) هى الحب الذى تكنه الكنيسة القبطية للمعرفة ... وكان التعليم والعلم الذى تقدمه - أولى أو عالٍ - أجمل مميزات الحياة المصرية المدنية أو الرهبانية ، وأنجح وسيلة لبلوغ مراتب المجد ... وكانوا يبدون التقدير والمحبة لهذا الفن الجميل - فن الكتابة ، ويخطون بقلم أكيد رشيق تلك السطور التى لا تزال موضع اعجابنا حتى الآن » .

الانتصار فى هذا الصراع . كذلك كان الرهبان عارفين بكل ما يدور فى العالم من أحداث سياسية فكانوا يكرسون جزء كبيراً من عبادتهم للصلاة من أجل اخوتهم الذين يقيمون فى العالم . وهكذا كانت الحياة النسكية وسيلة لخدمة الناس - سواء بالخدمة الفعلية أو بالصلوات المتأججة المستمرة .

٣٩١- وقد عاش ايسآك فى هدوء وسلام تحت رعاية زكريا رئيس الدير وأبيه الروحى . وكما خدم يشوع موسى فى قديم الزمان (١) . كذلك خدم ايسآك زكريا بأمانة واخلاص قلبى . وكان ايسآك ساهراً مصلياً بكل دعة وأمانة إلى حد أن الله تعالى منحه نعمة اجتذاب الآخرين إلى السيد المسيح . كذلك عاهد نفسه على أن يتفانى فى خدمة اخوته الرهبان . وحدث أن خرج ذات يوم مع بعض أقرانه النساك ليجمعوا قليلاً من الحطب الضرورى لتدفئتهم ولطهى طعامهم . فلما جمعوا ما يريدون واتجهوا نحو الدير ، تأخر ايسآك عنهم ليجمع بعض الأزهار ذات الرائحة الزكية لينعش بها نفوس اخوته . وبينما هو يمد يده ليقطف الزهور إذ بثعبان ينقض على ذراعه اليمنى فذعر الاخوة وصرخوا . ولكنه نفض الثعبان ورسم ذراعه بعلامة الصليب . وجمع كل ما يريد من الأزهار ثم عاد إلى الدير مع الاخوة الذين انتظروه . وكأن شيئًا لم يصبه على الاطلاق . فأعطى الرهبان المجد للّه الذى يتمم مواعيده لقديسيه (٢) .

٣٩٢- وحدث أن الأب الوقور البابا يؤنس الثالث كان يريد راهبًا يتخذه سكرتيراً له . فأشار عليه بعض المؤمنين بأن يرسل فى طلب الراهب ايسآك ، فأرسل فى طلبه على الفور . وحين مثل الراهب بين يدى باباه وعرف منه أنه يريد كتابة خطاب ، توهم أنه يستطيع التمويه عليه فيجعله يعود إلى الدير ثانية . فتعمد أن يكتب الخطاب بصورة غير مرضية . وتفرس الأنبا يؤنس الثالث فى الخطاب ثم تفرس فى وجه ايسآك بضع ثوان قال له بعدها : « صحيح إن الخطاب مكتوب بصيغة ناقصة ولكنى سأتخذك سكرتيراً لى رغم

(١) خروج ٢٤ : ١٣، ٣٢ : ١٧ ، ٣٣ : ١١ .
(٢) مزمور ٩١ : ١٣ ، لوقا ١٠ : ١٩ ، أعمال ٢٨ : ١ - ٦ .

ذلك » . واضطرب ايسآك لهذه الملحوظة ، وانسحب فى سكون من حضرة باباه وأعاد كتابة الخطاب بأحسن ما يستطيعه من فن . ثم عاد ومعه الخطاب مكتوب ثانية . وما أن وقعت عينا الأنبا يؤنس الثالث على الخطاب الثانى حتى تهلل وجهه فرحاً وقال : « لقد سمعت عن مهارتك ولكن الحقيقة فاقت الوصف فأنت بحق الرجل الذى يصلح لمعاونتى فى ما أقوم به من عمل راعوى » . وارتسم الشعور بالخيبة على وجه ايسآك . وتأمله البابا الاسكندرى فى رفق وقد أدرك أن الشاب الماثل أمامه يهوى الحياة النسكية ويرغب فى العودة إلى الدير . فقال له فى حنان أبوى : « أبق معى شهراً لتكتب لى الرسالة الفصحية . وأعدك بالسماح لك فى العودة إلى الدير بعد ذلك » .

٣٩٣- وقبل هذه الفترة كان زكريا رئيس دير الأنبا مكارى الكبير قد انتخب أسقفًا على سايس ، وظل يخدم شعبه إلى أن أصيب بمرض أدرك معه أن نهايته قد اقتربت . فذهب إلى الدير . وظن أبناء ايبارشيته أنه قصد إلى الصحراء ليسترجع صحته ويعود إليهم . وقد لحق ايسآك برئيسه الذى كان يبادله محبة صادقة إذ أن الأنبا يؤنس الثالث برّ له بوعده وسمح له بالعودة إلى ديره . وهناك خدم الأنبا زكريا خدمة الابن البار لأبيه الحبيب . وحين دنت ساعة انتقال الأنبا زكريا إلى بيعة الأبكار جمع الرهبان حوله وأخذ يحثهم على التمسك بالمحبة التى هى رباط الكمال . ثم التفت إلى ايسآك وقال له : « يا بنى – إذا ما نلت الكرامة فأذكر اخوتك الرهبان » . وكان الأسقف يشير بكلماته هذه إلى أن تلميذه سينال كرامة البابوية المرقسية . ولو أن المحيطين به يومذاك لم يدركوا معناها . وبعد أن أكمل زكريا وصيته لأبنائه الرهبان استودع روحه يدى الآب السماوى . فأقام الاخوة الصلوات الخاصة بمن نال كرامة الأسقفية ثم استقر قرارهم على انتخاب ايسآك خليفة له على رياسة الدير.

٣٩٤- على أن أيام رياسته لم تدم غير بضعة شهور . لأن الأنبا يؤنس الثالث كان قد أحس بدوره أن أيام غربته على الأرض قد آذنت بالانتهاء . فتضرع إلى الله تعالى أن يكشف له عن شخصية ذاك الذى سيخلفه على السدة المرقسية . فأعلمه ملاك الرب بأنه ايسآك . وعندها أرسل إلى الدير

يطلبه للحضور إلى الدار البابوية فوراً . فأطاع من غير تردد . ولقد استبقاه الأنبا يؤنس الثالث إلى جانبه هذه المرة بأن اتخذه سكرتيراً خاصاً وعهد إليه بادارة الشئون الكنسية .

٣٩٥- وكان عبد العزيز بن مروان لايزال واليًا على مصر كما كان لايزال حافظاً لعهد المودة والتقدير للأنبا يؤنس الثالث . وقد تهلل قلب ايسآك حين رأى علامات هذه المودة لأن البابا الاسكندرى كان يستصحبه كلما ذهب لزيارة الأمير ، وكلما دعاه الأمير لتبادل الرأى معه . فكان ايسآك يرى بعينيه ويسمع بأذنيه ما يبديه عبد العزيز من اكرام واجلال لخليفة مارمرقس . وقد كانت ثقة الأنبا يؤنس الثالث بايسآك واستصحابه إياه فى شتى المناسبات واعتماده عليه فى كل الأمور : كل هذه كانت الوسائل التى استعان بها ليمهد السبيل أمام سكرتيره لارتقاء السدة المرقسية وليجعله مستعداً لتأدية مهام الرعاية حين ينال كرامة الرياسة الكهنوتية بالفعل . على أن هذا الاعداد لم يدم غير بضعة أشهر انضم بعدها الأنبا يؤنس الثالث إلى مصاف القديسين .

٣٩٦- وكان فى الفسطاط إذ ذاك شماس معروف اسمه جاورجيوس ، زعم بأنه خير من يخلف الأنبا يؤنس الثالث . فلجأ إلى التملق واستخدام العبارات المعسولة لبلوغ هذه الغاية ، واستطاع بذلك أن يستميل إلى جانبه بعض الأساقفة .

وفى تلك الأثناء تجمع الأساقفة والأراخنة فى بابلون للتشاور فى من يخلف باباهم الراحل . فاجتمعوا فى كنيسة القديس سرجيوس (المعروفة بأبى سرجة) . وأخذوا فى صلاة استدعاء الروح القدس . وكان ايسآك منفرداً فى زاوية بتلك الكنيسة . وحدث أثناء الصلاة أن انكسر القنديل المعلق فى تلك الزاوية فانسكب ما فيه من زيت فوق رأس ايسآك . وما كاد المجتمعون يرون ذلك حتى صاحوا بصوت واحد : « أكسيوس (١) . لقد نزل عليه الدهن الذى نزل على رأس هرون (٢) الكاهن » .

---

(١) كلمة يونانية - قبطية معناها مستحق .

(٢) أنظر خروج ٢٩ : ٧ .

وفى اليوم التالى قصد الأساقفة والكهنة وأراخنة الشعب إلى دار الولاية وأخبروا عبد العزيز والى مصر برغبتهم فى انتخاب ايسآك سكرتير صديقه الراحل الأنبا يؤنس الثالث للرياسة الكهنوتية العليا .

٣٩٧- وكان الموالون للشماس جاورجيوس قد سبقوا فذهبوا إلى دار الولاية حيث قابلوا عبد العزيز وغالوا فى مديح مرشحهم لديه حتى كاد أن يجاريهم الرأى . فلما قابله مناصرو ايسآك وأعلموه برغبتهم طلب إلى كل من الفريقين أن يحضر مرشحه ليرى الاثنين بعينيه . فسارع الفريقان إلى تلبية طلبه . ولما مثل المرشحان أمام عبد العزيز وجد أن جاورجيوس وجيه الشكل أنيق الملبس ، بينما كان ايسآك على عكسه . فدهش من أن الأغلبية تساند ايسآك . وسأل والدهشة بادية على وجهه وفى نبرات صوته : « كيف تفضلون رجلاً ليس عليه مسحة من الوجاهة على رجل غاية فى الوجاهة ؟ » أجابوه فى ثقة وتوكيد : « إن الله الذى يصطفى أنبياءه قد اصطفاه . وهو تعالى حين يصطفى رجاله ينظر إلى قلوبهم لا إلى وجاهتهم » . وقد أمن عبد العزيز على هذا القول وهنأ الأساقفة والأراخنة الذين أبدوا تقديرهم للقيمة الشخصية دون أن يؤخذوا بالظواهر . ثم هنأ الراهب ايسآك بالثقة التى نالها .

٣٩٨- ولقد فرح الشعب لتحقيق رغبته فى انتخاب ايسآك ، ورأى أن يبدى فرحه علانية . فنظم موكباً رائعاً أشبه بمواكب النصر احتاط به من كل ناحية وسار معه من بابلون إلى الاسكندرية . وفى تلك المدينة العظمى التى هى عاصمة الخلافة المرقسية انضمت جموع المؤمنين إلى الموكب الآتى من بابلون : فسار الكهنة يحملون المجامر فى المقدمة ، بينما رفع الشمامسة الصلبان عالية يتبعهم جمهور الشعب حاملين الشموع الموقدة . وأخذ الجميع يترنمون بالمزامير والتسابيح إلى أن وصلوا إلى كنيسة مارمرقس حيث أقيم الاحتفال برسامته فأصبح البابا الحادى والأربعين من باباوات الاسكندرية سنة ٦٨١م (١) .

---

(١) تاريخ البطريرك القبطى ايسآك ترجمه من المخطوط القبطى إلى الفرنسية المستشرق آميلينو ، طبع فى باريس سنة ١٨٩٠ ص٥٠ - ٥٢ .

٣٩٩- وقد لبس الأنبا ايسآك قوة من الأعالى فعمل على نشر العقيدة الأرثوذكسية بين أفراد الرعية وحثهم على التمسك بها والذود عنها أسوة بآبائه العظام أثناسيوس وكيرلس وديسقورس فكانت حياته رسالة حية مقروءة من جميع الناس . وتهلل المؤمنون بفرح روحى إذ اشتموا فيه رائحة المسيح الزكية .

٤٠٠- وكان الوالى عبد العزيز حافظاً لعهد الوفاء فظل على تقديره للأنبا ايسآك كما كان يقدر الأنبا يؤنس من قبل . ذلك أن هذا الوالى كان سليل أسرة امتازت بالعدل والنزاهة فقد كان أخوه عبد الملك يثق بالنصارى إلى درجة أنه استخدمهم فى المسجد الأقصى وسمح لهم بتوارث الخدمة فيه (١) . على أن عدو الخير لم يرقه هذا التآلف بين الوالى والبابا ، كما لم ترقه الألفة بين الراعى والرعية ، فأخذ يوسوس فى صدر أثناسيوس بالشر ، وكان هذا كاتباً من اثنين عينهما عبد العزيز فى ديوانه . فلم يلبث أثناسيوس أن أبدى من الجفاء نحو باباه ما ملأ قلوب المخلصين أسى وألماً . وحزن الأنبا ايسآك لهذا العقوق المفاجئ فأخذ يصلى ليل نهار ضارعاً إلى الآب السماوى أن يحنن قلب عبده أثناسيوس ويحيله قلباً ليناً من جديد .

وحدث بعد ذلك بشهور قليلة أن مرض الابن الأكبر لأثناسيوس مرضاً خطيراً حتى قارب الموت . وكان البابا الاسكندرى لايزال مداوماً على الصلاة لأجل هذا الكاتب . فظهر له ملاك الرب فى حلم وقال له : « إن أنت أقنعت أثناسيوس بالوثوق من شفاعتك فإن اللّه تعالى سيمنح ابنه الشفاء والعافية » . فلما أصبح الصباح أخذ الأنبا ايسآك يفكر ملياً فى الحلم الذى رآه . ثم نادى شماسه الخاص وسأله : « أيوجد أحد من الأساقفة فى الاسكندرية » أجابه الشماس : « نعم يا أبى البجيل ، إن فيها ثلاثة أساقفة الآن هم : الأنبا جاورجيوس والأنبا غريغوريوس والأنبا بيامون أسقف دمياط » قال له البابا : « اذن فاذهب ونادهم » فلما مثل ثلاثتهم بين يدى البابا الجليل أعلمهم بالحلم

(١) تاريخ القدس لعارف باشا العارف بدار المعارف بمصر سنة ١٩٥١ ص٥٢ .

الذى رآه . ولكنه ما كاد ينتهى من سرده حتى ابتدره الأنبا غريغوريوس بقوله : « أنت تعرف يا سيدى البابا أن قلب أثناسيوس قد تحول عنك بصورة غير طبيعية . كما أننا لا نعرف بعد إن كان الحلم الذى رأيته هو من الله أم أن عدو الخير قد تراءى لك ليسيئ إلى سمعتك » . فابتسم الأنبا ايسآك فى هدوء وسطع وجهه بالنعمة وقال فى ثقة الرجل الذى يعرف أن الصلة بينه وبين ربه متينة : « أنا عارف أن ملاك الرب قد جاءنى بهذا الحلم ، وموقن بأنه أمر صادر من أبى القديس مرقس كاروز بلادنا المحبوبة » . ولم يسع الأساقفة الثلاثة بازاء هذه الثقة التامة إلا أن يذهبوا على الفور إلى دار الكاتب أثناسيوس . وحين دخلوا إليه وجدوه يذرف الدموع السخينة لأنْ ابنه قد بلغ آخر مراحل الخطر . فأطلعوه على رسالة الأنبا ايسآك . ولم يكد يسمعها حتى نادى على زوجته وركع كلاهما أمام الأساقفة ضارعين إليهم أن يسرعوا فى العودة إلى البابا الجليل ويستعطفوه من أجلهما وعاد الأساقفة لساعتهم إلى الدار البابوية حيث قصوا على خليفة مارمرقس كل ما جرى . وما أن سمع كلماتهم حتى خرج معهم قاصداً إلى دار أثناسيوس . ولما وصلها دخل على الفور إلى حجرة الشاب المريض ووضع يده على رأسه ، وأخذ يصلى فى حرارة وقوة . ولم يكد ينتهى من صلاته ويقول « آمين » حتى قام الشاب من سريره ممتلئاً صحة وحبوراً وكأنه لم يمرض ساعة واحدة . فأمر الأنبا ايسآك أن يؤتى بالطعام لذلك الذى كان مشرفاً على الموت . فجاءوا له بالطعام ، فأكل وشبع ، ومجد الله . وقد شاركه أبواه فى تسبيح الله تعالى ، كما رفع البابا الاسكندرى والأساقفة صلاة الشكر للآب السماوى على تحننه بخليقته .

٤٠١ – ومنذ تلك اللحظة أعلن الكاتب أثناسيوس ولاءه جهاراً للأنبا ايسآك، وظل طيلة حياته وفيًا له . فانتهز هذا البابا الجليل الفرصة السعيدة وأبدى رغبته أمام أثناسيوس فى أن يرى كنيسة « الايفانجليون » (١) مبنية مرة أخرى حيث كانت قبل دمارها . فسارع أثناسيوس إلى تحقيق رغبة باباه المحبوب ، وبنى الكنيسة من جديد وزينها بالرسوم الفنية البديعة .

---

(١) كلمة يونانية – قبطية معناها « البشيرون » .

٤٠٢- وحدث أن دعا عبد العزيز الأنبا ايسآك ليقضى فى قصره بحلوان بضعة أيام . فلبى الدعوة . وفى ثانى يوم الضيافة قالت زوجة عبد العزيز له بأن رائحة البخور تنبعث من الغرفة المخصصة للبابا الاسكندرى . فأجابها بأن الرجل من أصفياء الله ، فلا غرابة فى أن تعبق الغرفة التى يأوى إليها برائحة البخور (١) . وازداد تقديره لهذا البابا إلى حد أنه رجا منه أن يشيد فى حلوان عدداً من الكنائس والأديرة (٢) .

ولقد استجاب الأنبا ايسآك وشعبه لهذا الرجاء الصادر من عبد العزيز إليهم، ووجدوا فى رجائه هذا نعمة من نعم الله العديدة عليهم . فأخذوا يصرفون الجهد والمال ويبذلون كل ما لديهم من فن ليجعلوا من كنائسهم وأديرتهم آيات فنية رائعة . وقد زادهم رغبة فى ما يعملون ما وجدوه من قيام عبد العزيز بتجميل حلوان بالحدائق الواسعة والأشجار الباسقة .

٤٠٣- على أن الأيام كانت تمر سراعاً . فلم يكد الأنبا ايسآك يكرس الكنائس والأديرة الجديدة ويشعر بفيض من الغبطة يغمر نفسه لما أسبغه عليه الآب السماوى من عطف حتى شعر بالمرض يدب إلى جسمه . وبدا ألمه على وجهه فامتلأ عبد العزيز قلقاً لما رآه وسأله عما به . فأجابه الأنبا ايسآك : « لقد أصابنى المرض فأرجو أن تعفينى من البقاء فى حلوان لأننى أريد العودة إلى الاسكندرية » . فحزن الوالى لهذا النبأ وأمر باعداد سفينة كاملة المعدات لتحمل

---

(١) حدث فى منتصف سنة ١٩٤٥ أن انشغلت مع الأستاذ حبيب جورجى وغيره من المربين فى نقل بعض القصص المتعلقة بآباء الكنيسة القبطية لطبعها كى يستعملها تلاميذ المدارس التابعة لجمعية السيدات القبطية لتربية الطفولة . واحدى هذه القصص كانت خاصة بالأنبا أثناسيوس الرسولى . وكم كانت دهشتنا عظيمة حين شممنا رائحة البخور كل مرة كنا نقرأ قصة حامى الايمان القويم . والعجيب أن رائحة البخور هذه كنا نشمها حيثما اجتمعنا : فمرة كنا فى بيت حبيب جورجى ومرة فى بيتنا ومرة فى بيت المربية الفاضلة الآنسة أميلى عبد المسيح وكانت هذه الظاهرة العجيبة تتكرر كلما كنا نقرأ القصة الخاصة بأثناسيوس الرسولى ، فكانت بذلك أشبه باللحظة التى قال فيها السيد المسيح لتوما : هات اصبعك إلى هنا وأبصر يدى ... (يوحنا ٢٠ :٢٧) .

(٢) « تاريخ البطريرك القبطى ايسآك » ترجمه عن المخطوطة القبطية إلى الفرنسية المستشرق أميلينو طبع فى باريس سنة ١٨٩٠ ص٦١ - ٦٣ .

الأنبا ايسآك إلى عاصمة الكرازة المرقسية . فلما سمع الأساقفة بالأمر سارعوا إلى الاسكندرية يصحبهم عدد غير قليل من رهبان برية شيهيت . وأحاط به الجميع . وخدموه فى ولاء وسكينة إلى أن استرجع الرب الاله وديعته . فرقد جسده فى الأرض بينما صعدت روحه إلى خالقها . وإننا نؤمن بأن القديسين قد سارعوا لاستقباله : الرسل والشهداء ، البطاركة والآباء ، قد رحبوا به . فليمنحنا الله جميعاً أن نجد رحمة بصلواته وصلواتهم جميعاً بالمسيح يسوع ربنا الذى يليق به مع أبيه الصالح والروح القدس المجد والاكرام من الآن وإلى دهر الداهرين كلها آمين (١) .



٤٠٤- ميل الأنبا زكريا يدفعه إلى الرهبنة ثم إلى الكتابة فى الروحيات

٤٠٤– ومن بين الآباء الذين عاونوا الأنبا ايسآك فى جهاده الروحى الأنبا زكريا أسقف سايس . وكل ما يعرفه التاريخ الكنسى حتى الآن عن هذا الأسقف الجليل هو أنه كان ابن كاهن يدعى يؤنس . ومع أن يؤنس هذا كان كاهناً إلا أنه كان كاتبًا فى ديوان الوالى أيضًا . وكان ابنه زكريا كثير التأمل فى الالهيات ، فمال بكل حرارة شبابه إلى الحياة الرهبانية . ولم تكن وظيفة أبيه العالمية كافية لأن تجتذبه إلى العالم لعله هو أيضًا يظفر بمثلها ، لأنه سارع إلى الترهب فى دير الأنبا يؤنس القصير . وهناك قابل شيخين من أصفى أصفياء الله تعالى هما الأنبا ابرآم والأنبا جاورجيوس الناسكان اللذان ملأ عبير قداستهما أرجاء الوادى . ولا يعرف للآن كم من السنين قضاها زكريا فى الدير، ولكن المعروف أنه اختير لأسقفية سايس ، وأنه قضى فيها ثلاثين سنة

(١) للاطلاع على تفاصيل سيرة الأنبا ايسآك راجع تاريخه المترجم إلى الفرنسية عن المخطوط القبطى بقلم المستشرق آميلينو ، المطبوع فى باريس سنة ١٨٩٠ ويقع فى ثمانين صفحة . وأورد المترجم فى ختام السيرة الكلمة التالية : « والآن يرقد جسده فى الأرض وتقيم روحه فى السماء » . ثم يعلق على هذه الجملة على ص١٩ (XIX) بما ترجمته : « إن هذه الكلمات هى بعينها التى سجلها قدماء المصريين فى قبورهم ، وهى محفورة على عدد عديد من توابيتهم . وليس هناك مخطوط واحد لا يحمل شيئاً من تراث القديم انتقل إلى العصور المسيحية والحديثة » .

معلماً ومرشداً لشعبه فى دعة وأمانة . ثم كتب سيرة الأنبا يؤنس القصير ليجد فيها المؤمنون بركة وعزاء ، اعترافًا منه بفضل ذلك القديس الذى ترهب هو فى ديره واقتفى أثره . كذلك كتب عدداً من المقالات والميامر التى تعبر عن اندفاع النفس الانسانية المتطلعة نحو الله (١) .



(١) تاريخ القديس الأنبا يوحنس القصير للقمص ميصائيل بحر ، طبع في القاهرة سنة ١٩٥٧ ص٢١ ، ويذكر دكتور منير شكرى في رسالة مارمينا السادسة المطبوعة فى الاسكندرية سنة ١٩٦٢ عن « أديرة وادى النطرون » بأن هذا الأسقف كان الابن الروحى للايغومانس يؤنس رئيس أديرة الأنبا مكارى الكبير وأنه رسم أسقفاً فى باباوية الأنبا يؤنس الثالث – راجع الكتاب المذكور ص١٩٤ – وهناك أسقف آخر باسم زكريا رسم فى عهد الأنبا سيمون على سخا واشتهر بكتاباته الكثيرة . وبعض هذه الكتابات لايزال موجوداً للآن ولو أنه غير متداول يتضمن عظتين : احداهما عن « دخول السيد المسيح أورشليم وثانيتهما عن توبة أهل نينوى كما يتضمن سيرتين هما سيرتا ابرآم وجاورجيوس – راجع الكتاب عينه ص١٩٦ – وبذلك يكون هناك أسقفان متعاصران باسم زكريا وقد كتب كل منهما سيراً لبعض القديسين . ومع الأسف إن شيئاً من كتابة هذين الأسقفين لم يطبع للآن .

(٤٠٥) تبادل الرأى لانتخاب البابا الاسكندرى .
(٤٠٦) تحول الأنظار إلى الراهب سيمون بدلاً من يؤنس أبيه الروحى .
(٤٠٧) سيمون سريانى المولد مصرى النشأة .
(٤٠٨) المحبة المسيحية تربط بين الأنبا سيمون وأبيه الروحى .
(٤٠٩) رسالة الشركة .
(٤١٠) مجمع « ان ترولو » يحضره الأسقف الدخيل .
(٤١١) هذا المجمع يتجاهل البابا الاسكندرى الشرعى مع استناده إلى تعاليم أسلافه الأجلاء .
(٤١٢) حادث مؤلم ينتهى بسلام يتعلق برسامة أسقف هندى .
(٤١٣) الصناع المصريون يبنون الترسانة البحرية فى تونس .
(٤١٤) عناية الأنبا سيمون باختيار الأساقفة .
(٤١٥) زيارته لأديرة وادى النطرون ثم نياحته .

٤٠٥– وحدث بعد انتقال الأنبا ايسآك إلى بيعة الأبكار أن قام جدال بين كهنة الكنيسة المرقسية وكهنة كنيسة الايفانجليون (بالاسكندرية أيضاً) على من يخلف البابا الراحل على السدة المرقسية . فزكى الفريق الأول الراهب يؤنس رئيس دير الزجاج ، بينما زكىّ الفريق الثانى راهباً اسمه بقطر (فكتور) . وكان فى ديوان الأمير وقتذاك عدد من الكتبة القبط تشيّعوا ليؤنس غير أن الفريقين اتفقا على التشاور معاً لخير الكنيسة مفضّلين الشورى على التشبث بالرأى الفردى . فاجتمعا بالفعل ، وتبادلا الرأى ، واتفقت كلمتهم على أن يؤنس أحق بهذه الكرامة الكهنوتية العظمى .

ولما استقر رأيهم على هذا الراهب غادروا الاسكندرية قاصدين إلى الفسطاط لكى يعلموا أمير البلاد بقرارهم . فما أن وقع نظر عبد العزيز على الراهب يؤنس حتى أبدى ارتياحه لهذا الانتخاب لما بدا على وجه يؤنس من وجاهة وجلال .

٤٠٦– وبينما كان الأمير يتحدث إلى الأساقفة وإلى من اختاروه للخلافة

المرقسية حدث ما لم يكن فى الحسبان ، إذ وقف أسقف - كان الوحيد فى أن يشذ عن الاجماع على انتخاب يؤنس - وقال بلا تردد : « إن الراهب اللائق لهذه الكرامة هو سيمون » وسأله الأمير : « ومن هو سيمون ؟ » فأشار الأسقف إلى راهب جالس بجواره . وهنا قال الباقون : « إن الراهب سيمون سريانى الأصل » . فبدت الدهشة على وجه أمير البلاد وتساءل : « أليس من الأفضل أن يكون باباكم مصرياً ؟ » أجابه الأساقفة بصوت واحد : « نعم . ذلك أفضل وقد وقع اختيارنا على يؤنس ، وهو مصرى صميم » . وعندها تفرس عبد العزيز فى سيمون كأنما يريد أن يستطلع رأيه . وفهم الراهب سيمون معنى هذه النظرة فقال دون أن ينتظر سؤالاً لفظياً من الأمير : « إن يؤنس هو أبى الروحى ، وهو أولى بهذه الرعايا العليا . وإنى أقرر بأنه كالملائكة طهراً ، وقد علمنى كل ما أعرفه من العلوم الروحية » . فكان لهذا الجواب رد فعل عجيب للغاية ، هو أنه ملأ الجميع اعجاباً بالراهب سيمون الذى تجلىّ اخلاصه فى كلماته . فقالوا باتفاق واحد : « إن سيمون بالحقيقة أهل لهذه الكرامة » . ودهش الأمير لهذا التغيير المفاجئ وتفرّس فى وجوه المجتمعين حوله واحداً واحداً دون أن يتفوه بكلمة إذ لم يكن يملك حق المعارضة . ثم قال لهم : « أنتم أصحاب الرأى فى هذا الموضوع وليس لى إلا أن أقرّ رأيكم الذى تقررونه فأفعلوا ما يحلو فى أعينكم » .

٤٠٧- وكان سيمون هذا سريانى المولد جاء به أبواه وهو بعد فى سن الصبا إلى الاسكندرية ، وقدّماه لخدمة الهيكل كما قدمت حنة ابنها صموئيل لخدمة هيكل العلى وكان السبب الذى حدا بهما إلى تقديم ابنهما لخدمة الكنيسة فى مصر - لا فى بلدهما - أن ساويرس أسقف أنطاكية كان قد لجأ إلى بلادنا المصرية هرباً من بطش الامبراطور يوستينيان . ومع أنه كان قد انقضى ما يزيد على قرن من الزمان منذ أن انتقل هذا الأسقف الأنطاكى إلى الأخدار السماوية إلا أن السريان ظلوا متعلقين بمصر يحبون المجئ إليها لزيارة قبر أسقفهم المعترف الذى لاقى النفى فى سبيل الايمان الأرثوذكسى ، ولاقى العزاء باقامته بين من يشاركونه هذا الايمان الغالى . وكان سيمون قد نال رتبة الشماسية حين جاء إلى الاسكندرية ، فسلمه أبواه إلى الأنبا أغاثون البابا

الاسكندرى إذ ذاك ، فعنى به كل العناية . وحين رأى منه ميلاً إلى النسك وإلى الاستزادة من العلوم الروحية والمدنية أرسله إلى دير الزجاج حيث قضى بضع سنين . وقد استطاع سيمون أن يستظهر معظم الأسفار الالهية بعهديها القديم والحديث . ولما زار الأنبا أغاثون الدير ووقف على ما أحرزه سيمون من معرفة ، وما قام به من جهاد ، رسمه قسيساً . ثم انتخبه الرهبان وكيلاً لديرهم تقديراً منهم له . فبادلهم محبة بمحبة وتفانى فى خدمتهم مقابل الثقة التى أولوه اياها ، كما ظل مطيعاً لرئيسه يؤنس بكل دعة ورضا . فلما جاء مندوبو الأساقفة والأراخنة إلى دير الزجاج ليصحبوا يؤنس رئيسه إلى الفسطاط بقصد تنصيبه خليفة للقديس مرقس صحبهم سيمون حباً فى رئيسه واغتباطاً برؤيته جالساً على كرسى مارمرقس . إلا أن تفانيه فى محبة رئيسه أدى إلى أن ينال هو شخصياً هذه الكرامة العظمى . وهكذا أصبح البابا الاسكندرى الثانى والأربعين سنة ٦٨٤م (سنة ٤٠٠ش) .

٤٠٨- على أن الكرامة التى نالها الأنبا سيمون لم تغيّر من طبعه ، فظل وديعاً محباً لرئيسه يؤنس مخلصاً له الاخلاص كله حتى لقد عهد إليه بادارة الشئون الكنسية كما لو كان هو الجالس على السدة المرقسية . وظل الأنبا سيمون يشعر بالطمأنينة واثقاً من حسن ادارة معلمه ، كما ظل يدعوه « أبًا » إلى أن انتقل هذا الناسك الجليل إلى دار الخلود . كذلك ظل يؤنس يكرم تلميذه الذى أصبح باباه ، ويخلص فى خدمته طيلة حياته . فكان الأنبا سيمون ويؤنس أبوه الروحى صورة ناطقة بالمحبة المسيحية الحقة التى لا يشوبها حسد ولا يغيرها حدث من الأحداث .

٤٠٩- وقد استهل الأنبا سيمون أعماله الراعوية بكتابة رسالة الشركة إلى يوليانوس أسقف أنطاكية الذى فرح فرحاً روحياً باستلامها لما تضمنته من عقيدة أرثوذكسية حقة . وقد بلغ اعجاب الأسقف الأنطاكى برسالة البابا الاسكندرى حداً جعله يتخذها موضوع العظة التى ألقاها فى يوم الأحد الأول بعد وقوفه عليها . ثم رد عليه برسالة ممتلئة محبة واغتباطاً مقروناً بهدية نفيسة .

٤١٠- وحدث فى السنة الأولى لبابوية الأنبا سيمون أن خطر ببال الامبراطور يوستينيانوس أن يعقد مجمعاً يعرف باسم « إن ترولو » [١] . وغنى عن القول أن البابا الاسكندرى الشرعى الخليفة الحق لمارمرقس المنتخب من الشعب لم يدع لهذا المجمع ، وإنما وجهت الدعوة إلى عميل الامبراطور القسطنطينى الذى اغتصب لنفسه لقب « خليفة مارمرقس » مع كونه دخيلاً غير مرغوب فيه . ولقد سارع هذا الدخيل إلى تلبية دعوة سيده الامبراطور فغادر عاصمة الكرازة المرقسية قاصداً القسطنطينية .

٤١١- ومن المضحكات المبكيات أن هذا المجمع الذى تجاهل الأنبا سيمون البابا الاسكندرى الشرعى قد أعلن فى توكيد تام أن الأساس الذى تقوم عليه القوانين الكنسية هو الرسائل العقيدية التى كتبها ديونيسيوس ، وبطرس خاتمة الشهداء [٢] ، وألكسندروس ، وأثناسيوس ، وكيرلس [٣] - وهم جميعًا خلفاء مارمرقس وأسلاف البابا الاسكندرى الشرعى الذى لم يوجه إليه الامبراطور يوستينيانوس الدعوة إلى المجمع ! ولم يعد المصريون يأبهون لهذا التصرف إذ قد زال عنهم الحكم البيزنطى سياسياً . ولكنهم وجدوا فيه دليلاً على أن البيزنطيين لم يتعظوا بما ألقته الحياة عليهم من دروس ، فلم يغيّروا من مسلكهم رغم ما أصابهم من هزيمة أفقدتهم فى النهاية امبراطوريتهم الواسعة .

٤١٢- ولقد حدث فى هذا العصر أيضاً حَدَثٌ غريب خاص بالهند . فقد وصل إلى مصر فجأة وفد من الهنود ، جاء إلى الأنبا سيمون طالبًا إليه أن يرسم أسقفًا للبلاد الهندية . وكانت الهند إذ ذاك (وهى لاتزال كذلك) تابعة لكرسى أنطاكية . غير أن أخطار الطريق قد اضطرت هذا الوفد إلى أن يجعل وجهته الاسكندرية بدلاً من أنطاكية . فلما مثل الوفد بين يدى الأنبا سيمون قال لرئيسه : « إن كنيستى الاسكندرية وأنطاكية متحدتان فى الايمان

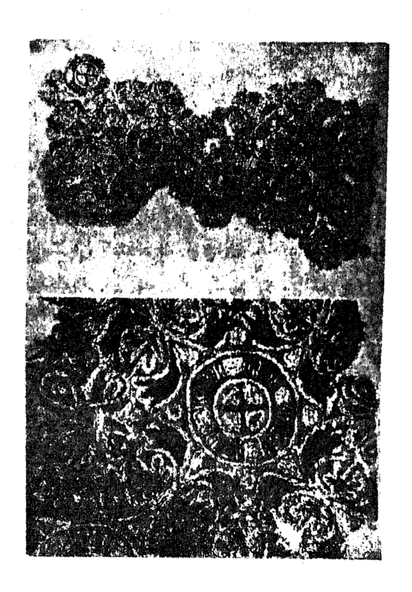
---

(١) سمى هكذا لأنه انعقد تحت قبة القصر الامبراطورى

(٢) قديسو مصر (بالفرنسية) للآب بول دورليان جـ٢ ص١٥٨

(٣) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٥٠٦ - ٥٠٧ .

الأرثوذكسى ، فليس هناك ما يمنعنى من رسامة الأسقف الذى تطلبونه . غير أنى أنصحكم أن تتصلوا بأمير البلاد المصرية لابلاغه ما ترغبون فيه . فغادروا الدار البابوية لتنفيذ ما طلبه منهم . إلا أن جماعة من الخلقيدونيين



قطعة رائعة من النسيج القبطى محفوظة بمتحف أشموليان بأوكسفورد (انجلترا) ترجع إلى القرن السابع

عثروا عليهم وأقنعوهم بالذهاب إلى أسقفهم الدخيل . فانصاعوا لرأيهم وقصدوا إليه فرسم لهم أسقفاً وكاهنين . وفى الحال غادروا الديار المصرية للعودة إلى وطنهم . وفيما هم يجتازون الحدود السورية وقعوا – هم والأسقف والكاهنان فى أيدى حراس تلك الحدود فأرسلوهم موثقين إلى الخليفة مروان بدمشق . فأمر بتكبيلهم بالسلاسل الحديدية وارسالهم إلى ابنه عبد العزيز أمير مصر وحمّل الحراس رسالة توبيخ قاسية لابنه اتهمه فيها بالتقصير وعدم اليقظة . فما أن اطلع عبد العزيز على رسالة مروان أبيه حتى أمر بالقبض على الأنبا سيمون متهماً اياه بالاعتداء على سلطانه وعبثًا حاول الأنبا سيمون أن يثبت براءته لأن عبد العزيز كان متأثراً إلى حد بعيد بما آلمه من توبيخ أبيه له . فلما أعوزت البابا الاسكندرى الحجة طلب مهلة لثلاثة أيام لعله يستطيع بعدها أن يأتى بالدليل القاطع على أنه برئ من التهمة الموجهة إليه . فمنحه عبد العزيز المهلة المطلوبة ، وانصرف الأنبا سيمون إلى الدار البابوية حيث انقطع للصلاة ضارعاً إلى الآب السماوى أن يسارع إلى نجدته .

وفى اليوم الثالث – وكان الأنبا سيمون لايزال غارقًا فى تضرعاته – إذ به يرى سكرتيره مهرولاً إليه ومعه رجل غريب ، تبينه فإذ به أحد أعضاء الوفد الهندى الذى كان قد قابله . وكان هذا الرجل قد تمكن من الهرب من السجن الذى اعتقل فيه هو وزملاءه ، ولم يجد أمامه من يلجأ إليه لحمايته من الاعتقال مرة ثانية غير البابا الاسكندرى . فرحب به الأنبا سيمون ، وبدد مخاوفه ، ثم صحبه إلى دار الولاية . وهناك قابلا عبد العزيز ، وقص عليه الهندى كل ما جرى بينهم وبين البابا الاسكندرى أولاً ثم انخداعهم بعد ذلك بحديث الخلقيدونيين . وأسف الأمير لما بدر منه نحو الأنبا سيمون أسفاً بالغاً ، فلم يكتف بالاعتذار له علناً ، بل أذن له أيضًا أن يبنى كنيستين جديدتين بحلوان كذلك أمر بالافراج عن الهنود المعتقلين والسماح لهم بالعودة إلى بلادهم . وحين سمع القبط عن اذن عبد العزيز لهم ببناء الكنيستين ، مجدوا اللّه أولاً ثم سارعوا بعد ذلك إلى جمع المال اللازم لبنائهما وتزيينهما بما يليق من كرامة لبيوت اللّه . وكان المشرف على هذا العمل هو الأنبا غريغوريوس

أسقف القيس الذى أنابه البابا الاسكندرى عنه فى مراقبة البناء ليتفرغ هو إلى تفقد رعيته .

٤١٣- ولقد كانت مهارة الصناع المصريين فى مختلف الصناعات لاتزال حقيقة مشهوداً لها من جميع الشعوب . فيروى التقليد أن نجاراً مصرياً من دندرة (بالصعيد الأعلى) هو الذى صنع العرش المقدم هدية من ملك النوبة إلى عبد الله ابن سعد أيام أن كان والياً على مصر . لأن هذا النجار كان معروفاً بحسن الذوق وبالدقة فى العمل .

كذلك كانت الترسانة المصرية ذات شهرة واسعة إلى درجة أن عبد العزيز بن مروان والى مصر اختار ثلاثة آلاف عامل من عمال هذه الترسانة وأرسلهم إلى تونس لينشئوا ترسانة بتلك المدينة . وفى الفترة عينها ذهب عدد مماثل من الصناع المصريين إلى القدس للعمل هناك (١) .

٤١٤- وفى تلك الفترة الهانئة تمت سعادة القبط بما أبداه الأنبا سيمون من ادراك لمسئوليته العظمى التى ائتمنه عليها رب الكنيسة . فكان ضميره المرهف مرجعه الأول كلما وجد نفسه مضطراً إلى اختيار راهب لرسامته أسقفاً . فكان يسعى إلى اختيار الرهبان الممتلئين نعمة المتعمقين فى الروحيات المتمسكين بالايمان الأرثوذكسى . ومما يؤسف له أن السجلات المتضمنة اسماء هؤلاء الأساقفة قد ضاعت ولم يبق منها إلا القليل مما يتعلق بالأنبا زكريا أسقف سخا وأخيه الروحى أبطلمون أسقف منوف العليا . ولم يكتف البابا الاسكندرى بحسن اختيار الأساقفة فحسب ، ولكنه كان - كلما رسم أسقفاً - زوده بالنصائح الأبوية ورجا منه أن يبذل كل عناية بشعبه .

٤١٥- وفى يوم أحد العنصرة - بعد أن احتفى الأنبا سيمون بصلوات هذا العيد العظيم كما احتفى بصلاة السجدة بعد ظهر ذلك اليوم عينه ، أحس بشئ من التوعك أدرك منه أن ساعته قد جاءت . فاستدعى سكرتيره وقال له : « هلم بنا إلى الوادى المقدس - وادى النطرون - لننال بركة القديسين ،

(١) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى المبحث الثانى لجاستون فييت ص١٤٨ .

ونرى اخوتنا الأطهار ساكنى الديارات لأننى لن أراهم بعد اليوم فى أرض الغربة هذه » .

وفى صباح اليوم التالى لهذا الحديث خرج الأنبا سيمون وسكرتيره قاصدين إلى برية شيهيت حيث قضيا بضعة أيام . وبعد أن نالا بركة القديسين الذين أضاءوا البرية بنورهم عادا إلى الاسكندرية وقد امتلأت نفساهما نعمة وسكينة . ولم تمض على رجوعهما غير أيام معدودات حتى نال البابا الاسكندرى العتق من هذا الجسد وانطلقت روحه لتنعم بالنور الأعظم بعد أن قاد دفة الكنيسة سبع سنين وثمانية أشهر (١) .



(١) تاريخ البطاركة – مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بديره جـ١ ص١٠٩ – ١١٧ .

كواكب زاهية

(٤١٦) نور القديسين يملأ الأرجاء .
(٤١٧) الناسكان جاورجيوس وابرام .
(٤١٨) الناسك ابيماخوس يسطع وجهه بالنور الالهى كموسى .
(٤١٩) برية الأنبا انطونى وأبرز من فيها .
(٤٢٠) انتخاب الراهب مينا أسقفاً لاثمى .
(٤٢١) مزايا الأنبا مينا وجهاده ثم نياحته .
(٤٢٢) الشماس جاورجيوس .

٤١٦– كان العصر الذى امتد من القرن السابع إلى القرن الثامن عصراً زخرت فيه مصر بمجموعة من الرجال الذين سرى نورهم فى أرجاء الوادى العتيق فملأه ضياء . وكان هذا النور نعمة الهية بددت المخاوف وأفعمت القلوب ثقة ورجاء رغم تقلب الأحداث السياسية . ولقد انتشر هؤلاء القديسون فى صحارى مصر وأديرتها فاجتذبوا بسيرتهم العطرة قلوب الشباب المتعطش لسبر عمق الروحيات .

٤١٧– ومن أبرز هؤلاء القديسين الذين انعكس خلالهم نور الله تعالى على الناس شيخان ناسكان ذاع صيت فضلهما وتقواهما هما جاورجيوس وابرآم . وقد عاشا معاً فى صومعة واحدة . وجاهدا جهاداً روحياً مقتدين بكوكب البرية الأنبا أنطونى . فمنحهما الله تعالى عمراً مديداً إذ قد شاءت عنايته أن يمكنهما من خدمة الرهبان المنتشرين فى برية شيهيت . كما وهبهما المقدرة على استشفاف سرائر النفوس . فكان كل منهما حين يتأمل راهباً ما يراه فى صورة الحمل الوديع أو فى شكل الثعلب المكير . فإذا ما رأيا أحد الاخوة فى صورة ثعلب واظبا على رعايته ومواساته وتغذيته بلبان التعاليم القدسية إلى أن يستقيم ويبدو أمامهما فى شكل الحمل . وهكذا كانت محبتهما سياجاً لاخوتهم تقيهم شر العثرات وترشدهم إلى طريق الخير .

٤١٨– وكان يعاصر هذين الناسكين راهب اسمه ابيماخوس شبّهه أخوته الرهبان بموسى النبى لما كان يبدو على وجهه من نور سماوى شبيه بالنور

الذى سطع على وجه كليم الله حينما قضى فوق الجبل أربعين يومًا حظى بعدها بأن يتكلم مع البارى العظيم وجهاً لوجه ويأخذ منه الوصايا العشرة .

ولقد سعد أبيماخوس بالنعمة التى مكنته من شفاء الناس . فكان يأتى إليه المرضى فينالون البرء لجسومهم والسكينة لقلوبهم (١) .

٤١٩- وبينما كان عبير النسك يعبق فى برية شيهيت من حياة رهبانها ، كان غيرهم من النساك يعطرون برية الأنبا أنطونى بصلاحهم وفضيلتهم .

ومن أبرز النساك الذين عاشوا فى هذه البرية الأنطونية الراهب مينا . وكان مينا هذا وحيد أبويه اللذين كانا يتوقان إلى تزويجه شأنهما فى ذلك شأن الوالدين المصريين عامة . ولكن قلبه اتجه إلى الرهبنة فهجر بيت والديه إلى برية الأنبا أنطونى لبعدها الساحق وسكن فى دير ذلك القديس العظيم . وهناك تتلمذ لرئيسه وتلقى عنه تعاليمه بفرح واتضاع حتى اكتسب منه كل العلوم الروحية والمدنية .

وبعد أن قضى فى دير أبى الرهبان سنين عديدة رأى أن يقصد إلى برية شيهيت ليترسم خطوات الأنبا مكارى الكبير الذى حظى قلبه بالتتلمذ للأنبا أنطونى شخصياً .

وفى شيهيت التقى مينا بالشيخين الجليلين جاورجيوس وابرآم ، وعاش معهما فى صومعتهما . وقد رآه هذان الشيخان - ببصيرتهما التى جعلها الله تعالى نافذة - رأياه فى شكل ملاك . فمجدا الله الذى أسبغ نعمته على مينا بهذا المقدار .

٤٢٠- وحدث أن شغرت سدة اثمى بانتقال أسقفها إلى الدار الباقية . فأوحى الروح القدس إلى الاكليروس والشعب بانتخاب الراهب مينا الذى تعطر

---

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين - طبعة ايفيتس جـ٣ ص٨٢ - ٨٣ ، رسالة مارمينا السادسة : « أديرة وادى النطرون ، للدكتور منير شكرى ص١٩١ - ١٩٢ حيث يذكر أن هذين الناسكين قد بلغا من القداسة درجات عليا كتلك التى بلغها الآباء العظام أمثال الأنبا أنطونى والأنبا مكارى الكبير (أى ابرآم وجاورجيوس) .

واديتا العزيز بأريج قداسته فلما وصل المندوبون إلى وادى النطرون لابلاغه الرغبة فى انتخابه بكى وأخذ يستعطفهم ليدعوه فى عزلته وفى خلواته إلى الله تعالى على أنهم استمروا فى الحاحهم ليقبل طلبهم ولا يردهم خائبين . وعندها قال له الشيخان الجليلان جاورجيوس وابرآم : « لا يحزن قلبك يا مينا ، بل اذهب مع هؤلاء المؤمنين لأنهم إنما جاءوك بارشاد من الروح القدس » . فخضع مينا للارادة الالهية وذهب مع المندوبين إلى اثمى حيث رسم أسقفًا على هذه المدينة فى حفلة كلها روعة وبهاء .

٤٢١– ولقد أضفى التكريس على الأنبا مينا قوة سماوية فياضة مكنته من مضاعفة جهوده فى سبيل رفع شأن الأرثوذكسية . وقد حباه المولى – إلى جانب طلاقة اللسان وسعة الصدر – موهبة شفاء المرضى . فكان شعبه يفزع إليه ليجد عنده العزاء والهداية . كما حباه المقدرة على قراءة الأفكار .

وقد شاءت الارادة الالهية أن يعاصر هذا الأسقف أربعة من باباوات الاسكندرية هم الأنبا ألكسندروس الثانى والأنبا قزما والأنبا ثيئودورس والأنبا ميخائيل . وقد اشترك فى وضع اليد على هؤلاء الأربعة ، فكان لهم بمثابة الأب الروحى .

على أنه لما كان كل حى إلى زوال ، أو كما قال الشاعر :

كل ابن انثى وإن طالت سلامته   يومًا على آلة حدباء محمول

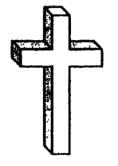
فقد تطرق الوهن إلى الأنبا مينا بعد عمره المديد فعرف بالروح موعد رحيله عن هذا العالم الفانى ، فجمع المؤمنين وحثهم على التمسك بالايمان الأرثوذكسى وبالثقة التامة فى مواعيد الله تعالى . ولما انتهى من نصيحته استودع روحه يدى الآب السماوى فى هدوء واطمئنان (١) .

٤٢٢– وثمة شخص آخر يجب ذكره هنا هو الشماس جاورجيوس الذى

---

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج طبع فى جامعة كامبردج سنة ١٩٢٨ جـ١ ص٢١٤ – ٢١٦ ، رسالة مارمينا السادسة : « أديرة وادى النطرون » للدكتور منير شكرى ص١٩٥ .

عده البعض خليقاً بأن يجلس على الكرسي المرقسي . ذلك أن هذا الشماس - حين فشل في الفوز بالكرامة الكهنوتية العظمى - لم يتخاذل ، ولم يحس بأية مرارة نتيجة لفشله ، بل استمر يخدم كنيسته بجد واجتهاد . ثم سعد بأن نال رتبة قسيس . على أن رضاه بالرتبة الكهنوتية الصغرى وتكريسه كل قواه للخدمة ليس بالسببين الوحيدين للاعجاب به ، بل أن هناك سبباً آخر أكبر قيمة وهو تركيزه الجهود في كتابة تراجم الباباوات الاسكندريين . فبينما كان مقيماً في دير الأمير ثيئودورس بابلاج بدأ بكتابة سيرة الأنبا كيرلس الأول عامود الدين (البابا الاسكندري الـ٢٤) ثم تتبع سير خلفاء هذا البابا الماجد حتى وصل إلى سيرة الأنبا الكسندروس الثاني (البابا الاسكندري الـ ٤٣) الذي عاصره . وقد كتب ترجمة هذا البابا الأخير حينما كان عائشاً في دير الأنبا مكاري الكبير بشيهيت . ولم يكتف جاورجيوس بكتابة تراجم هؤلاء الباباوات ، بل صور الأحداث السياسية التي اجتازتها مصر ، كما وصف شخصيات الحكام المدنيين الذين تعاقبوا على حكم بلادنا الحبيبة . وقد تضمن كتابه أحداث قرون أربعة - من القرن الرابع إلى القرن الثامن - اعتلى السدة المرقسية في أثنائها عشرون من الباباوات الاسكندريين . وهكذا تاجر جاورجيوس بالوزنات التي منحه اياها سيده الالهي ، فاستحق أن يسمع منه ذلك الصوت العذب القائل : نعماً أيها العبد الصالح والأمين ... أدخل إلى فرح سيدك (١) .



---

(١) متى ٢٥ : ٢١ .

من السلام إلى الخصام

(٤٢٣) تعيين أسقف القيس مدبراً للكنيسة .

(٤٢٤) الثقة في هذا الأسقف تؤدى إلى تأجيل الانتخاب ثلاث سنين .

(٤٢٥) انتخاب الأنبا الكسندروس الثانى .

(٤٢٦) الرسامة تتم فى ٣٠ برمودة والتطير من هذا التاريخ .

(٤٢٧) انتقال الوالى عبد العزيز إلى الدار الباقية .

(٤٢٨) بطش الولاة الذين خلفوا عبد العزيز بن مروان .

(٤٢٩) مطالبة البابا الاسكندرى بثلاثة آلاف دينار .

(٤٣٠) اللغة العربية تصبح اللغة الرسمية لمصر .

(٤٣١) يؤنس كاتب ديوان الأمير شعاع من النور وسط الظلمة .

(٤٣٢) البابا الكسندروس يتفقد ابناءه المثقلين بالوباء والضرائب .

(٤٣٣) رسالة الشركة من أسقف أنطاكية .

(٤٣٤) أنوبيس طبيب خلقيدونى يعتدى على الكرسى الاسكندرى ثم يتوب .

(٤٣٥) العسر واليسر يتعاقبان على المصريين .

(٤٣٦) نياحة الأنبا الكسندروس الثانى .

٤٢٣– لما نعى الناعى الأنبا سيمون فزع الشعب كما أحس بالحزن واللوعة كأنما قد أحس بقلبه مقدماً ما سيحيق به من ظلم فيما بعد . كذلك امتلأ قلب الأمير عبد العزيز حزناً على فقد صديق عزيز على نفسه .

وكان أثناسيوس قد تدرج حتى أصبح رئيس ديوان الأمير ، وكان لايزال الخادم الأمين لأمه الرؤوم : كنيسة الآباء والأجداد . فرأى أن خير سبيل ينتهجه وفاء لذكرى باباه الراحل هو الاسراع إلى محاولة ايجاد من يخلفه على الكرسى المرقسى كى لا يبقى الشعب كسفينة من غير ربان . فتشاور أثناسيوس مع زملائه القبط الذين يعملون معه فى ديوان الأمير عبد العزيز واتفقت كلمتهم على مقابلته . فلما مثلوا بين يدى الأمير قالوا له : « أطال الله بقاءك وأمد فى عمرك أيها الأمير . واسمح لنا أن نبلغك أن الضريبة المفروضة على

كنيسة الاسكندرية تحتم وجود مدبر لها يسهر على حسن ادارتها . فنرجو منك أيها الأمير أن تعهد إلى الأنبا غريغوريوس أسقف القيس بادارة شئون الكنيسة، . فوافقهم الأمير عبد العزيز على رأيهم وأصدر مرسوماً بذلك على الفور .

٤٢٤- وكان أسقف القيس هذا حكيماً ، زاهداً فى المجد العالمى . فجد السعى مع اخوته الأساقفة وأراخنة الشعب فى انتخاب من يعتلى الكرسى الاسكندرى الجليل . ولكن ارتياحهم إلى ما كان يقوم به الأنبا غريغوريوس من حسن الادارة المالية جعلهم يماطلون فى انتخاب خليفة مارمرقس . وأدت هذه المماطلة إلى أن تظل السدة المرقسية شاغرة سنوات ثلاثاً .

٤٢٥- وبعد هذه السنوات الثلاث ، وتحت ضغط الأنبا غريغوريوس اتفق الاكليروس والشعب على انتخاب الراهب ألكسندروس أحد رهبان دير الزجاج . وكان معروفاً بحكمته وعلمه وبتواضعه الجم وبنزاهته التامة . فلما استصحبوه إلى الأمير عبد العزيز رأى نعمة الله تتلألأ على وجهه .

وفرح الجميع إذ تهيأت لهم الأسباب لتحقيق أمنيتهم ، وخرجوا من سراى الأمير قاصدين إلى الاسكندرية مباشرة . وما أن وصلوا إلى هذه المدينة العظمى حتى ساروا فى موكب فخم فى شوارعها الرئيسية إلى أن وصلوا الكنيسة المرقسية حيث قام الأساقفة بشعائر الرسامة الرائعة التى رفعت الراهب ألكسندروس إلى مرتبة البابوية ، فجعلت منه الخليفة الثالث والأربعين للقديس مرقس سنة ٤١١ش (سنة ٦٩٥م) .

٤٢٦- وحدث أن تمت رسامة الأنبا ألكسندروس الثانى فى الثلاثين من شهر برمودة المبارك ، وهو اليوم الذى تعيد فيه الكنيسة بذكرى شهادة القديس مرقس كاروز ديارنا الحبيبة . وامتزج الفرح بالفزع فى قلوب المؤمنين لهذه المناسبة . فقد فرحوا إذ امتلأوا أملاً فى أن يكون البابا الجديد جديراً حقاً بالسدة المرقسية الجليلة ، وفزعوا فى الوقت عينه إذ قد ساورتهم المخاوف لئلا تكون خاتمة حياته شبيهة بخاتمة حياة رسول المخلص الذى حمل البشارة إلى هذا الوادى العتيق .

٤٢٧- ولم تمض على رسامة الأنبا ألكسندروس الثانى مدة وجيزة حتى

انتقل الأمير عبد العزيز إلى دار الخلود ، بعد أن تولى حكم مصر عشرين سنة، سعد فيها المصريون بالاستقرار . وكانت هذه المدة أطول مدة قضاها والٍ على مصر لأن الأمويين كانوا يستبدلون ولاتهم فى فترات متقاربة كى لا تقوم صلة المودة بينهم وبين الشعب المصرى فيراودهم الأمل فى أن يستقل الواحد منهم بالحكم .

٤٢٨- وقد عم الحزن قلوب القبط والمسلمين على السواء لفقد هذا الأمير العادل . وازداد حزن الجميع حين اقترن بأنينهم وهم يرزحون تحت عسف الولاة الذين تعاقبوا على حكم مصر من بعد عبد العزيز ، إذ كان هؤلاء الولاة على جانب كبير من العتّو والتجّبر نفّر منهم القلوب وزادها أسى على أيام الطمأنينة التى عاشوها فى ولاية عبد العزيز .

وكان عبد الله هو الوالى الذى خلف عبد العزيز مباشرة . وإن اسمه واسماء الولاة الذين خلفوه (وهم قرة واسامة وعبيد الله) قد أصبحت فى أفواه المصريين عامة والقبط خاصة مترادفات للقسوة والتعسف والتجرد من الرحمة. فقد ضاعفوا الضرائب ثم تذرعوا بالعنف لأخذ هذه الضرائب عنوة من الشعب المصرى . بل إنهم تشددوا فى جبايتها إلى حد أنه حين كان يموت شخص ، لا يحصل أهله على التصريح بدفنه ما لم يدفعوا الضريبة المقررة على الموتى. كما أن الفقير الذى لم يكن له ما يسد به رمقه ، كان هو أيضاً عرضة لبطش هؤلاء الولاة لأنهم لم يعفوه من دفع الضريبة . فكانوا أشبه بالصقور التى تخطف لقمة العيش من فم آكلها .

ولم يجد الشعب المصرى مخرجاً له من كل هذا التعسف إلا برفع ناظريه نحو السماء فى صمت واستعطاف راجياً من رحمة الله تعالى أن تتداركه . وبالطبع كانت الضريبة على القبطى أضعاف مقدارها على المسلم (١) ، وبخاصة فى ولاية قرة ابن شريك الذى أدى تعسفه إلى أن يبيع القبط أوانى

---

(١) ، تاريخ مصر : من مينا إلى فؤاد الأول ، (بالفرنسية) للآب دى هيلو ص٢٠٦ القول الابريزى للعلامة المقريزى ص٥٠ .

المذبح الفضية ويستبدلونها بأوانى خشبية أو زجاجية لكى يسددوا الجزية المفروضة عليهم من هذا الوالى الطاغية الذى أبدى المسلمون سخطهم عليه كما أبداه القبط (١) .

٤٢٩- ولما وصل عبد الله (الذى خلف عبد العزيز) إلى الفسطاط ، جاء الأنبا ألكسندروس الثانى من الاسكندرية ليحييه . فلما رآه الأمير عبد الله سأل حاشيته : « من هذا ؟ » أجابوه : « هذا أبو القبط جميعاً » . فأمر بالقبض عليه فى الحال وطالبه بدفع ثلاثة آلاف دينار قبل أن يغادر ديوان الولاية . فقال له البابا الاسكندرى : « إنك تطالبنى بما أعجز عن أدائه لأنى لا أملك مالاً تنفيذاً لقول السيد المسيح لأتباعه لا تقتنوا لكم ذهباً ولا فضة » (٢) . ولكن ذلك الوالى لم يصدق ما قاله الأنبا ألكسندروس الثانى ورفض أن يخلى سبيله . وبعد انقضاء سبعة أيام قصد إلى دار الولاية أرخن اسمه جاورجيوس الدمراوى (٣) ، فدخل بجرأة إلى حضرة الأمير عبد الله وسأله : « أيهدف مولاى إلى اعتقال البابا أم إلى الحصول على المال ؟ » أجابه : « ليس هناك من سبب لأن أضمر الشر لباباكم وإنما أريد المال » . فقال جاورجيوس : « إذن فليمهلنى مولاى شهرين أطوف خلالهما الوجه البحرى بمعية البابا الجليل . وآمل أن أعود بعد هذه الفترة بالمال المطلوب . وإن لم يتح لنا الحصول على هذا المال فإنى مستعد لقبول ما يراه مولاى من سجنى أو توقيع أية عقوبة أخرى على » . وقد صادف هذا الكلام من الأمير قبولاً ، وصرح للأنبا ألكسندروس الثانى بالذهاب مع ابنه البار جاورجيوس . فطافا مختلف البلاد . وسارع القبط إلى امداد باباهم بالمال اللازم صوناً له من استبداد الوالى (٤) .

٤٣٠- وفى هذه الفترة الحالكة التى امتزج فيها بطش الولاة بأنين

---

(١) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) جـ٢ المبحث الثانى لجاستون دى فييت ص١٣٢ .

(٢) لوقا ٩ : ٣ .

(٣) نسبة إلى دمرو بجوار المنصورة .

(٤) تاريخ بطاركة الاسكندرية لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين ترجمة ايفيتس جـ٣ ص٥٤ - ٥٥ .

الشعب، أعلن عبد الله اللغة العربية لغة رسمية للبلاد بدلاً من اللغة القبطية . فلم يجد القبط بدأ من تعلم هذه اللغة مرددين لأنفسهم : « إذا لم يكن من الموت بد – فمن العجز أن تموت جباناً » . لذلك تعمقوا فى دراسة اللغة العربية وبرع الكثير منهم فيها (١) .

٤٣١– وقد تضاعف بؤس المصريين مما حل بالبلاد من قحط ووباء . فهلك منهم العدد الوفير لأن أجسامهم كان قد أنهكها الفقر والخوف فلم تعد لديهم القوة على المقاومة .

إلا أن الله تعالى – وإن تمهل – لابد مستجيب الدعاء . فإن القبط حين ادلهمت بهم الأمور لم يجدوا أمامهم طريقاً للفرج غير الصلاة . وقد استجاب المولى صلواتهم بأن هيأ لهم كاتباً اسمه يؤنس . وكان الخليفة وعبد الملك بن مروان قد نقل الوالى إذ لم تعجبه أن يستبد عبد الله بالمصريين إلى هذا الحد ، وعين قرة ابن شريك مكانه . على أن قرة ضاعف الطغيان على الشعب المصرى ولم يعتبر بما أصاب سلفه أملاً فى أن يكتنز كل ما يستطيع من المال. ولكنه رغم قسوته قد وثق بالكاتب يؤنس الذى أصبحت له حظوة خاصة لدى قرة . فرأى أن يستخدم هذه الحظوة فيما يعود بالخير على قومه، فقال لقرة : « إننى أدرى ببنى قومى . وأعلم من هو أقدر بينهم على دفع الجزية ومن منهم الفقير المحتاج . فإن شئت يا مولاى جمعت لك الجزية دون أن يستمر هذا الضجر البادى على الشعب كله » . فوافقه قرة على طلبه وصرح له بالتجول فى البلاد لجمع الجزية . فخرج يؤنس من عند الوالى وبدأ عمله مباشرة . وقد فاضت عليه النعمة الالهية مكافأة له على تقدمه للخدمة فمكنته من أن يتفاهم مع الخلقيدونيين ويعيدهم إلى الايمان الأرثوذكسى كما مكنته من التفاهم مع الغاانيين الذين كانوا قد كونوا شيعة من عهد الأنبا بنيامين (البابا الاسكندرى الـ٣٨) وضمهم أيضاً إلى الايمان الأرثوذكسى . فأسفرت جهود يؤنس عن توحيد جميع المسيحيين فى مصر وضمهم تحت رعاية البابا

---

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول ص٢٧ ، تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٨ ص٦٨ .

الاسكندرى والكنيسة الأم التى استشهد فى سبيلها مارمرقس تلميذ الفادى الحبيب (١) .

ومن المخطوطات الباقية لنا من هذا العهد مخطوطة تتضمن المكاتبات المتبادلة بين قرة بن شريك وبين والى منطقة « أفروديتو » . وتتعلق هذه المكاتبات بالشكوى من التأخر فى دفع الجزية ، وبطلب ارسال مقادير من الحبال للأسطول فى الاسكندرية وجذوع النخل إلى الفسطاط لاستعمالها فى البناء . على أن أهم ما جاء فيها هو الأمر بارسال الصناع على وجه السرعة إلى أورشليم ودمشق للقيام بأعمال البناء التى يريد الوليد اقامتها . كذلك يبدو من هذه المكاتبات أن القرية المتأخرة فى دفع الضرائب كانت تبعث بأبنائها للعمل مقابل هذه الضرائب المستحقة عليها (٢) .

٤٣٢- واستمر الوباء يحصد المئات بلا شفقة ولا هوادة . فقام الأنبا ألكسندروس الثانى وعدد من أساقفته برحلة راعوية إذ رأوا من واجبهم أن يتفقدوا الشعب الذى حاقت به الكوارث . فطاف مع شركائه فى الخدمة الرسولية مدن مصر وقراها يسألون عن المريض ، ويعزون الحزين ، ويثبتون قلوب الجميع على الايمان بالله أبى المراحم . فلما خفت وطأة الوباء ، ورأى البابا الاسكندرى أن الطمأنينة بدأت تسرى إلى القلوب ، ذهب هو وصحبه إلى الأديرة فى برية شيهيت ليستجموا وليجدوا فى رحاب الصحراء وسكونها الوسيلة للتأمل والاقتراب إلى الله أكثر فأكثر .

٤٣٣- وبينما هم مقيمون فى الأديرة جاءهم رسول يحمل إلى الأنبا ألكسندروس الثانى رسالة الشركة من الأسقف ايليا الذى كان فى تلك الآونة

---

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين - طبعة ايفيتس جـ٣ ص٦٢ - ٦٣ .

(٢) فى سنة ١٩٠١ عثر على عدد من المخطوطات اليونانية فى بلدة كوم اشقاو التى تقع على بعد ثلاثين ميلاً شمالى سوهاج . ومعظم هذه المخطوطات محفوظة بالمتحف البريطانى . ويتبين عن احداها أن القبط اشتغلوا أيضاً فى بناء المسجد الأقصى - راجع « أثر القبط فى العمارة الاسلامية الأولى لكريزويل » (مجلة الآثار القبطية سنة ١٩٣٩) ص٣٠٠ .

يشغل السدة الأنطاكية بصفة مؤقتة إلى أن يتم انتخاب بطريرك لها . فلما اطلع البابا الاسكندرى على هذه الرسالة التى تعبر خير تعبير عن الأرثوذكسية ، فرح بها فرحاً عظيماً. فجمع أساقفته وقرأها عليهم فشاركوه فرحه واغتباطه. ولم يفرغ من قراءتها حتى كتب رده عليها لساعته وبعث به إلى الأسقف الأنطاكى مجدداً عهود المودة القائمة على الايمان الأرثوذكسى المشترك .

٤٣٤- وكان فى الاسكندرية إذ ذاك طبيب بيزنطى اسمه أنوبيس متشيعاً لمجمع خلقيدون وقد نجح هذا الطبيب فى أن يستميل إليه والى الاسكندرية بواسطة مهنته وبما بذل من مال . واستغل أنوبيس هذه الحظوة التى نالها لدى الأمير فأقنعه بأن يقيمه أسقفاً على الاسكندرية . ولما تم لهذا الطبيب ما أراد أخذ يناوئ الأنبا ألكسندروس الثانى ويسخر منه جهراً على مسمع من الجميع . فغضب الشعب الاسكندرى المخلص لايمانه الأرثوذكسى ، وثار فى وجه هذا الدخيل المغتصب ثورة عارمة أفزعته إلى حد أنه لم يجد أمامه من يلجأ إليه ويستنجد به لحمايته غير البابا الاسكندرى نفسه . فقصد إلى الدار البابوية حيث تلقاه الأنبا ألكسندروس بصدر رحيب ، وحماه من غضب الشعب الثائر فامتلأ أنوبيس خجلاً من هذه المعاملة الكريمة المأخوذة عن تعاليم الانجيل المقدس (١) ، واستغفر البابا المرقسى عما اقترفه . فبدد هذا البابا الجليل مخاوفه وهدأ من روعه بأن أعلن له صفحه عن جميع ما بدر منه . فلم يسع هذا الطبيب البيزنطى إلا أن يعلن ولاءه للجالس على كرسى مارمرقس ، وظل على ولائه له مدى حياته .

٤٣٥- على أنه لما كانت الأحداث السياسية فى بلادنا المصرية شبيهة بالنيل الذى يفيض ثم تهبط مياهه إلى مستواها ، فقد جاءت أيام اليسر فى أعقاب أيام العسر . وكان الرفق والعنف يتلاحقان تبعاً لشخصية الوالى أو أمين خزانته . فإذا ما حدث أن تولى الأمر فى وادينا والٍ عطوف ترفق بالمصريين ولم يشدد عليهم الخناق ، كان يتولى الحكم بعده (فى غالب الأحيان) رجل

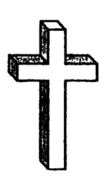
---

(١) متى ٥ :٤٣ ، رومية ١٢ : ٢٠ – ٢١ .

عات لا يتورع عن جنى الضرائب بكل وسيلة ، بل لقد كان لسان حال البعض من هؤلاء الحكام الغاشمين هو: « أحلب البقرة حتى تستنزف منها الدم » (١) .

ومن نعم الله أنه تعالى قد هيأ الفرصة أمام مهرة الصناع القبط من العمل فى بناء المسجد بالمدينة إذ قد أمر الخليفة الوليد بهدم المسجد القديم واقامة بدلاً منه كما أرسل لواليه فى المدينة المال والرخام والفسيفساء اللازم للبناء مع ثمانين من الصناع القبط والروم عن مصر وسوريا وذهبوا إلى الحجاز وأتموا بناء المسجد المطلوب للمدينة كما بنو المساجد فى القدس ودمشق (٢) .

٤٣٦– وفى وسط كل هذا المد والجزر كان الأنبا ألكسندروس الثانى قاصداً إلى الاسكندرية على ظهر مركب ، فعاجلته المنية قبل أن يصل إلى عاصمته. وما أن رست المركب حتى سارع رجال الاكليروس والشعب إلى المرسى وحملوه إلى الكنيسة المرقسية حيث أقيمت صلاة التجنيز الخاصة بالباباوات الاسكندريين . وهكذا انتقل إلى بيعة الأبكار بعد أن ساس أمور الكنيسة المصرية أربعاً وعشرين سنة وتسعة أشهر (٣) .



---

(١) « مصر فى القرون الوسطى » (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول ص٢٤ – ٢٥ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص٧ ، المؤثرات القبطية على العمارة الاسلامية الأولى ، (بالانجليزية) لكريزويل نشره فى مجلة الآثار القبطية العدد الخامس (سنة ١٩٣٩) ص٤٢ .

(٣) تاريخ بطاركة الاسكندرية طبعة ايفيتس جـ٣ ص٤٨ – ٧٩ ، وتاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص٤٠٩ – ٤١٣ .

فـوران وهـديـر

(٤٣٧) رياسة مبتورة .
(٤٣٨) رهبنة ثيئودورس وتنبؤ رئيسه بجلوسه على السدة المرقسية
(٤٣٩) ولاية الحـر بـن يـوسـف وثـورة القبط عليه .
(٤٤٠) نقل عـبـيـد الله واسـتـتـبـاب السلام في مصر .
(٤٤١) فترات الرخاء تتخللها فترات من البؤس .
(٤٤٢) الأنبا مويسيس أسقف أوسيم شهيد بغير سفك دم .
(٤٤٣) نشأته ورهبنته .
(٤٤٤) الأنبا مويسيس شمعة تحترق لتضيئ الطريق .

٤٣٧- ما أن هدأت موجة الحزن التى انتابت الاكليروس والشعب على انتقال باباهم الجليل حتى اتجهت الأنظار إلى الناسك قزما أحد رهبان دير القديس مكارى الكبير ببرية شيهيت فانتخب بالاجماع . ومن ثم أقامه الأساقفة سنة ٤٣٦ش (سنة ٧٢٠م) على سدة الكنيسة الاسكندرية ، فكان الخليفة الرابع والأربعين للقديس مرقس كاروز ديارنا المصرية .

على أن هذا البابا لم يجد نفسه جديراً بهذه الكرامة العظمى التى أولاه اياها اكليروس الكرازة المرقسية وشعبها بنعمة الله . كذلك امتلأت نفسه أسىً حين علم أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد كتب إلى حيّان بن شريح عامل الخراج فى مصر يقول له « أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم » ، وأضاف إلى ذلك الجزية على القرى - فكل قرية عليها مقدار من المال يجب تأديته بغضّ النظر عمن يموت من أهلها (١). وبازاء هذا الشعور بعدم الاستحقاق الذى طغى على الأنبا قزما ، وهذا الأسى الذى ملأ عليه قلبه لعدم قدرته على حماية شعبه من الجزية المتزايدة المبالغ فيها ، أخذ يبتهل إلى الله تعالى نهاراً وليلاً ضارعًا إليه أن ينقله من هذا العالم بدلاً من أن يضرع إليه أن يمنحه النعمة لتأدية واجباته الراعوية مخالفًا بذلك الأوامر

---

(١) مصر الاسلامية لالياس الأيوبى ص٩٥ .

الالهية (١) . ولقد استجاب البارى سبحانه هذه الضراعة الغريبة فلم يلبث الأنبا قزما أن انتقل إلى الدار الباقية بعد مرور خمسة عشر شهراً على ارتقائه الكرسى المرقسى . فمرت أيام باباويته مرور السحاب العابر الذى يطلع فى الصيف ليتلاشى بسرعة . وهكذا اضطر الاكليروس والشعب إلى التشاور من جديد فى من يكون رئيسهم الأعلى. وانتهت بهم الشورى إلى انتخاب ثيئودورس أحد رهبان دير دمنو بمريوط (٢) .

٤٣٨- وكان ثيئودورس هذا قد كرس حياته للنسك والعبادة منذ حداثته . فتتلمذ ليؤنس الأب الناسك الذى قضى السنين الطوال فى الرهبنة وعاش تحت كنفه . وبما أن ثيئودورس هذا كان يهدف من البداية إلى بلوغ الكمال المسيحى فقد جعل المحبة والطاعة والتواضع وسائله للوصول إلى هذا الهدف . وكان يذكرّ نفسه كل يوم بقول المخلص له المجد : « من أراد أن يصير فيكم أولاً فليكن للجميع عبداً » (٣) .

وكان قد حدث فى باباوية الأنبا ألكسندروس الثانى أن جلس الرهبان يتسامرون فى الدير ذات ليلة . فقال لهم يؤنس رئيسهم : « صدقونى يا أولادى أن قلبى ينبئنى بأنى سأنتقل من هذا العالم فى ذات اليوم الذى ينتقل فيه الأنبا ألكسندروس الثانى إلى مساكن النور ، وأن أخاكم الراهب ثيئودورس سيعتلى الكرسى المرقسى – لا خليفةً لألكسندروس ولكن للبابا الذى يأتى من بعده » . وحين سمع الرهبان هذه الكلمات سادهم الصمت العميق إذ أحسوا فى

---

(١) يوحنا ١٧ : ١٥ .

(٢) ورد فى تاريخ البطاركة (المخطوط) نسخة دير البراموس نقلها القمص شنودة الصوامعى البراموسى جـ١ ص١٣٤ ما نصه : « وكان بظاهر مريوط دير يعرف بطمنوه . وكان فيه راهب شيخ قديس وشاب آخر راهب ... وكان رئيسهما اسمه يحنس ... » وهذه الكلمات بعينها يوردها أسقف الأشمونين ولو أنه يطلق على الدير اسم طمنورة – راجع تاريخه جـ٣ ص٨٤ . على أن القمص ميصائيل بحر يذكر على ص٤٨ من كتابه « تاريخ القديس الأنبا يوحنس القصير » : أن الأنبا ثيئودورس ترهب بدير يؤنس القصير ببرية شيهيت فلما كرسوه بطريركاً قام بشئون الخدمة أحسن قيام » .

(٣) مرقس الرسول ١٠ : ٤٤ .

داخلهم بأن رئيسهم ينبئهم بأمور لابد واقعة . ولقد تحققت هذه النبوءة فعلاً . فلم يكد الأنبا فزما ينتقل إلى الأخدار السماوية حتى تمت رسامة الراهب ثيئودورس ، فجلس على السدة المرقسية سنة ٧٢١م ، وأصبح بذلك الخليفة الخامس والأربعين لمارمرقس .

٤٣٩- وكان ثيئودورس ذا وجه بشوش ، ونفس صافية وادعة ، وقلب يفيض بالمحبة للجميع . فانعكست كل هذه الفضائل على وجهه ، وتلألأ جبينه بنور عجيب حبّب فيه الاكليروس والشعب .

وكان عبيد الله المتولى جباية الخراج فى مصر قبيل انتخاب الأنبا ثيئودورس رجلاً قاسى القلب لا يتورع عن جمع المال بكل وسيلة . على أن هذا الرجل الغشوم أسقط من رياسته بعد انتخاب البابا بمدة وجيزة . ثم تولى الحر بن يوسف الحكم ، وكان على شاكلة عبيد الله فى بطشه وجشعه . فكأنما قد تآمر هذان الرجلان على عصر المصريين بكل قواهم . وكان استبداد الحر بن يوسف بالقبط أضعاف استبداده بالمسلمين . وامتلأت قلوب القبط غضباً لهذا التعسف . فقام أهالى تنوديمى وقربيط وطربية (١) بثورة علنية . وقابلهم الحر بن يوسف بالقوة إذ قد أمر جيشه بقمع هذه الثورة . وقد دامت المعارك بين الثوار والجيش ثلاثة شهور ، وانتهت بفشل الثوار . إلا أن الحر بن يوسف لم يبق فى مصر ، بل جاءه الأمر بالنقل إلى أسبانيا . وأعقبت انتقاله فترة قصيرة من السكينة (٢) .

٤٤٠- ثم استعاد عبيد الله سلطانه على مصر ، ولكنه لم يتعظ بنقل الحر ابن يوسف ولا بما جرى له شخصيًا ، بل أمعن فى سياسة العسف والطغيان . وقد أدهشه أن القبط – رغم استبداده بهم – لم ينكروا دينهم . ولم يكن بينهم من حاول التهرب من الجزية بجحد مسيحيته وكان غرضه أن يزيد عدد المسلمين ، فلما لم تتزايد صفوفهم من أهالى مصر استقدم خمسة آلاف عربى

---

(١) هذه المدن جميعها ضمن المنطقة المعروفة الآن بمحافظة الشرقية .

(٢) تاريخ مصر الاسلامية لالياس الأيوبى طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٢ ص٩٥ – ٩٦ .

من قبيلة القيس . وقد استقر هؤلاء العرب فى منطقة حوف (إلى الشمال الشرقى من الفسطاط) حيث كانوا عنصراً للشغب إذ كانوا يعلنون التمرد فى كل مناسبة. كما أن كل والٍ جديد كان يستصحب ما لا يقل عن ستة آلاف جندى كانوا يستوطنون مصر الرحيبة بعد ذلك (١) .

وقد توهم عبيد الله – بعد استقدام هؤلاء العرب – أنه يستطيع أن يستمر فى سياسة الاستبداد دون معارض . إلا أن طغيانه هذه المرة لم يستثر غضب القبط وحدهم ، بل أثار غضب المسلمين أيضاً . فرأوا أن يرفعوا شكواهم إلى الخليفة هشام ، لأن هذا الخليفة كان عادلاً منصفًا ، يعمل على راحة رعاياه من مسلمين وغير مسلمين فما أن بلغته شكوى المصريين من عبيد الله حتى أمر بنقله إلى بلاد البربر فى شمال أفريقيا ، وعين القاسم ابنه الأكبر والياً على مصر ، فاستقر السلام على ضفاف النيل . وقد شاءت العناية الالهية أن يظل السلام مستتباً حتى آخر أيام الأنبا ثيئودورس . فتمكن خلال سنى السلام من أن يتفقد المسيحيين ويثبت قلوبهم على الايمان الأرثوذكسى لا يعوقه استبداد من الخارج ولا انقسام من الداخل . وقد دامت باباويته احدى عشرة سنة وسبعة أشهر انتقل بعدها إلى مساكن النور فى أمن وهدوء نفسى .

٤٤١– كما أن النهر العظيم يتكون من آلاف القطرات المتجمعة المنسابة معًا ، هكذا المجتمع يتألف من آلاف الأفراد المتجانسين المتآلفين . غير أن

---

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول ص٢٨ – ٢٩ حيث استشهد بالكندى وأبى صالح حين قال ما نصه : " It is remarkable that in spite of such intermittent oppression and their invariable position of inferiority, and also the temptation to escape the poll-tax and all disabilities by the simple process of conversion to Islam, the Copts in general remained steadfast to their faith (they numbered five millions about 725) insomuch that about 732 the treasurer Abeydallah, finding that Islam was making no progress among them, imported 5000 Arabs of the Tribe of Kais, and settled them in the Hawf of the North-east of Fustat where they presently formed a hot bed of revolt ... Most governors appear to have come to Egypt escorted by an Arab army of 6000, or 10,000 or even of 20,000 men " . ويؤيد هذه الشهادة المستشرق الفرنسى جاستون فييت فى كتاب « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) الجزء الثانى المبحث الثانى ص١٣٧ .

قطرات المياه تتشابه تماماً لا فرق بين قطرة وقطرة ، أما الأفراد فالاختلافات العديدة تميز الواحد عن الآخر إذ قد شاء البارى تعالى أن ينّوع مخلوقاته لتزداد الحياة رونقًا وبهاء . وهذا هو السبب فى أن هناك أقوياء يقابلهم الضعفاء ، وشجعان يقابلهم الجبناء ، إلى غير ذلك من الاختلافات الوفيرة التى تميز شخصاً عن شخص . وهذا التنوع هو أيضاً السبب فى أنه لا غنى لانسان عن غيره ، لأن الفرد – مهما أوتى من مواهب ليس فى وسعه أن يؤدى جميع الأعمال التى يحتاج إليها ليستطيع أن يستمتع بحياته . وكلما قام رئيس عبر عن خلجات قومه تعبيراً صحيحاً استجابت له القلوب كلها فسارعت الحياة إلى الأمام وسادتها الطمأنينة والرضى رغم ما قد يعوق طريقها من مضايقات كالنهر المتدفق تنساب مياهه فوق الصخور وعلى الرمال انسياباً غزيراً قوياً حتى المصب . ومثل هذا الانسياب رغم العراقيل صورة لفترات عديدة من تاريخ القبط الطويل : فقد كان لهم فى هذه الفترات قادة روحيون حملوا الشعلة وساروا بها بقدم ثابتة ، فتبعوهم فى ثقة وحبور . وقد تخللت هذه الفترات التى انسابت فيها حياتهم انسياباً فترات من البؤس والشقاء أشبه بالجزء المليء بالصخور من مجرى النهر . تلك كانت حياة القبط فى القرن الثامن : حياة مليئة بالاضطرابات والمخاوف إذ اعترضت مجرى حياتهم صخور من العسف والاستبداد . ذلك لأن باباوات الاسكندرية أصّروا على التمسك بايمانهم الأرثوذكسى الرسولى ، فسار وراءهم الاكليروس والشعب فى ثقة وولاء . فتحتم عليهم – نظير هذا الولاء أن يؤدوا الثمن بالمال أو النكال أو الاستشهاد . ومع أن الأنبا ثيئودورس ومعاصريه من الأساقفة قد استمتعوا بفترات من السلام والاستقرار ، إلا أنهم قضوا شطراً من حياتهم مدافعين عن الايمان الأرثوذكسى راضين بدفع الثمن غالياً .

٤٤٢– ومن الأبطال الذين آزروا البابا ثيئودورس فى هذا الدفاع المجيد الأنبا مويسيس أسقف أوسيم الذى عاصره وامتد به الأجل فعاصر خليفته أيضاً.

وقد كان لأسقفية أوسيم تاريخ يرجع إلى زمن بعيد إذ كان أسقفها

هيلانيكوس بين الذين استشهدوا أيام الامبراطور الطاغية ديوقلديانوس . وبرغم بعد الشقة – التى تناهز خمسة قرون – كان الأنبا مويسيس خير خلف لسلفه الشهيد الأسقف هيلانيكوس . فقد أحصى المؤرخون الأنبا مويسيس بين الشهداء ولو لم تسفك دماؤه – فكان شهيداً بغير سفك دم لمواقفه الباسلة فى وجه الاضطهاد .

٤٤٣– ولد الأنبا مويسيس من أبوين مسيحيين ملآه اعتزازاً بالكمال المسيحى منذ نعومة أظفاره . فلما بلغ أشده زهد فى العالم ومباهجه واعتنق الحياة الرهبانية . وقد لاقت رغبته هذه من أبوية اغتباطاً وسروراً بعكس غيرهم من الآباء والأمهات الذين كانوا أحياناً حجر عثرة فى سبيل تنسك أبنائهم . وقد بدت رغبته فى الاغتراف من مناهل العلم منذ صغره . فلم يلبث أن رسم شماساً قبل رحيله إلى الدير . ثم انتظم فى سلك الرهبنة وتتلمذ لأحد شيوخ البرية مدى ثمانى عشرة سنة تشبع خلالها بالفضائل النسكية التى تجمل بها معلمه ، ولا سيما فضائل التواضع والمحبة وضبط النفس . فذاع صيته العطر فى أنحاء البلاد المصرية .

وبعد أن أمضى مويسيس هذه السنوات الثمانى عشرة فى خدمة أبيه الروحى ، ترملت أسقفية أوسيم فاتجهت إليه الأنظار . وفى الحال قصد اكليروس هذه الايبارشية وأراخنتها إلى الدير حيث يقيم هذا الراهب واقتادوه إلى الكنيسة المرقسية . وهناك أقيمت المراسيم الدينية فى روعتها وجلالها .

ولقد فاضت النعمة الالهية على الأنبا مويسيس فزادته قوة حتى بدا كأن قواه الروحية تتضاعف بقدر ما تتضاءل قواه الجسمية . كذلك وهبه الله تعالى موهبة الشفاء والقدرة على معرفة الأمور قبل وقوعها . فكانت كنيسته ملجأ لجميع قاصديه : المسيحيين منهم والمسلمين على السواء . فأحبه الجميع وأخلصوا له . وقد كانت المحبة الدافقة التى أولاه اياها الشعب درعاً له فى ذوده عن الايمان ، فازداد قوة ، وصمد فى وجه كل ما صادفه من اضطهاد .

٤٤٤– وكان لفرط حبه للناس يجتذب إليه الجماهير الذين منحوه ولاءهم الخالص . ولما كانت هذه القوى غير المنظورة – قوى المحبة والولاء – تفعل

فعلها السحرى رغم أنها غير مرئية ، فقد ملأت القلوب جرأة وثباتاً فزادت الأنبا مويسيس اقداماً وزادت الشعب ايماناً ورضى بالاضطهاد .

ولقد امتلأ قلب الأنبا مويسيس غبطة وحبوراً لما رآه فى الشعب من ولاء للايمان الأرثوذكسى ، فعاش ما يزيد على قرن من الزمان رغم ما تحمله من ضرب وجلد وسجن (١) . وحين كان المؤمنون يشاهدون قوة احتماله رغم ضعف جسمه ، كانوا يزدادون حماسةً للايمان . فكانت حياته أشبه بالشمعة المنيرة التى تأخذ فى الاحتراق تدريجياً حتى تنتهى ، وهى فى احتراقها تنير السبيل أمام الآخرين . وبما أنه بلغ شيخوخة حسنة فإن نوره ملأ الوادى الرحيب ضياء . ومازال هذا النور الروحى يسطع أمام كل من يطالع سيرته القدسية إذ يتجلى خلالها كفاحه المتواصل ذوداً عن الشعب ودفاعاً عن الايمان (٢) .



---

(١) الصادق الأمين للراهبين فيلوثيئوس وميخائيل من دير الأنبا مكارى الكبير جـ٢ ص٢٨٩ – ٢٩٠ ، السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٤ ص١٢٠٤ – ١٢٠٥ .

(٢) وردت تفاصيل هذا الكفاح فى سيرة الأنبا ميخائيل الأول (البابا الاسكندرى الـ٤٦) .

البركان يفور

(٤٤٥) فترة حالكة .
(٤٤٦) الأديرة منارة ساطعة وسط الظلام .
(٤٤٧) تبدل الوالى والاجتماع للتداول فى انتخاب البابا الاسكندرى .
(٤٤٨) التشاور عشرة أيام دون جدوى .
(٤٤٩) حضور الأنبا مويسيس ومناداته بالصوم والصلاة .
(٤٥٠) الاجماع على انتخاب الراهب ميخائيل من دير الأنبا مكارى الكبير .
(٤٥١) تجلى العناية الالهية فى انتخاب هذا الراهب .
(٤٥٢) الذهاب إلى الاسكندرية لرسامته خليفة لمارمرقس .
(٤٥٣) فوضى واضطهاد .
(٤٥٤) مروان يتقلد الخلافة والخلقيدونيون يتلاعبون .
(٤٥٥) النزاع حول ملكية كنيسة مارمينا .
(٤٥٦) شدة وضيق بعد فترة السلام .
(٤٥٧) السجن الذى ألقى فيه البابا الاسكندرى .
(٤٥٨) رجل مؤمن يجلس على مائدة الملك .
(٤٥٩) رحلة الأنبا ميخائيل إلى الصعيد .
(٤٦٠) حدوث زلزال يوم أن عاد الأنبا ميخائيل .
(٤٦١) محاربة ملك النوبة لمصر .
(٤٦٢) تحول قلب عبد الملك بن مروان إلى الأنبا ميخائيل .
(٤٦٣) شخصية الأنبا ميخائيل .
(٤٦٤) ثورة القبط ثم هزيمتهم .
(٤٦٥) نار الحرب والثورة تندلع في كافة البلاد .
(٤٦٦) القاء الأنبا ميخائيل فى السجن مرة ثانية .
(٤٦٧) اقتراب جند أبى مسلم ووضع الأنبا ميخائيل تحت الحراسة .
(٤٦٨) أمر مروان باشعال النار فى الفسطاط .
(٤٦٩) اضطراد زحف العباسيين واصرار مروان على اعتقال البابا المرقسى .
(٤٧٠) أحد رجال البلاط يستثير حفيظة مروان ضد هذا البابا الجليل .
(٤٧١) شفاعة ابن مروان فى البابا المرقسى وصحبه .
(٤٧٢) ابن قسطس وعنايته بالأنبا ميخائيل .
(٤٧٣) جند مروان يمعنون فى القتل والسلب .

٤٤٥- كانت فترة السلام التى سادت مصر عند تولى القاسم بن عبيد الله الحكم قصيرة الأمد . ذلك أن هذا الوالى استهل حكمه بالمسالمة ولكنه لم يلبث أن نسى الرفق واللين واندفع فى سياسة العنف والقوة متناسياً نصيحة الخليفة هشام . على أن قسوته لم تظهر إلا بعد نياحة الأنبا ثيئودورس ، إذ قد شاء المولى تعالى أن يضم هذا البابا الجليل إلى داره الأبدى قبل أن يتمادى القاسم فى استبداده . فكانت مصر بعد نياحة الخليفة المرقسى فريسة لقوىً ثلاثة أحلاها علقم : هى القحط والوباء وبطش القاسم . فإن هذا الوالى لم يرحم الشعب المسكين الذى استبد به الوباء وضيّق عليه القحط الخناق فتشدد فى المطالبة بالجزية إلى حد أنه كان يحكم بالجلد علناً على كل من لا يؤدى المال المفروض عليه .

وفى تلك الفترة المليئة بالأهوال لم يتمكن الأساقفة والأراخنة من الاجتماع للتشاور فى من يخلف الأنبا ثيئودورس على السدة المرقسية ، وذلك

لعدم توافر الأمان اللازم للاجتماع والتشاور . فكان كل مسئولٍ منهم منشغلاً بالعناية بشعبه الجريح المضطرب .

٤٤٦- ومن مظاهر عناية الآب السماوية بكنيسته أنه على الرغم من كل هذه البلايا فقد ظلت الأديرة مليئة برجال الله القديسين الذين كرّسوا حياتهم للضراعة من أجل أخوتهم المعذبين فى العالم .

وكان الدير الذى يحمل اسم السيدة العذراء فى منطقة تنيس احدى هذه المنارات الساطعة ، وفيه عاش رهبان تجملوا بالفضائل المسيحية ومن بينهم الناسك ابيماخوس الذى بدأ حياته الرهبانية فى دير الأنبا مكارى الكبير والذى استحق أن ينال كرامة الأسقفية بعد ذلك . وقد عاش فى هذا الدير أيضًا الأنبا مينا الذى اختير لأسقفية ممفيس وأخوه فى الرهبنة القس يعقوب وغيرهما من الرهبان الصالحين .

٤٤٧- ووسط هذه الفترة الحالكة ظلت السدة المرقسية شاغرة . وبعد انقضاء ما يقرب من ثلاث سنين رأى الثيئودوسيون (١) أن يجتمعوا ويتشاوروا لكى يرشدهم الله إلى الربان اليقظ الذى يمسك بدفة الكنيسة ويجمع كلمة المؤمنين . فتقابلوا وقصدوا إلى دار الولاية ليبلغوا القاسم رغبتهم فى انتخاب راعيهم الأول . ولكنهم – حين وصلوها – لم يجدوه وعلموا أن الخليفة قد استدعاه على عجل مما اضطره إلى مغادرة الفسطاط فى حراسة الجند الذين اقتادوه إلى الخليفة . فلم يشأ الأساقفة والأراخنة أن يضيعوا وقتًا أكثر مما ضاع وجدّوا السير فى أثر القاسم ولحقوا به فى مدينة بلبيس وأعلموه بالسبب الذى جاءوا من أجله . والعجيب أن القاسم – مع كونه تحت حراسة الجند ومع علمه بأنه مغضوب عليه من الخليفة – ظل على تعسّفه ، فرفض أن يسمح للأساقفة والأراخنة باجراء الانتخاب . وعندها التفت الأنبا ثيئودورس أسقف بابلون إلى الأنبا مويسيس أسقف أوسيم وقال له : « تأمل يا أبى سلوك هذا القاسم والشر الذى يلازمه والذى زاد على كل ما رأينا وما سمعنا » . أجابه

---

(١) نسبة إلى الأنبا ثيئودوسيوس البابا الاسكندرى الـ٣٣ – أنظر ص١٢٢ – ١٣٣ .

الأنبا مويسيس : « أغفر لى يا أبى لأنه إن عاد القاسم مصر ثانية فلا يكون اللّه تعالى قد تحدث على فمى أنا الخاطئ » .

ولقد تحققت كلمات هذا الأسقف القديس إذ انتهى الأمر بخلع القاسم وتعيين حفص بن الوليد مكانه . ولما وصل الوالى الجديد إلى مصر قابله الأساقفة والأراخنة ورجوا منه أن يأذن لهم بالاجتماع للتشاور فمنحهم الاذن لساعته .

٤٤٨- وفرحوا بهذا التصريح المباشر فذهبوا على الفور إلى كنيسة الأنبا شنودة ببابلون حيث صلوا ثم جلسوا فى صمت وبعد فترة قصيرة التفت أسقف اتمى إلى أسقف الفيوم وسأله : « ما رأيك يا أبى فى الموضوع الذى اجتمعنا بسببه ؟ » أجابه : « المرء فى التفكير والرب فى التدبير . وإنى لواثق تماماً بأن اللّه تعالى سيلهمنا اختيار الصالح من الرهبان . وأن القديس مرقس نفسه سيشترك معنا فى الانتخاب » . وحين سمع المجتمعون هذه الكلمات استبشروا خيراً وقالوا بصوت واحد : « ليصنع ربنا والهنا ومخلصنا يسوع المسيح ارادته فينا » . ثم قرروا الانصراف على أن يعودوا للاجتماع فى اليوم التالى . واستمروا عشرة أيام يجتمعون ويصلون ثم ينصرفون بسلام دون الوصول إلى نتيجة .

وفى اليوم الحادى عشر اقترح بعض المجتمعين اسم راهب لم يوافق عليه البعض الآخر . فأخذوا يتبادلون النقاش حول صلاحية الراهب المقترح ثم احتدم الجدال دون أن يقتنع فريق برأى الآخر . وبدا كأنهم سينصرفون كما فعلوا فى الأيام السابقة من غير أن يصلوا إلى غايتهم المنشودة وكأن اجتماعاتهم لا تستهدف غير الجدل ! وعندها قال واحد من الجمع : إن لم يحضر اجتماعنا أسقفا أوسيم وترنوط فلن نصل إلى حل صحيح لموضوعنا .

٤٤٩- وكان الأنبا مويسيس شيخاً إذ ذاك . ولم تكن السنون وحدها هى المسئولة عن ضعفه بل كان المرض حليفها أيضاً ، فرأى أن يقضى بضعة أيام فى دير نهيا للاستشفاء . فلما جاءه رسل المؤمنين المجتمعين فى كنيسة الأنبا شنودة رأى أن يتحامل على نفسه ويلبى الدعوة لأهمية الموضوع . ولكنه

لمرضه لم يستطع أن يعتلى ظهر الدابة التى أحضروها له . فأحضر له بعض أبنائه نقّالة وضعوا عليها مرتبة سميكة تقيه الألم . فاستلقى عليها ثم حملوه إلى بابلون إلى كنيسة الأنبا شنودة . وحين وصل الأنبا مويسيس وجلس فى صدر الكنيسة وجد أن الجدال احتدم بين المجتمعين فقال لهم : « إننا لن نصل إلى حلٍ يرضى الجميع إلا بالصوم والصلاة فى عزم وحرارة لذلك أرى أن تنصرفوا الآن . وحالما يصل كل منكم إلى بيته ينقطع للصوم والصلاة مدى الأربع وعشرين ساعة التالية . وغداً نعود جميعاً إلى هذا المكان المقدس فى مثل هذه الساعة . وآمل أن يكون الله تعالى قد ألهمنا النتيجة الصحيحة استجابة لضراعتنا » . فحسن هذا القول فى أعين الجميع وانصرفوا بسلام .

٤٥٠- وفى الليلة المكرسة للصلاة تنبه أحد شمامسة الأنبا مويسيس من نومه ، واقترب من فراش هذا الأسقف العظيم فوجده صاحياً فقال له : « أغفر لى يا أبى . فقد أوحى إلىّ ملاك الرب أن أخبرك بأن الراهب المستحق لهذه الكرامة العظمى هو ميخائيل المتنسك بدير الأنبا مكارى الكبير » . أجابه الأنبا مويسيس على الفور : «حقاً إن ملاك الرب هو الذى أوحى إليك بهذا الاقتراح لأننى أعرف هذا الراهب وأعرف ما تجمل به من مزايا » .

وفى اليوم التالى اجتمع الأساقفة والأراخنة فى كنيسة سرجيوس واخس (١). ولما اكتمل جمعهم قام أحدهم واقترح اسم الراهب ميخائيل قبل أن يعرف ما دار بين الأنبا مويسيس وشماسه . فلما تردد اسم هذا الراهب من فم إلى فم وقف الأنبا مويسيس وأعلن للجميع ما رآه شماسه فى الليلة السابقة . وعندها هتف الجميع « أكسيوس » ثلاث مرات . وفى الحال انتدبوا بعضاً منهم لمقابلة حفص الوالى والاستئذان منه فى الذهاب إلى برية شيهيت ومنها إلى الاسكندرية لاجراء المراسيم الكنسية التقليدية . فمنحهم هذا الوالى التصريح على الفور ، فخرجوا من داره قاصدين إلى برية شيهيت لساعتهم .

٤٥١- وبينما كان الأساقفة والأراخنة يتشاورون فى أمر الانتخاب ، كان

---

(١) هى الكنيسة الشهيرة باسم « أبى سرجة » من الكنائس الأثرية ببابلون (مصر عتيقة) .

رؤساء الأديرة والرهبان يتشاورون فى أمر الجزية الباهظة التى كان القاسم قد فرضها عليهم . فرأوا أن خير وسيلة هى أن ينتدبوا بعضاً منهم ليذهبوا ويقابلوا حفص بن الوليد الوالى الجديد ، ويتظلموا إليه . وبالفعل اختاروا مندوبيهم – وكان بينهم الراهب ميخائيل الذى كان قد وقع عليه الاختيار ليجلس على الكرسى المرقسى الشاغر . وحدث أنه فى اللحظة التى همّ وفد الرهبان فيها بالخروج من الدير أن التقى بالوفد الآتى من الفسطاط ليستصحب الراهب ميخائيل إلى الاسكندرية . وقد فرح مندوبو الأساقفة والأراخنة حينما وجدوا مختارهم بين نواب الرهبان . ومن ثم سار الوفدان معًا إلى الفسطاط وهم يترنمونِ بالمزامير والتسابيح الكنسية المناسبة . ولما وصلوا إلى دار الولاية وقابلوا حفصا أعلموه بما جرى . فتفرس فى الراهب ميخائيل بضع دقائق ثم قال : « حقًا إن هذا الرجل اختاره الله تعالى ليرعاكم ، فخذوه واذهبوا به بسلام » .

٤٥٢– وفى اليوم التالى ركب الجميع مركباً قاصدين إلى الاسكندرية . وبينما كانت المركب تنساب فوق مياه النيل ، كان الشعب يخرج فى جموع متلاحقة على شاطئيه لتحية المختار للسدة المرقسية . بل لقد اضطر قبطان المركب إلى ايقافها أكثر من مرة ليمكن الجماهير من تأدية تحيتهم حسب ما يرغبون . وقد انتهز بعض المؤمنين فرصة رسو المركب لينزلوا فى أوسيم طلباً للأنبا مويسيس الذى كان قد عاد إلى مقر رياسته حالما استقر الرأى على انتخاب الراهب ميخائيل . وكان لهم قريب مصاباً بداء الفالج مدة خمسة عشر عامًا . فحملوه إلى الأسقف القديس . وحين اقتربوا من رجل الله صرخ المريض : « أرسم علىّ علامة الصليب يا أبى مويسيس . ارسمها فقط وأنا أؤمن أنى سأشفى » . وعندها رسم الأنبا مويسيس علامة الصليب على رأس المريض ثم نفخ فى وجهه فقام لساعته ومشى ، وأخذ يسبّح الله الذى يمنح قديسيه المقدرة على اجراء الآيات والعجائب .

ثم انضم الأنبا مويسيس إلى الركب البابوى ، وساروا إلى الاسكندرية . فقابلهم الشعب هناك فى جموع متدفقة وعلى رأسهم الكهنة والشمامسة وقد

حملوا الأناجيل والشموع والمباخر والصلبان ، واتجهوا جميعاً فى موكب رائع نحو الكنيسة المرقسية . وما كاد الموكب يخطو بضع خطوات حتى انهمر المطر مدراراً. وكانت قد انقضت سنتان لم ينزل خلالهما إلا القدر الضئيل من المطر . فتهلل الشعب لهذه الظاهرة إذ عدها علامة الرضى من رب الكنيسة على الراهب المختار . فازداد التهليل ، وارتفع الهتاف . ولما وصلوا الكنيسة قام الأساقفة برسامة الراهب ميخائيل ، فأصبح الخليفة السادس والأربعين لرسول المسيحية فى ديارنا المصرية سنة ٧٣٥م (سنة ٤٥١ش) .

٤٥٣- ولقد كانت السنة الأولى لباباوية الأنبا ميخائيل الأول مليئة بالعسف والضيق . ذلك أن اسامة بن يزيد متولى الخراج فرض ضرائب باهظة على المصريين وضاعفها على القبط . وبين الأمثلة على مغالاته فى ابتزاز أموال الشعب المسكين أنه فرض ضريبة مقدارها عشر دنانير على كل من يتنقل من بلد إلى آخر عن طريق النيل . وكان عاتياً فى الاستيلاء على الضرائب إلى حد أن أرملة كانت مسافرة فى مركب ذات يوم ومعها ابنها . وحدث أن أراد ابنها هذا أن يستقى ماءً من النيل ، فخطفه تمساح على مشهد من جميع الركاب دون أن يستطيع أحدهم انقاذه . وكانت التذكرة التى تثبت أنها دفعت الضريبة فى جيب ابنها ساعة أن خطفه التمساح . فلما وصلت إلى البلد الذى تقصد إليه طالبها أعوان اسامة بن يزيد بالضريبة . وعبثاً حاولت أن تقنعهم بأنها دفعتها إذ قد أصروا على أخذ المبلغ منها ، غير مبالين بحزنها على فقد ولدها وبفقرها الذى اضطرت معه إلى بيع شئ مما عندها لتدفع الضريبة المفروضة مرة ثانية . وكان هذا التعسف فى الاستيلاء على المال بدعوى أنه ضريبة واجبة الأداء سبباً فى أن ينسى بعض القبط ولاءهم لمسيحيتهم . فأنكروها ليفوزوا بالاعفاء من دفع المال الذى حتمه عليهم اسامة بن يزيد (١) . وقد امتلأ قلب الأنبا ميخائيل الأول حزناً وغماً حينما واجه هذه الخيانة من هؤلاء الأبناء الجاحدين ، فلم يجد أمامه وسيلة للمحافظة على شعبه غير الصلاة . وعلى ذلك قصد هو وبعض الأساقفة إلى برية شيهيت حيث

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص٧٠ - ٧١ .

انقطعوا للصوم والصلاة ضارعين إلى الآب السماوى أن يتدارك المؤمنين بمراحمه ويرفع عنهم الجور والاستبداد . فاستجاب الله تعالى لهذه الضراعة الحارة ، وهيأ الفرج إذ قد وصل الأمر من الخليفة مروان الثانى برفع يد اسامة وبتعيين حسّان مكانه . وقد امتاز حسان هذا بالحكمة حتى أن معاصريه شبهوه بالملك سليمان بن داود . وقد بدت هذه الحكمة فى خطة العطف واللين التى اتبعها مع المصريين . فتهلل قلب الأنبا ميخائيل الأول لذلك ، وبادله الزيارات . وامتلأ قلب حسان اعجاباً بالبابا الاسكندرى إلى حد جعله يتخذه مستشاراً له . ولما كان الأنبا مويسيس من الملازمين للأنبا ميخائيل الأول ، فقد توطدت بين الوالى حسان وبين هذا الأسقف القديس أواصر الصداقة . وقد سعد الجميع بهذه الألفة التى ربطت بينهم . فقصد حسان إلى أوسيم حيث قضى ثلاث سنين ليكون على مقربة من الأنبا مويسيس ويستشيره فى جلائل الأمور ويسترشد بآرائه فى ادارة شئون البلاد .

وفى هذه الفترة التى تنفس فيها المصريون الصعداء ازدادت حدة التوتر بين الأمراء لتزايد المنافسة بينهم فوجد الخليفة نفسه عاجزاً عن حفظ النظام واضطر إلى فرض سلطته بحد السيف . ثم استتب الأمر فى النهاية لمروان ، على أنه لم يجد من وسيلة للاحتفاظ بمركزه غير القوة فاستبدّ بالأمراء والولاة قبل أن يستبدّ بالشعوب .

٤٥٤- وقد عاود الخلقيدونيون مؤامراتهم فى تلك الأثناء فقدموا هدايا نفيسة من الذهب والفضة والحديد للخليفة ونجحوا فى اقامة أسقف لهم على الاسكندرية . ولما فازوا بهذا النصر رفعوا طلباً إلى مروان أدعوا فيه بأن كنيسة مارمينا بمريوط ملك لهم لا للقبط . غير أن هذا الطلب الثانى لم يلق الترحيب الذى قوبلت به رسامة الأسقف لأن هذا الخليفة أمرهم بالمثول بين يديه فى حضرة الأنبا ميخائيل الأول ليعلن كل من الطرفين ما لديه من الحجج التى تثبت حقه فى ملكية هذه الكنيسة .

٤٥٥- وما أن عرف البابا الاسكندرى رغبة الخليفة حتى غادر الاسكندرية على الفور واستقل مركباً إلى الفسطاط . ولما وصل إلى أوسيم

انضم إليه أسقفها الأنبا مويسيس يصحبه عدد من الكهنة والأراخنة . ثم استقبل الأنبا ثيئودورس أسقف بابلون الركب البابوى عند وصوله إلى الفسطاط . وذهب الجميع معاً إلى دار الخلافة حيث تناقشوا مع الخلقيدونيين فى حضرة الخليفة مروان . وبعد نقاش دام عدة أيام طلب الخليفة إلى كل من الفريقين أن يقدم مستنداته كتابة . وعلى أثر ذلك عقد الأنبا ميخائيل الأول مجمعاً من أساقفة الكرازة المرقسية وأراخنتها . وبعد أن تداولوا معاً كتب البابا الاسكندرى رسالةً مملوءة نعمة وحكمة قال فيها : « من ميخائيل – بنعمة الله أسقف الاسكندرية وبابا للشعب الثيئودوسى ، إلى أولى الأمر – أنه فى عهد الأميرين التقيين هونوريوس وأركاديوس ، وفى أثناء باباوية الأنبا ثيئوفيلس البابا الاسكندرى الثالث والعشرين ، قد بدئ بتشييد كنيسة الشهيد مارمينا العجائبى . لأن هذا البابا الجليل كان ولوعاً بالفن المعمارى شغوفًا باقامة بيوت العبادة ليهيئ للناس أسباب التقرب إلى الله تعالى . فبدأ فى بناء هذه الكنيسة ، وأتم بناءها الأنبا تيموثيئوس الثانى البابا الاسكندرى السادس والعشرون فى عهد الامبراطور زينون الذى حاول أن يكفر عن سيئات سلفه الامبراطور مرقيانوس باغداق العطايا على الأديرة والكنائس . وكان مرقيانوس هذا قد أمر بعقد مجمع خلقيدون وتجنى فيه على الأنبا ديسقورس البابا الاسكندرى الخامس والعشرين ، وأمر بنفيه ، ثم أمعن فى تعذيب الشعب القبطى المخلص لعقيدته الأرثوذكسية ولباباه البطل المنفى المفترى عليه . ومذاك حاول الخلقيدونيون أن يبطشوا بالقبط بكل وسيلة ، واستمر بطشهم بنا إلى أن آل الملك إلى العرب بعد سقوط الامبراطورية البيزنطية سنة ٦٤١م . وإننا – حتى هذه الساعة – نصرّ على عدم الاعتراف بمجمع خلقيدون ونجهر ببطلان قراراته ، كما نؤكد ثقتنا فى الأنبا ديسقورس الذى تحمل النفى والتشريد دون أن يتزحزح عن ايمانه الأرثوذكسى قيد أنملة » .

أما الخلقيدونيون فكتبوا مذكرة موجزة . ثم قدم كل من الطرفين رسالته إلى عيسى رئيس الديوان الذى كان منوطاً به النظر فى أمر هذا النزاع . على أن هذا الرئيس ألقى بالرسالتين فى الدرج ولم يعط جوابًا مدة شهر كامل . وبازاء هذا التلكؤ أخذ بعض القبط يتساءلون عن السبب ، وخامرهم الشك فى

أن عيسى رئيس الديوان قد عطل الحكم فى هذا الموضوع ليأخذ رشوة . وحين ساورتهم هذه الشكوك اعترفوا بها للأنبا مويسيس ، فأجابهم هذا الأسقف القديس قائلاً : « ليس من اللائق أن يتقدم مثلنا برشوة . ونحن لم نضطر إلى الانتظار عشرة سنين ، ولا حتى سنة ، كما اضطر آباؤنا فى مختلف المناسبات ، فنحن نعيش فى بيوتنا ونصلى فى كنائسنا ، وليس بيننا من اضطره الظلم إلى الهرب أو إلى الصلاة فى رحاب الصحراء . فلنصبر إذن ، ولننتظر ، لأن الله تعالى لن يتركنا ولن يتخلى عنا » .

ولقد استجاب الآب السماوى لثقة الأنبا مويسيس فى الأسبوع عينه ، إذ قد أصدر الخليفة مروان الأمر بعزل عيسى من الديوان وتعيين أبى الحسين مكانه. وكان أبو الحسين هذا ابناً لقاضٍ من كبار القضاة ، كما كان عادلاً حكيماً . فاستهل عمله بقراءة التقريرين المرفوعين من القبط والخلقيدونيين . وبعد أن قرأهما اطلع الوالى عليهما واتفق كلاهما على أحقية القبط بملكية الكنيسة . وعندها خرج أبو الحسين من دار الولاية وأرسل فى طلب الطرفين المتنازعين وما أن مثل الجميع بين يديه حتى التفت إلى الخلقيدونى الدخيل وقال له : « إن تقريرك يثبت أن لا إله لك ولا دين ، وأن الكنيسة ملك القبط فإن شئت فأكتب تقريراً ثانياً » . فلما أحسوا الخلقيدونيون بأن قضيتهم خاسرة بعثوا إلى الأنبا ميخائيل الأول والأنبا مويسيس وبقية الأساقفة الأرثوذكسيين طالبين الانضمام إلى الكنيسة القبطية . على أن البابا الاسكندرى رأى أن يمتحنهم أولاً، ووافقه الأنبا مويسيس على رأيه وبعد مداولات ثبت للمجمع الاسكندرى أن هؤلاء الخلقيدونيين منافقون لا يبغون غير الاستيلاء على كنيسة مارمينا ، فرفض طلبهم .

وحدث بعد ذلك بأيام أن أرسل أبو الحسين فى طلب القبط والخلقيدونيين مرة ثانية ليفصل فى أمر النزاع القائم حول كنيسة مارمينا . فجاء إليه الأنبا ميخائيل الأول بنفسه يصحبه عدد من الأساقفة . فلما استقر بهم المقام التفت أبو الحسين إلى البابا المرقسى وقال له : « أتقسم بالله العلى أن هذه الكنيسة ملك لك ولآبائك من قبلك ؟ » أجابه رجل الله على الفور : « إن دينى ينهانى

عن القسم ويأمرني أن أقول الصدق مهما كلفني قوله » . فالتفت القاضي إذ ذاك إلى الخلقيدوني الدخيل وسأله : « أتقسم بأن الكنيسة ملك لك ؟ » أجابه بلا تردد : « نعم . إني على أتم استعداد لأن أقسم» . وما كاد أبو الحسين يسمع هذه الكلمات حتى هز رأسه ساخراً ثم وجه الخطاب إلى الأنبا ميخائيل الأول قائلاً : « أين شهودك ؟ » أجابه البابا المرقسي : « لقد شيد الأنبا ثيئوفيلس هذه الكنيسة وزينها باثني عشر عاموداً نقش اسمه على كل عامود منها . ثم أكمل الأنبا تيموثيئوس البناء ونقش اسمه على احدى جدرانه . فشهودي لديك هم أسلافي الأماجد » . فلما سمع أبو الحسين هذه الكلمات بعث برسله فوراً إلى كنيسة مارمينا ليتحققوا مما قاله البابا الاسكندري الجليل . فلم يلبث هؤلاء الرسل أن عادوا وأقروا بصحة أقوال هذا البابا الوقور أمام أبي الحسين والمجتمعين معه . فما كان من هذا القاضي المنصف إلا أن أمر بتسليم كنيسة مارمينا للأنبا ميخائيل الأول مهنئاً إياه على تمسكه بالحق . فخرج هو وصحبه من دار الولاية معززين مكرمين (١) .

٤٥٦– ولكن فترة السلام كانت قصيرة الأمد ، لأن الأمراء عاودوا منافساتهم ، إذ كان كل واحد منهم يتنازع مع غيره أملاً في أن يظفر بالخلافة . على أن مروان ظل قابضاً على صولجان الحكم عن طريق الفتك والارهاب . وأصدر أمراً إلى واليه في مصر بمضاعفة الضرائب والتشدد في جبايتها ، توهماً منه أن مثل هذا الاستبداد يضعف من عزيمة المصريين فيمنعهم من القيام بثورة عليه . وقد غالى الوالي في تنفيذ أوامر مروان فطالب القبط بدفع مبالغ باهظة . ولما لم يستطع الأنبا ميخائيل الأول أن يدفعها أمر الوالي بالقائه في السجن ، ووضع طوق من حديد حول عنقه ، وربط كتلةً ثقيلة من الخشب إلى كل من قدميه . كذلك أمر الوالي بطرح الأنبا مويسيس أسقف أوسيم والأنبا ثيئودورس أسقف بابلون وايلياس تلميذ الأنبا مويسيس في السجن ، ولو أنه لم يكبلهم بالحديد والخشب كما فعل بالأنبا ميخائيل الأول .

---

(١) تاريخ البطاركة – مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعي البرموسي عن النسخة المحفوظة بديره ص١٤٦ – ١٥٢ .

٤٥٧– وكان السجن الذى ألقى فيه البابا الاسكندرى وصحبه مغارة منحوتة فى صخرة ، وليس بها فتحة واحدة تسمح ببصيص من النور أو نفحة من الهواء ومع أن هذه المغارة كانت عديمة النور والهواء إلا أن الوالى رمى فيها بعدد غير قليل من الناس . وحين علم بعض المسجونين بأن الخليفة المرقسى سجين معهم أنبهم ضميرهم وامتلأوا ندماً فاستعطفوه أن يصلى من أجلهم ويحلهم من خطاياهم . وقد امتلأ قلب رجل الله عطفاً وحناناً على هؤلاء البائسين النادمين ، فأخذ يكلمهم فى رقةٍ وعذوبة . وبعد أن عزّى قلوبهم الكسيرة منحهم بركته (١) .

أما الأسقفان المسجونان مع البابا المرقسى فقد كرسا وقتهما فى السجن لخدمة باباهم الصبور . ولم يستطع أحدهم أن يغير ملابسه مدى سبعة عشر يوماً . ومع أنهما لم يكبّلا بالقيود إلا أنهما كانا يحسّان بثقل هذه القيود كأنهما مقيدان مع باباهما .

٤٥٨– وحدث أن عُين رجل مؤمن مشرفًا على مائدة الملك ، واستطاع أن يحظى برضاه فانتهز هذه الفرصة ليتشفع فى البابا السجين ، ونال الاذن فى أن يزوره ويحضر له ما يحتاج من طعام وملابس (٢) .

٤٥٩– وبعد انقضاء شهر من الزمان ، والأنبا ميخائيل الأول وزملاءه مطروحين فى هذه المغارة الضيقة الحالكة الظلام ، استحضرهم الوالى وطالبهم بدفع الجزية المفروضة عليهم . فأجابه الخليفة المرقسى : « إننى لا أملك شيئاً ، فإن كان لابد من دفعها فاسمحوا لى بأن أطوف الصعيد لأجمع

---

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين (طبعة ايفيتس) جـ٣ ص١٣٤ – ١٣٦ .

(٢) مخطوط رقم ٢٨٧ تاريخ كنسى ، غير كامل ، محفوظ بالمكتبة الأهية بباريس ، ورد على ص II (105) النص التالى : « ... واعتقل البطريرك ووضع فى عنقه طوق حديد وألقى فى السجن شهراً كاملاً ومعه ثلاثمائة رجل ونساء أيضاً وكان المرضى يأتون إلى باب السجن فيبارك عليهم البطريرك فيبرأون حتى المسلمين والبربر منهم وكان على مائدة الملك رجل مؤمن خير يهتم بالآب البطرك ويفتقدنا ويجيب لنا فى السجن ما نحتاج إليه وكانت كورة مصر قد هلك أهلها من الظلم والخساير والخراج .

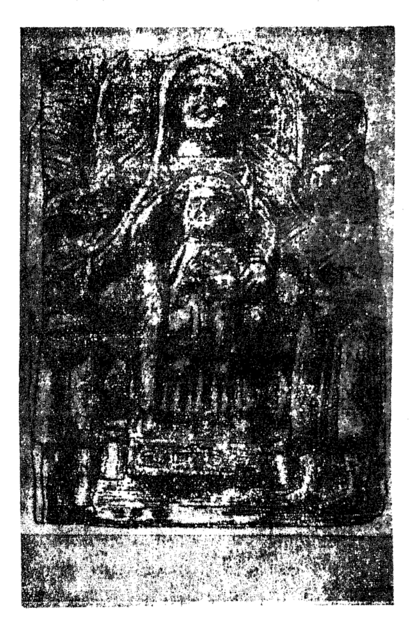
من أبنائي ما يمكنني جمعه ، . فحسن هذا الكلام في عيني الوالي ، ومن ثم استقل الأنبا ميخائيل الأول مركباً سارت به جنوباً . وكان كلما رست المركب في مكانٍ ما- ينزل البابا المرقسي ومن معه ويزورون الأهالي . وحينما سمع الشعب أن باباهم قادم إليهم هرعوا لاستقباله . وبعد أن يقضي معهم يوماً أو أكثر يتركهم للذهاب إلى بلد آخر . وقد أظهر القبط ولاءهم وتقديرهم لراعيهم الأول بأن قدموا له كل ما يمكنهم من مال . وحينما كانوا يسمعون أنه قضى ثلاثين يوماً في السجن مكبلاً بالقيود كانوا يزدادون اعجاباً به وقد أفاض الله نعمته على هذا البابا الصبور فمنحه قوة الشفاء . فكان يشفق على مرضى شعبه ويشفيهم بالنعمة الالهيـة المتدفقة خلالـه . وهكذا امتلأت قلوب أهل الصعيد بهجة وصفـاء .

٤٦٠- وقد عاد الأنبا ميخائيل الأول من رحلته في الحادي والعشرين من طوبة (٢٨ يناير) . وكان هذا اليوم الذي وصل فيه إلى الفسطاط يوم رعب وفزع (١) . فقد زلزلت الأرض زلزالاً عنيفاً أسقط عدداً وفيراً من البيوت كما أغرق عدداً من المراكب . وحينما واجه البابا المرقسي هذه الثورة الطبيعية المزعجة دعا شعبه إلى الصلاة . فتوجه الجميع إلى الله ضارعين إليه أن يقيهم شر هذه الطبيعة الساخطة التي لم تلبث أن هدأت . ويبدو أن الزلزال قد لين قلب الوالي فقبل المبلغ الذي قدمه إليه البابا الاسكندري دون أن يبدي شيئاً من التبرم . وما أن وجد الأنبا ميخائيل الأول نفسه حراً طليقاً حتى توجه إلى كنيسة أبي سرجة ببابلون حيث صلى القداس الالهي شكراً لله على جزيل نعمائه . وقد اشترك معه في الصلاة جمهور كبير من القبط تسبيحاً للخالق الرحيم الذي تراءف عليهم بأن حنن قلب الوالي .

٤٦١- وحدث - حين كان الأنبا ميخائيل الأول معتقلاً في السجن - أن بلغ قرياقوس ملك النوبة خبر هذا السجن فغضب غضبة مضَرية ، وجـرد جيشه ، وسار على رأسه إلى مصر . وتغلب على المصريين في الصعيد ،

---

(١) حدث زلزال سنة ٧٥٠م وأغلب الظن أنه هو الذي حدث في هذه الفترة .



السيدة العذراء وقد جلس المخلص على ركبتيها
نحت على الحجر يرجح أنه من مخلفات القرن التاسع

وتقدم نحو الفسطاط . وحين اقترب منها بعث بأحد رجاله إلى عبد الملك بن مروان يطلب إليه الافراج عن البابا الاسكندرى . على أن عبد الملك قبض على هذا الرسول الملكى وزج به فى السجن بدلاً من اطلاق سراح الأنبا ميخائيل الأول . فلما استبطأ الملك النوبى رسوله عاوده الغضب واستمر فى زحفه على الفسطاط . وكان النصر حليفه إذ قد تمكن من الوصول إلى البقعة التى كانت معروفة يومذاك ببركة الحبش فى ظاهر الفسطاط . وعندها خشى عبد الملك أن يدخل الملك قرياقوس عاصمته ، فأطلق سراح المندوب النوبى ثم رجا منه أن يشفع فيه لدى ملكه ويؤكد له أن الأنبا ميخائيل الأول لم يصبح حراً طليقاً فحسب بل أنه سيلقى كل تجلة واحترام . ورضى المندوب النوبى أن يتوسط عند الملك ، ولكن هذا الملك لم يقبل وساطة رسوله إذ تشكك فى حقيقة اطلاق سراح البابا الاسكندرى ، ولم يكف عن القتال إلا حين ذهب إليه هذا البابا الجليل بنفسه ، ورجا منه أن يعود إلى بلاده فى ثقة واطمئنان (١) .

٤٦٢- ولقد كان لوساطة الأنبا ميخائيل الأول أكبر الأثر فى نفس عبد الملك بن مروان إذ قد امتلأ قلبه حباً للبابا الاسكندرى وتقديراً له ، وبالتالى أحس بعطف كبير على المسيحيين . واعتاد بعد ذلك أن يزور الأنبا ميخائيل الأول وأساقفته ويستشيرهم فى جلائل الأمور .

٤٦٣-ولقد كان البابا ميخائيل الأول عذب الحديث ذا وجه باسم وضاء وقامة معتدلة ، هادئاً وقوراً . وكان تعليمه كالسيف القاطع للمبتدعين وكالملح لذوى الايمان المستقيم . وكانت يد الرب معه أينما سار وحيثما حل . وقد تهلل قلبه لما طرأ على عبد الملك من تغيير ، فقضى وقته فى تشييد الكنائس التى تهدمت وفى تثبيت القلوب التى وهنت (٢) .

---

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول طبعة لندن سنة ١٩٣٦ ص٢٧ ، تاريخ بطاركة الاسكندرية لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين جـ٣ ص١٤٤ - ١٤٥ ، مصر من مينا إلى فؤاد الأول (بالفرنسية) للآب دى هيلو ص٢٠٧ ، كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا لزاهر رياض ص١٦٦ .

(٢) تاريخ بطاركة الاسكندرية لساويرس بن المقفع ... جـ٣ ص١٤٨ .

٤٦٤- على أن السلام لم يدم أمده لأن الخليفة مروان أقام ابنه الثانى (المدعو مروان أيضاً) قائداً للجيش . وانتهز عامل الخراج الفرصة فضاعف الجزية على القبط وشدد عليهم الخناق إلى حد جعلهم يثورون عليه ثورة عارمة اتخذت شكل حرب نظامية . وكان قائد الجيش القبطى فى تلك الحرب يؤنس السمنودى . وقد دامت هذه الحرب عدة أيام انتهت بهزيمة القبط نتيجة لخيانة أحدهم (١) . فقد تملك الحسد قلب هذا الخائن فجاء إلى مروان بن مروان ليلاً وأعلمه بالمكان الذى أقيمت فيه خيمة يؤنس السمنودى . فسار جند مروان فى حلك الظلام خلف هذا الرجل الحسود إلى أن بلغوا خيمة القائد يؤنس ودخلوها خلسة وقتلوه وهو نائم . وما أن قتلوه حتى دقوا طبول النصر . فصحا الجند القبط ووجدوا جند مروان محيطين بهم من كل جانب ، وعلموا أن قائدهم قد قتل غدراً . ولكنهم - رغم هذا - لم يسلموا ، وظلوا يقاتلون إلى أن غلبوا على أمرهم نهائياً . فكانت المعركة فى هذه الليلة الأخيرة أشبه بمذبحة هائلة منها بحرب نظامية ، راح ضحيتها مئات الرجال من القبط حتى لم يخلو بيت من قتيل أو جريح أو سجين .

٤٦٥- وقد دارت رحى هذه الحرب الأهلية فى الآونة التى كانت الدولة الأموية على وشك أن تلفظ آخر أنفاسها . فقد قضى مروان على كرسى الخلافة سنين سبعاً : قضاها شاهراً السلاح فى وجه كل منافسيه . وكانت بوادر الثورة قد أخذت فى الظهور بعد انقضاء هذه السنين السبع . فانتهز امبراطور القسطنطينية - قسطنطين الخامس - فرصة تأجج نيران الثورة فى جميع أركان الدولة الأموية وزحف بجيشه على آسيا الصغرى . وهكذا أصبح مروان بين نارين نار الثورة التى أشعلها عليه قومه ونار الغزو من الامبراطورية القسطنطينية على الحدود الشمالية لسوريا (٢) . وفى هذه الفترة المليئة بالثورات

(١) تاريخ مصر الاسلامية لالياس الأيوبى طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٢ ص٩٦ ، القول الابريزى للعلامة المقريزى ص٥١ .

(٢) الخلافة : ازدهارها وانحلالها فسقوطها (بالانجليزية) للسير وليم موير طبع فى أدنبرج سنة ١٩١٥ ص٤٠٩ - ٤١٦ ، ٤٢٣ .

والقلاقل والأحزاب المتنافرة ظهر خصم جديد لم يكن فى الحسبان – فقد رفع أبو مسلم العلم الأسود الذى للعباسيين . وكان سياسياً لبقًا فتمكن من توحيد القبائل المتخاصمة تحت رايته . وسار على رأس هذه القبائل نحو الولايات الخاضعة للدولة الأموية ونجح أبو مسلم فى قهر الولايات الواحدة تلو الأخرى دون أن يحاول الخليفة مروان نجدتها . ثم بعث له أحد ولاته برسالة أبلغه فيها أنه جالس فوق بركان ثائر وختم رسالته هذه بقوله : « ترى أين هم بنو أمية ؟ أنيام هم أم مستيقظون ؟ » وقد حفزّت هذه الرسالة مروان إلى ارسال نجدة على الفور . ولكن القوة التى أرسلها لم تكن كافية لصد القوات الزاحفة عليها . فقرر الخليفة أن ينزل الميدان بنفسه – ولكنه نزل بعد فوات الأوان . فقد قامت مملكته على الاستبداد والحكم بالسيف ، مما زاد عدد خصومه والساعين إلى اسقاطه . فتداعت الأرض من تحته حالما ظهر خطر العباسيين . وتلفت مروان يمنة ويسرة فوجد حصونه تتداعى الواحد تلو الآخر . ولم يجد أمامه سبيلاً غير الالتجاء إلى مصر فراراً من وجه خصومه وتوهماً منه أنه يستطيع أن يستجمع قواه فى وادى النيل ويكر على الزاحفين عليه ويغلبهم . فلما وصل إلى مصر وجدها فى حالة اضطراب وفوضى : فالسجون كانت غاصّة بالقبط الذين سقطوا أسرى بعد مقتل قائدهم يؤنس السمنودى وهزيمتهم النكراء . وفوق هذا فقد رأى البشموريون أن يشقوا عصا الطاعة بدورهم . ولكنهم رأوا أن يقوموا بحرب العصابات بدلاً من الحرب النظامية ليستطيعوا أن يفتّوا فى عضد جند الوالى . وكان رئيس البشموريين الثائرين واحداً منهم واسمه مينا بن بقيرة

فكان يخرج هو ورجاله ليلاً يقتلون وينهبون ويشيعون الفزع بين الجند المرابطين فى حدود مديريتهم . ثم يختبئون فى النهار متحصنين خلف الترع والمستنقعات التى تكتنف أراضيهم والتى لا يعرف مخاضاتها غيرهم . وقد رأى مروان – بازاء حرج موقفه من القوات الموالية لأبى العباس – أن يلجأ لمفاوضة البشموريين بدلاً من الاستمرار فى محاربتهم . ولكنهم رفضوا المفاوضة وأصروا على القتال (١) .

---

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص٧٦ – ٧٧ .

٤٦٦- وكأن كل هذه الثورات والحروب لم تكن كافية لتنذر الخليفة مروان بقرب انهيار عرشه ، فزاد عليها قيام والى الاسكندرية بالثورة ضده أيضاً واعلان استقلاله بحكم هذه المدينة . فضاق مروان ذرعاً بهذه النيران المشتعلة حوله من كل جانب ، ولم يجد بداً من ارسال حوثره أكثر قواده بطشاً لقمع الثورة فى الاسكندرية . فقهر حوثره الجيش الاسكندرى ، وفتك بالأهالى فتكاً ذريعاً . وفى سورة غضبه ألقى القبض على الأنبا ميخائيل الأول وزعماء القبط . وفرض عليهم أداء مبلغ ضخم من المال . فلما عجزوا عن أدائه عنّفهم على الثورة التى قام بها البشموريون تعنيفاً شديداً ، وألقاهم جميعاً فى السجن بعد أن كبل قدمى البابا الاسكندرى بالحديد كما أمر بضربه . ثم خطر فى بال حوثره أنه إن تمادى فى التنكيل بالأنبا ميخائيل الأول فقد يتمادى البشموريون فى قتالهم ضد جند مروان . ففك قيوده واقتاده إلى رشيد . ومن هناك استكتب البابا الاسكندرى خطاباً إلى البشموريين وقفهم فيه على كل ما أصابه ولامهم على تماديهم فى العدوان . وحين قرأ هؤلاء الثوار خطاب باباهم احتدم غضبهم فضاعفوا هجماتهم على جند الوالى (١) .

٤٦٧- وبينما كان مروان متشاغلاً بالعمل على قمع ثورة البشموريين وتمرد والى الاسكندرية بلغه أن أبا مسلم وجنده - من الخراسانيين (٢) - قد اجتازوا الحدود المصرية . وعندها بعث برسول عاجل إلى حوثره يستدعيه للعودة إلى الفسطاط على الفور ، كما بعث برسول آخر إلى جنوده الذين يقاتلون البشموريين يستدعيهم أيضاً . ولقد أوصى الجميع بأن ينهبوا ويسلبوا كل ما تصل إليه أيديهم وأن يشعلوا النيران فى كل الأماكن التى يغادرونها . وكانت هذه الأوامر نتيجة لما أحس به مروان من خطر داهم .

وحين وصل رسول الخليفة إلى حوثره استدعى هذا القائد الغشوم ضابطاً

---

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط بقلم القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس جـ١ ص١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) خراسان هى بلاد شاسعة تقع شرقى ايران وإلى الغرب من الهند ، وتقع الصحراء الفارسية إلى الجنوب والجنوب الشرقى منها .

يثق فيه الثقة كلها وأمره أن يوصل الأنبا ميخائيل الأول وصحبه إلى الفسطاط فرأى هذا الضابط أن يعود بهم إلى العاصمة عن طريق النيل تجنباً لما قد يتعرض له من خطر الثوار . وعندها سارع سكرتير البابا الاسكندرى إلى أوسيم ليطلع أسقفها الأنبا مويسيس على ما جرى . وبينما كان الرجلان يتشاوران مرت بهما المركب التى تقلّ الأنبا ميخائيل الأول ورجاله فانضم إليهم الأنبا مويسيس قائلاً : « من شاء أن ينال اكليل الشهادة فليتبعنى لأن هذا هو اليوم الذى طالما تمنيته ، ولو أنى أحسب نفسى غير أهل لأن أسفك دمى على اسم ذاك الذى سفك دمه الزكى على عود الصليب من أجل خلاصى » . كذلك انضم إليهم سكرتير البابا المرقسى وقارئ من دير الأنبا مكارى الكبير ورجل من بلبيس .

٤٦٨– وأدرك مروان أن الأمور تأزّمت للغاية إذ بدأ العدو يزحف من الحدود المصرية إلى داخل البلاد . فأمر عازف البوق أن يعلن أهل الفسطاط بوجوب اخلاء المدينة لأنه قرر اشعال النار فيها بعد ثلاثة أيام . وإن من لم يخرج من هذه المدينة بعد الأيام الثلاثة المحددة سيأمر مروان بقتله قبل احراق العاصمة . وما أن أخذ عازف البوق يعلن أهالى الفسطاط بوجوب اخلاء المدينة حتى تملكهم الفزع . فخرجت جموعهم على غير هدى متجهة نحو الجيزة والجزيرة وكانوا يتزاحمون على المراكب الراسية على شاطئ النيل ويتدافعون بغير وعى فغرق العدد العديد منهم . كذلك تناسى الناس – فى رعبهم المرضى والمقعدين والمكفوفين فتركوهم لمصيرهم . وحين تفقد مروان الفسطاط بعد الأيام الثلاثة التى حددها لم يجد غير هؤلاء العاجزين فلم يشفق عليهم بل أمر باشعال النار فى المدينة وهم فيها فراحوا جميعاً ضحية اللهيب المتقد .

٤٦٩– وحالما انتهى مروان من حرق الفسطاط ركب مركباً واجتاز النيل إلى ضفته الغربية ليكون فى مأمن من أعدائه . على أنه رغم اضطراره إلى الهرب وإلى محاولة استجماع قواه لملاقاة خصومه قد ظل على بطشه واستبداده . فأمر بعض جنوده بأن يحرسوا الأنبا ميخائيل الأول وصحبه ولا

يسمحوا لهم بالخروج ، وأن يسيروا بهم حيثما سار هو ، ويضعوهم تحت الحراسة المشددة على مقربة من المكان الذى ينصب هو فيه خيامه .

وفى مساء التاسع عشر من أبيب (٢٦ يوليو) وصلت طلائع الخراسانيين إلى الضفة الشرقية للنيل فى الجهة المقابلة للمنطقة التى أقام فيها مروان خيامه. ولم تكن هناك جسور فى تلك المنطقة كما أنه لم يخطر ببال الزاحفين أن يدخلوا البلاد عن طريق النهر فلم تكن مراكبهم الحربية معهم . وهكذا تجابه الخصمان دون أن يستطيع أحدهما مقاتلة الآخر لأن النهر الخالد كان فاصلاً بينهما .

٤٧٠- وفى اليوم التالى أمر مروان باستدعاء الأنبا ميخائيل الأول وأتباعه لأن أحد رجال البلاط كان قد استثار حفيظته ضد البابا الاسكندرى بأن همس فى أذنه : « أتعرف أن هذا البابا قد قال لقومه : استبشروا فسينزع الله المملكة عن مروان ويعطيها لخصومه » ، ولما مثل رجل الله وصحبه بين يدى الخليفة مروان أمر هذا الطاغية أتباعه بأن يهينوهم علناً وهم وقوف على ضفة النيل على مرأى من الجيشين ومسمعهما . إلى حد أنه أمر بنتف لحية البابا وبعدما أوسعهم الجند هزءً وسخرية أمر مروان بترك البابا المرقسى فى العراء تحت أشعة الشمس اللافحة . وكان هذا الحكم جائراً يومذاك لأن شمس مصر فى شهر يوليو محرقة على أنهم تحملوا قيظ الشمس بثباتٍ عجيب كما تحملوا الاستخفاف والازدراء فى هدوء وسكينة .

٤٧١- وفى صبيحة اليوم الثالث وصل عدد من الأساقفة والرهبان إلى حيث يقيم الأنبا ميخائيل الأول - جاءوا من شيهيت للاستفسار عن حالة باباهم ومشاركته آلامه . وتصادف أن وصلوا قبل انبثاق الفجر . وما كاد الظلام ينقشع وتبدده أشعة الشمس المشرقة حتى جاء السيّاف إلى الخيمة التى يقيم فيها الأنبا ميخائيل الأول ، وأمسك بيده قائلاً : « إن الخليفة يريد رؤيته بمفرده ، ولكن الأنبا موسيس لم يعجبه هذا الأمر ، فوقف إلى جانب باباه قائلاً : « حى هو الرب إنى لن أفترق عن أبى الروحى إذ قد آليت على نفسى أن أتبعه حيثما سار ، وبينما كان السياف يحاول اقناع هذا الأسقف بوجوب

العدول عن قراره ، دخل الخيمة رسول ثانٍ من رسل مروان وأعلن بأن الخليفة يريد أن يرى الأنبا ميخائيل الأول ومن معه . فذهبوا إليه جميعاً . وما أن رآهم مروان حتى سلمهم إلى ضابط اسمه يزيد معروف بقسوته . فأخذ هذا الضابط يجهز آلات التعذيب إذ لم يكن استقر رأيه بعد على طريقة قتلهم . وفى تلك الساعة تقدم الأنبا مويسيس راجياً من البابا الاسكندرى أن يصلى على رأسه صلاة التحليل (١). عملاً بما يقتضيه الطقس القبطى . ومن ثم أخذ الجميع يصلون بعضهم لأجل البعض . وقال شبابهم لشيوخهم : « متى وجدتم نعمة عند الرب فاذكرونا » وكان هذا أيضاً عند ضفة النهر الخالد على مرأى الجيشين ومسمعهما . وكان لصلوات هؤلاء الشهداء (بغير سفك دم) أثر بعيد جعل عدداً من المسلمين المحيطين بهم يبكون شفقة عليهم وعندها تقدم عبيد الله الابن الأكبر لمروان وأخذ يستعطف أباه عنهم قائلاً : « تمهل يا أبى قبل أن تمس هؤلاء الرجال بأذى . فنحن الآن فى ضيق عظيم ، وقد نضطر للهرب إلى السودان ، والسودانيون أولاد روحيون لهذا الشيخ الوقور . فلو أنك قتلته أو ألحقت به الأذى فإن السودانيين سيرفضون حتماً ايواءنا ، بل قد يعمدون إلى الأخذ بثأره منا » . وقد اقتنع مروان بمنطق ابنه فأمر يزيد أن يرجع عن قتلهم واكتفى بحبسهم . فساقهم يزيد إلى زنزانة خلف ثلاثة أبواب حيث الظلام دامس والهواء خانق . وفى هذا الحبس الضيق تكلم الأنبا ميخائيل الأول بكلمات العزاء الممتلئة نعمة . وكانت كلماته أشبه بأنغام قيثارة عذبة ، بينما انطلقت نسمة الحياة من فمه وهو يسبح الله تعالى بتسابيح روحية ويواظب على الصوم والصلاة (٢) . أما الأنبا مويسيس فقد تنبأ قائلاً : « لن يقتلونا ولكنا سنظل محبوسين حتى يموت مروان » .

٤٧٢- وكان بين كبار القبط المدنيين رجل اسمه ابن قسطس ، وكان هذا الرجل باراً يخاف الله ويحب الناس ، وقد توّج هذه الصفات بالشجاعة . فهاله

---

(١) هى الصلاة التى يتلوها الكاهن على المؤمن ليحله من خطيته ، ويقرأها الأسقف على الكاهن، والبابا على الأسقف .

(٢) تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين طبعة ايفيتس جـ٣ ص١٨٠ .

أن يكون البابا الاسكندرى ومن معه فى ضيق شديد دون أن يعنى أحد بأمرهم ، وأخذ على عاتقه أن يخدمهم بنفسه . فكان يزورهم يومياً فى السجن ويحمل إليهم ما يحتاجون إليه (١) .

٤٧٣- وظل الجيشان فى مجابهة أحدهما الآخر أياماً عديدة . وفى تلك الأثناء أطلق مروان لجنده العنان ، فانشغلوا بالقتل والسلب واشعال النار فى البيوت والحقول . ولم تقتصر اعمال العنف التى تمادوا فيها على المنطقة التى كان مروان قد نصب خيامه فيها ، بل امتد إلى أقصى الصعيد . فذاق المصريون الأهوال على أيدى الجند . وقد ضاعف هؤلاء الجند تنكيلهم بالرهبان والراهبات ، وأمعنوا فى احراق الأديرة (٢) . وفى وسط هذه الآلام المريرة اتجهت القلوب والعيون إلى رب السماء ليتراءف على الشعب المصرى المعذب ولسان حالهم يردد كلمات صاحب المزمور حيث قال : « تأملت عن اليمين وأبصرت فلم يكن من يعرفنى . ضاع المهرب منى ولم يوجد من يطلب نفسى فصرخت إليك يارب وقلت أنت هو رجائى وحظى فى أرض الأحياء ... » (٣) . أو ذلك البيت من الشعر الذى ارتفع به أحمد شوقى (أمير الشعراء) إلى المولى تعالى قائلاً :

« سُدت علىَّ مذاهبى ومسالكى إلا إليك فما عساى أصنع »

---

(١) تاريخ البطاركة مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس جـ١ ص١٧١ .

(٢) راجع ما أورده ستانلى لاين پول فى كتابه « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » (بالانجليزية) ص٢٧ - ٢٨ نقلاً عن أبى صالح الأرمنى . ويجدر القول هنا بأن المؤرخين اكتشفوا أخيراً أن الكتاب الذى نسبه من سبقهم إلى أبى صالح هو فى حقيقة الأمر من نتاج أبى المكارم القبطى الذى عاش فى القرن الثانى عشر . ويرجع الخطأ إلى أن النسخة الأولى التى عثر عليها الباحثون كانت تنقصها الورقة الأولى . وكانت جلدة هذه النسخة تحمل اسم أبى صالح - أى أنها كانت ملكاً له - وبما أنه لم يوجد أى اسم آخر على هذه النسخة الأولى فقد درج الكتاب على نسبتها إلى أبى صالح . ثم شاء الله أن يعثر الباحثون على نسخ أخرى عرفوا منها أن المؤلف هو أبو المكارم القبطى .

(٣) عن مزمور ١٤١ فى الأجبية و١٤٢ فى الكتاب المقدس .

ومن العجيب أن يسترسل مروان فى هذه الأعمال التى لا تؤدى إلا إلى كراهية الناس له فى الوقت الذى كان أعداؤه يتربصون به . فلم يكن بمستغرب أن يحاول المصريون – فى ضيقهم وفى استنجادهم بالله تعالى – القضاء على هذا الخليفة الغاشم . وكان مروان قد أقام حراسة على مخاضات النهر الخالد ، ورغم هذه الحراسة فقد قام من بين الأهالى من أرشد الخراسانيين سراً إلى مواضع المخاضات . وحين عرف الخراسانيون هذه المواضع قسموا جيشهم إلى أربعة أقسام لكى يضمنوا النصر .

٤٧٤– وفى التاسع والعشرين من شهر أبيب خاض الخراسانيون النيل وانتقلت جيوشهم من ضفته الشرقية إلى ضفته الغربية . فلما رآهم مروان قادمين نحوه ورأى جموعهم تفوق جموعه عداً امتلأ رعباً فسارع إلى الهرب متجهاً جنوباً نحو صعيد مصر . ولشدة ما أصابه من الرعب ، ولرغبته فى سرعة الهرب نسى أن الأنبا ميخائيل الأول وصحبه لا يزالون مطروحين فى السجن . وقد أراد أن يباعد الشقة بينه وبين خصومه فأشعل النيران فى النزهات (بالجيزة) قبل أن يتراجع مع جنده عن مواقعهم . على أن أهالى الجيزة تمكنوا من اطفاء الحريق بسرعة حالما ابتعد مروان عنهم . كذلك انتظر بعض المسلمين حتى مغيب الشمس ليتأكدوا من أن مروان لن يعود ثانية إليهم ثم فتحوا باب السجن الذى كان يضم البابا المرقسى وصحبه . ولم يكتفوا باطلاق سراحهم بل ساروا معهم حتى أوصلوهم إلى دار الأنبا بطرس أسقف الجيزة . وفى الطريق انضم إليهم جمهور من القبط . وكان ذلك فى ليلة الأحد الأول من شهر مسرى المبارك (١) .

٤٧٥– وكان لمروان عند بدء القتال ثمانية آلاف جندى لم يبق منهم غير أربعمائة . فازداد خوفًا من أن يظفر به أعداؤه ، واستمر يتقهقر جنوبًا والخراسانيون يتعقبونه . فلما خشى أن يقع فى أسرهم لجأ إلى الكنيسة القائمة

---

(١) وهى الليلة السابقة لبدء الصوم المعروف بصوم السيدة العذراء وينتهى فى ١٦ مسرى (٢٢ أغسطس) وهو اليوم الذى تعيد فيه الكنيسة بذكرى حمل الملائكة جسد والدة الاله إلى السماء .

فى بلدة أبى صير (١) حيث اختبأ داخل حرمها . على أن بعض جنده خانه وأفشى سر مكمنه . فدخل عليه نفر من الخراسانيين وقتلوه . أما ولداه فهربا إلى الحبشة (أثيوبيا) حيث قتل الأهالى أحدهما بينما تمكن الثانى من الالتجاء إلى فلسطين . وهناك قضى بضع سنين اقتيد بعدها إلى الخليفة المهدى الذى أكرم وفادته وسمح له أن يعيش فى قصره . أما بنات مروان فكن قد اختبأن فى كنيسة غير تلك التى اختبأ فيها أبوهن . على أن أحد أتباعهن خان العهد هو أيضاً وأرشد الخراسانيين إلى موضع اختبائهن . فأخذهن الأعداء عنوةً إلى الأمير صالح أخى الخليفة العباسى . وكانت كبراهن فصيحة لا تنقصها الشجاعة ، فشفعت فى أخواتها ونجحت فى الحصول على حريتهن . وعندها ذهبن كلهن إلى حاران مسقط رؤوسهن حيث عشن فى سلام بقية أيام حياتهن .

٤٧٦- وبسقوط مروان انتقلت الخلافة من بنى أمية إلى بنى العباس ، فتحولت العاصمة من دمشق إلى الكوفة فبغداد (٢) . أما الخراسانيون الذين عاونوا أبا العباس على النصر فقد اتصلوا بالأنبا ميخائيل الأول وأكرموه كل الاكرام وكانت التجارب قد صقلته فزادته حكمة وحنكة . وفى تلك الفترة تمكن من أن يعيد بناء الكنائس التى تهدمت وأن يستعيد أموالها المبددة . وقد أحسن الخراسانيون إلى البشموريين كذلك بأن أعفوهم من الجزية كما منحوهم الهبات المالية الوفيرة .

وقد عاود الهدوء الحياة المصرية ، إلا أنه كان هدوءاً مؤقتاً للغاية ذلك لأن العباسيين - رغم عملهم على اقرار الأمن - اتبعوا سياسة تبديل الولاة بسرعة خشية أن ينجح أحدهم فى استمالة القلوب إليه فتسول له نفسه

---

(١) هناك خمسة بلدان تحمل هذا الاسم وهى: ا- أبو صير المحطة (أبو حماد) بمديرية الشرقية، ب- أبو صير الجيزة ، جـ- أبو صير الملق بالواسطى ، د- أبو صير دفنو باطسا الفيوم ، هـ- أبو صير سمنود . وبما أن مروان هرب جنوباً فأباصير التى اختبأ فى كنيستها لا يمكن إلا أن تكون تلك التى فى الواسطى أو التى فى الفيوم ويقال أيضاً أنها فى الجيزة .

(٢) « الخلافة : ازدهارها وانحلالها فسقوطها » (بالانجليزية) للسير وليم موير طبع فى أدنبرج سنة ١٩١٥ ص٤٣٠ - ٤٣١ .

الاستقلال بالبلد الذى ولىّ أمره [1] . وقد تسرب القلق والاضطراب إلى القلوب نتيجة لهذه السياسة إذ قد جعلت الشعور بعدم الاستقرار يسود الجميع . ومما زاد الطين بلة أن هؤلاء الولاة – لادراكهم أن مدة ولايتهم قصيرة – كانوا ينصرفون إلى جمع المال بشتى الوسائل حتى يغتنوا قبل عزلهم . وبالطبع كانت أسهل وسائلهم مضاعفة الضرائب وبخاصة على القبط . وبعد أن ساد السلام سنتين كاملتين واجه القبط ضغطاً جديداً . لأن الولاة لم يتشددوا معهم فى جمع الجزية وفى المطالبة بمقادير باهظة من المال فحسب ولكنهم جعلوا العفو قاعدة التعامل لمن ينكر دينه أيضاً . وقد أدت هذه الخطة الاستبدادية إلى أن يعلن عدد من القبط اعتناقهم الاسلام . فهال الأنبا ميخائيل الأول الأمر ، وتوجع قلبه ، فذهب لمقابلة الوالى وذكّره بالعهد الذى كان قائد الخراسانيين قد عاهده إياه عند انتصاره على مروان. فأجابه الوالى بأن الخليفة قد بعث بأوامر مشددة فى فرض الجزية الباهظة والحصول عليها بكافة الوسائل لأن أحد رجال بلاطه قد نجح فى اقناعه بأنه إن اتبع سياسة اللين مع القبط فسيثورون عليه. على أن مثل هذا العذر لم ينطل على البابا الاسكندرى فاستعان بالأنبا مويسيس على التفاوض مع كتبة الديوان . وبعد مفاوضات دامت شهراً كاملاً نجح هذان الحبران الصبوران فى تخفيض الجزية المفروضة .

٤٧٧– ولقد رأى الله تعالى – فى شامل عدله – أن يكافئ الأنبا ميخائيل الأول على جهاده الشاق المتواصل فهيأ له الفرصة المواتية إذ قد صدر أمر الخليفة بتعيين رجل اسمه أبى عون والياً على مصر . وكان أبو عون هذا رجلاً منصفاً اتخذ حسن المعاملة خطة يسير بموجبها . فتنفس القبط الصعداء ومجدوا الله تعالى الذى أقام عليهم هذا الوالى العادل . وانتهز الأنبا ميخائيل الأول فرصة السلام فقام برحلة راعوية . ومرة أخرى – ضمن عشرات المرات – تلاقى الشعب براعيه فى ظل السلام بعد انقضاء فترة الظلم والاستبداد ، إذ كانت خطة الباباوات الاسكندريين القيام بمثل هذه الرحلات الراعوية كى يراهم الشعب مستمتعين بالحرية والسلام بعدما جازوا الأهوال

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پول ص٣٠ .

والآلام ليزدادوا يقيناً بأن مراحم الآب السماوى لابد متداركة اياهم إن عاجلاً أو آجلاً . وقد تهلل قلب الأنبا ميخائيل الأول إذ رأى النعمة الالهية فائضة على أبنائه الرهبان إلى حد جعلت البعض منهم يتنبأ والبعض الآخر يشفى الأمراض (١) .

٤٧٨- وقد غير أبو عون مقر عاصمته بأن بنى ضاحيةً جديدة للفسطاط فى منطقة تعرف بام الحمراء القصوى عرفت فيما بعد باسم العسكر . وقد تضمنت هذه الضاحية الجديدة مساكن الوزراء والحرس الملكى ، وكانت متصلة بالفسطاط عن طريق الضواحى الأخرى المجاورة لها (٢) .

٤٧٩- وحدث أن ظل الكرسى الأنطاكى شاغراً مدة من الزمن بسبب الأحداث السياسية . فاشتهى اسحق أسقف حاران أن يحظى بشرف اعتلائه . وكان اسحق هذا على صلة وثيقة بالملك عبد الله أبى جعفر لأن اللّه جل اسمه كان قد رزق هذا الملك ابنًا بصلاته . وكان عبد اللّه مقيمًا بحاران فى تلك الفترة . فاستعان اسحق بعبد اللّه ليحقق أمنيته . فلم يكتف هذا الملك بتعضيد اسحق فيما يرجوه ، ولكنه قتل أسقفين عارضاه فى رغبته قائلين له : « إنك أسقف ، وما دمت قد نلت هذه الكرامة وجب عليك الخضوع للقوانين الرسولية القاضية بأن لا يترك أسقف ايبارشيته لغيرها . كذلك نهى الرسل عن أخذ كرامة الكهنوت من يد السلطان . ألا تعلم أن من يقدم على هذا العمل يستحق الحرم ؟ » .

٤٨٠- ولما فاز الأسقف اسحق بالكرسى الأنطاكى أراد أن يعزز مركزه فبعث برسالة الشركة إلى الأنبا ميخائيل الأول مصحوبة بهدايا ثمينة . وسلم الرسالة والهدايا إلى أسقفى دمشق وحمص مشفوعة بتهديد للبابا الاسكندرى بأنه إن رفض الشركة فعليه المثول بين يدى عبد اللّه فى حاران لتأدية الحساب عن رفضه .

---

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس جـ١ ص١٧٧ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول ص٣٠ - ٣١ .

ولما وصل رسل الأسقف اسحق إلى الفسطاط قصدوا لفورهم إلى أبى عون والى مصر . فلما علم أبو عون بمضمون الرسالة التى يحملها رسل الأسقف الأنطاكي بعث فى طلب الأنبا ميخائيل الأول الذى حضر إلى دار الولاية . فأطلعه أبو عوف على الرسالة راجياً منه أن يستجيب لطلب الأسقف اسحق . فطلب إليه البابا الاسكندرى أن يمهله ثلاثة أيام كى يعقد مجمعاً من أساقفته للتشاور معهم فى الأمر . ولبى الوالى طلبه على الفور .

٤٨١– وبعث الأنبا ميخائيل بالدعوة إلى أساقفته فلبوها جميعاً . كذلك دعا الأسقفين الأنطاكيين فقبلا الدعوة أيضاً . وظل المجمع يوالى جلساته شهراً كاملاً ، والوالى لا يضايق أحداً ولا يحاول أن يذكرّ البابا الاسكندرى بأنه لم يطلب غير ثلاثة أيام للرد عليه . وفى مطلع الشهر الثانى اجتمع الأساقفة فى كنيسة السيدة العذراء (الشهيرة بالمعلقة) ببابلون حيث دعاهم البابا المرقسى ليبلغهم قراره النهائى فى هذا الموضوع الخطير : موضوع انتقال أسقف من ايبارشيته إلى أخرى . أما قراره فقد سجله فى الخطاب الذى كان ينوى ارساله إلى الأسقف اسحق مع مندوبيه ، والذى يعد وثيقة تاريخية مجيدة ، وهذا نصه : « لا السيف ولا النار ولا الرمى للأسد ولا النفى ولا هذه كلها مجتمعة تخيفنى . ولن أرضى بعمل غير قانونى . ولن أدخل نفسى تحت حرمى الذى كتبته بخط يدى والذى أعلنت فيه أنه لا يجوز لأسقف أن يصير بطريركاً . ولقد حرم آباؤنا المكرمون كل من يأخذ الكهنوت من يد السلطان . فإن الأساقفة كانوا قد كتبوا إلىّ من أنطاكية فى أيام يوحنا البطريرك أن كل من جلس بعده من المطارنة على السدة البطريركية يكون محروماً . وقد وقّعت بامضائى على قرارهم هذا . فكيف أحرم نفسى الآن ؟ وكيف أبرر اليوم ما حرمته بالأمس ؟ بل كيف أعترف الآن بما أنكرته من قبل ؟ وإن الآباء المكرمين أنفسهم قد حرموا كل من يسلك هذا المسلك » . وقد سلمّ الأنبا ميخائيل الأول خطابه هذا إلى الأسقفين المنتدبين من الأسقف اسحق .

٤٨٢– فعاد رسولا الأسقف اسحق إلى أبى عون والى مصر وطلبا إليه أن يكلف البابا الاسكندرى بالذهاب معهما إلى حاران . وكان أبو عون يحب

الأنبا ميخائيل حباً جعله يخشى عليه المخاطر . فاختلى به ورجا منه أن يخضع لحكم عبد الله أبى الجعفر والأساقفة الموالين له . ومما يجدر ذكره تقديراً لهذا الوالى العادل ، أنه مع الحاحه على البابا المرقسى بالموافقة ، فقد ترك له مطلق الحرية فى الذهاب أو البقاء فى مصر تبعاً لرغبته . ولقد شكر الأنبا ميخائيل الأول أبا عون على ما أبداه من عطف ومودة ، ولكنه صارحه بعزمه على التمسك برأيه . ثم خرج مع صحبه من الأساقفة والأراخنة . ولازمهم رسولا الأسقف الأنطاكى وهما يلحان فى طلب الرد . فأفهمهما البابا الاسكندرى أنه سيسافر معهما إلى حاران . ثم التفت إلى الأنبا مويسيس وسأله : « أتسافر معى ؟ » أجابه : « نعم فقد عاهدت نفسى أن ألازمك حيثما ذهبت » . وهنا أعلن الأنبا ثيئودورس أسقف بابلون عن رغبته فى الذهاب معهما أيضاً . وعندها طلب الأنبا ميخائيل الأول إلى سكرتيره أن يهيئ لهم كل ما يلزمهم للسفر فنفذ السكرتير طلب اباه الجليل . ولما أكمل اعداد كل شئ وكان هؤلاء الأحبار الكرام على أهبة السفر إذا برسول قد وصل إلى الفسطاط معلناً انتقال الأسقف اسحق إلى رحمة مولاه . وعند ذاك بادر الرسل الأنطاكيون بالعودة إلى بلادهم فى سكون ، كما ظل الأنبا ميخائيل الأول وأساقفته فى مصر مستريحى الضمائر .

٤٨٣– وقد ساد السلام ربوع مصر فى السنوات الأخيرة لباباوية الأنبا ميخائيل الأول ، إذ قد رأى الآب السماوى فى شامل محبته أن يكافئ هذا الأب الجليل على كل الخدمات التى أداها والآلام التى احتملها . وكانت التجارب والمحن التى جازها قد أثرت على صحته كما أثر عليه كرّ الأيام ومر الليالى . فانتقل إلى عالم النور بعد أن قاد سفينة الكنيسة المقدسة ثلاثاً وعشرين سنة ونصف تبعاً لما ورد فى المخطوط المحفوظ فى مكتبة دير الأنبا مكارى الكبير، ودفن جثمانه الطاهر بكل اكرام وتجلة مع أحداث الآباء القديسين . بركة صلواتهم جميعاً تكون معنا إلى النفس الأخير . آمين (١) .

---

(١) للاطلاع على تفاصيل الأحداث التى جرت فى تلك الفترة الحاسمة وعلى سيرة الأنبا ميخائيل الأول راجع تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين (طبعة ايفيتس) جـ٣ ص٨٨ – ٢١٥ .

٤٨٤- ينتمى الأمويون إلى عبد مناف الجد الأكبر لنبى الاسلام - فكان حقهم فى الخلافة قائماً على هذا النسب . وأول خلفاء بنى أمية هو معاوية بن أبى سفيان الذى كان والياً على سوريا قبل توليه الخلافة سنة ٦٦١م ، وآخر الخلفاء الأمويين مروان الثانى الذى لاقى حتفه فى المعركة التى نشبت بينه وبين العباسيين فى سنة ٧٥١م . وقد هاجر بعض أفراد سلالة مروان إلى أسبانيا التى أطلقوا عليها اسم الأندلس حيث أقاموا خلافةً أموية ظلت قائمة حتى سنة ١٠٣٧م .

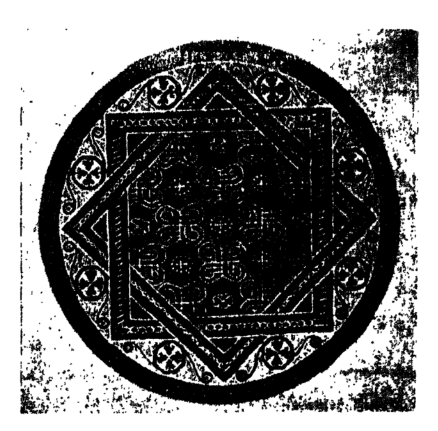
وكانت دمشق هى العاصمة التى اتخذها الأمويون مقراً لخلافتهم . وكان النصف الأول من حكمهم زاهياً زاهراً رفعوا فيه قدر العلماء والأدباء . ولكن حكمهم أخذ فى الانحطاط والتدهور تدريجاً ، وظل على هذه الحال حتى انتصار العباسيين .

٤٨٥- وفى الآونة التى زها فيها حكمهم وبلغ القمة عاش يوحنا الدمشقى. وكان سليل عائلة عريقة أدارت الشئون المالية للخلفاء الأمويين (١) . وكان يوحنا هذا من أبرز اللاهوتيين الشرقيين الذين عاشوا فى القرن الثامن ومن أروع ما قاله هذه الكلمات التى تحمل فى طياتها الكثير من المعانى وهى : « إن الذى يحكم بالقوة ليس أبًا ولكنه سارق ، لأن الأب يستعين بالمنطق لاقناع أولاده » . وكان لمقاومته البدع الغربية أبعد الأثر إذ قد أثارت نوبة من الغضب الجارف فى نفس امبراطور القسطنطينية ، فبعث - تحت تأثير هذا الغضب - برسالة إلى الخليفة هشام أوقع فيها بيوحنا الدمشقى . وتأثر الخليفة بدوره فطرده من بلاطه . وبعد سنوات عرف الخليفة الحق وندم على طرده ، فأرسل إليه يرجو منه العودة إلى بلاطه . على أن يوحنا الدمشقى شكر للخليفة عطفه ولكنه رفض العودة إلى حياة القصور ، وفضل أن ينزوى فى أحد جبال فلسطين حيث قضى بقية حياته كراهب بسيط (٢) .

---

(١) « مصر : من مينا إلى فؤاد الأول » (بالفرنسية) للأب دى هينو (الطبعة السادسة) القاهرة سنة ١٩٣٥ ص٢٠٩ .

(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٥٥٩ - ٥٦٥ .



قطعة من النسيج وجدت فى أحدى المقابر حول مدينة أنتينوى (عند ملوى الآن)

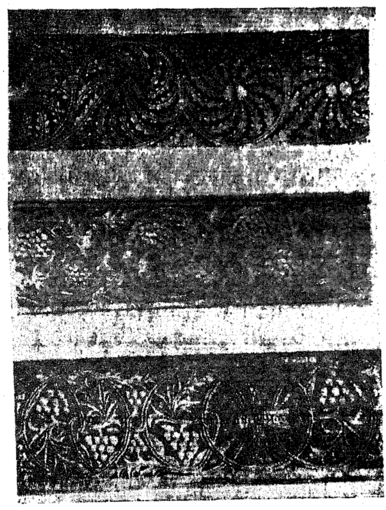
٤٨٦- وكان الموضوع الذى شغل العقول فى ذلك العصر هو السماح بتعليق الصور (أو الأيقونات) على جدران الكنائس أم لا . فكتب يوحنا دفاعاً عن التقليد الأرثوذكسى الذى يؤيد وجود الأيقونات فى الكنائس قال فيه : «يسأل بعضهم كيف يمكن تصوير ما لايرى وكيف يمكن تمثيل الروح فى صورة مادية ؟ فنجيبهم إن الكلمة - باتخاذه جسداً - قد أتاح لبنى البشر أن يصوروه فى شكله الانسانى . فقد ولد من السيدة العذراء واتخذ منها جسداً ، واصطبغ فى مياه الأردن من يد يوحنا السابق الصابغ ، وعلّق على خشبة ، ودفن فى القبر ، وقام من بين الأموات وكل هذه وقائع حسية فى الامكان تصويرها وابرازها فى شكل ملموس . وللفنان الحق فى أن يعبر عن هذه

الوقائع الكتابية بالصور كما يعبر عنها الكاتب بالألفاظ . بل إن الصور أقرب إلى الادراك من الألفاظ ، لأن الناظر إلى الصورة يدرك فى الحال ما تهدف إليه فى حين أن الألفاظ تحتاج إلى ادراك معناها قبل ادراك مرماها . والفنان - حين يرسم صور القديسين والشهداء - يعمل على ابراز فضائلهم فى صورةٍ واقعية تستحث المؤمنين على الاقتداء بهم . وهكذا تكون الأيقونات نوافذ يبصر منها المؤمن نور السماء » .

على أن الكنيسة القبطية لم تشترك فى هذه المناقشات لأنها كانت قد قطعت الشركة بينها وبين الكنائس اليونانية واللاتينية الموالية لمجمع خلقيدون منذ سنة ٤٥١م . ومع أن الكنيسة التى كان ينتمى إليها يوحنا كانت احدى هذه الكنائس إلا أن تعليمه عن وجوب تكريم الأيقونات لم يكن إلا صدى لتعليم كنيسة الاسكندرية الذى أخذته عن الرسل وعن الآباء الرسوليين ومدرسة الاسكندرية . ومما يجب ذكره فى هذا المقام أن الكنائس الموالية لمجمع خلقيدون رغم انفصالها عن كنيسة الاسكندرية قد ظلت متمسكة بتعاليم آباء هذه الكنيسة الأعلام كأثناسيوس الرسولى وكيرلس عامود الدين ومن إليهما من باباواتها الأماجد . ومثل هذا التمسك إن دلّ على شئ فإنما يدل على أن الكنيسة المصرية - كنيسة مدرسة الاسكندرية - قد ظلّت مسيطرةً على القلوب المستنيرة رغم ما قوبلت به من مقاومةٍ عمياء ورغم ما قاساه أحبارها من جور واضطهاد . فكان الأنبا ميخائيل الأول - البابا الاسكندرى السادس والأربعون - جديراً بأسلافه العظام ، عرف (مثلهم) كيف يقف فى وجه الملمات ويحافظ على الوديعة التى أؤتمن عليها بكل أمانة ليسلمها إلى من يخلفونه فى صفائها الأصيل .

٤٨٧- ولم يكن يوحنا الدمشقى بالشخص الوحيد الذى سعد بالحرية الكافية للتعبير عن معتقدات الكنيسة الأرثوذكسية ، بل سعد غيره بهذه الحرية لا للتعبير عن عقيدتهم فحسب بل لكل تعبير فكرى - روحى أيضاً . ففى الفترات التى اتصف فيها الخليفة بالتسامح ، سرى تسامحه إلى رجاله القابضين على زمام الحكم باسمه . وفى هذه الفترات وجد الفنانون والصناع

الفرصة للابتكار والانتاج : فالحفر على الخشب ظل من الفنون البديعة ، ولا تزال هناك قطع باقية من هذا الفن تدل على دقة الصنع وحسن الذوق ، إن الفنانين المصريين فى القرنين السادس والسابع للميلاد احتفظوا بالمستوى الرفيع الذى بلغه أجدادهم فى العصور الفرعونية . كذلك كان الحال مع النسّاجين الذين جعلوا من نسيجهم وسيلةً للتعبير عن خلجاتهم الفنية : فالألوان وتناسقها ، والنقوش وانسجامها ، والزخارف وتنوعها - كل هذه تنطق بمقدرة الناسج المصرى .



زخارف منحوتة على الحجر محفوظة بمتحف اللوفر بباريس عثر عليها بدير باويط (محافظة أسيوط) لم يبق منه غير أطلال

ومما يؤسف له أن القصور التى تغنى الكتاب والمؤرخون بفخامتها وبما كانت تحويه من ترف وفن تداعت ولم يبق منها حجر على حجر . إلا أن القائمين بالحفريات فى الفسطاط قد عثروا على أسس عدد غير قليل من المساكن ويتضح من مقارنة هذه الأسس أن البيوت إذ ذاك كانت تشاد على نظام متشابه . فكانت تشمل فناءً (صغيراً أو كبيراً تبعاً لغنى صاحب الدار) من غير سقف تتوسطه فسقية . وإلى جهة من هذا الفناء كان يقوم دهليز بأعمدة تطل عليها ثلاث نوافذ : الوسطى منها أكبرها حجماً وهى نافذة حجرة الاستقبال ومنفصلة عن الأخريين تماماً . أما الجهات الثلاث الباقية ففيها أروقة تؤدى بعضها إلى غرفٍ فسيحة بينما كان البعض الآخر مصنوعاً على شكل محراب صغير . وقد اتضح من البحث أن أحد هذه البيوت مبنى على شكل صليب ، وهذا الشكل هو الذى اتبع فيما بعد لبناء المدارس . أى أنه كان يتألف من فناء أوسط به فسقية تتلاعب فيها المياه . وعلى كل جانب من جوانبه الأربعة ردهة : ثلاث من هذه الردهات متساوية الحجم ورابعتها أكبر منها . وقد اتفقت كلمة السائحين ومؤلفى الكتب الجغرافية على أن بيوت الفسطاط سواءً أكانت من الطوب النى أو المحترق – كانت تتألف من ست طبقات أو سبع . وكان ارتفاع المنازل يلقى ظلالاً على الشوارع والأزقة الضيقة . وكانت لمعظم هذه الشوارع أبواب تغلق ليلاً زيادة فى الحرص (١) . ومثل هذا الوصف يمكننا من أن نتخيل حياة سكان الفسطاط منذ ثلاثة عشر قرناً ، وبهذا التخيّل ندرك أن أجدادنا عرفوا كيف يستفيدون من فنهم المعمارى وأن مصرنا العزيزة عرفت معنى الحضارة فى المعيشة اليومية حتى فى القرون الموصوفة بعصر الظلمة .

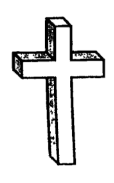
ولم يكن عمل القبط الفنى قاصراً على الفسطاط فى هذه الفترة إذ يرى المؤرخون فى خرائب قصر مشاطا بالأردن صلة وثيقة بالفنون التى أنتجها القبط : فالبرجان القائمان عند مدخل القصر تزينهما زخارف من عناقيد العنب

---

(١) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى المبحث الثانى لجاستون فييت ص١٤٧ ، ١٥١ – ١٥٢ .

وأوراقه كبيرة الشبه بتلك الموجودة على بعض قطع العاج المحفوظة بالمتحف القبطى بالقاهرة والبعض الآخر بمتحف اللوفر بباريس . وليس ذلك فحسب بل أن قاعة العرش فى ذلك القصر موضوعة على النظام البازيليكى المتّبع فى الكنائس القديمة ولها مثيل فى كل من الدير الأبيض والدير الأحمر (بالقرب من سوهاج) وفى كنيسة دندرة التى ترجع إلى القرن المسيحى الخامس . ويقول كريزويل عن هذه القاعة : « من الصعب أن نتخيل أن مهندساً غير قبطى يستطيع أن يصمم قاعة للعرش على هذا الشكل » .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد أن الصناع القبط بنوا الكعبة فى مكة أيضاً (١) .



(١) راجع مقال كريزويل (بالانجليزية) عن « المؤثرات القبطية فى الفن المعمارى الاسلامى الأول » نشر فى مجلة الآثار القبطية (القاهرة سنة ١٩٣٩) العدد الخامس ص٢٩ – ٤٢ .

« جرحت فى بيت أحبتى »

(٤٨٨) انتخاب الراهب مينا بابا للاسكندرية.
(٤٨٩) راهب اسمه بطرس يخدع أسقف انطاكية.
(٤٩٠) امعان الراهب بطرس فى الخديعة.
(٤٩١) استبداده بأساقفة الكرازة المرقسية.
(٤٩٢) مؤامرة جديدة للراهب بطرس.
(٤٩٣) نهايته المؤلمة.
(٤٩٤) العباسيون يبنون بغداد ويتخذونها عاصمة لهم.
(٤٩٥) نياحة الأنبا مينا الأول.
(٤٩٦) سلطان مصر.

٤٨٨– لما انتقل الأنبا ميخائيل الأول إلى مساكن النور ، حزن الاكليروس والشعب لفقدهم أبًا عطوفًا وراعيًا ساهراً . ومن أعماق قلوبهم المتوجعة تضرعوا إلى رب الكنيسة أن يلهمهم اختيار الراعى الصالح الذى يكون خير خلف لخير سلف . فاجتمعوا فى الكنيسة بنفس واحدة مبتهلين متوسلين . ثم أخذوا فى التشاور معاً ، فأوحى إليهم الروح القدس أن يجمعوا على انتخاب مينا أحد رهبان دير القديس مكارى الكبير . فأطاعوا هذا الوحى وانتخبوه بالاجماع . وعند الرسامة رغب فى أن يحتفظ باسمه فأصبح الأنبا مينا الأول الخليفة السابع والأربعين للقديس مرقس رسول الديار المصرية سنة ٧٥٨م. (سنة ٤٧٤ش) .

فلما تسلم مقاليد الرياسة الروحية العليا ، أخذ يعلم الشعب ويوضح له معنى الايمان الأرثوذكسى ، كما أخذ يبنى الكنائس المتهدمة . وكان يعمل بفرح روحى انعكس على وجهه إلى حد أن الشعب كان يتعجب من النعمة البادية عليه وقد استطاع الأنبا مينا الأول أن ينجز هذه الأعمال البنائية فى سرعة وهدوء لأن التفاهم ساد العلاقات بين القبط ووالى البلاد إذ ذاك .

٤٨٩– ومن المؤلم أن عدو الخير لم يدع الأنبا مينا الأول يستمتع بجهوده الروحية طويلاً ، فجاءت التجربة هذه المرة من الداخل : من بين صفوف

القبط أنفسهم ! فكان هذا البابا الجليل أشبه بالنبى حين سئل عمن أساء إليه فأجاب بقلبٍ متوجع : « جرحت فى بيت أحبتى » (١) . ذلك أن راهبًا اسمه بطرس تملكه شيطان الغرور ، فذهب إلى الأنبا مينا الأول يطلب إليه أن يرسمه مطرانًا . ولما كان البابا المرقسى يعرف الخيلاء المتسلطة على هذا الراهب فقد رفض طلبه . وعندما ارتدى الذئب ثياب الحملان (٢) ، وكتب خطاباً وقعه بامضاء مزيفة للأنبا مينا الأول موجهًا إلى بطريرك أنطاكية . ثم قصد إلى هذه المدينة العظمى ، وقدم الخطاب إلى بطريركها . وقد ادعى بطرس فى هذا الخطاب (على فم البابا الاسكندرى) أن الحروب والثورات قد استنفدت ما كان فى الخزانة البابوية من مال ، ورجا من البطريرك الأنطاكى أن يمد إليه يد المساعدة . وجازت الخدعة على هذا البطريرك فسارع إلى امداد بطرس بالمال الوفير . وبدافع المحبة الأخوية والرغبة الصادقة فى الاحتفاظ بعلاقة الود التى تربط كنيستى أنطاكية والاسكندرية ، كتب رسالة إلى البابا المرقسى عبر له فيها عما يكنّه له وللكرسى الاسكندرى من تقدير واجلال .

٤٩٠- وما أن امتلأت جيوب بطرس بالمال حتى سارع إلى الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور الذى كانت تربطه بالمسيحيين صلات المودة . فأحسن الخليفة وفادته لأنه كان يشبه ابنًا له انتقل إلى دار الخلود قبل ذلك بشهور معدودات . ولشدة فرحه بهذا الشبه اقتاده إلىَ حيث تقيم زوجته لترى فيه صورة ابنها الراحل فتجد بذلك شيئًا من العزاء . وهكذا حظى الراهب بطرس بصداقة الخليفة ورضى زوجته ، فعاش فى القصر الملكى ثلاثة شهور سأله الخليفة بعدها عما إذا كان له مطلب يرغب فى تحقيقه لكى يمنحه إياه . فأعلن له بطرس أنه يشتهى باباوية الاسكندرية والخلافة المرقسية . فما كان من الخليفة إلا أن كتب رسالة إلى أبى عون والى مصر طلب فيها إليه أن يعمل على تحقيق أمنية هذا الراهب . ولرغبة الخليفة فى تمكين بطرس من الوصول إلى بغيته ، أمر باعداد حلة له من الحرير الغالى وبعمل قلنسوة من

---

(١) زكريا ١٣ : ٦ وهى اشارة إلى خيانة يهوذا للسيد المسيح .

(٢) متى ٧ : ١٥ .

الحرير عينه . فازداد بطرس زهواً وتشامخاً وأمر بتطريز القلنسوة بالعبارة الآتية : « بطرس بابا مصر وخادم الملك » . ثم سافر إلى مصر وقد امتلأ قلبه فرحاً إذ توهم أنه سيتحكم فى الأنبا مينا وفى جميع أساقفة الكرازة المرقسية .

٤٩١– وحالما وصل إلى الفسطاط قصد إلى دار الولاية وقدم رسالة الخليفة إلى أبى عون والى مصر . وكان أبو عون – على ما قدمنا يحترم الأنبا مينا الأول ، فرأى أن لا يفاجئه بما تحويه الرسالة وبعث إليه يرجو منه الحضور إلى دار الولاية . فلما وصل البابا الاسكندرى ودخل إلى قاعة الاستقبال وجد الراهب بطرس عند أبى عون الذى ابتدره بقوله : « قد تسلمت رسالة من الخليفة يطلب إليك الخضوع لمسيحى من أولادك » . فلما سمع الأنبا مينا الأول هذه الكلمات تفرس فى الراهب بطرس وذكّره بالوحى الالهى على لسان بولس الرسول حيث قال : « لا ينال هذه الكرامة أحد من تلقاء ذاته بل من دعاه الله كما دعا هرون » (١) . فاسمع ما أقوله لك من كلام رب المجد : كل غرس لا يغرسه أبى السماوى يقلع ويلقى به فى النار (٢) . فإن اغتصبت كرامة الكهنوت فأعلم أنها تنزع عنك ، وتلقى حتفك فقيراً معدماً » . فأجابه بطرس متبجحاً : « عليك الخضوع وإلا نالك من العذاب ألواناً » . ثم التفت هذا الراهب الغاشم إلى الوالى وقال له بوقاحة غريبة : « كيف ترضى أن يجرؤ هذا الأسقف على مخالفة أوامر الخليفة فى حضرتك ؟ » فما أن سمع الوالى هذه الكلمات حتى عراه شئ من الذعر ، والتفت إلى الأنبا مينا الأول مطيباً خاطره بقوله : « ثق أيها البابا الوقور أنى سأبذل ما فى وسعى لحمايتك من كل أذى » . وأدرك البابا الاسكندرى ما يجيش فى صدر أبى عون من صراع صادر عن اضطراره إلى تنفيذ أوامر الخليفة مع رغبته فى التعبير عن احترامه له ، وأراد أن يخفف من حدة هذا الصراع فقال للوالى : « إنى على استعداد تام لتنفيذ ما تشير علىّ به طوعاً لأوامر الخليفة » . فلما سمع بطرس هذا الكلام طلب إلى أبى عون أن يحتفظ بالبابا الاسكندرى فى دار الولاية ، وأن يبادر إلى استدعاء

---

(١) خروج ٢٨ ، عبرانيين ٥ : ٤ .

(٢) متى ١٥ : ١٣ .

الأساقفة المصريين لابلاغهم أمر الخليفة . فأشار الأنبا مينا الأول على الوالى بتنفيذ هذا الطلب . وحالما وقف الأساقفة على دعوة باباهم مشفوعةٍ بدعوة الوالى اجتمعوا فى احدى كنائس بابلون وابتهلوا إلى الله العلى أن يبعد عن كنيسته كل سوء . ولم ينتظر الراهب بطرس حضور الأساقفة إلى دار الولاية ، بل ذهب إلى الكنيسة التى اجتمعوا فيها بصحبة شرذمة من الجند . ودخل الكنيسة واتجه إلى المذبح فى تشامخ ليبدأ بالصلاة كأنه البابا بالفعل . إلا أن الأنبا مويسيس أسقف أوسيم والأنبا مينا أسقف طنبوه وقفا فى وجهه معترضين قائلين : « أنت خائن للكنيسة المجيدة ، ومثل هذا الجرم الشنيع يحرم عليك أن تطأ هذا المكان المقدس بقدميك النجستين » . فثارت ثورته ، وأمر الجند بالقاء القبض على الأساقفة جميعاً ، واقتيادهم إلى دار الولاية حيث يقيم الأنبا مينا الأول . وذهب الأساقفة بأنفسهم صوناً لكرامتهم الكهنوتية ، فلما التقوا برئيسهم الشرعى حيوا بعضهم البعض بقولهم : « إننا عظيمو الانتصار بالذى أحبنا » (١) . وقد بقى الأساقفة والبابا الاسكندرى معتقلين فى دار الولاية بضعة أيام ، حاول الراهب بطرس فى أثنائها أن يستثير أبا عون على الأنبا مينا الأول وأساقفته بغير جدوى .

٤٩٢– فلما رأى هذا الراهب المزيف أن أبا عون لا يزال على احترامه وتقديره للبابا المرقسى وشركائه فى الخدمة الرسولية ، لجأ إلى خدعة جديدة هى أنه أدعى أنهم يحتفظون بالكتب التى يعرفون منها تحويل المعادن الدنيا إلى ذهب . فلما أنكروا جميعاً هذا الادعاء الباطل ألحّ بطرس على الوالى أن يحكم عليهم بالعمل فى طلاء المراكب . ولما رأى تردداً منه هدده بأن يشتكيه إلى الخليفة . وتحت ضغط هذا التهديد خضع أبو عون لهذا الأمر الذى تمجّه نفسه . واشتغل الأنبا مينا الأول وأساقفته بطلاء المراكب سنة كاملة دون أن يبدو منهم أى ألم أو ضجر . وذات يوم تجرأ أبو عون على أن يقول لبطرس : « ويحك ! أهكذا تعامل أبا النصارى ؟ » ، وكان التشامخ قد بلغ بهذا الراهب المحتال حداً جعله يتمادى فى صلفه ، فقال للوالى : « أتقول عنه أنت أيضاً

(١) رومية ٨ : ٣٧ .

أنه أبو النصارى ؟ سأبلغ عنك الملك الذى جعلك والياً » . فلم يطق أبو عون صبراً على هذا المتصلف ، وأمر بالقائه فى السجن على الفور . ثم أذن لساعته للأنبا مينا الأول وأساقفته بأن يعودوا إلى كراسيهم معززين مكرمين . فبادلوه التحية والاكرام وانصرفوا لأمور كراسيهم .

وقضى بطرس ثلاث سنين فى السجن جزاء ما جنت يداه .

٤٩٣- وبعد هذه السنين الثلاث استبدل الخليفة أبا عون بوالٍ جديد اسمه صالح بن على . ولما وصل هذا الوالى الجديد إلى مصر أصدر عفواً شاملاً عن جميع المسجونين . وخرج الراهب بطرس ، وظن أن الفرصة جاءته ليعاود مؤامراته ضد البابا المرقسى . على أنه لم يكد ينعم بنسيم الحرية بضعة أيام حتى وردت الأنباء بأن الخليفة قد انتقل إلى دار الخلود . وامتلأت نفس بطرس خيبة وحيرة وأدرك حقيقة ما قاله النبى : « ملعون كل من اتكل على ذراع بشر » (١) . فذهب إلى قريته . ولكن أهله أبدوا سخطهم عليه بمقاطعته مقاطعة تامة ، فمات شريداً معدماً .

٤٩٤- وفى تلك الآونة كان أبو جعفر المنصور قد بنى بغداد واتخذها عاصمة له . فترك دمشق وأقام بها وكان هذا العمل لاسترضاء الخراسانيين الذين مهدوا السبيل أمام حكم العباسيين ، إلا أن المصريين ذاقوا منه الويل . لأن العاصمة الجديدة كانت بعيدة عن مصر مما أدى إلى أن يستسهل المتمردون القيام بثورات فى أوقات متقطعة ، فاختل الأمن مراراً وراح العدد العديد من المواطنين الآمنين ضحية لهذه الاضطرابات . على أن مثل هذه القلاقل لم تحدث فى باباوية الأنبا مينا الأول إذ كان الخليفة العباسى لايزال حديث العهد بالاقامة فى بغداد (٢) .

٤٩٥- وبدت مراحم الله المتجددة يومياً فى ما أسبغه على البابا المرقسى من هدوء وسلام بعدما لاقى من آلام . فقد نهج الوالى صالح بن على منهج

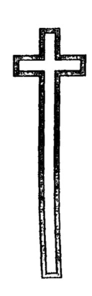
---

(١) أرميا ١٧ : ٥ .

(٢) تاريخ مصر الاسلامية لالياس الأيوبى طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٢ ص٩٦ .

أبى عون فى انصافه المسيحيين وفى حسن معاملته للشعب المصرى عامة . فقضى الأنبا مينا الأول سنواته الأخيرة فى افتقاد شعبه واستنهاضه للجهاد ، وفى تجديد الكنائس . ثم انتقل إلى بيعة الأبكار فى سكون واطمئنان . وكانت أيام بآباويته ثمانى سنين وعشرة أشهر (١) .

٤٩٦– ومما يجدر ذكره هنا أن مصر كان لها فى ذلك العهد سلطان واسع امتد شرقاً وغرباً . وفى عهد لا يعرف بالضبط كان لوالى مصر الرياسة على منطقتى سيناء والجزء الأوسط من الحجاز ، ثم ضمّ ولاة مصر منطقة برقة لحكمهم سنة ٧٦٥م (٢) .



(١) كتاب تاريخ البطاركة – مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس جـ١ ص١٨٣ – ١٩١ .

(٢) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى المبحث الثانى لجاستون فييت ص١٢٧ .

القرعة الهيكلية

(٤٩٧) السدة المرقسية تظل شاغرة خمسة عشر شهراً .
(٤٩٨) هل تتفق القرعة الهيكلية والتقليد الكنسى .
(٤٩٩) رسالة الشركة إلى البطريرك الأنطاكى .
(٥٠٠) الفرصة التى يهيئها السلام .
(٥٠١) تعيين الشماس مرقس سكرتيراً للبابا الاسكندرى .
(٥٠٢) حسد الخلقيدونيين .
(٥٠٣) جهود البابا المرقسى لتخفيف حدة المجاعة المتفشية .
(٥٠٤) ثلاثة أساقفة يحملون رسالة بطريرك أنطاكية .
(٥٠٥) هرب مرقس سكرتير البابا من كرامة الأسقفية .
(٥٠٦) ثورة عارمة فى الصعيد بزعامة أحد الأمويين .
(٥٠٧) عدالة الفضل بن صالح العباسى مقرونة بشهوة الحكم .
(٥٠٨) هدم بعض الكنائس بأمر على ابن سليمان ابن أخى الخليفة العباسى .
(٥٠٩) ضراعة الأنبا يؤنس الرابع ليتمكن من تشييد الكنائس المتهدمة .
(٥١٠) تنبؤه بتغيير الوالى القاسى ثم نياحته .

٤٩٧-- كانت مصر تنعم بالسلام الشامل ، فتهيأت للمصريين الفرصة لأن ينصرف كل منهم إلى عمله فى ثقة واطمئنان . وانتهز الأساقفة فترة هذا الهدوء لكى يتفقدوا المؤمنين فيعزوا القلوب الصغيرة ويثبتوا القلوب الكبيرة على الايمان الأرثوذكسى ولكى يعدوا المؤمنين جميعاً إلى مواجهة ما قد تأتى به الأيام من اضطهاد وآلام . ولانشغال الأساقفة بأمورهم الراعوية لم يجتمعوا للتشاور فيمن يستحق أن يعتلى السدة المرقسية . وانقضت خمسة عشر شهراً على هذا الحال . ثم انتبه أكبر الأساقفة سناً إلى أنهم لم يجتمعوا رغم مرور هذه المدة ، فبعث برسائل إلى اخوته الروحيين يدعوهم للاجتماع فى الاسكندرية لكى يتشاوروا معاً عمن يخلف باباهم الراحل .

ولما اجتمعوا رأوا أن ينصرفوا إلى الصوم والصلاة استلهاماً للروح القدس .

وبينما هم يصلون معاً ، قام شماس شيخ واقترح اسم راهب مشهود له بالتقوى ورخامة الصوت اسمه يؤنس . وكان هذا الراهب يعيش فى دير الأنبا مكارى الكبير . ومع ما امتاز به الراهب يؤنس من الفضائل ، فقد رأى بعض الأساقفة أن يلجأوا للقرعة الهيكلية فى الانتخاب . وعلى ذلك اختاروا راهبين آخرين ، وكتبوا الأسماء الثلاثة - كلاً على ورقة - ووضعوا معها ورقة بيضاء . ثم اشتركوا معاً فى اقامة ثلاثة قداسات . وكانوا كلما انتهوا من صلوات القداس يطلبون إلى ولد صغير أن يسحب ورقة من الأربعة الموضوعة على المذبح . وفى المرات الثلاث كانت الورقة التى يسحبها الولد الصغير تحمل اسم الراهب يؤنس . فلم يسع الأساقفة والأراخنة بعد هذا النجاح المثلث إلا أن يهتفوا : « مستحق وعادل ، أن ينال يؤنس هذه الكرامة العظمى ، ويجلس على كرسى القديس مرقس الرسول » . فتمت رسامته سنة ٤٨٤ش (٧٦٨م) . وبذلك أصبح الخليفة الثامن والأربعين لكاروز ديارنا المحبوبة .

٤٩٨- على أنه يجدر بنا أن نقف قليلاً لنمعن النظر فى هذه الوسيلة : وسيلة القرعة الهيكلية التى لجأ إليها المسئولون عن الكنيسة سنة ٧٦٨م . نقف لنلاحظ أن هذه هى المرة الأولى التى تم فيها انتخاب البابا الاسكندرى على هذه الصورة مع أنه الثامن والأربعون فى سلسلة الخلفاء المرقسيين . فلماذا لم يلجأ الأولون إلى هذه الوسيلة السهلة التى يمكن بها حسم كل نزاع ؟ إن آباء كنيستنا - حين وضعوا الطقوس والنظم - استلهموا الروح القدس ، فأدركوا بنعمة هذا الوحى الحكمة الالهية التى منحت الانسان حرية الاختيار ومعنى تأدية الواجب . ومن ثم رأوا أن ينهجوا سبيل الانتخاب كلما خلت السدة المرقسية . وكان الناخبون يدركون - بعد رسامة من يحوز على الأغلبية - أن صوت المجموع من صوت الله ، وأنهم جميعاً أولاد لذلك الذى فاز بالكرسى المرقسى ، لا فرق بين من أعطاه صوته وبين من لم يعطه . لأنه حينما كان مرشحاً كان لكل مشترك فى الانتخاب الحق فى أن ينتخبه أو يمتنع من انتخابه . أما بعد أن أصبح البابا الاسكندرى فقد أصبح بابا الجميع على السواء. فيولونه طاعتهم الكاملة برضى ، كما يطيع الابن البار أباه المحبوب .

كذلك كان الآباء الأولون على صلة وثيقة بالله ، لأن مداومتهم على الصوم والصلاة ودراسة الكتاب المقدس والتعمق فى البحث عما هو وراء المادة والتنسك والزهد ، كل هذه الصفات جعلتهم قريبين جداً من عرش النعمة حتى وهم بعد فى الجسد . لذلك كانوا ينتخبون باباواتهم بعد التداول والمشاورة ، كما كانوا يجتمعون دائماً فى احدى الكنائس حينما يرغبون فى المداولة بشأن الانتخاب لأن اجتماعهم فى مكان مقدس من شأنه أن يخفف ما قد يساور بعضهم من حدة . وكانوا يبدأون اجتماعاتهم بالصلاة دائماً فيضفون على اجتماعاتهم مسحة روحية . لذلك نجد الانتخابات فى العصور الأولى تتم فى هدوء وسرعة .

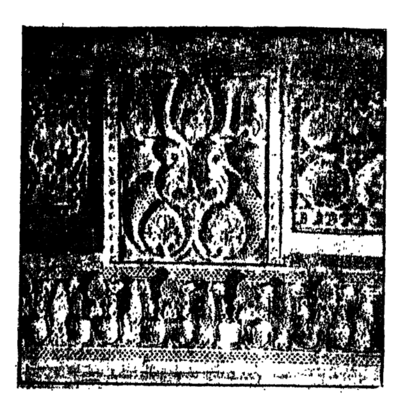
وليس ذلك فحسب . بل أن الآباء الأولين – حينما أمعنوا التأمل فى مسلك الرسل وجدوا أن رسل المخلص له المجد لم يلجأوا إلى القرعة الهيكلية إلا بعد الصعود مباشرة وقبل حلول الروح القدس . وقد ألقوا هذه القرعة لاحلال أحد التلاميذ محل يهوذا ليكون ضمن الاثنى عشر ساعة أن يحل عليهم الروح القدس . أما بعد أن نالوا قوة من الأعالى بأن امتلأوا من الروح القدس ، فإنهم لم ينهجوا منهج القرعة أبداً ، لأن الروح الذى ملأهم كان يوحى إليهم بالمسلك الذى يجب عليهم سلوكه . وبالتالى رأى الآباء الأولون أن يسيروا على خطة الرسل الذين هم سلفاؤهم وقادتهم وواضعوا الأيدى عليهم . ومن هنا نتبين الدوافع التى جعلت الآباء فى صدر المسيحية يؤثرون الانتخاب على أية وسيلة أخرى لاختيار راعيهم الأول . ولما كانت كنيستنا القبطية معروفة بأنها أكثر الكنائس محافظة على الوديعة التى تسلمتها من الرسل ، فقد فضل المسئولون فيها مبدأ الانتخاب لأنه المبدأ الذى يحترم حرية الرأى . فهو – والحالة هذه – مطابق للخطة الالهية عينها إذ يقول لنا أوريجانوس أن الله تعالى يحترم حرية الفرد ولذلك لم يخلقه آلة صماء ، ولا خلقه من غير عقل يميز ، بل منحه العقل والنفس ليعرف الخير والشر فيكون له فضل الاختيار إن هو نهج منهج الصلاح . فالتقليد الكنسى القبطى موضوع طبقاً لأحكام الله تعالى وعملاً بالخطة التى سار عليها رسل الرب .

أما فى القرن الثامن ، وعند انتخاب الأنبا يؤنس الرابع وبعد انقضاء سبعمائة سنة على استشهاد القديس مرقس فقد حاد الناخبون عن الخطة الأصلية ولجأوا إلى القرعة الهيكلية ، كأنهم بذلك عادوا يعيشون فى الفترة السابقة على حلول الروح القدس !

على أن الأنبا يؤنس الرابع نفسه كان رجلاً جديراً بالثقة التى نالها رغم أنه جلس على كرسى مارمرقس بطريقة شاذة عن التقاليد ، لأن النفع قد يختفى أحياناً تحت الضرر .

٤٩٩– وكان أول عمل أتاه هذا البابا الصالح – بوصفه الجالس على السدة المرقسية – هو أن بعث برسالة الشركة إلى بطريرك أنطاكية الذى تلقاها بفرح . ولما قرأها ازداد فرحه إلى حد أنه جمع الأساقفة والشعب وتلاها عليهم فتهلل الجميع بوحدة الايمان التى جمعت بين قلوبهم فربطتها برباط المودة والولاء .

٥٠٠– وما أن اطمأن قلب الأنبا يؤنس الرابع إلى صلات المحبة بين كنيسته وكنيسة أنطاكية حتى وجه عنايته إلى بناء كنيسة فخمة وإلى جوارها داراً لسكناه فى الاسكندرية . وكان السلام لايزال مستتباً إذ كان أبو عون الوالى المنصف قد أعيد إلى مركزه فى مصر . والسلام حليف العاملين دائماً ، فكان يهيئ للقبط الفرصة للجهاد : روحياً وفكرياً ومادياً ، من غير قلق ولا مشغولية . وفى هذه الفترة من السلام انصرف الأنبا يؤنس الرابع إلى تجديد الكنائس إلى جانب تشييده الكنيسة المرقسية . وقد ساهم الفنانون فى تزيين الكنائس والدار البابوية مما جعلها آية فى الفن المعمارى والزخرفة . وكان بناء الدارين : دار العبادة الرئيسى ودار الراعى الأول للكنيسة ، فاتحة لسلسلة من الانتاج المعمارى فى مختلف البلاد بالقطر المصرى ؟ ولأن الاستقرار والطمأنينة ملآ النفوس فقد سرت روح الاقدام والهمة فى البناء من البابا إلى شعبه المتعطش إلى العمل فسارع إلى تلبية ندائه . ولقد بدأ بتبجيل الشعب فى أنه أبدى نحو باباه ما أبداه المسيحيون الأوائل نحو الرسل الأطهار وذلك بأن جاء إلى راعيه بالمال الوفير وسلمه إياه . فكان يأخذ هذه الأموال ويصرفها



زخارف تزين الحائط الشمالى للهيكل بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان

على عمارة الكنائس وتزيينها بالأيقونات والنقوش والزخارف لتكون وسيلة ترتفع بها النفوس إلى ذروة السماوات .

ولقد وجد الفنان القبطى أن الأشكال الهندسية ذات الزوايا العديدة والأضلاع المتباينة وسيلة للتعبير عن احساسه الخفى باللانهاية ورمزاً مترابطاً عن صحاريه المترامية بسكونها الشامل . ولما كان القبطى مولعاً بالهندسة فقد استعان بأشكالها العديدة ليعبر بها عن غير المنظور ، أو على حد قول جاييه : « جعلها الصورة المرئية لغير المرئى » (١) .

٥٠١– ثم قام الأنبا يؤنس الرابع برحلة راعوية كانت بعيدة الأثر فى

---

(١) راجع كتابه (بالفرنسية) « الفن القبطى » فى مقدمته .

النفوس ، كما يحدث دائمًا من تقارب الراعى والرعية نتيجة لهذه الزيارات . وفى أثناء تنقله بين شعبه كان يرقب الشباب فى اهتمام بالغ . ووجد بين الشباب شماساً متبتلاً متبحراً فى العلوم الروحية اسمه مرقس . وقد حباه الله صوتاً عذباً حنوناً يهز أوتار القلوب . وكان يرتل الأسفار الالهية بحرارة ورقة . ففرح البابا الاسكندرى بعثوره على مرقس هذا وعينه سكرتيراً له . وكان لهذا التعيين فعل السحر لأن المؤمنين كانوا يبكرون إلى الكنيسة ليستمتعوا بالاصغاء إلى قراءات هذا الشماس فتطرب نفوسهم إلى حد أن عيونهم كانت تغرورق بالدموع (١) .

وراقب الأنبا يؤنس الرابع شماسه مرقس باهتمام بالغ . وتهلل قلبه فرحاً حين رأى تعلق الشعب به ، فأكرمه واتخذه له مستشاراً . وامتلأ مرقس غبطة لهذا التقدير البابوى فضاعف جهوده فى الخدمة وازداد تواضعاً . فكانت هذه الجهود سببًا فى زيادة محبة يؤنس الرابع له ، وقرر أن يستصحبه إلى دير الأنبا مكارى الكبير مجمع النساك ومسكن الحكمة الالهية ومحراب الصلوات المتصاعدة نحو السماء بلا فتور . وهناك أقام البابا الاسكندرى شعائر الاسكيم المقدس وألبس مرقس اياه . وما أن تمت هذه الشعائر المقدسة حتى تقدم ناسك شيخ وصافحه مهنئاً ثم قال : « إن هذا الشماس يستحق أن يجلس على كرسى أبيه العظيم مرقس البشير ناظر الالهيات » .

٥٠٢ – وكان من أثر النجاح المتواصل الذى أحرزه الأنبا يؤنس الرابع فى تثبيت قلوب المؤمنين على العقيدة الأرثوذكسية، وفى تشييد الكنائس، أن امتلأ قلب الخلقيدونيين حسداً . فحاول زعيمهم أن يقيم فى طريق البابا الاسكندرى العراقيل ، ودبر المؤامرات للايقاع بينه وبين الوالى أبى عون . على أن كل محاولاته ذهبت أدراج الرياح بنعمة اللّه الذى حنن قلب هذا الوالى المنصف على القبط إلى درجة دفعته إلى أن يشجع الأنبا يؤنس الرابع وشعبه فى جهادهم ، ويعلن لهم فى كل مناسبة ما يكنه لهم فى قلبه من حب وتقدير.

---

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج طبع فى جامعة كامبردج سنة ١٩٢٨ جـ٣ ص٨٢٢ .

٥٠٣- وفى وسط هذا السلام الشامل والعمل المثمر حدث ما لم يكن فى الحسبان : فقد جاء الحصاد ناقصاً نقصاً كبيراً أدى إلى انتشار المجاعة . وتلفت الأنبا يؤنس الرابع حوله فرأى أبناءه يسقطون بالمئات ، فامتلأ قلبه حزناً ووجعاً . واندفع بقوة هذا الحزن والوجع إلى أن يقوم بمجهود مضاعف : المجهود الأول هو الصوم والصلاة فى حرارة واستعطاف ، والمجهود الثانى هو فتح مخازن الكنيسة للمحتاجين من الشعب وتوزيع ما فيها على الجميع - المسلمين منهم والمسيحيين . وفوق هذا الجهاد العنيف فإن البابا الاسكندرى أخذ يتنقل بين الأغنياء من شعبه ويحثهم على المسارعة إلى مد يد المعونة لاخوتهم الذين لم ينعموا بما نعموا هم به . وبهذه الوسائل المتنوعة استطاع الأنبا يؤنس الرابع أن يخفف من حدة المجاعة . ولقد استجابت العناية الالهية لضراعته كما استجابت لتعب محبته فجاء الحصاد التالى فائضاً عن الحاجة (١) .

٥٠٤- وحدث أن انتقل بطريرك أنطاكية إلى مصاف الأبرار (٢) ، فخلفه على هذا الكرسى الجليل راهب قديس اسمه كرياكوس بادر بارسال خطاب الشركة إلى البابا الاسكندرى . ومع أن هذا البطريرك الأنطاكى قد نهج على خطة سلفائه فى ارسال هذا الخطاب إلا أنه رأى أن لا يكتفى بارساله بل انتدب ثلاثة من أساقفته ليحملوا خطابه . وقد رأس الوفد البطريركى الأنطاكى إذ ذاك مارأنسطاسيوس مطران دمشق . وقد قوبلوا جميعاً بحفاوة بالغة وتلقاهم البابا المرقسى بفرح روحى . وقد رأى أن يزيد المحبة البادية من الأنطاكيين فقرأ الخطاب على الشعب المجتمع فى الكنيسة يوم الأحد للصلاة . كذلك رجا من ضيوفه الأماجد أن يقضوا بضعة أسابيع فى بلادنا فقبلوا رجاءه .

---

(١) : تاريخ البطاركة ، مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن نسخة قديمة محفوظة فى دير البرموس جـ١ ص١٩٤ حيث يقول : وكان يشاهد على باب البطريرك خلق كثير من كل جنس وهو يقوم بهم حتى أن رائحة طيبه الحسنة فاحت . وكان يدعو الرؤساء والأغنياء ويحثهم على الرحمة ويقول لهم اغتنموا هذا الوقت . وكان يذكرهم بكلام الأنبياء ... » .

(٢) تعبير كنسى يكنى عن الموت .

وفى أثناء اقـامتهم زاروا الكنائس والأديـرة القـديمة كما زاروا عـدداً مـن الأمـاكن التى تقدست بأنفاس لباس الصليب (١) ومنها المكان الذى استشهدت فيه القديسـة دميانة وزميلاتها . وقـد ورد فى سيرة الأنبا كيرياكوس مـا أبلغـه إيـاه مـارأنسطاسيوس وشركاؤه فى الخدمة الرسولية من اعجاب بجمال كنائس الاسكندرية وبديع نقوشها وبخاصة من نظام تلك الكنائس والطقس الكهنوتى وسكـون الشعب ووقـاره أثـناء تأدية الشعائر الدينيـة (٢) . وهكـذا حمـل أولئـك الأسـاقـفـة عـن بـلادنا الحبيبـة أجمـل الـذكـريـات وأعمـق التقـديـر .

٥٠٥- ولم يمض على هذه الزيارة إلا أيام معدودات حتى انتقل الأنبا جاورجيوس أسقف بابلون إلى مساكن النور . فحزن شعبه عليه لصلاحه ورحمته . ثم طلب إلى الأنبا يؤنس الرابع أن يقيم سكرتيره أسقفًا عليهم . ففرح البابا الاسكندرى لهذا الطلب فرحًا عظيمًا لما كان يعلمه من استحقاق مرقس لكرامة الأسقفية السامية . فلما سمع هذا الراهب بالكرامة التى يبغى شعب بابلون برضى باباه أن يمنحه اياها اختفى عن الأنظار . وعبثاً حاول المؤمنون أن يعرفوا أين اختبأ . فاضطر الأنبا يؤنس الرابع إلى رسامة راهب غيره اسمه ميخائيل . وظل مرقس مختفياً حتى بعد رسامة أسقف بابلون مما جعل البابا الاسكندرى يستمر غاضباً عليه ولكن ضميره أنّبه على ذلك فبعث برسالة إلى راهب شيخ متوحد فى ضاحية البرلس أعلمه فيها بأنه لايزال عاتبًا على تلميذه الذى يحبه . فرد عليه هذا المتوحد برسالة سكنت خاطره ، قال له فيها : « الأحرى بك أن تغتبط بمسلك تلميذك بدلاً من أن تغضب عليه. لأن الآب السماوى قد كشف لى عن صونه له لكى يجلس فى الوقت المعين على كرسى قديسنا العظيم مارمرقس ، فيخلفك فى رعاية شعب المسيح له المجد . ولو أنه لم يهرب . ونال كرامة أسقفية بابلون لكان اختلط لنفسه

(١) هذه الكلمة هى الترجمة الحرفية للكلمة اليونانية القبطية « استفروفورس » ومعناها « متشح بالصليب » .

(٢) دليل المتحف القبطى لمرقس سميكه جـ١ ص٥٩ .

طريقاً غير الذى هيأه له رب الكنيسة ، (١) . فجاءت هذه الكلمات بلسماً لقلب الأنبا يؤنس الرابع ، وعاود البحث عن تلميذه . فانتشر رسله فى الصحارى والأديرة حتى عثروا على مرقس ، وطلبوا إليه أن يعود للعمل كسكرتير البابا المرقسى مادام الكرسى الشاغر قد وجد من يعتليه . فأطاعهم مرقس وذهب معهم . ومنذ تلك اللحظة لازم باباه ملازمة الظل .

٥٠٦– وحدث فى تلك الأيام أن قام رجل من بنى أمية يقطن الصعيد ونادى بنفسه خليفة على البلاد المصرية . فناصره أهل الصعيد بجموعهم الحاشدة حتى أن جيش الوالى لم يستطع التغلب عليهم . وفى أثناء هذه المعارك الحامية حدث أمر غاية فى الغرابة .. فقد تحدى أخو الوالى زعيم الثوار لينازله منازلة شخصية فقبل التحدى وتقدم لمنازلته . فاندفع كل من الغريمين اندفاعاً خاطفاً على خصمه ، ونجح الاثنان فى أن يغمد كل منهما سيفه فى صدر الآخر . ولم تمض دقائق معدودة حتى كانا الاثنان قد أسلما الروح . وعندها ملأ الذعر قلوب الجيش فانسحبا من الميدان . غير أن انسحابهما لم يطل سوى أيام قلائل عاود الثائرون بعدها تمردهم فى وجه العباسيين . وترددت أصداء القتال من أقصى الصعيد إلى أقصائه ، واشتدت حدة المعارك فاضطرت الخليفة المهدى إلى أن يرسل الفضل بن أبى صالح العباسى على رأس قوة جديدة من الجيش لقمع هذه الثورة العارمة . فتمكن بعد جهد جهيد من أن يتغلب على الثوار ويعيد السلام إلى البلاد (٢) .

٥٠٧– وكان الفضل بن صالح العباسى ممن يحبون العدل والانصاف ويكنون للمسيحيين المودة ، فقامت بينه وبين الأنبا يؤنس الرابع صلات من الألفة والتفاهم . على أن أبا الفضل – رغم عدالته – كان يشتهى أن يستقل

(١) راجع ما ورد فى الجزء الأول لهذا الكتاب وفى الفصل الخاص بالمجمع المسكونى الثانى عن القانون الرسولى الذى يحرم نقل الأسقف من ايبارشية إلى أخرى ، وقارن بينه وبين موقف الأنبا ميخائيل الأول (البابا الاسكندرى الـ٤٦) من أسقف حاران .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول – الطبعة الخامسة لندن سنة ١٩٣٦ ص٣٤ .

بحكم مصر . فما أن مات المهدى وتولى الهادى الخلافة بعده حتى استدعى أبا الفضل وعين على ابن سليمان العباسى (ابن أخيه) فى مكانه .

٥٠٨- ولم يكد يتسلم هذا الوالى الجديد مقاليد الحكم حتى توهم أن هدم الكنائس مما يأمر به الدين الاسلامى ، فأمر بهدم عدد كبير منها رغم أنه أحسن معاملة القبط ! فأدى توهمه هذا إلى أن هدم بعض المتعصبين عدداً آخر من الكنائس .

ولما عرف البابا الاسكندرى أخبار التخريب ترك الاسكندرية وذهب إلى الفسطاط وغيرها من المدن ليقف بنفسه على ما جرى لكنائسها . وامتلأ قلبه حسرة حين رأى عدد الكنائس المتهدمة ، وانهمرت الدموع من عينيه لرؤيتها على هذه الحال .

٥٠٩- ثم استقر رأى الأنبا يؤنس الرابع على أن يقيم شعائر القداس فى كنيسة تهدم سقفها . وكانت دموعه تنساب على خديه طيلة مدة الصلاة ، واقترنت دموعه بالضراعة إلى الآب السماوى أن يمنح المؤمنين نعمة من لدنه تحفظهم من الفشل وتقوى عزائمهم حتى يتمكنوا من معاودة بناء الكنائس التى تهدمت .

وكان لحرارة الصلوات التى رفعها البابا الاسكندرى أثر عميق فظهر له ملاك الرب عن يمين المذبح وقال له : « ليتعزَّ قلبك أيها الخادم الأمين للكلمة المتجسد ، فقد جاهدت الجهاد الحسن (١) واستحققت أن تنال الثواب من يدى الآب السماوى الذى لا ينسى تعب المحبة . وهو سيمنح البابا الآتى من بعدك نعمة تجديد كل الكنائس المتهدمة استجابة لصلواتك » (٢) . فامتلأ قلب الأنبا يؤنس الرابع نشوة روحية انعكست على وجهه ، فتعجب الشعب حين رأى النور الفياض الذى اكتنفه عند نهاية القداس الالهى .

---

(١) ١ تيموثيئوس ٦ : ١٢ ، ٢ تيموثيئوس ٤ : ٧ .

(٢) قارن ضراعة الأنبا يؤنس الرابع ليهيئ له الآب السماوى الفرصة لكى يعيد بناء الكنائس المتهدمة والاجابة على هذه الضراعة مع تلهف داود على بناء هيكل الله تعالى والرد عليه - ٢ صموئيل ٧ ، الأخبار الأولى ١٧ ، مزمور ١٣٢ .

٥١٠- وكان من أثر هذه الرؤيا السماوية أن امتلأ قلب الأنبا يؤنس الرابع سلامًا ، واطمأن إلى حال الكنيسة . ومع هدوئه النفسى الكامل فقد أحس بتوعك جسمى أدرك معه أن ساعته قد جاءت ليترك هذا العالم الفانى ويعود إلى الآب السماوى . وعندها استقر رأيه على السفر إلى الاسكندرية فوراً . فذهب معه الأنبا ميخائيل أسقف بابلون والأنبا جرجه أسقف منوف . واتفق يوم دخولهم الاسكندرية أن بلغهم نبأ وصول والٍ جديد إلى مصر يلقب بلبيب الدولة وكان عادلاً يحسن معاملة المسيحيين . وحين سمع البابا المرقسى نبأ وصول هذا الوالى الجديد قال للأساقفة : « حقًا إن مراحم الله عظيمة ، لأن ملاك الرب قد أعلمنى بأن ساعتى قد دنت ، وأن والياً جديداً سيتولى الأمور فى بلادنا العزيزة ويبدى العطف نحونا . فحين تدنو ساعتى أولوا اختياركم البابا الجديد اهتماماً خاصاً » . فلما سمع الأساقفة هذا الكلام أحسوا فى أعماق قلوبهم بأن الأنبا يؤنس الرابع سيتركهم بالجسد ، فقالوا له : « قل لنا يا أبانا المكرم- من الذى أشار به عليك الملاك بأنه المختار من الله ؟ » أجابهم: « نعم . لقد أعلمنى به ملاك الرب . وكنت أريد رسامته أسقفاً . فحفظته العناية الالهية لهذه الكرامة العظمى . وهذا المختار من الرب هو مرقس سكرتيرى وابنى الروحى » .

ولم تمض غير أيام قليلة على هذا الحديث حتى انتقل الأنبا يؤنس الرابع إلى الأخدار السماوية بعد أن قاد دفة الكنيسة أربعاً وعشرين سنة (١) .



(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس جـ١ ص١٩١ - ١٩٩ .

دانيال ثان فى حكمته

٥١١- كان الراهب مرقس سكرتير الأنبا يؤنس الرابع من الشخصيات النادرة الذين لا تبهرهم الدنيا بزخرفها ، فزهدوا فى أمجادها . بل لقد بلغ به الزهد أن هرب من المناصب الكنسية العليا ، وذلك حين وجد نفسه محط الأنظار لأسقفية بابلون . وعندما رأى أن البابا الاسكندرى الذى يجله قد استودع روحه يدى الآب السماوى ، وبلغه ما قاله الأساقفة ، هرب إلى الصحراء . بينما كانوا منشغلين باقامة مراسيم الجنازة عن نفس أبيهم الروحى. فغادر الاسكندرية خلسة . ولما انتهى الأساقفة من الشعائر الدينية ، قرروا الذهاب إلى بابلون للتشاور فى أمر الانتخاب . فاتفقوا على تنفيذ وصية باباهم الراحل وقصدوا إلى الاسكندرية للقيام بشعائر الرسامة على أنهم - حين وصلوا إلى هذه العاصمة - علموا أن مرقس قد هرب منها . فأيقنوا أنه لابد أن يكون قد لجأ إلى الصحراء مرة أخرى فاختاروا عدداً من خبراء الصحارى فى اقتفاء الأثر ، وطلبوا إليهم البحث عن الراهب الهارب . فاندفع هؤلاء الخبراء إلى

الصحراء ، ولم يلبثوا أن عثروا على مرقس - ضالتهم المنشودة . فبادروا إلى تقييده ، وساقوه إلى الاسكندرية حيث أقيمت المراسيم الدينية مباشرة ، فأصبح الأنبا مرقس الثانى البابا الاسكندرى التاسع والأربعين سنة ٥٠٦ش (٧٩٠م).

٥١٢- وكان الأحد الأول بعد الرسامة ليلة الصوم الأربعينى . فانتهز الأنبا مرقس الثانى هذه المناسبة ليوضح الايمان ويبين للشعب الأسباب التى بنى عليها الآباء رفضهم لقرارات خلقيدون . ثم قام بشعائر القداس الالهى وناول الشعب من الأسرار المقدسة . وحالما انتهى غادر الاسكندرية قاصداً إلى دير الزجاج لينصرف فيه إلى التأمل والعبادة فى فترة الصوم المقدس حسب التقاليد التى سار عليها باباوات الكرازة المرقسية منذ انشاء الأديرة .

٥١٣- فلما انتهى الصوم ، واحتفى الأنبا مرقس الثانى بعيد القيامة المجيدة مع الرهبان ، ترك البرية وقصد إلى الفسطاط . ومرّ فى طريقه بالأنبا ميخائيل أسقف بابلون ، ورجا منه أن يذهب معه للسلام على لبيب الدولة - والى مصر . وما كاد الوالى يرى البابا الاسكندرى حتى نشأت بينهما مودة وثيقة العرى . وبعد أن تبادل الرجلان التحية قال لبيب الدولة لضيفه الكريم : « أطلب ما تشاء أنفذه لك فوراً » . فصمت الأنبا مرقس الثانى برهة من الزمن عاد الوالى بعدها يقول : « عليك الطلب وعلىّ التنفيذ - فأطلب ما تريد » . فابتسم البابا الاسكندرى ابتسامة هادئة ثم قال : « أنت تعرف أن سلطانى إنما هو على الأرواح دون الأجساد ، وأن من واجبى أن أعمل على رفع النفوس نحو اللّه سبحانه وتعالى . وليس هناك من وسيلة أقوى أثراً من بناء الكنائس لبلوغ غايتى هذه . فأرجو أن تأذنوا لى ببناء الكنائس اللازمة وترميم المتهدم منها . وليس لى غير هذا الطلب » . فأجابه لبيب الدولة على الفور : « إن طلبك مقبول أيها البابا الجليل » . ثم أصدر أمره لأولى الشأن بتنفيذ ما يطلبه البابا الاسكندرى منهم .

٥١٤- ثم عاد الأنبا مرقس الثانى منشرح الفؤاد إلى الاسكندرية ، وبعث برسالة الشركة إلى أخيه فى الخدمة الرسولية الجالس على السدة الأنطاكية

على يد أسقفين (١) من أساقفة الكرازة المرقسية يجيدان اللغة اليونانية . وقد قوبل هذان الأسقفان بحظوة بالغة من الأنطاكيين . ثم قرأ الحبر الأنطاكى رسالة أخيه الاسكندرى على مسامع الشعب . واشترك الجميع فى تمجيد الله الذى أتاح لمثل هذا البابا القديس الجلوس على الكرسى المرقسى . وقضى الأسقفان المصريان أياماً فى ضيافة اخوتهما الأساقفة الأنطاكيين ، عادا بعدها إلى مصر يحملان إلى البابا المرقسى رد البطريرك الأنطاكى الذى عبر فيه عن ابتهاجه وابتهاج شعبه بوحدة الايمان الأرثوذكسى وائتلاف الكرسيين الأنطاكى والاسكندرى .

٥١٥- وكان بين القبط عدد غير قليل قد ضل عن جادة الحق ووافق على قرارات مجمع خلقيدون . وكان الأنبا مرقس الثانى يشعر بحزن عظيم لوجود هؤلاء الناس بين رعيته ، فكان يصلى من أجلهم ليل نهار بدموع غزيرة قائلاً : « أيها الآب السماوى ، أنت هو النور الذى يفوق كل ادراك . وأنت هيأت لنا سبيل الخلاص بتجسد الابن الكلمة . ولعظم محبتك ذهبت فى طلب الضال . فتوغلت فى البرية باحثًا عن الخروف الواحد الذى تاه . وحين وجدته دعوت الجند السماوى ليفرحوا برجوعه . والآن يا سيدى - أنظر إلى أولادك الذين زاغوا عن الحق ، وحرك قلوبهم إلى التوبة والرجوع إلى أمهم الرؤوم التى هى كنيستك الأرثوذكسية الجامعة الرسولية ، فصعدت هذه الصلاة من فم البابا الاسكندرى إلى عرش النعمة كالبخور الزكى ، وتقبلها الآب السماوى بنعمته ، فحرك قلب رئيس هذه الجماعة المدعو ابراهيم ، كما حرك قلب أبيه الروحى جرجه - إلى التوبة الصادقة الصادرة من أعماق نفسيهما . فقصدا إلى البابا الاسكندرى وأعلنا له توبتهما وتوبة كل جماعتهما ، ثم استعطفاه ليقبلهم جميعاً فى شركة الكنيسة التى تنكروا لها عن جهل . فتطاير قلب الأنبا مرقس الثانى فرحًا بهذه التوبة ، ولكنه لم يستسلم لهذا الفرح الجارف، بل كتمه فى قلبه وأخذ يمتحن ابراهيم وجرجه ليعرف مدى

---

(١) مما يؤسف له أن كل ما نعرفه عن هذين الأسقفين ينحصر فى أن أحدهما كان أسقف تنيس وثانيهما كان أسقف القلزم ، ولا توجد مخطوطة واحدة تتضمن شيئاً عن حياتهما .

صدقهما . فتبين له أنهما تابا توبة صادقة كما تابت الجماعة كلها . وحين تبين الأنبا مرقس الثانى هذه الحقيقة ، أفصح لهما عن فرحه الجارف ، وصلى على كل التائبين ثم قبلهم فى شركته بأن ناولهم من الأسرار المقدسة . وقد أراد هؤلاء التائبون أن يعبروا عن شكرهم لما أبداه هذا البابا الجليل من عطف عليهم ، فأطلقوا على كنيستهم اسم « كنيسة البطريرك » ، وذلك لأن الأنبا مرقس الثانى كان قد رممها وزخرفها على نفقته الخاصة .

٥١٦- ولما اطمأن قلب هذا البابا إلى أن التائبين قد عرفوا حقيقة الايمان الأرثوذكسى بالفعل ، عاد إلى الاسكندرية . فخرج الاسكندريون لاستقباله فى جموع حاشدة ، وهنأوه على تثبيت العقيدة القويمة داخل قلوب الذين كانوا قد ضلوا بعيداً عنها . ثم طلبوا إليه أن يأذن لهم ببناء كنيسة على اسم « مخلص العالم » فى قلب المدينة . فابتسم فى هدوء وقال لهم : « إن مثل هذا العمل قد يستثير حسد الخلقيدونيين فيشتكونا إلى الوالى بحجة أننا تعدينا حدودنا » . فأجابوه لساعتهم : « ستكون صلواتكم حصناً حصيناً لنا يقينا كل شر حتى نكمل بناء الكنيسة » . وتهلل قلبه لسماع هذه الاجابة ولما أبداه الجميع من حماسة واستعداد للبذل . فأذن لهم بالبناء . وشرعوا فيه مباشرة . وقد ازداد فرح البابا حينما رآهم يعملون بهمة ونشاط . فكان - إذا ما قام للصلاة فى الساعات الكنسية المحددة (١) . يتفقدهم ويشترك معهم فى البناء بيديه . ثم اختار أمهر الفنانين والصناع لنقش الكنيسة وزخرفتها . وقد تضاعف حماس الشعب لما رآه من تشجيع باباه له ، فتم بناء الكنيسة بسرعة - وقد جاءت آية فى الجمال . وقد كرسها الأنبا مرقس الثانى فى السابع عشر من شهر توت المبارك ، واحتشدت الجماهير للاحتفال بهذا التكريس الذى بلغ حداً كبيراً من الروعة . كذلك انتهز البابا الاسكندرى وأراخنة الشعب هذه الفرصة فأجزلوا العطاء للمعوزين وامتدت الموائد الدسمة للجائعين . فكان يومًا فاضت فيه

---

(١) هذه الساعات سبع وهى : باكر ، الساعة الثالثة (أى حوالى التاسعة صباحاً) ، السادسة (وقت الظهر) ، التاسعة (حوالى الرابعة بعد الظهر) ، الغروب ، النوم ، نصف الليل .

السعادة ، وتشارك الجميع الود حتى أنهم أحسوا بأنهم لمحوا قبسًا من بهاء الفردوس .

٥١٧- على أن فيض الهناءة الذى طغى على القلوب يومذاك اصطدم بالحواجز والسدود التى أقامتها الأهواء الانسانية . ذلك أن العباسيين قد انتهجوا فى مصر سياسة أدت إلى عدم الاستقرار . وتتلخص هذه السياسة فى عزل الوالى فترة قصيرة واستبداله بغيره ، خوفًا من أن تقوم بينه وبين المصريين روابط المودة ، فتسول له نفسه بأن يستقل بالحكم . وهذه الخطة - وإن ساعدت على ترسيخ الحكم العباسى - إلا أنها أضرت بالمصريين لأنهم كانوا كلما آنسوا إلى والٍ وبدأوا ينصرفون إلى عملهم فى ثقة ونشاط يجدون هذا الوالى مضطراً إلى مغادرة البلاد لأن الأمر بعزله قد صدر . ولهذا قامت الفتن العديدة فى عهد العباسيين إذ كان المسلمون يعلنون سخطهم على هذا التغيير فينضم إليهم القبط (١) .

وكان هارون الرشيد - خامس الخلفاء العباسيين وأعظمهم شهرة - متربعاً على عرش الخلافة أيام أن كان الأنبا مرقس الثانى متوليًا أمور الكنيسة المصرية . وكان عصر هارون الرشيد ذهبيًا ازدهرت فيه العلوم والفنون ، واستمتعت فيه الشعوب بالعدالة والطمأنينة . إلا أنه اتبع سياسة سلفائه فى تغيير الولاة بسرعة كى لا يستطيع أحدهم الاستقلال بالبلد الذى يتولى أمره . وكانت سياسة الوالى الجديد تختلف فى غالب الأحيان عن سياسة سلفه ومما زاد الطين بلة أن الأيدى العاملة نقصت فلم تعد الأرض الخصبة تنتج المقدار الكافى من الغلال لاشباع الجماهير . وهكذا تألب على المصريين عدوان قاسيان : حصاد شحيح وجزية فادحة . ولم يكن هذان العدوان - رغم قسوتهما - بالقوة الباطشة الوحيدة فى مصر فى تلك الفترة ، بل تآمر معهما ما ظهر من بوادر الشقاق المرير بين السنيين والشيعيِّين - أو بين مناصرى

---

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پول طبع فى لندن سنة ١٩٣٦ ص٣ حيث يقول : " The period of the government of Egypt under the ' Abbasid caliphs of Baghdad was distracted by frequent insurrections . Those were due less to the Copts (who joined in, rather than caused rebellion) than to the Muslims themselves "

الأسرة العلوية (١) ومساندى أصحاب الحكم الفعلى ، وهم العباسيون . وفوق هذا كله فقد نشط الخوارج (٢) فأحدثوا الكثير من الشغب والاضطراب ، وبخاصة أنه كان لهم حزب قوى فى مصر . فكأنما تحالفت العوامل المادية مع العوامل الروحية على ايذاء المصريين : القبط منهم والمسلمين (٣) فى هذه الفترة من تاريخهم العجيب .

٥١٨– وفى وسط هذا الوقت العصيب الفائر بالاضطراب والثورات توفى هارون الرشيد إلى رحمة مولاه . فأدت وفاته إلى أن اختصم ابناه على الخلافة. فقد كان المأمون الابن الأكبر ولكن أمه كانت جارية ، بينما كان الأمين ابن الحرة مع أنه الأصغر . وقد أدى خصام المأمون والأمين إلى حرب طاحنة بينهما . وكان نصيب مصر من الشقاء نتيجة لهذه الحرب القائمة بين الأخوين نصيب الأسد ذلك لأن كلاً من الأخوين عين والياً ليسوس مصر باسمه . وكان الأمين بعيد النظر فعين شيخ قبيلة القيس لهذه الوظيفة ، إذ أن هذه القبيلة كانت مناوئة للحكومة القائمة وقتذاك . ولقد وجد كل من الواليين مشايعين ناصروه وقاتلوا الفريق الآخر . وفى هذا القتال الداخلى انتصر أنصار والى الأمين وتمكنوا من قتل والى المأمون (٤) . وبينما كان المصريون منشغلين بالتعارك بعضهم ضد بعض ، رأى امبراطور القسطنطينية أن الفرصة مواتية ، فأرسل أسطوله ليغزو دمياط أملاً فى استرجاع حكمه على مصر (٥) . وفى الوقت عينه انتهز أحد الخوارج الفرصة لاعلان نفسه والياً على مصر .

٥١٩– وكأنى بهذه البلايا كلها لم تكن كافية لأن يطفح الكيل للمصريين

---

(١) كان على بن أبى طالب ابن عم النبى محمد وزوج ابنته فاطمة الزهراء ، فكان أنصاره يعرفون بالعلويين نسبة إليه ، وكانوا ينادون بوجوب حصر الخلافة فى أبنائه .

(٢) هم الذين خرجوا على النبى محمد وثاروا على رسالته .

(٣) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول طبع فى لندن سنة ١٩٣٦ ص٣١ .

(٤) شرحه ص٣٥ .

(٥) تاريخ مصر الاسلامية لالياس الأيوبى طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٥ ص١٠٤ .

بالمرارة بل زادها قسوة وفود خمسة عشر ألفاً من اللاجئين الأندلسيين عليهم . وكان هؤلاء الأندلسيون قد قاموا بثورة فاشلة ضد الخليفة الأموى الذى قهرهم وأمر بنفيهم (١) . ورغم أنهم وجدوا فى مصر الأمن والاستقرار فقد عاثوا فيها فساداً، إذ كانوا يضرمون النار فى بيوت العبادة ويتحرشون بالمصريين الآمنين . ولم يكفهم هذا الأذى بل تعدوه إلى أذى اليونانيين ، فكانوا ينقضون على الجزائر اليونانية يسلبون وينهبون ويخطفون من يستطيعون خطفه من الرجال والنساء والأطفال ثم يبيعونهم فى أسواق الاسكندرية . فلما سمع الأنبا مرقس الثانى أن هناك قوماً يباعون كالسلع طغى عليه الحزن . فدفعه قلبه العامر بالمحبة أن يشترى أكبر عدد من هؤلاء اليونانيين البائسين ويعطيهم صكاً بالعتق ثم يخيِّرهم بعد ذلك بين العودة إلى بلادهم والبقاء فى مصر . فمن شاء منهم أن يعود دفع له أجرة السفر ، ومن اختار البقاء فى وادى النيل الرحيب سلمه إلى معلمين موثوق بهم . ويبدو أن أعمال القرصنة التى قام بها الأندلسيون قد زادتهم صلفاً واستهتاراً بحياة الآخرين فكانوا يتسلون بين انقضاضهم على الجزر اليونانية بالمشاجرة مع الاسكندريين . وقد سقط العدد العديد من القتلى فى هذه المشاجرات المحلية وعمّ الحزن والقلق .

٥٢٠- ورأى الأنبا مرقس الثانى أن يواسى شعبه الاسكندرى فى محنته الواقعة عليه من هؤلاء الأندلسيين فكان يتجول بينهم ليشدد عزائمهم ويملأ قلوبهم ثقة واطمئناناً . غير أن الأندلسيين المتمردين الذين اضطروا إلى ترك وطنهم اضطراراً تمادوا فى التنكيل بالاسكندريين - شأنهم فى ذلك شأن كل موتور لا يستطيع التشفى ممن أذاه فيتحول عنه إلى أذى غيره . فلما رأوا أن البابا الاسكندرى يعمل جهده على تعزية القلوب الموجعة ، أخذوا يشددون عليه الخناق حتى لقد اضطروه فى نهاية الأمر إلى مغادرة عاصمته وحينما ترك الاسكندرية لم يستقر فى مكان واحد ، بل أخذ يتنقل من بلد إلى بلد لكى يتجنب الوقوع فى أيدى الأندلسيين الذين أضروا بالمصريين ضرراً بالغاً مدى

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى ... ص٣٥

خمس سنوات . وبعد انقضاء هذه السنوات الخمس قصد أرخن اسمه مكارى إلى الأمير عبد العزيز والى المشرق وأطلعه على حقيقة أمر هؤلاء الأندلسيين ، واضطرار البابا المرقسى إلى التجول بين شعبه تفادياً للوقوع فى قبضتهم . فأعطاه عبد العزيز خطاباً يخوله استضافة الأنبا مرقس الثانى فى بيته ريثما يتمكن هو من احلال الأمن محل الفوضى . ففرح الأرخن مكارى بتصريح عبد العزيز ، وعاد لفوره إلى مصر وقصد إلى البابا ورجا منه أن ينزل ضيفاً عليه مكرماً معززاً . فانشرح قلب الأنبا مرقس الثانى لهذه الدعوة الكريمة إذ كان قد سئم حياة التنقل وعدم الاستقرار .

٥٢١- وبينما كان الأنبا مرقس الثانى مقيماً فى ضيافة ابنه الأمين مكارى بلغه نبأ انتقال الحبر الأنطاكى إلى مساكن النور وقيام خليفته البطريرك ديونيسيوس على كرسى أنطاكية . فبعث إليه برسالة الشركة ، مهنئاً متمنياً دوام المحافظة على الايمان الأرثوذكسى المقدس والوحدة بين كنيستى أنطاكية والاسكندرية لتظل نعمة المحبة مدعمة بينهما .

٥٢٢- وبدا كأن نهاية القلاقل على وشك الانتهاء ، وإذا بشدة جديدة لم تكن فى الحسبان : هى أن قبائل البربر أغارت على وادى النطرون ، فخرّب المغيرون صوامعه وقتلوا الرهبان القاطنين فيها . ولم ينج من أيدى هؤلاء البربر غير عدد قليل تشتت فى أنحاء الصحارى الشاسعة . فعاود الحزن قلب الأنبا مرقس الثانى ، وبكى بكاء مراً على الأديرة وساكنيها . وتضرع إلى الله أن يجعل هذه الكارثة خاتمة حياته ، لأن ما حل فى عهده من بلايا قد حطم قلبه وملأه ألماً على ألم . فاستجاب الله لتضرعاته ، وأرسل إليه ملاكاً من عنده يقول له : « لا تجزع أيها الخادم الصبور ، لأنك ستنتقل إلى الأخدار السماوية يوم عيد القيامة المجيدة . وهذه هى العلامة : حين تنتهى من خدمة القداس الالهى ليلة العيد وتتناول من الأسرار المقدسة ستنطلق روحك من أسر هذا الجسد » .

فلما استيقظ الأنبا مرقس الثانى صبيحة تلك الليلة ، أخبر الأساقفة الذين كانوا معه يومذاك بالحلم الذى رآه . وقد تحقق حلم البابا الاسكندرى إذ لم يكد

ينتهى من شعائر القيامة المجيدة حتى انطلقت روحه إلى بيعة الأبكار (١) .

٥٢٣- اشتهر هارون الرشيد بالكرم الحاتمى والعدالة الممتازة إلا فيما يتعلق بمقتل أصدقائه البرامكة ، الذى لايزال الباعث إليه سراً غامضاً . ومما يروى عن هذا الخليفة أنه عقد أواصر الوداد مع شرلمان ملك غاليا (فرنسا) ، فأهدى إليه هدايا فاخرة بينها ساعة دقاقة أثارت دهش الغاليين يومئذ ، فزعموا أن بها روحاً شيطانياً ! وأن استغراب الفرنسيين الذى دفع بهم إلى هذا الزعم يومذاك لدليل قاطع على أن الشرق كان له قدم السبق فى مختلف الميادين : فلم ينبت فى أرضه رسل الديانات السماوية فحسب ، وإنما تفوق فى المدنية المادية أيضاً . وهذه الحادثة تبين لنا أن أهل بلادنا الشرقية قد تفننوا فى صنع ساعة توهم الغربيون أنها من السحر . ولولا الاستعمار ما تأخرت شعوبنا العزيزة التى يدل تاريخها على عظمة انتاجها الفكرى والمادى . وحين تسلم شارلمان هدية هارون رحب بها وأرسل بدوره الهدايا إلى الخليفة العباسى . ثم انتهز الفرصة فرجا منه أن يسمح لبعض الرهبان الفرنجة بالاستقرار فى القدس الشريف لحراسة قبر السيد المسيح (٢) فقبل هارون هذا الرجاء ، وظل الرهبان مقيمين بالقدس حتى اليوم . وقد استغل هؤلاء الرهبان فرصة اقامتهم فى الأماكن المقدسة ليستميلوا إلى مذهبهم من يستطيعون استمالته من الأرثوذكس الشرقيين فأساءوا حق الضيافة .

ولقد نسج الخيال الكثير من القصص حول هارون الرشيد وعصره ، ولكن حتى بعد التغاضى عما فى القصص من خيال ، وبعد الاكتفاء بتتبع الوقائع الجافة ، فإن شخصية هذا الخليفة العباسى تظل قوية براقة تنتزع التقدير والاعجاب (٣) .

---

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة البرموسى الصوامعى عن نسخة محفوظة بدير البرموس جـ١ ص١٩٩ - ٢١٤ .

(٢) مصر : من مينا إلى فؤاد الأول (بالفرنسية) للآب دى هينو طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٥ ص٢١٢ - ٢٢٣ ، تاريخ القدس لعارف باشا العارف ص٥٤ .

(٣) الخلافة : ازدهارها انحلالها فسقوطها (بالانجليزية) للسير وليم موير طبع فى ادنبرج سنة ١٩١٥ ص٤٨٥ - ٤٨٦ .

أحداث حاسمة

أ- باباوية الأنبا ياكوبوس الأول

(٥٢٤) تشتت الرهبان بعد هتك البربر.
(٥٢٥) ياكوبوس يهرب إلى الصعيد ثم يعود إلى دير الأنبا مكارى.
(٥٢٦) انتخابه للجلوس على السدة المرقسية.
(٥٢٧) الجدل حول ايمان الكنيسة بانبثاق الروح القدس.
(٥٢٨) تجديد الكنائس والصوامع فى برية شيهيت.
(٥٢٩) الأنبا ياكوبوس الأول يقوم برحلة راعوية.
(٥٣٠) تعاليم الآباء المصريين تسرى بين الشعوب رغم عزلة كنيستهم.
(٥٣١) رسالة الشركة إلى الحبر الأنطاكى.
(٥٣٢) زيارة مار ديونيسيوس لمصر للمرة الأولى.
(٥٣٣) عدالة ابن طاهر وحثه بقية الولاة على حسن معاملة المسيحيين.
(٥٣٤) الزيارة الثانية لمار دونيسيوس.
(٥٣٥) انطلاق الأنبا ياكوبوس الأول من أسر الجسد.

٥٢٤- إن تعاقب الأيام والليالى يجر فى طياته الأحداث المختلفة : الجسام منها والتافه . ومن الأحداث التى هزت الكنيسة القبطية هجوم قبائل البربر على أديرة وادى النطرون فى آخر عهد الأنبا مرقس الثانى . لأن هجوم هذه القبائل كان عنيفاً إلى حد أنه لم يبق إلا على عدد ضئيل من الرهبان ، أبقتهم العناية الالهية ليكونوا خميرة للنسك فى هذا الوادى العتيق الذى ازدهرت فيه حياة القداسة منذ القرن الميلادى الثانى . وهذا العدد الضئيل لم ينج إلا لفراره من وادى النطرون والتجائه إلى الصحراء جنوباً فى منطقة الصعيد .

٥٢٥- وكان بين النساك الذين لم يقتلهم البربر راهب شاب اسمه ياكوبوس اشتهر بأعماله الصالحة وتقواه وتقشفه ، يعيش فى دير الأنبا مكارى الكبير . فقصد إلى الصعيد الأعلى ، إلى دير مهجور ، وعاش فيه متعبداً

متأملاً . وكان يتحين الفرصة للعودة إلى ديره المحبوب . وذات ليلة ظهرت له السيدة العذراء فى حلم وأمرته بأن يعود إلى دير القديس مكارى الكبير قائلة له : « ستكون أباً لأمة عظيمة . أمة مختارة » . فلما استيقظ ياكوبوس فى اليوم التالى أخذ يفكر فيما رآه وما سمعه ، ولم يشك لحظة واحدة فى الرؤيا التى رآها فقرر أن يطيع أمر والدة الاله ومن ثم قام لفوره وترك الصعيد واتجه نحو وادى النطرون . وما أن وصل إلى دير الأنبا مكارى الكبير حتى ظهرت له السيدة العذراء مرة ثانية وقالت له : « مبارك قدومك إلى هذا الدير العظيم أيها المؤمن الثابت . فتقو فى الرب وفى شدة قوته . ولا تخف البتة لأن رجوعك إلى هذه البرية المقدسة سيجتذب الكثيرين فيأتون إليك ويعمرون الدير من جديد ، فتجمعهم الألفة والمحبة ، ويعيشون كما عاش أسلافهم فى وحدة الروح » . فتهلل قلب ياكوبوس لسماعه هذه الكلمات من أم النور ، وضاعف أصوامه وصلواته ونسكه وتأملاته . ولم يلبث أن أتى إليه العدد العديد من طالبى الرهبنة ليعيشوا تحت رعايته .

٥٢٦– وحدث – بينما كان الأنبا مرقس الثانى يعالج سكرات الموت – أن التف حوله المؤمنون وسألوه عمن سيخلفه على السدة المرقسية ، فذكر لهم اسم الراهب ياكوبوس أبى رهبان دير القديس مكارى الكبير . فلما انتقل هذا البابا الجليل إلى مساكن النور ، نودى بالصوم والصلاة ثلاثة أيام ، أعلن بعدها الأساقفة الذين كانوا محيطين بالبابا ساعة نياحته اسم الراهب الذى نصحهم باختياره فأطاع الجميع هذه الاشارة إذ قد عدوها وحياً من الروح القدس . وفى الحال اتجه مندوبو الأساقفة والأراخنة إلى دير القديس مكارى الكبير ، واقتادوا الراهب ياكوبوس وساروا به إلى الاسكندرية . وكان هو يستعطفهم أن يتركوه لوحدته ، ويذرف الدموع السخية لاخراجه من ديره قائلاً : « إننى لست مستحقًا هذه الكرامة العظمى » . فلما رأى منهم تصميمًا على اقتياده إلى الاسكندرية أخذ يضرع إلى الله أن ينقله إلى جوار آبائه القديسين قبل أن توضع عليه الأيدى . وخلال دموعه وتضرعاته سمع صوتاً من السماء يقول له : « تشجع يا ياكوبوس لأنى سأكون معك » . فهدأت نفسه عند سماعه هذا الصوت السماوى ، وسار مع المندوبين فى سكينة . فأخذوه إلى الكنيسة

المرقسية يتبعهم جمهور الشعب . وهناك أجريت المراسيم الدينية التى اعتلى بواسطتها الكرسى الاسكندرى فأصبح الخليفة الخمسين للقديس مرقس البشير سنة ٨١٠م (٥٢٦ش) ..

٥٢٧- وكانت السنة الأولى لرسامة الأنبا ياكوبوس على السدة المرقسية سنة لها أبعد الأثر فى حياة الكنيسة الجامعة ، لأن الخرق بين الشرق والغرب أخذ يتسع وقتذاك. واستمر الخرق فى الاتساع إلى أن انفصل الشطران بعضهما عن بعض فى النهاية . وقد بدأ الخرق يتسع سنة ٨١٠م نتيجة لجدل جديد اشتعلت نيرانه إذ ذاك . وكان الجدل قد بدأ فى الواقع سنة ٥٨٩م فى المجمع المحلى المنعقد فى مدينة توليدو بأسبانيا إذ أعلن الملك ريكاردو (١) دستور الايمان الذى يتمسك به هو وقومه فإذا به قد أضاف إلى دستور الايمان الذى أقرته الكنيسة الجامعة فى مجمعى نيقية والقسطنطينية وأيدته فى مجمع أفسس (٢) إذ أنه قد أضاف إلى جملة « نؤمن بالروح القدس الرب المحي المنبثق من الآب » كلمة « والابن » (٣) ، فى حين أن السيد المسيح له المجد قال إن روح الحق ينبثق من الآب (٤) ولهذا السبب أعلن آباء المجامع المسكونية الثلاثة تمسكهم بهذا التعليم الالهى الصريح وأثبتوه فى دستور الايمان . وقد أراد آباء مجمع أفسس (المسكونى الثالث) أن يؤكدوا تمسكهم بهذا الدستور فذيلوه بحرمهم لكل من يزيد عليه أو ينقص منه حرفًا . ومن ثم حافظت الكنيسة الجامعة على هذا الدستور كما تسلمته من الآباء الأولين بالضبط .

على أن الملك ريكاردو أراد سنة ٥٨٩م أن يؤكد توبته عن البدعة الأريوسية (٥) ، وزعم أنه باعلانه انبثاق الروح القدس من الابن أيضاً يثبت توبته لجميع المسيحيين . وكانت هذه أول مرة قيلت فيها هذه الكلمات . ومما

---

(١) هو ملك قبائل القوط الغربيين التى استوطنت أسبانيا .

(٢) وهى المجامع المسكونية الثلاثة التى انعقدت سنة ٣٢٥ ، ٣٨١ ، ٤٣١ بالتتالى .

(٣) وهذه الاضافة هى التى يعبر عنها الغربيون بكلمة " Filioque " .

(٤) يوحنا ١٥ : ٢٦ .

(٥) أو بدعة انكار لاهوت المسيح التى نادى بها أريوس القس الليبى فى القرن الرابع .

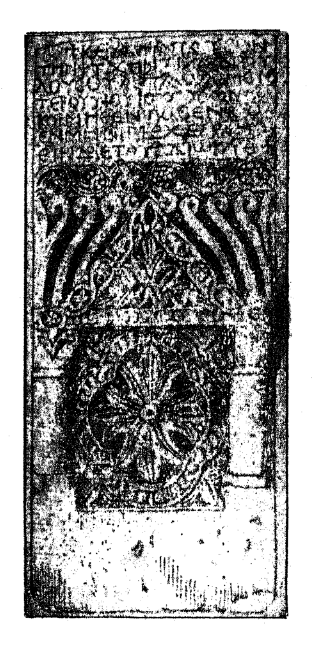
يؤسف له أن أصغى أساقفة أسبانيا إلى هذا الملك وهو يتفوه بهذه الكلمات دون تعليق ، لأنها أدت فيما بعد إلى الجدل فى صفوف الكنيسة الرومانية ذاتها ، ثم بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وازداد هذا الجدل احتداماً حين بلغت هذه الكلمات مسامع الشرقيين – عن طريق الرهبان الذين أرسلهم الملك شارلمان لحراسة القبر المقدس باذن من هارون الرشيد ، إذ لم يرض الشرقيون عنها لأنهم رأوا فيها زيغاً عن تعليم السيد المسيح ، وعن الايمان الذى أقرته الكنيسة الجامعة فى مجامعها المسكونية الثلاثة والذى استقته من كلمات مخلصها مباشرة (١) .

وخلال هذه المجادلات التى دارت رحاها بين كنيسة رومية من جهة ، وكنيسة القسطنطينية مع بعض الكنائس الشرقية الموالية لها من الجهة الأخرى ، وقف الأنبا ياكوبوس على الحياد يرقب مجرى الحوادث دون الاشتراك فيها . لأن الدخيل الخلقيدونى هو الذى وصلته الدعوة لحضور المجمع الذى انعقد إذ ذاك . وهذا الدخيل الذى اغتصب لنفسه الحق فى التحدث بلسان كنيسة مصر كان غريباً عنها وطناً وايماناً . ومع أن البابا الاسكندرى الشرعى لم يشترك بالفعل فى المناقشات التى دارت حول هذا الموضوع الهام ، إلا أنه أعلن لشعبه حقيقة الايمان الأرثوذكسى الذى نادى به أسلافه ، واصراره على التمسك به إلى النفس الأخير – وهو الايمان الذى تسلمته الكنيسة من رب المجد ورسله الأطهار وأعلنته فى مجامعها المسكونية الثلاثة .

٥٢٨– ثم حلت أيام الصوم الكبير (٢) فاتجه الأنبا ياكوبوس إلى دير القديس مكارى الكبير ليقضى به هذه الأيام المقدسة عملاً بالتقليد الذى سار عليه أسلافه الأماجد . وانتهز فرصة هذا الاستجمام الروحى فعمل على بناء الكنائس والصوامع التى كانت قبائل البربر قد هدمتها : فبنى كنيسة كبرى باسم الأنبا شنودة رئيس المتوحدين ، وأحاطها ببعض الكنائس الصغيرة . أما كنيسة القديس مكارى الكبير التى كانت ضمن الكنائس المهدمة ، فقد أعاد

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٤٧٢ – ٤٧٤ ، جـ٦ ص٥٩ – ٩٦ ، ٢٥٤ – ٢٨٧ .

(٢) هو الصوم السابق لعيد القيامة المجيدة ومدته خمسة وخمسون يوماً .



استمرار المؤثرات الفرعونية : الكتابة القبطية منحوتة فوق الرموز التى تمثل ألسنة اللهيب الخاصة بالآلهة معت (آلهة الحق والعدل)

بناءها فى وسط دير هذا القديس العظيم ، وتفنن فى تزيينها بالزخارف والأيقونات البديعة حتى جعلها تنطق بعظمة الفن الانسانى فتمجد الله الذى وهب الانسان هذه المقدرة الفنية (١) .

٥٢٩- وكان نشاط الأنبا ياكوبوس فائضاً ، فما أن فرغ من بناء الكنائس فى برية شيهيت حتى قام بزيارة راعوية فى الصعيد حيث قابله أبناؤه المخلصون بكل تبجيل وتهليل . فقضى بينهم أياماً كلها فرح روحى وسلام ، ثم عاد إلى عاصمته يحمل أجمل الذكريات . وفى غمرة هذه الذكريات ، رأى أن يواصل جهاده فى سبيل شعبه الوفى ، فشيد كنيسة فى القدس الشريف يصلى فيها القبط حين يذهبون إلى الأراضى المقدسة فى موسم الحج - موسم القيامة المجيدة - وفى غيره من المواسم (٢) .

٥٣٠- وبينما كان خليفة مارمرقس منهمكاً فى رعاية شعبه اقتداء بآباء الاسكندرية الأجلاء ، كانت البذرة التى بذرها هؤلاء الآباء أنفسهم تنمو فى بلاد بعيدة عن مصرنا الحبيبة . صحيح أن مجمع خلقيدون المشئوم ، ومعه الأحداث السياسية ، فقد باعدت بين الكنيسة المصرية وبين كنيستى القسطنطينية وروميه ولكن تعاليم كنيستنا كانت لاتزال النبع الصافى الذى يرتوى منه الجميع . ومن الأدلة على هذه الحقيقة أن ميشيل (امبراطور الشرق) حين أراد أن يقيم بينه وبين هولدويج بن شرلمان علاقات من المودة، أرسل له بعض الهدايا النفيسة بينها كتاب لأحد تلاميذ أوريجانوس يغلب الظن أنه كان ديونيسيوس البابا الاسكندرى الـ١٤ . ولقد تلقى هيلدوين كاهن كنيسة سان دونى بباريس هذه الهدية بفرح عظيم ، وعدّها هبة سماوية (٣) . وهكذا استمرت تعاليم الآباء المصريين تسرى بين الشعوب ، وتؤثر على الأفكار ،

---

(١) أديرة وادى النطرون (بالانجليزية) لايفلين وايت طبع فى نيويورك سنة ١٩٣٣ جـ٣ ص٣٥ .

(٢) القول الابريزى للعلامة المقريزى - النسخة - المطبوعة على نفقة مرقس جرجس فى القاهرة سنة ١٨٩٨ ص٥٤ .

(٣) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص١١٣ - ١١٤ .

رغم عزلة كنيستهم ورغم ما أبدته بعض الكنائس من استبداد بها ومن فرض الدخلاء عليها .

٥٣١- واستمر الأنبا ياكوبوس الأول فى جهوده المثمرة غير عالم بذلك الكتاب النفيس الذى أهداه امبراطور القسطنطينية إلى امبراطور غاليا (فرنسا) ولو أنه كان يعلم تماماً أن البذرة الحية متى سقطت فى أرض جيدة فلابد أن تأتى بثلاثين وستين ومئة من الثمار . ووجد البابا الاسكندرى متسعاً من الوقت - رغم أشغاله العديدة - ليبعث برسالة الشركة إلى أخيه فى الخدمة الرسولية بطريرك أنطاكية . وكان البطريرك الأنطاكى وقتذاك هو مارديونيسيوس التلمحرى الملقب بحكيم القرن التاسع .

٥٣٢- وقد تلقى الحبر الأنطاكى هذه الرسالة بفرح عظيم ، وأحس باشتياق عنيف لزيارة مصر ورؤية البابا المرقسى . على أنه لم يتمكن من تحقيق هذا الشوق إلا بعد حين . فجاء إلى مصر ، لا مرة ، بل مرتين . وقد جاءها فى المرة الأولى ليقابل الوالى عبد الله بن طاهر ويطلعه على ما اقترفه أخوه من ظلم فى معاملة أهالى أديسا (١) .

٥٣٣- ولقد استجاب الله تعالى إلى تضرعات مار ديونيسيوس بأن هيأ له أسباب النجاح ، إذ قد سلمه ابن طاهر خطاباً إلى أخيه ينصحه فيه بعدم التعرض للكنائس ، ويحثه على حسن معاملة المسيحيين فى جميع أنحاء البلاد الأنطاكية . ثم بين له كيف أنه هو قد أطلق للقبط الحرية فى بناء كنائسهم والتصرف فى شئونهم الادارية والقانونية حسب ما يتفق ومبادئهم الدينية ولم يكتف ابن طاهر بهذا الخطاب ، وبحسن معاملته للشعب القبطى ، بل أضاف إلى مكرماته مكرمة أخرى هى طرد الأندلسيين المشاغبين الذين كانوا قد أقلقوا راحة الاسكندريين وشددوا الخناق على البابا الاسكندرى (الأنبا مرقس الثانى) .

---

(١) وتعرف بالرها لدى الكتاب العرب ، تقع ما بين النهرين فى الجزء الشمالى لنهر الفرات ، على الطريق العام للقوافل ما بين هذه المنطقة والموصل ، راجع التفاصيل منها فى دائرة المعارف الدينية (بالفرنسية) جـ٤ ص٢٤٦ - ٢٥٠ .

وسرت روح العدالة منه إلى أخيه كما سرت إلى باقى الولاة . فاستتب السلام في مختلف بلاد شرقنا الأوسط (١) .

٥٣٤- وعاد مار ديونيسيوس التلمحرى إلى بلاده فرحًا مستبشراً . ولما رأى السلام مستتباً فى بلاده ، امتلأ قلبه اطمئناناً ، وقرر أن يزور مصر للمرة الثانية ، لا لغرض إلا لزيارة الأنبا ياكوبوس . وحين التقى الحبران التفت الجموع مواكب هاتفة لتحيتهما ، وترنمت قائلة : « الرحمة والحق التقيا . البر والسلام تلاثما » (٢) . ثم سارت خلفهما بمواكبها : رفع البعض الصلبان بينما حمل البعض الآخر الشموع الموقدة والمجامر التى يتصاعد منها البخور الزكى. . وقضى حكيم القرن التاسع فى مصر بضعة أيام زار فى خلالها الكنائس والأديرة الأثرية وتبادل مع أساقفة الكرازة المرقسية الحديث عن الايمان الأرثوذكسى المجيد الذى مهره الشهداء بدمائهم ، والمعترفون بما تحملوا من صنوف العذاب . ثم ودعه المصريون بنفس الاكرام الذى قابلوه به .

٥٣٥- وبعد انتهاء زيارة البطريرك الأنطاكى بقليل ، شعر الأنبا ياكوبوس بوعكة بسيطة - ولكن نهايته كانت قد اقتربت . فلم تنقض غير أيام قليلة حتى انطلق هذا البابا المجاهد من أسر الجسد لينعم بحرية الحياة الروحية ، بعد أن قاد دفة الكنيسة عشر سنين وثمانية أشهر (٣) .



---

(١) من الطريف أن المصريين أطلقوا اسم « عبد اللاوى » على الفاكهة المعروفة بهذا الاسم والقريبة من الشمام اكراماً لهذا الوالى الذى كان اسمه بالكامل « عبد الله بن طاهر » - راجع كتاب تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول طبع فى لندن سنة ١٩٣٦ ص٣٧ .

(٢) مزمور ٨٥ : ١٠ .

(٣) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة البرموسى الصوامعى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس جـ١ ص٢١٤ - ٢٢٧ .

ب- ضربة قاصمة

(٥٣٦) باباوية الأنبا سيميون كالحلم في الغمض .
(٥٣٧) فترة قلاقل مدى سنتين .
(٥٣٨) نياحة والدى يوساب وتبنى كاتب موسر له .
(٥٣٩) رغبته في الرهبنة وحكمة أبيه بالتبنى .
(٥٤٠) نبوءة رئيس دير الأنبا مكارى الكبير .
(٥٤١) السلام يسود السنة الأولى لباباوية الأنبا يوساب الأول .
(٥٤٢) ثورة صاخبة يقمعها المعتصم .
(٥٤٣) شفاعة البابا المرقسى في شعبه المصرى .
(٥٤٤) مجيئ الخليفة المأمون إلى مصر .
(٥٤٥) استبداد أفشين بالقبط ضربة قاصمة .
(٥٤٦) توسط الأنبا يوساب الأول بين المعتصم وملك النوبة .
(٥٤٧) ولى عهد النوبة يزور مصر وبغداد .
(٥٤٨) تعدى ملكة الحبشة وصفح البابا الاسكندرى .
(٥٤٩) الصناع والفنانون القبط يساهمون فى بناء مدينة سمارا .
(٥٥٠) ازدهار الأديرة فى برية شيهيت .
(٥٥١) تكريس بيعة الآباء الرسل بدير الأنبا مكارى الكبير .
(٥٥٢) نياحة الأنبا يوساب الأول .

٥٣٦- وكان فى الاسكندرية راهب برتبة الشماسية اسمه سيميون ، نشأ تحت رعاية الأنبا مرقس الثانى ثم لازم خليفته ياكوبوس . وقد عرف الشعب فيه غيرته على الايمان الأرثوذكسى ومحبته للجميع . فلما شغرت السدة المرقسية اتجهت الأنظار إليه . فرسمه الأساقفة فى هدوء وسلام . وبذلك أصبح الخليفة الحادى والخمسين لمارمرقس البشير كاروز ديارنا المصرية . غير أن باباويته لم تدم طويلاً ، فقد روى بعض المؤرخين أنها دامت شهوراً سبعاً ، بينما يقول البعض الآخر أنها لم تدم غير خمسة شهور وسبعة عشر يومًا . وهكذا مر كالحلم فى الغمض دون أن يكون له أى أثر على الكنيسة العريقة التى تولى أمرها . وقد أجمع المؤرخون على أن أيام باباويته قد امتازت بالسكينة والسلام .

٥٣٧- وكان انتقال الأنبا سيميون إلى دار البقاء بدء فترة من القلاقل دامت سنتين . ذلك أن تاجراً موسراً من تجار الاسكندرية اشتهى أن يظفر بالسدة المرقسية . وكان رجلاً متزوجاً عائشاً فى العالم يستمتع بماله وجاهه ، فلم يكن له أى حق فى هذه السدة الكريمة . على أنه لما كانت المطامع والأهواء الانسانية لا تقف عند حد ، فقد دفعت بهذا التاجر إلى التآمر والاحتيال . فأشاع فى الشعب أن غناه وجاهه سيمكنانه من تذليل العقبات التى قد تعترض طريق الكنيسة إذ يمهدان أمامه السبيل لمقابلة الحكام والولاة . وبهذه الشائعات الغريبة استمال إليه الساذجين من المؤمنين . فاقتنعوا برأيه وأخذوا يروجون له .

وبينما كان هذا التاجر يعمل بوسائله الدنيئة على اكتساب أنصار ومريدين اجتمع الأساقفة والأراخنة فى الاسكندرية للتشاور فى موضوع الانتخاب . وقد أعلنوا فى اجتماعهم أنهم لن يحيدوا عن تقاليد الكنيسة والقوانين التى سنها الرسل والآباء الرسوليون ، ولن يتناسوا المبادئ من أجل الأشخاص . ولما كانت الكنيسة القبطية قد حصرت حق الكرامة الأسقفية فى المتبتلين فهم سيوجهون اختيارهم نحو هؤلاء الرجال المكرسين الذين سلموا حياتهم بأكملها لله تعالى . وما أن اتفقت كلمتهم على هذا الرأى حتى اقترح بعضهم انتخاب الراهب يوساب . وكان الوالى قد أخذ الهدايا النفيسة من التاجر الغنى فعارض الأساقفة . على أن معارضته ذهبت هباء منثوراً ، لأن جميع الأساقفة والأراخنة أعلنوا تمسكهم بانتخاب الراهب يوساب وبحقهم فى انتخاب من يرونه لائقاً لهذه الكرامة العظمى ، وفى المحافظة على القوانين الكنسية فلم يستطع الوالى - بازاء اجماعهم واصرارهم - إلا أن ينزل على ارادتهم . فخرجوا من عنده قاصدين إلى الكنيسة المرقسية على الفور حيث أجريت المراسيم الدينية التى رفعت الراهب يوساب إلى كرامة البابوية ، فأصبح الخليفة الثانى والخمسين للقديس مرقس فى الثانى والعشرين من شهر هاتور المبارك سنة ٥٣٩ش (٧ نوفمبر سنة ٨٢٢م) .

٥٣٨- وكان الأنبا يوساب الأول ابناً وحيداً لأبويه اللذين كانا من أهالى

منوف (بالدلتا) . ولم ينعم بتربيتهما إياه ، إذ قد انتقلا إلى دار الخلود وهو بعد طفل . على أن المراحم الالهية التى سمحت بحرمانه من عطف أبويه ، قد هيأت له قلبًا رحيمًا فى شخص رجل غنى من المؤمنين كان كاتبًا فى الديوان . فقد تبناه هذا الكاتب الغنى واهتم بأمر تربيته كما لو كان ابنه بالجسد تماماً . فعاش يوساب فى كنفه آمناً مطمئناً .

٥٣٩- ولما بلغ سن الرشد أخذ يتأمل حياته وما أصابه من يتم . وانتهى من هذا التأمل إلى القول : « مادام أبواى قد انتهيا من هم الحياة وأنا طفل صغير ، ومادمت وحيداً لا أخ لى ولا أخت ، فخير ميناء لى هى الصحراء الرحيبة حيث يسكن أصفياء الله » . وحالما قر قراره على هذه الفكرة . ذهب إلى أبيه بالتبنى وأطلعه على رغبته فى أن يحيا حياة الرهبنة . أجابه هذا الرجل الحنون « لقد نشأت مدللاً مترفهاً ، والحياة فى الصحراء شاقة شظفة ، فلن تستطيع احتمالها يا بنى » . ومع أنه أجاب يوساب بهذه الكلمات ، إلا أنه أخذ يفكر ملياً فى رغبة هذا الشاب الذى تبناه صغيراً ، ويسائل نفسه إن كان له الحق فى أن يحرمه من تحقيق رغبته فى الحياة النسكية . وحين طغت عليه هذه الأفكار قال لنفسه : « فلأذهبن إلى الآب البطريرك وأطلعنه على هذا الأمر ، ثم أعمل بعد ذلك بمشورته . وكان الأنبا مرقس الثانى هو البابا إذ ذاك. فكتب إليه هذا الكاتب الغيور رسالة ضمنها كل ما دار بينه وبين يوساب من حديث ، ثم ما دار بينه وبين نفسه من خواطر نتيجة لهذا الحديث . وسلم الرسالة إلى يوساب نفسه راجياً منه أن يوصلها إلى البابا الاسكندرى شخصياً . ولما قرأ الأنبا مرقس الثانى الرسالة تهلل قلبه ، وسلم يوساب إلى راهب شيخ معروف بحسن شمائله ، وبطول باعه فى العلم والتقوى . وكان مسئولاً عن تعليم الشباب . وقد رضى أبو يوساب بالتبنى بهذا الوضع . وقضى يوساب فى دراسته على يدى هذا الشيخ الجليل بضع سنين . على أن حنينه إلى الصحراء وإلى عيشة النسك والتقشف عاوده بقوة . ولما طغى عليه هذا الحنين قصد إلى الأنبا مرقس الثانى مرة أخرى ، واعترف له برغبته الجارفة فى حياة النسك فى الصحراء . فأرسله البابا الاسكندرى إلى دير الأنبا مكارى الكبير بالاتفاق مع الكاتب الذى تبناه ، كما أرسل معه خطاب توصية إلى رئيس الدير لكى

يقبله دون تردد . وهكذا انتظم يوساب فى سلك الرهبنة ، وقضى بضع سنين متتلمذاً لرئيس الدير الذى لقنه كل ما يعرف من علم .

٥٤٠- وظل الراهب يوساب يعيش عيشة النسك والتقشف والتأمل بضع سنين مرض بعدها رئيسه . فقام يوساب بخدمته خدمة الابن البر لأبيه المحبوب . فلما دنت ساعة انتقال ذلك الرئيس إلى مساكن النور ، قال ليوساب : « لقد منحك الله نعمة خاصة وجعلك اناء مختاراً ، فإذا ما حصلت على ما يهيئه لك الله فثبت اخوتك وارسمهم كهنة للعلى » . ولم يكد يتفوه بهذه الكلمات حتى أسلم روحه بين يدى الآب السماوى . ومرت السنون ، ونال الراهب يوساب كرامة السدة المرقسية . فتذكر كلمات أبيه الروحى ، وعمل على تثبيت القلوب ورسامة الممتازين من اخوته الرهبان كهنة وأساقفة .

٥٤١- وكانت السنة الأولى لباباوية الأنبا يوساب الأول سنة رخاء وسلام ولكنها كانت أشبه بالهدوء الذى يسبق العاصفة . وقد انتهز البابا المرقسى فرصة هذا الهدوء الشامل فرسم ثلاثة أساقفة : أحدهم للمدن الخمس الغربية ، وثانيهم للنوبة ، وثالثهم للحبشة (١) . كما ابتاع مساحات فسيحة بالمال الذى قدمته له الرعية عن طيب خاطر ووقفها على الكنائس .

٥٤٢- ولم يكد البابا المرقسى ينتهى مما يقوم به من أعمال الخير للكنيسة حتى فوجئت البلاد بتعيين موظفين جديدين لجباية الضرائب . فأخذ هذان الموظفان يغاليان فى تحصيل المال حتى أنهما لم يتورعا عن سجن الممتنع من أداء الضريبة وإذاقته صنوف العذاب . ومن سوء حظ الشعب المصرى أن الحصاد فى تلك الأيام جاء شحيحاً ، فتضاعف عدد العاجزين عن سداد الضريبة . ولم يلن قلب هذين الموظفين بازاء العجز الناتج عن نقص المحصول ، بل استمرا فى تنكيلهما بالشعب الذى انتهى به الأمر إلى أن ثارت ثائرته . فاحتدم القتال بين الحكام والمحكومين فى الوجهين القبلى والبحرى . وقد تفاقم الأمر ، وظلت البلاد تغلى غليان المرجل ، والدماء تجرى أنهاراً

(١) « حسن السلوك فى تاريخ البطاركة والملوك » لراهب برموسى . طبع فى القاهرة سنة ١٦١٣ش (١٨٩٧م) جـ٢ ص٢٤ .

حتى وفد المعتصم على مصر بقوة مؤلفة من أربعة آلاف جندى تركى (١) ليقمع ثورتها الصاخبة ويخضعها لأخيه الخليفة المأمون (٢) .

٥٤٣- وحين رأى الأنبا يوساب الأول نار الثورة مندلعة ، ورأى بطش الجند بالثوار من مواطنيه ، امتلأ قلبه حسرة ، فكرس نهاره للصوم وليله للتأمل والعبادة ، ضارعاً إلى الله أن يتدارك الجميع بمراحمه . وكان الحزن قد طغى عليه إلى حد انساء كتابة رسالة الشركة إلى أخيه البطريرك الأنطاكى . على أن مارديونيسيوس التلمحرى - حكيم القرن التاسع - كان لا يزال بنعمة الله جالساً على السدة الأنطاكية . وكان يرقب الأمور الجارية فى مصر باهتمام بالغ . فاستشف حزن الأنبا يوساب الأول ، وأدرك ببصيرته أن هذا الحزن هو السبب فى عدم وصول رسالة الشركة . وأخذ يتحين الفرصة ليزور وادى النيل مرة ثالثة لكى يقدم التهنئة إلى البابا الاسكندرى بنفسه .

٥٤٤- ومع أن المعتصم كان قد نجح فى اخضاع الثوار القبط . وأخذ جموعاً منهم أسرى سيّرهم حفاة فى شوارع بغداد إلا أنه ما كاد يصل بلاده حتى اندلعت ألسنة الثورة من جديد واشتد سعيرها . وكان الثوار هذه المرة من القبط وحدهم لأن الضرائب كانت باهظة إلى حد الارهاق . ولم يستطع والى مصر (ولا غيره من الولاة) أن يسيطر على الموقف . فأدرك الخليفة المأمون أنه يجب عليه أن يسارع إلى البلاد المصرية لعل رؤية القبط له تكفى لتهدئة خواطرهم . وقد استصحب مارديونيسيوس التلمحرى البطريرك الأنطاكى الذى كان صديقاً حميماً له ، كما استصحب مترجماً يجيد اللغة القبطية مع أن القبط كانوا قد أصبحوا يعرفون العربية . على أنه استثار حفيظتهم إذ قد أمر والييْهِ فى مصر وفى القاهرة أن يمسحا له الشوارع شارعاً شارعاً وحارة حارة ويحصيا

---

(١) مما تجدر الاشارة إليه هنا أن المعتصم حين تولى الخلافة - بعد أخيه المأمون - استبدل الجنود العرب بالأتراك . وسار خلفاؤه على خطته هذه فعادت على العرب وكل شعوب الشرق الأوسط بالويل ، إذ أخذ نفوذ الترك يتزايد حتى استولوا نهائياً على الحكم سنة ١٥١٧م - راجع مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى المبحث الثانى لجاستون فييت ص١٤٠ ،، الخلافة : ازدهارها ، انحلالها فسقوطها ، (بالانجليزية) للسير وليم موير ص٥١٣ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول ص٣٧ .

كل من فيها باسمائهم ، كما أمرهما أن لا يمكنا أحداً من الانتقال من منزل إلى منزل إلى أن يخرج أمره (وذلك للتحرى عن الباطنية) (١) فعرف من هذا الاحصاء اسماء أهل مصر والقاهرة وكناهم وأحوالهم ومعايشهم . ومن ثم استمر الساخطون على استبداد الجباة على تمردهم ورفضوا أن يلقوا السلام . وعندها أمر الخليفة أفشين قائده التركى بمهاجمة القبط فى منطقة حوف وعرج هو بجيشه على سخا لمقاتلة الثائرين فيها (٢) . ومن الموجع أن هذا القائد التركى لم يكتف باخماد الثورة بل أمعن فى التنكيل بالقبط : فقتل من رجالهم من قتل وشتت بقيتهم ، وأحرق ضياعهم ، وسبى نساءهم وأطفالهم .

٥٤٥- وكان الاستبداد الذى جعله أفشين التركى قاعدة التعامل مع القبط عنيفاً حتى لقد كان ضربة قاسمة كادت تودى بهم (٣) . لولا عين الله الساهرة عليهم الحارسة لهم .

فلما أحرز المأمون نصراً ساحقًا على الثوار سنة ٨٣٢م ، عاد إلى بغداد تاركًا اياهم لكربهم ومحنتهم واندحارهم دون أن يحرك ساكنًا للتخفيف من حدة هذه الخيبة المريرة التى ملأت قلوب البقية الباقية منهم . على أنه لم يعش غير شهور خمس بعد وصوله إلى عاصمته إذ قد توفى فى خريف سنة ٨٣٣م (٤) . وتأمل الأنبا يوساب الأول فلول شعبه فامتلأ قلبه حزنًا ووجعًا وكرس نفسه لتعزية الحزانى وتضميد قلوبهم الجريحة .

٥٤٦- على أن الواجب الذى استرعى انتباه البابا الاسكندرى قبل كل واجب آخر هو محاولة رأب الصدع الذى أصاب الصلات بين الخليفة المعتصم وبين زكريا ملك النوبة . ذلك أن المعتصم الذى كان قد تولى الخلافة بعد أخيه المأمون كان قد أرسل خطاباً إلى زكريا ملك النوبة يطالبه فيه بقيمة ضرائب

---

(١) ابن ميسر ص٦٥ .

(٢) مختصر تاريخ مصر ... ص١٣٨ .

(٣) تاريخ مصر فى العصور الوسطى ... ص٣٧ - ٣٨ ، لقول الابريزى للعلامة المقريزى - طبع فى القاهرة على نفقة مرقس جرجس ص٥٤ ، تاريخ مصر الاسلامية لالياس الأيوبى طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٢ ص٩٧ .

(٤) الخلافة : ازدهارها وانحلالها فسقوطها (بالانجليزية) وليم موير ص٥١٠ - ٥١١ .

متأخرة عن أربع عشر سنة . فلما سمع الأنبا يوساب الأول بهذا الطلب بعث برسالة إلى ملك النوبة قال له فيها : « إن الخليفة المعتصم يبدى المودة للمسيحيين فيحسن بك أن تلبى نداءه ما استطعت إلى ذلك سبيلا » . وحمل الخطابين مندوبان شخصيان .

٥٤٧- فلما وصل المندوبان إلى زكريا ملك النوبة حاملين إليه رسالتى البابا الاسكندرى والخليفة العباسى ، جمع هذا الملك مستشاريه وقال لهم : «ليس فى استطاعتى أن أغادر البلاد بنفسي حرصاً على سلامتها. وأرى أن ابنى الأكبر الذى هو ولى عهدى خير رسول يحمل ردى على هاتين الرسالتين». وما أن استقر رأى الملك زكريا على هذا القرار حتى حمل ابنه الهدايا النفيسة ، وأرسله صحبة المندوبين المصريين . فلما وصلوا مصر ذهبوا على الفور لينالوا بركة الأنبا يوساب الأول ، ثم استأذن الأمير النوبى فى الذهاب إلى بغداد ليقدم بنفسه الهدايا التى حمله اياها أبوه إلى الخليفة المعتصم فلما وصل بغداد استقبله الخليفة بكل حفاوة وإكرام ، ثم قال له : « مادمت قد جئت بنفسك ، وتجشمت متاعب السفر هذه المسافات الطويلة تلبية لرغبتى ، فانى سأتنازل لكم عن المتأخر من الضريبة » . ثم دعاه إلى البقاء فى ضيافته بضعة أيام . وعندما أراد أن يعود إلى بلاده أمر المعتصم فرقة من جيشه بمرافقته إلى الحدود كحرس شرف له . وقد قصد الأمير إلى مصر أولاً ، فصاحبته هذه الفرقة إلى بلادنا الحبيبة . وذهب مباشرة إلى الاسكندرية ليقدم للبابا المرقسى تقريراً عن كل ما لاقاه من تكريم فى قصر الخليفة . فكان هذا التقرير أشبه بالبلسم الشافى لقلب الأنبا يوساب الجريح . وقد عبر عن فرحه بأن قصد هو والأمير والشعب الاسكندرى إلى الكنيسة حيث صلوا صلاة الشكر ثم أدوا شعائر القداس الالهى وتناولوا من الأسرار المقدسة بنشوة روحية عجيبة . وبعد تقديم هذا الشكر للآب السماوى أبدى الأمير رغبته فى أن يعود إلى بلاده . فقدّم إليه البابا الاسكندرى لوحة مكرسة (١) هدية منه ثم زوده بصالح الأدعية وودعه فى حنان .

---

(١) هى قطعة من الخشب مربعة أو مستطيلة نقشت عليها الرموز التى تعبر عن ايمان الكنيسة بتجسد الله الكلمة ولابد من وجودها لاقامة القداس .

٥٤٨- فلما اطمأن قلب الأنبا يوساب الأول على شعبه النوبى ، وجه عنايته إلى شعبه الحبشى وكان قد رسم لهم مطراناً اختاره من بين رهبان دير البرموس فى السنة الأولى من باباويته وبينما كان هذا المطران يقوم بواجباته الراعوية ، اضطر ملك الحبشة إلى أن يخرج لمقاتلة أعدائه الذين هددوا باجتياح بلاده . وقد انتهزت ملكة الحبشة فرصة غياب زوجها عن عاصمته فطردت الأنبا يؤنس - المطران المصرى - وأقامت بدلاً عنه مطراناً حبشياً من المقربين إليها . ولم يشأ الأنبا يؤنس أن يحدث شغباً أثناء انشغال الملك بالحرب ، فعاد فى سكون إلى دير البرموس الذى قضى فيه أيام رهبنته . ولما عاد الملك إلى عاصمة ملكه وجد أن البلاد قد انتابتها المجاعة وانتشرت فيها الأوبئة ، فأراد أن يستعين بالمطران المصرى ليصلى إلى الله تعالى كى يرفع عنها غضبه . فأعلمه المقربون إليه من رجال البلاط بما فعلته الملكة . وعندها بعث الملك برسالة إلى البابا الاسكندرى قال له فيها : « إننى أرفع إلى قداسة البابا الجليل الجالس على الكرسى المرقسى فرائض الاجلال والاعظام ، وأعد صلواتكم دعامة عرشى . لذلك أرجو أن تصفحوا عما وقع منا فى حق الحبر الكريم مطراننا الشرعى ، وتطلبوا إليه أن يعود إلى بلادنا فقد نلنا عقابنا الذى نستحقه ، وذلك لكى يشفع فينا أمام الله فيستجيب دعاءه ويرفع غضبه عنا » . فرحب الأنبا يوساب الأول بهذه الرسالة الملكية ، وأسرع إلى اعادة الأنبا يؤنس إلى مقر كرسيه تلبية لرجاء ابنه الملك الحبشى (١) .

كذلك أدرك الأنبا يوساب الأول مسئوليته نحو أولاده من أهالى شمالى أفريقيا فرسم أساقفة لبلاد تونس والجزائر والمدن الخمس لأنه كان يقول بأن الرعية فى حاجة إلى الرعاة لتدبير أمورها وارشادها ، فإن لم تجد الرعية من يرعاها ضلت وهلكت وكان هو مسئولاً عنها أمام عرش الديان (٢) .

٥٤٩- وشاء الله تعالى أن يعوض القبط عما فقدوه من رجال ومال ، فهيأ

---

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة البرموسى الصوامعى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس جـ١ ص٢٣٩ - ٢٤٢ .

(٢) تاريخ البطاركة ... جـ١ ص٢٤٣ .

لهم فرصة لم تكن فى الحسبان . ذلك أن الخليفة المعتصم أراد أن يختط مدينة سمارا (١) . ولما كان يرغب فى أن يجعلها جميلة فقد بعث إلى مصرنا العزيزة يستقدم أبناءها الصناع والفنانين ليساهموا بمقدرتهم فى تشييد هذه المدينة وتزيينها - لأن مهارة المصريين التى ورثوها عن آبائهم منذ عهد الفراعنة كانت معروفة لدى الجميع . ، ومن الأدلة على أن هؤلاء الصناع كانوا من القبط أن المخلفات الباقية عن هذه الحقبة تحمل على ظهرها صليباً منقوشاً أو تحمل كلمة الآب والابن والروح القدس ، (٢) . وهذه المخلفات شاهدة على أن الخليفة المعتصم كان عطوفًا على المسيحيين حقًا فقدر فنهم واحساساتهم .

٥٥٠- وبعد أن اطمأن قلب الأنبا يوساب الأول على حال الشعبين النوبى والحبشى كما اطمأن على شعوب شمال أفريقيا اتجه بكليته إلى شعبه المصرى فقام برحلة راعوية ، وانتهى به المطاف إلى برية شيهيت حيث امتلأت نفسه عزاء لأنه وجد الأديرة منتعشة مزدهرة ، وقد استعادت رونقها وتزايد عدد رهبانها وتضاعف فرح البابا الاسكندرى عندما وقف على نشاط القس شنودة أبى رهبان هذه البرية . فقد كان هذا الناسك يقضى نهاره فى العمل ، وليله فى الصلاة والتأمل وتسبيح الآب السماوى . وكان قد زرع الحدائق واشترك فى بناء الصوامع وفى تربية المواشى . بل لقد ، أقام المبانى الفخمة تمجيداً لاسم الأنبا مكارى . وزرع كروماً . وبنى مطاحن للقمح ومعاصر للزيت . وأدى خدمات جليلة لا تحصى ، ثم بنى كنيسة شمالى الكنيسة الكبرى التى تحمل اسم مكارى الكبير دعاها باسم ، الآباء الرسل ، . وقد وصف معاصرو الآب شنودة هذه الكنيسة بأنها كانت فسيحة جميلة (٣) .

---

(١) أو ، سر من رأى ، وتقع حوالى ثمانين كيلو شمالى بغداد . اتخذها المعتصم عاصمة للخلافة العباسية ، وظلت كذلك حتى سنة ٨٩٤م .

(٢) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى . المبحث الثانى لجاستون فييت ص١٤٧ .

(٣) أديرة وادى النطرون (بالانجليزية) لايفلين وايت طبع فى نيويورك سنة ١٩٣٣ جـ٢ ص٣٥ .

ولقد كان للناسك شنودة وجه مضئ بالنعمة وابتسامة رقيقة وسيرة حسنة، فمكنته هذه المزايا من أن يجتذب الكثير من الشباب إلى حياة الرهبنة .

وبعد أن انشرح صدر الأنبا يوساب الأول لهذا النشاط بين الرهبان ، منحهم بركته طالباً لهم المزيد من الهمة . ثم عاد إلى مقر كرسيه .

٥٥١- ولما فرغ القس شنودة وأبناؤه الرهبان من بناء الكنيسة استصحب بعضاً منهم وقصدوا إلى البابا الاسكندرى ، ورجوا منه أن يعود معهم إلى البرية ثانية لتكريسها . فتهلل قلبه وذهب معهم لساعته . ولما وصل إلى البرية واكتحلت عيناه برؤية منارتى الكنيسة مرتفعتين ، تحيط بها مزرعة مزدهرة ، رفع آى الحمد والتسبيح للآب السماوى الذى شاءت مراحمه أن يجبر القلوب الجريحة فيوضح للمؤمنين حقيقة القيامة البادية فى ازدهار الحياة الروحية بعد ذبولها . واشترك جميع الرهبان - شيوخاً وشباباً - مع أبيهم الروحى الأعلى فى تسبيح الله وتمجيده . وبعد أن كرس البابا المرقسى كنيسة الآباء الرسل وقضى بضعة أيام بين أبنائه الرهبان عاد إلى مقر رياسته فى أمن وسلام .

٥٥٢- وبعد أن رعى هذا الأب الجليل كنيسة مصر مدى سبعة عشر عاماً وأحد عشر شهراً وسط العواصف والأنواء حتى وصل بها إلى ميناء السلام ، سمع صوت الله تعالى يهمس فى أذنه : « أن تعال أيها الراعى الأمين لتستريح من أتعابك » . فلازم فراشه ثمانية أيام . وكان اليوم التاسع يوم الأحد . وفى الساعة التى كان الشعب يتناول من الأسرار المقدسة : فى تلك الساعة عينها طارت روح الأنبا يوساب الأول إلى عالم النور (١) .



---

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة البرموسى الصوامعى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس جـ١ ص٢٢٨ - ٢٥٤ .

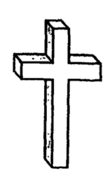
اضطراب فى الخارج وسلام فى الداخل

١- الأنبا ميخائيل الثانى

٥٥٣- باباوية الأنبا ميخائيل الثانى سحابة عابرة .

٥٥٣- إن من يتصفح التاريخ يجد بين أبطاله من هو كالطود الراسخ الذى يظل قائماً على مدى الأجيال ، كما يجد من يشبه سحابة صيف لا تلبث أن تنقشع . وبين الرجال الذين مروا كالسحاب العابر الأنبا ميخائيل الثانى البابا الاسكندرى الثالث والخمسون الذى قضى أيام رهبنته فى دير الأنبا يؤنس القصير (١) .

ولقد كان الأنبا ميخائيل الثانى ممتلئاً نعمة وحكمة ، ولكن أيامه فى قيادة دفة الكنيسة لم تدم غير سنة وأربعة شهور سادها السلام والطمأنينة . فانتقل إلى الأخدار السماوية فى هدوء المغيب الصافى .



(١) يقول القمص ميصائيل بحر على ص٤٨ من كتابه ، تاريخ القديس الأنبا يوحنس القصير ، المطبوع فى القاهرة سنة ١٩٥٧ عن الأنبا ميخائيل الثانى البطريرك الثالث والخمسين أنه ، كان أحد رهبان أبى يحنس . رسم بابا فى نفس السنة التى تنيح فيها البابا يوساب سلفه فى عهد خلافة المتوكل بن المعتصم . وقد تعرض له الولاة الظالمون طالبين منه مبالغ طائلة على سبيل رشوة أو يمنعونه من الجلوس على الكرسى البطريركى . فاضطر أن يبيع ذخائر الكنيسة ويوفى المطلوب . ولم تطل مدة هذا البطريرك سوى سنة وخمسة أشهر ، .

ب- الأنبا قزما الثانى

(٥٥٤) انتخاب قزما للكرسى المرقسى.
(٥٥٥) اقامته فى بلدة دميرة شرقى الفسطاط.
(٥٥٦) رسالة الشركة إلى البطريرك الأنطاكى.
(٥٥٧) مناورات البيزنطيين.

٥٥٤- ووجد الأساقفة والأراخنة أنفسهم مضطرين إلى الاجتماع للتشاور فيمن يخلف البابا الراحل. فألهمهم الروح القدس بانتخاب راهب فى رتبة الشماسية اسمه قزما من دير الأنبا مكارى الكبير. فأخذوه لساعتهم إلى الاسكندرية حيث وضع عليه الأساقفة الأيدى وأقاموه على الكرسى الجليل الذى « لناظر الالهيات » (١) فأصبح البابا الرابع والخمسين سنة ٨٤٢م.

٥٥٥- وبعد رسامته بأيام قصد إلى الفسطاط ليتقابل مع الوالى. وكان فى ديوان الولاية إذ ذاك قبطيان اسم احدهما مكارى وثانيهما ابرآم، اشتهر كلاهما بالصلاح والتقوى. وكانت لهما حظوة لدى الوالى الذى أشار عليهما بتلبية جميع ما يطلبه الأنبا قزما الثانى. ولما كان مكارى وابرآم يرغبان فى ابداء كل اجلال للبابا الاسكندرى، فقد طلبا إليه أن يقيم فى بلدة دميرة شرقى الفسطاط بدلاً من الاسكندرية ليكون قريباً من مقر الولاية. فقبل طلبهما وقضى بها كل أيام باباويته.

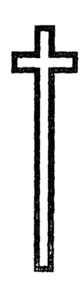
٥٥٦- وكان أول ما قام به الأنبا قزما الثانى - بوصفه البابا المرقسى - هو كتابة رسالة الشركة إلى أخيه فى الخدمة الرسولية بطريرك أنطاكية. وقد عبرت هذه الرسالة عن وحدة الايمان الأرثوذكسى الذى يربط بين الكنيستين الأنطاكية والاسكندرية، فجاءه الرد عليها يطفح مودة واخلاصاً.

٥٥٧- ولقد سعد الأنبا قزما الثانى وشعبه بالطمأنينة والسلام، إذ كان الخليفة المتوكل يحسن معاملة رعاياه على اختلاف أديانهم. ولم يقلقهم غير المناورات التى كان يقوم بها البيزنطيون من حين إلى حين. فرأى هذا

---

(١) هذا التعبير هو أحد ألقاب القديس مرقس الرسول.

الخليفة – الذى كان ساهراً على دولته بقدر ما كان منصفاً – أن يقيم الحصون على الشواطئ كى لا يستطيع جنود بيزنطة أن يدخلوا مصر . فحصن دمياط وتانيس والبرلس والاسكندرية ورشيد ، مما جعل المصريين يحسون بالأمن والاستقرار فانصرفوا إلى زراعاتهم وتجاراتهم ومهنهم المختلفة ، فعم الرخاء البلاد . وفى وسط هذا الهدوء الشامل انطلق الأنبا قزما الثانى من أغلال هذا الجسد وانضم إلى أسلافه المقيمين فى مساكن النور . وكانت مدة رياسته للكنيسة سبع سنين وسبعة أشهر (١) .



(١) تاريخ البطاركة – مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بديره جـ١ ص٢٥٩ – ٢٦٥ .

جـ- الأنبا شنودة الأول

(٥٥٨) انتخاب الراهب شنودة .
(٥٥٩) توبة بعض القبط من أهالى مريوط .
(٥٦٠) البابا المرقسى يقوم برحلة راعوية .
(٥٦١) صغائر تضايق القبط .
(٥٦٢) تولى عنبسة بن اسحق الحكم .
(٥٦٣) نزاهة هذا الحاكم .
(٥٦٤) رسالة الشركة إلى بطريرك أنطاكية .
(٥٦٥) صدام بين النوبيين والمصريين وكرم المصريين فى معاملة النوبيين المغلوبين .
(٥٦٦) نقل عنبسة واحلال الترك محل العرب .
(٥٦٧) البابا الاسكندرى يحفر قنوات للماء العذب .
(٥٦٨) البابا الاسكندرى يحصن دير القديس مكارى الكبير .
(٥٦٩) نياحته .

٥٥٨- لما كانت « الحياة تَفُلّ الحديد إذا لبسته وتبلى الحجر » (١) ، فقد توالت أيامها وأحداثها وفلت قوة الأنبا قزما الثانى حتى انتهت دورته على هذه الدنيا. فتحتم على الأساقفة والأراخنة أن يجتمعوا ليتشاوروا مرة أخرى . وقد قر رأيهم على ايفاد مندوبين عنهم إلى بابلون ليلتقوا بأسقفها . وعندما وصل هؤلاء المندوبون اجتمعوا بالموظفين الكبيرين مكارى وابرآم اللذين كانا لا يزالان فى دار الولاية ، وتبادلوا الرأى معهما فى أمر من يخلف البابا الراحل . وفى أثناء هذا الاجتماع حضر إلى دار الولاية راهب اسمه شنودة من دير القديس مكارى الكبير ، كان موفداً من قبل رئيسه للاستفهام عن مقدار الجزية المفروضة على ديره . فلما رآه المجتمعون أخذوا يسألونه عمن يراه أهلاً لأن ينال كرامة البابوية المرقسية ، فذكر لهم عدداً من اخوته الرهبان . ثم قضى المأمورية التى جاء من أجلها وخرج من دار الولاية ليعود إلى ديره . وما أن انصرف من حضرتهم حتى أجمعوا على انتخابه بالذات لما أبداه من تواضع

(١) هذه الكلمات هى بيت من قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقى ، موجهة إلى أبى الهول ومطلعها : أبا الهول طالت عليك العصر وبلغت فى الدهر أقصى العمر .

ومن تقدير لاخوته الرهبان . فلما أعلنوا رأيهم هذا ابتدرهم مكارى بقوله : « إن شنودة مازال فى طريقه إلى الدير وفى استطاعتنا أن نلحق به بحجة أننا نريد أن نستوضحه بعض المعلومات حتى لا يحاول الهرب » . فنفذوا ما اتفقوا عليه، ونجحوا فى أن يعودوا بالراهب شنودة إلى دار الولاية . وحالما وصلوا قيدوه وحملوه إلى كنيسة القديسين سرجيوس وواخس (أبى سرجة) ومنها إلى الاسكندرية حيث رسم يوم عيد الغطاس المبارك باسم شنودة الأول الخليفة الخامس والخمسين للقديس مرقس البشير سنة ٥٦٦ش (سنة ٨٥٠م) وقد هطل المطر ساعة دخوله الاسكندرية فاستبشر به الشعب .

٥٥٩- وكان يعيش فى تلك الفترة فئة من القبط فى منطقة مريوط زاغوا عن الايمان الأرثوذكسى فقالوا إن آلام السيد المسيح بالجسد لم تكن حقيقية بل كانت وهمًا من نسج الخيال . وكان هؤلاء المبتدعون قد سمعوا عن النعمة الالهية التى تزين الأنبا شنودة الأول . فذهبوا إليه وأعلنوا له ايمانهم الخاطئ طالبين منه أن يوضح لهم حقيقة الأمر ، فرجا منهم أن يبدأوا أولاً فيقدموا له الحجج التى استندوا إليها ليبرروا معتقدهم وأصغى إليهم بانتباه تام . ولما فرغوا أخذ يوضح لهم الايمان الأرثوذكسى فبين لهم كيف أن الله الكلمة حين شاء أن يحقق الفداء للناس اتخذ جسداً منذ اللحظة التى حل فيها فى بطن العذراء . وهذا الجسد الذى اتخذه ظل متحداً مع لاهوته حتى حين صعد ثانية إلى السماء . فاللاهوت والناسوت لم يفترقا لحظة واحدة ولا طرفة عين . على أن اتحاد اللاهوت بالناسوت كان بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير . وحينما جاز المسيح الآلام تألم جسده فقط ولم تمس الآلام لاهوته لكونه فوقها مع أن اللاهوت لم يفترق عن الناسوت ساعة الآلام . وقد استعان الأنبا شنودة فى توضيح حقيقة الايمان بالرمز الذى اتخذه الأنبا كيرلس الأول عامود الدين لتقريب غير المدرك إلى أفهام المؤمنين . وهذا الرمز هو اتحاد النار بالحديد ساعة انصهار الحديد بالنار عند صوغه . فالنار تظل محتفظة بطبيعتها النارية مع كونها متحدة بالحديد كما يظل الحديد محتفظاً بطبيعته الحديدية رغم انصهاره بالنار . والمطرقة حينما تنزل على الحديد لا تؤلم النار ولا تؤثر فيها اطلاقًا مع أن النار متحدة بالحديد ساعة الضرب فاللاهوت لم ينفصل عن

الناسوت لحظة واحدة ولا طرفة عين ، وبهذا الاتحاد المستديم أقام لاهوت المسيح ناسوته من القبر فى اليوم الثالث ، ثم رآه تلاميذه بالجسد الذى علق على الصليب إذ قد وضع توما الرسول يده فى موضع المسامير . وهكذا ظل اللاهوت ملازماً الناسوت منذ اللحظة الأولى التى شاء فيها الكلمة المتجسد أن يحل فى بطن العذراء . ومع أن الألم لم يقع على جوهر اللاهوت لكن اشتراكه الأدبى مع الناسوت عند الآلام أعطى قيمة كبرى لألم الناسوت (الذى كان يشبه ناسوت أى انسان ما خلا الخطية) فتحدث سفر الأعمال عن هذا الأساس مشيراً إلى كنيسة الله التى افتداها بدمه (١) .

ولما انتهى البابا الاسكندرى من توضيح الايمان بنفس الوسائل التى لجأ إليها أسلافه أعلن له هؤلاء الضالون عن الايمان الأرثوذكسى توبتهم واقتناعهم بتعاليمه ، وطلبوا إليه أن يقبلهم فى شركة الكنيسة . فتهلل فى قلبه ولكنه لم يعبر لهم عن تهليله وأخذ يمتحنهم ليعرف مدى اقتناعهم . وإذ تبين له أنهم صادقون قبلهم بفرح وصبغهم بالصبغة المقدسة . ثم كرس لهم كنيسة وبعض الكهنة .

٥٦٠– وكان النجاح الذى أحرزه الأنبا شنودة الأول فى اكتساب المريوطيين التقدمة الزكية الأولى التى رفعها هذا البابا الجليل إلى فاديه الحبيب، ثم رأى أن يولى أديرة الصعيد عنايته الخاصة . على أنه بدأ برحلة راعوية لجميع البلاد المصرية . فلما وصل إلى البلينا اضطربت نفسه حزناً إذ علم أن بعض أبنائه من أهل هذه المدينة قد سقطوا فى بدعة مؤداها أن المسيح قد مات على الصليب بلاهوته وناسوته . فجمعهم وأخذ يوضح لهم تعاليم الرسل وآباء الاسكندرية من عهد مارمرقس ، ثم ما دار بين الآباء من نقاش فى المجامع المسكونية الثلاثة – وهى مجمع نيقية ومجمع القسطنطينية ومجمع أفسس . وبين لهم بعد ذلك كيف أن الكلمة المتأنس ظل محتفظاً بلاهوته الذى لم ينفصل عن ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين . وبهذا الاتحاد المستديم أقام لاهوت المسيح ناسوته من القبر . ومع أن اللاهوت لم

---

(١) أعمال ١ : ٣ ، ٩ ، ١١ و ٢ : ٢٢ – ٣٦ .

يفارق الناسوت إلا أن الأول لم يمت إذ لا يمكن أن يتطرق إليه الموت بينما مات الثانى على الصليب لكونه من طبيعة قابلة للموت : فالناسوت مات وأقامه اللاهوت الملازم له . ومازال الأنبا شنودة الأول يوضح حقيقة الايمان إلى أن اقتنع المبتدعون واعترفوا بضلالهم طالبين المغفرة . فغمر الفرح قلب البابا المرقسى واستصحبهم إلى الكنيسة حيث أقام القداس الالهى وناولهم الأسرار المقدسة (١) .

٥٦١- وكانت الخلافة قد آلت إذ ذاك إلى المتوكل على الله ، وكان ذا استعداد طيب ولو أن بعض ولاته لم يكونوا على رأيه فى وجوب اتباع سياسة التفاهم والعدل مع جميع الناس . وكان عبد الواحد بن يحي واليه فى مصر ضمن أولئك المختلفين معه فبدأ سلسلة من المضايقات الهزيلة التى لم يكن لها من أثر سوى احداث العكننة . فقد أمر هذا الوالى أن يلبس القبط ملابس عسلية اللون عليها علامات خاصة ، وأن يستعملوا سروجاً من الخشب ، وأن يضعوا تماثيل خشبية لعفريت أو كلب أو قرد على واجهات بيوتهم ، وأن يخفوا الصلبان فى المواكب وأن تكون مقابرهم متساوية والأرض ، كما منعهم من ركوب الخيل . على أن القضاة المسلمين كانوا فى صف القبط (٢) .

٥٦٢- ولم يلبث الخليفة المتوكل أن عزل عبد الواحد بن يحى وعين مكانه عنبسة بن اسحق الذى كان عادلاً سعى إلى حسن معاملة المصريين جميعاً على السواء وقد حدث فى السنة الأولى لولايته أن عاود الروم غزواتهم أملاً فى استرداد مصر لحكمهم . ففى مايو سنة ٨٥٣ بينما كان عنبسة فى الفسطاط يتلقى التهانى بعيد الأضحى ، هجم البيزنطيون على دمياط وتغلبوا على حاميتها . وأسكرهم النصر فأحرقوا المدينة وسبوا ستمائة من النساء والأولاد وتحولوا إلى تانيس حيث كرروا اعتداءاتهم . ولما سمع عنبسة بما كان خرج على رأس جيشه وقصد إلى دمياط فتانيس فوجد أن الجيش المغير قد انسحب منهما . فاتخذ احتياطه للمستقبل بأن حصن هاتين المدينتين .

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٣ ص٨٣٠ - ٨٣٣ .

(٢) « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول ص٣٩ .

٥٦٣- وفى أثناء الرحلة الراعوية التى كان الأنبا شنودة الأول لايزال قائماً بها ، كان الولاة فى مختلف المديريات يسارعون إلى تحيته وتقديم كل التسهيلات له . وكان مسلكهم هذا تنفيذاً لعدالة عنبسة الذى جعل المصريين ينسون الشدائد التى حاقت بهم قبل ولايته لما أبداه نحوهم من نزاهة . وفوق هذا فقد امتاز بكرهه للمظاهر الزائفة إلى حد أنه كان يذهب من دار الولاية إلى الجامع مشياً على الأقدام . فكانت ولايته فرصة للمصريين جميعاً ليعملوا وهم ناعمو البال فانتهز الأنبا شنودة الأول هذه الفرصة لتجديد الكنائس المتداعية وبناء الأديرة الخربة . ولا تزال الآثار المتخلفة عن هذا العصر تتحدث بدقة الأيدى التى أنتجتها وسداد الفكر الذى ابتدعها .

٥٦٤- وبعد أن فرغ الأنبا شنودة الأول من رحلته الراعوية وأعماله الانشائية عاد إلى مقر كرسيه ثم بعث برسالة الشركة إلى أخيه فى الخدمة الرسولية البطريرك الأنطاكى . وقد قوبلت رسالته هذه بفرح روحى . ولم يكتف بطريرك أنطاكية بالرد عليها بل بعث مع رده بالهدايا النفيسة .

٥٦٥- وحدث أن تخلف النوبيون عن دفع الجزية المفروضة عليهم ، وزادوا على رفضهم بأن اعتدوا على المصريين المقيمين داخل حدودهم من موظفين وعمال فى مناجم الزمرد وأعملوا السيف فى رقابهم . ولم يكتفوا بهذه الاعتداءات الغاشمة بل أغاروا على السكان الآمنين فى منطقتى أدفو واسنا . فنشروا الذعر بينهم . ولم يجد عنبسة بن اسحق من وسيلة يرد بها على هؤلاء النوبيين غير القوة . فبعث بجيش يتألف من سبعة آلاف جندى تصحبه سبع سفن تحمل المؤن والذخائر . واستطاع الجيش المصرى أن يسحق النوبيين المغيرين . وبازاء هذه الهزيمة الفاضحة اضطر ملك الياجا (فى النوبة) إلى أن يدفع لمصر كل الضرائب المتأخرة عليه مع ضريبة السنة التى اعتدى فيها جيشه على الصعيد . ثم رأى أن يتقرب إلى المصريين فزار واليهم فى الفسطاط ، واتجه بعد ذلك لزيارة الخليفة المتوكل . فلاقى فى الزيارتين كل اكرام وترحيب إذ قد عامله المصريون كصديق وقدموا له الهدايا (١) عند

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول ص٤١ - ٤٢ .

عودته . وبهذه المعاملة الانسانية تحول ملك الباجا من عدو إلى صديق .

٥٦٦- وبعد أن قضى عنبسة بن اسحق أربع سنين واليًا على مصر استدعاه الخليفة المتوكل ؛ وكانت هذه السنين الأربع أشبه بساعات المغيب الرائعة التى يخطف بهاؤها الأبصار ليعقبها ليل مظلم مليئ بالمخاوف . فقد كان عنبسة آخر والٍ عربى المنبت ، لأن الولاة الذين حكموا مصر بعده كانوا من الأتراك رغم أنهم تولوا الحكم بأمر الخلفاء العباسيين (العرب) . وكانت غالبية الولاة الترك من الغاشمين المستبدين ، سريعى التقلب قليلى الوفاء . فكانوا سرعان ما يقلبون ظهر المجن للرجال الذين خدموهم. وهكذا ساد القلوب الشعور بالقلق والتطير . فمثلاً كان يزيد (أحد الولاة الذين جاءوا بعد عنبسة) ينفر من الخصيان . فإذا صادف أحدهم فى الطريق أمر جنده بأن يجلدوه من شارع إلى شارع حتى يخرجوه خارج المدينة . كذلك كان يتشاءم من ندب النائحات فى الجنائز وأوقف سباق الخيل . ومع أن هذه الصغائر لم تبلغ حد التعذيب والتنكيل إلا أنها صبغت الحياة المصرية بالقلق وعدم الاستقرار .

٥٦٧- على أن الأنبا شنودة الأول - رغم هذا الاضطراب النفسى الناتج عن اندفاع هؤلاء الحكام الأتراك وراء نزواتهم - قد وجد من ايمانه القوة التى مكنته من أن ينشغل فيما يعود بالنفع العام على الشعب المصرى المعذب فحفر تحت شوارع الاسكندرية القنوات التى تحمل الماء العذب إلى سكانها . لعل فى اروائها ظمأهم الجسمى تمنحهم شيئاً من الراحة فيجدون الرضا الروحى (١) .

٥٦٨- واقترب عيد القيامة المجيد لسنة ٨٥٨م ش ، فرأى الأنبا شنودة الأول أن يقضى فترة الصوم المقدس فى دير الأنبا مكارى الكبير عملاً بالتقليد الذى جرى عليه أسلافه . وقد عارضه الأراخنة إذ خافوا عليه لأن القبائل المتبربرة كانت تغير على أديرة وادى النطرون بين حين وآخر ولكنه هدأ من روعهم وسافر من غير تردد . ولما وصل إلى دير الأنبا مكارى اتضح له أن هذه القبائل قد أغارت عليه فبدت آثار تخريبهم على عدد من الصوامع .

---

(١) القول الابريزى للعلامة المقريزى طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٨م ص٦٥ ، تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص٤٦٩ .

وتجمهر الرهبان حوله فرحين مهللين لمرآه . واشترك الجميع فى صلوات البسخة المقدسة التى وضعها آباء الكنيسة القبطية ليذكّروا الأجيال المتعاقبة عن طريقها بالآلام المحيية التى قاساها الفادى الحبيب لخلاص جنس البشر . ولما فرغوا من صلوات خميس العهد ، وخرج الرهبان ليذهب كل منهم إلى صومعته ، فاجأهم وابل من الطوب يقذفهم به البربر الذين كانوا قد عادوا لاستئناف سلبهم ونهبهم الأديرة . فعاد الرهبان مسرعين ، وأعلموا الأنبا شنودة الأول بما حدث فكلمهم بكلمات الحكمة الالهية التى ملأت قلوبهم سكينة . ثم خرج بمفرده ليواجه جماعة البربر . وهكذا أبدى جرأة عجيبة خليقة بالجالس على الكرسى المرقسى . وحين رآه البربر خارجًا إليهم وحده أعزل السلاح تراجعوا أمام هذه الشجاعة النادرة وتركوا الراعى الصالح وأبناءه الرهبان ليكملوا صلوات الجمعة العظيمة وسبت الفرح والقيامة المجيدة . على أن تراجعهم – وإن أبهج قلب البابا الاسكندرى – لم يخدره فينسيه واجبًا هامًا هو ايجاد الوسيلة لصد هجمات أولئك البربر فى المستقبل . ونتيجة لتفكيره هذا بنى سوراً منيعاً حول الكنيسة الكبرى بالدير ليكون حصناً حصيناً للرهبان . وقد ساهم بنفسه فى بناء هذا السور إذ قد جمع الكثير من الحجارة وأخذ يبنيها بيديه . فامتلأ الرهبان حماسةً وسارعوا إلى البناء مع باباهم الساهر . فتم بناء السور فى وقت قصير . كذلك بنى داخل السور صوامع وقلالى لسكنى الرهبان. ومن المرجح أن السور القائم اليوم حول دير الأنبا مكارى الكبير من صنع الأنبا شنودة الأول – إن لم يكن كله فجزء منه (١) .

٥٦٩– ولقد كان تحصين دير الأنبا مكارى الكبير آخر تقدمة رفعها هذا البابا الجليل إلى عرش النعمة . وكان انتقاله هادئاً شبيهاً بمغيب الشمس تحت سماء صافية ، بعد أن قضى على الكرسى المرقسى احدى عشرة سنة وثلاثة أشهر (٢) .

---

(١) أديرة وادى النطرون (بالانجليزية) لايفلين وايت جـ٣ ص٣٦ ، السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٣ ص٧٩٦ – ٧٩٧ .

(٢) تاريخ البطاركة – نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس جـ١ ص٢٦٥ – ٢٧٩ .

د- القديس يؤنس كامى (١)

(٥٧٠) خدمة الناس والتأمل فى بدائع الله.
(٥٧١) يؤنس يتتلمذ للناسك ثيروتى فى برية شيهيت.
(٥٧٢) يترك معلمه عملاً بارشاد ملاك الرب.
(٥٧٣) وحدته تؤهله لأن يرى غير المرئى.
(٥٧٤) أمر السيدة العذراء له ببناء دير.
(٥٧٥) التفاف الكثير حوله.
(٥٧٦) بركة الأنبا أثناسيوس له ولتلاميذه.
(٥٧٧) رسامته قمصاً.
(٥٧٨) ذهابه إلى الصعيد.
(٥٧٩) شنودة تلميذ يؤنس ضمن الصفوة المختارة.
(٥٨٠) نياحة الأنبا يؤنس كامى.

٥٧٠- من نعمة الله تعالى أنه - حين يقوم بين الناس من امتلأ قلبه بالأنوار الالهية - يجعل هذه الأنوار تنعكس على غيره فتستنير قلوبهم بما سطع عليها من قلبه الفياض. وبين الذين استضاءت قلوبهم بالنور السماوى فعكسوه على غيرهم الأنبا يؤنس كامى. ومع كون هذا القديس من حملة المشاعل فى طريق الحياة الانسانية فالتاريخ يجهل يوم مولده، ولم يسجل غير يوم نياحته - وهو الرابع والعشرون من شهر كيهك المبارك سنة ٥٧٥ش (٨٥٩م). فيكون الأنبا يؤنس كامى ممن عاشوا فى القرن التاسع. ومن المتواتر أنه ولد فى قرية شبرا منصور (٢). وقد مال منذ صباه إلى حياة النسك والتأمل. وكان بهى الطلعة، هادئ القلب، عفيف النفس واللسان. ولما كانت المحبة لا ترضى بالسكون ولابد لها من عمل تنصرف فيه، فقد بنى يؤنس مضيفة فسيحة يجد فيها الغرباء والفقراء استراحة مجانية. أما محبته لله فقد جعلته ينصرف إلى المطالعة والبحث فى الكتب المقدسة كما دفعته إلى الاكثار

---

(١) كامى كلمة قبطية معناها أسود، وهى مشتقة من كيمى (مصر) لتربتها السوداء فترجمة اسمه هى يؤنس المصرى.

(٢) الكلمة القبطية لهذا الاسم هى «جيبرو مونسون» وتقع فى مديرية الغربية بالدلتا.

من الصوم والصلاة والتأمل في بدائع الخالق تعالى . وقد دأب خلال أصوامه وأبحاثه وخدماته على تدريب نفسه حتى ينجح في التحكم في جسده ولسانه.

٥٧١- وفي احدى الليالي ، بينما كان يؤنس واقفاً يصلي ، إذا برجلٍ يشع منه النور قد وقف أمامه وقال له : « متى أصبح الصباح فاذهب إلى دير القديس مكاري الكبير ببرية شيهيت ، إلى الأب ثيروتي ، وأطلب إليه أن يتخذك له تلميذاً وأن يلبسك الاسكيم . لأن ثيروتي اناء مختار حقًا ، نجح في اجتذاب القلوب العديدة إلى الله » (١) . وتهلل قلب يؤنس لهذه الكلمات ، واستمر في صلاته حتى بدأ الظلام يتراجع أمام اقتراب الفجر . وما أن شق أول شعاع للشمس حجب هذا الظلام حتى انطلق يؤنس كالسهم إلى برية شيهيت حيث قابل الشيخ القديس ثيروتي . وكان ملاك الرب قد أعلن لهذا الراهب الشيخ مجئ يؤنس فعرفه لساعته . ولكنه أراد أن يمتحنه فقال له : « ليس من شك في أن الراهب يجب أن ينذر نفسه للفقر والطاعة والعفة ، وأن الحياة في البرية ليست بالأمر الهين » . أجابه يؤنس في تواضع : « أرجو أن أجد نعمة في عينيك يا أبي ، فقد أتيت لكي أعيش في ظل صلواتك » . وقد أعجب ثيروتي بهذا الرد فقبل أن يضم يؤنس إلى تلاميذه ، ولم يلبث أن ألبسه الاسكيم المقدس . فغمر النور الالهي قلب يؤنس ومكنه من أن يداوم السعي نحو الكمال المسيحي في اهتمام بالغ .

٥٧٢- وبعد أن قضى يؤنس كامي عدة سنوات في كنف معلمه ثيروتي ، ظهر له ملاك الرب في رؤى الليل وقال له : « السلام لك أيها الخادم الأمين الآب السماوي . إذا ما طلع النهار فاستأذن معلمك في مغادرة الدير وأرحل غرباً إلى المنطقة التي كان يعيش فيها يؤنس القصير ، وابنِ لنفسك هناك صومعة تقيم فيها . وأعلم أن الله جل جلاله سيعطيك ميراثاً في هذه الصحراء، إذ ينضم إليك عدد كبير من الرهبان الذين ستكون لهم أباً ومعلماً . وبما أنك قد اتخذت القديسين مكاري الكبير ويؤنس القصير وبيشوي نبراساً لك

(١) مما يؤسف له أنه لا توجد في صفحات التاريخ عن ثيروتي غير هذه الكلمات التي وردت في ترجمة الأنبا يؤنس كامي - ولو أنها تحمل في طياتها الكثير من المعاني .

فسيكون نصيبك كنصيبهم وقد أقامتنى العناية الالهية حارساً لك وللرهبان الذين سينضمون إليك » . ثم توارى عنه الملاك وذهب لثيروتى وأبلغه الرسالة عينها .

٥٧٣- وفى فجر اليوم التالى تقابل يؤنس بمعلمه وعرفه بالأمر الالهى الذى جاءه فى الحلم . فقال له القديس ثيروتى : « لقد أعلمنى ملاك الرب بما رأيت . فاذهب يا بنى وحقق الارادة الالهية فى حياتك : ثم باركه كما بارك الآباء الأقدمون أبناءهم وودعه بقوله : « ليمنحك الله نعمته . ولتكن قوته معك لتعمل ارادته تعالى » . وما أن تحصن يؤنس ببركة معلمه وصلواته حتى استأذن منه فى الانصراف . ثم سلم على اخوته الرهبان ، وخرج من دير الأنبا مكارى الكبير قاصداً إلى المنطقة التى عاش فيها يؤنس القصير . وهناك بنى لنفسه صومعة وعاش فيها فى هدوء شامل . لا يقطع عليه تأملاته إلا خروجه هو من حين إلى حين ليتوغل فى الصحراء استجابة للنداء الملح داخل قلبه الذى هو نداء الله تعالى للنفس المشوقة إليه المتطلعة إلى الحياة فى وحدة معه ، وقد أرهف هذا النداء حواسه فمكنّه من أن يرى غير المرئى ، وأن يسمع أناشيد الملائكة الملتفة حول عرش النعمة وكان كثيراً ما يرى مجد الله فى فيض من النور فوق الذبيحة الالهية ساعة القداس .

٥٧٤- وفى مساء يوم من أيام الآحاد ، بينما كان يؤنس غارقاً فى تأملاته وصلواتـه ، إذا بـه يـرى القديسة والدة الاله يحيط بها جمهور من الجند السماوى ، ويكتنفها نور يخطف الأبصار . وحين وقعت عينا يؤنس على هذه الرؤيا المجيدة التى لا يستطيع اللسان وصفها ، خر على ركبتيه فى رهبة . فمدت أم النور (١) يدها إليه وأقامته قائلة : « لا تخف أيها الخادم الأمين للكلمة الذى تجسد منى ، وليثبت قلبك على الايمان الذى ملأ نفسك واعقد العزم على بناء دير فى هذه المنطقة لأن كثيرين سيأتون إليك ويتتلمذون لك . وسأكون أنا بنفسى حامية لهذا المكان الذى سيحيط به الملائكة لحراستك وحراسة كل

---

(١) هذا التعبير هو أحد ألقاب السيدة العذراء مريم .

من يلوذ بك ، . . ثم أعطته ثلاث قطع من النقود نقش عليها الصليب وقالت له : ، ضع هذه النقود في خزينة الدير للانفاق منها على مختلف حاجاته . ولتدم عليك بركة ابني إلى الأبد ، . وبهذه الكلمات سلمت السيدة العذراء على يؤنس ثم توارت عن عينيه .

٥٧٥– وشرع يؤنس كامى فى تنفيذ أوامر السيدة العذراء على الفور . ويروى التقليد أن الملائكة قد عاونته فى بناء الدير فلم يلبث عبير فضائله أن عطر أرجاء الوادى الحبيب واجتذب إليه عدداً وفيراً من الرجال إذ كان معاصروه يعدونه نبياً ومعلماً ، لأنه كرس جميع مواهبه لخدمة السيد المسيح وتثبيت الايمان الأرثوذكسى فى القلوب . وتجمع أحباؤه ومريدوه حوله ، واتخذوه لهم أباً روحياً . فسهر على ارشادهم ، وبنى لهم داخل الدير قاعة فسيحة يجتمعون فيها لتبادل الرأى ولتأدية صلاة نصف الليل (١) التى كانت تستمر حتى مطلع الفجر . ومن حسن الحظ أن يؤنس كامى أحاط ديره بسور مرتفع عريض ليقى الرهبان العائشين فيه شن الغارات التى كان يشنها عليهم قبائل البربر ، إذ كان قد تعلم هذه الحكمة من الأنبا شنودة الأول الذى حين أراد أن يحمى الرهبان من الغارات المتكررة – حصن دير الأنبا مكارى الكبير بمثل هذا السور .

٥٧٦– وحدث أن كان الرهبان منهمكين فى صلاة نصف الليل ذات مرة، فإذا بالأنبا أثناسيوس الرسولى (البابا الاسكندرى العشرين) قد ظهر ليؤنس محاطاً بنور سماوى عجيب وقال له : ، سلام لك يا محب سيدنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح ، وسلام لأولادك المخلصين الوادعين ، ولكل الذين سيأتون إلى ديرك من بعدهم . لقد صعدت صلواتهم بخوراً طيباً إلى عرش النعمة . وستكون بركة للأجيال الآتية على مدى الأزمان ، . وبهذه الكلمات اختفى عن ناظريه . ومن هذه الليلة أوصى يؤنس كامى رهبانه أن يختموا ذوكصولوجية (مديح) الفتية الثلاثة فى أتون النار (٢) بذكر الأنبا أثناسيوس

(١) يلاحظ هنا أن صلاة نصف الليل تتلى جماعياً .
(٢) أنظر دانيال ٣ .

الرسولى تمجيداً له ولجهاده الذى شابه جهاد الرسل . ومازال رهبان دير الأنبا يؤنس كامى يعملون بهذه الوصية حتى الآن .

٥٧٧- وبعد أن جاهد يؤنس سنين عديدة رُسم قمصاً رغم احتجاجه العلنى بأنه غير مستحق لهذه الكرامة الروحية . وفى أثناء تأدية الشعائر الدينية لرسامته حين جاءت نوبته ليصلى ، رأى مجد الله يملأ الهيكل ويكتنفه بنور وضاء . فامتلأ نشوة روحية ، ورفع التسابيح للآب السماوى الذى هيأت محبته للبشر وسيلة بها يلمحون قبس المجد العتيد .

٥٧٨- وبعد رسامة يؤنس بأسابيع قال له الملاك الملازم له : « قم اذهب إلى الصعيد لأن عدداً كبيراً من أهله فى حاجة إلى تعليمك وارشادك » . فقام يؤنس لفوره ، وقصد إلى الصعيد تنفيذاً لأمر الملاك واقتداءً بيؤنس القصير أخيه الروحى وبيشوى اللذين انشغلا - قبله بأجيال - فى اجتذاب النفوس الضالة إلى حظيرة الراعى الأمين . وقبل أن يخرج من الدير نادى على شنودة تلميذه الأول وقال له : « لقد أمرنى ملاك الرب بتأدية رسالة خاصة بين أهالى الصعيد . فارعَ الاخوة فى غيابى . واستودعك الله » . ولما أخذ يؤنس يتنقل بين مديريات الصعيد ، عثر على دير مهجور فأقام فيه . وسرعان ما سمع الناس عنه ، فهرعوا إليه لينالوا بركته ، وتتلمذ له عدد منهم أحبوا أن يعيشوا فى حمى صلواته .

٥٧٩- وكان شنودة تلميذ يؤنس ضمن الصفوة المختارة من الناس الذين يدركون مسئولياتهم نحو اخوتهم . فكرس نفسه لخدمة الرهبان باهتمام عظيم حتى لقد كان ينسى حاجات جسده من أكل وشرب وراحة . وقد أدى تفانيه هذا إلى تورّم جسمه كله بحيث صعب عليه تأدية مهام الرعاية . وعندها أعلن ملاك الرب ليؤنس حقيقة أمر تلميذه ، وطلب إليه أن يترك الصعيد ويعود إلى ديره ليتدارك تلميذه . فعاد لساعته . وما كاد يدخل الدير حتى وضع يده على جسد شنودة المتورم وقال له : « نعماً أيها الابن المخلص المطيع » فنال شنودة الشفاء على الفور .

٥٨٠- ولم تنقضِ بعد ذلك غير فترة قصيرة حتى أعلن الملاك عينه

للأنبا يؤنس كامى بأن ساعته قد دنت . فجمع الرهبان وأخبرهم بذلك . ثم أوصاهم بأن يحافظوا على العقيدة الأرثوذكسية التى ورثوها عن القديسين والشهداء ، ونصحهم بأن لا يزجوا بأنفسهم فى المجادلات غير المثمرة ، ولا يتكلوا على ذراع بشر ، ولا يقتنوا ذهبًا أو فضة ، عملاً بوصية الفادى الحبيب الذى يرزقهم من حيث لا يدرون . وما كاد ينتهى من وصيته حتى رأى جمهوراً من الملائكة ملتحفين بالنور ، وهم يسبحون الله تعالى تسابيح الحمد والتمجيد . ثم اقترب هؤلاء الملائكة منه ، وحملوا روحه الطاهرة ، صاعدين بها نحو عرش النعمة وهم يرتلون . فصلى الاخوة على جثمانه الطاهر ودفنوه باكرام عظيم .

ولقد أجزل الله تعالى العطاء للأنبا يؤنس كامى ففاضت نعمته على تلاميذه ، وضاعفت عددهم ، وملأتهم قوة . صلاته وصلاتهم فلتشملنا جميعاً . آمين .



نقوش متنوعة

١- فى وسط المعمعة

(٥٨١) انتخاب البابا السادس والخمسين.
(٥٨٢) السلام فى مصر والخصام فى خارجها.
(٥٨٣) التراث الفكرى المصرى يتخلل تعاليم الشعوب الأخرى.
(٥٨٤) عهد من الرخاء يقره ابن طولون.
(٥٨٥) ابن طولون يستخدم مهندسًا قبطيًا.
(٥٨٦) ويقابل رحالة قبطيًا بلغ المئة والثلاثين.
(٥٨٧) القاء البابا الاسكندرى فى السجن.
(٥٨٨) ثورة يشنها عباس على أبيه ابن طولون.
(٥٨٩) حزن الأنبا ميخائيل الثالث ثم نياحته.
(٥٩٠) لمحة عن ابن كاتب الفرغانى.
(٥٩١) خمارويه يحرز انتصارًا حاسمًا.
(٥٩٢) اعتراف حكام الشرق بسلطته وزواج ابنته من الخليفة العباسى.
(٥٩٣) خمارويه صاحب ذوق مرهف وخيال خصب.
(٥٩٤) استجمامه من أعباء الملك فى أحد الأديرة.

٥٨١- من المؤرخين الذين عنوا بتاريخ سير الباباوات الاسكندريين الأنبا ميخائيل أسقف تنيس الذى مهد لكتابه عن هؤلاء الآباء الأجلاء بقوله : « يا أولادى الأعزاء إن المحبة المسيحية تتطلب منا أن نتتبع سير آبائنا ، ونسجل ما لم يسجله الذين سبقونا لكى نكون على علم بمجريات الأمور فى كنيستنا المحبوبة » (١) . وعملاً بنصيحة هذا الأب البار نعاود سيرنا فوق الطريق الذى اختطه لنا الآباء فنجده منبسطًا أحيانًا متعرجًا أخرى . وحينما نتتبع هذا الطريق بكل ما فيه من منحنيات وانبساطات ندرك قيمة النصيحة التى أسداها

(١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين ترجمه إلى الانجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطيه واسولد برمستر - المجلد الثانى - الجزء الثانى - طبعته جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٤٨ ص٦٩ .

لنا الأسقف التنيسى ، لأننا سنعرف من اقتفاء خطوات الآباء مدى جهادهم وقوة ايمانهم بالآب السماوى . وفى هذا المنحنى من الطريق نجد أنه على أثر انتقال الأنبا شنودة الأول إلى مصاف الأبرار ، اتبع الأساقفة والأراخنة ما تقضى به التقاليد من شورى . واستقر رأيهم على انتخاب راهب اسمه ميخائيل معروف بسعة صدره وهدوء باله وتقشفه إلى جانب تبحره فى العلوم الكنسية ، حتى لقد قيل عنه أنه « شبيه بالذهب المصفى » . وقد تمت رسامته بعد انقضاء شهر واحد على نياحة سلفه ، فاتخذ مكانه بين خلفاء مرقس البشير بوصفه السادس والخمسين من بينهم سنة ٥٧٧ش (سنة ٨٦١م) .

٥٨٢- وفى السنة الأولى لرسامة الأنبا ميخائيل الثالث كانت بلادنا المصرية تنعم بالسلام : كنيسة وشعباً ، بعكس ما كان عليه حال الكنيسة فى البلاد الأخرى إذ قد دارت المجادلات بين القسطنطينية وروميه بعنف أشاع الفرقة بين الكنيستين . وكان أساس هذا النقاش ما سبق أن أدخله الملك ريكاردو فى مجمع توليدو من ابتداع فى دستور الايمان (١) . ولم يرض أساقفة رومية أنفسهم عن هذا الابتداع مما حدا بلاون الثالث إلى أن نقش دستور الايمان الأرثوذكسى الذى أقرته المجامع المسكونية (٢) على لوحتين من الفضة : باليونانية على احداها وباللاتينية على ثانيتها وتعليقهما على باب كنيسة القديس بطرس برومية (٣) . وكان هذا فى سنة ٨١٠م غ . أما فى سنة ٨٦٧ فقد رأى نيقولا الأول أسقف رومية غير ما رآه سلفاؤه إذ حاد عن دستور الايمان الأرثوذكسى وقبل البدعة التى تسبب فى ادخالها ملك الأسبان الذى لم يكن له الحق فى التلاعب بالقوانين الكنسية اطلاقاً . ولم يكتف نيقولا الأول بقبول هذه البدعة فحسب بل شاغب كنيسة القسطنطينية فى جهادها لتبشير الشعوب السلافونية ، كما ادعى لنفسه السلطة العليا فى الكنيسة . ولما كانت كل هذه التصرفات مخالفة للايمان وللتقاليد الرسولية ولأصول اللياقة بين الأساقفة

(١) راجع ف٩٠ و٥٢٧ .

(٢) وقد انعقدت بالتالى فى نيقية سنة ٣٢٥ والقسطنطينية سنة ٣٨١ وأفسس سنة ٤٣١م غ .

(٣) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٥ ص١٧٧ - ١٧٨ .

فقد انبرى له فوتيوس البطريرك القسطنطيني العلامة وجمع مجمعاً من كل الأساقفة الشرقيين (١) وثلاثة من أساقفة الغرب ، فأجمعوا كلهم على حرم الأسقف الروماني . وبعث فوتيوس برسالة إلى نيقولا الأول تعد صفحة مجيدة في تاريخ الكنيسة الجامعة أوضح فيها حقيقة الايمان الذي أعلنته الكنيسة في مجامعها المسكونية الثلاثة والمبني على قول رب المجد عن روح الحق الذي من الآب ينبثق (٢) . وقد نهج فوتيوس – في مسلكه هذا – وفقًا للتقاليد الرسولية التي حافظت عليها الكناس الشرقية وتتلخص في أن السلطة العليا في الكنيسة للمجمع وليست لفرد مهما سمت مكانته . على أنه رغم ما أبداه البطريرك القسطنطيني من حكمة ومنطق في كل ما كتب فقد توترت العلاقات بين كنيستي القسطنطينية وروميه . ولم يكن الحبر القسطنطيني هو البادي بالجدل ، ولم يهاجم أحداً في كتاباته ، بل لزم خطة الدفاع في رصانة ووقار (٣) .

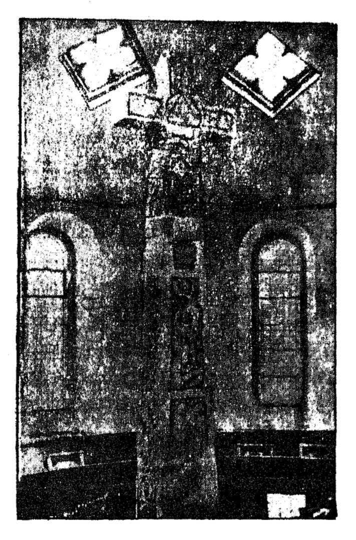
٥٨٣– وفي هذه الفترة أوفد فوتيوس بعثة لنشر المسيحية في بلاد الروس والبلغار يرأسها أخوان هما ميثوديوس وكيرلس . وكانا من تسالونيكي ، وقد تضلعا من اللغتين اليونانية والسلاڤونية كما قضيا السنوات الطويلة في النسك والتأمل . فبعد أن بشرا الروس رأيا تثبيتهم على الايمان بأن ترجما لهم الكتاب المقدس إلى لغتهم . وفي أثناء انشغالهما بهذا العمل الجليل وجدوا أن اللغة الروسية تنقصها بعض المقاطع فأخذوها عن اللغة القبطية (٤) . وهكذا استمر

(١) غني عن القول أن البابا الاسكندري الشرعي لم يذهب إلى هذا المجمع وأن دخيلاً تكلم نيابة عن الكنيسة المصرية .

(٢) يوحنا ١٥ : ٢٦ .

(٣) دائرة معارف العلوم الدينية (بالفرنسية) طبعت في باريس سنة ١٨٨١ جـ١٠ ص٥٨٦ ، « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتي جـ٦ ص٢٥٤ – ٢٨٧ قاموس الاصطلاحات الكنسية (بالانجليزية) لكوثربرث أتشلي وإيايات طبع في لندن سنة ١٩٢٣ ص٧٤ – ٧٥ .

(٤) « تاريخ الكنيسة » ... جـ٦ ص٢٢٧ ، « القبط في ركب الحضارة » مقال للدكتور مراد كامل نشره في رسالة مارمينا الصادرة في الاسكندرية سنة ١٩٥٤ ص١٤ .



صليب منحوت من الحجر – وقد نحتت فى أسفل قاعدته صورة للأنبا بولا أول النساك مع الأنبا أنطونى أبى الرهبان . وهذا الصليب مما يوصف بكلمة « رونى » وهى صفة تطلق على الأدب والزخارف الخاصة بالشعوب الجرمانية التى امتدت من ألمانيا إلى شمال السويد ، واستقر بعض منها فى الجزر البريطانية .

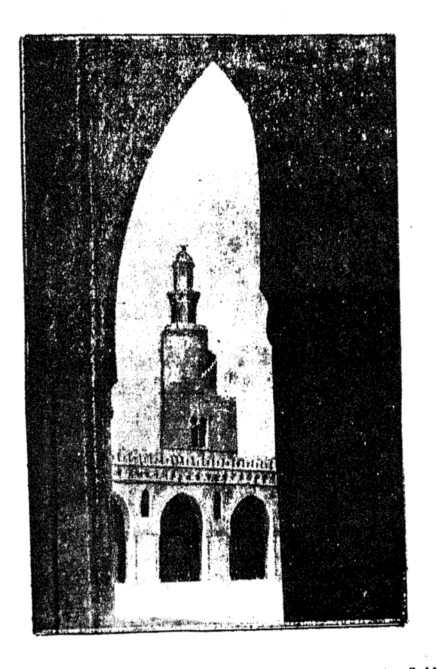
والصليب الذى نراه مقام فى كنيسة روثويل بمقاطعة دومفريسشاير باسكوتلندا .

التراث الفكرى المصرى يتخلل تعاليم الشعوب الأخرى رغم انزواء المصريين بسبب القطيعة التى باعدت بينهم وبين كنيستى القسطنطينية ورومية .

٥٨٤– وبينما كانت عوامل البناء والهدم تتفاعل ، ويؤثر تفاعلها على الشعوب المختلفة ، كان الأنبا ميخائيل الثالث منهمكاً فى تعليم شعبه . وقد سهل عليه هذا الواجب المقدس قدوم أمير جديد واسع الأفق – هو الأمير أحمد ابن طولون . وكان تركى الأصل ، تربى فى بلاط الخليفة فى بغداد ، وتعلم القرآن والفقه وأصول الدين على مذهب أبى حنيفة ، كما اشتهر بالوفاء والشجاعة ، فعينه بقبق المتصرف باسم الخليفة المعتز والياً على مصر سنة ٨٦٨م . وما أن تولى زمام الحكم حتى أخذ يثبت دعائم سلطته باستمالة القلوب إليه . فخلع جباة الضرائب الدخلاء وعين بدلاً منهم موظفين مصريين . ويبدو أن مثل هذه المعاملة العادلة لم تعجب الجميع ، فثار العلويون غربى الاسكندرية عليه سنة ٨٦٩ ، ولما انطفأت ثورتهم أشعلها بقيتهم فى منطقة أسنا بالصعيد الأعلى . ولكن ابن طولون ظفر بهم فى الصعيد كما كان قد ظفر بهم فى الاسكندرية . فلم تكن ثورتهم غير ريح عابرة . ومن ثم وجه هذا الوالى الرشيد عنايته إلى الشعب المصرى ، فمنح الجميع الحرية فى ظل القانون . وهكذا أتاح الفرصة للقبط لمزاولة شعائرهم الدينية وبناء الكنائس والأديرة ، ومباشرة أعمالهم التجارية والزراعية والصناعية . فعم البلاد هدوء شامل ، واستتب الأمن إلى حد أن ابن طولون لم يعد محتاجاً إلى مرسوم جديد من الخليفة المرفق الذى تولى الحكم بعد انتقال المعتز إلى رحمة مولاه .

٥٨٥– وكان أحمد بن طولون – إلى جانب ما امتاز به من عدالة – ميالاً إلى البذخ والترف ، فبنى مدينة جديدة على مقربة من الفسطاط أقام فى وسطها قصراً منيفًا تحيط به حديقة غناء ، وأقام فى جناح منها ملعباً لسباق الخيل . وشيد إلى جانب هذا القصر الفخم مسجداً غاية فى الهندسة المعمارية (١) – بناه له مهندس قبطى اسمه ابن كاتب الفرغانى . وقد أعجب

(١) لايزال هذا المسجد قائماً للآن يعجب به كل من يراه وهو يختلف فى هندسته عن كل المساجد فى مصر .



مئذنة جامع ابن طولون كما تبدو من خلال أحد أقواس الجامع ،
وهى فريدة من نوعها فى مصر

ابن طولون بعمل هذا المهندس اعجاباً جعله يعطيه مائة ألف دينار مكافأة له على ابتكاره الباهر ، ومعاشاً شهرياً . وطلب إليه بعد ذلك أن يبنى له خزاناً يوصل ماء النيل إلى مدينته الجديدة (١) . وكانت القصور التى بناها هذا الأمير آية فى الفخامة ، عاش فيها عيشة الترف إلى حد أن بلاطه كان ينافس فى الأبهة بلاط الخلفاء العباسيين فى بغداد . وأدرك الخلفاء مدى هذا الترف ، وحنقوا على صاحبه حنقاً أدى بهم فى النهاية إلى هدم هذه القصور جميعها عند سقوط الطولونيين (٢) .

٥٨٦- ومما يرويه ابن المسعودى (٣) عن أحمد بن طولون أنه كان قد سمع عن فيلسوف قبطى من أعالى الصعيد بلغ من العمر مئة وثلاثين سنة . وكان هذا الفيلسوف بارعاً فى العلوم الفلكية والجغرافية كما كان رحالة مغامراً، فدفعه حبه للمغامرات إلى القيام بزيارات لأقطار بعيدة . فأرسل إليه ابن طولون يطلب منه الحضور إلى « القطائع » عاصمته الجديدة . ولما التقى الرجلان بالغ الأمير فى اكرام ضيفه ثم سأله عن السر فى أنه بلغ سناً يندر أن يبلغه الناس . فقال : « لقد دربت نفسى يا مولاى على الاعتدال فى الملبس والمأكل والمشرب. وأغلب ظنى أن هذا الاعتدال هو السر » . ثم سأله ابن طولون عما إذا كان يعرف أين هى منابع النيل . فأجابه : « إنى أعتقد أن منابع النيل مستقرة فى قمم الجبال الشامخة حيث توجد بحيرة واسعة وحيث يستوى الليل والنهار على مدار السنة » . وقد أطلق العلماء على هذه المنطقة اسم « الخط المستقيم » بسبب هذا التساوى (٤) . وقد أعجب ابن طولون بأجوبة

(١) الكنائس القبطية القديمة فى مصر (بالانجليزية) لألفريد بطلر جـ١ ص٨٩ ، تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پول ص٥٩ - ٦٣ ، ٦٥ .

(٢) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) جـ٢ المبحث الثانى لجاستون فييت ص١٥٨ - ١٥٩ ، الخلافة : ازدهارها وانحلالها فسقوطها (بالانجليزية) لوليم موير ص٥٥٥ .

(٣) مؤرخ عربى ولد ببغداد وتوفى حوالى سنة ٩٥٦م ، قضى السنوات العشر الأخيرة من عمره ما بين مصر وسوريا وكان واسع الأفق استقى معلوماته من مختلف المصادر .

(٤) من المعلوم أن الباحثين الأوروبيين لم يعرفوا منابع النيل إلا بعد ذلك بتسعة قرون ، وأن الوصف الذى قدمه الرحالة القبطى ينطبق على الحقيقة تماماً .

الشيخ القبطى وبسعة معلوماته ، فاذن له بالعودة إلى بلاده بعد أن أعطاه الهبات المالية الجزيلة (١) .

٥٨٧- على أنه - رغم هذه المزايا - كانت هناك رذيلة شانت ابن طولون شيئاً فظيعاً : هى أنه كان سريعًا فى استعمال سيفه إلى حد أنه قيل عنه بأنه قتل ثمانية عشر ألفاً من الناس (٢). ومع أنه لم يضع ضرائب جديدة على القبط إلا أنه حتم على الأنبا ميخائيل الثالث دفع عشرين ألف دينار . فأدى هذا التعسف إلى توتر العلاقات بينهما ، وبخاصة لأن ابن طولون - حين وجد البابا الاسكندرى عاجزاً عن دفع هذه الضريبة الفادحة - ألقاه فى السجن دون تردد ويروى المقريزى أن الأنبا ميخائيل الثالث اضطر فى نهاية الأمر إلى أن يبيع قطعة من أملاك البطريركية معروفة باسم « أرض الحبش » . أما الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين فقد وصف بالتفصيل المقابلة التى تمت بين الرجلين والتى انتهت بأن أمر ابن طولون بالقاء الأنبا ميخائيل الثالث فى السجن .

وبينما كان البابا الاسكندرى ملقى فى السجن ، سعى كاتبان قبطيان يشتغلان فى ديوان الأمير إلى اقناعه بالافراج عن باباهم . على أن توسلاتهما ذهبت سدى ، لأن الوالى رفض أن يعفو عن أسيره الكبير ما لم يقبض عشرين ألفاً من الدنانير فلجأ هذان الكاتبان إلى زميل لهما اسمه يؤنس يشتغل كاتباً لوزير أحمد بن طولون وكان يؤنس هذا يعرف أن الوزير يقصد إلى الجامع عند انبثاق الفجر . فاستصحب ابنه ، وذهب كلاهما إلى الجامع قبل بزوغ الشمس ووقفا مقابل البابا . فلما وصل الوزير استغرب لرؤية كاتبه يؤنس وابنه جالسين فى هذه الساعة المبكرة ، وسألهما عن السبب الذى دفعهما لانتظاره عند مدخل المسجد مع أن الشمس لم ترسل غير شعاعها الأول . وعندها أخبراه بالسبب ، وما زالا به حتى وعدهما بالعمل على اخراج البابا المرقسى من السجن . وقد برّ الوزير بوعده إذ قد سعى جهده إلى أن استصدر

---

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص٤٨٤ - ٤٨٥ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول ص٧١ .

أمراً بالافراج عن الأنبا ميخائيل الثالث على شرط أن يدفع عشرة آلاف دينار فى مدى شهر ، والعشرة آلاف الباقية تقسط على أربعة شهور (١) .

٥٨٨- ومن الغريب أن أحمد بن طولون حين توهم بأن ولاية مصر سلمت قيادها له ، فوجئ بثورة يرفع عباس (ابنه الأكبر) لواءها فى الاسكندرية . فخف إليه على رأس جيشه . إلا أن عباس فر من الاسكندرية إلى برقة قبل وصول أبيه وقواته . ثم تنقل منها إلى مختلف البلاد فى شمال أفريقيا . وكان حيثما حل يشيع الدمار . ولكن ابن طولون تغلب عليه فى النهاية وعاقبه شر العقاب (٢) .

وقد أدى هذا الصدام المسلح إلى الاخلال بالأمن وقلة الانتاج فترة من الزمن - كما يحدث عادة بعد كل حرب .

٥٨٩- وكان الأنبا ميخائيل الثالث لا يزال مديوناً وعليه أن يدفع العشرة آلاف دينار الباقية للوالى ، فاضطر إلى أن يبيع بعض ممتلكات الكنيسة ليسدد هذا الدين . وقد حز فى نفسه أن يبيع ما قدمه الشعب المؤمن هبة لكنيسته . ويبدو أن ألم البابا الاسكندرى لهذا البيع الاضطرارى قد طغى عليه إلى درجة سببت له اعتلال صحته . ومع أنه عاش سنتين بعد موت ابن طولون ، إلا أن الحزن ظل ملازماً له طيلة هذه المدة . فانتقل من هذا العالم الملئ بالأحزان إلى الموضع الذى هرب منه الحزن والكآبة بعد أن ساس أمور الكنيسة شهراً واحداً وخمسة وعشرين سنة .

٥٩٠- كان أحمد بن طولون قد طلب إلى المهندس القبطى سعيد ابن كاتب الفرغانى بناء مقياس النيل والصهريج المعروف للآن باسم صهريج ابن طولون . على أن هذا الأمير حكم بالقاء مهندسه فى السجن ونسيه تماماً .

---

(١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين - ترجمه إلى الانجليزية يسى عبد المسيح ، عزيز سوريال عطية ، أوسولد برمستر ، المجلد الثانى - نشرته جمعية الآثار القبطية بالقاهرة سنة ١٩٤٨ ص٧١ - ٧٥ .

(٢) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى - المبحث الثانى - لجاستون فييت ص١٥٨ .

ثم حدث بعد فترة من الزمن أن ابن طولون رغب فى اقامة مسجد فريد من نوعه . فأشار عليه مستشاروه بأن يزينه بثلاثمائة عامود ثم أوعزوا إليه بأنه لن يستطيع الحصول على هذا العدد من الأعمدة ما لم يهدم عدداً كافياً من الكنائس . وسمع سعيد ابن كاتب الفرغاني بهذه المشورة وهو فى السجن فأرسل خطاباً إلى الأمير يعلن فيه استعداده لأن يبنى له مسجداً لا يحتاج بناؤه إلا إلى عامودين مع ابدال بقية الأعمدة بدعائم من الآجر لأن هذه المادة تقاوم الحريق . فلاقى هذا العرض رضى من ابن طولون وبعث فى طلب المهندس السجين وعهد إليه ببناء الجامع ووضع مئة ألف دينار تحت تصرفه للانفاق منها على أن تزاد عند الحاجة . ولما أتم ابن كاتب الفرغانى بناء المسجد احتفل ابن طولون بافتتاحه ، ولشدة فرحه وزع الصدقات يومذاك على الفقراء كما منح الكثير من الهدايا وكان نصيب المهندس عشرة آلاف دينار مع اجراء الرزق عليه مدى حياته (١) .

سعيد بن كاتب الفرغانى المهندس

إن أشهر ما بناه هذا المهندس الفنان هو جامع ابن طولون الذى مازال قائماً شامخاً يشهد لمهندسه بالابتكار . على أن هذا الجامع كان آخر ما أنتجته عبقريته إذ من المعروف أنه بنى مقياس النيل بالروضة فى أيام الخليفة العباسى المتوكل سنة ٨٦٤م لأن العقود المدببة (الغوطية) الموجودة فى هذا المقياس هى بعينها العقود الموجودة فى جامع ابن طولون . ولقد شيد المقياس قبل الجامع بست عشرة سنة .

وأول عمل أوكله ابن طولون إلى سعيد بن كاتب الفرغانى كان انشاء قناطر توصل المياه إلى المدينة التى كان قد اختطها لنفسه ولحاشيته – وهى المدينة المعروفة باسم « القطائع » . فبنى له القناطر المطلوبة وحفر عيناً من الماء متصلة بصهريج ، وهذا الصهريج متصل بدوره بالقناطر . وقد بلغ هذا العمل من الاتقان ما جعل ابن طولون يعجب بمهندسه فيعود إليه بعد ذلك

---

(١) تاريخ الأمة القبطية – الحلقة الثانية – لكامل صالح نخلة وفريد كامل ص١١٢ – ١١٣ .

بسنوات ليطلب إليه أن يشيد له جامعًا فريداً فى نوعه ومبنياً بحيث يقاوم الحريق . فأجابه سعيد بن كاتب الفرغانى بأنه يستطيع تحقيق رغبته . وتوكيداً لهذه الامكانية صنع له نموذجاً مجسماً من الجلد أوضح بواسطته ما سيكون عليه الجامع بعد اتمامه . فاطمأن ابن طولون إلى أن رغبته ستتحقق . وتم بناء الجامع بالفعل وبلغت نفقاته مائة وعشرين ألفًا من الدنانير . وفى يوم افتتاحه منحت الهدايا للمهندس ولمختلف العاملين كما وزعت الصدقات العديدة .

على أن ابن طولون كان رجلاً تمتد يده بسرعة إلى سيفه . وحدث بعد فترة من الوقت أن عرض على مهندسه انكار مسيحه . فلما لم يلق غير الرفض استل سيفه وقطع رأس ذاك الذى لم يأل جهداً فى خدمته . ونال المهندس البارع اكليل الشهادة (١) .

٥٩١- وقد كان انتقال الأنبا ميخائيل الثالث فى عهد خمارويه بن طولون الذى تولى الحكم بعد أبيه وهو فى العشرين من عمره . وكان - إلى جانب شبابه - قد نشأ مدللاً ، فلم يتدرب على أساليب السياسة ولا الحرب . فلما رأى خصومه ما هو عليه من شباب وعدم دراية ، زعموا أن الفرصة مواتية لهم لينتزعوا مصر والبلاد التابعة لها - وهى سوريا وآسيا الصغرى - من قبضة يده ويعيدوها إلى حكم الخليفة العباسى كما كانت قبل أن يستقل بها أحمد بن طولون . فتألب والى الموصل التركى وعنبر حاكم الدجلة والفرات عليه ، وتآمرا مع والى دمشق على اعلان الحرب ، وبدأ هجومهم على الحدود المصرية السورية . والعجيب أن خمارويه لم يندحر فحسب بل هرب من الميدان أيضاً . فكان هروبه مدعاة إلى أن يزداد خصومه صلفاً وتيهاً ، ويشددوا عليه الخناق ليسحقوه . والأعجب من هذا كله أن خمارويه تركهم يشنون الغارات على حدود امارته وهو لاهٍ فى قصره يستمتع بالمغنيين

(١) تاريخ سعيد بن كاتب الفرغانى المهندس بقلم كامل صالح نخلة استناداً إلى ما أورده المقريزى والسيوطى والاسحاقى - مقال نشره فى مجلة جمعية التوفيق العدد العاشر من السنة الأولى (القاهرة فى ١٥ فبراير سنة ١٩٣٩) .

والمغنيات ، وأنه على الرغم من تضاعف الهجوم من جهة والانغماس فى اللهو من الجهة الأخرى ، فقد ظلت المناوشات سنة كاملة دون أن يتم النصر لفريق منهما . وفى هذه السنة – بينما كان خصوم مصر يستهدفون الاستيلاء عليها ، وأميرها متشاغل بملاذه – فى هذه السنة عينها حدث زلزال عنيف هز البلاد فصدعها من أقصاها إلى أقصاها حتى لقد قدر المؤرخون موت ألف من الناس وسقوط العدد العديد من المنازل ، بينما أصيب جامع عمر بن العاص بتصدع . ويبدو أن الزلزال الذى هز البلاد هذه الهزة المزعجة قد هز خمارويه هزة أيقظته من غفلته واستنهضت همته فترك ما هو فيه من لهو وترف ليلتفت إلى بلاده وإلى خصومه الواقفين له بالمرصاد . فشن المعركة لفوره ، وكانت حامية إلى درجة جعلت خصومه يتراجعون أمامه فزاده النصر يقظة ، وطارد هؤلاء الخصوم ، وانتصر عليهم انتصاراً ساحقًا حتى لقد أقام لنفسه عرشاً فخمًا على ضفاف الدجلة ، وجلس عليه فى موكب حافل سنة ٨٨٨م .

٥٩٢– وكان لهذا النصر الحاسم أبعد الأثر فاعترف جميع حكام العراق وسوريا وآسيا الصغرى بسلطة خمارويه حتى أن حاكم طرسوس الذى كان قد شق عصا الطاعة على الطولونيين منذ سنة ٨٨٣م أعلن توبته بأن دفع جزية مقدارها ثلاثون ألف دينار وألف خلعة . وعلى أثر ذلك اتفق الخليفة المعتضد على الزواج من قطر الندى بنت خمارويه رغم أنه كان أكبر من أبيها سناً . وقد أبدى الخليفة فرحته بهذا الزواج فأمر بأن يقام قصر فى كل مرحلة من المراحل التى تقطعها العروس فى رحيلها من القطائع إلى بغداد ، فكانت الحاشية التى يتألف منها موكب الأميرة قطر الندى تقضى نهارها فى السفر وليلها فى أحد هذه القصور . ولقد وصف المؤرخون جهاز هذه العروس فقالوا أنه كان يتضمن مليون درهم ، والعطور النادرة المستوردة من الهند والصين ، ومختلف الجواهر ، وأربعة آلاف حزام للوسط مرصع بالجواهر ، عشرة صناديق مملوءة بالمصوغات ، وألف مدق من الذهب لاعداد الطيوب والعطور المختلفة اللازمة للزينة . وقد انتقلت قطر الندى من مصر إلى بغداد فى هودج مبطن بالحرير . وكانت هى وحاشيتها يستريحون ليلياً فى قصر من القصور

الفخمة التى أعدها الخليفة المعتضد لراحتهم ، وقد حوت هذه القصور كل الكماليات (١) . ولو فرضنا جدلاً أن فى هذا الوصف شيئًا من المغالاة إلا أنه رغم هذا دليل على مدى الترف الذى كان ينعم به حكام ذلك العصر ومدى الرفاهية التى بلغتها الحياة فى شرقنا فى القرن التاسع .

٥٩٣- ولقد كان خمارويه صاحب ذوق مرهف ، فوسع قصر أبيه . ثم حول الميدان الذى يطل عليه إلى حديقة غناء صففت فيها الزهور فى أشكال هندسية أو فى جمل متناسقة . واختار لهذا التصفيف أندر الزهور وأجملها . وقد توسط هذه الحديقة البديعة مكان خاص بالطيور ذات الألوان الخلابة والأصوات العذبة . ولم يشأ خمارويه أن يكتفى بهذا كله ، بل بنى لنفسه قصراً لا يوصف جماله أطلق عليه اسم « الدار الذهبية » ، لأن كل ما فيه من نقوش وزخارف كان مطلياً بماء الذهب .

ومن المؤلم أن كل هذا الجمال لم يكن كافيًا ليهدئ من نفس خمارويه المتوثبة فكان يقضى لياليه وهو يتقلب على فراشه وقد استبد به الأرق دون أن يغمض له جفن . فأمر أن تقام له وسط هذه الحديقة الفيحاء بحيرة من الزئبق ، فى كل ركن من أركانها الأربعة عامود من الفضة ، تحمل سريراً مربوطاً إلى الأعمدة بحبال من الحرير ، فيتأرجح السرير فى هوادة إذا هب عليه النسيم - لعله بهذه الوسائل الخلابة يستدرج النوم إلى عينيه . وكان خمارويه إذا ما استلقى على هذا السرير المقام من نسج الخيال يسهر على حراسته الخاصة أسد أليف يلازمه ملازمة الكلب الصدوق لصاحبه .

٥٩٤- وكان خمارويه - إلى جانب ميله للترف - ميالاً إلى حسن معاملة شعبه . فأنصف المسلمين والقبط سواء بسواء . على أن الأساقفة والأراخنة لم يتمكنوا من مقابلته خلال السنوات الثلاث الأولى لحكمه لانشغاله فى حروبه أولاً وفى زواج ابنته ثانياً ، فلم يستطيعوا أن ينتخبوا راعيهم الأول ليجلس على السدة المرقسية التى شغرت بنياحة الأنبا ميخائيل الثالث رغم استمتاعهم

---

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول ص٧٤ .

بالسلام والاستقرار . وكان خمارويه - إذا ما ثقلت عليه أعباء الملك يترك المدينة وصخبها ، ويأوى إلى أحد الأديرة القريبة من الفسطاط ليجد فى هدوئها السلام الذى يمكنه من الاستجمام . وكان يقضى بضعة أيام فى الدير مستمتعاً بكرم الرهبان متبادلاً وإياهم العطايا لما بينه وبينهم من ود وصداقة . وكان تعلق خمارويه بالأديرة ينبع من ولعه بالفن . وكان هناك دير قائم فى أعلى الهضبة الواقعة جنوبى المقطم يحوى أيقونة للسيدة العذراء مصنوعة من الفسيفساء (الموزاييكو) آية فى الجمال . فأعجب خمارويه بهذه الأيقونة اعجاباً دفعه إلى تكرار الزيارات لهذا الدير وفى هذا الزيارات كان يجلس الساعات الطويلة أمام أيقونة السيدة العذراء يتأملها فى اعجاب وخشوع (١) .



(١) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى - المبحث الثانى . لجاستون فييت ص١٦١ - ١٦٤ .

ب- فى رحاب الصحراء

(٥٩٥) أصفياء الله يجاهدون بالصلاة .
(٥٩٦) الشباب يترهبنون طلباً للقداسة والعلم والخدمة .
(٥٩٧) سجل الرهبان مازال ناقصاً .
(٥٩٨) ماروثا السريانى تستهويه قداسة يؤنس كامى .
(٥٩٩) السبب فى اطلاق كلمة «سريانى» على دير الأنبا يؤنس كامى .
(٦٠٠) الاعتداءات التى وقعت على الأديرة .
(٦٠١) لوحة تذكارية فى دير الأنبا يؤنس كامى .
(٦٠٢) رهبان « السريانى » يعمرون ديرى الأنبا أنطونى والأنبا بولا .

٥٩٥- وبينما كانت القوى المتباينة تتصارع ، والناس يتلمسون طريقهم إلى الهدوء والاستقرار ، كان أصفياء الله يعيشون فى عزلة الصحراء وسكونها فى رضى تام . فقد عمّروا برية شيهيت من جديد ، وأقاموا أديرتها التى كان قد أصابها التخريب ، وارتفعت من جديد أصوات تسابيحهم ورنّت فى فضاء هذه البرية التى تقدست بأنفاس لبّاس الصليب منذ قرون ، وكانت صلواتهم حارة تتصف بالجهاد . لأنهم - رغم عزلتهم - أحسوا فى أعماق قلوبهم بأوجاع العالم وأحزانه الكثيرة . فكافحوا بصلواتهم لكى يخفف الله من هذه الآلام وهذه الأوجاع فارتفعت هذه الصلوات من أعماق قلوبهم المرهفة التى تدق دقاتها بانسجام مع قلوب الانسانية المعذبة .

٥٩٦- وكان بين الآباء الذين امتازوا بالطهر والقداسة يؤنس كامى الذى اجتذب بقداسته عدداً عديداً من الشباب فى مصر وخارجها . وقد تسابق هؤلاء الشباب إلى هذه المنطقة المقدسة طلباً للتأمل والعبادة ، بينما سعى إليها بعضهم طلباً للعلوم (١) ولفن الكتابة ، أما الفريق الثالث فقد دخل الأديرة ليصقل

(١) يرى بعض المؤرخين - ومن بينهم دكتور جورجى صبحى والمستشرق الفرنسى أميلينو - =

نفسه ويسمو بها لعله بهذا الصقل يكون أصلح للخدمة . وهكذا كثر عدد الذين تتلمذوا ليؤنس كامى ، ثم تتابع هؤلاء الساعون نحو الكمال فعاشوا مع تلاميذه وحملوا الشعلة بدورهم إذ كان قد انتقل هو إلى عالم النور . وتتضح هذه الحقيقة من المخطوط الذى وردت فيه سيرة يؤنس كامى . وقد كتب هذه السيرة راهب ممن لم يعاصروه وإنما عاشوا على ضوء قدوته . فقد جاء فى آخر هذه السيرة ما يلى : « أرجو من القارئ أن يذكر الكاتب الحقير الخاطئ ياكوبوس ابن شنودة بن يؤنس كامى (١) . فالكاتب اذن تلميذ شنودة الذى كان تلميذاً ليؤنس – لأن الراهب الشيخ يعتبر الرهبان الشباب أبناءه بالروح كما عد بولس تيموثيلوس ابنه (٢) ، وكما هى العادة فى مختلف البلاد الشرقية بين الشيوخ والأحداث .

٥٩٧– ومع أنه من الواضح أن عدد الذين اعتنقوا الحياة النسكية فى هذا العصر كان كبيراً إلا أن الاسماء التى وصلتنا قليلة للغاية . فقد جاء فى احدى المخطوطات أن أول من قصد إلى يؤنس كامى ليعيش تحت ارشاده كانوا خمسة هم : الآب شنودة مدير الجماعة والآب مرقس والآب كولوتوس والشماس جاورجيوس والآب أنطونى ، وقد قيل عنهم أنهم استحقوا نعمة الروح القدس (٣) . على أنه لا شك فى أن هؤلاء النساك لم يكونوا غير جزء ضئيل من مجموعة الرهبان ، إذ أن القبط لم ينفردوا وحدهم بالمبادرة إليه ليشاركوه الحياة الرهبانية بل جاءه شباب من شعوب أخرى وبخاصة الشعوب القريبة من مصر .

٥٩٨– وبين الذين استهوتهم قداسة الأنبا يؤنس كامى راهب سريانى اسمه

– أن الأديرة حملت رسالة العلم بعد مدرسة الاسكندرية ، بينما رأى بعض الآباء الشرقيين أن الأديرة لم تحمل غير مشعل العلوم الروحية دون المدنية .

(١) سيرة يؤنس كامى وتاريخ دير السريان – طبعة رهبان الدير عن مخطوطتين قبطيتين ومخطوطتين عربيتين سنة ١٩٥١ ص٥ .

(٢) ١ تيموثيلوس ١ : ١ و ١٨ ، ٢ تيمو ١ : ١ .

(٣) سيرة يؤنس كامى ... ص٢٢ ، ٢٣ .

ماروثا . ففى ذات ليلة رأى ماروثا حلمًا عجيبًا أحس فيه بأنه اختطف إلى السماء ووقف بين جميع القديسين والملائكة المحيطين بعرش النعمة وهم يسبحون الله بغير فتور . وبينما هو يتأمل هذه الجموع النورانية المجيدة استلفت نظره رجلان بينهم . فتفرس فيهما وقد امتلأ عجباً لمرآهما . ثم همس فى أذن ملاك قريب منه : « من هذان اللذان يشع منهما النور ؟ » . أجابه الملاك : « إن الطويل منهما هو الأنبا مكارى الكبير أبو رهبان برية شيهيت ، أما الذى وقف إلى جانبه فهو يؤنس كامى الذى نهج منهجه وسعى سعيه » . وغمرت النشوة قلب ماروثا لهذا الحلم إلى حد أنها لازمته إلى ما بعد يقظته . وكان من أثر هذه النشوة أن أمسك ماروثا بريشته ورسم صورة هذين القديسين كما رآهما فى حلمه . وداوم على عمله ليل نهار فأتمه فى أيام قليلة لكى تأتى الصورة مطابقة للرؤيا السماوية . وما أن فرغ من رسم هذه الصورة حتى غادر بلاده وجاء إلى مصر ، ثم قصد لفوره إلى برية شيهيت . وكان أول دير زاره فى هذه البقعة المقدسة دير الأنبا مكارى الكبير . وحالما دخل ماروثا هذا الدير امتلأ قلبه فرحًا ، ودخل لساعته إلى المقصورة التى تحوى أجسام الثلاثة مقارات[1] حيث سجد لله شكراً لأنه منحه الفرصة لزيارة أماكن هؤلاء القديسين . وبعد أن نال بركة هذه الزيارة ، قصد إلى دير الأنبا يؤنس القصير ومنه إلى دير الأنبا يؤنس كامى . وقد وصل ماروثا حينما كان الآب شنودة هو مدبر رهبان هذا الدير . فقص الحلم الذى رآه على الرهبان . ثم أراهم الأيقونة التى رسمها . ففاضت قلوب الرهبان فرحًا وشكراً لله تعالى على استعلاناته لمحبيه . وقضى ماروثا بضعة أيام بين رهبان دير يؤنس كامى ، فاستهوته حياتهم بما فيها من محبة واتضاع . ومن ثم أعلن لهم رغبته فى أن يقضى بقية حياته معهم . فرحبوا به كل الترحيب . وهكذا عاش ماروثا فى دير الأنبا يؤنس كامى ولما دنت ساعته ، أهدى للدير صورة القديسين الأنبا مكارى الكبير والأنبا يؤنس كامى التى كان رسمها نتيجة للحلم الذى رآه ، كما قدم

---

(١) وهم مكارى الكبير أبو برية شيهيت ، مكارى القس الاسكندرى ، مكارى أسقف أدكو .

ثوبه المصنوع من السُمار (١) لحفظه فى الدير تذكاراً له ، ثم انتقل فى هدوء وسلام (٢) .

٥٩٩- ولقد نهج عدد من السريان منهج ماروثا فجاءوا إلى مصر وعاشوا فى دير يؤنس كامى ، فاعتاد المصريون أن يطلقوا اسم « السريانى » على هذا الدير نسبة إلى هؤلا الرهبان ، ولا تزال هذه التسمية شائعة حتى اليوم مما حدا بعض المؤرخين إلى القول بأن السريان هم الذين بنوه ، بينما قال غيرهم بأنهم اشتروه من القبط فى وقت كان المال يعوزهم لدفع الضريبة المفروضة عليهم (٣) .

٦٠٠- ويروى التقليد أن الدير الأصلى ليؤنس كامى قد اندثر هو وعدد كبير من الأديرة . ومما لا شك فيه أن يد الخراب قد امتدت إلى هذه البرية لأن الأطلال التى لا تزال موجودة فى شيهيت شاهد على ذلك . ولقد كان هناك خمسون ديراً آهلاً بالرهبان فى وقت ما (٤). ثم أخذ عددهم يتناقص ويتزايد من جيل إلى جيل (٥) أما الخرائب المتخلفة عن دير القديس يؤنس كامى فتدل على أنه كان للدير حصن عال وأسوار منيعة بناها هذا القديس لحماية الرهبان الذين تجمعوا حوله ليعيشوا تحت رعايته . وقد وردت اشارات إلى هذا الدير حتى سنة ١٤٢٠م حين أغار البربر فى غزوة من غزواتهم المتكررة على منطقة شيهيت . فخرج الرهبان من ديرهم الخرب ولجأوا إلى دير السريان حاملين مخلفات أبيهم الروحى . فعاشوا فيه مذاك حتى وقتنا الحاضر . ورهبان هذا الدير الآن من القبط جميعاً ، فلم يعد بينهم سريانى

---

(١) اسم الأعشاب البرية التى تنمو عادة بالقرب من مجارى المياه .

(٢) سيرة يؤنس كامى وتاريخ دير السريان طبعه رهبان الدير عن مخطوطتين قبطيتين ومخطوطتين عربيتين سنة ١٩٥١ ص٢٦ - ٢٧ .

(٣) « أديرة وادى النطرون » (بالانجليزية) لايفلين وايت - طبع فى نيويورك سنة ١٩٣٣ جـ٣ ص١٧٠ .

(٤) وادى النطرون - رهبانه وأديرته وبه ملحق مختصر لتاريخ البطاركة للأمير عمر طوسون- طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٥ ص٢٤ ، ٨١ - ٩٦ .

(٥) أديرة وادى النطرون (بالانجليزية) ... جـ٣ ص٢١٨ - ٢١٩ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ .

أوغيره من أبناء الشعوب الأخرى . فمن المرجح أن يكون دير « السرياني » هو دير الأنبا يؤنس كامى استناداً إلى خلاصة ما جاء عنه فى مختلف التواريخ(١) .

٦٠١- ويحوى دير « السرياني » - إلى جانب الآثار الخاصة بالقديس يؤنس كامى - لوحة من الرخام حفرت عليها عبارات باللغة القبطية ، وتقع اللوحة بين عامودين على هيئة أوراق الشجر يعلوهما قوس مزخرف . أما العبارات المنحوتة على اللوحة فهذا نصها : « باسم الثالوث المقدس المتساوى الجوهر : الآب والابن والروح القدس . كانت نياحة أبينا القديس الأنبا يؤنس كامى فى الرابع والعشرين من كيهك (٢٠ ديسمبر) فى الساعة الأولى من الليل قبل الخامس والعشرين ، فى أيام الأنبا قزما رئيس أساقفة الاسكندرية حين كان أبونا الأنبا ابرآم قمصاً على كنيسة الأنبا يؤنس (٢) . وبعد انقضاء عشرة شهور على نياحة أبينا القديس يؤنس ، وحسب مشيئة الله الصالحة رقد أبونا الأنبا استفانوس فى التاسع من شهر هاتور (٥ نوفمبر) ، وكان استفانوس ابناً روحياً للأنبا يؤنس . ففى هذه السنة عينها رقد الاثنان آمنين . وقد حدث هذا فى سنة ٥٧٥ لجهاد الشهداء القديسين تحت حكم ملكنا والهنا يسوع المسيح . آمين » (٣) .

٦٠٢- ومن الشيّق أن هذا الدير ظل مأهولاً منذ تأسيسه حتى الآن - ما عدا سنوات قصيرة فى عهد الأنبا مرقس الثانى . فلم يضطر رهبانه إلى هجره لأن يد التخريب لم تمتد إليه كما امتدت إلى غيره من الأديرة .

وحدث أن أغار البربر على ديرى الأنبا أنطونى والأنبا بولا (فى الصحراء الشرقية) فخربوهما وقتلوا جميع من فيهما من الرهبان . ثم أراد

---

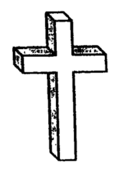
(١) سيرة يؤنس كامى وتاريخ دير السريان طبعه رهبان هذا الدير عن مخطوطتين قبطيتين ومخطوطتين عربيتين سنة ١٩٥١ ص٤٠ .

(٢) أى مدير الرهبان (أو أبوهم) .

(٣) أديرة وادى النطرون (بالانجليزية) لايفلين وايت جـ٣ ص١٩٤ ، سيرة يؤنس كامى ... ص٤٥ - ٤٦ .

الأنبا غبريال السابع (البابا الاسكندرى الـ٩٥) أن يعمرّ هذين الديرين فاختار ثلاثين راهباً من دير « السريانى » عيّن عشرين منهم للاقامة فى دير الأنبا أنطونى وعشرة فى دير الأنبا بولا . وعند ذاك ارتاع البابا الاسكندرى إذ وجد أن القبائل التى دمرت الديرين وفتكت بساكنيهما قد استدفأت باستعمال المخطوطات كوقود للنار . ورأى بازاء هذه الكارثة أن الرهبان الذين انتخبهم لتعمير هذين الديرين لا يمكنهم الاستمتاع بحياة الرهبنة من غير كتب ، فأذن لهم بأن يأخذوا معهم بعض الكتب من مكتبة ديرهم الأصلى . ولا تزال هذه الكتب محفوظة للآن فى هذين الديرين ، وهى تحمل خاتم دير «السريانى» (١) . وهكذا جدد تلاميذ الأنبا يؤنس كامى الحياة الرهبانية فى الصحراء الشرقية ، وأشعلوا فيها من جديد نور القداسة التى كان قد أوقده فى بادئ الأمر كوكب البرية الأنبا أنطونى أبو جميع الرهبان – هذا الذى بقدوته ألهب قلوب الساعين نحو الكمال المسيحى فى مختلف البلاد وعلى مر الأجيال. فسدد الأبناء ما عليهم من دين نحو أبيهم الروحى بأن أعادوا إلى ديره تلك الحياة المثلى المكرسة لله التى اختطها لهم ، ولسان حالهم يقول :

نبنى كما كانت أوائلنا ‏ ‏ ‏ نبنى ونفعل مثل ما فعلوا



---

(١) سيرة يؤنس كامى ... ص٥٣ .

جـ- على شاطئ بحر صاخب

٦٠٣- ولما ساد الهدوء الديار المصرية استطاع الخلقيدونيون أن يقيموا لهم أسقفًا خلعوا عليه لقب ، بطريرك الاسكندرية ، بعد أن ظلوا قرنين من

الزمان عاجزين عن اقامة بطريرك يدين بمذهبهم الخلقيدونى – فاستراحت الكنيسة القبطية خلال هذين القرنين من شغبهم . فلما نجحوا فى اقامة بطريرك لهم فى هذه الفترة زعموا أنهم نالوا مغنمًا ، وأنهم استطاعوا التفوق على القبط أصحاب البلاد المصرية وبدأوا من جديد يشاغبون .

وكان جسد القديس مرقس الرسول موجوداً فى كنيسة اغتصبها الغدر الرومانى وسلمها غنيمة باردة للخلقيدونيين الدخلاء . وكانت الكنيسة خارج الباب الشرقى لمدينة الاسكندرية . وحدث فى ذلك العصر أن البندقيين كانوا يتاجرون مع الاسكندرية . على أنهم لم يكتفوا بالكسب الحلال ، بل راودتهم نفوسهم على الكسب الحرام . فانتهزوا فرصة الشغب الذى يحدثه الخلقيدونيون، كما انتهزوا فرصة وجود جسد القديس مرقس فى كنيسة لم تعد فى حوزة القبط بحكم الاستعمار الأجنبى ، فسرقوا جسد كاروز الديار المصرية ووضعوه فى قاع سفينة سارعوا بها إلى مدينتهم حاملين هذا الكنز الثمين معهم . وقد أيد هذه الحادثة الراهب برنار الفرنسى البنديكتى كما ذكرها أبو صالح الأرمنى (١) . وفرح البندقيون بهذا الغنم الذى أخذوه خلسة ومن غير حق ، ووضعوا الجسد الطاهر فى كتدرائيتهم المشهورة . أما رأس القديس فظلت فى مصر التى أخلص لها ورواها بدمه الذكى لأنها كانت محفوظة فى كنيسته بالاسكندرية منذ استشهاده .

٦٠٤– ولقد أمعن الخلقيدونيون فى ابداء الاستخفاف بالقبط الذين لم يكونوا قد انتخبوا راعيهم الأول بدلاً من الأنبا ميخائيل الثالث البابا الراحل . فرأى الأنبا باخوم أسقف طحا (٢) أن ينوب عن القبط ويحدث الأمير خمارويه عن رغبتهم فى انتخاب خليفة لمارمرقس . ذلك لأن الأنبا باخوم كان يحظى بثقة لا حد لها من الأمير . فأخذ معه بعض الهدايا النفيسة وذهب إلى

---

(١) راجع كتاب برنار عن رحلته إلى الأراضى المقدسة سنة ٨٦٠ ، السنكسار القبطى فى ٩ هاتور .

(٢) فى منطقة المنيا ، ومن المؤلم أننا لا نعرف عن هذا الأسقف غير هذه السطور القليلة كما أن هذه الأسقفية لم يعد لها وجود .

خمارويه . وحين دخل القصر الملكى قابله صاحبه بالترحاب ، وبعد أن تبادل الرجلان التحية استفهم الأمير عن السبب الذى حدا بالأنبا باخوم إلى ترك عاصمته فى مثل هذا الوقت . وسأله بصفة خاصة عن حدود مصر الغربية . ذلك لأن خمارويه كان قد ائتمنه على الدفاع عنها ، فقام الأسقف بتأدية الأمانة على خير ما يكون الأداء وذلك بأن عين ثلاثمائة جندى يحسنون الرماية بالنشاب لهذه الحراسة . كذلك أعد لهم المعديات فى مختلف النقط لينتقلوا بها من ضفة إلى أخرى . وعين لهم أوقات الحراسة بالتناوب حتى لا يغافلهم العدو فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار . ولما كان الأنبا باخوم مسئولاً رسمياً عن حماية الحدود المصرية الغربية سأله خمارويه عنها توهماً منه أن يكون الأعداء قد أغاروا عليها . فطمأنه الأسقف ، وأبلغه أنه إنما جاء للسؤال عنه والاستفسار عن صحته وصحة أسرته . وبعد أن قضى عدة أيام فى ضيافته ، استأذن فى العودة إلى ايبارشيته دون أن يطلعه على السبب الذى جاء من أجله .

٦٠٥– وبعد خمسة أيام عاد الأنبا باخوم إلى زيارة خمارويه . وما أن رآه للمرة الثانية حتى داخله الخوف إذ لم يدر فى خلده أن هناك سبباً فى عودة الأسقف إليه بعد هذه الفترة الوجيزة غير هجوم مفاجئ على الحدود الغربية . ولكن الأنبا باخوم هدأ من روعه وأكد له أن السلام مستتب بحمد الله ثم قال له : « لقد علمت أن الخلقيدونيين الذين هم أعداء كنيستنا بقدر ما هم أعداء دولتنا قد تمكنوا من اقامة أسقف لهم خلعوا عليه لقب بطريرك الاسكندرية . وقد خفت أن يكون بطريركهم هذا جاسوساً فى خدمة امبراطور بيزنطية يستعين بنفوذه على تمهيد الطريق لغزو بيزنطى جديد عن طريق الاسكندرية . فوجدت لزاماً على أن آتى إليك وأتفاهم معك فى هذا الأمر الخطير » . وأبدى خمارويه اغتباطه بهمة الأنبا باخوم وسهره على مصلحة مصر . ثم خوله الحق فى الذهاب إلى الاسكندرية واتخاذ ما يراه من خطة تعود على البلاد بالخير وفيها صلاح الشعب القبطى . فأخذ الأسقف رسالة من الأمير إلى والى الاسكندرية ، وسافر لساعته . وهناك نجح فى خلع الأسقف الخلقيدونى وستة من أساقفته . وما أن اطمأن إلى أن صفو السلام لن يعكره

هؤلاء الخلقيدونيون المخلوعون حتى اتفق مع عدد من الأساقفة الأرثوذكسيين على التوجه إلى برية شيهيت بحثاً عن الراهب الذى يصلح للجلوس على السدة المرقسية الجليلة .

٦٠٦- وبينما كان الأساقفة يتداولون فى أمر انتخاب البابا المرقسى ، دهمت البلاد كارثة لم تكن فى الحسبان هى اغتيال الأمير خمارويه فى أثناء زيارته لدمشق سنة ٨٩٦م . فلم يفلح أسده الأمين ، ولا حراسه الأقوياء من التغلب على مؤامرات الحريم . ذلك لأن خمارويه - رغم همته العالية وعدالته فى معاملة الشعب - كان ولوعاً بالنساء فجمع العدد العديد منهن فى قصوره الباذخة . وقد نخر الحسد قلوب بعض هاته النسوة فتآمرن على ولى نعمتهن ونجحن فى قتله . وكان مصرع خمارويه بدء سلسلة من الاغتيالات والمؤامرات والشغب [١] . وقد عم البلاد الحزن لمقتل هذا الأمير الذى عرف كيف يعامل الجميع بالانصاف .

٦٠٧- على أنه رغم ما ملأ النفوس من حزن وما ساورها من قلق ، فقد استمر الأساقفة والأراخنة فى مشاوراتهم لانتخاب من يجلس على السدة المرقسية . واتفقت كلمتهم على اختيار راهب اسمه غبريال من رهبان دير القديس مكارى الكبير . وكان أبو الرهبان فى ذلك الدير وقتذاك شيخاً وقوراً اسمه مكسيموس حرص على تعليم الرهبان وارشادهم حرصاً شديداً . كذلك كان بين الرهبان ناسك شيخ اسمه دوروثيئوس منحه الله أن يعرف ما فى الغيب . وتجمع الرهبان ذات مساء حول دوروثيئوس لينالوا بركته ، ثم جلسوا حوله يستمتعون بحديثه الهادئ العذب ما عدا الراهب غبريال الذى كان ولوعاً بالوحدة . وحين هم غبريال بالخروج من الكنيسة ومر على اخوته ، أمسك دوروثيئوس بيده وقد أضاء وجهه بابتسامة سماوية ثم قال له : « أنت تجرى منى ومن اخوتك لأنك تحب العزلة ، ولكنى أقول لك إنك بالحقيقة ستجلس بين جماهير الرجال والنساء » ولم يدرك غبريال ساعتئذ ما يرمى إليه الراهب

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول ص٧٥ ، مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى المبحث الثانى لجاستون فييت ص١٦٠ .

الشيخ دورثيلوس إلا حين أمسك به الأساقفة والأراخنة وساروا به قسراً إلى الاسكندرية حيث رسموه الخليفة السابع والخمسين للقديس مرقس سنة ٦١٦ش (سنة ٩٠٠م) .

٦٠٨– ولما كان الخلقيدونيون قد أوجدوا شيئاً من بلبلة الأفكار بما نشروه على الاسكندريين من تعاليمهم الابتداعية ، فقد رحب الأرثوذكسيون بمقدم البابا الاسكندرى ترحيباً مزدوجاً إذ أدركوا أنه سيوضح الحقيقة للجميع . فما أن انتهوا من تهنئته بالثقة التى نالها حتى رجوا منه أن يبين لهم ايمانه ، فأوضحه لهم ثم ختم حديثه بقوله : « إننا نؤمن بالدستور الذى سنّه مجمع نيقية (المسكونى الأول) وأكمله مجمع القسطنطينية (المسكونى الثانى) وأيده مجمع أفسس (المسكونى الثالث) ، فلا نزيد عليه ولا ننقص منه ، ولا نحيد عنه أبداً . وهذه العقيدة الأرثوذكسية هى التى تمسك بها الأنبا ديسقورس الخليفة المباشر للأنبا كيرلس عامود الدين ورضى فى سبيلها بالنفى والتشريد.

٦٠٩– ومن المعروف أن الأنبا غبريال – رغم اعتلائه السدة المرقسية – قد قضى معظم أيامه فى برية شيهيت ، لا يغادرها إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك وكان – إذا ما اضطر إلى البقاء فى الاسكندرية – يشعر بأنه غريب بين قوم غرباء ! وأغلب الظن أن هذا الشعور بأنه غريب مرجعه إلى ما ساد البلاد المصرية من اضطراب وفوضى . وترجع هذه الحالة من ضعف الادارة واختلال الأمن إلى عاملين : أولهما أن الابن الأكبر لخمارويه كان لا يزال صبيًا فى الرابعة عشرة من عمره عند مقتل أبيه ، فلم يكن يدرك عظم المسئولية التى آلت إليه ، وبخاصة لأنه نشأ مدللاً مترفهاً . وثانيهما أن حكومة بغداد كانت قد تملكتها شهوة القضاء على الأسرة الطولونية لما كان لها من نفوذ واسع وما أحرزته من غنى وجاه . فتمكن رجالها بنفوذهم وثروتهم من جعل مصر دولة مستقلة لا تعطى الخليفة من علامات الخضوع غير الصلاة له فى الجوامع .

ولم ينصب غضب حكومة بغداد على الأسرة الطولونية وحدها بل امتد إلى المصريين إذ قد تضاعفت الضرائب . وقد ذكر المقريزى أنه جاء إلى

مصر الوزير على بن عيسى ، وبعد فحص حالة البلاد قرر على الأساقفة والرهبان والعجزة من المسيحيين دفع ضرائب فرضها عليهم . فذهب وفد منهم إلى بغداد وقدموا التماساً إلى الخليفة باعفائهم ، فقبل التماسهم وبعث برسالة إلى وزيره فى مصر ينبئه بذلك (١) .

٦١٠– وفى وسط هذا الاضطراب ظهر رجل اسمه خلنجى موال للطولونيين وأعلن نفسه حاكماً لمصر . وكان يقيم إذ ذاك فى فلسطين ، فجمع عدداً كبيراً من أنصاره ، وبعد أن استولوا على الأملاك المصرية فى فلسطين زحفوا على مصر وحاربوا قوات الخليفة العباسى وتغلبوا عليها واحتلوا الفسطاط سنة ٩٠٥م . فرحب بهم المصريون كل الترحيب لأنهم كانوا يكنون لأحمد بن طولون وخمارويه كل حب لما استمتعوا به فى عصرهما من هناءة ورخاء . ولم يكتف خلنجى بالاستيلاء على الفسطاط والاقامة فى دار الولاية ، بل زحف على الاسكندرية وانتصر على واليها أيضاً . وقد أثار زحف خلنجى غضب الخليفة ولم يجد بداً من ارسال جيش لمحاربته . وبعد مواقع دامية ظفر جيش الخليفة بخلنجى واقتاده إلى بغداد حيث أركبوه جملاً وطافوا به فى شوارع تلك المدينة ليجعلوه عبرة لغيره ، ثم أمر الخليفة بقطع رأسه فى مايو سنة ٩٠٦م . وإن فى زحف هذا المغامر ، وفى انتصاره ، وفى مقدرته على تحدى جيوش الخليفة مدى ثمانية أشهر ، فى هذا كله لأبلغ دليل على ضعف الحكومة إذ ذاك (٢) .

٦١١– وكأن كل هذه البلايا لم تكن كافية لبث الخوف فى النفوس فبدا شبح الأفق هو شبح الفاطميين الذين كانوا قد وجهوا نظرهم إلى مصر وهدفهم الاستيلاء عليها . وكانوا قد أغاروا على تونس وانتصروا عليها سنة ٩٠٩م فاضطر واليها إلى الفرار إلى مصر . فتلقته بالترحاب وأكرمت مثواه رغم ما تعانيه من بلايا وخطوب – لأن مصر كانت على مدى الأجيال أماً حنوناً

(١) أديرة وادى النطرون – من مطبوعات جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية – للدكتور منير شكرى ص٢٣٩ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول ص٧٨ – ٧٩ .

لجميع المتضايقين . اللاجئين إليها . فليس بعجيب إن أحس الأنبا غبريال بأنه غريب وسط هذا المجتمع الملئ بالأهوال ، ولم يجد لنفسه من عزاء غير الالتجاء إلى شيهيت كلما أمكنه ذلك ليرفع ابتهالاته إلى الله تعالى ضارعاً إليه أن يترفق بمصر وبنيها ويدرأ عنهم كل بلاء ولو أن تصرفه هذا لا يتفق والمسئولية الموضوعة عليه .

٦١٢– على أن الصراع الخارجى كان يهون لو لم يكن الأنبا غبريال فريسة لصراع داخلى عنيف . فقد داخله الزهو لفوزه بالسدة المرقسية ، فأيقظ هذا الزهو غريزته الجنسية وأدى به إلى معارك نفسية كدرت عليه صفو الحياة فزادته ألماً وحزناً . فقصد إلى أحد الرهبان الشيوخ الذين عاش معهم فى دير الأنبا مكارى الكبير واعترف له بخبيئة نفسه وما يساوره من قلق وفزع . فقال له هذا الشيخ المحنك : « إن التواضع والعمل الجسمانى هما خير دواء لسقمك » . وعندها اشترى الأنبا غبريال مجرفة ، فإذا ما انتهى من صلاة نصف الليل ، وأوى الرهبان إلى صوامعهم ، خرج هذا الأب المتوجع ونظف جميع مراحيض الدير . واستمر على هذا العمل إلى أن نظر الله تعالى إلى تعبه فى تواضعه وأراحه من صراعه النفسى ، وأسبغ عليه الهدوء والطمأنينة .

٦١٣– وهكذا كانت باباوية الأنبا غبريال مليئة بالمخاوف والأهوال من الداخل ومن الخارج – فلم ينعم بالهدوء غير مدة قصيرة ، نقله الله بعدها من عالم مشوب بالفوضى والألم إلى العالم الذى يغمره النور والسلام . وكان انتقاله فى الحادى عشر من أمشير سنة ٦٢٧ش (٢٥ يناير سنة ٩١١م) ، بعد أن جلس على السدة المرقسية احدى عشرة سنة (١) .

٦١٤– لم تكد شعائر التجنيز الخاصة بباوات الاسكندرية تنتهى حتى أخذ الأساقفة والأراخنة يتشاورون معاً من جديد فى أمر من يجلس على كرسى مار مرقس مكان الأنبا غبريال باباهم الراحل . ولقد شاءت المراحم الالهية أن تتفق كلمتهم وتتحد قلوبهم ، فأجمعوا على الراهب قزما لأنه كان باراً تقياً . كثير

---

(١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ترجمه إلى الانجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأوسولد برمستر – المجلد الثانى جـ٢ طبعته جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٤٨ ص٩١ – ٩٣ .

الرحمة والرأفة . متضلعًا فى الأسفار الالهية والتعاليم الكنسية (١) . وحالما اتفقت كلمتهم حملوه إلى الاسكندرية حيث كرّسه الأساقفة فى الكنيسة المرقسية فأصبح بذلك البابا الاسكندرى الثامن والخمسين سنة ٦٢٧ش (٩١١م) .

٦١٥– وقد استهل الأنبا قزما الثالث باباويته برسامة الراهب بطرس أسقفاً على الحبشة ، وبعد أن زوده بالنصائح وأوصاه بالتفانى فى رعاية شعبه ، أرسله إلى تلك البلاد التى باعدت المسافات الجغرافية بينها وبين مصر وقربت بينهما الصلات الروحية . فاستقبله الملك والشعب استقبالاً رائعًا مقترنًا بالضراعة إلى الله تعالى أن يؤازره بنعمته .

وحدث بعد وصول الأنبا بطرس إلى الحبشة بأسابيع قليلة ، أن أصيب الملك بمرض عضال أدرك معه أن نهايته اقتربت . فنادى المطران إلى جانبه واعترف له بما يحس به . ثم رجا منه أن يتولى تربية ولديه إلى أن يبلغا سن الرشد . ثم أضاف إلى هذا الرجاء قوله : « إن الملكية مسئولية عظمى ، وأنت سفير السيد المسيح لدينا . فإذا ما بلغ ابناى هذان سن الرشد ، فوازن بينهما ، وضع التاج على رأس أجدرهما به دون أن تلتفت إلى كونه الأكبر أو الأصغر » . وبعد أن وضع ملك الحبشة هذه المسئولية على عاتق الأنبا بطرس بأيام قليلة ، انتقل إلى رحمة مولاه . وكان المطران مما يقدرون مسئولياتهم حق قدرها ويؤدون الأمانة على خير وجه . فأشرف على تربية الأميرين بنفسه . وما أن بلغ أصغرهما سن الرشد حتى أخذ الأنبا بطرس يوازن بين شخصية الأميرين عملاً بوصية أبيهما . وانتهى إلى أن أصغرهما أجدرهما بالملك . فبادر إلى مسحه ملكاً .

ومما تجدر الاشارة إليه هنا أن أبرز اختصاصات المطران القبطى ظهوراً فى أثيوبيا هى تتويج الامبراطور فى احتفال دينى خاص ومسحه بالزيت المقدس لكى يكسب الامبراطور صفة القداسة ويكون سلطانه هبة الهية . وهذه الصفة – صفة استلام السلطة من الله تعالى – هى التى تميز الامبراطور عن

---

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٣ ص٦٦٦ .

غيره من أمراء المقاطعات الذين كانوا يتوارثون الامارة عن آبائهم فهم والحالة هذه لا يستمدون سلطتهم من الله . وقد أيد الدستور الأثيوبي حق المطران في تتويج الامبراطور بالنص عليه في المادة السابعة من دستور سنة ١٩٥٥ . وإلى جانب حق التتويج فالمطران له حق العزل أيضاً إن وجد الامبراطور قد حاد عن القوانين الكنسية أو أضر بمصالح الدولة . ومتى عزل المطران امبراطوراً حق للشعب أن يخرج عن طاعة هذا الامبراطور (١) .

٦١٦- ولنعد إلى تتبع مجرى الحوادث - بعد هذه الملحوظة - فنقول إن الفاطميين كانوا يتربصون بمصر منتظرين الفرصة المواتية . فراقبوا مجرى الأمور فيها باهتمام بالغ . ولما وجدوا أن الحكومة المحلية ضعفت بسبب تعاقب الحروب والثورات ، ووجدوا أن الخليفة العباسي لم تعد له نفس الهيبة في القلوب كما كانت لأسلافه نتيجة لهذه الحروب عينها ، ولبعد عاصمته (بغداد) عن مصر ، أدركوا أنه قد آن الأوان لهم لأن يدخلوا البلاد المصرية . وبالفعل تمكن القائد الفاطمي من الاستيلاء على الاسكندرية سنة ٩١٤م دون أن يلقى منها أية مقاومة . بل أن الاسكندريين سارعوا إلى الهرب ولجأوا إلى الفيوم حالما رأوا الجيش الفاطمي الظافر مقتحماً مدينتهم . وقد تعقبهم الجيش وفتك بهم . وعندها فقط أدرك الخليفة العباسي مدى الخطر الذي يتهدد مصر إن هو لم يسارع إلى امدادها بجيش من قبله ينضم إلى جيشها . فبادر بارسال المدد اللازم ونجح في اجلاء الجيش الفاطمي عن مصر .

٦١٧- وحين تلفت الأنبا قزما الثالث حوله لم يجد غير التقتيل والتدمير امتلأ قلبه ألما وحسرة فكرس وقته وجهده للصلاة والصوم مبتهلاً إلى الله تعالى أن يترأف بالمصريين ويرفع عنهم ما يقاسون من بلاء فتحنن الله بأن قبل صلوات هذا البابا وأعاد السلام والطمأنينة إلى القلوب الفزعة المضطربة .

على أن عدو الخير لم يعجبه استتباب السلام ، فاستثار اثنين من أبناء القبط ليجعل منهما حرباً على أبيهما الروحي ، وكان اسم أحدهما مينا وثانيهما

---

(١) كنيسة الاسكندرية في أفريقيا للدكتور زاهر رياض ص٩١ - ٩٣ .

بقطر . فتخفيا في زى الرهبان ثم أخذا يطوفان البلاد المصرية ليستجديا . وقد ادعيا للشعب أنهما إنما يجمعان المال لانفاقه على الكنائس والأديرة . فتمكنا بذلك من جمع مبالغ طائلة . ثم قصدا إلى الحبشة وذهبا ليستجديا الأنبا بطرس

ولما كان الله تعالى قد منحه قوة الكشف عن السرائر فقد عرف خبث مينا وبقطر ، وطردهما شر طردة ، فأضمر له كلاهما السوء وصمما على الايقاع به

فزين لهما الوسواس الخناس أن يزيفا خطاباً باسم الأنبا قزما الثالث موجهاً إلى الأمير الحبشي الأكبر قالا فيه : « لقد بلغنا أن أحد آبائنا العاقين – اسمه بطرس – ادعى أمامكم أننا أقمناه مطراناً على بلادكم الحبيبة إلينا . وهذا غير صحيح لأن الخطابات التي حملها إليكم باسمنا مزيفة أما المطران الحقيقي فهو حامل هذا الخطاب . وحالما يصلكم اخلعوا بطرس عن كرسيه وأقيموا مينا مكانه . كذلك بلغنا أن هذا المطران الدعيّ قد وضع التاج على رأس أخيكم الأصغر متخطياً حقكم بوصفكم الابن الأكبر للملك الراحل . وهذا مسلك شائن إذ هو مسلك رجل يتجاهل حق البكورية . ونحن لا نرضى أبداً عن مثل هذا التصرف » .

وما أن زيف مينا وبقطر هذا الخطاب حتى حملاه إلى الأمير الأكبر الذى كان عائشاً إذ ذاك فى عزلة راضياً بما حدث . فلما قرأ الخطاب المزيف صادف هوى فى نفسه ، فنسى أن المطران المتهم هو الذى رباه منذ طفولته وهو الذى اطمأنت إليه الملكة فى كل ما أداه لها وللامبراطور (زوجها) من خدمات . نسى الأمير الأكبر هذا كله ودفعته شهوة الحكم إلى أن يجمع رجال جيشه ويقرأ عليهم الخطاب المزيف . فتوهموا أنه من خليفة مارمرقس بالفعل وثاروا ثورة عارمة على الأمير الأصغر (الذى هو ملكهم) ، وانتصروا عليه ، ونفوه هو والأنبا بطرس . ثم تولى الأمير الأكبر العرش ، وأقام مينا مطراناً تنفيذاً لما جاء فى الخطاب المزيف .

على أن أسقفية مينا لم تدم غير بضعة أيام ، فقد اختلف مع صديقه بقطر الذى استبد به الحسد فسرق كل ما أمكنه سرقته من مال الكنائس الحبشية وفر هارباً .

٦١٨- ولم تلبث أخبار هذا المسلك المعوج أن وصلت إلى الأنبا قزما الثالث فحزن حزنًا شديداً ، وبعث على الفور برسالة مع مندوب أمين إلى الأمير الأكبر أبلغه فيها أنه وقع الحرم على مينا ويقطر لأنهما نصّابان . فلما قرأ الأمير رسالة البابا الاسكندرى ثارت ثائرته ، فاستل سيفه على الفور وأغمده في قلب مينا من غير تريث . ولكنه لم يستسمح الأنبا بطرس - بل لم يرجعه إلى مقر كرسيه . فأثبت بذلك أنه أرعن متهور . لأنه حين قرأ الخطاب المزيف لم يدع لنفسه مجالاً للتفكير في أسلوبه الذى لا يتفق وأسلوب الباباوات الاسكندريين ، ولا في أن الأنبا بطرس قد رباه بنفسه بناء على توصية أبيه ، بل اندفع إلى الحرب بدافع شهوة الحكم . ولم يتعظ بتصرفه الخاطئ في المرة الأولى ، بل استمر في رعونته وتهوره ، مكتفياً بقتل النصّاب دون أن يحاول التكفير عن ذنبه في حق مطرانه الذى رباه وفى حق أخيه الأصغر . فأغضب بسوء مسلكه الأنبا قزما الثالث الذى رأى أن يعاقب الأحباش بأن رفض أن يرسم لهم مطراناً حين تنيح الأنبا بطرس . وقد نهج منهجه أربعة من خلفائه إذ رفضوا هم أيضاً أن يرسموا مطارنة على الحبشة . وهكذا ظلت الايبارشية بلا راع أعلى يدير دفتها مدة تقرب من ستين سنة ، إذ لم يقم عليها مطران إلا في عهد الأنبا فيلوثيئوس البابا الاسكندرى الثالث والستين (سنة ٩٧١ - سنة ٩٩٦م) .

٦١٩- وعاودت المصريين المخاوف لأن الجيش الفاطمى الذى اضطر إلى الانسحاب سنة ٩١٤م أخذ يزحف على الحدود المصرية من جديد ونجح فى الاستيلاء على الاسكندرية مرة ثانية سنة ٩١٩م . وامتلأت قلوب الاسكندريين فزعاً فهربوا إلى الفيوم للمرة الثانية . وللمرة الثانية تعقبهم الجيش الفاطمى . وكان فى زحفه الثانى أكثر بطشاً مما كان فى زحفه الأول . فدمر الاسكندرية وخرب الفيوم . على أن المصريين رغم ما انتابهم من بلايا متلاحقة استطاعوا أن يغرقوا الأسطول الفاطمى الراسى فى ميناء الاسكندرية . وبذلك انقطعت المؤن عن الجيش الظافر رغم انتصاره مما أدى إلى انتشار المجاعة والوباء بين جنده . فانتقمت هاتان القوتان المدمرتان للمصريين من بطش الفاطميين . وحاول الجيش الفاطمى أن يقاوم هذه القوى التى تألبت

عليه ، ولكنه لم يستطع واضطر إلى الانسحاب سنة ٩٢٠م . ومن الأسباب التى شجعت الفاطميين على المقاومة ما رأوه من تحاسد ولاة مصر وتنافسهم إلى حد دفع البعض منهم إلى مساومة قادة الجيش الفاطمى ليمهدوا لهم السبيل إلى الاستيلاء على البلاد .

٦٢٠- ولقد قاسى المصريون الأهوال حتى بعد انسحاب الجيش الفاطمى ، وذلك لأن جند الولاة المتنافسين أخذوا يعيثون فساداً ، ويشيعون الخوف والفزع فى القلوب بما يقترفون من سلب ونهب وقتل ، من غير تفريق بين مسيحى ومسلم . فلم يأمن شر هؤلاء الجند غير من كان لديه العدد الكافى من الرجال الأقوياء الأمناء ليدافعوا عنه وعن حرماته (١) .

وطغى الحزن على قلب الأنبا قزما الثالث فلم يجد أمامه غير طريقين : أولهما مداومة الصلاة والصوم ، وثانيهما زيارة شعبه وتفقد أحواله ليعزى القلوب المضطربة ويثبت النفوس الخائرة . ويبدو أن حزنه هذه المرة كان أقوى من أن يحتمل فتداعت قوته الجسمية ولم يلبث أن استودع روحه يدى الآب السماوى سنة ٩٢٣م .

٦٢١- وعمت الشعب موجة من الحزن لفقدهم الراعى المعزى . ورأى الأساقفة أن ما يعانيه هذا الشعب من مخاوف وأحزان تستلزم سرعة التفاهم على انتخاب البابا الاسكندرى ، إذ وجدوا الجميع منزعجين ومنطرحين كخراف لا راعى لها (٢) . وامتلأت القلوب غبطة لما أبداه الأساقفة من رغبة فى المبادرة إلى اقامة الراعى الصالح ، واستجابت لهذه الرغبة بفرح . فاتفقت كلمة الجميع على رسامة الراهب مكارى المقيم بدير الأنبا مكارى الكبير والذى اتخذ لنفسه هذا الاسم تيمناً به .

وقد ولد هذا الراهب فى قرية اسمها شبرا بالقرب من الاسكندرية ، إلا أنه كان قد هجر منزل أبويه لينعم بسكون الصحراء ، ويسمو عن طريق هذا السكون لعله يبلغ الكمال المسيحى . وذاع عنه أنه راهب شديد التقشف كثير

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول ص٨٠ – ٨١ .
(٢) مرقس ٦ : ٣٤ .

التأمل ، وقد قربته هذه الصفات إلى قلوب جميع من عرفوه . ومن ثم قصد مندوبو الأساقفة والأراخنة إلى دير القديس مكارى الكبير ، وأمسكوا بالراهب مكارى لئلا يفلت منهم ، وأخذوه معهم إلى الاسكندرية حيث تلقاه الجميع بالألحان الكنسية الخاصة ، وساروا به لفورهم إلى كنيسة القديس مرقس وهناك أقيم البابا التاسع والخمسين من باباوات الاسكندرية سنة ٦٣٩ش (سنة ٩٢٣م) .

٦٢٢– وكان أول عمل قام به الأنبا مكارى الأول بوصفه البابا المرقسى هو رحلة راعوية ليفتقد شعبه ويعرف أحوالهم بنفسه ، ويعزى من كان منهم حزيناً مضطرباً . وفى أثناء هذه الرحلة مر بشبرا مسقط رأسه ، وقصد إلى البيت الذى قضى فيه طفولته . وحدث أن أمه كانت فى تلك الساعة جالسة أمام الباب تغزل فحياها ، وردت هى التحية عليه دون أن ترفع نظرها نحوه . فقال لها : « سلام لك يا أمى . ألا تعرفين من أنا ؟ إننى ابنك ، وقد تركتك لأقضى حياتى فى الدير راهباً متعبداً ، ولكن النعمة الالهية قد منحتنى أن أكون خليفة لمارمرقس كاروزنا الحبيب » . وعندها رفعت أمه عينيها إليه فإذا بدموعها تنهمر كالسيل على خديها . فانزعج وسألها : « ماذا بك يا أماه ؟ » أجابته : « لا شئ بى يابنى » . فازداد انزعاجاً وسأل فى شئ من اللهفة : « فلماذا تبكين إذن ؟ » أجابته : « إن الكرامة التى نلتها كرامة عظمى حقاً ، ولكن مسئولياتها غاية فى الخطورة . فأنت كنت مسئولاً عن نفسك فحسب حين كنت راهباً بسيطاً فى الدير . أما الآن وقد جلست على كرسى مارمرقس فقد أصبحت مسئولاً عن شعب الكرازة المرقسية . لهذا لا يسعنى إلا أن أبكى – ضارعة إلى الله تعالى الذى ائتمنك على هذه الوديعة أن يغمرك بنعمته فيمكنك من القيام بمسئولياتك الجسام » . واهتز الأنبا مكارى الأول حتى الأعماق لكلمات أمه إذ تجلت أمامه حقيقتها ، ونقشها على قلبه فى الحال لأنه ظل يذكرها طيلة حياته فيجعلها حافزاً له على الجهاد دون ملل ولا كلال . فقضى حياته يعلم الشعب ويحثه على مداومة قراءة الأسفار الالهية وتعاليم الآباء . كما أنه – حين كان يجد ابيارشية شاغرة – يصوم ويصلى مستلهماً

الروح القدس فى اختيار من يصلح للجلوس على سدتها . وحينما تمتلئ نفسه ثقة واطمئناناً إلى أن الآب السماوى سيرشده ويهديه كان يضع اليد على من يختاره بفرح روحى عميق (١) .

٦٢٣- وفى تلك الآونة اشتدت المنافسة بين الأمراء ، فكان كل منهم يحشد جنوده ضد الآخر ويترك لهم العنان ليسلبوا وينهبوا ويقتلوا دون رحمة ولا ترو فتجاوبت فى الوادى الأخضر أصداء الألم ، وترددت فى جميع أنحائه صيحات الحزن والفزع . لأن جند الأمراء المتنافسين لم يكتفوا بالقتل والسرقة ، بل أضافوا إلى هاتين الجريمتين جريمة اشعال النار فى الحقول . وكأن قسوة الانسان لم تكن كافية لارهاب المصريين تماماً فانضمت إليها الطبيعة ، وأمطرت ذات ليلة عدداً كبيراً من الشهب تساقط فى سرعة وحدّة مما جعل الناس يتوهمون أن نهاية العالم قد اقتربت . ومن العجيب أن الانسان يزداد اقتراباً إلى الله تعالى حين تدهمه البلايا على حد المثل الدارج « زى البحّارة ما يعرفوش ربنا غير ساعة الغرق » . وقد دفعهم هذا الوهم إلى مضاعفة الصوم والصلاة إلى حد أن الكنائس والجوامع كانت تزخر بالناس حتى ساعة متأخرة من الليل .

٦٢٤- وقد استجاب الله تعالى الدعوات الحارة الصاعدة إليه من ألوف القلوب المتوجعة : استجاب ضراعة شعبه المصرى بأن فيض له والياً جديداً اسمه الأخشيد . فوصل هذا الوالى الرشيد إلى الفسطاط فى أوغسطس سنة ٩٣٥م (سنة ٦٥١ش) . وكانت مصر قد بلغت إذ ذاك حالة من الفوضى والارتباك تتطلب والياً ذا حزم وعزم ليعيد إليها هدوءها واستقرارها . ولقد أثبت الأخشيد أنه الرجل المرتقب ، فقد ثبت قواعد النظام وأعاد لمصر رخاءها خلال الاحدى عشرة سنة التى تولى فيها الأمور ، فأوضح بذلك أن سوء النظام والاشتباكات العنيفة إنما كانت نتيجة لتحاسد الحكام وتنافسهم ، لا لأى سبب آخر . وقد ساعد الأخشيد على بسط نفوذه ما كان يتميز به من قوة جسمية

---

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص٧٣١ .

خارقة ، فلم يكن بين ضباطه وجنوده من يستطيع أن يرفع سيفه أو يشد قوسه وكان جيشه يتألف من أربعمائة ألف جندى ، منهم ثمانية آلاف كانوا يؤلفون حرسه الخاص . ومثل هذا العدد يبدو الآن ضئيلاً إلا أنه كان فى القرن العاشر قوة لا يستهان بها . ومن ثم رأى الفاطميون أن يلازموا الهدوء فى تلك الفترة ريثما تتاح لهم فرصة أخرى ، ولكن أمراء البلاد الشرقية لم يتصفوا بهذه الحكمة فحاولوا أن يشقوا عصا الطاعة . وقد حارب الأخشيد أحد هؤلاء الولاة الذى كان قد اغتصب حمص ، ودخل دمشق من غير أن يجد مقاومة تذكر . ثم اشتبك الجيشان فى معركتين لم ينتصر فيهما أحدهما انتصاراً حاسماً . وأدرك الأخشيد أن خصمه قوى الشكيمة ، فهادنه واتفق معه على أن يتنازل عن المنطقة الواقعة شمال رملة . مقابل جزية سنوية مقدارها أربعون ألف دينار . على أن هذه الحال لم تدم غير سنتين اثنتين فقط ، استعاد الأخشيد بعدها سلطانه على كل سوريا الشمالية ودخل دمشق دون أن يرفع سيفه فى وجه انسان (١) .

٦٢٥- ووسط كل هذا المد والجزر ، وتعاقب الفوضى والسلام ، عكف الأنبا مكارى الأول على الصوم والصلاة . ودعم أصوامه وصلواته بقيامه بزيارة راعوية ثانية . ومن نعمة الله أن السلام الذى وطد الأخشيد أركانه قد ساعد البابا الاسكندرى الجليل على تتمة زيارته هذه وهو هانئ البال . ورأى فى هذه المناسبة السعيدة أن يذهب إلى برية شيهيت ، وقضى فيها بضعة أسابيع . وقد تهلل قلبه إذ وجد عدد الرهبان يتزايد رغم الأحداث والضيقات . ولم يعكر عليه صفوه غير شعوره بما يقاسيه الشيوخ الساكنون فى دير الأنبا يؤنس كامى من تعب لاضطرارهم إلى الذهاب للصلاة فى دير الأنبا يؤنس القصير إذ لم تكن فى ديرهم كنيسة . فقرر لساعته أن يبنى لهم كنيسة فى ديرهم ، وبدأ بالعمل فوراً . وبينما كان العمل جارياً عاد إلى مقر رياسته ليحتفى بصلوات عيد الغطاس المجيد . وما أن انتهى من تأدية هذه الشعائر

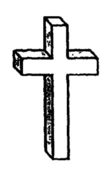
(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول ص٨١ - ٨٢ ، مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى المبحث الثانى لجاستون فييب ص١٦٨ .

الرائعة حتى عاد إلى شيهيت ثانية ليكرس كنيسة دير الأنبا يؤنس كامى لأنها كانت قد تمت ودعاها باسم السيدة العذراء .

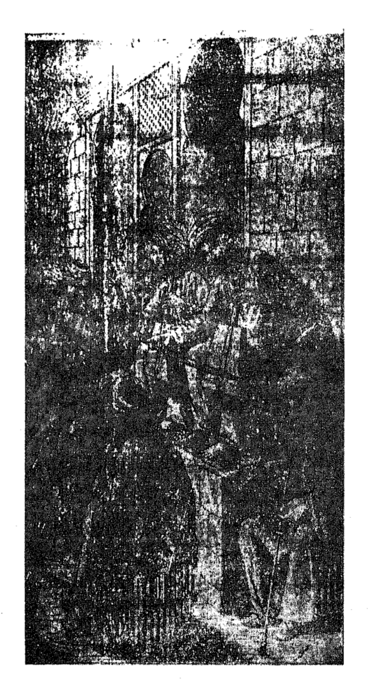
٦٢٦- ولما رأى البابا الاسكندرى السلام منتشراً فى الربوع المصرية ، انشغل فى بناء عدة كنائس . وقد تجاوب الشعب مع باباه فكان يتقاطر على الكنائس التى ضاقت جميعها بجماهير المصلين .

وهكذا بدأت باباوية الأنبا مكارى الأول بالعواصف وانتهت بالسلام والطمأنينة .

وقد قضى غبطته فى رعاية الشعب المصرى عشرين سنة جاهد خلالها الجهاد الحسن لأنه لم ينس قط كلمات أمه ودموعها التى استقبلته بها فى مستهل باباويته (١) .



(١) تاريخ البطاركة مخطوط نقله القمص شنودة البرموسى عن النسخة الموجودة فى ديره جـ١ ص٢٩٢ - ٢٩٣ .



استغل القاهريون عيد وفاء النيل للترفيه عن أنفسهم فانتشر المنشدون
والشعراء فى القهوات التى أقيمت على جانبى القناة .
وها هو « الشاعر » وفرقته يغنى ملاحمه على الربابة

فترة قاتمة

(٦٢٧) التسرع فى انتخاب الأنبا ثيئوفانيوس.
(٦٢٨) ضعف قواه الجسمية والعقلية.
(٦٢٩) شقه ثيابه وانشقاق كهنوته عنه.
(٦٣٠) الرخاء والسعادة يسودان البلاد بينما تنكب الكنيسة فى راعيها الأعلى.
(٦٣١) نياحة الأنبا ثيئوفانيوس وهو فى مركب تحمله إلى الفسطاط.

٦٢٧- وخلت السدة المرقسية بانتقال الأنبا مكارى الأول إلى مساكن النور. فسارع الأساقفة والأراخنة إلى انتخاب خليفته دون ترو. وبدلاً من أن يقصدوا إلى الأديرة للتشاور مع رؤسائها فى خير الرهبان الجديرين بالجلوس على هذه السدة الجليلة، وقع اختيارهم على راهب كهل فى الاسكندرية اسمه ثيئوفانيوس، ظناً منهم أن الشيخوخة قد أكسبته حكمة. ورسمه الأساقفة الخليفة الستين للقديس مرقس البشير على الفور.

٦٢٨- وما كاد هذا البابا يعتلى الكرسى المرقسى حتى تبين لمنتخبيه أنهم أخطأوا الاختيار، لأن الأيام الكثيرة - بدلاً من أن تكسبه حكمة ورصانة - أضعفت قواه الجسمية والعقلية. فكان لهذه المفاجئة فى نفوس المؤمنين أسوأ الأثر، وزاد القلوب حزناً أن البلاد فى تلك الآونة كانت ترتع فى سلام شامل كان من الممكن الاستفادة منه لو أن الفائز بالكرسى المرقسى كان من الحكماء الروحيين.

٦٢٩- وكان الأنبا ميخائيل الثالث (البابا الاسكندرى الـ٥٦) قد تعهد لأبنائه الاسكندريين بأن يدفع لهم ألف دينار سنوياً مقابل بعض الأوقاف الخاصة بهم كان قد باعها سداداً للضريبة المفروضة عليه (١). وقد استمر خلفاء الأنبا ميخائيل الثالث محافظين على ما تعهد به. فلما جاء الأنبا

(١) أنظر فـ٥٨٨.

ثيئوفانيوس ذكرّه الاسكندريون بالدين الذى جرى أسلافه على دفعه . ولم يكن يملك من المبلغ شيئًا ساعة أن ذكرّه الاسكندريون به . فبدلاً من أن يفرض على مطالبيه امهاله حتى يتمكن من جمعه فاجأهم بالرفض الذى لم يكونوا ليتوقعونه من أبيهم الروحى . فثارت ثائرتهم ، واندفعوا بحدة هذه الثورة متناسين ما يجب عليهم من احترام نحو باباهم وقالوا له : « إن الكرامة التى نلتها إنما ترجع إلى أننا أولينا ثقتنا واخترناك لرعايتنا . فأنت مدين لنا بهذه الكرامة . فإن لم تدفع لنا المال الذى تعهد بدفعه خلفاؤك فلا أقل من أن تعيد لنا كرامة الكهنوت التى نلتها بانتخابنا اياك » . وما كاد الأنبا ثيئوفانيوس يسمع هذه الكلمات حتى فقد ادراكه إلى حد جعله ينسى عظمة الكرامة التى نالها ، وينسى الوقار الذى يجب أن يتجمل به ، وقال فى حدة : « إن كنتم مصممين على استعادة ما أوليتمونى من كرامة فخذوها لأنى لست فى حاجة إليها » . وخلع الاسكيم المقدس والثوب الكهنوتى ورمى بهما فى وجوه المجتمعين حوله . وفى تلك اللحظة عينها زالت عنه النعمة الالهية ، وانشق كهنوته كما انشق كهنوت قيافا حين شق ثيابه وهو يقوم بتمثيل دور القاضى ليلة أن حكم على الرب يسوع (١) . وقد أدى زوال النعمة الالهية عنه إلى أن يداخله الخبل مما اضطر المسئولين فى الكنيسة إلى تقييده بالسلاسل .

٦٣٠– ومقابل هذه الصورة – صورة الكنيسة المتشحة بالحزن والألم لما أصاب راعيها الأول من خبل – كانت صورة مصر ساطعة مضيئة . فقد كان الأخشيد ممسكًا بزمام البلاد ، وكان شديد الولع بالبناء ، ولو أن ما شاده من قصور منيفة قد زال كله . كذلك كان ميالاً إلى الاحتفال بالأعياد والمواسم . بل لقد بلغ ميله إلى هذه الاحتفالات حداً جعله يشترك مع القبط فى أعيادهم، ويأذن باقامة المواكب الفخمة بمناسبتها . ومن أهم الأعياد التى كان الأخشيد يحتفى بها عيد الغطاس المجيد الذى عده المصريون جميعًا عيداً عامًا ،

(١) متى ٢٦ : ٦٥ ، ويعلق الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين فى كتابه تاريخ البطاركة بقوله فى هامش مكتوب بالمداد الأحمر : « هذا هو الذى تخلت عنه النعمة الالهية » .

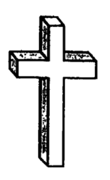
واشتركوا فيه مسيحيين ومسلمين . فقد أمر هذا الوالى الرشيد بايقاد ألف مشعل على كل من ضفتى النيل عند الفسطاط - وكانت هذه المشاعل بالاضافة إلى المشاعل الخاصة التى كان الأهالى يوقدونها فى تلك الليلة العظيمة ، إذ كانوا يخرجون بجموعهم إلى النيل فيركبون المراكب أو يزدحمون فى الأكشاك التى كانوا يقيمونها خصيصاً لهذه المناسبة . وكان الجميع يتبارون فى تلك الليلة فى الأبهة : فيلبس كل منهم أفخم ما عنده من ثياب وأندر ما لديه من مجوهرات. وكانت الألوان الزاهية تمتزج بشذى العطور الزكية ، فيحملها الريح مع الأنغام الموسيقية التى يرن صداها من ضفة إلى ضفة . وإلى جانب كل هذه المظاهر المعبرة عن توافق الأمزجة وانسجام الطبائع ، كان المعيّدون يشتركون فى الاستمتاع بالغناء والرقص على ألحان الموسيقى ، ويستمرون فى لهوهم وسمرهم حتى مطلع الفجر . فكانت ليلة الغطاس - فى ذلك العصر - أشبه بالأحلام منها بالحقيقة ، تسعد فيها النفوس ، وتتقارب القلوب . فكأن النهر الخالد قد سحر الجميع وحمل إليهم أصداء الأعياد السحيقة فى القدم ، التى طربت لها قلوب المصريين فى عصور الفراعنة ، فجاءوا من جديد يتراقصون على ضفاف هذا النهر الذى كانوا يعبدونه ويتجاوبون الأناشيد فوق مياهه ويسعدون بالاصغاء إلى هديره .

ولم يكتف المصريون فى تلك الليلة بكل هذه الوسائل للتسلية ، بل أن غالبيتهم كانت تستحم فى النيل اعتقاداً منهم بأن لمياهه قوة الشفاء واسباغ الصحة والعافية ومثل هذه الليالى تبين لنا بوضوح ما كان يسود مصر وقتذاك من طمأنينة ورخاء . لأن الشعب المعذب المضطرب ليس لديه من الوقت ولا من هدوء البال ما يمكنه من الاستمتاع بأى عيد - ناهيك عن الاسراف فى تذوق هذا الاستمتاع .

وفى هذه الفترة السعيدة لم ينصب الانتاج الفنى القبطى على مصر وحدها بل نضجت ثماره فى المدن الخمس من بينها بلدة أجيدابيا التى قيل عنها بأنها مدينة كبرى قائمة فى وسط الصحراء ، وبها جامع بديع الصنع ذو مئذنة مثمنة ، وبها أيضاً حمامات وأسواق عديدة وفنادق .

ويعيش أهلها في رخاء وغالبيتهم من القبط (١) .

٦٣١– ووسط هذا السلام الشامل اتفقت كلمة الأساقفة على أن يجتمعوا للتشاور في أمر الأنبا ثيئوفانيوس . فرأوا أن يحملوه إلى الفسطاط لعرضه هناك على بعض الأطباء الذين يثقون في علمهم وإخلاصهم . ومن ثم وضعوه في جوف مركب صوناً له ، كي لا يرى أحد من الشعب ما عراه من خبل . وبينما كانت المركب تمخر عباب النيل ، أخذ هذا البابا المريض يصرخ ويجدّف ، ويرغي ويزبد . ويبدو أن صراخه كان عنيفاً بحيث أنهك قواه ، فسكت فجأة . وكان سكوته هذا صمت الموت الذي تسلل إليه وسلبه الحياة ليحمي بجلاله جلال الكهنوت . فكانت يد الموت القاسية يداً رحيمة في هذه المرة ، دهنت بالبلسم قلوب المؤمنين المتوجعين لما أصاب راعيهم الأول . وكانت أيام هذا البابا التاعس أربع سنين وستة أشهر (٢) .



(١) كتاب البكري في وصف أفريقيا الشمالية ترجمه إلى الفرنسية ماكجوكين دي سلاين طبعة ١٩١٣ ص١٦ – ١٧ .

(٢) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين ترجمه إلى الانجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأوسولد برمستر ، طبعته جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٤٨ – المجلد الثاني – الجزء الثاني – ص٨٣ – ٨٤ .

جندى مجهول

(٦٣٢) « عوض يارب من له تعب فى ملكوت السموات » .
(٦٣٣) ساويرس أسقف الأشمونين بطل مجهول .
(٦٣٤) مؤلفاته تشهد بسعة تفكيره .
(٦٣٥) تاريخ باباوات الاسكندرية وغيره من الكتب .
(٦٣٦) ميامره .
(٦٣٧) ساويرس صورة حية للكنيسة القبطية .

٦٣٢- إن الكنيسة القبطية قد آمنت منذ العصر المسيحى الأول بالفضائل التى علمها اياها الفادى الحبيب ومنها فضيلتا التواضع وانكار الذات . ويبدو هذا الايمان فى الآثار الفنية المتخلفة عن العصور الأولى - فهى لا تحمل اسماء مبتكريها ولا صانعيها . وقد اكتفى مؤلفو الكتب ، وبناة الكنائس والأديرة ، والفنانون والمهندسون ، وغيرهم بالدعاء إلى رب الكنيسة قائلين : « عوض يارب من له تعب فى ملكوت السموات » (١) . كأنما هذه الكلمات هى امضاءاتهم ، إذ قد اعتاضوا بها عن توقيع اسمائهم على ما أنتجوه ، عملاً بقول رب المجد بالجهاد فى الخفاء (٢) . وليس ذلك فحسب ، بل أنهم لم يضعوا تواريخ على أعمالهم ، وكأن وحدة الأجيال قد ملأت عليهم عقلهم الباطن فجعلتهم ينسون معنى الزمن . وهذا الاغفال للاسماء والتواريخ لم يكن شيمة الفنانين والصناع وحدهم ، لأن هناك العدد الوفير من الأساقفة ذكر التاريخ اعمالهم ولكنه أغفل سِيَرهم . فكانوا أشبه بيوحنا المعمدان الذى أجاب سائليه عمن هو بقوله إنه « صوت صارخ فى البرية » (٣) . مقدماً عمله على شخصيته .

٦٣٣- وبين هؤلاء الساعين نحو الكمال المتفانين فى خدمة الكنيسة الأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين الذى اشتهر بكتابه الشيق عن بطاركة

---

(١) الكنائس القبطية القديمة فى مصر (بالانجليزية) لألفريد بطلر مقدمة الجزء الأول .
(٢) متى ٦ : ١ - ٨ .
(٣) يوحنا ١ : ١٩ - ٢٣ .

الكنيسة المصرية . ومن الطريف أن كتابه هذا لم يطبع بالعربية فحسب ، بل طبع باللاتينية والانجليزية أيضًا . وقد اختلف الباحثون فى التواريخ الكنسية على عدد الكتب التى ألفها ، فقال الأنبا ميخائيل أسقف تنيس (١) أنه وضع عشرين كتاباً عدا الميامر وتفسير الكتب الالهية التى وضعها فى قالب سؤال وجواب . أما ابن كبر (٢) فقد قال إن كتبه بلغت ستة وعشرين . فى حين أن جراف المستشرق الألمانى قد وازن بين ما ذكره هذان الباحثان وبين ما قاله غيرهما ممن عنوا بالبحث عن مؤلفات الأنبا ساويرس ، واستنتج من هذه الموازنة أن عدداً كبيراً من مؤلفاته قد ضاع أو ما زال مخبوءاً فى احدى الزوايا المجهولة .

٦٣٤- ونظرة واحدة تلقى على مؤلفات هذا الأسقف العلامة كافية لأن تريَنا ما بلغه من سعة التفكير وتنوع الموضوعات التى عالجها .

٦٣٥- على أن أشهر مؤلفات الأنبا ساويرس (لأنه أكثرها تداولاً) هو كتابه عن باباوات الكنيسة المصرية . وقد قال فى مقدمته ما يلى : « بعد دراسة المؤلفات التى وضعت عن الباباوات الاسكندريين المتداولة بين الأيدى والمحفوظة فى أديرة الأنبا مكارى الكبير ونهيا وغيرهما ، هيأت لى العناية الالهية الفرصة لأن أجمعها كلها فى كتاب واحد . وقد شاء الآب السماوى أن يمد فى عمرى حتى لقد بلغت التسعين فاستطعت بهذه النعمة أن أتمم وضع هذا الكتاب » . وقد جمعه عن المخطوطات القبطية واليونانية إذ كان يجيد اللغتين .

أما الكتب الأخرى التى وضعها الأنبا ساويرس فهى :

١ - كتاب التوحيد .

---

(١) كانت تنيس أسقفية من عهد الأنبا بطرس خاتمة الشهداء (البابا الاسكندرى الـ١٧ سنة ٢٨٥ - سنة ٢٩٥م) . أما الأسقف الذى نحن بصدده فكان معاصراً للأنبا شنودة الثانى (البابا الاسكندرى الـ٦٥) ، وقد كتب سيرة عشرة من باباوات الاسكندرية مبتدئاً بالأنبا ميخائيل الثالث (البابا الاسكندرى الـ٥٦) .

(٢) هو العلامة الشيخ الأجل شمس الرياسة ابن الشيخ الأكمل الأسعد المسمى بأبى البركات المعروف بابن كبر قسيس كنيسة المعلقة المتوفى سنة ١٠٤٠ش (سنة ١٣٢٣م) .

٢- كتاب الاتحاد .

٣- كتاب الباهر - وهو مجموعة الأجوبة التى رد بها على ما وجهه إليه اليهود من أسئلة عن الدين المسيحى .

٤- الشرح والتفصيل - ويتضمن تفنيده للبدعة النسطورية .

٥- كتاب عن الدين وجهه إلى أبى اليمن قزمان بن مينا كاتب ديوان والى مصر .

٦- كتاب نظم الجوهر الذى رد به على القائلين بالقضاء والقدر .

٧- كتاب طب الغم وشفاء الحزن الذى وضعه لتعزية المكلومين .

٨- كتاب المجالس .

٩- كتاب المجامع .

١٠- كتاب شرح دستور الايمان (بالحقيقة نؤمن بإله واحد ...) وعنوانه « تفسير الأمانة » .

١١- كتاب التبليغ - وقد فند فيه مزاعم اليهود .

١٢- كتاب الردود على سعيد بن البطريق بطريرك الملكيين .

١٣- كتاب فى تربية أولاد المؤمنين وأولاد غير المؤمنين .

١٤- كتاب مصباح النفس فى التعاليم الروحية .

١٥- كتاب الأقوال النفيسة .

١٦- كتاب الاستبصار .

١٧- ترتيب الكهنوت الاثنى عشر طقوس للبيعة .

١٨- الأحكام - وهو خاص بالأحكام الكنسية .

١٩- ايضاح الاتحاد - وهو شرح لعقيدة الكنيسة القبطية فى التوحيد والتثليث .

٢٠- تفسير الأناجيل الأربعة .

٢١- كتاب رد به على كاتب يدعى بشر بن جارود ، وقد وضعه فى قالب السؤال والجواب .

٢٢- شرح أصول الدين وترتيب الخدمة للبخور ورسم الصليب ونسبة السيدة (١) .

٢٣- البيان المختصر فى الايمان .

٢٤- المثالات والرموز .

٢٥- التعاليم فى الاعتراف بالذنوب .

٦٣٦- ومن الأدلة الساطعة على صحة ما ذهب إليه جراف ما قاله الأنبا ساويرس نفسه . فقد وضع هذا الأسقف الأشمونى كتاباً عن المجامع فى جزئين ، ذكر فى الجزء الثانى منه بأنه سيكتب بالتفصيل عن أزلية الكلمة المتجسد رداً على اليهود والأريوسيين وجميع من يزعمون أن الابن مخلوق . ولم يعثر الباحثون للآن على هذا الكتاب - كذلك وعد الأنبا ساويرس - فى الكتاب عينه - بنشر تفسير للآيات الغامضة الواردة فى ما ذكره موسى النبى عن الخليقة . وهنا أيضاً لا نرى أثراً لهذا التفسير الموعود به . وقد يتساءل البعض : ألا يمكن أن يكون الوقت قد أعوز هذا الأسقف العلامة فلم يتمكن من تنفيذ وعوده ؟ قد يكون الأمر كذلك . ولكن أغلب الظن أنه كتب هذه المؤلفات التى وعد بها لأنه اعترف بأن الله تعالى أمدّ فى حياته ، ولأنه كان كاتباً خصب الانتاج . وقد يكشف المستقبل عما لم يبح به الحاضر ، أو قد تظل هذه المؤلفات طى الخفاء حتى النهاية وعلى أية حال فهذا الأب العامل قد قدم انتاجاً فكرياً ضخماً يليق بالقبط الآن أن يطبعوه وينشروه على الملأ ، لكى يعرف الجميع أن هناك موضوعات شغلت المفكرين من أبناء هذا الوادى العتيق منذ عشرة قرون وهى لا تزال للآن موضع البحث والتنقيب كالموضوع الذى يعالجه الأنبا ساويرس عن طب الغم المحفوظ بدير السريان . فهذا الكتاب يدور

---

(١) المقصود هنا « بنسبة السيدة » هو أنساب السيدة العذراء ، إذ قد أورد فى آخر هذا الكتاب أسلاف أم النور .

حول الآلام النفسية ووسائل علاجها ، فهو - والحالة هذه - كتاب عن علم النفس الذى يتوهم الكثيرون أنه من العلوم العصرية .

وإلى جانب هذه الكتب فقد ووضع الأسقف الأشمونى عدة مقالات وهى :

١- دهن المسيح بالطيب بيد مريم الخاطية فى بيت سمعان الأبرص الفريسى ومريم أخت لعازر .

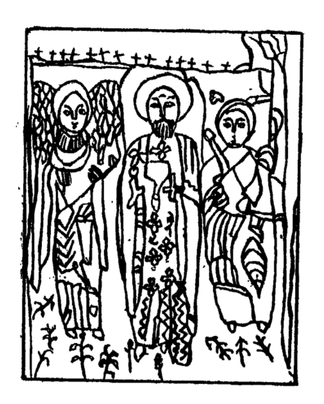
٢- تعليق على قول السيد المسيح « السماء والأرض تزولان ولكن كلامى لا يزول » (متى ٢٤ : ٣٥) - خطه اسحق بن فضل الله .

٣- مخطوطة محفوظة فى المكتبة الأهلية بباريس رقم ٤٩ منسوبة إلى الأنبا ساويرس عنوانها « تنبيه للكهنة » ، لم تنشر بعد ، وبالتالى لا يعرف ما تتضمنه كما أنها لم تدرج فى كشف مؤلفاته .

٦٣٧- ويحصى المؤرخون هذا الأسقف الجليل ضمن المعاصرين للأنبا مكارى الأول البابا الاسكندرى التاسع والخمسين ، وذلك لأن اسم الحبر الأشمونى قد ورد فى مقدمة أسماء الأحبار الموقعين على رسالة الشركة التى بعث بها هذا البابا الاسكندرى إلى مار ديونيسيوس بطريرك أنطاكية . واستناداً إلى هذه الحقيقة يكون الأنبا ساويرس بن المقفع من رجال القرن العاشر . ولا توجد معلومات أخرى عنه ، لأنه - على الرغم من أنه قد وضع كل هذه المؤلفات - لا يوجد كتاب واحد عنه ، ولايزال الباحثون يجهلون أين ولد ، وكيف نشأ ، ومتى دخل الدير ، وفى أية سنة نال كرامة الأسقفية . وإن عدم معرفتنا لسيرة الأنبا ساويرس رغم وجود مؤلفاته بين أيدينا حتى الآن لتجعل منه صورة حية ناطقة للكنيسة القبطية التى أنجبته فخدمها بأمانة . إنه صورة للكنيسة المجيدة المجهولة حتى من أبنائها مع أنها حملت الشعلة منذ العصر المسيحى الأول ، وما زالت تحملها ، وستحملها إلى آخر الدهور بإذن الله (١) .

---

(١) راجع مقال الأستاذ يسى عبد المسيح عن ساويرس بن المقفع ، نشره فى رسالة مارمينا الصادرة فى الاسكندرية سنة ١٩٥٠ تحت عنوان « صور من تاريخ القبط » ص١٨٥ - ٢٠٩ .



صفحة من سنكسار يرجع تاريخها إلى سنة ٨٩٥م

ويجدر الاشارة هنا إلى أن الغالبية العظمى من المخطوطات والايقونات وغيرها من الأعمال الفنية والعلمية لا تحمل تاريخاً ولا اسماً . وكان الفنانون والعلماء والصناع يكتفون بكتابة ، عوض يارب من له تعب فى ملكوت السماوات ، . فهذا السنكسار نادر فى ما حمل من تاريخ . وهو الآن محفوظ بمكتبة بييربونت مورجان بنيويورك .



٦٣٨- مهتد حمل المصباح

٦٣٨- والعجيب أن الجنود المجهولين يشملون بين صفوفهم أفراداً لم يكونوا مسيحيين منذ حداثتهم ، وأحد هؤلاء هو عبد المسيح الاسرائيلى المتنصر . وليس لدينا أية معلومات عن هذا الرجل إلا الكتب التى كتبها ، فهو قد حمل المصباح عالياً لينير الطريق أمام الآخرين أملاً فى أن يعرفوا الحق الذى عرفه هو . وفى هذا السبيل كتب أربع مقالات هى :

١- مقالة فى إثبات مجئ السيد المسيح .

٢- مقالة فى النفس .

٣- مقالة فى الرد على اليهود .

٤- مقالة فى انتصار الصليب على اليهودية والوثنية .

وقد عثر بول سبات على هذه المقالات وهو يدأب على البحث عن الكتب العربية التى كتبها المسيحيون . وخلال هذا البحث تمكن من شراء ألف وستمائة مؤلف وعرف بأن هناك مؤلفات لدى غيره من الهواة والباحثين . ومقالات عبد المسيح المذكورة آنفًا موجودة فى مكتبة ورثة كركور صايغ وهى ما زالت مخطوطة فحسب لم تطبع ولم تنشر (١) .

وهكذا يتكشف لنا - كلما أمعنّا فى البحث - أن عدد الجنود المجهولين يتزايد . فواجبنا أن نحبّهم ونعترف بأفضالهم عالمين أن أجرهم محفوظ لدى عالم الخفايا .



---

(١) عن مقال « مخطوطات عربية لكتبة قبط » (بالفرنسية) لبول سبات نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية العدد الخامس (القاهرة سنة ١٩٣٩) ص١٦٦ - ١٦٧ .

بعض العادات والرموز

أولاً : العادات :

إن الجماعات كالأفراد لها طابعها الشخصى الذى يميّزها والذى يساعد الباحثين عن تعرفها إلى فهم دوافعها . فما هو الطابع المصرى الذى يمكن بواسطته الاستدلال على دوافعه ؟ إنه ولا شك حرصه على التقاليد وبخاصة ما يتعلق منها بالدين لأن الميل إلى الروحيات ميزة أصيلة فيه . فيحسن بنا أن نعرف ثمار هذه النزعة الروحية المتأصلة فيه منذ العصور السحيقة فى القدم . وتنعكس هذه النزعة فى العادات التى اعتاد القبط ممارستها جيلاً بعد جيل . وأهم هذه العادات هى :

ا – المواظبة على قراءة الكتاب المقدس يومياً إلى حد أنهم كانوا يقرأونه بأكمله من الاصحاح الأول للتكوين حتى الاصحاح الأخير للرؤيا خلال الصوم الكبير – السابق لعيد القيامة المجيدة . ولمدوامتهم على هذه القراءة كان فى امكانهم تلاوة أجزاء كثيرة منه غيباً كما كان فى امكانهم معرفة مكان أية آية يريدون الاسترشاد بها .

ب– المواظبة على الصلاة بالأجبية (١) – فإن لم يتمكنوا من الصلاة فى الساعات المحددة كنسياً كانوا يجمعون بين صلاة ساعتين أو أكثر فى الوقت الذى يتحينونه ولما كانت تلاوتهم لهذه الصلوات مستمرة فإنهم كانوا يحفظونها غيباً ولذلك كان فى امكانهم تسميعها حينما اتفق وجودهم .

جـ– تكريس ركن معيّن من البيت يضعون فيه أيقونة أمامها قنديل – وذلك لغرضين أساسيين أولهما أن يكون هذا الركن منبهاً لهم إلى الحياة الروحية التى يجب عليهم السعى نحوها يومياً . وثانيهما أن يجد كل من فى البيت ركناً مختاراً يستطيع الالتجاء إليه فى أية ساعة – ليلاً أو نهاراً – ورفع صلواته إلى الله .

---

(١) : قصة الكنيسة القبطية ، جـ١ ص٤٧٠ .

د- احترام القربان - كان احترامهم للقربان بالغاً فعبروا عنه بوسيلتين : الأولى أنهم كانوا يعاتبون أولادهم إن طلبوا « شراء » القربان قائلين : إن القربان لا يشترى . فنحن نأخذ القربان . أما ما نعطيه للقرابنى فهو عطية أيضاً . فالأخذ والعطاء بخصوص القربان ليس سوى نوع من التعاون الاجتماعى ، والثانية هى أنهم لا يقضمونه قضماً وإنما يقطعون لقمة فى حذر لكى لا تسقط فتاتة منها على الأرض ويأكلونها ثم يقطعون غيرها . وقد بلغ حرص البعض أنهم يضعون القربانة فى منديل لكى يجمعوا الفتات المتساقط منها فى النهاية ويأكلونه .

هـ- الذهاب إلى الكنيسة من غير تناول أكل اطلاقاً حتى إذا كان المؤمن غير عازم على التناول من الأسرار الالهية - وهذا أيضاً تعبير عن احترامهم لبيت العبادة وللشعائر التى سيحضرونها . لأن الامتناع عن الأكل يتضمن تهيئة الروح وتقويتها . ولهذا السبب جرت عادة ما زال معمولاً بها فى بعض الجهات هى « الأغابى » أو وجبة المحبة - وهذه وجبة يتناولها المصلون جميعاً بعد الانتهاء من القداس الالهى فى قاعة ملحقة بالكنيسة . وتتناوب العائلات - كل بدورها - اعداد الطعام لهذه الوجبة وتقديمه للكنيسة . فيشترك الجميع فى الغذاء الجسدى بعد أن يكونوا قد اشتركوا فى الغذاء الروحى . وليس ذلك فحسب بل أن الاشتراك فى مائدة واحدة تعبير عن تقارب الناس بعضهم إلى بعض والشعور بأنه لا فرق بين غنى وفقير . فكانت « الأغابى » صورة من الاشتراكية وفرصة للتآخى .

ثم إنه كان من الشائع اطلاق اسم « قاعة العرسان » على القاعة الملحقة بالكنيسة ، وذلك لأنها لم تكن مجرد قاعة للطعام بل كانت المنتدى الذى يتسامر فيه المجتمعون بعد الأكلة المشتركة ويأتنسون بعضهم ببعض فكانت هذه القاعة بمثابة النادى أو الجمعية فى وقتنا الحاضر . وكانت العائلات بتقاربها وتآلفها عند التلاقى فيها تزداد معرفة وارتباطاً ينتهى أحياناً إلى المصاهرة . وحينما يخطب الشاب يتقابل مع خطيبته فى تلك القاعة فيشعر كلاهما بقدسية الرباط المزمعين عقده . وزيادة فى توكيد هذه القدسية

يتناول الخطيبان من الأسرار المقدسة معًا فى صباح يوم الاكليل (١) أو قبله بيوم .

ومن وسائل التقارب أيضًا أن ذوى اليسر لم يلبسوا فى الكنيسة الملابس الفاخرة ولا المجوهرات الجذابة بل كانوا يرتدون ملابس بسيطة محتشمة .

و– ومما تجدر الاشارة إليه أيضًا أن المتناولين من الأسرار المقدسة لا يركعون بعد التناول ويرجع ذلك إلى أن كنيستنا القبطية تعتقد أن الخبز والخمر يتحولان تحولاً فعلياً إلى جسد الرب ودمه الأقدسين . وكما أن الشخص حينما يكون حاملاً شخصاً آخر لا يستطيع الركوع كذلك المتناول لا يركع لأنه يحمل السيد المسيح فى داخله . ولا يجوز عمل مطانيات (٢) بعد التناول لأن النفس قد تهللت باتحادها بمخلصها فلا تحتاج إلى تذلل لأنه خلصها من أدرانها وسما بها إلى ما فوق . لذلك يحرصون كل الحرص على أن لا يبصقوا وعلى أن لا يأكلوا ما يضطرهم إلى اخراج شئ من أفواههم فلا يمصون القصب مثلاً ، كما يحرصون على تجنب كل ما قد يسبب جرحاً أو خدشاً فى يوم التناول . ويرجع ذلك إلى اعتقادهم الراسخ بأن المسيح له المجد يتخلل كل ذرة من أجسامهم لا من أرواحهم فقط . وبهذا الايمان يحلو لهم أن يلبسوا الملابس البيضاء عند التناول (٣) إلى حد أن بعض السيدات المتقدمات فى السن كن يخيطن ثوباً أبيض يرتدينه فوق ملابسهن قبل التناول مباشرة .

وقبل الانتهاء من الحديث عن العادات يحسن الاشارة إلى عادة آخذة فى

---

(١) كناية عن عقد الزواج .

(٢) أى الاستغفار المتضمن للتوبة الحقيقية .

(٣) أتاحت لى نعمة الله الفرصة للذهاب إلى الهند فى فبراير سنة ١٩٦١ فانتهزت فرصة وجودى هناك لزيارة كوتايام عاصمة الكنيسة الأرثوذكسية الهندية التى أسسها توما الرسول فى تلك البلاد . فرأيت بعينى أن السيدات والرجال جميعاً يرتدون الملابس البيضاء عند ذهابهم إلى الكنيسة – حتى الحزانى منهم الذين يرتدون الملابس السوداء يستبدلونها بالبيضاء ساعتئذ فيكون منظرهم جميلاً حقاً وهم وقوف صفاً خلف صف لأن الكنائس الهندية تخلو من المقاعد ما عدا القليل الموضوع إلى جانب الجدران للشيوخ والضعفاء فقط .

الزوال وهى تخصيص أماكن فى الدور الأعلى للسيدات . وبالبحث فى هذا الموضوع اتضح أن هذه الأماكن العليا فى الكنائس الأثرية كانت لحماية السيدات . ذلك أنه فى العصور الوسطى لم تكن العدالة مكفولة ولا الأمان مستقراً . ومتى كان الوالى ظالماً كان يأمر جنوده بالهجوم على الناس حتى وهم يصلون في الكنيسة . فرأى القبط – صوناً لسيداتهم – أن يخصصوا لهن أماكن عالية لها ممرات مؤدية إلى المنازل مباشرة . فلا تحتاج السيدة إلى النزول لصحن الكنيسة ولا إلى السير فى الشارع كى تذهب إلى الكنيسة أو تعود منها . وكان هناك أشخاص مخصصين للحراسة . فإذا ما رأوا الجند آتين من بعد أعطوا الاشارة فتنسحب السيدات فى سكون إلى الممرات المؤدية إلى بيوتهن فى أمان وسلام .

ثانيًا : الرموز :

وليست العادات بالمرآة الوحيدة التى تعكس الطابع المصرى الخاص بل أن الرموز التى تزخر بها الكنيسة هى أيضاً مما يعكسه . والرموز وسيلة حسية سهلة تقرب للأذهان الحقائق الروحية اللا – حسية . ولقد استعان بها آباؤنا حتى من خلال أبنية الكنائس وأوانيها والملابس المستعملة فيها . فالأعمدة مثلاً ترمز إلى الرسل وإذا تأملنا الأعمدة المقامة فى الكنائس الأثرية لاحظنا أنها كلها مزخرفة ما عدا عاموداً واحداً بينها . وهذا العامود لا يشذ عن البقية فى تجرده من الزخرفة فحسب بل فى المادة المصنوع منها أيضاً أو فى لون طلائه . ففى كنيسة القديسين سرجيوس وواخس (أبى سرجة) بمصر القديمة نجد العامود الشاذ مصنوعاً من الجرانيت المحمر فى حين أن الأعمدة المزخرفة مصنوعة من الرخام الأبيض فما السبب لهذا التباين ؟ إنه يتلخص فى أن العامود المغاير للآخرين يشير إلى يهوذا الاسخريوطى . وما من كنيسة قديمة تخلو منه . ولقد حرص الأولون على وضع هذا العامود لأن الآباء علّمونا أن خطية يهوذا ليست فى أنه سلم المسيح بقبلته الخائنة بل فى أنه بعد خيانته يئس من رحمة المسيح وشنق نفسه – أى أنه لم يندم للتوبة بل ندم إلى اليأس . ولو أنه ندم إلى التوبة ورجع إلى المخلص وطلب منه المغفرة لنالها

من غير شك كما نالها بطرس بعد انكاره المثلث . وفى هذا المعنى يقول لنا الأنبا باخوم أبو الشركة : « ليست خطية بلا مغفرة إلا التى لايتاب عنها » .

وتمتد الرموز من بناء الكنيسة إلى الأوانى الكنسية – فالشورية مثلاً رمز إلى السيدة العذراء ، والنار المشتعلة داخلها هى نار لاهوت الابن الكلمة المتجسد منها ، والقبة التى تعلوها رمز للروح القدس الذى ظلل السيدة العذراء كما أعلن لها الملاك .

كذلك تشمل الرموز أغطية المذبح – فالبروسفارين الذى يغطى الكرسى (الصندوق المحتوى على الكأس) رمز إلى الحجر الذى وضع على باب القبر المقدس ، واللفافة الموضوعة فوقه هى الختم الذى وضعه بيلاطس البنطى على باب القبر بعد أن أنذره اليهود بتخوفهم من سرقة جسد الرب . أما الجلاجل المخيطة فى البروسفارين فتشير إلى الزلزلة التى حدثت عند قيامة رب المجد .

وثمة رمز آخر له طرافته هو بيض النعام المعلق فى الكنائس القديمة أيضًا، وهو موضوع لأنه يرمز إلى تركيز الانتباه . ذلك أنه من الشائع عن النعام أنه لا يرقد على البيض بل يتفرس فيه . فمتى تعبت الأنثى من تركيز نظرها على البيض حل الذكر محلها . وهكذا يتناوبان التفرس فى البيض إلى أن يفقس . فإن تبدد النظر فلن يفقس البيض . فالمصلى عليه أن يتخذ الدرس المقدم له من النعام فيتدرب على تركيز أفكاره فى الله .

هذه أمثلة منتقاة من بين الرموز تستهدف استثارة الرغبة فى معرفة الحكمة التى اهتدى بها آباؤنا عند بناء كنائسهم وزخرفتها واعداد الستائر والأوانى اللازمة لها .

ثالثًا: الأيقونات :

إن الأيقونات (١) لها أيضًا معناها وهدفها ، فهى موضوعة فى الكنائس

---

(١) راجع كتاب « من هم القبط » (بالانجليزية) للقمص شنودة حنا راعى كنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعلقة – الفصلين الخاصين بالرموز والأيقونات .

لكى يتأملها المؤمن فيفكر فيمن تصوره . فهى وسيلة لاستثارة التأملات نحو القداسة والتكريس والعبادة الحقة ، أى أنها نوافذ على السماء . لذلك يجب العناية بها عناية كبرى وبخاصة فى أيامنا هذه – وتحديد هذه الأيام بالذات يرجع إلى أن هناك مؤمنين يقدمون العطايا للكنائس ومن بينها الصور فيتحرج ضمير الكاهن من رفضها فى حين أن بعض الصور يخالف عقيدتنا الأرثوذكسية . والمثل الصارخ على هذه المخالفة يبدو من الأيقونة التى تمثل معمودية رب المجد على يد يوحنا السابق الصابغ . فكنيستنا تؤمن بأن المعمودية لابد أن تتم بالتغطيس الكلى (١) ، ومع ذلك نجد العدد العديد من كنائسنا بها أيقونة المعمودية تصور يوحنا واقفًا وفى يده شئ يشبه الرشاشة يرش بها الماء على رأس فادينا الذى لا يغطى ماء الأردن غير قدميه . وبهذه الكيفية تفقد الأيقونة الغرض الأساسى من وضعها فوق جرن المعمودية . لذلك يجب على كل من يبغى تقديم أية عطية – من ستائر أو أوانى أو أيقونات – أن يعرف المعنى الذى ترمز إليه أولاً لكى يستطيع أن يقدم الهبة اللائقة بكنيسة مكرسة للعبادة تبعاً للطقس الأرثوذكسى .

رابعًا: الأعياد :

إن العيد هو يوم يتميز بذكرى خاصة فيحتفى الناس بهذه الذكرى وبالتالى يجعلون من هذا اليوم عطلة يتركون فيه أعمالهم اليومية العادية ليتفرغوا لهذه الذكرى .

ولقد نص الكتاب المقدس نفسه على الأعياد حيث أمر الله تعالى بإقامة الشعائر الدينية والانصراف إلى الأعمال الصالحة فى هذه الأيام الموصوفة بأنها « أعياد » فأصبحت بذلك من الفرائض الدينية (٢) . ولقد أولى السيد المسيح الاعتبار للأعياد بحضوره فيها وممارسته شعائرها وفرائضها (٣) .

(١) « قصة الكنيسة القبطية » جـ١ ص٤٦٥ .

(٢) خروج ١٢ : ١٤ ، ٢٠ : ٨ – ١١ ، ٢٣ : ١٦ ، ٣٤ : ٢٢ – لاويين ٢٣ : ٤ – ٥ ، ٢٤ ، ٢٦ – ٣٢ ، ٣٦ – عدد ٢٩ – أستير ٩ : ١٨ .

(٣) متى ٢٦ : ١٧ – ٢٠ ، مرقس ١٤ : ١٢ – ١٧ ، لوقا ٢ : ٤١ ، ٢٢ : ٧ – ١٥ ، يوحنا ٢ : ١٣ ، ٥ : ١ ، ٧ : ٢ – ١٠ ، ١٠ : ٢٢ .

وبالطبع جرى الرسل المكرمون على نهج رب المجد فاحتفلوا بالأعياد وباركوها وأوصوا المؤمنين بالمحافظة عليها (١) .

وللأعياد أغراض ثلاثة هى :

ا- احياء ذكرى نعم اللّه وعجائبه .

ب- تذكير الأجيال المتعاقبة باحسانات الله وعنايته .

جـ- جعلها واسطة لحفظ أحكام الله ووصاياه .

والأعياد الكنسية نوعان : أعياد سيدية وهى الأعياد الخاصة بسيدنا له المجد ، وأعياد غير سيدية وهى الأعياد الخاصة بتذكارات السيدة العذراء والرسل والقديسين والشهداء .

ومما يجدر ذكره هنا أن الكنيسة حينما تعيد أعيادها غير السيدية لا تقيم الأعياد لميلاد الرسول أو القديس وإنما تقيمها أيام نياحتهم (أى انتقالهم إلى الدار الباقية) أو أيام استشهادهم أو لذكرى بناء أول كنيسة باسم واحد منهم أو آية خاصة من الآيات التى أجروها .

والأعياد السيدية أربعة عشر عيداً : سبعة منها موصوفة بالكبيرة وسبعة بالصغيرة . فالكبيرة هى :

١- البشارة ويقع فى ٢٩ برمهات (نحو ٧ ابريل) .

٢-الميلاد ويقع فى ٢٩كيهك (أو ٢٨ منه فى السنة الكبيسة)نحو٧ يناير.

٣-الغطاس ويأتى بعد الميلاد المجيد بأثنى عشر يوماً فى١١ طوبة.

٤- أحد الشعانين أو أحد السعف وهو الأحد السابق لأحد القيامة المجيدة (وليس له موعد ثابت) (٢) .

---

(١) أعمال١٨ : ٢١ ، ١٩ :٢١ ، ٢٠ : ١٦ ، ١ كورنثوس ٥ : ٧ - ٨ ، ١٦ : ٨ ، ١بطرس ١: ١٩ .

(٢) راجع ما جاء عن حساب الأبقطى (الخاص بعيد القيامة المجيدة فى الجزء الأول لهذا الكتاب ص٤٦ - ٤٨) .

٥- القيامة المجيدة ويقع فى نهاية أسبوع الآلام بعد الصوم الكبير .

٦- الصعود ويأتى بعد القيامة المجيدة بأربعين يوماً .

٧- العنصرة أو حلول الروح القدس على التلاميذ المكرمين وتأتى بعد الصعود بعشرة أيام أو بعد القيامة بخمسين يومًا ولذلك يسمى بعيد الخمسين (البنديقوستى = العنصرة) .

أما الصغيرة فهى :

١- الختان أو يوم أن ذهبت السيدة العذراء بصحبة يوسف الصديق إلى الهيكل فى اليوم الثامن لميلاد الفادى الحبيب لكى يتمموا الناموس ويقع فى ٦ طوبة .

٢- دخول السيد المسيح الهيكل على ذراعى السيدة العذراء وهو ابن أربعين يوماً ويقع فى ٨ أمشير (نحو ١٥ فبراير) .

٣- دخول السيد المسيح أرض مصر هرباً من غضب هيرودس ويقع فى ٢٤ بشنس (نحو ١ يونيو) .

٤- حضوره عرس قانا الجليل وتحويله الماء خمراً ويقع فى ١٣ طوبة (نحو ٢١ يناير) – والكنيسة تعيِّد هذا اليوم لسببين : ا – لتوجيه أذهان المؤمنين إلى قدسية الزواج ، ب– لأنه بدء عمل السيد المسيح الفدائى .

٥- التجلى على الجبل حينما بدا الفادى الحبيب فى مجده أمام ثلاثة من تلاميذه الذين بهرهم هذا المجد إذ أدركوا أن الناموس (موسى) والنبوات (إيليا) قد تحققا فى ذاك الذى يسيرون معه كانسان فى حين أنه رب المجد . وموعد هذا العيد ١٣ مسرى (نحو ١٩ أوغسطس) .

٦- خميس العهد وهو اليوم الخامس بعد أحد الشعانين وفيه قدم السيد المسيح نفسه إلى تلاميذه المكرمين وأوصاهم بأن يأكلوا جسده الطاهر ويشربوا دمه الذكى ليحيوا فيه وبه .

٧- أحد توما وهو الحد الأول بعد القيامة المجيدة وذلك لتذكير المؤمنين بما نالوه من بركة إذ قال رب المجد لرسوله المتشكك ، طوبى

لمن آمنوا ولم يروا » (يوحنا ٢٠ : ٢٦ - ٢٩) (١) .

هذا عن الأعياد السيدية أما الأعياد الخاصة بالرسل والشهداء والقديسين فقد وردت فى السنكسار . ولما كانت كنيستنا القبطية هى كنيسة الشهداء والمعترفين فكل يوم من أيام السنة فيه ذكرى لشهيد أو معترف . وهذه الأعياد هى تعبير عن تقدير الكنيسة لمن جاهدوا الجهاد الحسن وأكملوا السعى لأن الله تعالى قد حسب اكرامهم تكريماً له واحتقارهم تحقيراً له (٢) .

وهذه الأعياد تستهدف :

ا - تذكير المؤمنين بأعمال هؤلاء القديسين التى أدت إلى تمجيد الله واعلان عجائبه فيهم فتدفعهم هذه الذكرى إلى العمل على اقتفاء آثارهم والسعى على منهاجهم .

ب- لتوكيد حياتهم ولو أنهم ماتوا بالجسد وبالتالى لتوكيد الصلة التى ترتبط بينهم وبيننا .

جـ- لتنبيه الأذهان إلى أن الأخيار مكرمون لدى الله .

ولئن كان الله تعالى قد أعلن بأن تكريم القديسين تكريم له فكم بالحرى يكون تكريم السيدة العذراء التى ظللتها قوة العلى وحل عليها الروح القدس وولد منها الابن المتجسد . ولم يكرمها الله بتجسد الابن الكلمة منها فحسب بل إن الابن المتجسد أكرمها علانية فى مختلف المناسبات : فقد أكرمها فى طفولته بخضوعه لها ، ثم أكرمها فى مستهل خدمته بتلبية ملتمسها ، ثم أكرمها وهو معلق على الصليب بتوصية تلميذه الحبيب عليها (٣) .

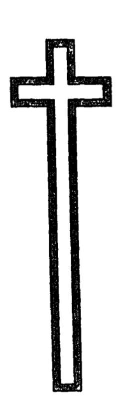
---

(١) اللآلئ النفيسة فى شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة للقمص يوحنا سلامة جـ٢ ص٤٨٣ - ٥٢٦ .

(٢) متى ١١ : ٩ - ١١ ، لوقا ١٠ : ١٦ ، ١ تسالونيكى ٤ : ٨ و ٢ تسالونيكى ١ : ٦ ، راجع أيضاً ما أورده القمص يوحنا سلامة فى كتابه المذكور أعلاه جـ٢ ص٣٨٤ - ٤١٧ ، ٥٢٧ - ٥٣٧

(٣) متى ١٢ : ٤٦ - ٥٠ ، مرقس ٣ : ٣١ - ٣٥ ، لوقا ٢ : ٥١ ، ٨ : ١٩ - ١ ، ١١ : ٢٧ ، يوحنا ٢ : ٥ ، ١٩ : ١٦ ، ٢٥ - ٢٧ .

وإذا ما تأملنا بدورنا هذه العذراء المطوّبة التى لقبتها الكنيسة بوالدة الإله نبتهج ابتهاجاً روحياً إذ نرى فيها تحقيق الوعد الالهى القائل بأن نسلها يسحق رأس الحية (١) فهى بحق ملكة السمائيين والأرضيين (٢) .



(١) تكوين ٣ : ١٥ .

(٢) راجع ، اللآلئ النفيسة ، فى شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة للقمص يوحنا سلامة جـ٢ ص٥٣٧ – ٥٣٨ ، أم الخليقة القديمة وأم الخليقة الجديدة لايريس حبيب المصرى (مكتبة المحبة) ص٩ – ٢٣ .

أسماء باباوات الاسكندرية من سنة ٤٣٥ - ٩٤٨ م ش (١)

رقم	الاسم	تاريخ التقدمة	مدة الرياسة شهر	مدة الرياسة سنة	الحكام المعاصرون
٢٥	الأنبا ديسقورس الأول	٤٣٥	٢	١٤	ثيئودوسيوس الثانى ومرقيانوس
٢٦	الأنبا تيموثيئوس الثانى	٤٥٠	١١	٢٢	باسيلسكوس وزينون
٢٧	الأنبا بطرس الثالث	٤٧٢	٣	٨	زينون
٢٨	الأنبا أثناسيوس الثانى	٤٨١	١٠	٦	زينون وأنسطاسيوس
٢٩	الأنبا يؤنس الأول	٤٨٨	٧	٨	أنسطاسيوس
٣٠	الأنبا يؤنس الثانى	٤٩٧	—	١١	أنسطاسيوس
٣١	الأنبا ديسقورس الثانى	٥٠٨	٤	٢	أنسطاسيوس ويوستينوس
٣٢	الأنبا تيموثيئوس الثالث	٥١١	٤	١٧	يوستينوس ويوستينيانوس الأول
٣٣	الأنبا ثيئودسيوس الأول	٥٢٨	٤	٣١	يوستينيانوس الأول والثانى
٣٤	الأنبا بطرس الرابع	٥٥٩	—	٢	يوستينيانوس الثانى
٣٥	الأنبا دميانوس	٥٦٣	١١	٣٥	يوستينيانوس الثانى وطيباريوس وموريس وفوقا
٣٦	الأنبا أنستاسيوس	٥٩٨	٦	١٢	فوقا وهرقل
٣٧	الأنبا أندرونيكوس	٦١١	—	٦	هرقل

(١) أى ميلادية شرقية – وقد أتبعنا التقويم الشرقى والسجل الوارد فى دليل المتحف القبطى لمرقس سميكه .

تابع أسماء باباوات الاسكندرية

رقم	الاسم	تاريخ التقدمة	مدة الرياسة شهر	مدة الرياسة سنة	الحكام المعاصرون
٣٨	الأنبا بنيامين الأول	٦١٧	–	٣٩	هرَقل وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان وعلى بن أبى طالب وحسين بن على ومعاوية بن أبى سفيان
٣٩	الأنبا أغاثون	٦٥٦	٩	١٦	معاوية بن أبى سفيان
٤٠	الأنبا يؤنس الثالث	٦٧٣	١	٨	يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد ومروان بن الحاكم وعبد الملك بن مروان
٤١	الأنبا ايسآك	٦٨١	١١	٢	عبد الملك بن مروان
٤٢	الأنبا سيميون الأول	٦٨٤	٨	٧	عبد الملك بن مروان
٤٣	الأنبا ألكسندروس الثانى	٦٩٥	٩	٢٤	عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الحكم وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد وهشام
٤٤	الأنبا قزما الأول	٧٢٠	٤	١	هشام
٤٥	الأنبا ثيئودورس	٧٢١	٧	١١	هشام
٤٦	الأنبا ميخائيل الأول	٧٣٥	٦	٢٣	هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وابراهيم ومروان وعبد الله أبو العباس السفاح وعبد الله أبو جعفر
٤٧	الأنبا مينا الأول	٧٥٨	١٠	٨	المنصور

			شهر	سنة	
٤٨	الأنبا يؤنس الرابع	٧٦٨	–	٢٢	المهدى ، ؤسى بن مهدى الهادى وهرون الرشيد
٤٩	الأنبا مرقس الثانى	٧٩٠	٣	٢٠	هرون الرشيد والأمين والمأمون
٥٠	الأنبا ياكوبوس	٨١٠	٩	١٠	المأمون
٥١	الأنبا سيميون الثانى	٨٢١	٧	–	المأمون
٥٢	الأنبا يوساب الأول	٨٢٣	١١	١٧	المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل
٥٣	الأنبا ميخائيل الثانى	٨٤١	٤	١	المتوكل
٥٤	الأنبا قزما الثانى	٨٤٢	٧	٧	المتوكل
٥٥	الأنبا شنودة الأول	٨٥٠	٣	١١	المتوكل والمستنصر والمستعين
٥٦	الأنبا ميخائيل الثالث	٨٦١	١	٣٥	المهدى والمعتمد وأحمد بن طولون وخمارويه وهرون بن أبى موسى وشعبان بن أحمد والمكتفى
٥٧	الأنبا غبريال الأول	٩٠٠	–	١١	جعفر بن المقتدر
٥٨	الأنبا قزما الثالث	٩١١	–	١٢	جعفر بن المقتدر
٥٩	الأنبا مكارى الأول	٩٢٣	–	٢٠	محمد الراضى ومحمد الأخشيدى وأبو القاسم الأخشيدى
٦٠	الأنبا ثيئوفانيوس	٩٤٣	٨	٤	أبو القاسم الأخشيدى

مراجع الكتاب

١- تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين (طبعة ايفيتس) .

٢- تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس بن المقفع ترجمه إلى الانجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وبورمستر (طبعة جمعية الآثار القبطية) .

٣- تاريخ البطاركة للأنبا يوساب أسقف فوه .

٤- تاريخ البطاركة للأنبا ميخائيل أسقف تنيس .

٥- تاريخ البطاركة للشماس موهوب بن منصور بن مفرج .

٦- تاريخ بطاركة الاسكندرية وكشف باسمائهم للشماس كامل صالح نخلة .

٧- تاريخ الأمة القبطية - الحلقة الثانية للشماس كامل صالح نخلة وفريد كامل - طبع بمكتبة المحبة القاهرة سنة ١٩٤٩ .

٨- تاريخ بطاركة الاسكندرية - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس .

٩- تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٨ .

١٠- حسن السلوك فى تاريخ البطاركة والملوك لراهب برموسى .

١١- تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص طبع فى القاهرة سنة ١٩٢٤ .

١٢- كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا لزاهر رياض القاهرة سنة ١٩٦٢ .

١٣- مجمع خلقيدون ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتينى المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الراهب فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كرادلة - مطبوع فى رومية سنة ١٦٩٤ .

١٤- تاريخ الانشقاق لجراسيموس مسرة .

١٥- تاريخ الهرطقات لألفونسو دى ليجورى - مطبوع بالعربية فى دير سيدة طاميش فى مقاطعة كسروان سنة ١٨٦٤ .

١٦- تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب متروبوليت بيروت ودمشق وتوابعها للسريان الأرثوذكسى .

١٧- مختصر تاريخ الشعوب لابن العبرى - طبعه بمطبعة الجزويت ببيروت الأب أنطون صالحانى .

١٨- الدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة للأسقف ملاتيوس .

١٩- مجمع خلقيدون للمنسنيور يوسف الدبس المارونى .

٢٠- الخلاصة الوفية لأرثوذكسية الكنيسة القبطية - مقال لفرنسيس العتر أرشيدياكون كنيسة الرسولين بطرس وبولس نشره فى مجلة الصخرة عدد أكتوبر - نوفمبر سنة ١٩٤٩ من السنة الثالثة عشرة .

٢١- قصة الكنيسة القبطية لايريس حبيب المصرى طبع فى القاهرة سنة ١٩٦٢ .

٢٢- القبط فى ركب الحضارة - مقال لمراد كامل نشره فى مجلة مارمينا (العدد الخامس) الاسكندرية سنة ١٩٥١ .

٢٣- ساويرس بن المقفع - مقال ليسى عبد المسيح نشره فى مجلة مارمينا (العدد الرابع) الاسكندرية سنة ١٩٥٠ .

٢٤- تاريخ القديس الأنبا يوحنس القصير للقمص ميصائيل بحر .

٢٥- أولوجيوس قاطع الأحجار - من مطبوعات دير السيدة العذراء الشهير بالسريان طبع بمطبعة الدير سنة ١٩٥٢ .

٢٦- سيرة يؤنس كامى وتاريخ دير السريان - طبعه رهبان الدير بمطبعتهم عن مخطوطتين قبطيتين وأخرتين عربيتين سنة ١٩٥١ .

٢٧- تاريخ القدس لعارف باشا العارف - طبع بمطبعة المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥١ .

٢٨- حول مدينة نيقيو - مقال لليبب حبشى نشره فى رسالة مارمينا (العدد الرابع) الاسكندرية سنة ١٩٥٠ .

٢٩- أديرة وادى النطرون لمنير شكرى - رسالة مارمينا العدد السادس - الاسكندرية سنة ١٩٦٢ .

٣٠- وادى النطرون : رهبانه وأديرته للأمير عمر طوسون طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٥ .

٣١- سجل مكتبة البطريركية القبطية بمصر لمرقس سميكة ويسى عبد المسيح .

٣٢- دليل المتحف القبطى (جزآن) لمرقس سميكة .

٣٣- دليل القدس - صدر عن رابطة القدس للأقباط الأرثوذكس (الطبعة الخامسة) القاهرة سنة ١٩٥٥ .

٣٤- تاريخ مصر الحديث لزيدان .

٣٥- تاريخ مصر الاسلامية لالياس الأيوبى - القاهرة سنة ١٩٣٢ .

٣٦- المخطوطات العربية لكتبة النصرانية للأب لويس شيخو اليسوعى .

٣٧- تراث الاسلام - لجنة الجامعيين لنشر العلم .

٣٨- الخطط للمقريزى .

٣٩- القول الابريزى للعلامة المقريزى طبع على نفقة مرقس جرجس - مصر سنة ١٨٩٨ .

٤٠- فتوح البلدان للبلاذرى .

٤١- لباب الآداب لأسامة بن منقذ الكندى .

٤٢- كتاب البكرى فى وصف شمال أفريقيا .

٤٣- مذكرات عن رحلتى فى مصر للدكتور عبد اللطيف البغدادى (القرن الثانى عشر) .

٤٤- رحلة الأنبا يؤنس التاسع عشر إلى أثيوبيا ليوسف جرجس .

٤٥- السنكسار القبطى - طبعه رينيه باسيه .

٤٦- الصادق الأمين للقمص فيلوثاؤس والقس ميخائيل الراهبين بدير الأنبا مكارى الكبير .
٤٧- يوحنا النيقيوسى لمراد كامل فى العدد الرابع من رسالة مارمينا الصادرة فى الاسكندرية سنة ١٩٥٠ .
٤٨- القبط فى ركب الحضارة العالمية لمراد كامل العدد الخامس من رسالة مارمينا الصادرة فى الاسكندرية سنة ١٩٥٤ .
٤٩- اللآلئ النفيسة فى شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة للقمص يوحنا سلامة – الطبعة الثانية – القاهرة سنة ١٩٢٥ش (سنة ١٩٠٩م) .
٥٠- مجلة صهيون (العدد السادس) يونيو سنة ١٩٤٩ .
٥١- مجلة النور – تصدرها حركة الشبيبة الأرثوذكسية المعترف بها من المجمع الأنطاكى المقدس (العدد العاشر) للسنة السابعة سنة ١٩٥١ .
٥٢- مقدمة ابن خلدون – طبع على نفقة ورثة المرحوم الشيخ محمد عبد الخالق المهدى – القاهرة سنة ١٩٣٠ .
٥٣- قصائد : مشروع ٢٨ فبراير } لأحمد شوقى
أبو الهول
الأندلس الجديدة
٥٤- « ليال الصيف فى مصر » قصيدة لالياس فياض عن كتاب مختارات الزهور – القاهرة سنة ١٩١٢ .
٥٥- أم الخليقة القديمة وأم الخليقة الجديدة لايريس حبيب المصرى طبع بمكتبة المحبة – القاهرة سنة ١٩٦٥ .
٥٦- « مخطوطة تروى سيرة التسعة والأربعين شيخًا محفوظة بدير الأنبا بيشوى » .
٥٧- سيرة الأنبا ديسقورس – مخطوط عربى محفوظ بمكتبة البابوية القبطية بالقاهرة رقم ١٧١ .

٥٨- مخطوطة قبطية رقم ١٣ محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس .

٥٩- مخطوطة قبطية رقم ٢٩١ لاهوت محفوظة بمكتبة البابوية القبطية بالقاهرة .

٦٠- مخطوطة قبطية رقم ١٠٦ طقس محفوظة بمكتبة المتحف القبطى بمصر القديمة .

٦١- مخطوطة قبطية رقم ٤٠٥ طقس محفوظة بمكتبة المتحف القبطى بمصر القديمة .

٦٢- مخطوطة عربية رقم ٤٧٠ تاريخ محفوظة بمكتبة المتحف القبطى بمصر القديمة وتتضمن سيرة الأنبا بيسنتيئوس أسقف قفط .

٦٣- مخطوطة عربية رقم ٧١ محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ومقيدة فى السجل برقم ١١٢ .

٦٤- مخطوطة عربية رقم ٢٨٧ تاريخ كنسى محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس .

٦٥- الدرة اليتيمة والجوهرة الكريمة بعبادة سليمة لله مستقيمة - مخطوط رقم ٢٤٦ لاهوت محفوظ بمكتبة البابوية القبطية بالقاهرة .

٦٦- عن الكتاب المقدس من أخبار السادات الآباء القديسين - مخطوط رقم ٥١ تاريخ محفوظ بمكتبة البابوية القبطية بالقاهرة .

٦٧- صلاة اللقّان (الطقس القبطى) .

٦٨- صلاة التحاليل .

٦٩- صلاة التحليل للابن وتذكار القديسين فى الخولاجى العربى الكاثوليكى المطبوع فى رومية .

٧٠- القداسات القبطية : قداس الأنبا كيرلس عامود الدين ، قداس الأنبا غريغوريوس الثيؤلوغوس ، قداس الأنبا باسيليوس أسقف قيسارية الكبادوك.

٧١- الأجبية القبطية .
٧٢- صلاة السجدة .
٧٣- سفر طوبيا .
٧٤- الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد .
٧٥- الأبصلمودية السنوية المقدسة (حسب ترتيب آباء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية) طبعها أقلاديوس لبيب بأمر قداسة البابا الأنبا كيرلس الخامس سنة ١٦٢٤ش (١٩٠٨م) .
٧٦- تاريخ التربية القبطية لسليمان نسيم - طبع بدار الكرنك القاهرة سنة ١٩٦٣ .

77- Y. Abde'l Massih : The Faith and Practises of the Coptic Church .

78- Abu'l Makarem (attributed to Abu Salih the Armenian) : The Churches and Monasteries of Egypt and Some Neighbouring Countries - edited and translated by B. T. A. Evetts - Oxford 1935.

79- Amélineau : Etude Sur le Christianisme en Egypte au VIIeme Siècle .

80- Amélineau : Vie du Patriarche Copte Isaac (traduit du Copte) Paris 1890 .

81- Amélineau Samuel de Qualamon (traduit du Copte) pub. dans "La Revue de l'Histoire des Religions " .

82- A. S. Atteya : Some Egyptian Monasteries According to the Unpublished Ms. of al Shabushti's " Kitab al Diyarat " .

83- Abbé Barbier : Vie de Saint Athanase .

84- H . J . Breasted : The Dawn of Conscience, New York 1943 .

85- W. Budge : The Book of the Saints of the Ethiopian Church (translation of the Ethiopic Synaxarium) Cambridge 1928

86- O. H. E. Burmester : The Office of Genefluction on Whitsunday, pub. in " Le Muséon " , Tome 47, Louvain 1934 .

87- A. G. Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt, Oxford 1884 .

88- Costigan : " Sculpture and Painting in Coptic Art " , pub . in Le Bulletin de la Société d'Archeologie Copte, Tome III, Le Caire 1937 .

89- K. A. C. Creswell : " Coptic Influnces on Early Muslim Architecture " pub . in Le Bulletin de la Société d'Archeoligie Copte, Tome V le Caire 1939 .

90- Drescher : " A Widow's Petition " pub. in Le Bulletin de la Société d'Archeologie Copte, Tome X, Le Caire 1944 .

91- E . de Faye : Esquisse de la Pensée d'Origène , Paris 1925 .

92- J. Foster : Why the Church, London 1954 .

93- J. Foster : Beginning from Jerusalem, London 1959 .

94- Al. Gayet : L'Art Copte .

95- Abbé P. Guettée : La Papauté Schismatique .

96- Archimandrite V. Guettée : Histoire de l'Eglise, Paris & Bruxelles 1806 .

97- Sh. Hanna : Who are the Copts ? (3rd ed.) Cairo 1963 .

98- A. Harnack : Outlines of the History of Dogma translated by Edwin Knox Mitchell, Beacon Press, Boston 1957 .

99- H. Harnack : History of Dogma, translated by James Millar from the third German edition, pub. by Williams and Norgate, London 1897 .

100- Mgr. Héfélé : Histoire des Conciles, Paris 1869 .

101- R. P. de Hénaut : L'Egypte de Menès à Fouad I, Le Caire 1935 .

102- R. Payne : The Holy Fire, New York 1957 .

103- A. Lucot : Histoire Lausiaque (traduction) .

104- S. Lane - Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, Vth ed. London 1936 .

105- W. Muir : The Caliphate - its Rise Decadence and Fall, Edinburgh 1915.

106- H. Munier : Précis de l'Histoire d'Egypte Tome II, Première Partie.

107- H. Munier : La Géographie de l'Egypte d'Après les listes Coptes - Arabes, pub. dans Le Bulletin de la Société Archéologie Copte, Tome V Le Caire, 1939.

108- H. Munier : La Christianisme à Philoe, pub . dans Le Bulletin de la Société d'Archéologie, Copte, Tome IV, Le Caire 1938 .

109- Nau : Vie de St. Dioscore - traduction Francaise du Ms. Copte par Theopistus, pub. dans Le Revue Asiatique No. X. Tome II (Mars - Avril 1903).

110- J. Neale : History of the Holy Eastern Church .

111- Ch. Desroches - Noblecourt (en Concours avec l'Uneses, Le Centre Egyptien de Documentation sur l'Egypte Ancienne, et L'Institut Geographique National de Paris) : Temples de Nubie - 1963 .

112- Ch. d'Orléans : Les Saints d'Egypte .

113- Sbath: Mss. Arabes d'Auteurs Coptes, pub. dans Le Bulletin de la Société d'Archéologie Copte, Tome V, Le Caire 1939.

114- I. Simon : Fragment d'une Homélie Copte en l' Honneur de Samuel de Kalamon - pub. dans Miscellaneis Biblicis, vol . II Roma 1934 .

115- J. Simon : Le Monastère Copte de Samuel de Calamon, pub. dans Orientalia Christiana Periodica, 1935 .

116- G . Sobhy : Education in Egypt during the Christian Period & Among the Copts, pub. in Le Bulletin de la Société d'Archéologie Copte Tome IX, Le Caire 1943.

117- E. White, The Monasteries of Nitria and Scetis. New York 1933.

118- G. Wiet, Précis de l 'Histoire, d'Egypte, Tome II, Deuxième Partie .

119- H. E. Winlock and W. E. Crum : The Monasteries of Epiphanius at Thebes, part I, New York 1926 .

120- M. N. Zottenburg : Chronique de Jean de Nikiou (traduction) Paris 1883 .

121- Cuthbert Atchley & Wyatt .

122- P. N. Ure : Justinian and His Age (Penguin pub) . 1951.

123- Encyclopoedia Britannica - XIVth ed .

124- Encyclopédie des Sciences Religieuses Pierpont - Morgan Library, New York .

125- God. 578 (IX s) .

126- P. Van Cauvenbergh : Etude sur les Moines d'Egypte depuis le Concile de Chalcèdoine (451) jusqu'à l'invasion Arabe (641) . Paris - Louvain 1914 .

127- F. Nau : La Politique Matrimoniale de Cyrus (le Mocaucas) , pub. dans " Le Muséon " , 45 - Louvain 1932 Bibliothèque Nationale de Paris .

128- MS. Histoire 287- Fragment d'une Histoire Ecclesiastique, par un auteur Copte .

129- The Sunday Times Magazine (July 14th , 1963) .

130- Bulletin du Musée National de Varsoire IV - vol 1963 , No. 2.

131- Westcott : an article on Acacius in : " A. Dictionary of Christian Biography, Literature, & Doctrines " edited by Smith & Wac, pub. by G. Murray, London 1877.

132- Le Regime Foncier en Egypte depuis l'Epoque Grecque jusqu'au X. Siècle de Notre Ere - Thèse pour le doctorat par Reda Farag Bastouli Paris 28/6/62 .

١٣٣- « الامبراطورية البيزنطية » لحسين مؤنس ومحمود يوسف زائد وهو ترجمة لكتاب :

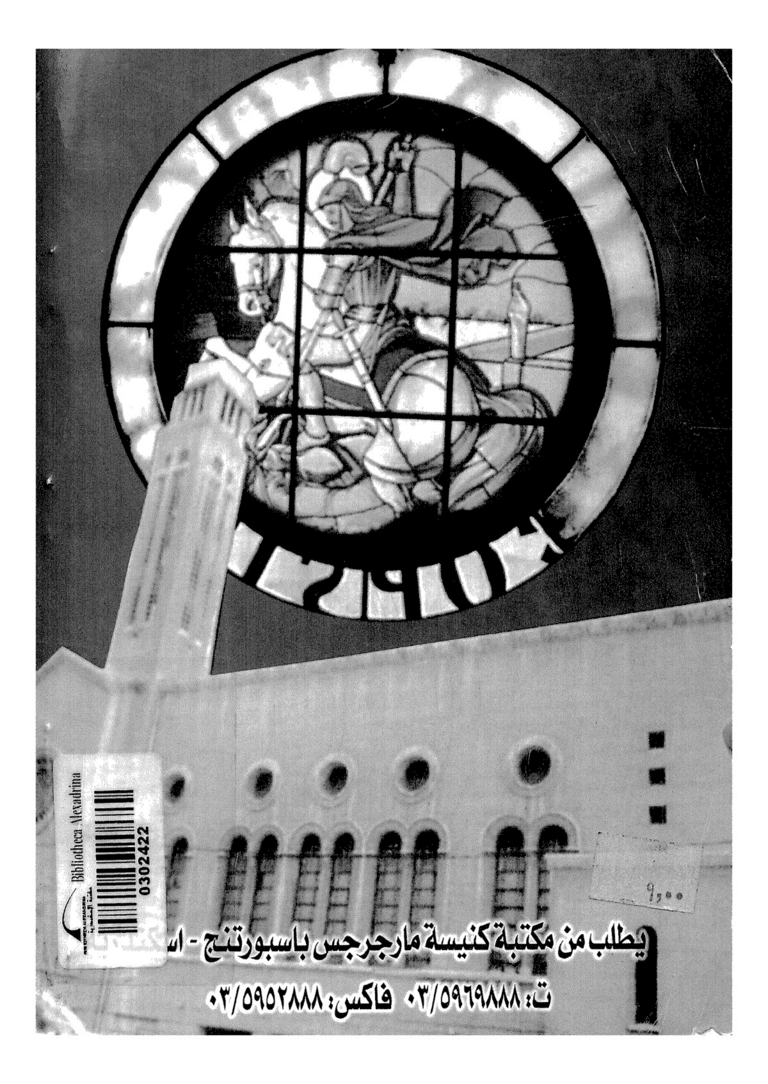
" The Byzantine Impire " by Norman Baynes (London 1946).

الفهرس

المطبعة: الكرنك
ت : ٤٨٦٢٩٨٠
الكمبيوتر: الكرنك
ت : ٤٨٧٢٧١١

أودع بدار الكتب تحت رقم ٤٦٠٢ لسنة ١٩٧٥





يطلب من مكتبة كنيسة مارجرجس باسبورتنج - اس
ت: ٠٣/٥٩٦٩٨٨٨ فاكس: ٠٣/٥٩٥٢٨٨٨
Bibliotheca Alexandrina
03302422
9,00